سَـــيّدات بيت النُّبـــوَّة

رَضِيَ ٱللهُ عَنْـــهن

الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن
بنت الشـــاطئ
أستاذ التفسير والدِّراسَات العليَا
كلية الشـــريعة بجَامعـــة القَرويّـــين ــــ المغرب

طبعة جديدة محـــررة
مع إضافات علمية للتوثيق والتمحيص

دار الريان للتراث

سيِّدات بيت النُّبُوَّة

رَضِيَ آللهُ عنهن

الطبعـة الأولـى
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

جميع الحقوق محفوظة

يطلب من

دار الريان للتراث

الادارة : ٣٥٠ شارع الأهرام - الجيزة تليفون / ٨٥٤٦٨٧ - ٨٥٢٠١١

القاهـــــرة : ١٧٧ شارع الأهرام - تليفون - ٥٣٦٥٩٩
معرض ٨ بجراج الأوبرا
٤٣ أ شارع رمسيس
١ شارع البورصة من شارع قصر النيل تليفون / ٧٧٧٥٩١
١ شارع أحمد سعيد - بالعباسية .
ميدان أحمد عرابى - سفنكس - المهندسين .

مصر الجديدة : ٢٢ شارع الأندلس - خلف المريلاند - تليفون / ٢٥٨٢٠١٤

الاسكندريـــــة :سيدى بشر - طريق الكورنيش - برج رامادا (الدور الأول)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

صَدَقَ اللهُ العَظِيم

بسم الله ، والحمدُ لله ، والصلاة والسلام على المصطفى خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللـــــهمَّ يَسِّـــــرْ وأَعِـــــنْ

هـــذه الطبعـــة ،

ليست من قبيل الإعادة لطبعات سابقة من تراجمى لسيدات بيت النبوة رضى الله عنهن ، بل تجديد لها وتمحيص وتنقيح وتهذيب إذ توالت طبعاتها فى بيروت ، فى سفر جامع لأجزائه الخمسة المتفرقة فى طبعات أولى لدار الهلال ثم دار المعارف بالقاهرة ، وقد عزَّ علىَّ ، والكتاب يطبع فى بيروت ، أن تَوقَّفَ عن النمو والتمحيص . و لم يُتح لى أن أراجع تجاربه المطبعية ، رغم إلحاحى على ضرورة هذه المراجعة ، لأستدرك فواتا وأضيف إلى مادته جديدا مما وقفت عليه فيما أتابع من دراسات إسلامية .

فكان أن عكفت على إعداد هذه الطبعة الجديدة ، بما استدركت على سابقاتها من أخطاء وأوهام وفوات ، وما وثَّقتُ من مرويات وأخبار جاءت مرسَلة ، وما أضفتُ إلى مصادرى من أصولٍ لم تكن مُيَسَّرة لى من قبل .

* * *

والسيدات المترجم لهن فى هذه الطبعة ، هن اللواتى سبق أن ترجمت لهن فى خمسة أجزاء مستقلة :

الأول : كتاب « أم النبى » عليه الصلاة والسلام . وهو كتاب غير مسبوق بآخر فى موضوعه ، فى المكتبة العربية والإسلامية . وقد صحبتها فى : بيئتها وميراثها ، ونشأتها بمكة فى جوار البيت العتيق ، وزواجها من « عبد الله بن

عبد المطلب » زين الشباب الهاشمى ، وحملها ، وترملها ، ووفاتها ، وأمومتها الخالدة لسيد البشر الذى نراه فى هذه الدراسة لأمه : ابنًا بارًا ، يضع الجنة تحت أقدام الأمهات .

الثانى : كتاب « نساء النبى » ﷺ ، ترجمتُ فيه لأمهات المؤمنين رضى الله عنهن ، بما يجلو ملامح شخصياتهن ، وحياتهن فى البيت الكريم ، سكن المصطفى ﷺ ، وملاذه ومأواه .

بقدر ما اجتليت فيه شخصيته عليه الصلاة والسلام ، زوجًا قدوة وبشرا رسولا .

الكتاب الثالث : « بنات النبى » ﷺ : فى بيتهن الأول ، ثم فى الحياة الزوجية لكل منهن ، ومن خلال هذا العرض الدقيق لسيرتهن وشخصياتهن ، تجلت شخصية المصطفى عليه الصلاة والسلام ، مثلا أعلى فى أبوته لبنات أربع ، وُلِدْنَ جميعا قبل المبعث ، فى بيئة فُتِنتْ بالبنين .

وبهذه الكتب الثلاثة ، كان لى حظ التدبر والدرس لهذا الجانب من سيرته ﷺ : ابنًا بارا وزوجا قدوة وأبًا رسولا .

ثم تابعتُ ميراثه الطيب فى :

الكتاب الرابع : « السيدة زينب عقيلة بنى هاشم » بنت الإمام على كرم الله وجهه ، من أمّ أبيها الزهراء رضى الله عنها . فصحبتُها فى حياتها الحافلة ، من مهدها فى البيت النبوى ، وزواجها من « عبد الله بن جعفر الطيار » رضى الله عنهما ، ومع أبيها الإمام على كرم الله وجهه ، فى مشاهده وبلائه بالفتنة الكبرى . ثم مع أخيها الإمام الحسين رضى الله عنه ، فى رحلة الموت إلى كربلاء ، ومشهدها مصرعه ومصارع آلها ، آل النبى ﷺ ، على الساحة المشئومة ، ثم فى موكب الأسرى والسبايا من بنات النبى ، وموقفها المشهود الذى أرّق ضمير أمته إلى اليوم .

والكتاب الخامس : « السيدة سكينة بنت الإمام الحسين » ، رضى الله عنهما صحبتها فيه ، من طفولتها فى بيت أبيها الإمام ، وفى دوامة الأحداث الشرسة التى

بلغت ذروتها الفاجعة يوم الطف . ثم فى حياتها الزوجية والاجتماعية ، أديبة ناقدة . وهى الحياة التى راجت فيها مقولات خاطئة ضالة ، لم تصح فى منطق ولا فى تاريخ .

* * *

عسى أن تكون هذه الطبعة الجديدة لتراجم سيدات بيت النبوة ، رضى الله عنهن ، أقرب إلى ما أرجو من تمحيص وإتقان .

والله سبحانه من وراء القصد ﴿ **وهو يهدى السبيل** ﴾ .

صدق الله العظيم

مصر الجديدة ١٤٠٧ هـ
١٩٨٧ م

فى هذا المجلّد الجامع

الكِتَابُ الأول : أُمّ النَّبى ، عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام

الكِتَابُ الثانى : نسَاءُ النَّبى ، عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام

الكِتَابُ الثالث : بناتُ النَّبى ، عَلَيْهِ الصَّلاة وَالسَّلام

الكِتَابُ الرابع : السيّدة زينب ، عَقيلة بنى هَاشِم
رَضِىَ الله عَنهَا

الكِتَابُ الخامِس : السيّدة سكينة ، بنت الإمام الحسَين
رَضِىَ الله عَنهمَا

الكتــابُ الأول

أُمُّ النَّـــبيِّ

(عليْهِ الصَّلاة والسَّلام)

« إنما أنا ابن امرأة من قُرَيْشٍ تأكل القديد »

محمد ، رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منـــــاجاة

أماه « آمنة » . . .

ما تلوتُ من وحى السماء إلى وحيدك الحبيب ، آية بشريَّته :

﴿ إنما أنا بشرٌ مثلكم . . . ﴾ ،

﴿ قُلْ سبحان ربى ، هل كنتُ إلا بشرًا رسولا ﴾ ،

إلا ذكرتُ أن نبينا ، المصطفى ، ﷺ ، هو الإنسان الذى حملتِه جنينًا فى رَحِمِك ، ووضعتِهِ كما تضع كل أنثى من البشر . . .

ولا تدبرت معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ ،

إلا تنبهت إلى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهاتٍ ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى وضعت الرسل عليهم السلام ، من « نوح » إلى « عيسى بن مريم » و « محمد » المصطفى الهاشمى ، خاتم النبيين عليهم السلام .

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » فيحقر كبرياء الأباطرة والملوك ، ويسمو بأمومتك إلى أفق لا يتطاول إليه ترف الغنى ولا شموخ الجاه ، إذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح إنسانيته ، وآية محبته ، وموضع إجلاله واعتزازه .

* * *

أماه « آمنة » . . .

هو أبدًا عِزُّ الأمومة الذى خلَّد واهباتِ الحياة على الدهر ، وصانعات التاريخ

منذ الأزل وإلى الأبد ، وقد أكد وحيدُك العزيز الأمومة فيك ، حين قال :

« الجنَّة تحت أقدام الأمهات » .

وهو أبدًا فخر الأنوثة التى حَمَت سرَّ الوجود فى هذا الكون ، وحفظت حياة الإنسانية فى هذه الدنيا ، وحملت أجنَّة البشرية وهنًا على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق الناس بإكرامه : « أمك . . . ثم أمك . . . ثم أمك ، ثم . . . أبوك » ؟ ! وحين جاءه أحد أصحابه يبتغى أن يخرج مجاهدًا معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما عرف ولدك ﷺ أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم رِجْلَها فثَمَّ الجنة ! . .

* * *

أماه « آمنة » . . .

عن مجد الأمومة فيك وعزة الأنوثة ، أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى مَنَّ الله عليها بوليد وحيد ، حملت الملايين رايته فى أرجاء الأرض على مرِّ الزمن . . . .

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصولُ الأمجاد . . .

فقير ، حَيِيتْ باسمة الدُّنَى وفاضت الخيرات .

وماذا كنت تبلغين من ذلك يا أماه ، لو أنكِ كنت ملكة متوجة ، أو فارسة بطلة ، أو عالمة حجة ، أو زعيمة قائدة ، ولم تلدى « محمداً : رسول الله » ﷺ ؟

وأى عمل لك يا أماه أجل وأمجد ، من أنكِ كنت المنجبة لهذا القائد المصطفى ؟ وهأنذى أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفَّت بها من أمومتك أضواء باهرة السنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن إطالة النظر إليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم « محمد » الذى أعَزَّ البشرية بآيته العظمى : ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا** ﴾ ؟

المبحث الأول

سَــــيّدة الأمّــهات

ـ هَذِهِ السّيرة ومصَادِرُها .

ـ أنوثَــــة وأمومَــــــة .

ـ أمّــهَات الأنـــبيَــاء .
عَلَيهم الســلام

هذه السّـــيرة ومصـــادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة السيدة « آمنة » وأنا أعى أتم الوعى ، نقصَ المصادر والمرويات عن تلك الأم المنجبة ، لكنى قدَّرتُ أنى إنما أُحدث عن والدة الرسول العظيم ، وأم المصطفى الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة نوعه ، ومن ثَم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى حملته رَحِمُها ، وغذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » ، فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها يجلوه تدبرى سيرةَ ولدها العظيم .

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرًا هامًا نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركتْ فيه من أثر واضح ، وما نقلت إليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلاً بعد جيل ، وما حملته إليه من خصائص الأُرومات الأولى التى اعتز بالانتساب إليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، إن الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشًا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار .

أو قوله :

« أنا ابن العواتك من سُلَيْم »(١)

* * *

ثم كان إلى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء « آمنة » وأجدادها نساء ورجالاً ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ،

(١) المحبَّر لابن حبيب : العواتك اللواتى ولدن رسول الله صلى الله عليه وسلم / ص ٤٧ .

وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن إليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الأصول ومجرى الوراثة ، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها . . .

ذلك أن « آمنة » عطاء بيئة ووراثة ، قد جرت فى عروقها دماء الأصول الأولى ، ونمتْها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

من ثمَّ ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها وسجاياها فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فإذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة تلوّن شخصيتها بما يجعل ولدها كائنًا عجيبًا لم ينْمِه عرق ، ولا غذّته وراثة ، ولا نهضت به بيئة . . .

* * *

على أنى حين مضيت فى تتبع الأصول البعيدة لآمنة ، ولمح المعالم الواضحة لدنياها ، ألفيتُ إلى جانب ما يطمئن إليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدًا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من واديه . . . آثار يحرص كثير من الدارسين على تجاهلها ، إذ يرون فيها طابع الخيال وظلَّ الوضع . وفاتهم أن ينتبهوا إلى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ، وتُكمل ما تتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع .

تلك الآثار ، هى ما خلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم نبىٍّ ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم الصافية ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ، ولا خدعوا ولا زيفوا ...

ولغيرهم من أهل التحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى الصارم ، وراء دنيا الوجدان ، وبعيدًا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والإيمان .

ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا بإملاء المادة والواقع ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والإيمان . . .

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يَعْدُوَانِ على حقيقة ولا يجوران على صواب ولا يُتَّهمان بكذب ، فإذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستنبئًا الوراثة ، مستلهمًا البيئة ، متتبعًا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو مُحِقٌّ صادق غير مُتهَم . . .

وإذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال ، بلسان الوجدان ، مفسرًا بذلك ما يشعر به من عظمتها ، معبرًا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى وزنه ، وموضعها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لا يسىء إلى الواقع التاريخى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يُحَدِّث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما عشق من بطولة ، وما أحس من الانفعال بجمالٍ تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لا يشركه فيها غيرهُ ممن ليسوا من معدنه ، ولا هم بمُيَسَّرين للعروج إلى آفاق عالمه الوجدانى المشرق ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترامَ . . . .

* * *

وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن السيدة « آمنة » : لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بمرويات أخرى قد يغض منها الدارس المحدَث أو المؤرخ العصرى ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم المصطفى الحبيب » كما شاءت قلوبهم المحبة ، وكما صورتها لهم رؤاهم الملهَمَة فى تأملاتهم الروحية . فقدموا لنا بذلك كله ، صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وأعطونا تفسيرا وجدانيا صادقا للحياة كما فهموها ، وعانوها . . .

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم ، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها إليها ، وكيف تَمثَّلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها عبر القرون والعصور والأجيال . . .

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها ــ تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدَثين من أفانين الخيال ــ تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، وتحليلهم النفسى لشخصيتها . . . وأنَّى لمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما ينشد من تاريخ محقق ؟

* * *

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأتُ القارىء لفهم هذا المنهج : لقد بدأت أول ما بدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن إليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب » .

وثانى الأمرين مما عمدت إليه فى هذه السيرة ، هو ما يحلو لكثير من الدارسين ــ المتفرنجة ــ أن يسموه أساطير وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك المرويات ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم النبى ﷺ ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث معينًا لى على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرًا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها . . . كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورًا نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها . وهى

مادة للتاريخ الحق ، وإن أخذت أحيانا طابع الخيال المجنح ، والسرد القصصى الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال .

بل هى فى نظر العلم ، محكومة بالمنهج الإشراقى الذى لا يستغنى عنه التفسير التاريخى ، إلا أن نجرد الحياة الإنسانية من وجدانها ، ونمسخها مادة جامدة ، عمياء البصيرة ، صماء القلب ، معطلة العواطف والضمير . . .

* * *

أنوثـــة وأمـــومـــة

« أنا ابن العواتك من سُليم »
(حديث شريف)

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن كُبرى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة إلى عهد « آمنة » .

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ــ فى خير حالاتها ــ متاعًا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والاستبداد ما أنقذها منه الإسلام . وعلى الرغم مما نُقل إلينا من أخبار تدل على ما كان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، إلا أن تلك الأخبار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء إلى الأبناء ، وما إلى ذلك من مظاهر الضعة والهوان .

* * *

ولا نقول إننا سنحاول هنا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين الأئمة والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتدوين ما تناقلته الأخبار من مآثرها . . . وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذاك الذى دوَّنوه ، بعض ما يصحِّح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة العربية قبل الإسلام ، وأن نضع إلى جانب المرويات المشهورة عما لحق بها من ظلم

وعسف وهوان ، بعض ما تحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء وافتُدِيت بالمهج والأرواح . . .

ويعنينا هنا بوجه خاص ، ما اختص بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءًا يكشف عما لـ « آمنة » من فضل فى إنجاب خاتم الرسل النبيين عليهم السلام ، وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال معتزًا بأمهاته فى الجاهلية : « أنا ابن العواتك من سليم »[1]

* * *

يَلفت الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرصُ العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمالُ النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مَدرَجة الشرف » .

وقال شاعرهم[2] :

وأولُ خُبثِ الماء خَبَثُ ترابه   وأولُ خبثِ القوم خبثُ المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » ـــ الراوية الصدوق الحجة ، وأحد السبعة القراء الأئمة ـــ عن أحدهم ، قال :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى ولدى منها » . قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر إلى أبيها وأمها فإنها تجرُّ بأحدهما » .

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت إليكم صغارًا وكبارًا وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ » . فقال : « اخترت لكم من الأمهات من لا تُسبُّون بها »[3]

---

(١) ابن حبيب : (المحبر) ٤٧ .

(٢ ـــ ٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار : ٤ / ٣ .

ومثله ما أنشده الرياشي لبنيه :

وأول إحساني إليكم تخيُّرى لماجدةِ الأعراقِ بادٍ عفافُها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، مما يفسر لنا كراهتهم للسباء :

فربما تزوج الرجل بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مهانة الأسر ومعرَّته . من ذلك ما رووه من أن رجلاً من العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يومًا : « أزِرْنى أهلى ليذهب عنى ذل السباء » .

ففعل . . . فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه .

مثل ما فعلت « سَلمى الغِفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » من شعراء الجاهلية الصعاليك الفرسان . أصاب « سلمى » فى إحدى وقائعه ، وكانت ذات جمال ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادًا ، وحلّت من نفسه وقلبه أعز مكان ، إذ كان شديد الحب لها والحرص على إكرامها ، لكن ذلك لم يُنسها مذلة السباء ، فقالت له يومًا :

« ألا ترى ولدك يُعيَّرون بأمهم ويُسمون بنى الأخيذة ؟ » قال : « فماذا ترين ؟ » قالت : « أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى إليك ؟ » .

فاستجاب لها ، وهو لا يشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه .

وخرج بها فحجَّ ــ وكان قد أسلم ، لكنْ دون صحبة ــ ثم عرّج على أهلها زائرًا ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الإقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما إنى لأقول فيك ــ وإن فارقتُك ــ الحقَّ : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سِتْرَها على بعلٍ خيرٍ منك وأغضَّ طرفًا وأقلَّ فحشًا

وأجودَ يدًا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مرّ عليّ يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلّى من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمةُ عروة كذا وكذا . والله لا أنظر إلى غطفانية أبدًا ، فارجع راشدًا إلى ولدك وأحسن إليهم » .

فانصرف عنها حزينًا حسيرًا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمر ثم تكنفونى عداةُ الله من كذب وزور[1]

* * *

ولا أكاد أعرف ــ فيما قرأت ــ أُمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرِّد » فى « الكامل »[2] أبياتًا للسليك ابن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود إماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعًا ، كرامة لأمِّه ــ وكانت جارية حبشية ــ فذلك قوله :

أشاب الرأسَ أنى كلَّ يوم أرى لِىَ خالة بين الرحال
يشق علىَّ أن يلقين ضيما ويعجز عن تخلصهن مالى

* * *

ولأبناء العقائل الكريمات حديث ــ أشبه بالقصص ــ عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ، ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلاً ، ما رواه صاحب (الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يومًا لجلسائه :

---

(١) الأغانى ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب : مع ابن اسحاق فى السيرة الهشامية : ٣ / ٢٠١ والقصة مبسوطة فى (الروض الأنف) وفيه : « كان يقال : من قال إن حاتمًا أسمح العرب ، فقد ظلم عروة بن الورد » .

(٢) بغية الآمل من كتاب الكامل : ١ / ٢٥١ .

« هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أُمُّهُ من خدمة أُمِّى ؟ » .

فقالوا : « نعم . . . أُم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم ، سيد قومه وليث كتيبتهم » .

فأرسل « عمرو بن هند » إلى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أُمُّه أُمَّه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت « ليلى » فى ظعن منهم .

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق الملك ، وأُدخلت « ليلى » إلى « هند » فى قبة إلى جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب .

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أُمَّه أن تُنحى الخدَم إذا دعا بالطُرف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ـــ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق .

فقالت « ليلى » فى نفور وأنفة : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . . .

فأعادت « هند » عليها وألحت ، وإذ ذاك صاحت ليلى :

ـــ وا ذلاه . . . يا لَتغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم فى عروقه ، وانتفض قائلاً : « لا ذلَّ لتغلب بعد اليوم ! » .

ثم نظر حوله فإذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب إليه وأطاح به رأس « ابن هند » .

والروايات تقول إنه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلاً ، وفيها :

أبا هندٍ فلا تعجلْ علينا وأنظِرْنا ، نخبِّرْك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ونُصدِرُهن حُمرًا قد رَوِينا
ألا لا يجهلَنْ أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عَمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا! متى كنا لأمِّك مقتوينا ؟
على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشىء بعدهن ولا حيينا

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال .

إلى مثل ذلك ، بلغت غيرتهم على الأمومة . وما نمنع أن تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمار وإضافات الرواة ، لكنها لا تفقد — فى أى وضع رضيناه لها — دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهلية .

* * *

وقد شهد الرواة — إلى جانب هذا — للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة بنيها[1] .

ويروون فى ذلك ديوان أشعارهن فى ترقيص أطفالهن — ممن دخلوا التاريخ بعد أن شبُّوا وبلغوا أشدهم — معبراتٍ فى هذه الأشعار ، عن طموحهن البعيد ، إلى ما يرجون لأبنائهن من مجد وعز ، وشرف ونباهة .

ويعترفون بأن « حاتمًا الطائى » إنما ورث الجود عن أمّه ، ويروى صاحب « الأغانى »[2] أنها كانت لا تُبقى على شىء ، فلما رأى اخوتها إتلافها أمسكوا عنها مالها . حتى إذا ظنوا أنها وجدتْ أَلم ذلك ، أعطوها قطعة من إبلها ، فجاءتها امرأة من « هوازن » تسألها ، على ما تعودت أن تفعل كل

---

(١) أمالى القالى : ٢ / ١١٨ ط بولاق .

(٢) ١٦ — ٩٣ ط الساسى — وانظر كذلك « عيون الأخبار » لابن قتيبة : ١ — ٣٣٦ ط دار الكتب .

سنة ، فقالت لها : دونك هذه الإبل فخذيها ، فوالله لقد عضّنى الجوعُ فلن أضيع سائلاً . وأنشدت :

لعمرك قِدْمًا عضَّنى الجوعُ عضة فآليتُ ألا أمنع الدهر جائعـا
فقولا لهذا اللائمى : اليومَ أعْفِنى وإن أنت لم تفعل ، فعُضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم سوى عذلِكم أو عذلِ من كان مانعا؟
وماذا ترون اليـومَ إلا طبيعـةً فكيف بتركى يا ابنَ أمِّ الطبائعا !؟

* * *

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة ، فنوّهوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب :

وقد عقد أبو جعفر بن حبيب فى كتابه (المحبر) بابا للمنجبات ، وقال : « ولم تكن العرب تُعد منجبةً لها أقل من ثلاثة بنين أشراف »[1] منهن :

* « فاطمة بنت الخرشب الأنمارية » : أنجبت لزياد بن سفيان العبسى ، أبناءه « الكَمَلة » : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس .

قيل إنها سئلت يومًا : « أى بنيك أفضل ؟ . . »

فبان عليها التردد ، وهى تقول فى حيرة : الربيع ، لا . . . بل قيس . . . ثم قالت : ثَكِلْتُهم إن كنت أدرى أُيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرَغة لا يُدرَى أين طرفاها . .

* « أم البنين بنت عامر بن عمرو » : أنجبت لزوجها مالك بن جعفر بن كلاب : مُلاعبَ الأسنة أبا براء بن مالك ؛ وطفيلَ الخيل ، والد عامر بن

---

(١) المحبر : ٤٥٨ ــ ٤٦٣ ، مع ابن حزم : جمهرة الأنساب ــ ٢٣٩ ط أولى ذخائر والأغانى : ١٦ / ٢٠ .

الطفيل ؛ ومُعَوِّدَ الحكماء معاوية بن مالك ؛ ونَزَّال المَضِيق سُلمِى بن مالك ؛ وربيعَ المُقترين ربيعة بن مالك ، والد لبيد[1] .

* « عاتكة بنت مرة بن هلال السلمية » : أنجبت لزوجها عبد مناف بن قصى بن كلاب : هاشما ، جد عبد الله والد المصطفى ﷺ ، وعبدَ شمس ، ومن ولده بنو أمية ؛ والمطلبَ بن عبد مناف ، ومن ولدِه الإمام الشافعى محمد ابن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . وهى إحدى العواتك السلميات ، أمهات النبى ﷺ[2] .

* « أم قِرفة بنت ربيعة بن بدر » أم السادة النجباء بنى مالك بن حذيفة ابن بدر « كانت أعز العرب . كانت إذا كان بين غطفان تشاجر بعثت خمارها فعُلِّق بينهم فاصطلحوا . . » [3] .

* « أم الفضل ، لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزَن الهلالية » : أنجبت للعباس بن عبد المطلب بن هاشم : الفضلَ بن العباس ، وبه كان يكنى — ردف رسول الله ﷺ ؛ وعبدَ الله بن عباس ، وفى ولده أسرة بنى العباس ؛ وعبيدَ الله ، وقُثَم ، ومعبدا ، وعبدَ الرحمن ، وأم حبيب بنت العباس ، تزوجت فى بنى مخزوم[4] . قال الشاعر :

ما ولدتْ نجيبة من فحلِ كسبعةٍ من بطن أم الفضل

* وأم لبابة الكبرى هى « هند بنت عوف بن زهير » : أم الأخوات المؤمنات ، رضى الله عنهن :

---

(١) ابن حزم : جمهرة الأنساب ٢٦٨ / أولى ، والمحبر : ٤٥٨ .

(٢) الجمهرة : ١٢ — وانظر معها : عاتكة بنت هلال السلمية ، وهى عمة عاتكة بنت مرة بن هلال ، وأم بنى هاشم بن عبد مناف . وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال ، أم وهب بن عبد مناف ابن زهرة ، جد المصطفى لأمه (المحبر لابن حبيب ، والروض الأنف جـ ١) .

(٣) المحبر : ٤٦١

(٤) جمهرة الأنساب : ١٥ — ٣٢ مقابلة على : نسب قريش لأبى عبد الله المصعب الزبيرى : ٢٥ — ٣٤ ط أولى ذخائر .

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن ، شقيقة أم الفضل . ولبابة الصغرى بنت الحارث بن حزن ، أم خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى . وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين . وأسماء بنت عُمَيس الخثعمية : تزوجت جعفر الطيار بن أبى طالب فولدت له عبد الله وعونا ومحمدا . ثم خلف عليها بعده أبو بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الإمام على بن أبى طالب فهى أم ولده يحيى بن على[1] .

« ريطة بنت سعيد بن سهم ، الفهرية السهمية »[2] : أنجبت للمغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، بنيه الأكابر : هاشم بن المغيرة ، جد الفاروق عمر لأمّه . وهشام بن المغيرة ، أرخت قريش بوفاته قبل الإسلام . وأبا ربيعة ذا الرمحين ، جد الشاعر عمر ، بن عبد الله ، بن ربيعة . وأبا أمية بن المغيرة ، زاد الركب ، والد أم المؤمنين أم سلمة . وخداشا وزهيرا وتميما ، والفاكه — زوج هند بنت عتبة ، قبل أبى سفيان صخر بن حرب — وفى بنى المغيرة — وأمهم ريطة ، قال « عبد الله بن الزبعرى » ميميته المشهورة التى مطلعها :

ألاَ لله قَـــــوْمٌ   وَلَـدت أختُ بنى سـهم

* * *

وليس ببعيد من مجد الأمومة عند العرب ، أن عددا غير قليل من مشهور قبائلهم وبطونهم ؛ نزعوا إلى أمهاتهم وانتسبوا إليها . منهم على سبيل المثال لا الحصر : بنو خِندف ، ليلى بنت حلوان بن عمران القضاعية .

انتسب إليها بنو زوجها إلياس بن مضر بن معد بن عدنان : مدركة ، وطابخة ، وقمعة[3] .

---

(١) نسب قريش : ٨٠ — ٨٣ . وانظر الأخوات المؤمنات فى نساء الاستيعاب ، والإصابة .

(٢) نسب قريش : ٣٠٠ . وانظر معه فى أبيات ابن الزبعرى : نوادر القالى ٣٠٠ ، والصاهل والشاحج لأبى العلاء : ٧٠٤ — ٧٠٥ ط أولى ذخائر .

(٣) جمهرة الأنساب : ٩ — ٢٣١ ونسب قريش : ٧ — ٤٤٨ والسيرة النبوية لابن هشام ١ / ٧٨ .

أُمُّ خندف : « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى ينسب إليها : حِمَى ضرية .

بنو مزينة ، بنت كلب بن وبرة ، إليها ينتسب ولد عثمان وأوس ، ابنى عمرو بن أد[1] .

بنو جُدَيلة ، بنت مر بن أد ـــ وقيل بنت مدركة بن إلياس ، أم بنى فهم وعدوان ، ولدى عمرو بن قيس عيلان بن مضر[2] .

بنو الطفاوة ، بنت جَرم بن زبان . إليها ينتسب بنو باهلة وغَنِى ، ولدى أعصر بن سعد بن قيس عيلان[3] .

بنو باهلة ، بنت صَعْب بن سعد العشيرة المذحجية :

أحضنت كل أولاد زوجها مالك بن أعصر ، منها ومن غيرها ، فكلهم إليها ينتسب[4] .

بنو قَيْلة ، بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة الغسانى :

أم الأوس والخزرج ، ولَدى حارثة بن ثعلبة بن عمرو الأزْدى . فإليها تنتسب كل بطون الأنصار[5] .

بنو بجيلة ، بنت صعب بن سعد العشيرة :

إليها ينتسب كل ولد زوجها عمرو بن الغوث ، أخى الأزْد . ومنهم قبائل : أنمار ، وخثعم ، ووداعة ، وعبقر ، والغوث ، وأشهل ، وطريف . . .[6] .

بنو عاملة ، القضاعية ، ولد الحارث بن عدى بن مرة بن أدد[7] .

ومن الطريف أن « مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم ، ولد أحد عشر رجلا تفرعت منهم قَبائل تميم وبطونها . وانتسب منهم إلى أمهاتهم :

(١ ـــ ٣) جمهرة الأنساب : ١٩٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ . على التوالى . مع المحبر : ٤٥٦ ـــ ٤٦٣ .

(٤ ـــ ٥) جمهرة الأنساب : ٢٣٣ ، ٣١٢ ـــ ٣٤٧ على التوالى .

(٦ ـــ ٧) جمهرة الأنساب : ٣٦٤ ـــ ٣٦٩ ، ٣٩٤ .

بنو الصحارية : دارم وربيعة وكعب ، أبناء مالك بن حنظلة .

بنو العدوية : أم زيد والصُدَى ويربوع ، أبناء مالك بن حنظلة .

بنو طهية ، بنت عبشمس بن سعد بن زيد مناة . أم الطهويين ، ولد أبى سود وعون ابنى مالك بن حنظلة .

بنو حُطَّى ، أم جُشَيش بن مالك بن حنظلة .

بنو بَشَّة ، أم بنى سدوس بن دارم .

بنو عفراء بنت عبيد بن ثعلبة الأنصارية النجاوية ، الصحابة البدريون السبعة : معاذ ومعوذ وعوف بنو الحارث بن رفاعة ، وخالد وإياس وعاقل وعامر ، بنو البكير بن عبد ياليل[1] .

وبنو مُنْيَة ، أم يعلى بن منية ، أبوه أمية بن أبى عبيدة بن همام ، من ولد زيد بن مالك بن حنظلة[2] .

ومن الملوك العرب ، من انتسبوا إلى أمهاتهم : كعمرو بن هند ، أبوه المنذر بن ماء السماء ، ملك الحيرة . وماء السماء أم الملوك المناذرة ، هى ماوية بنت عوف بن جشم .

وكثيراً ما كان الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم : قال « حذيفة بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل « قصى » على قريش :[3]

ولا تنس ما أسدى ابن « لُبنى » فإنه
قد آسدى يدًا محقوقة منك بالشكر

---

(١) المحبر : ٤٥٩ ، مع تراجمهم فى الأصابة ، ومشاهدهم رضى الله عنهم فى السيرة النبوية وحروب الردة .

(٢) جمهرة الأنساب : ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) السيرة ١ / ١٣٩ .

وأمُّك سِرٌّ من خزاعة جوهر
إذا خصَّل الأنسابَ يومًا ذوو الخبر

إلى سبأ الأبطال تنمى وتنتمى
فأكرِمْ بها منسوبةً فى ذُرا الزُّهر

وقال « بشر بن أبى خازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام الطائى » :

إلى أوس بن حارثة بن لام
ليقضىَ حاجتى ، ولقد قضاها

فما وطىء الحصا مثلُ ابن « سعدى »
ولا لبس النعال ولا احتذاها

ولأبيات بشر فى أوس ، قصة صادقة الدلالة على اعتراف القوم بما للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قومًا أغروا بشر بن أبى خازم بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من يأتيه به بالغًا ما بلغ ثمنه ، فلما جىء به خيَّره أوس بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله .

ثم دخل « أوس » على أمِّه « سعدى » فكرهت رأيه ، وأمرته أن يحسن عطاءه ففعل ، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمدائحه فى ابن « سعدى » وأقسم لا يمدح أحدًا غير « ابن سعدى » ما عاش[1] .

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن إسحاق » فى « السيرة »[2] عن دور المرأة فى حلف المطيِّبين الذين كان بين بنى عبد مناف ومن انضموا إليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف

(١) انظر القصة بالتفصيل فى كتاب الكامل للمبرد « بغية الآمل : ٣ / ٥٤ » — وتاريخ ابن الأثير : ١ / ٢٢٩ — وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠ .
(٢) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام : ١ / ١٣٩ ، والروض الأنف للسهيلى : ١ / ١٥٣ ط القاهرة ١٩٣١ هـ — ١٩٧١ م .

جفنة مملوءة طيبًا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا الكعبة توكيدًا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا .

ونقل « السهيلى » أن الزبير ـــ هو ابن بكار ـــ ذكر فى موضعين من كتابه ، أنساب قريش ، أن التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه ، عبد الله بن عبد المطلب .

* * *

وأكثرنا يعرف للعرب حرصهم المفرط على الأنساب وولعهم بذكرها من قديم ، فكان النسب عندهم علمًا يعنى به الحُفاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى ، قيل : إنه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » ، رضى الله عنه : « كان أنسب العرب » .

نعرف هذا . لكنا حين يُذكر النسب ، يتجه تفكيرنا غالبًا ، إلى الآباء والأجداد دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا ذكرهن ، وتكفى إلمامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات .

وهذه العناية غير مستغربة من قوم كان لهم مثل ذاك الحرص على النسب ، والاعتزاز بالأصالة ، والمباهاة بالخئولة .

ظل ذلك فيهم إلى ما بعد الإسلام بقرون ، حتى لتسمع « جرير بن عطية » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » قائلاً :

فما الأم التى ولدت قريشًا بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم وما خال بأكرم من تميم

قال ابن هشام : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم

النضر ـــ والنضر هو جدُّ قريش : حفيده فهر بن مالك بن النضر هو قريش[1] » . .

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة النبوية ، إلا عَجِب لعنايتهم البالغة بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد .

وانظر كتاب « تسب قريش للمصعب الزبيرى » وكتاب « جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى »[2] لترى إلى أى حد عُنى النسابون بالأمهات .

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم وأنزلوها منزلة الهوان ، ولا هكذا يكون سلوك قوم ألفوا أن يئدوا بناتهم على نطاق واسع ، وأن يرث الابن الأكبر زوجة أبيه دون أن يكون لها من أمرها شىء .

* * *

على أنا لا نريد أن ننفى كل هذا الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية ـــ فى بعض الحالات ـــ من ظلم أو استبداد ، لأننا إن فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ما ظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن إليه من مكانة .

ثم فى ﴿ القرآن الكريم ﴾ قَسَمٌ بالموءودة إذا سئلت ﴿ **بأى ذنب قتلت** ﴾[3] . وكتب التاريخ العربى حافلة بما كان من ذاك ، لكنا نعرف أن ذلك لم يكن عامًا بين العرب ، ونكره أن ننظر إلى المرأة العربية من جانب واحد ، بل لعلنا إذا قسنا ما بلغنا من أخبار تكريمهن وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، إلى ما روى عن مظاهر هوانهن ، لرجحت الأولى رجحانًا ظاهرًا ، وبخاصة إذا قدّرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون وعصور . . .

(١) السيرة ١ / ٩٦ ط الحلبى . ونسب قريش : ٨ .

(٢) نشرتهما دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب .

وفى مقدمة ابن حزم لكتابه الجمهرة ، تنويه بعلم النسب والمأثور فى فضله وقيمته .

وانظر كتب الأنساب ، فى (فهرسة ابن النديم ، وكشف الظنون لحاجى خليفة ، وفهرسة ابن خير) .

(٣) بمزيد بيان وتفصيل ، فى كتابنا « بنات النبى » عليه الصلاة والسلام .

أمهات الأنبيـــاء

عَلَيـــهم السَّـــلام

بقى هناك أجَلّ ما يُذكر عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة » أم النبى العربى ﷺ .

ذلك أن نرجع إلى الرسالات السماوية الكبرى لنرى الأمهات فى حيوات الأنبياء الأربعة :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعًا أزكى الصلاة والسلام .

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم ــ عليهم السلام ــ قد عُهد بهم فى طفولتهم إلى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت إلى جانبه فقد الأب أو غيابه . . . .

غير أنا نرى الأمر طبيعيًا ، لا غرابة فيه ولا مصادفة ولا اتفاق . . . إذ الأمومة فى عاطفتها السخية وإيثارها الباذل ، أقرب إلى أن ترعى أصحاب الرسالات الدينية المصطَفَون لهداية البشرية .

وما كانت الرسالات التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها الأصيل :

﴿ فِطرةَ الله التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ﴾ .

أمّ اسماعيل

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ
غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (سورة إبراهيم)

فى صحيح البخارى من قصة « هاجر أم اسماعيل » ما أجمله (القرآن الكريم) فى آيات متفرقة ، على المعهود من بيانه المعجز ، فى التركيز على جوهر الموقف ومناط العظة والاعتبار ، دون تعلق بالتفصيلات الجزئية . لقد آثر الله تعالى هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وإنقاذه من الهلاك ، إذ تركهما أبوه « ابراهيم » بوادٍ قفر غير ذى زرع ، فكانت لهفتها على الصغير ، والألم الذى ذاقته حين رأته يكابد حرقة الظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيها الأمومة وتتقدس آلامها إلى حيث تغدو عبادة ومنسكا .

ومَنْ « هاجر » ؟

أَمَة ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : زوجة ابراهيم » من مصر إلى أرض كنعان .

وكانت السيدة « سارة » عجوزا عقيما ، يئست من أن تعطى زوجها ولدًا ، فبدا لها أن تَهَبَه تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن إلى إحدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها ما فى فطرة حواء من غيرة ، وخيِّل إليها أن أَمَتها صارت تنظر إليها فى مباهاة ، فاشتكت إلى زوجها ما وجدت من ذلك ، فشفع فى الجارية عندها ، فتجلدت للموقف . حتى إذا وضعت

« هاجر » مولودها . نفد صبر السيدة وغُلِب احتمالُها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتَها سقف .

ثم مازالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميممًا شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل » . وقد اتخذت نطاقا شدَّت به وسطها وأرسلت طرفه تجره من ورائها « فكان أول ما اتخذ النساء المنطق أم اسماعيل ، اتخذت منطقا لتعُفى أثرها على سارة »[1] . وقد خطر لإبراهيم أن يلتمس لولده ملاذاً فى حمى بقايا البيت العتيق ، أول بيت عُبِدَ فيه الله ، فى الأرض .

وانتهى بهم المسير عند « مكة » وهى حينذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من البدو الرُّحّل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين إلى حين ، التماسًا لماء أو انتجاعًا لمرعى .

وعند ربوة هناك حيث أطلال البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء فيه ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشًا ، ثم همَّ بالرجوع من حيث جاء . . . فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت إلى سيدها « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته أمام الأم الوالهة الحيرى ، رحمة بابنه الوحيد ، المنبوذ مع أمّه بالعراء .

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ » وهو منصرف عنها ماضٍ فى سبيله لا يلوى على شىء ، حتى إذا بلغ منعَرَجَ الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى لهفة :

(١) من حديث ابن عباس ، رضى الله عنهما فى كتاب أحاديث الأنبياء من صحيح البخارى . وفى (فتح البارى ٦ / ٢٥٠) تخريجه من مختلف طرقه .
وما يأتى فى هذا العرض تنصيصا بين أقواس ، فمن صحيح البخارى . وانظر معه (الروض الأنف) الجزء الأول .

ـــ آلله أمرك بهذا ؟

« قال وهو لا يلتفت إليها : نعم » .

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

إذن فالله لا يضيعنا »[1] .

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع يديه إلى السماء حين غيّبته ثَنِيّة الوادى ، واستقبل بوجهه البيت . ثم دعا بهؤلاء الدعوات :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[2] .

ثم استأنف مسيره عائدًا إلى زوجه « السيدة سارة » فى أرض كنعان .

* * *

وجعلت « هاجر » ترضع ولدها وتشرب من ذلك الماء القليل وهى تستمد من ولدها الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر إلى وجهه اللطيف الحبيب ، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية القفر ، ولم تدرك حق الإدراك قسوة موقفها بالوادى الأجرد ، بين الصخور الكالحة ، والجبال الصم الصلاب . . .

« حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها . فجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه » وبدا لها أن تصعد إلى علٍ ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فإذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدًا ؟ وتسمَّعتْ : هل تؤنس صوتًا ؟ فلما

(١) الروض الأنف : ١ / ١٣٥ . مع (فتح البارى ٦ / ٢٥١) .

(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨ .

لم تجد إلا الوحشة والصمت هبطت من الصفا حتى أتت « المروة » مهرولة تسعى سعىَ المجهد ، وصعَّدت علّها ترى أثرًا من حياة ، ولا أثر !

وأجهدها السعى بين « الصفا » و « المروة » شوطا بعد شوط ، « فعلت ذلك سبع مرات » حتى نال منها التعب والإعياء . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : « فذلك سعىُ الناس بينهما » يعنى فى الحج والعمرة .

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلاً ، فلقد كان لُهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مرآه والحياة تتسرب منه وتنطفىء رويدًا رويدًا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل ما بقى لها من قوة ، وزحفت بعيدًا عن ولدها المحتضر .

* * *

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمّه ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطًا بعواء وحوش الفلاة ، وسُعار السباع الجائعة المحومة على المكان . . . كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة . . . .

ثم كانت النجاة . . . .

« سمعت صوتا ـــ حسبته صوتها ـــ فقالت تريد نفسها : « إن كان عندك غواث » فإذا بملَك ـــ كأنه طائر ـــ قد حوم على المكان ثم حط على بقعة هناك ، فظل يبحث بجناحه حتى انبثق ماء « زمزم » فهرعت « هاجر » نحوها وهى تحس موجة دافقة من القوة والحيوية ، فحوّضت الماء تغرف منه ، وأقبلت ترتوى ، وترضع ولدها . . . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : رحم الله أم اسماعيل ، لو تركت الماء ـــ أو قال : لو لم تغرف من زمزم ـــ لكانت زمزم عينا معينا » .

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد . . .

قال ابن عباس : « ومرت رفقة من جُرهُم مقبلةً من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفلِ مكة فرأوا طائرًا فقالوا : إن هذا الطير لحائمٌ على ماء ! لَعَهْدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء . وأرسلوا دليلهم ، فعاد ومضى بهم إلى حيث كانت هاجر وولدها عند النبع المبارك . فقالوا لها : إن شئتِ كنا معك فآنسناكِ والماء ماؤك . فأذنت لهم ، فنزلوا معها ، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، وتعلم العربية منهم ، وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه منهم »(١) .

* * *

« فى جوار البيت العتيق شبَّ إسماعيل ، فلما بلغ مبلغ السعى جاءه أبوه فقص عليه رؤياه :

« قال يا بُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال يا أبتِ افعلْ ما تُؤمَر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » .

ثم كانت آية الفداء ، بعد ذلك البلاء المبين : همَّ أبوه بذبحه ، لولا أن لاح له كبش عظيم ، وألهمه الله تعالى أن يذبحه فدية لولده الصابر (الصافات ١٠٢ — ١٠٧) . وتلقى ابراهيم واسماعيل عليهما السلام أمر الله تعالى ، فرفعا القواعد من البيت العتيق وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وكانت دعوتهما ، عليهما السلام :

﴿ ربَّنا تقبلْ منَّا إنكَ أنتَ السميعُ العليم * ربَّنا واجْعلنا مُسلمَيْنِ لكَ ومن ذُرَّيتِنا أُمَّةً مُسلِمَةً لكَ ، وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ علينا ، إنكَ أنتَ التوابُ الرحيم * ربَّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويُعلمهمُ الكتابَ والحكمةَ ويُزَكِّيهم ، إنكَ أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾ (البقرة ١٢٥ — ١٢٩)

وبأمره تعالى ، أذَّن ابراهيم فى الناس بالحج . واستجاب الله تعالى للدعاء ،

---

(١) صحيح البخارى ، مع (فتح البارى ٦ / ٢٥١ ، والروض الأنف ١ / ١٣٥) .

فبعث فى ذريتهما رسوله المصطفى ، عليه الصلاة والسلام صفوةَ الصفوة من صريح ولد « اسماعيل بن ابراهيم » من « السيدة هاجر أم العرب العدنانية » التى دخلت التاريخ الدينى بهموم أمومتها ، وصار مسعاها بين الصفا والمروة شعيرة من شعائر الحج والعُمرة فى ديننا الحنيف ، وعيدًا للأمومة ، بموسم الحج من كل عام .

* * *

أمّ موسى
عليه السلام

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾
(سورة القصص)

لا يذكر لنا « القرآن الكريم » شيئا عن والد « موسى » ، وإنما يخص بالذكر أمّه ، وَيكِلُ إليها أمر حمايته وليدًا ورضيعًا ، حين ضاق فرعون ببنى اسرائيل وأنكر خبث أفاعيلهم وضراوة شرهم ، فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب . . .

وتقول الرواية إنه رأى فى منامه رؤيا أفزعته « فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك على أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلّك زمانه الذى يولد فيه »[1] .

فجُنّ غضبه وقلقه . . . وأمر بقتل كل غلام يولد لبنى اسرائيل ، وجند لذلك القوابل من النساء فى أنحاء المملكة . . .

وولد « موسى » حينذاك خفية ، بعد أن ذبح فرعون فى طلبه سبعين ألف ولد — على ما يقولون[2] — فارتجفت أمه رعبًا وخوفًا ، وأشفقت عليها

(١ — ٢) راجع قصص الأنبياء للثعلبى « العرائس » ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ط السعيدية / مع أبواب الآيات فى موسى عليه السلام فى صحيح البخارى (ك أحاديث الأنبياء) وفتح البارى : ٦ / ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) عرائس الثعلبى : ١٧٥ .

القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أن القابلة لم تكد تنظر إلى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقًا به ، وأبى عليها أن تسلمه إلى الذبح . . .

غير أنها ما كادت تنصرف من عند أم موسى حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـــ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، ألهم الله أم موسى فلفّت ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحراس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، وإلى جانبا ابنتُها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء . . .

وسألها الحراس فى فظاظة :

ـــ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

هى مُصَافِية لى ، دخلت علىّ زائرة . . .

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فإذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت إليه وأخرجته لم يمسسه أذى بفضل الله تعالى .

* * *

وبدا جليًا أن إخفاء الوليد غير مستطاع إلا إلى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله إليها : ﴿ **أنِ اقْذِفيه فى التابوتِ فاقذفيه فى اليَمِّ فَلْيُلْقِه اليَمُّ بالساحلِ يأخذْهُ عدوٌّ لى وعدوٌّ له** ﴾[1] .

واستجابت الأم لوحى الله تعالى ، فاتخذت تابوتًا وجعلت فيه قطنًا ثم

(١) من آية ٣٩ سورة طه .

أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل . . .

كيف كان شعورها إذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها إلى النهر ؟

أغفل أكثر الذين تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على ضفة اليمِّ ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدًا . . .

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها . . . فتنبهت فجأة إلى أنها ألقت ولدها بيديها فى اليم ، وكأن اشتغالها بالفرار به من عذاب فرعون ، قد صرفها عن التفكير فى أى شىء عدا النجاة ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلّصت وليدها من سكين فرعون ، لتلقى به إلى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنها ، أتاها الشيطان فوسوس إليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعتُ بابنى ؟ لو ذُبِحَ لواريته وكفّنته ، وكان أحب إلى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله إلى دواب البحر »[1] .

وتلك إضافة أحسبها من « الإسرائيليات » التى روجها فى المسلمين من أسلموا من اليهود . والقرآن الكريم لا يشير إلى هذه الوسوسة الشيطانية من قريب أو بعيد ، بل لعله أقرب إلى أن يرفضها وينفيها ، بالنص الصريح على أن قذف الأم لولدها فى اليم ، كان بوحي من الله تعالى .

ولنا مع ذلك أن نتمثلها وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لا تكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى . . . حتى افتقدتها ابنتها فجاءت تلتمسها هناك ، وقادتها فى رفق عائدة بها إلى الدار . . .

---

(١) من قصص الأنبياء : ١٧٤ .

وأنزل الله سكينته عليها ، قال عز وجلّ : ﴿ **وأصبحَ فؤادُ أمِّ موسَىٰ فارِغًا إنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِها لِتكونَ مِنَ المؤمِنِينَ** ﴾ .

(القصص : ١٠)

* * *

حملت الأمواج « موسى » حتى انتهت به ــ فيما يروى الأخباريون ــ إلى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به إلى سيدتهن « آسية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزًا من مال وجواهر . . .

ثم فتح الصندوق ، فإذا الصغير الجميل يرفع إلى « آسية » وجهًا مشرقًا بابتسامة حلوة !

وانثنت تملأ عينيها منه وقد تفتح له قلبها ، كأنما هو قطعة منها .

ولم يكن لها ولد ، فما أروعها هديةً تقدمها السماء إلى أمومتها المحرومة !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل الذباحون على جناحها ، يطلبون الصبى .

قالت آمرة :

ــ انصرفوا ، فإن هذا لا يزيد فى بنى اسرائيل . . .

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ــ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه إياه . فإن فعل كنتم قد أحسنتم ، وإن أمركم بذبحه فلن ألومكم . . .

وجاءت « فرعون » فتوسلت إليه قائلة :

« قُرةُ عينٍ لى ولكَ ، لا تقتلوه عسَىٰ أن ينفعَنا أوْ نتَّخِذَه ولدًا »[1] .

فكان جوابه :

---

(١) من آية ٩ سورة القصص .

ـــ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه . . .

ثم استدرك بعد لحظة :

ـــ لا بل فليذبح ، فإنى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكُنا وزوال ملكنا على يده . . .

فلم تزل امرأتُه تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به إلى جناحها ، والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها . . .

* * *

وهنالك فى حى اليهود ، كانت « أم موسى » تضع يدها على قلبها الذى ما فتىء يخفق مُلحًّا فى طلب النائى الغالى . . .

﴿ وقالتْ لِأُختِه قُصِّيه ، فَبَصُرتْ بهِ عَن جُنُبٍ وهُم لا يَشْعُرُونَ ﴾[1] .

خرجت تلتمس أثر أخيها . وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها إلى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلامًا رضيعًا ، يأبى المراضع!

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى امرأة فرعون يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى إحداهن . . .

هنالك لاذت أخت موسى بكل ما فى طاقتها من شجاعة كى تدارى عواطفها وتكتم لهفتها ، وتقدمت إلى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شيء مما كان يخالجها :

﴿ هَلْ أدُلُّكم علىٰ أهلِ بيتٍ يكفلونه لَكُمْ وهمْ لهُ ناصِحون ﴾[2] ؟ .

فراب القومَ ما سمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

---

(١) من آية ١١ سورة القصص .

(٢) من آية ١٢ سورة القصص .

ـــ ما نراك إلا تخفين أمرًا !

فأجابت فى ثبات : بل أردتُ أن أنصح لكم . . .

قالوا : لعلك تعرفين أهله ، وإلا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟ . . .

فهزت رأسها قائلة :

ـــ الأمر أقرب مما تظنون ! ذلك انى أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربًا إلى الملك ، والتماسًا لبره !

وتبعوها إلى حيث كانت « أم موسى » فى وحدتها ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحتْه ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته إلى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها . . .

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا إباء « موسى » للمراضع جميعًا ، أنْ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد ريًّا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل « آسية » ، امرأة فرعون ، إليها يصحبون « موسى » وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما . . .

قالت فى غبطة :

ـــ هلا مكثتِ عندى يا ظِئرُ لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟

فأجابت الأم :

ـــ بل إن شئت يا سيدتى صحبتُه معى إلى بيتى أرضعه وأرعاه ، فإنى أخشى إن أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا . . . ولست بتاركتهم أبدًا . . .

وقد يبدو عجيبًا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف ، فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرًا لولدها . . . لكن لا عجب ، فلقد أدركت الأم أنها سيدة الموقف مادام الوليد قد أبى أن يرضع إلا من ثديها ، وأنها لتعرف تعلق « امرأة

فرعون » بالصغير ، فلماذا لا تصر على ان تعود به إلى دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدًا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لا تنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مر :

إما أن تكبت عاطفتها وأشواق أمومتها ، كى لا يستريب القوم فى أمرها ، وذلك ما لا طاقة لها به بعد الذى كان من وجدها عليه . . .

وإما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها إلى المذبحة !

ثم إنها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، ما يغريها بأن تختار له ولنفسها المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى » :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده » . . . .

و لم تجد « امرأة فرعون » مفرًا من إجابة الظئر إلى طلبها ، حرصًا على حياة الرضيع ، فأذنت لها فرجعت به إلى بيتها . . .

فذلك قوله تعالى فى سورة القصص :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ
عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ .

(٧ — ١٤)

وقوله تعالى فى سورة طه :

﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ﴿٣٧﴾
إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ
ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾
إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ
كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ . . . ﴾ صدق الله العظيم (٣٧ — ٤٠)

* * *

أمّ المســـيح
عليهما الســـلامُ

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ (سورة آل عمران)

إنه « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الإسلام . . .

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية إلى أمِّه ، الأم التى طهَّرها الله واصطفاها على نساء العالمين . . .

وقصة أمومة « مريم » فيما نتلوها من القرآن الكريم ، مؤثرة غاية التأثير ، فلقد تعرضت ــ عليها السلام ــ لأقسى ما تتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأبٍ عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب ما فى بطنها لخدمة الهيكل ، قال تعالى :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ

﴿ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾[1] .

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلِها ، وألقَوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها . . .

﴿ **ذٰلكَ من أنباءِ الغيْبِ نوحيه إليكَ ، وما كنتَ لَديْهم إذْ يُلقُونَ أقلامَهم أيُّهم يَكفُلُ مريمَ ، وما كنتَ لدَيهم إذْ يختصمون** ﴾[2] .

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاءً بنذر أمها ، حتى إذا اصطفاها الله من النساء جميعاً ليودعها سره الأكبر ، بعث إليها فى خلوتها من بشَّرها ﴿ **بكلمةٍ منه اسمُه المسيحُ عيسى بنُ مريم ، وجيهًا فى الدنيا والآخرةِ ومن المقرَّبينَ** ﴾[3] .

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها كلَّ مأخذ ، ثم رفعت وجهها إلى السماء ضارعة :

﴿ **قالتْ أنَّى يكونُ لى غلامٌ ولم يَمسَسْنى بشرٌ ولم أكُ بَغيًّا * قال كذلِكِ قالَ ربُّكِ هُوَ علَىَّ هيِّنٌ ، ولِنجعلَه آيةً لِلناسِ ورحمةً مِنَّا وكان أمرًا مقضيًّا** ﴾[4] .

واستسلمت لأمرِ الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى رحِمِها ، ويا له من إحساس تعانيه عذراء طاهرة نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانًا قصيًّا ، وأقامت فى وادٍ للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماسًا للكلأ ، فلما أجاءها المخاض إلى جذع نخلة هناك ، ووضعت وليدها فى مِذودٍ للماشية .

---

(١) سورة آل عمران — آيات ٣٥ : ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : من آية ٤٥ .

(٤) سورة مريم : (٢٠ ، ٢١) ومعها آية ٤٧ من آل عمران .

﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾(1) .

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها ، ولا أنقذها من إفكهم ما بدا من وليدها من آياتٍ بيّنات ، بل رمَوها بالإثم وقالوا عليها « بهتانًا عظيمًا » ، فتلقت اللعنة صابرة ، متجلدة لقضاء الله فيها وقدره ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعود بالمجد العظيم . . .

وفى الخبر أنها فرتْ بابنها إلى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، « فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهدُ فى منكبِها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر »(2) .

« وجاءت به إلى الكُتّاب وأقعدتْه بين يدى المؤدِّب حتى أذن الربُّ لها ، فعادت به إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى »(3) .

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له إلى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع . . .

---

(1) سورة مريم : آية ٢٣ : ٢٨ .
(٢ ـــ ٣) العرائس للثعلبى : ٢ ، ٤ .

فى الثلاثين من عمره تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل إلى بنى اسرائيل فكاشف أمَّه مريمَ بكل ذلك قائلاً لها : إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد ا لله ، وانه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ما عليه من دين لها بخدمتها . . . قالوا :

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يابنى ، إنى نُبِّئتُ بكلِّ ذلك قبل أن تولد ، فليتمجد اسمُ الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » .

وخلدا معًا على الأيام ، آية من آيات الله . . . .

قال تعالى :

﴿ وجعلنا ابنَ مريمَ وأمَّه آيةً ﴾

﴿ وجعلناها وابنَها آيةً للعالَمين ﴾

* * *

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب التاريخى المهيب لأمهات الأنبياء ، لتكون أم اليتيم المصطفى ، خاتم الرسل عليهم السلام ، المبعوثِ بآخرِ رسالات الله تعالى . . .

المبحث الثانى

بيئة . . ووِراثة

— البيتُ العتيق

— بنو زُهْرة

البيت العتـــيق

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ
مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ
وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾
لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ
عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟
ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ
وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

صدق الله العظيم (سورة الحج ٢٦ — ٢٩)

لبيك اللهم لبيك ! . . . .

هو الدعاء الخالد ، رددت صداه الآفاقُ منذ ما لا يحصى من السنين ، فإذا الملايين تنثال إلى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذانَ « الخليل » فى الناس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، من قبل ألفٍ ومئاتِ سنين . . .

يا أُذُنَ الزمان الواعية . . .

ويا عينَ الدهر الباصرة . . .

أى ألْسِنَةٍ للعابدين سمعتِ ؟

وأى وجوهٍ هنالك رأيتِ ؟

وأى ألوانٍ من البشر شهدتِ ؟

وأى ألوية خفقتْ بين يديك ؟

وأى هامات انحنت لديك فى هذه البقعة من الأرض وسط الوادى الأجرد تحف به الصخور السودُ والجبال الشُّم ، منذ جُعِل « البيتُ » هنالك مثابةً للناس وأمنًا ، وحَرمًا وملاذًا ، يطمئِن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروَّع ، ويُحقن عنده الدمُ المهدَر ، وتُحمَى فى حماه حياةٌ كانت إذ ذاك مستباحة فى شِرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟ !

﴿ إن أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وهُـدًى لِلعالَمِينَ ﴾[1] .

* * *

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفتِ بيوت العبادة فى الدنيا بيتًا بيتًا . . .

ورأيتِ رسومًا وطقوسًا ، فى مشرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث . . .

وشهدت حجاجًا وزوارًا ، وطائفين وعُبَّادا . . .

وهذا البيت العتيق بينها كان ، ولا يزال ، عَلَمًا شامخًا ومنارًا عاليًا ، ترامت أضواؤه إلى أبعد مما ترامى إليه تأثير أى بيتٍ من تلك البيوتات ، ومزارٍ من هاتيك المزارات !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين مضت من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسيرَ الشأن ، ومحطًّا يريح فيه البدوُ الرحَّلُ قوافلهم ، فى طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابًا وجيئةً ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم فى قلب الفلاة ؟ !

(١) سورة آل عمران : ٩٦ .

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيالِ البشر مرتْ بك ، قبل أن يجد أولئك الضاربون فى الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلاً فى جوار « مكة » يتريثون عنده التماسًا للحماية والعون ، وتزودًا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

منذ كم من الدهور والأحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مثابة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون إليها حجاجًا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض إلا موضعًا ، وعزَّ الأمان إلا فى مكان ؟ !

كيف نَمَتْ « مكةُ » معكَ يا زمن ، من محطة صغيرة للرُّحَّلِ ، إلى موسم جامع للقبائل ، تتلاقى فيه القوافلُ من شمال وجنوب ، وتتواصل الروافد من أطراف العالم القديم ، حين كانت الإبل وحدها عدَّةَ السير ووسيلةَ الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيا حولها بالحركة وزخرت بالحياة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس ، والهند ، والصين ، ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ومن المغرب بما عند مصر وما وراءها غربا إلى الأطلس . . . ودفعت ذلك كله إلى هناك ، عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟ !

* * *

فى طوايا الزمن الغابر تفصيلُ ما لا علم لنا به من الظروف التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطاف أحلامهم وتطلعهم إلى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التى فرضتها عليهم البادية القاسية . . .

على أن تاريخ العرب المكتوب ، يقدم لنا من ذلك حديثًا عجبًا يملأ مجلدات وأسفارًا ، أنزلها القوم منزلة عالية من الثقة فيها والاطمئنان إليها ، ومهما يكن رأى التحقيق العلمى فيها ، فما تزال تلك الكتب والأسفار والآثار مراجعنا لمعرفة ماضى الجزيرة قبل الإسلام ، مما تواترت به الرواية النقلية .

وفى المرويات ما له شواهد موثّقة من القرآن الكريم ، ومما صح من الحديث والآثار على أدق ضوابط الرواية والنقل .

وعلى هذه الشواهد والآثار ، معتَمدُنا فى معرفة الملامح العامة للتطورات التى شهدتْها البيئة فى المجتمع المكى ، وأعطت ميراثها ومؤثراتها فى شخصية الأم التى ولَدتْ خير البشر .

* * *

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟ . .

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » إلى عهد « شيث بن آدم » . على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلا نكاد نعرف إلا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقًا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلاً للعبادة ، قبل أن يفد عليها « ابراهيم » عليه السلام بولده ، بزمن بعيد تطورت فيه العبادة إلى وثنية مشوبة برواسب من وثنية قوم نوح عليه السلام قبل الطوفان ، فدنّست طهر البيت العتيق .

قدرٌ من هذه المرويات ، توثقه شواهد من القرآن الكريم ، ومن صحيح الآثار عن الجاهلية المعروفة لنا .

فى القرآن الكريم :

﴿ إنّ أوّلَ بيتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذِى بِبَكّةَ مُباركًا وهُدًى لِلعالَمِين ﴾ .

وفيه الخبر عن قوم نوح وأصنامهم :

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

(سورة نوح)

وهذه الأصنام التى عبدوها قبل الطوفان ، قد بقيت رواسبها فى أسماء أصنام خمسة ، للعرب فى جاهليتهم المعروفة لنا(١) .

* * *

ثم جاء ابراهيم بولده ، فبدأ تاريخ جديد لمكة وبيتها العتيق ، والعرب . .

وفى القرآن الكريم بيان لموقف « ابراهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، وفيه كذلك بيان لآية الفداء « الصافات ١٠٢ ــ ١٠٧) وما عهد الله به إلى ابراهيم واسماعيل ، عليهما السلام ، من رفع القواعد من البيت وتطهيره للعابدين (البقرة ١٢٤ ــ ١٢٩) ثم أذان ابراهيم فى الناس بالحج (الحج ٢٦ ــ ٣٢) .

* * *

من ذلك العهد الموغل فى القدم ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيكَ اللهم لبيك »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحُها ، وتخشع له الجبال الصخرية المحيطة بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب ، أبناء البادية وأمراء الصحراء . . .

ومن ثم يمضى مؤرخونا القدامى ورواتنا الأُوَل ، فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق » كيف عظُمت وجلَّت ، وعن « مكة » من عهد ابراهيم واسماعيل ، كيف تسامت إلى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال . . .

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ٦ ، ١٣ ط الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ــ ١٩١٤ م .

حدثوا أن « جرهما » ــ وهم خئولة ولد اسماعيل ــ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من « بنى اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » فى ولايتهم ، رعاية لقرابتهم ، وإعظامًا لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما خلا الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى إليها . قال ابن إسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلمًا ولا بغيًا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته ، ولا يريدها مِلِكٌ يستحل حرمتها إلا هلك مكانه ، فيقال إنها ما سُميت بَكة إلا لأنها كانت تبك ــ أى تكسر ــ أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا »[1] .

وهكذا أُخرِجُ جبابرةُ « جرهم » من مكة أذلَّةً صاغرين ، يرثيهم شاعرهم ببكائيته :[2]

وقـائلـةٍ والدمـعُ سَـكْبٌ مُـبـادرُ
وقد شَرِقتْ بالدمـعِ منـهـا المحاجرُ
كأن لم يكن بينَ « الحَجونِ » إلى « الصَّفَا »
أنيـسٌ ، ولم يَسْمُرْ بمكـة سـامـر
فقـلتُ لها والقـلبُ منـى كأنمـا
يلجلجـه بين الجنـاحَـيْنِ طـائـرُ
بلَـى نحن كنـا أهلَهـا فـأُزالَنـا
صُـرُوفُ الليـالى والجـدود العـواثـر
وكنا ولاةَ « البيت » من بعد « نـابتٍ »
نطـوفُ بـذاك « البيتِ » والخـيرُ ظـاهر

---

(١) السيرة : رواية ابن هشام ــ ١ / ١١٩ وانظر نهاية الأرب للنويرى : ١٦ / ٢٣ ط دار الكتب
(٢) السيرة ١ / ١٢٠ . ونهاية الأرب : ١٦ / ٢٤ .

فأخرجنـــا منهـــا المليـــكُ بقـــدرةٍ
كذلك ، يا لَلنـــاس ! تجرى المقـــادر
فسَـحَّتْ دمـوعُ العـينِ تبكى لبلـدةٍ
بها حـرمٌ أمْـــنٌ ، وفيها المشـاعـرُ

★ ★ ★

ورووا أن « تُبّعًا الآخِرَ الحِمْيَرى » مر بقرب « مكة » فى طريقه إلى اليمن ، فأتاه نفرٌ من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فقالوا له : « أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟ . . .

قال : بلى . . .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويُصلون عنده . . . » .

قال ابن إسحاق : وإنما أراد الهذليون هلاك « تُبّع » بذلك ، لِمَا عرفوا من هلاك مَن أراد « البيتَ » من الملوك وبغى عنده[١] . ويقول « السهيلى » : « وروى نقلة الأخبار أن « تُبعًا » لما عمد إلى البيت يريد إخرابه ، رُمِىَ بداء تمخض منه رأسه قيحًا وصديدًا . . . وأنتن حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه قيدَ الرمح . وقيل : بل أُرسِلَتْ عليه ريحٌ كنعت منه ـــ أى أيبست ـــ يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة . . . فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم ما رأوا منه ولم يجد عندهم فرجًا »[٢] .

حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشىء فى أمر هذا البيت ؟ فقال : « نعم . . . أردتُ هدمَه » وذكر لهما ما قال الهذليون . . .

---

(١) السيرة : ١ / ٢٤ .
(٢) الروض الأنف : ١ / ٢٧ ط الجمالية .

« فقالا : ما أراد القومُ إلا هلاكَك وهلاكَ جُندِك . ما نعلم بيتًا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيرَه . ولئن فعلتَ ما دعوك إليه لتَهلكن وليَهلكن من معك جميعًا »[1] .

ثم نصحا له إذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج . .

قالوا : فعرف نصحهما وصدّق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم . . ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه ، وأقام بمكة أيامًا ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء . . .

فيقال إنه برىء من دائه وصحّ من وجعه .

ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلاً :

وأخلِقْ بهذا الخبر أن يكون صحيحًا ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ومن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظُلْمٍ نُذِقْهُ من عذابٍ أليمٍ ﴾[2] .

ثم يروى لـ « تبع » شعرًا ، يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حرّم اللـ ـهُ ملاءً منضدًا وبرودًا

....

ونحرنا بالشِعب ستةَ ألفٍ فترى الناسَ نحوَهن وُرودا
ثم سِرْنا عنه نؤمُّ سُهَيْلا فرفعنا لواءنا معقودا[3]

---

(1) ابن إسحاق ، السيرة الهشامية : ١ / ٢٤ ـــ ٢٥ .

(2) من آية ٢٥ سورة الحج .

(3) القصة مروية بمزيد من تفصيل فى الجزء الأول من السيرة النبوية ، والروض ١ / ٤٠ .
واقرأ فى (السيرة : ١ / ٢٦) قصيدة « سبيعة بنت الأجَبِّ النصرية » لولدها « خالد بن عبد مناف ابن كعب التيمى المرى » تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها ، وتذكر قصة تبع الحميرى . ومنها أبيات فى (نسب قريش : ٢٩٣) وفى (الصاهل والشاحج : ٥٣٠) ط أولى ذخائر .

ويأتى ـــ فيما يلى ـــ خبرُ صاحبِ الفيل الذى رده الله عن بيته فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، محمد بن عبد الله . . .

* * *

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغًا يصوره لنا ما رووه عن السيدة « عائشة رضى الله عنها » أنها قالت : مازلنا نسمع أن « إسافًا ونائلة » ـــ وهما من أصنام العرب فى الجاهلية ـــ كانا رجلاً وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجَرين !

وقد ذكر ابنُ إسحٰق فى « السيرة » وابن الكلبى فى « الأصنام » وياقوت فى « معجمه » ما تناقله الرواة من نسب هذين المخلوقين اللذين مُسِخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة . . . والله أعلم[1] .

كما يصور تلك الحرمَةَ ، ما روى ابن هشام من السيرة لابن إسحاق : « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ منهم ، حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ، إلا حمَل معه حجارة من حجارة البيت تعظيمًا للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة . . . »[2]

وكانت خدمة الكعبة نذرًا غاليًا تنذر له الأمهات والآباء فلذاتِ أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ما رووه أن امرأة من « جرهم » كانت لا تلد ، فنذرت لله إن هى ولدت رجلاً أن تتصدق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، قالت :[3]

---

(١) السيرة : ١ / ٨٤ وانظر « الأصنام » لابن الكلبى .
(٢ ـــ ٣) السيرة : ١ / ٧٩ ، ١٢٥ .

إنى جعلتُ رَبِّ من بُنَيَّهْ

رَبيطةً بمكةَ العَليّه

فبارِكَنْ لى بها أَلِيَّه

واجْعلْه من صالحِ البَريَّه

بهذا ومثله حدّث النقلة وأكّد الرواة ، وإنه لشاهد على مدى ما وصلت إليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهمًا حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولاية البيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرًا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر » .

وكان « قصى » قد مات أبوه « كلاب » وتركه فطيمًا ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت سعد بن سَيَل الأزدية » حين تزوجها « ربيعة بن حرام بن ضِنَّة العُذرىّ » واحتملها إلى بلاده ، وبقى « زهرة بن كلاب » أخو « قصى » فى قومه بمكة ، لكبر سنه[1] .

وشب « قصى » غريبًا وهو لا يعرف إلا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاعة ، فعيّره قائلاً :

ـــ لست منا ، وإنما أنت فينا مُلْصَق . . .

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ـــ يا بُنى ، صَدَقَ . . . إنك لست منهم ، ولكنِ رهطَك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زُهرة ، وبنو عمك بمكة وهم جيران ببيت الله الحرام . . .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١ / ٦٧ .

وفى رواية ابن سعد عن الواقدى أنها قالت :

« أَوَ قد قال هذا ؟ فوالله ما أحسن الجوار ولا حفظ الحق . أنت والله يا بنى أكرم منه نفسا وولدا ونسبا ، وأشرف منزلا ، أبوك كلاب بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى . وقومك بمكة عند البيت الحرام »(1)

وعاد إلى مكة رجلاً ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، وإذ ذاك رأى أنه « أوْلَى بالكعبة وبأمر الكعبة ، من خزاعة وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقريش سليلُ اسماعيلَ وصريحُ ولدِه »(2) .

وشبّت الحربُ بين قريش ومن حالفها ، وخزاعة وبنى بكر ، ثم تداعوا إلى الصلح والتحكيم ، وحكّموا « يعمر بن عوف » البكرى فقضى بأن « قصيًا أوْلى بالكعبة وأمرِ مكة ، من خزاعة » .

ويقول مؤرخو العرب ، ان مكة قد بدأت بقصىٍّ عهدًا تضاءلت إلى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدّت فيها وظائفُ دينية أضيفت إلى ما كان لها من قبل ، فكانت إلى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء . وبها حاز شرف مكة كله ، وأبقاه فى ولده من بعده ، ما يُعَرفُ أن أحدًا نازعهم فيه قط . . . »(2) .

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدِّينِ المتبع لا يُعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها إلى حرم الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها .

فلما أدركه الكِبَرُ ورقّ عظمُه ، عزَّ عليه ألا يدرك ولدُه البِكرُ « عبدُ الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

---

(1) طبقات ابن سعد : 1 / 69 .

(2) السيرة النبوية 1 / 127 — 131 .

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل إليه كل ما كان بيده من أمر قومه . . .[1]

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنًا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم « قصى » قد جعله إليه من : الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، إذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقتْ عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل : لبنى عبد الدار ، الحجابةُ واللواء والندوة ، ولبنى عبد مناف ، السقايةُ والرفادة . . .

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضَها « قصى » ، وبعضُها قديم عريق طالما اعتز به الذين تولوه ، وسجله الشعراء مباهين .

قال « أوس بن تميم بن مغراء السعدى » مفاخرًا بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :[2]

لا يبرح الناس ما حجُّوا مُعَرَّفهَم   حتى يقال : أجيزوا آلَ صفوانا
مجدٌ بنـاه لنا قِدْمًا أوائلُنـا   وأورثوه طوالَ الدهـر أُخْرانا

وقال جذل الطعان « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنَسأة على العرب :

لقدْ علمتْ مَعَـدٌّ أن قومى   كرام الناس أن لهم كرامـا
فأى الناس فاتـونا بوتر ؟   وأى الناس لم نَعْلُك لجامـا ؟
ألسـنا الناسـئين على معدٍّ   شهورَ الحِل نجعلها حراما ؟[3]

---

(١) السيرة النبوية ١ / ١٣٦ وطبقات ابن سعد ١ / ٧٣ .
(٢) السيرة النبوية ١ / ١٢٧ .
(٣) ابن اسحاق : السيرة الهشامية : ١ / ٤٦ .

وذلك أنه كانت للعرب فى مكة أشهر حُرُم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثأر ، إلا أن ينسأها لهم أحد النسأة . . .

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع « ابراهيم » القواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد إليهما الله تعالى أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والركَّع السجود وقال عز وجل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

وقد ذكرنا آنفًا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركًا ، ثم خلف من بعدهم خلْفٌ نسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان وبقيت فيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها ، من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدْى البُدن ، والإهلال بالحج ، والتلبية .

* * *

وطال المدى و « مكة » مهوى الأفئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تطمح إلى منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة وهى حسير . . .

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرة وداخلها ، ما يتناقله الأخباريون من حديث البيت الذى أقامه « الغساسنة » بالحيرة والكنيسة التى بناها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف إليها حج العرب . . .

« وقد جلب إليها الرخام المجزع ، والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه

الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس »[1] .

ثم كتب إلى مولاه نجاشى الحبشة : « إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْن مثلُها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب »[1] .

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ، مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

﴿ وأَذِّنْ فى الناسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجالاً وعلَى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كُلِّ فَجٍّ عميق ﴾[2] .

وما تزال الدنيا تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل منظرًا وأرغد عيشًا وأخصب أرضًا . . .

وإنها لَبلدة أقرب إلى البداوة ، فى بقعة جرداء بوادٍ غير ذى زرع ولا ظل ، وصفها أحد المستشرقين فى القرن العشرين فقال :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية تحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على شوارعها . . .

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لا نهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا تلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث إلى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد إلى السماء دخانه . . .

---

(١) السيرة ١ / ٤٤ ، والروض الأنف : ١ / ٣٠ .

(٢) سورة الحج — آية ٢٧ .

« وإذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك إلا صفير الريح الصرصر العاتية . . . .

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شيء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية »[1] .

* * *

حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال .

ولا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التى عرفها التاريخ أمًّا خالدة .

فيها كان منبت « آمنة بنت وهب » والدة النبى العربى اليتيم الذى بعث فى مكة ، فأيّد مبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلاً بعد جيل ، واتخذ الإسلام من الكعبة التى تعبّد فيها « الخليل » ، قِبلته التى يُولى المسلمون وجوهَهم قِبَلها حيثما كانوا وأنّى أقاموا ، ما عُبِدَ اللَّهُ فى الأرض !

هذه هى مكة ، بلد « آمنة » ومهد ولدها الوحيد ، ومنزل آبائه وأجداده ، ودار مبعثه ، وقبلة أمته . . .

* * *

---

(١) بودلى : « الرسول » ـــ ﷺ ـــ الترجمة العربية للسحار .

بنو زُهْـــرَة

(. . . ثم لم يزل الله تعالى ينقلنى من الأصلاب الطيبة.
إلى الأرحام الطاهرة مُصَفًّى مهذَّبًا ، لا تتشعب شعبتان
إلا كنتُ فى خيرِهما) من حديث شريف

فى يوم لم يحدده التاريخ ، فى نحو منتصف القرن السادس الميلادى ، رأت النورَ سليلةُ بيتٍ نابهٍ ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الأول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة وما يتبعها من أمجاد وامتيازات . . .

ويحمل البيت اسمَ « زُهرة[1] بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فِهر » وفهر هم قريش « لا قريش غيرهم ولا يكون قرشى إلا منهم »[2]

---

(١) كذا فى كل مصادرنا من كتب السيرة وتاريخ الإسلام . وليس فى « جمهرة أنساب العرب » ولا فى « نسب قريش » إشارة إلى خلاف فى أن زهرة رجل . فحيثما ورد ذكره فى الأنساب فهو « زهرة بن كلاب » . لكن جاء فى « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة . قال « السهيلى » فى « الروض الأنف ١/٧٩ » : « وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو جدهم كما قال ابن اسحاق » .

يشير إلى قوله ابن اسحق : « فولد كلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب ، وزهرة بن كلاب » .

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : « وزهرة امرأة نسب إليها ولدها دون الأب ، وهم أخوال الرسول ﷺ ـــ ١/١٠٩ » ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا إلى مرجعهم فى هذا . ويلاحظ عليهم انهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصًا صريحًا فى أن زهرة رجل كما نقلوا على هامش ص ١١٥ من الجزء نفسه ، عبارة ابن قتيبة فى المعارف ، وتعليق السهيلى عليها : وهذا منكر غير معروف ، وإنما هو ـــ أى زهرة ـــ اسم جدهم كما قال ابن اسحاق » .

(٢) ابن حزم : جمهرة الأنساب : ص ١١ ط أولى ذخائر .

وزهرة بن كلاب هو الأخ الشقيق لـ « قُصى بن كلاب » سيد مضر ،[١] ملك مكة ما عاش ، ثم تركها لقريش ميراثًا مجيدًا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » حفيد قُصى وزهرة ابنى كلاب ، بمجد الدهر وَعزِّ الأبد !

وأم زهرة وقصى : « فاطمة بنت سعد بن سَيَل » أحد بنى الجَدَرة . لُقِّبوا بذلك نسبة إلى جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » وكان قد بنَى للكعبة جدارًا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت إن جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » ، الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة[٢] . . .

وفى سعد بن سَيَل ، جد زهرة وقصى لأمهما ، قال الشاعر[٣] :

ما نرى فى الناس شخصًا واحدًا مَن عَلِمْناه ، كسعدِ بنِ سَيَلْ
فارسًا أضبط منه عسرةً وإذا ما واقَفَ القِرْنَ نزلْ
فارسًا يستدرج الخيلَ كما اسـ ـتدرج الحرُّ القطامىُّ الحجَلْ[٣]

ابنته فاطمة ، هى إحدى الفواطم اللائى ولدن المصطفى ﷺ ، وإحدى منجبات العرب .[٤]

* * *

عُرِف « بنو زهرة » منذ كانوا بالودِّ الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون إخوتهم من بنى عبد الدار . وسبقت الإشارة ، فى حديثنا عن « البيت العتيق » إلى ما كان من أمر « قصى » حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » ما بلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

---

(١) المحبر لابن حبيب : ٤٥٦ .
(٢) المصعب الزبيرى : نسب قريش ١٤ ذخائر — ابن هشام : السيرة ١٠٩/١ حلبى .
(٣) السيرة لابن هشام ، ١١٠/١ . وانظر أخبار مكة للأزرقى : ٦١ والقرن : النظير . والحر القطامى : الصقر .
(٤) المحبر : ٥٢ ، ٤٥٦ وطبقات ابن سعد : : ٦٣/١ .

« أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يَعقد لقريش لواءً لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحدٌ بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك ، ولا يُقطع أمر من أمورها إلا فى دارك » .

ثم كان ما كان من إذعان قريش لوصية شيخها حينًا ، ثم إجماع بنى عبد مناف بن قصى : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش : فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم من قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا يُنزع منهم ما كان « قصى » جعله إليهم .

وعقد كل فريق على أمرهم حلفًا مؤكَّدًا ، على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضًا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طِيبًا ، فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدًا على أنفسهم ، فسُمُّوا بالمطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك فسموا بالأحلاف .

وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف فى ذاك الحلف ، ولما عُبِّيَتْ كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ، عُبِّيَت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينَّها[1] .

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف إخوة متجاورين لا ينفصلون ، وبيوتهم متجاورة كذلك ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شِق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن

---

(١) السيرة : ١/١٣٩ .

انضم إليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَحَ وسهم ، وكان شِق الحِجْر لبنى عبد الدار بن قصى . . .

* * *

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا إلى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش إلى « حلف الفضول » قبل المبعث بنحو من عشرين سنة ، وكان أكرم حلف وأشرفه . وذلك أن رجلاً من زبيد قدم إلى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان ذا قدر بمكة وشرف ، فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار ، ومخزومًا ، وجمحَ ، وسهمًا ، وعديًّ بن كعب ، فأبوا أن يعينوه على العاصى وانتهروه . فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعتُه ببطن مكة ، نائى الدارِ والنَفَرِ
ومُحرمٍ أشعثَ لم يَقضِ عُمرَته يا للرجال ، وبين الحِجْر والحَجَرِ
إن الحرامَ لمن تمّت كرامتُه ولا حرامَ لثوبِ الفاجر الغُدَرِ

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وصاح : ما لهذا مَتْرك ![1] .

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى ـــ وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة رضى الله عنها ـــ فصنع لهم طعامًا ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته » .

وأنصفوا « الزبيدى » من العاصى .

فيروى « ابن اسحاق » بسنده إلى طلحة بن عبد الله الزهرى عن جبير

(١) السيرة : ١ / ١٤١ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ١٢٨ .

ابن مطعم رضى الله عنه : عن رسول الله ﷺ قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أُدعَى إليه فى الإسلام لأجبتُ » .

وأسنده ابن سعد عن الواقدى من حديث طلحة عن جبير ، بلفظ مقارب[1] .

* * *

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عُرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الأمجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الإسلام ، وتحالفها مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول . . من هذه الأسرة كانت « آمنت بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة » التى توّجت ذاك المجد العريق بالشرف الذى لا يُدرك ولا ينال . . .

جدُّها لأبيها : عبد مناف بن زهرة الذى يُقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيمًا وتكريمًا[2] .

وأبوها « وهب بن عبد مناف » : سيد بنى زهرة شرفا وحسبا . وفيه يقول الشاعر :

يا وهبَ يا ابنَ الماجد بن زُهره سُدْتَ كلابا كلها ، ابنَ مُرَّةَ
بحَسَبٍ زاكٍ وأمٍّ بَرّه[3]

---

(١) الطبقات : ١ / ١٢٨ .

(٢) جمهرة الأنساب : ١٢ .

(٣) فى الروض الأنف (١ / ١٢٩) أن أم وهب : عاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال السلمية ، إحدى العواتك من سليم . والذى فى (المحبر : ١٢٩) و (نسب قريش ٢٦١) أن أم وهب ، جدة السيدة آمنة ، وأم أخيه أهيب ، أبى هالة أم حمزة بن عبد المطلب : قيلة بنت أبى قيلة وجز بن غالب ، سيد بنى خزاعة . قابل على بنى مرة وأمهاتهم ، فى الجمهرة ، والسيرة (١ / ١٠٨) وطبقات ابن سعد : أمهات آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم (١ / ٦٥) .

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقةً وأصالة ، فهى ابنة « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب » .

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى » .

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عُبَيْد بن عُوَيْج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر » .

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » لتضطلع بعبئها الجليل فى أمومتها التاريخية . . .

ووراثات مجيدة ، أهدتها إلى ولدها فجمعتْ له عِزَّ المنافين : « عبد مناف ابن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب » وجعلته ــ ﷺ ــ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس رضى الله عنهما » مرفوعا :

« . . . لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبًا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما »[1] .

وفى صحيح الحديث عن واثلة بن الأسقع ، رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله اصطفى كنانة منْ ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم »[2] . فهو خِيَار من خيار من خيار من خيار . .

نسبٌ تَحسبُ العلا بحُلاه قلدته نجومَها الجوزاء
حبذا عقدُ سؤددٍ وفخار أنتَ فيه اليتيمة العصماء

---

(١) القاضى عياض (الشفا : فصل فى كرامة نسبه صلى الله عليه وسلم) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (ك الفضائل) والترمذى فى السنن . ورواه أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمرى فى (عيون الأثر : ١ / ٢٣ ــ ٢٤) من طريق مسلم ، والقاضى عياض فى (الشفا) من طريق الترمذى . وانظر تفسير القرطبى لآية (التوبة ١٢٨) .

المبحث الثالث

زَهْــرة قُريــش

— العروس الزُّهرية

— فَتَى هَاشــــم

— العُــــــرس

— البشـــــرَىٰ

العروس الزُّهـريَّة

« . . . وكانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش
نسبًا وموضعًا » . (ابن إسـحاق)

تفتَّح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع المكى المعتز بكرم الأصول وشرف الأعراق . . .

كانت زَهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زُهرة نسبًا وشرفًا ، وقد ظلت فى خدرها محجَبة عن العيون مصونة عن الابتذال ، حتى ما يكاد الرواة يتبينون ملامحها أو يتمثلونها فى صباها الغض . والذى يعرفه المؤرخون عنها أنها ــ عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب ــ « كانت يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبًا وموضعًا »[1] . . .

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى أرجاء مكة ويثير أكرم الآمال فى نفوس شبانها الذين زهدوا فى كثيرات سواها .

وقد عرَفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابنَ العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من لداتها أبناء الأسر القرشية ، إذ كان البيت الهاشمى أقرب هذه الأسر جميعًا إلى آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة : ولدى كلاب بن مرة » .

عرفته قبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، وتلاقت وإياه فى الطفولة البريئة فى ربوع مكة وفى ساحة الحرم الأمين ، كما جمعتهما مجامع القبيلة حيث

---

(١) السيرة النبوية : ١ / ١٦٥ .

كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران على ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهمّ « قريشًا » أمر . . .

* * *

ثم حُجِبتْ « آمنة » حين لاحت بواكير نضجها ، فى الوقت الذى كانت فيه خطوات « عبد الله » تسرع به إلى الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة إلى زَهرة قريش ، وتسابقوا إلى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون إليها ما لهم من مآثر ومناقب وأمجاد . . .

....

فتى هاشِـــم

«إن الله اصطفى كنانة من ولدِ اسماعيل .
واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من
قريشٍ بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم»
حديث شريف (صحيح مسلم)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زَهرة قريش » مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعًا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفًا ورفعة وفتوة . . .

أبوه « عبد المطلب بن هاشم » و « فيه العمود والشرف . و لم يبق لهاشم عقب إلا منه . وقد شرف فى قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم » .

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب : أبا طالب ، والزبير ، وعبد الله ، وأم حكيم البيضاء — توأمة عبد الله — وعاتكة ، وبرة ، وأميمة ، وأروى[1] .

وجدة « عبد الله » لأبيه : « سلمى بنت عمرو النجارية الخزرجية » التى « كانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهتْ رجلاً فارقته »[2] .

وجدته لأمه : « تَخْمُر بنت عبد بن قصى القرشية » وأمها « سلمى بنت عامرة بن وديعة الفهرية » .

* * *

(١) جمهرة الأنساب : ١٢ ، نسب قريش : ١٧ (ط أولى ذخائر) وتصحف فيه اسم « برة » بـ : مرة . ثم جاء على صواب فى صفحة ١٨ .
(٢) السيرة الهشامية : ١ / ١٤٥ .

ولم يكن غريبا ألا يبادر « عبد الله » إلى خطبة « آمنة » ، مع المعروف من نذر أبيه : لينحرنّ أحدَ بنيه لله عند الكعبة .

وأى القرشيين لم يعلم بقصة ذلك النذر المحتوم الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

ذلك أن « عبد المطلب » حين انتهت إليه إمارة « مكة » وولى السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، أخذ يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب شُحّ الماء .

وذكر بئر « زمزم » التى أنقذت جده « اسماعيل » من الهلاك ، وجذبت إلى « مكة » القوافل على آثار الرعاة . . وذكر ما تناقله الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها ، من حديث « جرهم » ودفنها « زمزم » حين أُرغمتْ على الخروج من مكة . فودّ لو وفقه الله إلى العثور على موضع البئر المباركة المطمورة .

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ، وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله وتلهمه أن يحفر عنها فى موضع بعينه ، من الحرم .

وروى « ابن إسحاق » عمن سمع « على بن أبى طالب » (رضى الله عنه) يحدّث حديث جَدِّه وما كان من حفره زمزم :

« قال عبد المطّلب : إنى لنائم فى الحجر إذ أتانى آت فقال :

« احفر زمزم ، إن حفرتَها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزِف أبدًا ولا تُذَم ، تسقى الحجيج الأعظم ، مثل نعام جحافلٍ لم يقسم . . . »[1] .

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ،

---

(١) السيرة : ١ / ١٥٤ .

حتى إذا همّ بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت إليه قريش تصده قائلة : والله لا نترك تحفر بين وثَنَيْنا هذين اللذين ننحر عندهما .

فالتفت « عبد المطلب » إلى ابنه « الحارث » وقال :

ــ ذُدْ عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين ما أُمِرْتُ به .

وقاومت قريش ، وأطمعها فيه أن كان قليل الولد ، لكنه أصرّ على أن يمضى فى الحفر ، فلما بدت له الحجارة التى طويت تحتها البئر ، رفع صوته مكبرًا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه فقالوا :

ــ يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا اسماعيل ، وإن لنا فيها حقًا ، فأشركنا معك فيها . . . .

قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خُصِصتُ به دونكم ، وأُعطِيتُه من بينكم . . .

فقالوا : فأنصفْنا ، فإنا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها . . .

قال : لا ، ولكن هلموا إلى أمر نصَفٍ بينى وبينكم : نضرب عليها بالقداح ، أجعل للكعبة قدحين ، ولى مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له . . .

قالوا : أنصفت .

وضُربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

من ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحُجاج ، لا ينازعه فيها أحد من قومه قريش[١] .

يومئذ كان النذر :

---

(١) السيرة الهشامية : ١ / ١٥٠ ــ ١٥٥ وشرحها فى الروض الأنف : ١ / ١٦٦ ــ ١٧٤ ، طبقات ابن سعد : ١ / ٨٣ ــ ٨٨ .

ذلك أن عبد المطلب حين اشتغل بحفر البئر ، وليس له من الولد سوى ابنه الحارث ، وقد لقى من قريش ما لقى ، نذر يومئذ : لئن وُلد له عشرةُ نفر ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه ، لينحَرَنَّ أحدهم عند الكعبة .

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعًا[1] ، فتلبث عبد المطلب حتى إذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم إلى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين . . .

* * *

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الأولى قبل المبعث بنحو إحدى وأربعين سنة ، ولا حديث لها إلا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة إلى الكعبة ، وقد حمل كلٌّ منهم قِدْحًا عليه اسمُه ، مستسلمين للمصير المحتوم .

وخفقت قلوب نساء قريش عطفًا وحنانًا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددًا منهن قد ذهب فيمن ذهب إلى الكعبة ، ليسمع كلمة السماء فى الذبيح المختار ، على حين بقيت « آمنة » مع من بقين ، لا تستطيع أن تبرح دار أبيها ، وان أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لا تدرى أى بنى العم عبد المطلب ، يختاره ربُّ الكعبة وفاءً بنذر شيخ الهاشميين . . .

ومضت الساعة ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم . . .

* * *

---

(١) السيرة : ١ / ١١٤ — شرح المواهب للزرقانى ١ / ٩٤ — نهاية الأرب : ١٦ / ٥٠ ، ٥١ .
وعلق ناشرو السيرة ، على قول ابن اسحاق : « وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغر بنى أبيه » بما نصه : « الظاهر أنه يريد أن عبد الله كان أصغر ولد أبيه حين أراد نحره . أو لعل الرواية : أصغر بنى أمه . وإلا فالمعروف أن حمزة كان أصغر من عبد الله . . » الخ ، وقلت : لا خلاف فى أن حمزة ولد بعد حادث الفداء ، وكان تربًا لمحمد بن أخيه عبد الله . وفى الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب . وهالة هى أم حمزة بن عبد المطلب . راجع (جمهرة أنساب العرب : ١٣) ، و (نسب قريش : ١٧) ، و (الاستيعاب : ١ / ٣٧١ ط . نهضة مصر) .

ثم انتشر الخبر فجأة فى أرجاء مكة ، متنقلاً بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحًا .

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن يُنحر زين شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى قريش جميعًا !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكنّ قيامًا هناك ينتظرن أمر الله[1] . . .

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعًا ، تصف كيف دخل شيخ هاشم ببنيه على « هبل » فى جوف الكعبة ، وأخبر صاحبَ القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة ، بكل ما يملك من شجاعة ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بَنىَّ هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم يُنَقِّل عينيه بينهم جميعًا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبًا وإشفاقًا ، ورأى « أن السهم إذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى »[2] .

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عند هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ نفسه ، وأخذ فتاه الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه[3]

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حىَّ بنى زهرة ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ١ / ٥٣ ط . أوروبا .

(٢) السيرة الهشامية : ١ / ١٦٢ .

(٣) السيرة الهشامية : ١ / ١٦٢ ، الطبرى ٢ / ١٧٣ .

ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة . .

وأقفزت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعًا ودورها . . . فهل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا إلى جانب أبيه وهو يعانى التجربة الرهيبة والبلاء المبين ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو استطاعت أن تنطلق فى إثر قومها وهم يسعون إلى الحرم مهرولين . ولكن ماذا كان بوسعها ـــ لو أنها استطاعت الذهاب إلى الحرم ـــ أن تصنع من أجل إنقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الضراعة والدعاء .

وولى النهار . . .

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يئوبوا بعد إلى دورهم .

ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم ؟ لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن « مكة » فما فيها منهم الليلة سامر !

وانبثق شعاع هزيل من الأمل وسط الظلمات المتراكمة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

« لم يكد الأب يهم بذبح ولده ، حتى قامت إليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : أفى بنذرى . . .

فقالت له قريش :

ـــ والله لا تذبحه أبدًا حتى تُعذر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا[1] ؟

---

(١) السيرة لابن هشام : ١ / ١٦٢ ـــ والكامل لابن الأثير : ٢ / ٦ .

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ــ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى طالب ــ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ــ والله لا تذبحه أبدًا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

وأضاف شيوخ قريش :

ــ فلتنطلق بولدك إلى عرافةٍ بخيبر ، لها تابع ، فلتسألنها : إن أمرتْك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج ، قبلته[1] . . . .

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز .

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبًا واجفة وعيونًا مسهدة ، وجنوبًا قد نَبَتْ بها المضاجع ، وألسنة ضارعة فى جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، زين الشباب من بنى هاشم . . .

وأعقب رحيلهم أيام قاربت العشرين عدّاً ، وانياتِ الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالاً من الصم الصلاب . . .

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاءً .

وغشيت بيوتها غاشية من القلق والهم والانتظار . . .

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل . . .

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأً عن مصير الفتى العزيز . . .

وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » شيخها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزُّهْر . . .

---

(١) اختلفوا فى اسم العرافة ، فقيل : قطبة ، وقيل : سجاح . انظر السهيلى (١ / ١٧٧) ، والزرقانى (١ / ٩٦) ، والنويرى (١٦ / ٥٥) .

وراح العبيد والإماء يسعون بين الدور وممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدًا من « خيبر » يعرف شيئًا من أنباء الركب الغائب . . .

وشهدت الليالى نفرًا من العقائل الكريمات ، يتسللن من أحياء قريش محجبات بستار من الظلمة ، فإذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على أثر ذلك إلى « المسعى » بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده « اسماعيل » !

* * *

ثم كان لهذا كله آخر : لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشف عن قافلة تغذ السير إلى « مكة » فعرج الغلمان على أسطح الدور ورؤوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فإذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيًا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعًا ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم إلى أحياء قريش تجمع الإبل وتسوقها نحو « البيت العتيق » .

وسعى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر العرافة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ـــ ارجعوا عنى اليومَ حتى يأتينى تابعى فأسأله . . .

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلتَه يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

قد جاءنى الخبر : كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشرة من الإبل . . .

قالت : فارجعوا إلى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرًا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل عشرًا فعشرًا حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم . . . »[1] . .

بعد فترة لم تطل ، سُمِعَت ضجةٌ عالية تقترب ، وإذا جماعة من وجوه « هاشم وقريش » يتقدمهم « عبد المطلب » وإلى يمينه « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة » .

إذن فقد نجا زين شباب هاشم !

ما أوسع رحمتك يا رب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى إلى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبًا بالوافدين الكرام .

* * *

(١) السيرة : ١ / ١٦٣ . وقابل على رواية الواقدى فى (الطبقات الكبرى لابن سعد) : ١ / ٨٨ .

العُــــرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذًا بيد عبد الله ــ إثر افتدائه من الذبح ــ فخرج حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة . . وهو يومئذ سيد بنى زهرة نسبًا وشرفًا ، فزوجه ابنته آمنة . . . »

(ابن إسحاق) ــ فى السيرة النبوية

فيم كان مقدمهم ؟ . . .

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل متهللة الوجه مشرقة الأسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قرَّبوا عبد الله وعشرًا من الإبل وضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله .

« فزادوا عشرًا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله . . .

« ثم ما زالوا يزيدون عشرًا بعد عشر ، والقِدح يخرج على عبد الله . . .

« حتى بلغت الإبل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح ، لأول مرة ، على الإبل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :

ــ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

« فضربوا على عبد الله وعلى الإبل المائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، فخرج القدِح على الإبل ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقِدْحُ يخرج عليها !

« وإذ ذاك اطمأن قلب الشيخ التقى ، ونُحرت الإبل ، ثم تُركت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع ! »[1] .

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت بتقص عليها قصة الفداء إلا تمهيدًا لشأن آخر . . .

* * *

وإذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو إحداهما إلى الأخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله »[2] . . .

وعاد من فوره إلى ضيفه الكريم ، وترك « آمنة » فى شبه ذهول ، ما لبثت أن أفاقت منه على صوت قلبها يخفق عاليًا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة إلى جوارها فاحتضنتها فى حنو غامر ، خدَّر مقاومة الفتاة فأسلمت نفسها إلى صدر الأم . . .

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها ، صامتة هادئة ، لولا أن سيدات آل زهرة توافدن واحدة فى أثر أخرى ، مهنئات مباركات .

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى إليهن من تعرض نساءٍ من قريش

---

(١) السيرة : ١ / ١٦٣ .

(٢) فى السيرة « ١ / ١٦٤ » أن وهبًا هو الذى زوج ابنته آمنة . ومثله فى عيون الأثر (١ / ٢٤) والذى فى طبقات ابن سعد « ١ / ٥٨ » أنها كانت فى حجر عمها وهب ، واتفقوا على أن عبد المطلب خطب فى المجلس نفسه « هالة بنت وهيب » وهى أم ولده حمزة .

لـ « عبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار « وهب » يعرضن أنفسهن عليه عرضاً صريحاً . . .

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشية[1] ، استوقفت « عبد الله » قريباً من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله !

فأجاب فى إيجاز : مع أبى . . .

قالت : لك مثلُ الإبل التى نُحِرت عنك اليومَ ، إن قبلتَ أن أهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذراً فى تلطف :

ــ أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ...

وقيل إن « فاطمة بنت مر » ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، تقرأ الكتب كما جاء فى طبقات ابن سعد ، أو كانت كما ذكر الطبرى وابن الأثير ، كاهنة من خثعم[2] ــ دعته إلى نكاحها فنظر إليها وقال :

أمَّا الحرامُ فالمماتُ دونَه

---

(١) اكتفى ابن إسحاق بذكر نسبها دون اسمها (السيرة : ١ / ١٦٥) وذكر ابن سعد فى طبقاته الاختلاف فى اسمها ــ (١ / ٨٥ أول) ولم يسمها ابن سيد الناس ، واكتفى بأنها أخت ورقة بن نوفل (عيون الأثر ١ / ٢٣) لكن بهامش السيرة أن اسمها « رقية بنت نوفل » ونقل النويرى فى نهاية الأرب (١٦ / ٥٨) أن اسمها « قتيلة بنت نوفل » ونقل السهيلى فى الروض الأنف « ١ / ١٠٢ » أن اسمها « رقية » ومثله فى نسب قريش ١٧ . ولم يذكرها ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب : (١١١) مع ولد أبى ورقة « نوفل بن أسد بن عبد العزى » . .

واقرأ حديث من عرضن أنفسهن على عبد الله ، فى الجزء الأول من السيرة ، وطبقات ابن سعد وفى تاريخ الطبرى ٢ / ١٧٤ ، والكامل لابن الأثير : ٢ / ٤ .

(٢) السيرة : ١٦٤/١ ، الطبقات الكبرى ٩٦/١ ، تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ ، الكامل لابن الأثير : ٤/٢ .

والحِـلُّ لا حِـلَّ فـأستبينَـــه
فكيف بـالأمـر الـذى تبغينـه

زاد فى رواية :

يحمى الكـريم عـرضه ودينــه

وقيل كذلك إن « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليه يومئذ ، فلم يستجب لها .

بهذا ومثله كانت النساء يتحدثن إلى « زَهرة قريش » حين توافدن عليها للتهنئة ...

ولعلهن التمسن لهؤلاء النسوة عذرا : أن كان عبد الله الذبيح المفتدى ، وأن لم يُفْدَ أحد قبله بمائة من الإبل « وما رئى رجل في قريش قط ، أحسن منه »(١) .

هنيئاً لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله ! »

وليس فى هذه المرويات ما يشذ عن الفطرة ، ولا فيها ما يريب ، وقد تواترت بها الرواية فى مصادرنا الأصول للسيرة وعصر المبعث . لكن « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر « أن الوقوف لتقصى أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه » وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن إليه ، هو « أن عبد الله كان شاباً وسيماً قوياً ، فلم يكن عجباً أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بها تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو إلى حين » .

وكذلك قال « بودلى » فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة . فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحراً

---

(١) عيون الأثر : ١ / ٢٣ عن الزبير — هو ابن بكار .

وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثيرات من سيدات ومكة » .

حين أراها ، على أى حال ، ذات غناء كبير فى فهم البيئة المكية ، وما حف بخطبة أبوى المصطفى ، عليه الصلاة والسلام ، من ظروف وملابسات تجلو الصورة التى تمثلها القوم للأم التى ولدت سيد البشر .

ولا نكاد نشك فى أن « آمنة » سمعت كثيرا ، وهى على وشك الزفاف ، عن تطلع غيرها من القرشيات إلى فتاها المرموق ، وأنها تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر فتوته ونضارة حيويته .. وسرَّ آمنة أن لم يكد يُفتدى من الذبح حتى هرع إليها خاطباً ، زاهداً فى كل أنثى سواها ، غير مُلقٍ أذنيه إلى ما سمع من دواعى الإغراء !

وطاب لها فى زحمة المهنئات أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفه طويلاً فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، ثم لما نجا ، كانت دار « آمنة » قبلته بعد الحرم ، ومقصده إثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى إليها لم يكد يطيق الصبر عنها بعد الفداء ..

كم فكر فيها عبد الله ؟ !

وكيف يكون لقاؤهما الوشيك ؟

فى منطق الفطرة السوية ، أن هذه الأسئلة مما خطر بال « آمنة » وهى فى حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب ..

* * *

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقاً بالشاب الذى مسَّت الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى إذا لم يبق بينه وبين الموت إلا قيد شعرة ، أنقذه اللهِ بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » إلى الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبداً ، فافتداه الله بِذِبْحٍ عظيم بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى . . .

إنها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل ، تعود فتمثل فى الموضع نفسه من البيت العتيق الذى رفع القواعدَ منه ابراهيمُ وولده اسماعيل ، الذبيح المفتدى ..

والمفتدى هذه المرة ، هو حفيد أصيل من ذرية « اسماعيل » التى انتشرت فى الأرض وتوارثت مجد الجدود ...

وغير مستبعد أن يخطر لبعض السمار فى ليلة العرس ، أن يَصِلُوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبد الله » وربما أبعد بعضهم ، فحاول أن يلتمس وراء ستار الغد المحجب ، ما ينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لإسماعيل بعد الفداء ...

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان « عبد الله » أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على سُنَّة القوم[1] ، حتى إذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها إلى داره كى يهيئها لاستقبال الوافدة العزيزة ، على حين مضت هى فى ذاكِ اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التى استقبلتها وليدة ورعتها صبيةً ، وزفَّتها عروساً ...

ثم راحت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغض . وشغلها ذلك كله ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى إلى الربوع التى

---

(١) ابن سعد ، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه : ١ / ٩٥ . وعيون الأثر ١ / ٢٥ . من طريق محمد بن السائب الكلبى .

خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفية من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة !

وانطوت على ذاتها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما !

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفاً مشوقاً ، فرفعت إليه وجهها المليح ، وقد أضاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيها دمعتان صافيتان ...

وأدرك « عبد الله » ما بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكاً ، بل قادها فى رفق إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعِدت هنالك مجالس للضيوف الكرام الذين صحبوا العروس إلى بيتها ...

وراح يريها بيتها الجديد ...

ولم يكن البيت كبيراً ضخم البناء ، لكنه إذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عُدَّ رحباً مريحاً لعروسين يبدآن حياتهما المشتركة ...

كان ، كما وصفوه[1] : ذا درج حجرى يوصل إلى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه إلى قبة ، فى وسطها — بميل إلى الحائط الغربى — مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ...

* * *

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من سيدات « آل زهرة » ثم خرج إلى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام . . .

ومضى وهَن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت إليها زهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسباً وأعرقهم نسباً ...

---

(١) محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية .

البُشــرىٰ

« وسمعت هاتفاً يهتف بها فى رؤياها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة » **(ابن إسحاق)**

ثم آب الضيوف إلى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس إلى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى فى رحلته إلى كاهنة الحجاز ...

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تحسه من شجن لفراق آلها :

ـــ هلا حدَّثْتَنى يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟ فانبسطت أساريره لإقبالها عليه ، وقال يجيبها :

ـــ ما شغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعتِ من تعرضهن لى ، وانصرافى عنهن إليك وحدك ! وأضاف قائلا :

ـــ على أن للقصة بقية لمَّا تسمعى بها ، حدثت فى يومنا هذا ، إذ كنتُ عائدًا من دار أبيك لكى أهيِّىء دارى لاستقبالك وشغلتُ بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحداً بما كان !

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـــ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكةَ الأوحد ؟

فتبسم ضاحكاً من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

ـــ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ أيام ، وأنستْهن رغبتُهن فيه ما عُرف عن مثلهن من صدٍّ وتمنع !

وأمسك فترة يرنو إلى صاحبته ، كأنه يريد أن يعرف وقع الحديث عليها ، فما زادت على أن أومأت إليه يمضى فى قصته .

فاستجاب لإيماءتها واستطرد يقول :

أجل يا ابنة وهب ! زاهدات فى فتاك كأنه أُبدِل خلقاً جديداً . مررتُ بهن اليوم فى طريقى بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشحْن عنى بوجوههن معرضات ، إلى حد أثار عجبى وفضولى لمعرفة سر هذا الانقلاب ، فسألت إحداهن « بنت نوفل » :

« مالك لا تعرضينْ علىّ اليومَ ، ما كنتِ عرضتِ علىَّ بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقكَ النورُ الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »[1] .

وكذلك أعرضت عنى « فاطمة بنت مر » قائلة :

« قد كان ذلك مرةً ، فاليومَ لا »[2] .

ثم أضافت : « إنى والله ما أنا بصاحبة ريبة[3] ، ولكنى رأيت فى وجهك نوراً فأردت أن يكون لى ، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعتَ بعدى » !

قلت : « زوَّجنى أبى آمنة بنت وهب » .

فانشدت :

لله مــــا زُهريـــــةٌ سلـــــبتْ منكَ الذى استلبت وما تدرى !

---

(١) الحوار بنصه عن « ابن اسحاق » فى السيرة : ١ / ١٦٥ . وفى طبقات ابن سعد (١ / ٩٦) مع خلاف يسير فى بعض ألفاظ .

(٢) قال ابن سعد : ذهبت كلمتها هذه مثلاً . انظره فى مجمع الأمثال للميدانى : ٢ / ٣٤ .

(٣) هذه عبارة ابن سعد فى الطبقات ١ / ٩٦ ، ومثلها فى الطبرى : ١ / ١٧٤ ، وابن الأثير ٢ / ٤ ، وفى نهاية الأرب : إنى والله لست بصاحبة زنية ١٦ / ٦١ .

ثم قالت فى تحسر ، من أبيات :[٢]

ولما قضت منه « أمينة » ما قضت   نبا بصرى عنه وكلَّ لسانى

وسألتُ الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عنى ؟ .. فأجابت :

« مررتَ بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتُك فأبيتَ علىَّ ، ودخَلتَ على آمنة فذهبتْ بها »

وصمت « عبد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله » .

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن طلبت من زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « بنت نوفل » .

فتساءل « عبد الله » وقد رابه ما يبدو عليها من اهتمام :

ــ ولماذا تسألين عن بنت نوفل دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

ــ ستعرف بعدُ ، فهلا أعدتَ لى ما قالت ؟

فلم يسع عبد الله إلا أن يقول :

ــ سألتها : مالَكِ لا تعرضين علىّ اليوم ما كنتِ عرضتِ علىَّ بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة .

فعلّقت « آمنة » بعد فترة تفكير :

ــ والله يا ابن العم ، إنى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فهذه المرأة أخت « ورقة بن نوفل » وهو ــ كما تعلم وأعلم ــ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

(١ ــ ٢) وانظر بقية الأبيات فى طبقات ابن سعد (١ / ٩٧) تاريخ الطبرى (٢ / ١٧٤) والروض الأنف : ١ / ١٨٠ ، ونهاية الأرب : ١٦ /٧٧

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير :

ـــ تراني نسيت أن فاطمة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك ، وأنها كاهنة خثعم[1] .

فحدق « عبد الله » فى زوجته ملياً ثم هتف :

ـــ ترين يا آمنة أننا ...

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى رؤيا ملهمة استعادت فيها كلّ الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من أشعار ودلائل ، مرهصة عن نبى منتظر !

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن الإلمام بها ، و « عبد الله » إلى جانبها ساهر يقظان ، يرنو فى نور الفجر الوليد إلى الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة تحلم .

حتى إذا دنا الصبح ، استيقظت العروس « آمنة » من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعاً من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفاً يهتف بها : « إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ... »[2] .

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياماً لم يحدد لنا الرواة عددها ، ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ، إذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة إلى غزة والشام فى عِير قريش .

وأغلب الظن أن كلام « بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى « آمنة » قد شغل أويقات السمر فى تلك الأمسيات المعدودات التى قضاها

---

(١) ابن سعد : ١ / ٩٦ ، وتاريخ الطبرى : ٢ / ١٧٤ والنهاية لابن الأثير : ٢ / ٤ .

(٢) السيرة : ١ / ١٦٦ وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٨

العروسان معاً قبل أن يفترقا ، وأن الأحلام قد حلقت بهما فى آفاق عالية ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قلّ من شارفها أو طمح إليها .

وربما تذكرا خبر « سوداء بنت زهرة الكلابية » إذ وُلِدَتْ ورآها أبوها زرقاء شيماء فأراد وأدها ، فأتى الحجونَ ليدفنها هناك ، فلما حفر لها الحافرُ سمع هاتفاً يقول :

« لا تئد الصبية وخلّها فى البرية » ...

وتكرر ذلك ، فعاد إلى أبيها فقال : إن لها لشأنا ، وتركها . فكانت كاهنةَ قريش ، فقالت يوماً لبنى زهرة : إن فيكم نذيرة أو تلد نذيراً ، فاعرضوا علىّ بناتكم . ففعلوا ، فقالت لكل واحدة قولاً ظهر بعد حين . حتى عُرِضَتْ عليها آمنةُ فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيراً[1]

* * *

---

(١) الروض الأنف : ١ / ٢٤٥ .

المبحث الرابع

العروسُ الأرملة

— بِـــرَاق

— رسُـــول إلى يثرب

— غائب لا يئوب . .

فِـــرَاق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودّع « عبد الله » زوجه الحبيبة حين أذّن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت به وقد ساورها هاجسٌ من قلق وتوجس ، ارتعدت منه . فربت « عبد الله » على يدها اللطيفة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لا يعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ...

ثم انتزع نفسه منها ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ـــ إن هى إلا بضعة أسابيع ، ثم أعود إليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة ....

فهمست فى صوت شِبه مختنق :

ـــ وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب ملاصفا :

ـــ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفاً بك محوماً عليك ، وترعَين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبداً إلى أعز موضع ، ويحن إلى أحب وأجمل مَن خلق الله !

فتراخت يداها وأنّت فى ضعف :

ـــ ويلى يا عبد الله من ليالىّ الطوال !

فصاح بها وهو يخطو نحو باب البيت ووجهه إليها :

ـــ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوالَ لياليك رُؤى مؤنسة . أفنسيت حديثَ بنتِ نوفل ، وفاطمة بنت مر ، ورؤيا الأمس القريب ؟

وإذ بلغ الباب ، انفلت مسرعاً قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ، على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها الموحش ، وقد وضعت يدها على قلبها خشية أن يتمزق ...

وأدركتها بعد ساعة ، جاريتها « بركةُ أم أيمن » فقادتها برفق إلى فراشها ، ثم جلست إلى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ...

* * *

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى بيتها لا تبرحه ، تجتر أشجانها وترسل قلبها فى أثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصاً على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجَن وشجو .

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الأولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقاً لطيفاً . روى ابن سعد من طريق الواقدى بسنده إلى عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدى ، عن أبيه عن عمته ، قالت : كنا نسمع أن رسول الله ﷺ لما حملت به أمه كانت تقول :

« ما شعرت بأنى حامل به ولا وجدت له ثقلةً كما تجد النساء ، إلا أنى أنكرت رفعَ حيضتى ، على أنها كانت ربما ترفعنى وتعود ، فأتانى آت وأنا بين النوم واليقظة فقال هل شعرتِ أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى . فقال : إنك حملتِ بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين . فكان ذلك

مما يقن عندى الحمل »[1] .

وعن الزهرى ، قال : قالت آمنة : لقد علِقتُ به فما وجدت مشقة حتى وضعته »[2] .

وودت لو طارت بالبشرى إلى « عبد الله » .

واستعادت شيئاً من إشراقها ، وقد هوّن عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمتْ ، وأن كلِ يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينًا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

وأهلّ الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ، فتهيأت « آمنة » للقاءِ وشيك ، وراحت تعد ما بقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد إليها متلهفاً يحدثها عما لقى فى بعدها من حرّ الشوق ولهفة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه الشجى ؟

بهذا شغلت « آمنة » فى الفترة التى سبقت عودة القافلة ، ثم لما لاحت طلائعها ، خفق قلبها ووقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ...

وطال بها الانتظار حتى ساورتْها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة إلى غيبة جاريتها « بركة » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعجل بالبشرى إلى سيدتها .

(١ ــ ٢) طبقات ابن سعد ١ / ٩٨ ، وقوبل عليه عيون الأثر : ١ / ٢٥ ، وانظر معه شرح المواهب للزرقانى : ١ / ١٠٦ وترجمة عبد الله بن وهب بن زمعة التابعى فى بابه من تهذيب التهذيب .

وقد اختلفت الروايات فى المكان الذى حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففى قول انها حملت به فى شعب أبى طالب عند الجمرة الوسطى ، قاله الزبير بن بكار (عيون الأثر ١ / ٢٦) ، وفى قول إنها حملت به فى بيت آلها بنى زهرة (الاستيعاب لابن عبد البر : ١ / ١٦) وهو الأرجح .

وتناهى إلى أذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يَعجَل إليها ؟

لعله لقى ــ فى طوافه بالكعبة إثر عودته ــ من احتجزه حيناً ...

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله إلا أن يمشى على مهل ، رعاية لشيخوخة أبيه ...

أو لعل ... ولعل ....

رسولٌ إلى يثرب

ثم ... سمعت خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لا تكاد تتماسك من انفعال ، حتى إذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتْها قدماها ، فوقفت حيث هى ، واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وإنما جاء « عبد المطلب » الشيخ فى صحبة أبيها ونفر من أهليها الأقربين ، وقد غشيتْ وجوههم غاشيةٌ من القلق .

وكانت « بَرَكة أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها ...

وقال قائل من أهلها ، وهو يتحاشى النظر إليها :

ــ بعضَ الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر ما يدعو إلى مثل ذلك الجزع . عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحَرَم ، فلما افتقدنا « عبد الله »أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه إلينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالماً إليك وإلى مكة وقريش ...

وانحلت عقدةٌ ربطت لسان « عبد المطلب » فعقَّب قائلاً :

ــ هو ذاك يا آمنة . . . وعكة هينة ولا شيء أكثر ، وقد قال الرفاق : خلَّفناه بيثرب عند أخواله ، فبعثتُ إليه أخاه الحارث(1) ، كى يكون معه ، ويصحبه فى طريقه إلينا ، فثوبى إلى صبرك وادعى له ...

---

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ، والواقدى فى طبقات ابن سعد (١/ ٩٩) واليعمرى من طريقه (عيون الأثر ١ / ٢٦) والذى فى النهاية لابن الأثير (٢ / ٣) ان الأخ الذى توجه إلى يثرب كان الزبير لا الحارث .

قالت فى ضعف : أفعل يا عم !

وانصرفت من فورها إلى الابتهال والدعاء ، فلم تكد تشعر بالقوم حولها ، حتى غادروها إلى الكعبة خاشعين ضارعين ...

* * *

وأتم الشهر الثانى دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، وتلوذ بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتُدى بالأمس أغلى فداء ...

وكانت تعاودها ، فى لحظات نومها القصيرة ، رؤيا مُلِحَّة ، عن جنين عظيم تحمله ، وتسمع الهاتف يبشرها بأعظم بنوة ، فإذا آبت إلى يقظتها شقَّ عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تقضى إليه بالذى ترى وتسمع ...

....

غائبٌ لا يئوب

وبعد حين ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ...

عاد لينعى أخاه الشاب ، إلى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، وبنى هاشم والقرشيين جميعاً ...

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى النجار ، على اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها ...

ودفن هناك ــ قبل وصول أخيه ، على أرجح الأقوال ــ و لم يُقبل فيه هذه المرة أى فداء !

وجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ...

* * *

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياماً لا تكاد تصدق النعى ، حتى إذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، ويُرْوَى لها فى رثائه :[1]

عفا جانبُ البطحاء من زين هاشم
وجاور لحداً خارجًا فى الغماغم
دعتْه المنايا دعوةً فأجابها
وما تركتْ فى الناس مثلَ ابن هاشم

(١) ابن سعد عن الواقدى : ١ / ١٠٠ السهيلى : ١ / ١٠٧ ــ والزرقانى : ١ / ٢١٠ ــ والنويرى : ١٦ / ٦٦ .

عَشيَّـــةَ راحـــوا يحملـــون سريـــره
تعـــاوَرَه أصحابُـــهُ فى التزاحـــم
فـــإن يَكُ غـالتْـــه المنـــونُ وريبُهـــا
فقـــد كان مِعطـــاءً كثيـــرَ التراحـــم

ثم أمسكت لا تزيد ...

ووجد عليه « عبد المطلب » وإخوته وأخواته وجداً شديداً[1] .

ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على الشاب الذى غالته المنون غريباً ولما ينزع عنه ثوب العرس ، وصحلت من النواح عليه حلوق بُحَّتْ من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ...

كان فى ريعان شبابه[2] ، حين غاله الموت إثر فرحة الفداء !

وترملت العروس الشابة ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

....

---

(١) ابن سعد عن الواقدى ١ / ٩٩ ، النويرى : ١٦ / ٦٦

(٢) فى الثامنة عشرة : (السهيل ١ / ١٨٥ والعيون ١ / ٢٤) ونقل ابن سعد طبقاته عن الواقدى ان سنه كانت يوم وفاته ، خمساً وعشرين سنة ، وقيل ثلاثون (عيون الأثر ١ / ٢٤) وانظر نهاية الأرب : ١٦ / ٦٦ . والحاوى للفتاوى ٢ / ٢٣٠ .

المبحث الخامِس

أمّ اليتـــيم

- الجَنــــين
- الوليــــــد
- الرضــــــيع

الجَنِيْن

ما مضت فترة من الرسْلِ إلا
بشرت قومَها بك الأنبياءُ
فهنيئا به لآمنةَ الفضـ
ـلُ الذى شَرُفتْ به حواء
مَن لحواءَ أنها حملتْ أحمـ
ـدَ أو أنها به نُفساء

(البوصيرى)

وانفضَّ المأتم ...

ولكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيداً عن يثرب ...
كانوا فى حيرة من أمره :

لقد كتب الله تعالى عليه الموت هكذا سريعاً ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نُحرت الإبل المائة بالحرم ، وتُرِكت لا يُصَد عنها إنسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى ، على قيدِ خطوات معدودات ؟

وفى مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهى فى وحدتها تجتر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من شدة المصاب ، حتى خيف عليها ، فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء . .

وناشدوها الصبرَ الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، كأنهاوجدت فيه خيانة لذكرى الحبيبِ الذى رحل ...

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفة ، أن تشتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة » شهراً وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، إلى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ...

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيها العواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لا تفتأ تسائل كل وافد ووافدة من أهلها :

فيم كان العرس الحافل ، ويدُ القدر تحفر له لحدَه بيثرب ؟

على أنها ما لبثت أن أُلهِمَتْ فى نجواها :

كأنى عرفت سِّرّ الذى كان : إن عبد الله لم يُفتد من الذبح عبثا ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة حيًّا فى رحِمى ، والذى من أجله يجب أن أعيش ...

ومن تلك اللحظة المباركة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت أحزانها فى أعماقها ، وبدأت تفكر فى ابنها الذى يحيا بها ويحييها ...

وقبل أن أنتقل إلى الحديث عن أمومة « آمنة » أقف قليلا لأشير إلى اختلاف الروايات فى وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين فى رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

لا مراء فى أن الرسول يتيم ، وقد نزلت بهذا آية الضحى : « **ألم يجدك يتيماً فآوى** » والمشهور ، أنه ــ ﷺ ــ ولد يتيماً . وقد اكتفى « ابن اسحاق » بهذا ، دون أن يشير إلى أى خلاف فيه . قال : « .. ثم لم يلبث عبد الله ابن عبد المطلب ، أبو رسول الله ﷺ ، أن هلك وأم رسول الله ﷺ حاملٌ

به » ونقل معه ابن سعد عن الواقدى وعن ابن الكلبى أقوالا أخرى ثم عقب عليها بقوله : « والأول أثبت ، وهو أن عبد الله توفى ورسول الله ﷺ حمل .. »[1]

وقدم الحافظ ابن عبد البر ، القول بوفاة أبيه « وأمه حامل به » وبعده : « وقيل وهو ابن ثمانية وعشرين شهرا . وقيل وهو ابن سبعة أشهر »[2] .

وأشار « البرزنجى » إلى الخلاف بقوله :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائداً من الشام »[3] .

* * *

تسامعت بيوتات مكة بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل قريش على دار عبد الله ، يهنئن آمنة ، ويصغين إلى ما كان من بشريات المولد المبارك .

وكانت بلاد العرب آنذاك ، تموج بأقوال مرهصة بنبىٍّ منتظر ، قد تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب[4] .

ولعل العرب لم يلقوا بالاً — أول الأمر — إلى هذا الذى ذاع وانتشر ، غير أنى أكاد أطمئن إلى أن « آمنة » قد ألقت كل بالها إلى تلك المبشرات ، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل ...

وقد بقى فى مسمعها صدى قوى مما ذكرته أخت ورقة بن نوفل وفاطمة بنت مر — وقد كانت فيما روى الطبرى وابن الأثير كاهنة من خثعم — عن

---

(١) السيرة : ١ / ١٦٧ . رواية ابن هشام ، ولم يعقب عليها بخلاف ، وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٩ ، ومعها الروض الأنف ١ / ١٨٤ .

(٢) الاستيعاب : ١ / ٣٣ .

(٣) المولد النبوى : ص ١٢ .

(٤) بتفصيل ، فى الشمائل للترمذى ، والشفا للقاضى عياض ، والسيرة الشامية ١/١٢٧ وما بعدها ، وشرحها فى الروض الأنف ١/١٨٠ — ١٨٤ ، وعيون الأثر ١/٢٦ — ٣١ ، ونهاية الأرب ، الجزء ١٦ ... والمبشرات والدلائل فى المصنفات الحديثية . . .

النور الذى انتقل من « عبد الله » على إثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأرباً ..

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم القبيلة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن نساء هذه البيئة ، أن يرنون إلىٰ بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجداً لم يسبق إليه أحد ...

* * *

وجمهرة المؤرخين المسلمين ، لم يتهموا المرويات عن الهواتف والبشريات للسيدة آمنة ، عندما حملت بسيد البشر ... وإن كان « الدكتور هيكل » قد مر بهذا عابراً دون أن يشير إليه ، فقال :

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى »[1] .

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى إباء صريحاً ، حتى « بودلى » وهو من أكثرهم إنصافاً وإعجاباً بالرسول ، ﷺ ، رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبياً . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه ... وإنما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع »[2] .

من عجب أن يقرر مثله أن محمدا ، صلى الله عليه وسلم « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » ثم ينكر عليها ما يجوز على كل أنثى من البشر ، تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟ وأن يصف ما تواترت به المرويات عن خواطرها ورؤاها بأنها « خرافات لا يقبلها عقل » ؟

---

(١) حياة محمد : ٦٩ .

(٢) الرسول : ص ٢٥ .

أوَ ليس من حقها ، أن يتعلق طموحها للجنين الذى تحمله ، بمجدٍ لم يكن لأحد من قبله ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى أحلام « آمنة » خرافات ! وإنما الخرافة حقاً أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، إلا حلمت لوليدها بأقصى ما تسمح به بيئتها وظروفها . وقد كانت بيئة « آمنة » ما نعرف عزاً وشرفاً وعراقة وحسباً ، كما حفَّت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تُبعِدَ بآمنة رؤاها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها معاوية سيسود قومه قائلة : ثكلتْه أمُّه إن لم يسد إلا قومه ؟[1] .

لا نقول لبودلى وأمثاله ، إلا أن « آمنة » فى هذا كله ، هى هى حواء فى كل زمان ومكان ... دون أن نكرههم على تصديق ما تناقله رواة العرب من أخبار عما سمعت المنجبات العربيات من هواتف البشرى بالمجد المنتظر للأجِنَّة فى أرحامهن ، كمثل ما رووا عن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يا لكِ ليلى من وَلَدْ
يُقدم إقدامَ الأسدْ
من جُشَمٍ فيه العدد
أقول قولاً ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنةً أتاها ذلك الهاتف ليلاً فقال :

إنى زعيم لكِ أمَّ عمرِو

---

(١) راجع عيون الأخبار لابن قتيبة : ١/٢٢٤ .

بماجدِ الجد كريم النجر
أشجعَ من ذى لُبدٍ هِزَبْرِ
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومَه ولم يجاوز خمس عشرة سنة ...

وكذلك رووا أن « عتبة بنت عفيف » أتاها الهاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائى » فسألها :

ـــ أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك ، أم عشرة غلمة كالناس ... ؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفاً هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ـــ أعشرة هدرَة ـــ جمع هادر وهو الساقط ـــ أحب إليك ، أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ـــ إن عاد الثالثةَ فقولى : ثلاثة كعشرة .

ففعلت ، وولدت : خالداً ، ومالكاً ، وربيعة ، وعُدّت بهم إحدى منجبات العرب .

و « بودلى » قد اتخذ من كتاب السيرة والمؤرخين الإسلاميين الأُوَل ، مصادر ومراجع فى كتابه عن « الرسول » ، وزاد فاعتمد أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ـــ ﷺ ـــ إذ « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبداً ، لقد كان راعياً ، ارتدى نفس الثياب التى يلبسونها ، وامتطى إبلاً كما يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . إنهم ليشاركونه فى كل ما فعله فهو بالنسبة لهم حى كفرد منهم ..

« لذلك كانت استعادة ذلك المشهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرناً بالنسبة لى ، أيسر من وصف جامعىٍّ فى أكسفورد ، الحياة فى عصر إليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال .. عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ...

« إنى أعرف العرب عن كثب ، وإنى أحبهم ، وقد عشت فى خيامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيع أن أفكر كما يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته » .

فما باله بعد هذا ينكر إجماع كُتّاب السيرة على ما رأت « آمنة » من بشائر بمولد مَن كانت الجزيرة ملأى بالإرهاصات عن قرب مولده ؟

قد يكون له ولقومه عذرهم فى موقفهم من هذه الهواتف والرؤى والبشريات ، من حيث هى عندنا من دلائل النبوة وأعلامها . لكن ما عذرهم فى إنكارها ، والحوامل قبلها وبعدها ، وإلى يوم تنتهى الحياة على هذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن وسيعرفن الهواتف والرؤى والأحلام ؟!

أو ليس مبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفها كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وإنما يختلف مدى الطموح ومجال الأحلام ، على قدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله بيئتها ويمتد إليه بصرها !؟

السيدة « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، وُلدت فى « أم القرى » فى جوار البيت العتيق ــ تلك البيئة التى عرفناها ، بكل حرمتها الدينية العريقة ، وما حف بها من السنى والجلال ــ تزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » يوم افتدائه من النحر على نحوٍ يُذكّر بجده الأعلى اسماعيل ، وهى يومئذ ، كما يقول ابن إسحاق ، شيخ كتاب السيرة : « أفضل امرأة فى قريش نسباً وموضعاً » . . .

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدِّهن عنه لما تزوج بها ، وليكن ذلك ــ فى أدنى حالاته ــ تخيلا منهم وانفعالا بموقف

الفداء . أفلا يؤثر فيها ذلك حين تحمل جنينها الأول : حفيدَ المنافَين[1] ، وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو إليه خيالها ويمتد إليه أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ما تواترت به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ، وما أسنده الواقدى عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم ؟[2] .

* * *

ونستأنف صحبة السيدة « آمنة » من حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبد الله » إلى غير مآب ، وخلفها فى حزن قاسٍ ، لم يلطف منه إلا حركة الجنين فى رَحِمِها .

حتى إذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصيل ، يطلب إليها أن تتهيأ للخروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم أن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن ...

وكانت « آمنة » قد سمعت بقدوم « أبرهة » هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تُقدّر أن الأمر قد بلغ من الخطر حداً يدفع قريشاً إلى الخروج من بلدهم الأمين ...

وسألت «آمنة » عبد المطلب :

ــ علمتُ يا عم أن قريشاً وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جَدّ فى الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

---

(١) المنافان : عبد مناف بن قصىّ بن كلاب ، الجد الثالث للرسول ﷺ من جهة أبيه ، وعبد مناف بن زهرة بن كلاب ، جد آمنة بنت وهب .

(٢) السيرة : ١ / ١٦٦ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ٩٨ .

قال :

ـــ عرفوا ألا طاقة لهم بأبرهة ، فكرهوا معركة غير متكافئة، تضعف فيها قريش أمام العدو ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ...

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاءٍ كان بين شيخ مكة وطاغية الأحباش ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء ...

فأجابها الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى إليه أبرهة و لم أسع إليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له :

« سلْ عن سيد أهل البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول لك : إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فإن هو لم يُرِدْ حربى فائتنى به » .

وجاءنى « حناطة » فأبلغنى رسالة « أبرهة » وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يُخلِ بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه » .

قال حناطة :

ـــ فانطلق معى ، فإنه قد أمرنى أن آتيه بك ...

ففعلتُ ، ومعى بعض أبنائى ، وهناك مضى به إلى أبرهة أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال »[1] .

---

(١) ابن إسحاق ، السيرة : ١ / ٥٠ وما بعدها / الهشامية .

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن ترانى الحبشة معه على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى إلى جانبه ثم قال لترجمانه :

ــ قل له ما حاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىَّ الملكُ مائتى بعير أصابها لى ...

بدا على الملك كأنما صغُرت فى عينيه ، وخيبت ظنه فىّ ، وقال لترجمانه فى جفوة :

ــ قل له : قد كنت أعجبتَنى حين رأيتك ، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتُها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك لا تكلمنىْ فيه ؟

قلت على الفور :

ــ إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربّاً يحميه[1] ...

قال الفاجر مُدلاًّ بقوته : ما كان ليمتنع منى !

فأجبته متحدياً : أنت وذاك ...

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت ، فأبى متكبراً واكتفى بأن أمَرَ بردِّ إبلى إلىَّ ...

وانصرفنا ، فحَدثتُ قريشاً بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ...

* * *

(١) الحوار بنصه ، عن ابن إسحاق فى (السيرة ١ / ٥١) وانظر معه تاريخ الطبرى : ص ٩٤٠ من القسم الأول ط أوروبا .

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه إلى السماء وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَاهُمَّ إن العبد يمنع رحلَه فامنع حِلالَكْ
جروا جموعَ بلادهمِ ، والفيلَ، كى يَسبوا عيالَك
زاد الطبرى ، لعبد المطلب :
إن كنت تاركهم وكعبتَنا ، فأمرٌ ما بدا لك ؟[1]

يا رب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حماكا
إن عدوَّ البيتِ من عاداكا
امنعهمو أن يخربوا فناكا

فردَّدتْ « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سِواكا

ثم ودعها الشيخ وخرج ، على أن يبعث إليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل إلى الشِعب .

وخلت « آمنة » إلى نفسها تفكر فى الجنين الغالى الذى قاربت أن تضعه ، فعز عليها أن تلده بعيداً عن البلد الحرام وفى غير دار أبيه « عبد الله » .

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويسهر ليلتها ، لكنها أوت إلى فراشها وما يتخلى عنها إيمانها بأن الله مانع بيته ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وهى تتمنى ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، إلى أن يقضى الله أمره ...

---

(١) رواه الواقدى : إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك (طبقات ابن سعد ٩٢/١) .
وانظر الأبيات فى (السيرة : ٥٣/١) وفى (تاريخ الطبرى : ٩٤٠/١ ط . أوروبا) والروض الأنف : ٧٠/١ .

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار إلا أقله وهى فى عجب : لِمَ لم يبعث عبد المطلب رسوله إليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

ثم تناهى إليها من بعيد ، من أقصى الجنوب ، ضجيج مبهم مختلط ، لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وضراعة ؟

ألا إن وراء ذلك كله لأمرًا . . .

* * *

وأقامت « السيدة آمنة » ، تترقب ، حتى إذا آذنت الشمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب إليها أن تخرج إلى حيث تحرزوا فى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ...

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

رووا أن (١) « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله وعبّى جيشه مجمعاً لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف إلى اليمن . فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لا يقوم . فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق فتهيأ للانطلاق ، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة برك !

ثم كان أن سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء

(١) بتضمين ، من السيرة ١/ ٥٤ ، وتاريخ الطبرى قسم أول ص ٩٤٠ ط أوروبا .

مهلك ، رمتهم بجراثيمِه طيرٌ أبابيل ، فجعلتهم كعصفٍ مأكول ...[1]

وجُنُّوا من خوف ورعب ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » — وكان قد خرج مع قومه لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب — فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم إليه أن يدلهم على الطريق إلى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته :[2] .

أين المفر والإلهُ الطالبْ ؟
والأشرم المغلوب ليس الغالبْ ! -

أو يقول[3] :

وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علىَّ للحبشان دينـا !

« فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » .

ولم تكن أرض العرب قد شهدت — فيما روى ابن إسحاق عن يعقوب بن عتبة الثقفى ، حليف بنى زهرة — الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود ..

وأقبلت « قريش » على كعبتها المقدسة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديمًا لا يرام حريمُها[4]

---

(١) فيهم نزلت سورة الفيل :
﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ﴾ صدق الله العظيم .

(٢) السيرة : ١ / ٥٥ .

(٣) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة أبيات . (السيرة ١ / ٥٥) .

(٤) من أبيات لعبد الله بن الزبعرى السهمى ، شاعر قريش (السيرة ١ / ٥٩) وانظره فى : (الاستيعاب) .

سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى   ولسوف يُنبي الجاهلين عليمُها
ستون ألفًا لم يئوبوا أرضَهم   بل لم يعش بعد الإياب سقيمُها

* * *

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تدعو وقد أشرق وجهها بنور اليقين والإيمان ، وأحست غبطة الفرح ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها — ابن عبد الله — أن يولد بعيداً عن البلد الحرام .

....

الوليـــدُ

وُلِـدَ الهدى فالكائنــاتُ ضِيــاء
وفــمُ الزمــانِ تــبسُّمٌ وثنــاء
الــروحُ والملأ الملائك حولَــه
للديــن والدنيــا بــه بشراء
والعــرشُ يزهــو والحظيرة تزدهــى
والمنتهى ، والسِّدْرَةُ العصمــاء
(شـوق)

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى بعد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوماً وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل « السهيلى » فى الروض الأنف[1] .

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان فى سنة الفيل . وهو قول البخارى فى تفسيرسورة الفيل[2] .

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

«أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمداً ...

---

(١) وانظر الزرقانى ١٣٠/١ — والنويرى : ٦٨/١٦ . وعيون الأثر ٢٦/١ .

(٢) السيرة ١٦٧/١ . وعيون الأثر ٢٦/١ ، وصحيح البخارى ، ك التفسير ، مع (فتح البارى : ٥١٦/٨) .

وجاءها المخاض فى أوان السحر فجر الاثنين ، من شهر ربيع الأول ، من عام الفيل . وهى وحيدة فى دارها ليس معها أحد سوى جاريتها ، وفى رواية أن « أم عثمان بن أبى العاص الثقفى » كانت كذلك معها[1] — فأحست ما يشبه الخوف ، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها . ثم بدا لها كأن جمعًا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات هاشم ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ،غير أنها أدركت على الفور أن هؤلاء اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! وربما خيل إليها أن من بينهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل »

وزايلها كل ما كانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى من البشر !

فتقول أم عثمان بن أبى العاص : « فما من شىء أنظر إليه من البيت إلا نوّر ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو منى حتى إنى لأقول : لتقعنَّ علىَّ »[2] .

وأسند ابن سعد من عدة طرق ، عن أم محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قالت : « رأيت كأن شهابا خرج منى حتى أضاءت له الأرض »[3] . وعن أبى أمامة الباهلى ، رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « رأت أمى كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام » .[1] .

---

(١) هى الصحابية فاطمة بنت عبد الله رضى الله عنها : نساء الاستيعاب رقم ٤٠٥٩ ، والإصابة ، (٨٤٢) ، وعيون الأثر ٢٧/١ .

(٢) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب وابن حجر فى الإصابة ، من طريق ابن عبد البر ، وابن سيد الناس فى عيون الأثر ، من طريق ابن السكن .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٠٢/١ .

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد عن الواقدى (١٠٣/١) وانظر النويرى : ٧١/١٦ والروض الأنف للسهيلى ١٨٤/١ .

وأسند الحافظ ابن سيد الناس اليعمرى من طريق أبى بكر الخرائطى بسنده عن مخزوم بن هانىء المخزومى عن أبيه ، وأتت له خمسون ومائة سنة ، قال : « لما كانت ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارتجس إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبذان إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها » .

فذُكِر لهم سطيح الكاهن فطلبوه على مشارق الشام ، فعبر الرؤيا بدلائل المبعث وقضى مكانه .

وروى ابن حجر الطرف الأول من حديث هانىء المخزومى ، فى ترجمته بالإصابة ، من طريق ابن السكن بمثل إسناد الخرائطى . وذكر « ياقوت » فى (ساوة) حديث سطيح الكاهن فى أعلام النبوة [1] .

* * *

انبلج الصبح فكان أول ما فعلته الوالدة ، أن بعثت إلى الجد عبد المطلب ببشرى المولد . فأقبل مسرعا وملأ عينيه من طلعة حفيده ، وألقى سمعه إلى آمنة ، وهى تحدثه عن كل مارأت وسمعت حين الوضع . ثم حمل الوليد العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولداً من ابنه الفقيد الغالى .

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ويعوِّذ حفيده منشداً [2] :

---

(١) عيون الأثر ١ / ٢٨ ، والإصابة ، ترجمة هانىء المخزومى ، وهو ممن استدرك ابن فتحون على صحابة ابن عبد البر ، ومعجم البلدان لياقوت : ساوة .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، عن الواقدى (١ / ١٠٣) وانظر النويرى ١٦ / ٧١ مع الروض الأنف للسهيلى ١ / ١٨٤ .

الحَمدُ لِلّهِ الذى أعطانى
هذا الغلامَ الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان
أعيذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيان
أعيذه من شر ذى شنآن
من حاسد مضطرب العنان

ثم رده إلى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسباع الطير ووحش الفلاة .

وكانت مكة ، حين ذاعت فيها بشرى المولد ، قريبة عهد باحتفال النصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد « محمد » حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه للنحر ، ثم افتُدِى بالإبل المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثُوَيبة الأسلمية » جارية عمه « عبد العزى بن عبد المطلب » — أبى لهب — لم تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها . ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره فى الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاماً ، عندما جاءها الهاشمى اليتيم ، برسالة الإسلام .

وفيه ، وفى امرأته ، نزل قوله تعالى :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ ﴾

صدق الله العظيم .

فيقال إن « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته

بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، إلا أن العذاب خُفِّف عنى كل ليلة اثنين ، بماء أمصُّه من بين إصبعىّ هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى ﷺ .

* * *

ولن يمضى وقت طويل ، بعد المولد ــ أربعون سنة ــ حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر ، ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب وللإنسانية كلها ، وحتى تمتلىء الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التى وضعت فيها « السيدة آمنة » ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل إلينا[1] ، وقد أضافت إليها الليالى والأيام جديداً من رؤى المحبين ، ومواجد العاشقين وملهَمات الشعراء .

وكلما دار عام القمر دورته ، لِشهرِ ربيع الأول ، أصغى الزمان فى ذكرى تلك الليلة الميمونة ، إلى هتاف الملايين من المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، يرتلون قصة « المولد » ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن ، لما حفَّ به من خوارق وغرائب :

« زيدت السماء حفظاً ، ورُدَّ عنها المردةُ وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجمت الجنُّ وتدَّلت إليه ﷺ الأنجمُ الزهرية ، واستنارت بنورِها وِهادُ الحِرم ورُباه . وخرج معه ﷺ نورٌ أضاء قصورَ الشام القيصرية ، فرآها من بطاحِ مكةَ دارِهِ ومغناه . وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروان سَمْكه وسوّاه . وسقطت أربعٌ وعشرٌ من شُرفاته العلوية ، وكُسِرَ

(١) الشمائل للترمذى ، والشفا للقاضى عياض .
وانظر معهما (عيون الأثر : ٢٧/١) والجزء السادس عشر من (نهاية الأرب) وشرح المواهب للزرقانى .

سريرُ المِلِك كسرى لهولِ ما أصابه وعَرَاه . وخَمَدَت النيرانُ المعبودةُ بالممالك الفارسية ، لطلوع بدرِه المنير ومُحيَّاه ..» ..

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء ، من وحى الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد :

بكَ بشَّر اللهُ السماءَ فَزُيِّنَتْ وتضوعت مسكاً بكَ الغبراءُ
يومٌ يَتيهُ على الزمان صباحُه ومساؤه بمحمــــــد وضاء
ذُعِرتْ عروشُ الظالمين فزلزلت وعلَتْ على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةُ الجوانبِ حولَهم خمدت ذوائبُها وغاض الماء
والآىُ تترى ، والخوارقُ جمَّةٌ جبريلُ روّاح بها غَـدّاء ![1]

* * *

وفى أفراح الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبدالمطلب » : لِمَ عَدَلَ عن أسماء آبائه وسمَّى حفيده محمداً ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعاً فيهم فى الجاهلية ، وإنما ظهر قبيل المبعث . وقد تقصى أبو جعفر بن حبيب البغدادى النسابة ، (المسمَّين بمحمد لما كان يبلغهم أنه يُبعث فى العرب نبى يقال له محمد ، فجعل الله النبوة لمحمد صلى الله عليه وسلم) وهم ستة لاسابع لهم ، سماهم بأسمائهم[2] .

ثلاثة منهم ذكرهم السهيلى بمزيد تفصيل قال :

« لا يُعرف فى العرب مَن تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة ، طمع آباؤهم ــ حين سمعوا بذكر محمد ﷺ ، وبقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز ــ أن يكون ولداً لهم ... وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع ــ جد الفرزدق الشاعر ــ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ... ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده عِلم

---

(١) من نبويات أمير الشعراء : أحمد شوقى .

من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى ﷺ وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر إن وُلِدَ له ذَكَرٌ أن يسميه محمداً ... »[1] .

وعقد القاضى عياض فى (الشفا) فصلا فى أسمائه صلى الله عليه وسلم ، قال فيه :

« وأما محمد ، فإن الله تعالى حمى أن يسمى به قبل زمانه أحد من العرب ، ولا من غيرهم ، إلى أن شاع قبيل وجوده وميلاده ﷺ أن نبياً يبعث اسمه محمد ، قد قرب إبان مولده ، فسمَّى قومٌ قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« وقال أبو جعفر ، محمد بن حبيب : وهم ستة لا سابع لهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ــ ولد بعد المصطفى وقبل المبعث ــ ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، لا سابع لهم »[2] .

* * *

سألتْ « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محموداً فى الأرض وفى السماء ...

ونقل السهيلى رؤيا لعبد المطلب ، ذكرها على القيروانى فى كتاب البستان : رأى كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف فى السماء وطرف فى الأرض ، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها . فقصَّها فعُبِّرت له بمولود من صلبه يتبعه أهل المشرق

---

(١) المحبر : ١٣٠ ، الروض الأنف : ١٨٢/١ . وانظر فى طبقات ابن سعد (ذكر من تسمى فى الجاهلية بمحمد رجاء أن تدركه النبوة ، للذى كان من خبرها) ١٦٩/١ .

(٢) الشفا : ١٤٥/١ ، المحبر : ١٣٠ ، وانظرهم فى النويرى : ٧٦/١٦ ، وانظر عيون الأثر ٣١/١ .

والمغرب ، ويحمده أهل السماء والأرض (الروض ٨٢/١) ـــ وهذه الرؤيا ، نقلها ابن سيد الناس فى عيون الأثر (٣٠/١) من طريق أبى الربيع سالم ، الكلاعى ، صاحب الاكتفا .

ويعلق « بودلى » على تلك الإجابة قائلاً : « ... وأياً كان السبب ، فقد أصبح اسمُ الطفل محمداً ، وتسمَّى به ملايين الأطفال الذين وُلدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن « آمنة » من عبد الله ، أن ينشره على العالمين ... »

* * *

الرضِيعُ

« ... فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد ـــ ﷺ ـــ فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ؟! وما عسى تصنع أمه وجده ؟

« فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبي : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ...» (حليمة السعدية)

أحست « السيدة آمنة » بعد أن وضعت وليدها ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها المبشَّر بأنه سيد البشر . كما انتهت رسالة أبيه « عبدالله » منذ أن أودعه جنيناً فى رَحِمِها . فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، إلى حد أثَّر فى صحتها ، وإن قدَّرت أن جزءاً منَ رسالتها لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يبلغ معها السعىَ ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه إلى يثرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالى ...

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيداً عن جو مكة الخانق . لكنَّ لبن « آمنة » جفَّ بعد أيام ـــ ويعلل « بودلى » ذلك بأنه أثرٌ لما أصابها من حزنٍ لموتِ

زوجها ـــ فدفعت به إلى « ثويبة » جارية عمه « عبد العزى » ، وكانت قد أرضعت قبله عمه « حمزة بن عبد المطلب » بلبن ابنها مسروح[1] .

ثم لم تمض إلا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعرض عليهن « محمد ابن عبد الله » فزهَّدَهُنَّ فيه يتمُه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبَه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » فى حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالًا ، وأعجلته منيتُه فى مقتبَل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، فكان الذى ترك لولده وأمه ، جاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وخمسة أجمال أوراك ـــ يعنى تأكل الأراك ـــ وقطعة غنم[2] .

وإنها ـــ كما يقول الدكتور هيكل ـــ لثروةٌ ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليل البيت الهاشمى القرشى العريق ...

وثقُل على السيدة آمنة ، أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن إلى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يُرجَى منهم الخير الوافر . لولا أن عادت إحدى المراضع تلتمس « محمدًا » بعد أن انصرفت عنه أول النهار . كانت هذه المرضع : « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى » زوجة « الحارث بن عبدالعزى : أحد بنى سعد بن بكر بن هوازن » ..

وكان لهما من الولد ، الذين شرُفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبدالله ، وأنيسة ، والشيماء التى كانت تحضُن الرضيع الهاشمى مع أمها[3] ...

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر ١/٣٧٠ وعيون الأثر ١/٣٢ ، والسيرة الحلبية ١/٨٥ .

(٢) رواه ابن سعد عن الواقدى الطبقات ١/١٠٠ ونقله النويرى فى نهاية الأرب : ١٦/٦٧ ..

(٣) السيرة : ١/١٧٠ ، وابن سعد فى الطبقات ، بخلاف يسير : ١/١١١ والزرقانى : ١/١٤٦ ، والنويرى : ١٦ / ٨١ .

وجاء فى شرح المواهب ان لقبها « الشماء » بغير ياء . واختلفوا فى اسمها : ففى الاصابة والروض الأنف أنها « حذافة » وفى رواية بهما : خذامة » وفى تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد : « جدامة » . وجزم أبو عمر بأنها حذافة ، بالمهملة والفاء (الاستيعاب) .

حدثت « حليمة » عن خبرها مع الرضيع اليتيم ، فيما روى « ابن إسحاق » ، شيخ كتاب السيرة ، نقلاً عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » رضى الله عنهما ، يقول :

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله ﷺ التى أرضعته ، تُحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تُبق لنا شيئاً ، فخرجتُ على أتان لى قمراء — أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله ما تبضُّ بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمعَ من صبيِّنا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، وما فى ثدييَّ ما يغنيه ، وما فى شارفِنا ما يُغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيثَ والفرج ، فخرجتُ على أتانى تلك ... حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها محمد — رسول الله ﷺ — فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أنَّا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ .. وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ ..

« فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعاً ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلتُ لصاحبى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعاً . والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه .

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ...

« فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره . فلما أخذتُه رجعتُ به إلى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة ...

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلّمى والله يا حليمة لقد أخذتِ نسمة مباركة ! فقلت : والله إنى لأرجو ذلك ...

« ثم خرجنا وركبتُ أتانى وحملت محمداً عليها معى ، فوالله لَقطعتْ بالركب ما يقدر عليها شئٌ من حُمرُهم ، حتى إن صواحبى ليقلن لى :

ــ يا ابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله إنها لهى هى !

« فيقلن : والله إن لها لشأنا ...

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علَّى ، حين قدمنا به معنا ، شِباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان غيرنا ... قطرة لبن ، ولا يجدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

« ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامُهم جياعاً ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمى شباعاً لبناً . فلم نزل نتعرفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سنتاه وفصلته »[1] .

* * *

هكذا نما الرضيع وترعرع فى رحاب البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها .

كيف أمضت الأم أيامها حين كان وحيدها بعيداً عنها مع أمه الأخرى « حليمة » فى بادية بنى سعد ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل هو أنها وضعتِ وليدها « سيد البشر » . .

على أنا لسنا بحاجة إلى من يخبرنا أنها أقامت فى دار « عبدالله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله ...

---

(١) السيرة الهشامية : ١/١٧١ ، عيون الأثر ١/٣٣ .

وهاجت الأحزانَ المطوية فى أعماقها ، وحدتُها الموحشة إثر ذهاب ابنها إلى البادية ، فأرهقتها إرهاقاً لم يكن لها عهدٌ بمثله إبَّان حملها ، وحين كان « محمد » معها ...

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويداً ، وهذه هى تُشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار ولدها الحبيب ، وتُسلِّى همَّها بتمثُّله إذ يعود فيملأ دنياها أنساً ونوراً .

* * *

واستبطأت عودةَ « حليمة » بالحبيب ، ولعلها همَّت غير مرة بأن تبعث إليها من يسترجعه بعد أن استكمل عامى رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها كأنما لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو إليه مغتبطة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنضج وكأنه ابن أربع سنين ، وما مكث عندهم غير سنتين(١) .

وإذ أحست « حليمة » غبطة الأم بصحة الصبى عزيز ، راحت تحدثها عن جّو مكة — وقد كان إذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة — و« آمنة » تلقى إليها بعض سمعها ، إذ كانت فى شغل به عنها .

حتى تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :

— لو تركتِ بُنَّى عندى حتى يغلظ ، فإنى أخشى عليه وَبَأَ مكة ؟

وفى رواية لابن سعد عن الواقدى ، أن آمنة هى التى قالت لحليمة . ارجعى بابنى فوالله ليكونن له شأن »(٢)

ورجعت الأم البصر إلى ابنها فترة فرأته حقاً قد أينع فى جو البادية النقى الطليق ، وحملها قلبها النابض بالحب والحنو والإيثار ، على مزيد من الاحتمال والتصبر ، فى سبيل ما تعلم حقاً أنه أنفع لولدها وأفضل .

---

(١) طبقات ابن سعد ، عن الواقدى : ١ / ١١٢ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٣ وطبقات ابن سعد : ١ / ١١٢ ، وعيون الأثر ١ / ٣٤ من طريق ابن إسحاق .

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها وحشة وشجن ...

وانطلقت به « حليمة » راجعةً إلى مراعى بنى سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، إذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوه من بركته » .(١)

* * *

ثم ، لم تمض إلا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك إلى أمه ، وهى بادية القلق . . . ولم تذهب فرحةُ اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ـــ ما أقدمكِ به يا ظئر وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثِه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ـــ قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخوفت الأحداثَ عليه ، فأديتُه إليك كما تحبين (٢) .

ولم يُقنع جوابُها هذا « آمنه » ، ولم يذهب بشىء مما خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أبنأتها بالخبر :

قالت ، فيما رُوِى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

« فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع أخيه ـــ من الرضاعة ـــ لفى بَهم لنا خلف بيوتنا ، إذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه :

ـــ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه .

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً ممتقعاً وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك يا بُنى ؟

(١) السيرة : ١ / ١٧٣ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٤ ، ونحوه مع خلاف يسير فى رواية ابن سعد عن الواقدى عن أصحابه . وعيون الأثر ١ / ٣٤ .

قال : جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى وشقاً بطنى ، فالتمسا شيئاً لا أدرى ما هو ...

فرجعنا به إلى خبائنا ، وقال لى أبوه : يا حليمة ، لقد خشيتُ أن يكون الغلام قد أُصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به .

فاحتملناه فقدمنا به ... والله إنا لا نرده إلا على جَدْع أنفنا » (١) .

وأصغت الأم « آمنة » إلى القصة دون أن تبدو عليها بادرةُ خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال : أفتخوفتِ عليه الشيطان ؟

ردّت حليمة : نعم .

فقالت آمنة : كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنيَّ لشأناً ، أفلا أخبرك خبَره ؟

فقالت حليمة : بلى !

فحدثتها « آمنة » بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم قالت :

«... فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخفَّ من حمله ولا أيسر منه ، وقع حين ولدتُه وإنه لواضعٌ يديه على الأرض رافعٌ رأسه إلى السماء ... دعيه عنك وانطلقى راشدة » ...

فظهر على « حليمة » أنها تذكرت شيئاً كان قد غاب عنها ، وقالت :

« الآن فهمتُ ما لم أفهمه من قبل : ذلك أن نفراً من نصارى الحبشة رأوا ابنى محمداً معى حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا إليه وسألونى عنه ، وفحصوه ملياً ثم قالوا : لنأخذن هذا الغلام فلنذهب به إلى مِلكنا وبلدنا ، فإن له شأناً نحن أدرى به وأعرف .

فاختطفته منهم ، وقد هاجنى ذلك على رده إليك ، وهممت أن أفعل ،

---

(١) السيرة ١/١٧٤ ، وعيون الأثر ١ / ٨٤ ، ونهاية الأرب ١٦ / ٨٤ .

لولا أن مضارب بنى سعد كانت أقرب إلىَّ منك ، فعدوت نحوها ، و لم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى » .

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتْها لطولِ المدى واستطردت تقول : وأذكر كذلك يوم انطلقتُ بولدى محمد من مكة لأول مرة ، فمر بى اليهود فسألتُهم ، ألا تحدثونى عن ابنى هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته . فما راعنى إلا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألونى : أيتيم هو ؟ ... قلت وأنا أشير إلى زوجى : لا ... هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه (١) !

* * *

المستشرقون لهم عذر فى رفض حديث الملَكين وشق الصدر . لكن الدكتور محمد حسين هيكل لم يكتف برفضها معهم ، بل زاد فجعل إنكارها موقفا عاماً ، للمستشرقين « والمفكرين من المسلمين » جملة .

ولست أدرى كيف جاز فى منطقه تعميم هذا الإنكار ، وقلَّ من المفكرين المسلمين من تردد فى التصديق بحديث شق الصدر ، وهو من أعلام النبوة .

وقال الدكتور هيكل ، فيما قال ، محتجاً لموقف الإنكار :

« وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين ــ هكذا بالجملة ! ــ إلى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن إليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ، غير متفق مع تعيير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأنهم ليست لهم قلوب يعقلون بها »(٢) .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١ / ٧١ قسم أول (١ / ١١٣ ط بيروت) ــ ونهاية الأرب : ١٦ / ٨٦

(٢) حياة محمد : ٧٣ .

وأراه هنا ، والذين تكلم عنهم ، قالوا بالرأى فيما ليس للرأى فيه مجال ، بل الاعتبار فيه لضوابط الرواية والنقل والنظر فى الإسناد ورجاله . وقد تعرض الدكتور هيكل لهذا ، فذهب إلى « أن رواية هذا الحديث ضعيفة السند » كما جرح المتن أيضا ، من جهة : « أن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد إلى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد حددت سِنه بما دون الثالثة وأرجعته إلى مكة بعد فطامه بأشهر ، فبين الروايتين تناقض صريح » .

ومن جهة أن هذه القصة ، مما « لا يدخل فى معروف العقل »[1] .

وليس هذا مما للرأى فيه مجال . فحديث شق الصدر من أعلام النبوة والدلائل ، وقد صح على شروط أهل الحديث أصحاب هذا الشأن . فالحديث فيه عن رسول الله ﷺ ، رواه ابن إسحاق[2] فى السيرة وهو العمدة فيها ، وقد أسنده من طريقين ، ومعروف لأهل العلم أن ما أسنده فصحيح .

وبعدُ وقبل فحديث شق الصدر أخرجه الشيخان مرفوعا فى موضعين ، اتفقا على حديث أبى ذر الغفارى رضى الله عنه ، فى الإسراء ، أن رسول الله ﷺ قال : « فُرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج عن صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيمانا فأفرغه فى صدرى ثم أطبقه ... » الحديث بطوله ، أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء من صحيحه ، وأخرجه مسلم فى باب الإسراء من كتاب الإيمان . ومعه فى صحيحه حديث ثابت البُنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقةً ثم أعاده فى مكانه وجاء الغلمان يسعون

---

(١) حياة محمد : ٧٣ .

(٢) السيرة : ١ / ١٧٥ ، ورواه السهيلى من حديث أبى ذر رضى الله عنه (الروض ١ / ١٩٢) .

إلى أمه ، يعنى ظئره ، فقالوا إن محمدا قد قتل . فاستقبلوه وهو ممتقع اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط فى صدره » .

والحديث إذا أخرجه الشيخان فى الصحيحين ، فمتفق عليه بإجماع من يُعتَدُّ به فى الإجماع .

وقد أسند الحافظ أبو الفتح ابن سيد الناس ، حديث حليمة السعدية فى شق الصدر أيام الرضاعة فى بادية بنى سعد ، ثم حديث أبى ذر رضى الله عنه ، مرفوعا فى الإسراء . وقال إنها واقعة واحدة متقدمة عن ليلة الإسراء بكثير . قال السهيلى : وليس الأمر كذلك ، بل كان هذا التقديس والتطهير مرتين : الأولى فى حال الطفولية ليُنقَّى قلبُه من مغمز الشيطان ، والثانية فى حال الاكتهال عندما أراد الله أن يرفعه إلى الحضرة المقدسة »[1]

وأما ما ذهب إليه الدكتور فى نقد المتن ، من تناقض صريح بين ما أجمعت عليه الروايات من « أن محمداً أقام ببنى سعد الخامسة من عمره ، وقصة الملَكين التى حددت سنه بما دون الثالثة » فقد فاته أن السيدة حليمة أرجعته إلى مكة بعد فطامه ، ثم « لم تزل بأمه ، السيدة آمنة ، حتى ردته معها » .

وأما القول فى نقد المتن بأنه مما « لا يدخل فى معروف العقل ، فمردود بأن شق الصدر أو البطن ، ليس من المستحيل العقلى . وبفرض استحالته عقلا ، فإنه لا يعتبر بهذه الاستحالة ، فيما هو من قبيل دلائل النبوة وأعلامها ، التى اشتهرت ، وصحت عند علماء الحديث والسيرة والتاريخ ، والله أعلم .

---

(١) عيون الأثر ، لأبى الفتح بن سيد الناس) : ١ / ١٣٦ مقابلا على (الروض الأنف للسهيلى) : ١ / ١٩٠ .

المبحث السادس

الرحيـــــــل

- سَفَر إلى يَثرِب
- الـــــوداع
- عَودَة اليتـــيم

سفر إلى يثرب

ولنعُدْ إلى « السيدة آمنة » وهى تحتضن وحيدها اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية أقصى أجله ورجعت به ظئره السيدة « حليمة السعدية » إلى أم القرى ، مهد مولده ومنزل آبائه وحرم البيت العتيق .

عاد فبدد بنوره ظلال الكآبة التى كانت تغشى دنيا أُمِّه فى وحدتها وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث إليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقوداً عليه من آمال كبار .

وقد بذلت الأم لولدها فى تلك الفترة ، غاية ما يُرجَى من عناية ورعاية ، وهو وحيدها ومناط أملها ومعقد رجائها . ويعترف كُتّاب السيرة النبوية بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر نبى الإسلام ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله ﷺ ، مع أمه آمنة بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتاً حسناً» (١).

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » بوادر النضج المبكر ، ورأت فيه أمه ، عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووُعِدت به فى رؤاها ...

عندئذ أدركت أن الأوان قد آن ، لكى تحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معاً إلى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الثاوى هناك .

---

(١) السيرة ١ / ١٧٧ ، وعيون الأثر ١ / ٣٧ .

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتها لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف — فى الوقت نفسه — إلى أخوال جدّه المقيمين بيثرب[1] ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه عريق ، ولعله سمع أُمه غير مرة ، تتحدث عن خئولة عبد المطلب فى بنى عدى بن النجار بيثرب ، إذ تزوج « هاشم بن عبد مناف » منهم « سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية » وكانت إحدى نسوة ست من العرب ذكر ابن حبيب فى المحبر ، أن أمرهن فى الزواج كان إليهن « لشرفهن وقدرهن » ، وقد أنجبت عبد المطلب بن هاشم سيد مضر فى زمانه .

* * *

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « السيدة آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد فى ثراها « عبد الله » الذى ودعها من نحو سبع سنين .

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن شوقها إلى زيارة يثرب كان أقوى من أن تغلبه عقبات سفرٍ هو قطعة من العذاب ...

---

(١) أم عبد المطلب بن هاشم — جد الرسول ﷺ — هى سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية . فهذه خئولة محمد — ﷺ — فى بنى النجار . انظر (السيرة : ١ / ١٧٧ ، ونسب قريش : ١٥ ، وجمهرة أنساب العرب : ١٢) .

(٢) رواها ابن اسحاق فى السيرة ، عن عبد الله بن أبى نُجيح ، مما حُدِّث به عن عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحى . ثم عقب عليها بقوله : « والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم » : ١ / ٢٠٦ .

(٣) السيرة الهشامية : ١ / ٢٠٦ .

وشُغلت أياماً بتجهيز راحلتها وإعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز .

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما آذنتْ بالرحيل ، ضمت إليها ولدها وركبت راحلتها ، تصحبها الجارية الوفية : « بركة أم أيمن » [1].

* * *

وألقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، ووضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد . ثم عرجت على الحرم فطّوفتْ به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الإبل مختلطاً بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئاً وئيداً كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى إذا توارت معالم « مكة » خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحَثُّوا الخُطَا قدر ما استطاعوا ، كيْما يبلغوا سوق الشام فى إبانها ، ويعودوا إلى حماهم وإلى الأهل والأحباب .

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائه ، ويَعِدُ الإبل بالراحة والظل والرى ، إذا هى سارت حثيثاً فبلغت بأصحابها ما يأملون . ورجّعت أرجاء البيداء صدى الحداء الشجى ، فرقّت قلوب الراحلين ، من شجن الذكرى وشجو الفراق .

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب . . .

وساعدها صمت الصحراء ، إلا من رجع النغم ، على استرسالها فى الحلم ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء إلى نداء شجى يتناهى

---

(١) طبقات ابن سعد ، عن الواقدى : ١ / ١١٦ ، وانظر الزرقانى : ١ / ١٦٣ ، والنويرى : ١٦ / ٨٧ .

إليها من بعيد ، فهفا قلبها إلى الأليف النائى ، ورنت عيناها إلى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز مرقد ، ويؤوى ثراها الطيب أغلى رفات ...

فإذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها إلى صدرها ، وأسلمت نفسها إلى رؤاها تسرى بها نحو المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيى الزوج الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

* * *

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها إلى المدينة البيضاء التى بدأت تتكشف من وراء جبل « أُحُد » حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات ...

وأناخ الركب رواحله فى « يثرب » ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالاً ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حِمى « بنى النجار » ...

* * *

لم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أخذت بيد ولدها ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتزور القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به إلى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ، ويتعلم السباحة مثلهم فى مجامع المياه ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حيناً وتبكيه أحياناً ، وهى على الحالين راضية مستروحة ، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يريح شجوها .

وطاب لهما العيش شهراً كاملاً . نفَّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، وتمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال .(١)

* * *

ولا يدرى أحد كيف أمضت « آمنة » ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة إلى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أمضتها فى مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى إذا آن لها أن تمضى ، انتزعت نفسها قسراً من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور الحبيب للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين إلى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها إلى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ...

ويظل « ابن عبد الله » ما عاش يذكر رحلته مع أمه فى صباه ...

* * *

(١) ابن سعد من طريق الزهرى وغيره ، عن ابن عباس رضى الله عنهما . (الطبقات ١ / ١١٦) .

الــودَاع

وإذ هم فى مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ــ فيما يُروَى ــ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياماً ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكَّن له من جسمها ما كانت تجد من لذعة الفراق الجديد .

ولم يجزع « محمد » أولَ الأمر لما بدا على أمه من إعياء بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن هدأت العاصفة . وأما « آمنة » فأحست انه الأُجل المحتوم ...

وتشبثت بوحيدها معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ يجفف دمعها بيده اللطيفة ، مستمرئا لذة الحنان الفياض ، يطوى عنه رهبة الموقف ...

وفجأة ... تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وأن صوتها يخفت رويداً رويداً ، حتى يصير إلى حشرجة هامسة .

وتضرع إليها أن تنظر إليه ، وأن تكلمه ، فيقال إنها « نظرت لوجهه وقالت فى أبيات :[1]

بارك فيك اللّهُ من غلام
يا ابنَ الذى من حومة الحِمام

---

(١) الروض الأنف للسهيلى : ١ / ٢٠٨ ، وانظر الحاوى للفتاوى : ٢ / ٢٢٢ .
والسهام هنا : الأقداح . اشارة الى افتداء عبد الله من النحر بمائة من الأبل ، غداة ضربوا عليها وعليه الأقداح عند الكعبة ، فخرج القدح أخيراً على الإبل .

نجا بعون الملك العلام
فُودِى غداة الضرب بالسهام
بمائة من إبلٍ سوام

ثم أمسكت تستريح ، فلما التقطت أنفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيراً وولدت طهراً ... »

وذاب صوتها فى سكون الفلاة ، فما تكلمت بعدها أبداً ...

* * *

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حينٍ صوت صبى مُرَوَّع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ...

والتفت إلى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة إلى صدرها ، ولم تملك إلا أن تقول : « إنه الموت يا بنى » .

الموت ؟ !

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرَّع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟ !

ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟!

ذاك الذى يمضى بالمسافر إلى حيث لا عودة فى هذه الدنيا ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائراً ، فإذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة لمشهد الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فإذا بها واجمة ، مغشّاة بزرقة كابية . . .

ومدَّ بصره المجهد إلى الأفق البعيد ، فإذا قطع ممزقة مشردة من غيوم شاحبة !

هنالك آب اليتيم إلى « أمه » فجلس قريباً منها يحدق فيها صامتاً واجماً عاجز الحيلة ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتعصب الوجه الشاحب ، وتغمض العينين المنطفئتين ...

وتبعها مطرقاً مستسلماً ، وهى تحمل الجثة إلى قرية « الأبواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى إذا أوشك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من إشفاق وتأثر ، وخلُّوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحّوه عنها فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها ...

وسوّوا عليها الرمال . . .

* * *

كان بين السادسة والسابعة من عمره ، فى روايتى ابن إسحاق وأبى عمر ابن عبد البر ، أو فى الثامنة على أقصى الأقوال كما فى (المحبر لابن حبيب) .

عَودة اليَتيم

وجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والإشراق ، يعود إليها اليوم وحيداً مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشهد الموت فى أعز من له ، وواجّه المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله » .

وسوف تذكر « مكة » عودته هذه ، يوم يخرج منها بعد أقل من نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرًا بدينه الجديد إلى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه . . .

وكذلك سوف تذكر « مكة » عودة الصبى اليتيم هذه ، يوم يرجع إليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافراً منتصراً ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من أعلى البيت الحرام :

« الله أكبر ! »

فترجّع أرجاء الجزيرة هذا الدعاء ... ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال ...

المبحث السابع

الخَالدة

- ذِكرَى بَاقيَة
- طيفٌ لا يَغيب
- عَبر الأجيَال

ذكرَى باقية

« ... ها هنا نزلت بى أمى ... وفى هذه
الدار قبر أبى عبد الله »
(من حديث للرسول ﷺ لما رأى دار
بنى عدى بن النجار بعد الهجرة ...)

إلى هنا تنتهى حياة « السيدة آمنة » على سطح الأرض ، وينصرف عنها التاريخ حيناً ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاماً فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، أُمًّا للنبى ، الذى تركته وحيداً يتيماً فى بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى اختارته السماء للرسالة العظمى ، واصطفاه الله ليبعثه بالدين القيم الذى يتبعه اليوم ملايين البشر من شتى الأجناس فى مشرق الأرض ومغربها .

وقد عاشتْ أولَ ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكراها ويرق لها رقة تثير الشجن ، وتستدر عصىَّ الدمع ...

ولقد تلقاه جده « عبد المطلب » بعد وفاتها ، وضمه إليه مسبغاً عليه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام فى فراشه » (١).

ذكر « الواقدى » ــ فيما روى عنه ابن سعد فى طبقاته : « أن عبد المطلب كان يوضع له فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد منهم إجلالاً له . وكان رسول الله ﷺ

(١) السيرة الهشامية : ١ / ١٧٨ ، وطبقات ابن سعد : ١ / ١١٨ .

يأتى وهو غلام يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلاً : دعوا ابنى ، إنه ليُؤنس مُلْكاً . ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده » (١)

وفى رواية لابن سعد : سئل رسول الله ﷺ : أتذكر موت عبد المطلب ؟ قال : « نعم أنا يومئذ ابن ثمانى سنين » قالت أم أيمن : رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكى خلف سرير عبد المطلب .» (٢)

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حباً شديداً ، فكان لا يفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه إذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى » .

وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبى طالب » ثم من حب زوجه « السيدة خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لا مطمع فيه لمزيد ، لكن شيئاً من هذا كله لم يُنسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمحُ من خاطره مشهد أمه الغالية وهى تموت بين يديه فى الصحراء . فى (صحيح مسلم : ك الجنائز) حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، من طريقين ، قال : زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى مَن حوله ، فقال : « استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يأذن لى ، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى فزوروا القبور فإنها تذكر بالموت ».

وروى « ابن سعد » فى طبقاته ، من طريق الواقدى بإسناده ، أن رسول الله ﷺ لما مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : إن الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتُها فبكيت (٣) ...

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « خرج النبى ﷺ يوماً وخرجنا معه حتى انتهينا إلى المقابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى

(١ ــ ٢) طبقات ابن سعد : ١ / ١١٩ ، ١١٦ ، عيون الأثر ١ / ٣٨ .
(٣) الطبقات الكبرى : ١ / ٧٧ قسم أول . ونهاية الأرب : ١٦ / ٨٧ .

انتهى إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً ، ثم ارتفع صوته ينتحب باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ﷺ . ثم إن رسول الله أقبل إلينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما الذى أبكاك يا رسول الله فقد أبكانا وأفزعنا ؟ ... فأخذ بيد عمر ثم أومأ إلينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائى ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً ثم قال : إن القبر الذى رأيتمونى أناجيه ، قبر أمى آمنة بنت وهب ، وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذِن لى »(1)

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبداً إلى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه ، ويرنو إليها بقلبه على تطاول المدى وتنائى الأبعاد ...

وعرفت « قريش » منه ذاك ، وهى تعلن الحرب عليه وعلى من آمنوا معه ، حتى إن « هند بنت عتبة » حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه إلى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تَر ما تؤذى به بطل الإسلام ، أقسى من نبش قبر أمه « آمنة » ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك .

رووا عن هشام بن عاصم الأسلمى أنه قال :

« لما خرجت قريش الى النبى ﷺ فى غزوة أُحد فنزلوا بالأبواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبى سفيان بن حرب : لو بحثتم قبر آمنة أم محمد فإنه بالأبواء ، فإن أُسِر أحدٌ منكم افتديتم كل إنسان بإرب من آرابها ؟ » .

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش ، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » وكأنما روعها تمثُل غضبة ابن آمنة والمسلمين والعرب ، للفعلة النكراء !

وانصرفتْ قريش عن الأبواء لم تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذى استودعه

---

(1) انظر مع صحيح مسلم : 11/105 ، 108 وسنن أبى داود : 2/75 ، تاريخ مكة المكرمة للأزرقى : ص 433 ، والروض الأنف : 1/194 .

(2) تاريخ مكة للأزرقى : 481 — وانظر السيوطى فى « الحاوى » ص 233 ج 2 والإرب ، بكسر الهمزة : العضو .

الصبى اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من خمسين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبداً ...

ولم تُنسه جلائل الأحداث ولا كرُّ الغداة ومر العشيِّ ، ذكرياتِ أيامه الخوالى فى حضن أمِّه الغالية ، ومشاهد رحلته الأولى معها إلى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئاً منها . فعندما هاجر ﷺ إلى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التى شهدته ــ قبل نحو من نصف قرن ــ صبياً خالى البال ، ويستعيد ما كان له من مواقف هناك . حدثوا أنه ﷺ لما رأى حى بنى عدى ابن النجار قال : « ها هنا نزلتْ بى أمى ... وفى هذه الدار قبرُ أبى عبد الله »(١) .

ونظر إلى أُطُمِ بنى عدى ، فرقَّ قلبُه وهو يقول :

« كنت ألعب مع أنيسة ــ جارية من الأنصار ــ على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى . وأحسنتُ العوم فى بئر بنى عدى بن النجار» (٢)

لم ينس محمد ﷺ تلك الأيام الخوالى ، كما لم ينس الدار التى شهدت مولده ، وقد أُغلقت أبوابُها بعد موت أُمِّه وتُركت خلاء ...

وربما مر بها بين الحين والحين ــ أيامَ شبابه فى مكة ــ فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام ، ويسترجع ذكرى مشهد أمه حين كانت هناك . . .

* * *

حتى هاجر ﷺ من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد إليها يوم الفتح وعلم أن دار مولده أخذها عقيل ابن عمه أبى طالب كره ﷺ أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعوا فى شىء من أموالهم أُخِذ منهم فى الله تعالى ، وهجروه لله (٣) .

فبقى بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه « محمد بن يوسف »

(١ ــ ٢) الطبقات الكبرى : ١ / ٧٧ قسم أول . ونهاية الأرب : ١٦ / ٨٧ .
(٣) تاريخ مكة المكرمة للأزرقى : ٤٥٧ .

فأدخله فى داره التى يقال لها البيضاء ، فلم يزل كذلك إلى أن حَجَّت « الخيزران » ــ أم الخليفتين موسى وهارون ــ فجعلته مسجدًا للصلاة ، وأشرعته فى الزقاق الذى يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهل الزقاق المبارك كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

ــ ووالله ما أصابتنا فيه جائحةٌ ولا حاجة ، حتى أُخرِجنا منه فاشتد الزمانُ علينا[1] .

* * *

---

(١) النهاية لابن الأثير : ١٨٦/١ ، والروض الأنف للسهيلى : ١٠٧/١ ، وتاريخ مكة المكرمة للأزرق : ٤٤٦ .

طيفٌ لا يغيب

« إنى لأدخل فى الصلاة وأنا أريد إطالتها
فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى ،
مما أعلم من شدة وَجِد أمه من بكائه »

(حديث شريف)

متفق عليه

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك يصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك والضلال ...

ولقد بقى طيفها العزيز يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمة ، وترتفع بالأمومة عنده إلى المقام الأسنى الذى لا يطاوله مقام ...

ذكرها فى مرضعته « ثويبة » مولاة أبى لهب ، فكان ﷺ يَصِلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها ، فلما هاجر إلى المدينة ظل يبعث إليها بصلة وكسوة ، إلى أن جاءه خبر وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر . فلما دخل مكة ظافراً بعد ذلك بعام ، لم ينس فى غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد[1] .

(1) الروض الأنف : ٢ / ٧٩ . مع ترجمتها بالاستيعاب والإصابة . والظر (عيون الأثر : ١ / ٣٧) .

وكذلك فعل مع « أم أيمن » حاضنته بركة التى رافقته وأمه فى رحلتهما إلى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش ﷺ يناديها : « يا أُمَّه » وحين يراها يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

« هى أمى بعد أمى »[1] .

* * *

والأحاديث والآثار فى بره ﷺ بأمه التى أرضعته « حليمة السعدية » مشهورة ، معبرة عما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة فى أى صورة من صورها . فكانت ربما أقبلت ودنت إلى النبى ﷺ فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقيل : من هى ؟ فقالوا : « هذه أمه التى أرضعته »[2] .

وفى السنة الثامنة للهجرة ، حين انصرف الرسول ﷺ من غزوة الطائف منتصراً ومعه من سبى هوازن ستة آلاف من الذرارى والنساء ، وما لا يُدرَى ما عِدَّتُه من الإبل والشاه ، أتاه وفدُ هوازن — ممن أسلموا — فقال قائلهم :

« يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك » — وكانت حليمة من بنى سعد بن بكر من هوازن ...

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالأم التى أرضعته ، فقال لوفد هوازن ، وطيف أُمِّه « آمنة » يباركه :

« أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم ... » .

فلما صلى رسول الله بالناس الظهرَ ، قام رجال هوازن فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

---

(١) ابن سعد ، من طريق الواقدى : ١٠٨/١ ، الروض الأنف : ٩/٢ — وترجمتها رضى الله عنها فى (الإصابة : كنى النساء رقم ١١٣٩) .

(٢) ترجمتها ، رضى الله عنها ، فى نساء (الإصابة : ٢٩٧) .

« أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » . فقال المهاجرون :

– وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ...

وقالت الأنصار :

– وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ ...

وإذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ، قال :

« أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى ، فله بكل إنسانٍ سِتُّ فرائض من أول غُنْمٍ أصيبه . . . »

فردوا إلى هوازن أبناءها ونساءها[1] .

لأن فيه حواضن الرسول ﷺ وعماته وخالاته من الرضاعة . . .

* * *

وتمثل ﷺ أمه « آمنة » فى شخص فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، تلك التى رعته أيام صباه فى بيت عمه أبى طالب ، وكانت له من بعد أمه أماً . ذكر ابن إسحاق فى السيرة وابن سعد فى طبقاته ، من طريق الواقدى ، و « ابن عبد البر » فى الاستيعاب ، و « أبو الفرج الأصبهانى » فى مقاتل الطالبيين ، عن على بن أبى طالب وعن ابن عباس رضى الله عنهم ، أنه « لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه ، واضطجع معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعتَ بأحد ما صنعت بها ، فقال : إنه لم يكن أحدٌ بعد أبى طالب أبرَّ بى منها . إنى إنما ألبستُها قميصى لتُكسَى حُلَل الجنة ، واضطجعت معها فى قبرها ليهون عليها » .

وكذلك رأى ﷺ ملامحَ من أمه الراحلة ، فى زوجه الرءوم خديجة رضى

---

(١) السيرة : ٤ / ١٣١ ، والروض : ٤ / ١٥٢ ، وعيون الأثر : ٢ / ١٩٦ مع (يوم حنين ، وغزوة الطائف) فى صحيح البخارى وفتح البارى ، معه .

الله عنها ، تلك التى سكن إليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره إلى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضمَّ إليها زوجة غيرها ، ولا نسى لها طولَ عمره ، ما عوضته من حنان الأمومة الذى افتقده منذ ودَّع أمه فى الأبواء . . .

ذكر محمد ﷺ أمه فى كل هؤلاء . . .

وتمثلها فى بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها فى كل أمٍّ تحنو على ولدها ، فما عُرِفَ عنه أنه ﷺ كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الفياضة التى كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، ولا وجد ما يُمثِّل به لأصحابه رحمة الله بعباده ، أقوى من حنو الأم . فى صحيح الحديث عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : قدم على النبى ﷺ سبىٌ فإذا امرأة منهم قد تحلَّب ثديُها ، تسقى ، إذا وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنِها وأرضعته . فقال النبى ﷺ لأصحابه : « أترون هذه طارحة ولدَها فى النار ؟ » قلنا : لا ، وهى تقدِر على أن لا تطرحه . فقال : « الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها » — متفق عليه .

وكان ﷺ ، عامر القلب بذكرى أمه ، حين ارتقى بالأمومة إلى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل البِرَّ بها مقدمًا على فضل الجهاد فى سبيل الله والدار الآخرة ،(١) إذ جاءه الصحابىّ « معاوية بن جاهمة السلمى » رضى الله عنه يستأذنه فى الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : **أحيَّةٌ أمُّك ؟ وقال : نعم ، أمره أن يرجع إليها فيبرها .**

وعاد معاوية يستأذن فى الخروج للجهاد ، فأعاد ﷺ سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع إليها فيبرها .

---

(١) راجع « تقديم بر الوالدين على الجهاد » فى « الجهاد » بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤ .

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يُلح فى الظفر بشرف الجهاد ، كرر ﷺ سؤاله : أحيَّة أمك ؟ قال : نعم . . .

فما كان منه ﷺ إلا أن قال : ويحك ! الزمْ رجلَها فثَمَّ الجنة ! وفى رواية : « فالزمها ، فإن الجنة تحت قدميها »[1] .

وإن الإنسانية لتصغى اليوم ، وغداً ، إلى قول الرسول الكريم :

« إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهيةَ أن أشق على أمه »[2] . فلا يغيب عنها أن تلمح طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذى ينبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البِر بالأمومة وتكريمها . . .

وأى مطمح للبشرية إذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذى يقال من حديث ابن آمنة ، المصطفى بشراً رسولاً :

« لو كنت أدركتُ والدىَّ أو أحدَهما وأنا فى صلاة العشاء ، وقد قرأتُ فاتحة الكتاب ، تنادى : يا محمد ، لأجبتها : لبيكِ »[3] .

* * *

---

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ١٤١٣/٣ (معاوية بن جاهمة) .

(٢) متفق عليه ، واللفظ للبخارى فى الصحيح ، وسبق فى عنوان المبحث لفظ مسلم للمتفق عليه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، مرفوعا .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الإيمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف . وانظر السيوطى فى « الحاوى » ٢٣٣/٢ .

عَبْر الأجيَال

تتباهى بك العصورُ وتسمو
بك علياء بعدها علياءُ
فهنيئاً به لآمنةَ الفضـ
ـلُ الذى شرُفَتْ به حواء!
(البوصيرى)

ولقد ثوى المصطفى ﷺ ، بعد أن أدى رسالته ، فى ثرى « يثرب » كما ثوى أبوه من قبل ، وآب إلى المصير الذى يثوب إليه كل حى ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ﴾ ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الإنسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبداً خاشعة أمام ذلك البشر الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : الله أكبر ، « حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة » وإذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم إلا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الأكاسرة وتيجان الأباطرة والفراعين ، ثم يندفعون شرقاً حتى يبلغوا برسالة الإسلام أسوار الصين ، وينطلقون بها غرباً حتى يصلوا إلى ساحل المحيط الأطلسى ليشيدوا لدينهم دولة إسلامية فى أسبانيا ، معقل الكاثولوكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالاً حتى يقرعوا أبواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان فى قلب أوربا المسيحية .

وستظل العقول أبداً حيرى أمام عظمة ذلك الإنسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشراً سويا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويذوق مرارة

اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ، ويتزوج ، ويلد ويموت شأن كل بشر ، واستطاع هذا البشر الرسول ، أن يوجّه تاريخ البشرية كلها منذ مطلع القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجوداً لأهلها الذين يتنقلون على الإبل بين فيافيها المقفرة وصخورها القاسية . . .

وهذا « كيتانى » الذى وُلد وشب فى جوار الفاتيكان وحِمى القديس بطرس ، يشد رحاله إلى بلاد العرب فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به إلى حد لا يعرف التاريخ له مثيلا ...

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم ، الذى وُلد فى ضوء التاريخ الكامل ، ومعجزته كتاب عربى مبين ، يُقرر بشريته ، ويُنَحِّى عندما حف بالرسل قبله من قداسة وألوهية .

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده ، « يغدو سلوكه اليومى — كما يقول هوجارت — سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور البسيطة ، القانونَ الذى يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين وإيمان إلى أيامنا هذه » ؟ .

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثلَ الكامل للإنسان ، فقُلِّدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته آمنة بنت وهب كما تضع كل أنثى من البشر » فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به إلى قبر أبيه بيثرب ، ثم خلَّفته وحيداً فى الطريق إلى مكة !

ولم تَدْرِ « بركة » وهى تودع الجسد الساكن ، تلك الحفرةَ النائية فى صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكراً خالداً يقهر الزمن ويغلب الفناء .

ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوماً ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخُيل إليهم أن هاتفا ينوح علهيامنشدًا[1] :

نبكى الفتاة البـرَّة الأمينـه
ذات الجمال ، العفَّة الرزينه
زوجـة عبـد الله والقرينـه
أمَّ نبـى الله ذى السكينـة
لـو فُودِيت لفـوديت ثمينـه
وللمنايـا شفـرةٌ سنينـة
لا تُبقِيَـنْ ظاعنـا ولا ظعينـه
إلا أتت ، وقطَّعت وَتِينـه

ولم يُقدِّر أحدٌ ممن شهدوا رقدتها فى مضجعها الأخير بالأبواء ، أن سوف يأتى حينٌ من الدهر تُبعث فيه ذكرى الراقدة ثم لا يموت لها ذكرٌ بعد ذلك أبداً ، بل تظل صورتها تنتقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء ، ويظل اسمها خالداً على مر العصور والأدهار ، يحف به جلال أمومتها العظمى التى لبثت ، وسوف تلبث دائما ، تستثير أنبل ما فى وجدان المؤمنين من انفعال ، وتُلهم شعراءهم روائع القصيد . وهذه الدنيا تصغى فى الليلة المباركة من ربيع كل سنة قمرية إلى هتاف المحتلفين بذكرى الساعة الغراء التى قامت فيها « آمنة » عن ولدها سيد البشر ، عليه أزكى الصلاة والسلام :

---

(١) السيوطى فى الحاوى للفتاوى : ٢٢٢ .

كيــــف تـــرق رقـــيِّك الأنبيـــــاء

يــــــا سماءً ما طـــــــــاولتها سماءُ

لم يساووك فى عُــلاكَ وقــد حــا

ل سنــــى مـــنكَ دونهم وسنـــــاء

إنما مثَّلـــوا صفـــــاتك للنـــــا

س كما مثَّــــــل النجـــــومَ الماءُ

تتباهـــــى بك الـــعصورُ وتسمـــــو

بكَ عليـــــاء بعدهــــــا عليـــــاء

فهنيئـــــا بــــه لآمنـــــة الــــفضـ

لُ الـــذى شرفت بـــــه حــــواء

يــوم نــالت بوضعــه ابنـــةُ وهب

مــن فخــار مــا لم تنلــه النســـــاءُ[1]

* * *

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، أم النبى المصطفى المبعوث خاتما للرسل الأنبياء ، عليهم السلام .

* * *

(١) من همزية البوصيرى : انظرها فى ديوانه .

الكتابُ الثانى

نساءُ النَّبى

(عليْهِ الصَّلاة والسَّلام)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يَسِّــــرْ وأعِنْ

مقـــدّمة

هذا حديث عن حياة سيدنا محمد ﷺ فى بيته ، أعرضه فى صور متتابعة للسيدات الكريمات اللواتى أظلهن هذا البيت ، وكان لكل منهن أثرها فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكانها فى تاريخه العظيم وسيرته الخالدة .

ولم أكتب كلمة واحدة من هذا الحديث ، حتى قرأت ما تيسر لى من مصادر ومراجع لهذا الجانب من حياة الرسول ﷺ ، فى بيته . مبتدئة بالقرآن الكريم ، والحديث وكتب السيرة ، والتفسير ، ثم التراجم والتاريخ . وطالعت ما فى خزانتى من كتب للمستشرقين فى هذا الموضوع .

على أنى حين بدأت أكتب ، كان جهد محاولتى أن أرجع إلى مصادرنا الأصول ، لما أقدم عن حياة أمهات المؤمنين فى بيت النبى ﷺ ، كما تمثلتها بعد أن وعيت الذى قرأت ...

وأعترف بأنى شعرت حين فرغت من القراءة ، بتهيب هممت معه بالتراجع عن الكتابة فى هذا الموضوع ، وذلك لما ملأنى من إحساس بجلاله ودقته من ناحية ، ولكثرة ما كتب فيه من ناحية أخرى .

فهؤلاء السيدات اللواتى عشن فى بيت النبوة ، ينزعن جميعا إلى حواء ، وقد جئن إلى بيت تلاقت فيه البشرية بالنبوة واتصلت الأرض بالسماء ، وتزوجن ممن اصطفى خاتما للنبيين ، يتلقى الوحى من الله عز وجل

ويبلغ رسالته ، فأنَّى لقلم أن يصور حياة كهذه ، تموج فيها أهواء البشرية فى فيض من النور الأسنى ، وتتجاذب فيها الأنوثة - التى نعرف رقتها وضعفها ورهافة وجدانها - تياراتٌ بالغة القوة والعمق ، يجذبها بعضها إلى هذه الأرض الدنيا ، وتشدها أخرى إلى السماوات العلا ، وتتعادل من هذا بشرية سماوية ، وسماوية إنسانية !

غير أنى عدت فقدرت أن تراجم سيدات بيت النبوة ، رضى الله عنهن تكليف لى وتشريف ، فلست بحيث أنصرف عنها بعد أن اتجهت إليها .

* * *

وإذ صح منى العزم على تناول هذا الموضوع الجليل الدقيق ، لم أعد أتهيب كثرة ما كتب فيه ، إذ يبقى مجال لتناول جديد ، يستوعب ما فى المصادر الموثقة عن حياة نساء النبى فى البيت الكريم ، ويتمثلها على هَدى دين الفطرة ، وبإيحاء البيئة ومنطق التاريخ ، فى نزاهة مؤمنة ، ودراسة محققة ...

وسيرى القارىء أنى اقتصرت فى هذا الكتاب على الأزواج اللائى شرفن بلقب أمهات المؤمنين ، ومعهن « مارية القبطية المصرية » التى كان لها إلى جانب حُظوتها عند المصطفى ﷺ وشرف أمومتها لابنه إبراهيم عليه السلام ، أثر واضح فى الحياة الخاصة للبيت الكريم ﷺ . وفيما عدا أمهات المؤمنين ومارية ، لم أتحدث عن السيدات اللائى تزوجهن ولم يدخل بهن ، وقد اختلفت الروايات فى عددهن وأسمائهن ، فمن شاء قراءتها فليرجع إلى كتب السيرة النبوية ، والأنساب وطبقات الصحابة وتاريخ عصر المبعث ...

كذلك لم أتحدث عمن وهبن أنفسهن للنبى ﷺ ، ولا اللواتى عرضن عليه أن يتزوجهن ، ولم يتم الزواج[1] .

---

(١) انظر فى (طبقات ابن سعد : ذكر من تزوج رسول الله ﷺ فلم يجمعهن ، ومن فارق منهن ، وسبب مفارقته إياهن) ٨/١٤١ ، ثم (ذكر من خطب النبى ﷺ من النساء فلم يتم نكاحه ، ومن وهبت له نفسها من النساء) ٨/١٥٠ - ١٦٠ .

ولست أجهل أنه قد كان لهؤلاء السيدات أثر فى حياته ﷺ ، العاطفية والزوجية ، غير أن التاريخ المروى ، لم يشأ أن يسجل ذلك الأثر ، ولا عرف لهن مكانا فى بيته ، ومن ثم جاز لى أن أدعهن كى أفرغ للحديث عن أولئك اللائى دخلن حياته ﷺ ، مركزة جهدى فى تصوير شخصياتهن كما بدت فى البيت المحمدى ، فلم أتعرض لما قبل مجيئهن إليه إلا على سبيل التمهيد ، ولم أتتبع حياتهن بعده ﷺ ، إلا أن تكون إشارة موجزة يدعو إليها المقام .

ذلك لأننى لم أشأ لهذا الكتاب أن يجمع شتى المرويات عن نساء النبى جمعا لمًّا ، ولا أردت أن أجعل من هذه الدراسة مجموعة من تراجمهن على النحو التقليدى المألوف فى تراجم الأشخاص ، وإنما عنانى تمثل حياة كل منهن فى بيت المصطفى ﷺ ، ومكانها منه ، وتصوير شخصيتها تصويرا يجلوها زوجًا وأنثى ، ولا على القارىء بعد هذا أن لا يجد هنا ما وراء ذلك من تحقيق تاريخى لسنة وفاتها ، وتحديد لمكان قبرها وتتبع دقيق لأنبائها وأنباء ذويها . . . فليلتمسه فى غير هذا الكتاب إذا شاء ، وحسبه منى أن أقدم له من ملامح شخصيتها الأصيلة ، ما يضىء تاريخها كله .

وأود بعد هذا كله أن يطمئن القارىء إلى أننى تحريت جهدى فى مادة الكتاب أصالة المصادر ، ثم كان لى بعد ذلك ، منهجى فى التناول وأسلوبى فى الأداء ونسق العرض .

وعسى أن أكون قد وُفقت إلى قريب مما حاولت من تقديم الحياة الزوجية فى بيته ﷺ ، بما ينبغى لى من محض التقوى والإخلاص ، وصدق التقدير لجلال الموضوع وأمانة الكلمة .

« وعلى الله قصد السبيل » صدق الله العظيم .

الباب الأول

الزوج . . . والبيت

مُحَمَّد

الزوج النَّبِى
صَلى الله عليهِ وَسَّلم

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَـلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾
صدق الله العظيم

الزوج والبيت

الحديث عن « نساء النبى » ﷺ فى بيته ، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج ، وبيته الذى أظلَّهن . لا أعنى به بنيانه وموضعه ، بقدر ما أعنى الحياة المشتركة فيه . وأما البيت بمعنى البنيان . فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا ، بل بيتين : أولهما فى « مكة » حيث عاش « محمد » ﷺ ، مع زوجه الأولى وحدها ، وحيث أنجب ، وواجه التحول الأعظم فى حياته وفى حياة العرب والإنسانية جميعا . وقد وصفتُ هذا البيت فى كتابى عن «بنات النبى» ﷺ(١) وأما البيت الآخر فكان فى « المدينة » حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنهن ، فيجد القراء وصفه موجزًا فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنهامن هذا الكتاب ، إذ كانت أولاهنَّ مكانا فيه ، ومن بعدها جاءت نساء النبى تباعا ، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعى وسياسى وتشريعى لم يُلحظ فى البيت الأول الذى دخله محمد – ﷺ – شابا فى الخامسة والعشرين من عمره ، لم يُبعث بعد برسالة ، ولم يُتلق الوحى .

* * *

وفى الحديث عن رب هذا البيت الذى أظلهن ، لا أقدم هنا تتبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأمجادها الخالدة ومواقفها المشهودة ، وإنما أقف من هذا كله عند جانب بعينه لا ينبغى أن أتجاوزه إلى سواه ، ذلك هو محمد الزوج ، النبى الإنسان الذى أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات ، ووسعتهن دنياه الخاصة ، وكان لهن حظ المشاركة فى حياته الوجدانية ثم فى حياته العملية .

(١) ظهرت منه عدة طبعات لدار الهلال بالقاهرة . ثم دار الكتاب العربى فى بيروت . ويأخذ موضعه فى هذا المجلد الجامع لِ (تراجم سيدات بيت النبوة) رضى الله عنهن .

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا ، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا ، جِدُّ عسير ، وليس الأمر كذلك فى حياة نبى آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعًا آدميين ، يقول الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾(١) ، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلا من أصول عقيدته . ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر : عبد الله ورسوله .

ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر ، ولا جردته من وجدانهم ، ولا أبرأته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة ؛ فهو كما قال جل جلاله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾(٢) : يسكن إلى زوجه ، ويشغل بالأبناء ويعانى مثل الذى يعانيه بنو آدم من حب وكره ، ورغبة وزهد ، وخوف وأمل ، وحنين واشتياق ، ويجرى عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل ، ومرض وموت :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ، وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾(٣) .

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا ، ولأعفاه مما ذاق من حرِّ الثكل فى بنيه ، وفداحة المصاب فى خديجة ، ومحنة الإفك فى عائشة ، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة ، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه ، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ

(١) من آيات : يوسف ١٠٩ ، والنحل ٤٣ ، والأنبياء ٧ .
(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦ .
(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران .

﴿ ... يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وإنه لغاية التكريم للبشرية ، أن ينتمى إليها النبى الرسول ، ومن قبل كرمها الله ، فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، أبى البشر .

* * *

ولكن محمداً ﷺ ، لم يكن مع ذلك كأحد من البشر ، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا ، خاتما للنبيين ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ... إنه بشر رسول ، وهذا هو موضع الدقة والعسر فى الحديث عن « الرجل » فى حياته العاطفية والزوجية ، فما يغيب عن دارسٍ يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد ، أنه قد كان النبى المصطفى ، وأن كلمة الإسلام الأولى هى الشهادة بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

ويزيد فى دقة الأمر وعسره ، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير منفصلتين ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها على نحو ما يفعل أى رجل من سائر البشر ، وإنما كان — عليه الصلاة والسلام — يتلقى من حين إلى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية ، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوى صريح :

فمحنة الإفك مثلا ، لم يحسمها إلا نزول الوحى ببراءة السيدة « عائشة » مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة .

وزواجه ﷺ من السيدة « زينب بن جحش » ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، وأن يخشى الناسَ فى زواجه من مطلقة ابنه بالتبنى ، واللَّهُ أحقُّ أن يخشاه .

وطلاق الرسول ﷺ لزوجه السيدة حفصة ، خيف من وطأته على أبيها

---

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف .

« عمر » رضى الله عنه ، فنزل أمين الوحى على النبى ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة ، رحمةً بعمر .

وضيق نساء النبى ﷺ ، بما فرض عليهن من حياة خشنة ، نزل فيه قوله تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ٢٨ — ٢٩ .

وسلوك نسائه ، ﷺ ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة ، قال تعالى فى سورة الأحزاب :

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ، وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾
٣٢ — ٣٤ .

وبعض هذا يكفى لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبى .

فأى رجل كان نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام ؟

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات ، اختلفت أنماطهن ، وتباعدت أصولهن ومنابتهن ، وتفاوتت أعمارهن وصورهن ؟ ..

قد نستطيع — بشىء من الجهد — أن نتبين بعض ملامحه المميزة ، فى الشاب الهاشمى الذى صحب عميه أبا طالب ، وحمزة ، إلى دار السيدة خديجة بنت خويلد ، ليحتفل بزواجه منها فى العام الخامس عشر قبل المبعث ...

كان وقتئذ بشرا غير رسول ، وإن يكن المهيأ ليبعث بالرسالة ...

كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت ؛ أبوه « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ، الذى وعت « مكة » قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه[1] ، وهى قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول « اسماعيل بن إبراهيم » جد العرب العدنانية .

وأمه « آمنة بنت وهب به عبد مناف بن زهرة بن قصى » أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا[2] .

وقد أمضى أعوامه الأولى فى بادية بنى سعد ، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص فى شخصيته ، وأكسبته صحة الجسم والنفس ، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان[3] كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك ، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسؤولية ، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وَزَوَّدَتْه بَعضَ خبرةٍ بالدنيا والناس ، فكان - فى إبان شبابه - الرجل الناضج الجلد الصبور ، تلمح فى شخصيته آثار البادية ، وفى سلوكه تهذيب الحياة والسلوك لجيرة الحرم : مثابة الحجاج ، ومنزل قبيلةٍ تتولى المناصب الدينية ، والزعامة فى العرب ، ولها رحلتا صيف وشتاء . كما تلح فى عقله تجارب الحياة الجادة العاملة ، وفى خلقه شمائل هاشمى قرشى ، لم يفسده الفراغ والمال ، ولم يُصِبْه الترفُ بآفات النعومة واللين .

---

(١) السيرة النبوية ، رواية ابن هشام ١٦٠/١ ، ط الحلبى وانظر مبحث الفداء بتفصيل ، فى كتاب (أم النبى) عليه الصلاة والسلام . مع طبقات ابن سعد ١٥٠/١ ، وأعلام النبوة فى (الشفا) .

(٢) السيرة ١٦٥/١ ، عيون الأثر ٢٤/١ . مع فصل (فصاحة لسانه) فى (الشفا للقاضى عياض) .

(٣) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم ، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوح الإسلامية ، ولكن يبقى للبادية مع هذا ، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التى عرفت الاختلاط قبل الإسلام ، بحكم مركزها الدينى والتجارى : فإليها كان حج العرب ، ومنها كانت رحلتا الشتاء والصيف إلى اليمن والشام .

هكذا كان « محمد » حين سمعت به السيدة خديجة ، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته ، وصدقه وأمانته وعفته ، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذى كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا ، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها : « شابا وسيما ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامتَه شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم »[(١)] .

« وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام ، ويحسن الإصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه ، لطيف المحضر ، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يخنه حلمه ، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين ، من أثر الغضب »[(٢)] .

ولم تكن السيدة خديجة إذا ذاك بالفتاة الغريرة ، بل كانت السيدة الناضجة الحازمة التى بلت الدنيا وعرفت الناس ، وتزوجت من قبل ذلك رجلين من سادة قريش ، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون فى مالها إلى الشام ، وإن فى إعجاب مثلها « بمحمد » وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت فى شخصيته الآسرة اللافتة ، ما لم تجده فى أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها ، ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى ، لا النبى المصطفى .

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٨٥/٣ - وانظر معه كتاب الفضائل من ، صحيح مسلم : باب صفته ﷺ (١٨١٨/٤) وعيون الأثر ١٨٨/١ .

(٢) من وصف الإمام على كرم الله وجهه للنبى عليه الصلاة والسلام : تاريخ الطبرى : ١٨٥/٣ ، ١٨٦ وانظر : صحيح مسلم ، من كتاب فضائله ﷺ (١٨٠٤/٤ - ١٨١٢) .

وقد عاشرته هذه السيدة الكريمة الناضجة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث ، وإنها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس . ثم لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحى الأول ، حتى قالت فى يقين :

« كلا واللّه ما يخزيك اللّه أبدا ... إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدومَ ، وَتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] الحديث .

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت ، وإن فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصيته ، ﷺ قبل أن يبعث نبيا رسولا . ومن وصف « على بن أبى طالب » – كرم الله وجهه – لابن عمه الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب ، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج السيدة خديجة ، قال :

« ... وهو أجود الناس كفا ، وأجرأ الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه ... »[2] .

ومعه ، حديث لأم معبد الخزاعية « عاتكة بن خالد » ، قالت تصفه ﷺ ، وقد رأته فى هجرته قبل أن تعرفه :

« رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ... وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى عنقه سطع ، وفى صوته صحل ، وفى لحيته كثاثة ، أزج أقرن ، إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سما وعلاه البهاء ، أجمل الناس وأبهاه من بعيد ، وأحسنه وأجمله من قريب ، حلو المنطق ، فصل ، لا نزر ولا هذر ... ربعة ، لا بائن من طول ولا تقتحمه عين من

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها ، عن بدء الوحى . والسيرة ٢٥٣/١ ؛ وعيون الأثر ٨٣/١ .

(٢) وانظر كتاب المناقب فى صحيح البخارى ، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم .

قصر ... له رفقاء يحفون به ، إن قال أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا إلى أمره ... »[1] .

والسيدة « خديجة » تنفرد من بين نساء النبى جميعا بأنها وحدها التى عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ . ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتهما الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل الزوج ، فإذا تركناها إلى الزوجات الأخريات اللواتى جئن بيت النبى بعدها ، شق علينا تمثل حياتهن هناك ، فما من امرأة منهن دخلت حياة « محمد ﷺ » إلا رأت فيه الزوج والنبى معا .

والذى نطمئن إليه ، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت النبى عليه الصلاة والسلام ، معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى ، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من زوجات يشاركنها فى رجلها ، حتى ترى فيه — ﷺ — الزوج والنبى . ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة ، والغيرة التى تحتدم حتى تجاوز المدى . . . وما يكون شيء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب !

وحياة « محمد ﷺ » فى بيته ، تبدو رائعة فى إنسانيتها ، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان[2] ، ولم يحاول — إلا فى حالات الضرورة القصوى — أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير ، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية ، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى ، ولا الجمود العاطفى ، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سَوِىَّ الفطرة ، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وانفعالا ، وينحين عنها كل ظل من ظلال الركود والفتور والجفاف .

---

(١) الاستيعاب ١٩٥٩/٤ ، وعيون الاثر ١٨٨/١ ، ٣٢٣/٢ . ومعها من الباب الثانى من (الشفا ، للقاضى عياض) ٣٥/١ ط الحلبى ١٣٦٩ هـ .

(٢) فى كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى ، حديث طويل عن رعايته ﷺ لزوجاته ، وسمره معهن ، وصبره عليهن : ص ٨ : ١١ .

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات ، بأنهن كن دائما فى حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، يصحبنه حين يخرج فى مشاهده ومغازيه ، ويهيئن له من ذلك كله ما يرضى بشريته ، ويغذى قلبه ويمتع وجدانه ، ويجدد نشاطه ، فكان له من ذلك كله ما أعانه على حمل العبء الثقيل واحتمال ما لقى فى سبيل دعوته الخالدة .

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش ، فتىَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين ، حىَّ الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حجر أحب نسائه إليه ، وأحظاهن عنده .

* * *

فى بيتِ الزوْجيَّة ، معَ الضرائِر

بيته صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة لم يعرف الضرائر ، إذا انفردت به السيدة خديجة رضى الله عنها ، لم يتزوج عليها ولم تشاركها فيه ، حتى توفيت ، امرأة أخرى وإنما كان البيت الذى جمعهن ، فى دار الهجرة .

ولا بد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين فى حياة النبى ﷺ مع نسائه : تعدد الزوجات ، وحياة الضرائر . . .

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء ، لزوج واحد ، سوى مظهر مادية مسرفة . وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل ، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضرَّت بالمرأة والأسرة والمجتمع ، من حيث يُظن بها أنها مُصلِحة منصفة .

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة ، يُتَّبع فى دقة وينفذ نصا . . . ومع هذا يأتى بعض أبنائه فينكرون فى جرأة ، تعدد الزوجات فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه إلا فى حالات قليلة ولدواع خاصة . ولم يكن هذا النظام اختياريا ، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان فى مجتمع ، البنون فيه زينة الحياة ، وفخر المرأة الإنجاب ، وفخر الرجال الولدُ وعزة النفر .

وربما بدا لنا اليوم أن ذاك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم ، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال . ولكنه فى الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا ، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد ،

وهو هذا الرق العصرى الذى يعترف لِزوجة واحدة بشرعية الزواج ويدع لغيرها – ممن يعاشرهن الزوج فى الحرام – الضياع والهوان والعار ويرهق الإنسانية بموردٍ لا ينقطع من أولاد الحرام، المنبوذين اللقطاء.

والإسلام قيد التعدد شرعا بأربع. ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم، ولهن أن يتزوجن من بعدهم.

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلّهن للنبى عليه الصلاة والسلام:

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴾. الأحزاب ـــ ٥١.

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين، من الزواج من أمهاتهم، نساء النبى ﷺ:

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِن بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾. الأحزاب ـــ ٥٣.

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهم، فيما هو من المعروف والمستطاع. مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق ولو حرصنا. وقد كان ﷺ قدوة للمسلمين ومعلما وإماما، أحرص الناس على العدل بين نسائه، إلا فيما لم تملكه بشريته من المساواة بينهن فى العاطفة والقلب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم هذا قسَمى فيما أملِكُ، فلا تلُمْنى فيما لا أملك».

* * *

وفى مسألة التعدد، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن هاجموه. ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء، وقد تؤثر أنثى – راضية – أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل، على أن يكون لها غيره كاملا.

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر، ولا هو يقتضى

أن تستريح إحداهن ، إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن « محمدا » ﷺ ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال ، الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره ، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة ...

وليس من بين أزواجه - ﷺ - من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره ، لو ذكرنا أن « خولة بنت حكيم » اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث الهلالية » طمحت إلى الزواج منه ، ﷺ وفى بيته عشر نساء : ثمانى أزواج واثنتان ملك يمينه ، وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده « أم رومان » حماة النبى ﷺ وأن على بن أبى طالب همَّ بأن يتزوج على « فاطمة الزهراء » وأن أبا بكر وعمر ، صهرى النبى ﷺ رغبا فى الزواج من « أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » حين مات زوجها ، وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة[1] ...

ولو خُيرت نساء النبى ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ، مع زوج واحد ، وحياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين عن حياتهن بديلا ...

فى صحيح الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنهما ، قالت : قلت : يا رسول الله ، هل لك فى بنت أبى سفيان ؟ — أختها — قال : « فأفعل ماذا ؟ » قلت : تنكح . قال : « أتحبين ؟ » قلت : لستُ لك بمخلية ، وأَحَبُّ من شاركنى فيك أختى . قال : « إنها لا تحل لى » قلت : بلغنى أنك تخطب . قال : « ابنة أم سلمة ؟ » قلت : نعم . قال : « لو لم تكن ربيبتى ما حَلّتْ لى ، أرضعتنى وأباها ثُوَيبة ، فلا تعرضن علىَّ بناتكن وأخواتكن » .

---

(١) يأتى بيان ذلك ، مع مراجعه ، فى مواضعه من مباحث الكتاب .

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد البيت المحمدى من غيرة نسائه الحادة ، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ، ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به ...

فإن يكن ، ﷺ عانى من ذلك كثيرا ، فلقد راض نفسه على احتماله ، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار ، وحسبُنا كلمته فى زوجه « عائشة » حين لجت بها غيرتها الجامحة :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

شاهداً على سلامة الفطرة وصحة النفس ، وعمق الفهم لطبيعة حواء . وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فيه ، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووئام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن ، فمثل رسول الله من يعذر ، ويقدر ، ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر ، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء .

وسيأتى فى مبحث « السيدة حفصة بنت عمر » رضى الله عنهما ، حديث أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبى ﷺ ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان ...

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم ، كانوا يرون فى « محمد » النبى المصطفى ، وأما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا . وهو ﷺ ، راضٍ بهذا مقر له ، غير ضجرٍ به ولا كاره . . .

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبى ﷺ من خصام وخلاف ، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى ، فيغضب ، أو يزجر ، أو يهجر ، لعلهن يرعوين ...

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة ، لم يكره ﷺ أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى فى سبيل الدين الحق ، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه ، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه ، ولعله كان مما يرضى الرجلَ فيه أن يغار مثلهن على مثله ، وأن تتنافس أزواجه على الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا أنه ليس كغيره من الأزواج . وما حاول – ﷺ – أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن ، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها ، ويتجردن من الغيرة ، والشوق ، واللهفة ، والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب ، وما كان أحلمه ﷺ ، وأرق وجدانه ، وألطف مزاجه ، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له غِرْنَ من جمالها ، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبى ﷺ ، استجلابا لمحبته ورضاه ، ففعلت وسرحها ﷺ قبل أن يدخل بها ، وقال عن نسائه :

« إنهن صواحبات يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »[1]

* * *

وهذه صورة من حياة أزواجه رضى الله عنهن ، أرجو أن يرى فيها القارىء شخصية الزوج المصطفى الذى آمنت به نساؤه رسولا ، وأعجبن به بطلا ، وعاشرنه زوجا ، وشاركن فى حياته قائدا مجاهدا ...

---

(١) بتفصيل ، فى الفصل الخاص بعائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها .

الباب الثانى

أمهاتُ المؤمِنينَ رَضِىَ الله عنهنّ

على ترتيب دخولهن البيت المحمدى

ومعهن « مارية القبطية » أم إبراهيم عليه السلام

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ ﴾

سورة الأحزاب

(١)

خديجة بنت خُويلد

أم المؤمنِينَ الأولى
ووزير النبى صلى الله عليه وسلم

« ... والله ما أبدلنى الله خيرًا منها : آمنتْ بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالِها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء »

ـ من حديث السيدة عائشة ، رضى الله عنها مرفوعا . أخرجه الإمام أحمد فى مسندها ، وابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب .

ذكرَى أليمَـة

أينع صباه واكتمل شبابه ، فى بيئة تَعِد أمثاله من الفتية الهاشميين بما شاءوا من ملذات ، لكنه كان يجد طعمَ الحياة فى مذاقه مرا كلما عاودته ذكرى بعيدة .

وما فتئت تلك الذكرى تعاوده ، وترده إلى لحظةٍ طواها الزمن منذ ثمانية عشر عاما ، وما يزال يذكر موقفه فى بقعة موحشة من الصحراء بين « مكة ويثرب » ، أمام أمه « آمنة » والحياة تتسرب من جسدها رويدا ، ثم تنطفىء إلى الأبد ...

ثمانية عشر عاما ، وما يزال المشهد الأليم يتراءى له عبر السنين ، فيرى نفسه مكبا على الحفرة التى ألقوا فيها جثمان الغالية « بالأبواء » ، ضائع الحيلة مهيض الجناح ، لا يملك أن يستبقى أمه لحظة واحدة بعد أن حان أجلها ، ولا أن يرد عنها عاديات الوحشة والبرد والظلام ، بعد أن هالوا عليها الرمال .

وربما شغلته شواغل العيش حينا عن أشجانه ، وصرفته دواعى الحياة فترة عن تمثل ذاك الموت الذى غال أعزَّ من له ، أمام عينيه وبين يديه ، لكنه لا يلبث أن يُنتزع من حاضره مستثارَ الحزن ، فإذا قلبه يخفق بين جوانحه شعوراً بعالم بعيد ، فى طريق الشمال ، ليطوف بمرقد الثاوية فى جوف الصحراء ، ثم ينثنى مثقلا بالأسى والشجن .

ما أكثر ما كان يمر فى مكة بالبيت المهجور الذى ضمَّه وأُمَّه زمنا ، ثم أوحش من بعدها وخلا ! ..

ما أكثر ما كان ينطلق إلى المراعى خارج مكة ، فإذا حان المساء وآن له أن يثوب إلى منزله ، تلبث برهة عند مدخل البلد الحرام ، وتمثل نفسه عائدا من رحلته الأولى إلى يثرب ، وحيدا محزونا مضاعَف اليتم ، يتبع جاريته « بركة » واتىَ الخطو صامتا واجما ، وهى تسعى به إلى بيت جده الشيخ « عبد المطلب » .

وكم حاول الجد الرحيم أن يذود عن أفق الغلام اليتيم تلك الرؤى الحزينة التى تروع صباه .

كم جاهد – عامين كاملين – ليضمد بيده الرقيقة ذلك الجرح الدامى فى قلب حفيده الصغير العزيز ! .

لكن الزائر المرهوب الذى ألم بآل الغلام فانتزع أباه ثم أمه ، عاد من جديد فطوّف بحىّ بنى هاشم ، وتلبث برهة يحوم حول فراش عميدهم الشيخ عبد المطلب ، وينذر بالرحيل .

ووقف الغلام مرة ثانية ، يرقب الحياة وهى تنطفىء فيمن كان له أبا بعد أبيه ...

وأصغى فى وجوم حزين إلى صوت الشيخ المحتضر ، وهو يدنى إليه ولده « أبا طالب » فيوصيه بمحمد ، ابن أخيه « عبد الله » .

ثم يمضى ...

* * *

وانتقل الصبى من بعده إلى منزل جديد ، ووجد فى عمه أبا ثالثا ، لكنه ظل يفتقد الأم .

وبقى قلبه على الأيام والشهور والسنين ، ينزع نحو مرقدها الأخير فى « الأبواء » ...

ولم يستطع ضجيج صبية بنى هاشم فى ملاعب حداثتهم ، أن يمحو من

مسمعه صدى الحشرجة الرهيبة التى صَكَّتْ أذنيه وقلبه فى جوف البيداء .

ولا استطاعت مشاهد الحياة الزاخرة الحافلة حول « البيت العتيق » فى « أم القرى » أن تطوى فى متاهة النسيان ذلك المشهد الفاجع لاحتضار أمه وموتها ، قرب « الأبواء »[1] .

وهذا هو يقف فى المساء الساجى عند مدخل مكة شارد البال ، والكون من حوله موحش واجم ، يلفه الغلَس برداء أربد ، ويتنفس فيه الصمتُ العميق شجنا وإعياء .

وتتكاثف الظلمة من حوله ، فيجمع نفسه فى جهد ، ويأخذ طريقه إلى منزل عمه ، وفى نفسه إحساس مرهف بفراقٍ وشيك ، فقد آن له أن يغادر هذا المنزل الذى آواه سبعة عشر عاماً ، وحسبُ العمِّ ما يحمل من أعباء بنيه الكثار ...

ولكن إلى أين ؟ ..

إلى « الشام » مؤقتا كما أراد له عمُّه فى صباح يومه ذاك ، فلقد حدثه فى مطلع الشمس عن رحلةٍ مرجوة الخير ، وقال له فيما قال :

« يا ابن أخى ، أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا وألحَّتْ علينا سِنونَ منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا يتجرون فى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتَها لفضَّلتك على غيرك لما يبلغها عنك من أمانتك وطهارتك ، وإن كنت أكره أن تأتى الشام وأخاف عليك من يهود ...

« وقد بلغنى أنها استأجرتْ فلانا ببكرين ، ولسنا نرضى لك بمثل

(١) بتفصيل فى كتابنا (أم النبى) ﷺ .

ما أعطته ، فهل لك فى أن أكلمها ؟ »[1] .

قال « محمد » : ما أحببت ياعمّ .

ترى هل كلمها العم واستقر العزم على الرحيل ؟

إذن فليرحل ، تاركا تدبير المستقبل للغد المطوى فى ضمير الغيب .

(١) ابن سعد ، عن الواقدى (١٣٠/١) وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ٥٧/١) والذى فى السيرة الهشامية ١٩٩/١ ، والسمط الثمين للمحب الطبرى ص ١٣ طبعة حلب – وتاريخ الطبرى ، ١٩٦/٢ ، أن السيدة خديجة هى التى عرضت عليه ، مباشرة ، أن يخرج فى مالها إلى الشام تاجرا .

لقَــاء

القافلة تغذ السير نحو « أم القرى » عائدة من رحلة الصيف إلى الشام ، والحداة يهزجون بأغانيهم التى تَعِدُ الإبل بالراحة والظل والرى ، وتمنى الركب بالأنس فى لقاء الأهل والأحباب .

والمسافرون قد استغرقتهم نشوة حالمة منذ بلغوا « مر الظهران » على مقربة من « مكة » واشرأبت أعناقهم إلى معالمها التى لاحت لهم من بعيد ، تناديهم فى لهفة واشتياق ...

لكنه وحده ، من بين هؤلاء جميعا ، انطوى على نفسه يكابد أشجانه التى هاجها مرور القافلة قريبا من « الأبواء » فى طريق عودتها إلى « مكة » .

وعبثا حاول تابعه المرافق ، أن يغريه بالتطلع إلى « أم القرى » أو يشغله بالحديث عما ينتظره هنالك من تقدير السيدة الثرية الكريمة ، التى اختارته ليخرج فى مالها إلى الشام ، ووعدته بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم قبله ...

وقال « ميسرة » :

« أسرع أنا إلى سيدتى فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك ، فإنها تعرف ذلك لك »[1] .

فتركه « محمد » يمضى وفرغ لتأملاته :

أهذا كل ما ينتظر المسافر العائد من الشام ، والحُداة يمنون الركب بالأنس فى لقاء العشيرة والأحباب ! ...

(١) السيرة ، وطبقات ابن سعد (١/١٣٠) .

وكَرَّ بصرُه راجعا إلى وراء ، يتبع آثار طيف من أمه « آمنة » ، بدا كأنما يملأ فضاء الصحراء .

وتذكر رحلته الأولى ، فى السادسة من عمره ، عائدا من « يثرب » بغير أم ! .

* * *

حتى علا ضجيج الركب مختلطا بهتاف المستقبلين ورغاء الإبل التى أناخت على ثرى « مكة » مطمئنة ، فمضى « محمد » على بعيره قاصدا دار « خديجة » بعد أن طاف بالبيت العتيق ...

وكانت « خديجة الطاهرة » هناك فى دارها ، ترقب الطريق من عِلِّيَّةٍ لها فى لهفة مشوبة بشىء من القلق ، وإلى جانبها غلامها « ميسرة » يملأ سمعَها بحديث مثير عن رحلته مع « محمد »[1] .

وإذ ظهر لها أخيرا يدنو من الدار بطلعته الوسيمة وملامحه النبيلة ، عَجِلتْ إليه تستقبله لدى الباب مرحبة ، مهنئة بسلامة العودة ، فى صوت يفيض عذوبة ورقة وحنانا .

ورفع إليها وجهه شاكرا ، وقد غضَّ من بصره ، ثم مضى يقص عليها أنباء رحلته وربح تجارته وما جاءها به من طيبات الشام . . .

وأنصتت إليه شبه مأخوذة ، حتى إذا ودعها ومضى ، ظلت واقفة حيث هى ، تتبعه عيناها إلى أن توارى فى منعطف الطريق .

واتجه هو إلى منزل عمه « أبى طالب » وهو يحس شيئا من الرضى والارتياح ، أن عاد إليه من رحلته موفقا سالما ، لم يمسسه أذى من يهود ...

زوَاج سَعيد

وسارت الحياة فى « مكة » على وتيرتها أياما ، وقد عكف أصحاب الأموال على مراجعة حساباتهم وإحصاء أرباحهم أو خسارتهم ، وانصرف التجار العائدون إلى أهليهم يستجمون من آثار سفر شاق طويل ، محفوف بالأخطار . . .

وصُفِّيَ حساب القافلة أو كاد ، وانقطع ما بين التجار والأُجَراء إلى حين ، اللهم إلا ما كان بين السيدة « خديجة » الطاهرة و « محمد » الصادق الأمين . . .

لقد بلت « خديجة » الدنيا وعرفت الرجال ، وتزوجت مرتين ، باثنين من سادات العرب وأشرافهم : عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، وأبى هالة هند بن زرارة التميمى[1] ، واستأجرت غير واحد من الكهول والشبان ، فما رأت فيمن عرفت ، ذلك النمط الفريد من الرجال .

واستغرقت فى تفكيرها ، تستعيد صوته الفريد المميز ، وهو يحدثها عن رحلته ، ويطالعها مرآه وهو مقبل عليها ملء المهابة والجلال .

وفجأة ، ألفت خواطرها تحوم حول الموضع الذى التقت فيه بالشاب الهاشمى ، فهزها شعور مباغت ، خفق له قلبها :

---

(١) هذه رواية السيرة (١٩٣/٤) وتاريخ الطبرى (١٧٥/٣) ، والسمط الثمين (١٣) وعيون الأثر (٥١/١) قابل على رواية الاستيعاب ، وعلى رواية ابن حبيب فى (المحبر) .
وانظر ترجمة عتيق وأبى هالة فى (جمهرة أنساب العرب لابن حزم) : ص ١٣٣ ، ١٩٩ ط أولى ذخائر العرب .

فيم الخفقان وقد أدبر الشباب أو كاد ؟ ..

وانتفضت لا تدرى كيف تواجه دنياها بمثل هذه العاطفة ، بعد أن نفضت يديها من الرجال أو خرجت — فى حساب بيئتها — من حياة الرجال ؟

وكيف تلقى بها قومها وقد ردت عن بابها الخُطَّاب من سادة قريش وسراة مكة ؟[1]

لقد فكرت فى قومها ، دون أن تعرف رأى « محمد » فيها : أتراه يستجيب لعاطفة أرملة كهلة فى الأربعين من عمرها وهو الذى انصرف حتى اليوم عن عذارى مكة وزهرات بنى هاشم الناضرات ؟

وانتابها ما يشبه الخجل ، فما هى فى كهولتها بالقياس إلى « محمد » فى شبابه غير خالة أو أم ، ولو عاشت « آمنة بنت وهب » لما جاوزت يومئذ سنَّ الأربعين ! ... وهى بعد ليست خلية من هموم الأمومة ، فقد ترك لها زوجها عتيق بن عائذ المخزومى ابنة أدركت سن الزواج ، وخلف لها زوجها أبو هالة هند بن زرارة التميمى ، ولدها « هندا » غلاما لم يشب عن الطوق[2] .

فأى طائل وراء هذه العاطفة التى تبدو يائسة عقيما ؟

وفيما هى فى حيرتها ، زارتها صديقتها « نفيسة بن مُنية » فلم يغب عنها الذى تجد صاحبتها ، فمازالت بها حتى كشفت لها عن سرها المطوى . . .

وهوَّنت « نفيسة » الأمر عليها ، فما فى نساء قريش من تفوقها نسبا

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠١ — والسمط الثمين ١٣ .

(٢) انظر ترجمة أم محمد بنت عتيق فى جمهرة الأنساب (١٣٣) وانظر ترجمة هند بن أبى هالة ، ربيب رسول الله ﷺ فى الاستيعاب (٤ / ١٥٤٥) وفى الجمهرة (١٩٩) .

وشرفا ، وهى بعدُ ذات غنى وجمال ، كلٌّ قومها حريص على الزواج منها لو يقدر عليه[1] .

ثم تركتها وقد اعتزمت أمرا ...

* * *

جاءت[2] « محمدا » فسألته فيمَ عزوفه عن الدنيا وقضاؤه على شبابه بالحرمان ؟ .. هلا سكن إلى زوج تحنو عليه وتؤنسه وتزيل وحشته ؟

فأمسك الشاب دمعة كادت تخونه وهو يذكر ما ذاق من حرمان منذ تركته أمه صبيا فى السادسة من عمره ، وتكلف الابتسام ليرد على محدثته :

ــ ما بيدى ما أتزوج به ...

قالت على الفور :

ــ فإن دُعِيتَ إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟

فما مسَّ سؤالها أذنيه حتى أدرك من تعنى :

تلك « خديجة » ورب الكعبة ، ومن سواها تدانيها شرفا وجمالا وكفاءة ؟ ..

ألا لو دعته لأجاب ، ولكن هل تدعوه ؟

وانصرفت « نفيسة » وتركته مشغول البال ، يرنو فى رقة إلى طيفٍ من خديجة ، وقد تراءت له فى وحدته طلقة المحيا باشة الأسارير ، تشع لطفا وبهاء وحنوا ...

وأشفق من أن تبعد به أمانيه ، إذ كان يعلم ردها أشراف قريش وأغنياءها

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠١ ، طبقات ابن سعد : ١ / ١٣١ .

(٢) من طبقات ابن سعد ، عن الواقدى ١ / ١٣١ ، والإصابة فى ترجمتى خديجة ، ونفيسة ، والذى فى سيرة ابن هشام أن السيدة خديجة عرضت نفسها عليه من غير وساطة . وانظر تاريخ الطبرى ٢ / ١٩٧ والروايتان فى (عيون الأثر ١ / ٤٩) .

فغالب نفسه ليستردها إلى واقعه ، وانطلق يسعى نحو الكعبة ، فإذا كاهنة تلقاه فى طريقه فتستوقفه سائلة : جئت بخاطبا يا محمد ؟

أجاب غير كاذب : كلا

فتأملته برهة ثم هزتْ رأسها وهى تقول :

— ولم ؟ .. فوالله ما فى قريش امرأةٌ ، وإن كانت خديجة ، لا تراك كفئا لها[1] .

* * *

ثم لم تك إلا فترة قصيرة المدى ، حتى تلقى دعوة « خديجة » فسارع إليها ملبيا وفى صحبته عماه « أبو طالب وحمزة ، ابنا عبد المطلب » .

وهناك فى بيتها ألفَوا قومها ينتظرون ، وكل شىء مهيأ لزواج . سريع ... وتكلم « أبو طالب » :

« أما بعد : فإن محمدا ممن لا يوازَن به فتى من قريش ، إلا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قلّ ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ... » .

فأثنى عليه عمها « عمرو بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ » وأنكحها منه ، على صداق قدره عشرون بكرة[2] .

ولما انتهى العقد ، نُحِرتْ الذبائح ودقت الدفوف ، وفُتحت دار خديجة للأهل والأصدقاء ، فإذا بينهم « حليمة » قد جاءت من بادية بنى سعد ، لتشهد عرس ولدها الذى أرضعته ، ثم لتعود فى الغداة ومعها أربعون رأسا

---

(١) الروض الآنف ١ / ٢١٤ ، وعيون الأثر ١ / ٥٠ مع ترجمة نفيسة فى نساء الإصابة ٨ / ٢٠٠ والاستيعاب ٤ / ١٩١٩ .

(٢) فى رواية لابن إسحاق عن الزهرى ، أن أباها هو الذى زوجها . والتفصيل فى (عيون الأثر ١ / ٥٠) مع السيرة ١ / ٢٠١ ، وهمّته الواقدى وقال والثابت عندنا المحفوظ عن أهل العلم أن أباها خويلد بن أسد ، قبل الفجار ، وأن عمها عمرو بن أسد هو الذى زوجها (طبقات ابن سعد : ١ / ١٣٣) .

من الغنم ، هبةً من العروس الكريمة لتلك التى أرضعت « محمدا » زوجها الحبيب ...

وتندت عينا « محمد » وهو يتفقد أمه « آمنة » فإذا يد لطيفة رقيقة ، تأسو الجرح القديم فى حنان غامر ، وإذا به يجد فى « خديجة » عوضا جميلا عما قاساه من طويل حرمان ...

* * *

ولم يعنِ « مكةَ » من أمر الزوجين السعيدين ، سوى أن زواجا ربط بين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى » و « خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصىّ »[1] القرشية الطاهرة .

ولكن « التاريخ » تلبث بعد بضع عشرة سنة ، ليسترجع يوم العرس المشهود ، ويُسجله بين أيامه الخالدات على مر الزمان .

وقد انصرف إلى حين ، تاركا هذين الزوجين ينعمان بأطيب حياة زوجية شهدتها « مكة » ويترشفان على مهل ، رحيق ودٍّ صاف عميق ، سيظل حديث التاريخ .

واستغرقا فى هناءتهما خمسة عشر عاما ، ناعمين بالألفة والاستقرار ، وقد أتم الله عليهما نعمته ، فرزقهما البنين والبنات : القاسم ، وعبد الله ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة[2] .

وأرخى الزمن لهما فى حياتهما تلك الرضية الهادئة أعواما ذات عدد ، ارتوى « محمد » خلالها من نبع الحنان ، معوضا بذلك حرمان ماض يتيم ، ومتزودا لغد مقبل ، حافل بالكفاح المضنى والشواغل الجسام .

---

(١) وأم خديجة : فاطمة بنت زائدة بن الأصم بن هرم بن رواحة . راجع الاستيعاب (١٩١٧/٤) وتاريخ الطبرى (١٧٥/٣) - ونسب قريش : ٢٣٠ والمحبر ١٢ - ١٨ .

(٢) انظر السيرة : ٢٠٢/١ ، وطبقات ابن سعد : ١٣٣/١ ، وتاريخ الطبرى ١٧٥/٣ والمحبر ٧٩ ، والاستيعاب ١٨١٧/٤ ، ونسب قريش ٢١ .

وقد ذاقا فى تلك الفترة لوعة الثكل فى الولدين العزيزين ، فكان للزوجين فى وئامهما وتصبرهما ، ما أعانهما على تجرع الكأس التى تدور على الناس جميعا فلا يعفى من شربها أحد ، وما كان ولداهما إلا وديعة ، ولا بد يوما أن تسترد الودائع ![١] .

---

(١) لم نطل الحديث هنا عن أبوة محمد ﷺ وأمومة خديجة رضى الله عنها ، لأن موضع هذا الحديث يأتى فى كتابنا عن « بنات النبى » ﷺ .

وذكر الطبرى أن هند بن أبى هالة ، كان عند أمه خديجة بعد زواجها بمحمد – ﷺ – وفى ترجمة هند بطبقات الصحابة ، والحفاظ ، وكتب الأنساب ، أنه ربيب رسول الله ﷺ .

مَعَ المصطفى ﷺ فى ليلة القدر

ثم كان الحادث الخطير ، لا فى حياة هذه الأسرة الوادعة فحسب ، ولا فى حياة قريش والعرب وحدهم ، بل فى حياة الإنسانية أجمع .

لقد تلقى « محمد » رسالة الوحى ، فى ليلة القدر ، واصطفاه الله تعالى خاتما للنبيين عليهم السلام ، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا ...

وكانت الرسالة إيذانا بحياة جديدة ، شاقة كادحة ، وبدءا لعهد ملؤه الاضطهاد والأذى ، والجهاد ، ثم النصر .

وفى الحق لم يكن الحادث الأكبر مفاجأة للعرب ، فما أكثر ما تناقلت الجزيرة أنباء إرهاصات عن نبى جديد قد حان مبعثه ، وما أكثر ما تحدث السمار والكهان والمتحنفون ، عن رسالة سماوية منتظرة آن أوانها ![1] .

و « مكة » على الخصوص ، كانت الموضع الذى تتلاقى فيه تلك الإرهاصات والبُشريات ، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك ، لتصب حول « البيت العتيق » : مثابة الحج ومركز العبادة من قديم العصور والآباد ... غير بعيد من دار المولد وما حف بها من ذكرى قصة الفداء ، وبشريات الحمل والمولد والرضاعة ، والرحلة إلى الشام .

لكن أحداً لم يكن يدرى يقيناً كيف ومتى يكون المبعث المنتظر ، ومن هنا كان لنزول الوحى على المصطفى ﷺ ، وقع المفاجأة العنيفة التى جاوزت

---

(١) انظر هذه المرويات بالتفصيل فى الجزء الأول من سيرة ابن هشام ، ط . الحلبى ، وطبقات ابن سعد ، والشفا للقاضى عياض ، وفى الجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويرى ، ط دار الكتب — وفى الجزء الأول من عيون الأثر ووفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى للسمهودى . ط السعادة بمصر .

أبعاد التصور . كان منذ استقرت به الحياة فى رعاية الزوج الرءوم ، وأعفته ظروفه المادية من عناء الكفاح اليومى ، قد أتيح له أن يستجيب لما فى نفسه من نزوع إلى التأمل ، وميل إلى التفكير المستغرق . وهى نزعة ظهرت فيه واضحة منذ الصبا . ووجدت فى ساعات فراغه – أيام رعيه للغنم – مجالا رحبا ، ثم صرفه عنها كدح العيش ، لتعود فتظهر من جديد ، قوية أصيلة ، كأنما هى فطرة فيه .

وكثيرا ما حامت تأملاته حول الكعبة ، تلك التى صنعت تاريخ « مكة » وتاريخ أسرته بوجه خاص[1] ، ووصلت ما بين أبيه « عبد الله » و « إسماعيل » جد العرب ، برباط وثيق نسجته يد الزمن طوال قرون لا عداد لها . فأحيت بحادث فداء « عبد الله » من الذبح ، ذكرى متناهية فى القدم ، لمشهد الذبيح الأول : ابن ابراهيم .

وانبلج له نور الحق ، فرفض هذه الأصنام التى تكدست فى بيت الله ، صماء عمياء ، لا تملك لنفسها نفعا ولا ترد عن نفسها ضرا ، وأنكر أن تخف أحلام قومه ، فيتعبدوا لحجارة بالغة الهوان ، ويقدموا القرابين لأوثان وأصنام صنعوها بأيديهم ، ثم جعلوا منها آلهة لهم وأربابا .

وأرهف التأمل حسه ، فإذا هو يستشف أدق ما فى الكون من أسرار ، ويلمح وراء جلال الليل ورهبة الصحراء وسنا الضوء وبهاء السماء ، قوة عظمى خفية ، تدبر هذا الكون وفق نظام دقيق ونواميس مطردة ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ...

وما شارف الأربعين ، حتى كان قد ألف الخلوة فى غار « حراء » واستطاب رياضته الروحية التى يحس خلالها كأنما يدنو من الحقيقة الكبرى ويستجلى السر الأعظم . وما كانت « خديجة » فى وقار سنها وجلال أمومتها

(١) السيرة : ١٦٣/١ – واقرأ الفصل الخاص بمكة فى كتابنا « أم النبى » ﷺ .

لتضيق بهذه الخلوات التى تبعده عنها أحيانا ، أو تعكر عليه صفو تأملاته بالمعهود من فضول النساء ، بل حاولت ما وَسِعَها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام فى البيت ، فإذا انطلق إلى (غار حِراء) ظلت عيناها عليه من بعيد ، وربما أرسلت وراءه من يحرسه ويرعاه . . [1]

وهكذا بدا كأن كل شىء مهيأ لاستقبال الرسالة المرتقبة ، لكنها ، رغم هذا التهيؤ ، زلزلت حين جاءت أرجاء ذلك العالم الذى طالما أرهص بنبوة وشيكة ، وهزت ذلك النبى المصطفى « محمد بن عبد الله » الذى ما رضى قط عن موضع الأصنام بالكعبة ، ولا ارتاب قط فى أن حياة قومه لن تمضى هكذا على سفه وضلال . . .

فلمانزل عليه الوحى فى ليلة القدر وهو فى (غار حراء) انطلق يلتمس بيته فى غبش الفجر خائفا شاحبا يرجف فؤاده ، حتى بلغ حجرة زوجه وذهب عنه الروع ، فحدثها فى صوت مرتجف عن كل ما كان ، ونفض لديها مخاوفه ، قال : « لقد خشيت على نفسى » .

أتراه يهذى حالما ؟ أم به جُنة ؟

وضمته إلى صدرها ، وقد أثار مرآه أعمق عواطف الأمومة فى قلبها ، وهتفت فى ثقة ويقين :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا . . . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[2] .

---

(١) السيرة ١/٢٥٣ ــ الدرر : ٣٤ والإصابة ٨/٢٠٠ .

(٢) متفق عليه ن حديث بدء الوحى ، ومعه السيرة ١/٢٥٣ وشرحها فى الرؤض الأنف ١/٢٧٠ وابن سعد ، بإسناده من عدة طرق (١/١٩٤) وتاريخ الطبرى : ٢/٢٠٥ ــ ٢٠٧ ، والسمط الثمين ص ١٠ ، وعيون الأثر ١/٨٣ ، والإصابة ٨/٢٠٠ . . . . بألفاظ متقاربة .

وزايله روعه ، فما هو بالكاهن ولا به جنَّة ، وهذا صوت « خديجة » العذب الواثق ، ينساب مع ضوء الفجر إلى فؤاده ، فيبث فيه الثقة ، والأمن والهدوء .

وأحس الراحة والطمأنينة وهى تقوده فى رفق إلى فراشه ، فتضعه فيه كما تفعل أم بولدها الغالى ، ثم تهدهده بصوتها الأليف . . .

واستراحت عيناها عليه برهة وهو مستغرق فى نومه الهادىء المطمئن ،ورفرف عليه قلبها ملء الحب والإيمان ، ثم قامت فتسللت من المخدع على حذر ، حتى إذا بلغت الباب اندفعت إلى الطريق الخالى ، تحث خُطاها نحو ابن عمها « ورقة بن نوفل » ومكة ما تزال تنعم بغفوة الصبح ، والكون يبدأ تفتحه للضوء والحياة .

وجاءت « ورقة » فأقعدته الشيخوخة عن النهوض للقائها ، لكنه ما كاد يصغى إلى ما تتحدث به حتى اهتز منفعلا ، وتدفقت الحيوية فى بدنه الواهن ، فانتفض يقول فى حماسة :

« قدوس ... قدوس ، والذى نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت »[1] .

ولم تنتظر مزيدا من قوله ، ولم تستعد كلمة واحدة منه، بل أسرعت إلى زوجها الحبيب تعجل إليه بالبشرى .

° ° °

(١) السيرة ٢٥٤/١ - وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢ والحديث مخرج فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها . ومجال عرضه بتفصيل ، فى كتابى (مع المصطفى) صلى الله عليه وسلم .

في حديث السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، عن بدء الوحى ، قالت : فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية .. يكتب الإنجيل بالعبرانية ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يا ابن عمٍّ ، اسمع من ابن أخيك ... فأخبره ﷺ بخبر ما رأى وسمع . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى ، عليه السلام ، يا ليتنى فيها جَذَعًا ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : " أَوَ مُخْرِجِيَّ هم ؟ " قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزَّراً »[1] .

وطابت نفسه ، ﷺ ، بما سمع ، فانصرف إلى بيته مطمئنا مع زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليبدأ نضاله من أجل الدعوة ، وليلقى فى سبيلها أشقّ ما وعى التاريخ من أذى واضطهاد ، فما كانت قريش لترضى أن يعيب دينها ويسفه أحلامها ، ويحقر آلهتها التى وجدوا آباءهم لها عابدين .

° ° °

(١) متفق عليه ، وانظر السيرة ٢٥٤/١ وتاريخ الطبرى : ٢٠٦/٢ ، ٢٠٧ .
مع (فتح البارى : ١ / ١٧ ، وعيون الأثر ١ / ٨٠) .

ووقفت زوجه المحبة المؤمنة إلى جانبه ، تنصر وتشد أزره ، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والاضطهاد سنين عددا ، فلما قُضى على بنى هاشم وعبد المطلب أن يخرجوا من مكة لائذين بشِعب أبى طالب ، بعد أن أعلنت قريش عليهم حرباً مدنية لا ترحم ، وسجلت مقاطعتها لهم فى صحيفة عُلقت فى جوف الكعبة[1] . ولم تتردد « خديجة » فى الخروج مع زوجها ، وهكذا تخلت عن دارها الحبيبة ، مغنى صباها ومجمع هواها ومثابة ذكرياتها ، وقامت تتبع رجلها ونبيها وقد علت بها السن ، وناءت بأثقال الشيخوخة ، والثكل ، والاضطهاد .

وأقامت هنالك فى شِعب أبى طالب ثلاث سنين ، صابرة مع زوجها النبى ﷺ ومن معه من صحبه وقومه ، على عنت الحصار المنهك ، وجبروت الوثنية العاتية العمياء .

* * *

(١) السيرة : ٣٧٥/١ وتاريخ الطبرى ٢٢٨/٢ .

(٢) السيرة ، والمحبر لابن حبيب (١١) وفى رواية لابن سعد أنهم أقاموا سنتين ، ورواية أخرى بلفظ « مكثوا سِنينَ » – الطبقات ٢١٠/١ .

عَـــام الحُـــزن

حتى تهاوى الحصار أمام قوة الإيمان الصادق والمجاهَدة الباسلة . وآن للنبى ﷺ أن يعود إلى بيته فى جيرة الحرم المكى ، مع زوجه المؤمنة الصابرة التى بذلت له فى المحنة ، ما أبقى لها الزمن من طاقة ، فى عامها الخامس والستين .

بعد نحو ستة أشهر من انهيار الحصار ، مات العم « أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم » وقد كان لابن أخيه ، ﷺ ، أباً صديقاً وكافلا وحاميا ، ومانعاً له من طواغيت قريش ، قومه .

ولم تشهد رضى الله عنها مأتمه . كانت فى فراشها تودع الدنيا ، وزوجها عليه الصلاة والسلام إلى جانبها يرعاها ويؤنس وحشة احتضارها ببشرى ما لها عند الرفيق الأعلى ، ويتزود منها لفراق لا لقاء بعده فى هذه الدنيا . ثم أسلمت الروح بعد ثلاثة أيام ، بين يدى الزوج الذى تفانت فى حبه منذ لقيته ، والنبى الذى صدقته وآمنت برسالته من فجر ليلة القدر ، وجاهدت معه حتى الرمق الأخير من حياتها ، وكانت له سكنا وأنسا وملاذا ، إلى أن رجعت نفسها المطمئنة إلى ربها راضية مرضية . ودفنها ، ﷺ ، بالحجون .

* * *

كانت وفاتها ، رضى الله عنها ، قبل الهجرة بثلاث سنين على الصحيح[1] .

(١) ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير (عيون الأثر ١/١٣٠) والإصابة ٦٢/٨ ، والمحبر لابن حبيب ١١ .

وتلفت محمد – ﷺ – حوله ، فإذا الدار من بعدها موحشة خلاء ، وإذا « مكة » تنبو به بعد رحيلها فليس له على أرضها مكان . . .

قال « ابن اسحق » : « فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام »(٢) .

وأسند الواقدى عن عبد الله بن ثعلبة ، بن صُعَيْر ، رضى الله عنه ، قال : لما توفى أبو طالب وخديجة بنت خويلد ، وكان بينهما شهر وخمسة أيام ، اجتمعت على رسول الله ﷺ مصيبتان ، فلزم بيته وأقَلَّ الخروج ، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع به .. »

وبلغت متاعبه ، ﷺ أقسى مداها فى عام موت « خديجة » الذى سمى « عام الحزن » وخيل إلى أعدائه المشركين أن الظلمات تكاثفت حوله فما عاد يبدو على الأفق شعاع من ضياء . وكذبتهم أمانيهم فظنوا أن الظفر به جد قريب ، وما دروا أن الظلمة تبلغ ذروتها قبيل الفجر ...

ذلك أن « خديجة » لم تمض إلا وأمين الوحى يرعى النبى ﷺ غاديا رائحا ، يذود عنه اليأس والإحباط ، والسابقون الأولون من المؤمنين يحيطون بنبيهم مستبسلين يفتدونه بالمهج والأرواح ، ويرون الاستشهاد فى سبيل دعوته مجدا وانتصارا ...

لم تمت « خديجة » إلا والدعوة قد ذاعت وجاوزت « مكة » إلى أطراف الحجاز ، ثم إلى ما وراءها من بلاد العرب ، وحملها فئة من صحابته عبر البيد والبحار إلى « الحبشة » مهاجرين بدينهم ، متخلين عن ديارهم وأهليهم ، عارضين على الدنيا مشهدا رائعا فريدا من مشاهد الإيمان الباذل الصابر ، مالئين

(١) السيرة : ٥٧/٢ – تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٢ ، عيون الأثر ١٣٠/١ .

(٢) طبقات ابن سعد : (ذكر سبب خروجه ﷺ إلى الطائف) ٢١١/١ .

الأسماع والقلوب بحديث مثير عن صدق الجهاد ومجد التضحية وبطولة الاستشهاد .

لم تمت « خديجة » إلا وفى الموسم بمكة ، رجال من « يثرب » لن يلبثوا أن يبايعوا الرسول ﷺ ويعودوا فيعبئوا المدينة كلها لنصرته ، وأقصى أمانيهم أن يخوض بهم المعركة الباسلة ، ليظفروا بإحدى الحسنيين : النصر على أعداء الله ، أو الاستشهاد فى سبيله . . .

* * *

ملءُ الحيَــــاة

ولكن ، هل ماتت « خديجة » حقا ؟

كلا ! .. إنها لماثلة فى حياة زوجها الرسول ﷺ ، فما يسير إلا وطيف منها يتبعه ، وما يسرى إلا وسنى مشرق منها يبدد من حوله حالك الغواشى . . .

وستدخل بعدها فى حياته ﷺ ، نساء ذوات عدد ، لكن مكانها من قلبه وفى دنياه ، سيظل أبدا خالصا لهذه الزوج الأولى ، والحبيبة الرءوم التى انفردت ببيت رجلها ربع قرن من الزمان ، لم تشركها فيه أخرى ، ولا لاح فى أفقه ظل من شريكة سواها .

سوف تفد على هذا البيت بعدها أزواج أخريات ، فيهن ذوات الصبا والجمال ، والحسب والجاه ، ولكن واحدة منهن لن تستطيع أن تزحزح « خديجة » عن مكانها هناك ، ولن تفلح فى إبعاد طيفها الذى أقام أبدا يحوم حول الحبيب ويستأثر بإعزازه ما عاش .

وستشهده « المدينة » بعد أعوام عندما انتصر فى « بدر » يتلقى فداء الأسرى من قريش ، فلا يكاد يلمح قلادة لخديجة بعثت بها ابنتها « زينب » فى فداء زوجها الأسير « أبى العاص بن الربيع » حتى يرق قلب البطل المصطفى من شجو وشجن ، ويسأل أتباعه الظافرين ، فى أن يردوا على « زينب » قلادتها ويفكوا أسيرها[1] .

وسيشهد بيت النبى « عائشة بنت أبى بكر » فى عزة صباها ونضرة شبابها

(١) السيرة ٢/٢٠٧ - ولحديث القلادة فصل خاص فى كتاب « بنات النبى » ﷺ .

وحب النبى ﷺ لها ، تشعلها الغيرة من تلك الضرة التى سبقتها إلى قلب « محمد » واستأثرت به وحدها حتى يومها الأخير ، ثم ظلت بعد موتها حيث كانت من قلبه .

فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك فقال : « اللهم هالة ! » فغِرت فقلت : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش ، حمراء الشدقين ، هلكت فى الدهر أبدلك الله خيرا منها ؟ »[1] زادت فى رواية الإمام أحمد بالمسند ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الإصابة من طريق أبى بشر الدولابى :

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام وزجر عائشة غاضبا ، قال :

« والله ما أبدلنى الله خيرا منها : آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . وزاد الطبرانى فى روايته ، قالت : قلت : يا رسول الله ، اعف عنى ، ولا تسمعنى أذكر خديجة بعد هذا اليوم بشىء تكرهه » .

وكانت قبل ذاك ، لا تكف عن الكلام فيها ! فى الصحيحين من حديثها رضى الله عنها ، قالت : ما غِرت على أحدٍ من نساء النبى ﷺ ما غِرت على خديجة . وما رأيتها ، ولكن كان النبى ﷺ يكثر ذكرها وربما ذبح الشاة ثم قطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة . فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لى منها ولد ... »[2]

(١ - ٢) متفق عليه ، من فضائلها رضى الله عنها .

وفى رواية بصحيح مسلم ، أنه ﷺ قال : « إنى قد رُزِقتُ حبَّها »[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

« ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة ، وما تزوجنى رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت »[2] .

* * *

وحتى يوم الفتح – وقد مضى على وفاة خديجة أكثر من عشر سنين حافلة بأجل الأحداث – رُئِىَ رسول الله ﷺ ، يختار مكانا إلى جوار القبر الذى ثوت فيه زوجه أم المؤمنين الأولى ، ليشرف منه على فتح « مكة » وليقيم فى قبة ضربت له هناك ، تؤنسه روح « خديجة » ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الأصنام ، ملتفتا بين آونة وأخرى إلى دارِهما ، حيث نهل من نبع الحب والحنان ما تزود به لذاك الجهاد المضنى الطويا ..

وستدخل فى الإسلام من بعد « خديجة » ملايين النساء ، لكنها ستظل منفردة دونهن بلقب المسلمة الأولى التى آثرها الله بالدور الأجل فى حياة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وسيذكر لها المؤرخون – المسلمون وغير المسلمين – ذلك الدور ، فيقول « بودلى » :

« إن ثقتها فى الرجل الذى تزوجته – لأنها أحبته – كانت تضفى جوا من الثقة على المراحل الأولى للعقيدة التى يدين بها اليوم واحد فى كل سبعة من سكان العالم »[3] .

ويؤرخ « مرجليوث » حياة محمد ـــ ﷺ ـــ باليوم الذى لقى فيه خديجة

---

(١) صحيح مسلم : فضائلها رضى الله عنها ، ح (٢٤٣٥) والإصابة ٦٢/٨ .
(٢) تاريخ الطبرى – حوادث السنة الثامنة للهجرة « جـ ٣ » .
(٣) بودلى : الرسول ، الترجمة العربية لمحمد فرج وعبد الحميد السحار .

« ومدت يدها إليه تقديرا » . كما يؤرخ حادث هجرته إلى « يثرب » باليوم الذى خلت فيه « مكة » من « خديجة » ...

ويطيل « درمنجم »[1] الحديث عن موقف « خديجة » حين جاءها زوجها من غار حراء « خائفا مقرورا أشعث الشعر واللحية ، غريب النظرات ... فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن ، وتسبغ عليه ود الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات ، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذى يحتمى به من كل عدوان فى الدنيا » .

وكتب عن وفاتها :

« ... فَقَد محمد بوفاة خديجة تلك التى كانت أول من علم أمره فصدقته ، تلك التى لم تكف عن إلقاء السكينة فى قلبه . . . والتى ظلت ما عاشت تشمله بحب الزوجات وحنان الأمهات » .

ودرمنجم هنا ، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين ، فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة ، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة : فمرجليوت يجعل لمال خديجة المكان الأول فى زواج كهذا « بين شاب فقير ، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بنى مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن » ثم يمضى فيكتب ، بكلمات تقطر حقدا وزورا :

« إن دعوة خديجة جاءت محمدا وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبى طالب حين خطب إليه ابنته أم هانىء ، فرده لفقره وزوجها لذى مال ، واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته ، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة فى الزواج منه حتى أقبل متلهفا على الثراء ، يداوى به جرح كرامته التى أهدرها فقره »[2] .

(١ـ٢) حياة محمد لدرمنجم ـــ ص ٥٨ من الترجمة العربية للأستاذ عادل زعيتر .

وليس هذا بمستغرب من مثله ، فكذلك يَلوُون الأخبار فى تفسيرهم لتاريخ الإسلام . وكلامه هنا مردود بما فى مصادرنا الموثقة من حديث « عبد الله ابن عباس » ابن عم أم هانىء ، رضى الله عنهما . ذكر خطبته ، ﷺ أم هانىء إلى أبيها ، عمه أبى طالب ، وقد سبقه إلى خطبتها هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومى ، وهو كفء كريم . فقال أبو طالب : يا ابن أخى ، إنا قد صاهرنا إليهم ، والكريم يكافىء الكريم « ثم فرق الإسلام بين أم هانىء وهبيرة ، فخطبها ﷺ فقالت : والله إنى كنت لأُحبك فى الجاهلية فكيف فى الإسلام ؟ ولكنى امرأة مصبية ــ أى ذات صبية ــ فأكره أن يؤذوك »[1] .

وفيها قال عليه الصلاة والسلام : « نساء قريش خير نساء ركبن الإبل : أحْناه على طفل وأرعاه على زوج فى ذات يده »[2] .

وفى رواية من طريق الشعبى أن أم هانىء رضى الله عنها قالت : يا رسول الله ، لَأنت أحَبُّ إلىّ من سمعى وبصرى . وحقُ الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبَلتُ على زوجى أن أضيع بعض شأنى وولدى ، وإن أقبلت على ولدى أن أضيع حق الزوج . فقال رسول الله ﷺ : « إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى ذات يده »[3] .

وفسر « موير » فى كتابه (حياة محمد وتاريخ الإسلام) وفاء محمد - ﷺ - لخديجة بتهيبه لمركزها المالى والاجتماعى ، وخوفه من أن تطالبه بالطلاق !

وكان على « موير » أن يفسر لنا : فيم إذن كان وفاء محمد ، عليه الصلاة والسلام ، لخديجة بعد موتها ؟ ... وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق ، وهو يخاصم « عائشة » فيها بعد وفاتها بسنين ، ويأبى عليها أن تمس ذكراها ؟!

(١ــ٢) ترجمتها بالإصابة . والحديث متفق عليه .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٥١/٨ وانظر فى (نسب قريش) أبناء هبيرة المخزومى من أم هانىء رضى الله عنها . ٣٤٤ ط أولى ، ذخائر .

لقد كانت « خديجة » ملء حياته ﷺ حية وميتة ، وما جاوزت « عائشة » الحق حين قالت : « كأن لم يكن فى الدنيا امرأة سواها » .

وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذى تركه فى أعماقه موت أمه بين يديه ؟!

هل كان لأنثى غيرها ، أن تهيِّىء له الجو المسعف على التأمل ، وأن تبذل له من نفسها – فى إيثار نادر – ما أعده لتلقى ختام الرسالات .

هل كان لزوجٍ عداها ، أن تستقبل عودته التارخية من غار « حراء » ، بمثل ما استقبلته هىٰ به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان راسخ ، دون أن يساورها فى صدقه أدنى ريب ، أو يتخلى عنها يقينها فى أن الله غير مخزيه أبدا ؟!

هل كان فى طاقة سيدة غير خديجة ، غنية مترفة منعمة ، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانبه فى أحلك أوقات المحنة ، وتعينه على احتمال أفدح ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد ، فى سبيل ما تؤمن بأنه الحق ؟

كلا ... بل هى وحدها التى مَنَّ الله تعالى عليها بأن ملأت حياة الرجل الموعود بالنبوة ، وأن كانت أول الناس إسلاما ، كما منَّ بها على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ملاذا وسكنا ووزيرا .

قال ابن اسحق : « كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك ، إلا فرج الله عنه بها رضى الله عنها : إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه ، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس ، حتى ماتت رضى الله عنها »[1]..

---

(١) فى السيرة : ٢٥٧/١ – وانظر السمط الثمين : ٢٣ .

وتركت الراحلة من بعدها ، بناتها الأربع ملء حياة أبيهن الرسول ﷺ ، وملء التاريخ الإسلامى . وقد أفردت لهن كتابى عن « بنات النبى » وفيه تفصيل ما أجملتُ هنا عن أمومة السيدة خديجة ، أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها وعنهن [1] .

ومَنَّ الله عليها وعلى المسلمين ، بأن حفظ فى نسل الزهراء بنت الطاهرة ، ذرية نبيه عليه الصلاة والسلام ، قَبَساً من سَنا نوره ونفحة من عطر شذاه . فهى أم آل بيت النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

(١) وانظر فضائلها رضى الله عنها فى : المناقب من صحيح البخارى والفضائل من صحيح مسلم .

(٢)

سَـودة بنت زمعَة العامرية

المهاجرة أرملة المهاجر

« . . ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك »

سودة بنت زمعة رضى الله عنها

(الإصـابة)

وحشة

الأيام تمضى ثقيلات الخطو مرهقات بأعباء الجهاد ، والليالى كوالح مسهدات ، مشحونة بالذكريات ، ومحمد ﷺ – فى وحدته بعد خديجة : أم العيال وربة البيت ووزيره فى الإسلام والشريكة فى الجهاد – يخلو إلى نفسه كلما أجهده ما يلقى من قومه ، ليسامر طيف التى ملأت دنياه .

والصحابة يرقبون آثار الحزن على نبيهم ﷺ فيشفقون عليه من تلك الوحدة ، ويودون لو يتزوج ، لعل فى الزواج ما يؤنس وحشته بعد « أم المؤمنين » الراحلة .

لكن واحدا منهم لم يجرؤ على التحدث إليه فى موضوع الزواج ، حتى كانت « خولة بنت حكيم السلمية »[1] هى التى سعت إليه ذات مساء متلطفة مترفقة ، تقول : « يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلَتْك خَلَّةٌ لفقد خديجة ! »

فأجاب : « أجل ، كانت أم العيال وربة البيت » .

فتشاغلت « خولة » بالنظر إلى بعيد ، ثم أقبلت على المصطفى فاقترحت عليه أن يتزوج ! وفى رواية لابن سعد أنها قالت : أفلا أخطب عليك ؟[1] .

وأطرق عليه الصلاة والسلام صامتا ، وقلبه عامر بطيف الراحلة ، يتذكر

---

(١) الطبقات : ٥٧/٨ ، تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ و السمط الثمين : ١٠٣ ، والإصابة ١١٧/٨ .
ترجمة خولة بنت حكيم السلمية ، ذات هجرتين ، زوجها عثمان بن مظعون الجمحى ، رضى الله عنهما .

« نفيسة بنت منية » حين جاءته منذ بضع وعشرين سنة ، تحدثه فى الزواج وتعرض عليه « خديجة بنت خويلد » .

لكن ، مَن . . . بعد خديجة ؟

ذكرت له « خولة » على الفور ، كأنما انتظرت هذا السؤال وأعدت له الجواب : « عائشة ... بنت أحب الناس إليك » ![1]

وتفتح قلبه ﷺ حين ذكر صاحبه : أول رجل صدقه وآمن به مع ابن عمه على ، ومولاه زيد ، ثم وقف إلى جانبه من اللحظة الأولى ، باذلا من ماله ونفسه أغلى ما يبذل أخ وصاحب وصديق .

وذكر ﷺ مع « أبى بكر » ابنته عائشة ، تلك الصبية اللطيفة الحلوة ، التى طالما آنسته بمرحها ولطفها ، واستثارت فيه أحلى مشاعر الأبوة ...

ولم يستطع أن يقول لخولة : لا ...
ولو حاول أن يقولها ، لما طاوعه لسانه !
أيرفض بنت أبى بكر ؟

تأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة ، ومكانة لأبى بكر عنده ﷺ لم يظفر بها سواه ، وأنس إلى تلك الصغيرة العزيزة ، الذكية الملامح ، اللطيفة المحيا ..

ـــ لكنها ما تزال صغيرة يا خولة ...
وكان رد « خولة » حاضرا :
ـــ تخطبها اليوم إلى أبيها ثم تنتظر حتى تنضج ...
لكن ، من للبيت يرعى شئونه ، ومن لبنات الرسول ﷺ يخدمهن ؟
وهل جاءت « خولة » لتعرض زواجا آجلا ، لن يتم قبل سنتين أو

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٥/٣ .

ثلاث ؟... بل جاءت وفى خاطرها اثنتان ، إحداهما بكر وهى « عائشة بنت أبى بكر ... » والأخرى ثيب ، هى « سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ابن عبد ودّ العامرية »[1] وأمها « الشموس بنت قيس بن زيد بن عمرو » من بنى عدى بن النجار[2] .

وأذن لها ﷺ فى خطبتهما ، فمرت أولا ببيت « أبى بكر » ثم جاءت بيت « زمعة » فدخلت على ابنته « سودة » تقول :

ــ ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا سودة ؟

فسألت « سودة » وهى لا تدرى مرادها : وماذا يا خولة ؟

قالت : أرسلنى رسول الله أخطبك عليه !

وجاهدت « سودة » لتملك نفسها من فرط العجب والدهشة ، ثم قالت فى صوت مرتجف : وددت ! .. ادخلى على أبى فاذكرى له ذلك .

فدخلت « خولة » عليه وهو شيخ كبير تخلف عن الحج ، فحيته بتحية الجاهلية ، ثم قالت : إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسلنى أخطب عليه سودة .

فصاح الشيخ : كفء كريم ، فماذا تقول صاحبته ؟

أجابته خولة : تحب ذاك .

فسألها أن تدعوها إليه ، فلما جاءت تلقاها قائلا :

ــ أى سودة ، زعمت هذه أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أرسل يخطبك ، وهو كفء كريم ، أفتحبين أن أزوجكه ؟

قالت : نعم[3] .

---

(١) من بنى عامر بن لؤى – انظر نسب قريش « ٤٢١ » وجمهرة الأنساب « ١٥٧ » ذخائر .

(٢) السيرة ٣٥٢/١ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ والإصابة ١١٧/٨ ، والمحبر ٧٩ أو : الشموس بنت قيس بن عمرو بن زيد (نسب قريش « ٤٢٢ » وجمهرة أنساب العرب « ١٥٨ » وعيون الأثر ٣٠٠/٢)

(٣) تاريخ الطبرى : ١٧٦/٣ ، والنقل منه ، والسمط الثمين ١٠٢ .

وهنا أشار « زمعة بن قيس » إلى خولة أن تدعو إليه « محمدا » ، فقامت تدعوه للزواج .

وبنى ﷺ بسودة ، بمكة ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين[1]

* * *

وفى رواية للواقدى عن مخرمة بن بكير بن عبد الله الأشج ، عن أبيه قال : قدم السكران بن عمرو مكة من أرض الحبشة ومعه امرأته سودة بنت زمعة ، فتوفى عنها بمكة ، فلما حَلَّت أرسل إليها رسول الله ﷺ فخطبها ، فقالت : أمرى إليك يا رسول الله . فقال ﷺ : « مُرِى رجلا من قومك يزوجك » فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود العامرى – ابن عمها ، وأخو السكران – فزوجها فكانت أول امرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة . وفى رواية الواقدى عن ابن أخى الزهرى عن أبيه ، أنه تزوجها فى شهر رمضان سنة عشر من النبوة[2] .

(١–٢) (طبقات ابن سعد : ٨ / ٥٧ ، ٥٢) .

هجـــرَة وتَرمّـــل

وشاع فى « مكة » أن محمدا ﷺ قد خطب « سودة بنت زمعة » فكاد ناس لا يصدقون سمعهم ، فما فى مثل « سودة » مأرب ، وتساءلوا فى ارتياب : أرملة مُسِنَّة ، غير ذات جمال ، تخلف « خديجة بنت خويلد » التى كانت يوم خطبها الشاب الهاشمى ، سيدة نساء قريش ، ومطمح أنظار السادة من قريش ؟ .

كلا ، لن تخلف « سودة » أو سواها « خديجة » وإنما تجىء إلى بيته ﷺ جبرا لخاطرها ، وعزاء لها عن زوجها ابن عمها : « السكران بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودّ القرشى العامرى » الذى هاجر بها فيمن هاجر إلى الحبشة ، ثم مات عنها وترك أرملته من بعده ، قد أسلمتها محنة الاغتراب إلى محنة الترمل .

وذكر رسول الله ﷺ أولئك النفر الثمانية من بنى عامر ، يخرجون من ديارهم وأموالهم ويجوزون القفر المرهوب ثم يركبون أهوال البحر ، لينجوا بدينهم من مطاردة مجنونة آثمة ، تحاول أن تردهم قسرا إلى متاهة الضلال ومهواة الشرك .

من هؤلاء النفر الثمانية ، كان : « مالك بن زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرى » أخو سودة ، و « السكران بن عمرو بن عبد شمس » زوجها وابن عمها ، وأخواه « سليط وحاطب ولدا عمرو بن عبد شمس » وابن أخيه « عبد الله بن سهيل بن عمرو »[1] .

---

(١) السيرة : ٣٥٢/١ ، وتاريخ الطبرى : ٢٢٢/٢ ، وعيون الأثر ١١٥/١ – ١١٨ مع : جمهرة الأنساب ١٥٧ ، والسمط ١٠١ ، وتراجمهم فى (الإصابة) .

وصحب ثلاثة من الثمانية زوجاتهم ، وكلهن عامريات : سودة بنت زمعة ابن قيس بن عبد شمس بن عبد ودّ ، وأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس ، وعمرة بنت الوقدان بن عبد شمس .

وهكذا خرجت الأسرة المؤمنة ، برجالها ونسائها ، من دارها ووطنها ، راضية بما هو أقسى من الموت ، فى سبيل الله .

وتمثل ﷺ « سودة » وهى تودع أرضا عزيزة حُلّت بها تمائمها وازدهر فيها صباها واطمأنت على أرضها كهولتها ، ثم تمضى إلى بلد مجهول ، وناس لا هى منهم ولا هم منها ، لسانهم غير عربى ، ودينهم غير الإسلام ، وقبل أن تئوب من غربتها ، وتبلغ « أم القرى » فاضت روح زوجها « السكران ابن عمرو » ... لم يمهله الموت ريثما يعود كيما يدفن فى ثرى مكة ، مرقد من مضوا من الأهل والخلان[1] .

وتأثر ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مدّ يده الرحيمة إليها يسند شيخوختها ، ويهون عليها الذى ذاقت من قسوة الحياة .

* * *

---

(١) فى موت السكران بن عمرو روايتان : أنه مات عن سودة بأرض الحبشة مهاجرا . وقيل : عاد بها إلى مكة فما لبث أن مات قبل الهجرة إلى المدينة .

حكاهما ابن عبد البر فى ترجمة السكران بالاستيعاب (٦٨٥/٢) وعلى القول الأول موسى بن عقبة ، وابن حزم فى الجمهرة (١٥٧) والزبير بن بكار ، فيما نقل ابن سعد . وعلى الثانى . ابن إسحاق فى السيرة (٧/٢) والواقدى ، حكاه ابن سعد أيضا وابن حجر فى ترجمتها بتهذيب التهذيب ، وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ٣٠٠/٢) . وانظر الدرر : ٦١ .

وهَبتُ ليلتى لِعائشَة

وأصبحت « سودة » ذات يوم ، فإذا هى زوجة لرسول الله ﷺ[1]

وداخلتها رهبة من جلال زوجها ، وقاست نفسها إليه ﷺ ، ثم إلى « خديجة » الزوجة الأولى ، ثم إلى « عائشة » العروس الصبية المنتظرة ، فأحست كأن الأرض تميد بها من فرط دهشتها وعجبها .

ولم تخدعها نفسها قط ، بل أدركت بتجربة سنها أن بينها وبين قلب « محمد » — ﷺ — حاجزا لا حيلة لها فيه . . .

وعرفت من اللحظة الأولى التى جمعتها بزوجها ، أن « الرسول » هو الذى تزوجها ، لا « الرجل » الذى لم تجرده النبوة من بشريته .

وأيقنت دون ريب ، أن حظها من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف

لكن ذلك لم يرعها ، بل كان حسبها أن رفعها رسول الله ﷺ إلى تلك المكانة ، وأن جعل منها — أرملة السكران بن عمرو — أما للمؤمنين .

وأرضاها كل الرضا أن تأخذ مكانها فى بيت رسول الله ، وأن تخدم بناته ...

وكان يسعدها أن تراه ﷺ يضحك من مشيتها – وكانت ثقيلة الجسم – وأن يأنس أحيانا إلى خفة روحها أو يستملح عبارة من عباراتها ...

---

(١) فى خبر بالمحبر (٨٠) ورواية لابن سعد عن هشام ابن الكلبى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما (٥٦/٨) أنها رأت قبل موت السكران رؤيا قصتها عليه ، ففسرها بقرب موته ، وزواجها من بعده بالنبى عليه الصلاة والسلام . فاشتكى من يومه ذاك ، فلم يلبث رضى الله عنه إلا قليلا حتى مات .

قالت له مرة :

« صليتُ خلفك الليلة يا رسول الله ، فركعتَ بى حتى أمسكتُ بأنفى مخافة أن يقطر الدم ! »[1] .

فتبسم عليه الصلاة والسلام ضاحكا من قولها ...

وكانت فيها طيبة توشك أن تكون سذاجة ، أسند « ابن إسحاق » عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الأنصارى ، قال :

قُدِم بأسرى بدر ، وسودة بنت زمعة زوج النبى ﷺ عند آل عفراء ، فى مناحتهم على عوف ومعوذ ابنى عفراء ، وذلك قبل أن يضرب على أمهات المؤمنين الحجاب . قال : تقول سودة : والله إنى لعندهم إذ قيل : هؤلاء الأسارى قد أتى بهم . فرجعت إلى بيتى ورسول الله ﷺ فيه ، وإذا أبو يزيد ، سهيل بن عمرو ــ أخو السكران بن عمرو ــ فى ناحية الحجرة ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، فلا والله ما ملكتُ نفسى ، حين رأيت أبا يزيد كذلك ، أن قلت : أى أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ، ألا متم كراما ؟

فو الله ما أنبهنى إلا قول رسول الله ﷺ من البيت :

« يا سودة ، أعلى الله ورسوله تحرضين ؟ »

قلت : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت ![2] .

* * *

كانت « سودة » تقوم على بيت النبى ﷺ ، حتى جاءت « عائشة بنت

---

(١) ابن سعد ، من حديث الأعمش عن ابراهيم التيمى (٥٤/٨) والاستيعاب ١٨٦٧/٤ ، والإصابة ١١٨/٨ .

(٢) السيرة : ٢٩٩/٢ .

أبى بكر » فأفسحت لها « سودة » المكان الأول فى البيت ، وحرصت جهدها على أن تتحرى مرضاة العروس الشابة ، وأن تسهر على راحتها .

ثم وفدت على البيت أزواج أخريات ، فيهن حفصة بنت عمر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ... فما ترددت سودة فى إيثار عائشة بإخلاصها ومودتها ، وإن لم تظهر ضيقاً بهؤلاء الزوجات اللائى يستأثرن دونها بعواطف الزوج الرسول ، عليه الصلاة والسلام .

لكنه ﷺ ، أشفق عليها من الحرمان العاطفى ، وكره لها قسوة الشعور بأنها ليست مثل الأخريات ، وحاول جهد طاقته أن يفتح لها قلبه ، لكن بشريته لم تطاوعه ، فكان أقصى ما استطاعه لسودة ، أن يعدل بينها وبين نسائه فيما يملك من مبيت ونفقة ، وأما عواطفه فأنى له — وهو بشر — أن يقسرها على غير ما تهوى ، أو يخضعها بإرادته لموازين العدل وضوابط القسمة !

وبدا له آخر الأمر أن يسرحها سراحا جميلا كيما يعفيها من وضع أحسَّ أنه يؤذيها ويجرح قلبها ، وإن لم تُبْدِ بادرة شكوى أو ضيق ، فانتظر ﷺ إلى أن جاءت ليلتها ، فأنبأها مترفقا بعزمه على طلاقها .

وسمعت النبأ ذاهلة ، وأحست كأن الجدران تطبق على صدرها فلا تدع لها متنفسا ، فرفعت وجهها إليه ، ﷺ ، فى ضراعة صامتة ، ومدت يدها مستنجدة ، فأمسك بها رسول الله حانيا مشفقا ، وبوده لو استطاع أن يذهب عنها الروع الذى كاد يقضى عليها ...

وعندئذ آبت إليها سكينتها فهمست فى ضراعة :

— أمسكنى ، ووالله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك[1] .

(١) ابن حجر ، الإصابة : ١١٧/٨ ، والنقل منه ، ونحوه فى الاستيعاب ١٨٦٧/٤ وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وفى رواية أخرى بالمحبر ٨٠ وطبقات ابن سعد (٥٤/٨) وفى الإصابة ، أنه ﷺ بعث إليها بطلاقها فقعدت فى طريقه وناشدته أن يرجعها ، وجعلت يومها لعائشة .

ثم أطرقت محزونة ، وقد عزَّ عليها أن تحمله ﷺ على ما يكره ، وأنكرت على نفسها ألا تستجيب لرغبته فى تسريحها وهى التى تهب حياتها راضية فى سبيل مرضاته .

وأحست برودة الشيخوخة تناوش جسدها الكليل الثقيل ، فخجلت من تشبثها بزوج تتنافس فى حبه عائشة بنت أبى بكر ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة بنت زاد الركب ، وحفصة بنت عمر ! ... وأنكرت أن تنتزع لنفسها بين هؤلاء مكانا ، بل شعرت أنها إذ تأخذ ليلتها مثلهن ، كأنما تأخذ ما لا حق لها فيه ! ..

وهمت بأن تجيب فى قهر وعلى استحياء :

— سرحنى يا رسول الله !

لكن الكلمات تعثرت فى حلقها ...

وطال عذابها ، وطالت حيرتها ، ورسول الله إلى جانبها ينظر إليها صامتا فى إشفاق وتأثر .

وفجأة ، لاح لها خاطر سكنت له نفسها ، فقالت فى هدوء :

— أبقنى يا رسول الله ، وأهب ليلتى لعائشة ، وإنى لا أريد ما تريد النساء[1] .

فتأثر ﷺ لهذا الموقف السمح الكريم : يأتى سودةَ ليسمعها كلمة الطلاق – وما أبغضها ! – فيكون جوابها هذا الإيثار النبيل ، تتحرى به مرضاة الزوج الكريم .

وانجابت ظلمة الليل ، فخرج ﷺ إلى المسجد لصلاة الفجر ، وقامت « سودة بنت زمعة » فى بيتها تصلى وقلبها عامر براحة الرضى .

---

(١) الإصابة : ١١٧/٨ والاستيعاب : ١٨٦٧/٤ – وصحيح مسلم – وانظر السمط الثمين ، ص ١٠٣ – ويقال أنها قد أشرفت يومئذ على المئة !

أسند الواقدى عن الزهرى عن عروة عن عائشة ، قالت : « كانت سوْدة بنت زمعة قد أسنَّت ، وكان رسول الله ﷺ لا يستكثر منها ، وقد علمتْ مكانى من رسول الله ﷺ وأنه يستكثر منى . فخافت أن يفارقها وضنت بمكانها عنده ، فقالت : يا رسول الله ، يومى الذى يصيبنى لعائشة ، فقبله النبى ﷺ ، وفى ذلك نزلت : ﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** ﴾ الآية[1] .

فلندعها فى صلاتها راضية مطمئنة ، شاكرة لله أن ألهمها هذا الحل الموفق ، تنجو به من محنة فراقها لخير خلق الله ، دون أن تستشعر الخزى بالحرص على الأزواج فى مثل سنها العالية !

ولقد عاشت فى بيت الرسول حتى لحق ﷺ بربه ، وفى الخبر أنها عمرت حتى « توفيت فى آخر زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه » على الأرجح[2] وقد ظلت أم المؤمنين عائشة ، تذكر لها صنيعها ، وتؤثرها بجميل الوفاء ، فتقول : « ما من امرأة أحب إلَّى من أن أكون فى مسلاخها ، من سودة بنت زمعة ، ... لما كبرتْ قالت : يا رسول الله قد جعلت يومى منك لعائشة » . الحديث[3] .

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد : ٥٣/٨ والآية من سورة النساء : ١٣٨ .

(٢) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر ، ٣٠١/٢ ورجح الواقدى أنها توفيت سنة أربع وخمسين فى خلافة معاوية .

(٣) صحيح مسلم : كتاب ١٧ ح (١٤٦٣) وفى ترجمتها - بطبقات ابن سعد من عدة طرق بألفاظ متقاربة ، والاستيعاب والإصابة .

(٣)

عائشة بنتُ أبى بَكر

حَبيبَة المصطفى ، الصِّديقة بنت الصدِّيق

« أى بُنَيَّة ، خفِّضى عليك الشأنَ فواللَّهِ لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن عليها »

أم رومان رضى الله عنها

من حديث الإفك فى الصحيحين

الصِّهرُ الكريم

« إنَّ من أَمَنِّ الناسِ عليَّ فى ماله وصحبته أبا بكر . ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلا ، ولكنْ أخوة الإسلام »

حديث نبوى
متفق عليه

عندما ذكرت « خولة بنت حكيم السلمية » للرسول عليه الصلاة والسلام اسم عائشة بنت أبى بكر ، تفتح قلبه ﷺ لصلة تؤيد ما بينه وبين أحب الناس إليه من صحبة وقربى ، وتربطهما معا برباط المصاهرة الوثيق .

حدثت عائشة عن هذه الخطبة فيما أسند الطبرى[1] من طريق سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى عن أبيه ، قالت : « فجاءت خولة ، فدخلتْ بيت أبى بكر فوجدتْ « أم رومان » أم عائشة ، فقالت لها :

أى أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة !

قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة !

قالت : وددتُ ، انتظرى أبا بكر فإنه آت . . . .

وجاء « أبو بكر » فقالت له : يا أبا بكرُ ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ! أرسلنى رسول الله أخطب « عائشة » . . . قال : وهل تصلح له ؟ . . إنما هى ابنة أخيه . . .

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ١٧٦ ، والنقل منه . ونحوه فى طبقات ابن سعد (٥٩/٨) وفى الإصابة من حديث عائشة رضى الله عنها ، أخرجه ابن أبى عاصم . وانظر معه المحب الطبرى فى السمط الثمين ص ٣١ .

فرجعتْ إلى رسول الله ﷺ فقالت له ذلك ، فقال :

« ارجعى إليه فقولى إنك أخى فى الإسلام ، وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لى » .

فأتَتْ « أبا بكر » فذكرت له فقال : انتظرينى حتى أرجع . . .

قالت « أم رومان » : إن المطعم[1] بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه « جبير » ولا والله ما وعد ـــ أبو بكر ـــ شيئا قط فأخلف .

فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته « أم جبير » ـــ وكانت مشركة ـــ فقالت العجوز : يا ابن أبى قحافة ، لعلنا إن زوَّجنا ابننا ابنتك ، أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟

فلم يرد عليها « أبو بكر » بل التفت إلى زوجها « المطعم » فقال : ما تقول هذه ؟ فقال : إنها تقول ذاك .

فخرج « أبو بكر » ـــ وقد شعر بارتياح لما أحلَّه الله من وعده ـــ وعاد إلى بيته فقال لخولة : ادعى لى رسول الله . . .

فمضت « خولة » إليه ﷺ فدعته ، فجاء بيت صديقه أبى بكر ، فأنكحه عائشة وهى يومئذ بنت ست سنين أو سبع » على متاع بيتٍ قيمته خمسون أو نحو من خمسين درهما .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنه ، بطبقات ابن سعد (٥٨/٨) قال : خطب رسول الله ﷺ إلى أبى بكر الصديق عائشة ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قد كنت وعدت بها ـــ أو : ذكرتها ـــ لمطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، لابنه جبير ، فدعنى حتى أسلها منهم . ففعل » .

---

(١) المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف القرشى مات مشركا ، وكان أحد الخمسة الذين قاموا فى نقض صحيفة المقاطعة الظالمة ، وأما ابنه جبير فقدم على النبى ﷺ ، مشركا ، فى وفد قريش فى أسارى بدر وكان من أكابر قريش ، وأعلمهم بالنسب . ثم أسلم بين الحديبية والفتح . توفى فى خلافة معاوية . رضى الله عنهما . وحديثه عند الستة .

ولا يذكر التاريخ عنها وقتئذ ، إلا أنها بنت ست سنين أو سبع ، وأنها كانت قد خطبت لجبير بن المطعم بن عدى النوفلى . أبوها أبو بكر بن أبى قُحَافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة . وأمها أم رومان بنت عمير بن عامر – أو بنت عامر بن عمير – من بنى الحارث بن غنم بن كنانة[١] .

وقد عُرف قوم عائشة ، بنو تيم ، بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأى ، كما كانوا مضرب المثل فى البر بنسائهم والترفق بهن وحسن معاملتهن ...

ثم كان لأبيها إلى جانب هذا الميراث الطيب ، ما عرف له من دماثة فى الخلق وحسن العشرة ولين الجانب . وأجمع مؤرخو الإسلام على أنه « كان أنسب قريش لقريش ، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من خير وشر . وكان رجلا تاجرا ذا خلق معروف ، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وخبرته وحسن مجالسته »[٢] .

فلما بعث محمد ﷺ ، أضاف « أبو بكر » إلى هذا كله شرف السبق إلى الإسلام ، وكان المدافع عنه بكل ما يملك ، الداعى إليه فى شجاعة وحميَّة . وممن أسلم من الصحابة بفضل أبى بكر واستجابة لدعوته : عثمان ابن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ... وهم من العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم .

---

(١) السيرة : ٢٩٣/٤ – ابن سعد : ١٦٩/٣ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ والاستيعاب ١٨٨١/٤ ، وعيون الأثر (٣٠٠/٢) . ومات المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بمكة مشركا قبل بدر . وذكره ﷺ بخير فى أسراها من قريش . وأسلم جبير يوم فتح مكة . وأمه أم جميل بنت سعيد العامرية .

(٢) السيرة : ٢٦٧/١ ـــ وانظر معه مناقب أبى بكر فى صحيح البخارى : ٢٠٠/٢ وفضائله فى الجزء الرابع من صحيح مسلم .

قال عليه الصلاة والسلام :

« ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن قحافة ، ما عكم – أى ما تلبث – حين ذكرته له وما تردد فيه » . وقال ﷺ :

« ما نفعنى مال قط ، ما نفعنا مال أبى بكر » . قيل فبكى « أبو بكر » وقال : « يا رسول الله ، وهل أنا ومالى إلا لك ؟ » .

* * *

وأم عائشة : أم رومان بنت عامر الكنانية ،[1] من الصحابيات الجليلات . كانت قد تزوجت فى الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدى فولدت له الطفيل ، ثم توفى عنها فخلف عليها أبو بكر فولدت له عائشة وعبد الرحمن . وهاجرت إلى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول وصاحبه بها ، فلما توفيت فى حياة رسول الله ــ بعد حادث الإفك ــ نزل ﷺ قبرها واستغفر لها وقال : « اللهم لم يخفَ عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك »[2] .

أسلمت بمكة قديما ، وبايعت ، وهاجرت إلى المدينة مع أهل رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم . وولده وأهل أبى بكر . وتوفيت بالمدينة فى عهد النبى ﷺ ، فى ذى الحجة ، سنة سِتٍ . وأسند ابن سعد من طريق يزيد بن هـٰرون

---

(١) لا خلاف فى نسبها فى بنى مالك بن كنانة ، لكن الخلاف من أبيها إلى كنانة كثير جدا كما صرح فى الاستيعاب (١٩٣٦/٤) وابن سعد فى الطبقات (١٦٩/٣) راجع معها الإصابة ، ونسب قريش : ٢٧٦ وجمهرة أنساب العرب : ١٢٧ – ذخائر ، والمحبر ٨٠ ، وعيون الأثر ٣٠٠/٢ وتهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢ .

(٢) ابن سعد فى ترجمتها بطبقاته ، وعنه ابن حجر فى الإصابة كما أخرجه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ، ولم يختلفوا فى وفاتها بعد محنة الإفك ، لكنهم اختلفوا فى تحديد سنة الوفاة .

راجع ترجمتها فى طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (باب الكُنى) ومعها : تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٦٧/١٢ .

وعفان بن مسلم ، حديث القاسم بن محمد بن أبى أبكر ، قال : لما دُليت أم رومان فى قبرها قال رسول الله ﷺ : « من سَرَّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » . ونزل ﷺ فى قبرها[1] .

* * *

(١) الطبقات الكبرى : ٢٧٧/٨ .

مألوفة

كان حسب « عائشة » أن تكون بنت أبى بكر ، لينزلها زوجها ﷺ من قلبه ومن بيته فى أعز مكان . . . لكنها كانت إلى جانب هذه البنوة ، ذات لطف آسر وذكاء لماح وصبا غض نضر . .

وُلدت بمكة فى الإسلام ، بعد أربع سنين أو خمس من المبعث ، وأسلمت قبل أن تشب عن الطوق هى وأختها أسماء ، وكان المسلمون إذ ذاك قلة معدودة .

وفى صحيح البخارى من حديثها فى الهجرة ، قالت : لم أعقل أبوىَّ قط إلا يدينان الدين » .

وعرفها ﷺ ، منذ طفولتها الباكرة ، وأنزلها من نفسه أعز ما تنزل ابنة غالية ، وشاهدها تنمو بين عينيه ويتفتح صباها عن ملاحة أخاذة وبديهة حاضرة ، مع فصاحة فى اللسان وشجاعة فى القلب ، إذ كان الذى تولى حضانتها جماعة من بنى مخزوم .

وفى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها : « أُرِيتُك فى المنام مرتين ، أرى أنك فى سَرَقة ـ شقة بيضاء ـ من حرير ويقول : هذه امرأتك . فأُكشف عنها فإذا هى أنت ، فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمْضِه »[1] .

ولم تدهش « مكة » حين أعلن نبأ المصاهرة بين أعز صاحبين وأوفى

---

(١) متفق عليه ، من فضائلها رضى الله عنها .

صديقين ، بل استقبلته كما تستقبل أمرا طبيعيا مألوفا ومتوقعا . ولم يجد فيها أى رجل من أعداء الإسلام أنفسهم موضعا لمقال ، بل لم يدر بخلد واحد من خصومه الألداء ، أن يتخذ من زواج محمد ﷺ بعائشة مطعنا أو مجالا لمقال . . . وهم الذين لم يتركوا سبيلا للطعن عليه إلا سلكوه ، ولو كان بهتانا وزورا وافتراء .

وماذا عساهم أن يقولوا ؟ . . .

هل ينكرون أن تخطب صبية كعائشة ، لم تتجاوز السابعة من عمرها ؟

لكنها قد ذُكرت قبل أن يخطبها المصطفى ﷺ ، على « جبير بن مطعم بن عدى » بحيث لم يستطع « أبو بكر » أن يعطى كلمته لخولة بنت حكيم ، حتى مضى فتحلل من وعده لأبى جبير .

أو ينكرون أن يكون زواج بين صبية فى سنها ، وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين ؟

أى عجب فى مثل هذا ، وما كانت أول صبية تزف فى تلك البيئة إلى رجل فى سن أبيها ، ولن تكون كذلك أخراهن ؟ لقد تزوج « عبد المطلب » الشيخ من « هالة » بنت عم « آمنة » فى اليوم الذى تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه ، من تِرب هالة « آمنة بنت وهب » .

وسيتزوج « عمر بن الخطاب» من بنت على بن أبى طالب ، وهو فى سن فوق سن أبيها !

ويعرض « عمر » على « أبى بكر » أن يتزوج ابنته الشابة « حفصة » وبينهما من فارق السن مثل الذى بين المصطفى وعائشة .

لكن نفرا من المستشرقين يأتون بعد بضعة عشر قرنا من ذلك الزواج ، فيهدرون فروق العصر والبيئة ، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه « الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء » ، ويقيسون بعين الهوى ،

زواجا عقد فى مكة قبل الهجرة ، بما يحدث اليوم فى الغرب المتحضر ، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين ، وهى سن تعتبر حتى وقتنا هذا جد متأخرة فى الجزيرة العربية ، وفى ريف مصر وأكثر مناطق الشرق ، وهو ما أدركه مستشرق منصف زار الجزيرة وعاد يقول :

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد . . . نظروا إليه من وجهة نظر المجتمع العصرى الذى يعيشون فيه ، فلم يقدروا أن زواجا مثل ذاك ، كان ولا يزال عادة أسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لازالت قائمة فى شرق أوروبا ، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة ... »[1] .

* * *

ولقد كانت غبطة آل أبى بكر بالمصاهرة الكريمة ، مما صحت به الآثار وتواترت المرويات . ومنها ما أسند الواقدى[2] من حديثٍ لحبيب التابعى المدنى ، مولى عروة بن الزبير ـــ ابن السيدة أسماء بنت أبى بكر ـــ « أن رسول الله ﷺ كان يختلف إلى بيت أبى بكر ويقول : « يا أم رومان ، استوصى بعائشة واحفظينى فيها » فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ، وكان ﷺ لا يخطئه يوما واحدا أن يأتى إلى بيت أبى بكر منذ أسلم إلى أن هاجر ، فيجد عائشة متسترة بباب الدار تبكى بكاء حزينا ، فسألها فشكت أمها فدمعت عيناه ودخل على أم رومان فقال : « يا أم رومان ، ألم أوصك بعائشة » ؟

* * *

(١) بودلى : الرسول ـــ ص ١٢٩ من الترجمة العربية لفرج والسحار .
(٢) الطبقات الكبرى : ٧٨/٨ .

الهِجــــرَة

لم يرض محمد ﷺ أن ينتزع الصبية اللطيفة المرحة من ملاهى حداثتها ، أو يثقل كاهلها الغض بأعباء الزوجية ومسئولياتها ، بل تركها حيث هى فى بيت أبيها ، تمرح لاهية مع لداتها وصواحبها وأترابها خلية البال ...

وكان كل حظه منها أن تسرع إليه كلما مر ببيت « أبى بكر » فتكاد تنسيه بلطفها وإيناسها ، المشاغل الجسام التى تنتظره لدى الباب ، وتزيل عنه تلك الوحشة المضنية يجدها كلما أوى إلى منزله وحيدا غريبا ...

وحيداً ، وإن كان فى عصمته « سودة بنت زمعة » تتفانى فى خدمته وتقوم على شئون داره وبناته .

غريبا ، وإن يكن مقيما فى «مكة » : بلد آبائه وأجداده منذ ما لا يحصى من الدهور والأحقاب .

وطاب له أن يسعى إلى بيت صاحبه « أبى بكر » كلما اشتدت عليه وطأة الشعور بالوحدة والغربة ، ليلاطف خطيبته الصغيرة ويغرق أشجانه فى فيض من دعابتها الذكية ومرحها الفياض .

وطاب لعائشة أن ترى رسول الله ﷺ ، فى عظمته وجلاله ووقاره ، يرتاح إليها ويأنس إلى صحبتها ويجد فى عالمها المرح ما يجذبه إليه ، حيث يشاركها لهوها فى بساطة حلوة وألفة حبيبة .

وازدهاها « ألا يخطىء رسول الله ﷺ ، أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار ، إما بكرة وإما عشية »[1] .

(١) السيرة : ١٢٨/٢ وعيون الأثر ١٨٢/١ من طريق البخارى . فى صحيحه ، حديث الهجرة ، مع فتح البارى : ١٦٦/٧ .

وذات يوم ـــ وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصاها ، وخرج المسلمون عن مكة إلى المدينة مهاجرين ، إلا من حُبِسَ أو فُتِنَ ، ولم يبق بمكة مع النبى ﷺ ، غير أبى بكر وعلى بن أبى طالب – علت شمس الضحى حتى توسطت كبد السماء ، وراحت تقذف الأرض بالحمم وتظللها بظلة من لهب ، وران على الكون ذلك الصمت المكدود والسكون اللاغب ، وكانت « عائشة » فى فناء الدار ، يأبى عليها مرح صباها أن تهجع القيلولة .

وفجأة أحست خطوات تدنو من الباب ، فأصغت فى لهفة وقد عرفت فيها خطوات زوجها العزيز .

وبادرت إلى الباب تفتحه مشوقة مرحبة ، فما لمح « أبو بكر » شخص النبى ﷺ قريبا من الدار فى تلك الساعة من حر الهاجرة ، حتى وثب من مهجعه وهو يقول :

« ما جاء رسولَ الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث » .

فلما دخل تأخر له « أبو بكر » عن سريره ، فجلس عليه الصلاة والسلام ، يبدو عليه أنه مشغول البال بأمر جلل ، فأمسكت « عائشة » أنفاسها ، وكذلك فعلت أختها « أسماء » ، ووقفتا خاشعتين ترقبان . . .

وتكلم ﷺ فقال لصاحبه دون أن ينظر إلى من فى الحجرة :

« أخرج عنى مَن عندك . » .

قال الصديق : يا رسول الله ، إنما هما ابنتاى ...

ثم أضاف مستفسرا فى قلق : وما ذاك فداك أبى وأمى ؟

قال عليه الصلاة والسلام :

« قد أُذِنَ لى فى الخروج والهجرة ... »

فهتف الصديق : الصحبة يا رسول الله ... الصحبة ![1]

(١) السيرة : ٢/١٢٩ والنقل منها . وحديث الهجرة مخرج فى الصحيحين عن السيدة عائشة ، وابن عباس رضى الله عنهم .

وكان كثيرا ما يستأذن الرسول ﷺ فى الهجرة فيقول له :

« لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبا ! »

فيطمع فى أن يكونه ...

وتذاكر الصاحبان - على مسمع من عائشة وأسماء - ما كان من غيظ قريش « حين صارت لمحمد شيعة وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا ملاذا ، فحذِروا خروج رسول الله إليهم ، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم ، فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار قصى بن كلاب التى كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون فيما يصنعون فى أمر محمد ﷺ .

وكان فيهم عتبة بن ربيعة - أبو هند - وشيبة أخوه ، وأبو سفيان بن حرب ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والنضر بن الحارث بن كلدة ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وحكيم بن حِزام ، وأمية بن خلف ، وغيرهم من رجال قريش .

واستقروا آخر الأمر على رأى لأبى جهل بن هشام : أن تأخذ كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبًا ، فيعطَى كلُّ فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إلى محمد فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فيرضوا منهم بالدية ![2] .

وأُذِنَ لرسول الله فى الهجرة ، واختار أبا بكر له صاحبا !

وأحست « عائشة » ضيقا وقلقا من الفراق الوشيك ، وتطلعت إلى المصطفى الحبيب ثم إلى أبيها ، فما راعها إلا أن رأته يبكى من الفرح .

---

(١) السيرة الهشامية : ١٢٤/٢ ، ١٢٦ وابن سعد من طريق الواقدى (٢٢٧/١) وتاريخ الطبرى : ٢٤٣/٢ وعيون الأثر ١٧٦/١ من طريق ابن إسحاق .

وما شعرت قط – فى سنها الغضة – قبل اليوم أن أحدا يبكى من الفرح ، حتى رأت أباها يفعل يومئذ[1] .

* * *

وبدأ التأهب لرحيل عاجل ...

بعث « أبو بكر » يدعو إليه « عبد الله بن أُرَيقط » – وكان دليلا ثقة ، خبيرا بمجاهل الطريق – فدفع إليه راحلتين يرعاهما لميعادهما الموقوت .

ودعا ﷺ إليه ابن عمه « على بن أبى طالب » فأسر إليه النبأ الخطير ، ثم استخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت عنده للناس .

فلما حانت ساعة الرحيل : وقف ﷺ على مرتفع هناك ببيت أبى بكر ، فرنا إلى « البيت العتيق » وقتا ، ثم أشرف على « أم القرى » وقال :

« والله إنك لَأَحبُّ أرضِ الله إلَّى ، وإنك لأَحَبُّ أرضِ الله إلى الله ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت »[2] .

ثم استدار فنظر إلى « عائشة » وحاول جهده أن يبتسم لها مودعا ، وقد أذهلها الفراق المفاجىء السريع ، فما درت أفى يقظة هى أم تلك رؤيا منام ...

وتسلل الصاحبان من خوخة فى ظهر بيت أبى بكر ، وقد حمل الصديق معه خمسة آلاف درهم هى كل ما بقى له ولأهله من مالٍ ، ثم انطلقا وما يعلم أحد فى « مكة » بخروجهما إلا « على بن أبى طالب » وآل أبى بكر ...

وأخذ المهاجران طريقهما إلى غار يعرفانه فى « جبل ثور » بأسفل مكة ، وبقيت « عائشة » فى الدار وحيدة قلقة .

أما أخوها « عبد الله » وهو شاب لَقِن ، فكان يدلج كل سحَرٍ فيصبح مع قريش بمكة ، يتسمع ما يقول الناس ...

---

(١) السيرة : ٢/٢٤٦ .

(٢) السيرة : ٢/١٢٩ ، والنقل منها ، وتاريخ الطبرى : ٢/٢٤٧ .

وأما أختها « أسماء » فشغلت بتدبير طعام تحمله خفية إلى الغار فى سِتْر المساء .

وسمعت « عائشة » من أخيها « عبد الله » أن المشركين قد أحسُّوا خروج الرسول ﷺ وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم .

وكادت نفسها تطير شعاعا ، لولا أن عصمها من اليأس إيمانها بالله ورسوله ، فضلا عما كانت تسمع من حديث أخيها إلى مولاهم « عامر بن فهيرة » أن يرعى النهار فى رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح غنم أبى بكر على الغار !

وكانت مشغلة « عائشة » طول النهار أن تعد الدقائق وهى تمضى فى بطء كأنها أعوام ، مرهفة سمعها إلى نبأ جديد . فإذا ولّى النهار وتأهبت أختها « أسماء » لرحلتها المسائية ، حملتها « عائشة » سلامها ودعواتها للمهاجرين العزيزين ، ثم وقفت تحدق فى الطريق مترقبة عودة « أسماء » وقلبها يخفق فى لهفة وقلق .

وتعود « أسماء » فتثب إليها عائشة معانقة ، تقبل عينيها اللتين رأتا الرسول والأب ، واليد التى صافحتهما ، والأذن التى سمعت صوتهما ، ثم تجلس إليها لتسمع منها ما رأت من حالهما ...

وتحدثها « أسماء » عن مشقة الإقامة فى الغار ، وعما كان من حزن أبى بكر حين رأى المصطفى فى ضيق الغار مع فرقة الأهل ووحشة الغربة ، فقال :

« إن قُتِلتُ فإنما أنا رجل واحد . وإن قُتِلتَ أنت هلكت الأمة » .

فيُذهِب ﷺ عنه الخوف بقوله :

« لا تحزن إن الله معنا »(1) .

وتظل « عائشة » تستعيد حديث أختها المرة بعد المرة ، حتى ينال منها الجهد

(1) من حديث الهجرة فى الصحيحين ، والسيرة — والنقل منها — (وعيون الأثر ١ / ١٨٢) . مع آية التوبة : ٤٠ .

والسهد ، فتستسلم عيناها للغمض ، وتحوم روحها حول الغار القريب ، مأوى أعز من لها فى الوجود .

ومر اليوم الثانى يحمل أنباء جديدة عن خروج نفر من قريش لمطاردة محمد وصاحبه ، ثم حان المساء وتسللت « أسماء » خفية تحمل الزاد ، فلما عادت قصت على « عائشة » كيف أن المطاردين بلغوا الغار ، وتلبثوا عنده برهة ، بل هموا بالنزول إليه ، لولا أن صدهم عنه نسيج من عنكبوت على وجه الغار ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه !

وحدثتها عن قلق أبيها حين أحس بالمطاردين يقفون على قيد خطوة منهما ويتشاورون فى اقتحام الغار ، فقال : لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . قال ﷺ : « ما ظنك يا أبا بكر باثنين ، الله ثالثهما »[1] .

* * *

فلما كانت الليلة الثالثة ، وقفت « عائشة » فى مرقبها إثر نهار مشحون بالقلق ، ترصد الطريق ... وطال بها الانتظار أكثر مما اعتادت ، وهى مرهفة الحواس تحدق فى غسق الدجى لعلها تلمح شخص « أسماء » ، وتتسمع بملء وعيها وانتباهها ، لعل هواء الليل يحمل إليها حسا من خطوات بعيدة !

ومضى وهن من الليل وهى فى وقفتها تلك تذهب بها الظنون والهواجس كل مذهب ، حتى أقبلت « أسماء » أخيرا تسرى على عجل ، مضطربة الخطو متلاحقة الأنفاس .

واشتد القلق « بعائشة » ، فوقفت حيث هى ، تحدق فى نطاق « أسماء » الذى عادت به من رحلتها ممزقا . قد غاب شِقٌّ منه !

(١) متفق عليه من حديث أبى بكر ، فى بابه من فضائل الصحابة ، رضى الله عنهم .

ورحمتها « أسماء » فعجلت لها بنبأ خروجهما سالمين من الغار ، ثم انتظرت لحظة تسترد أنفاسها ، وأقبلت تحدث « عائشة » عما كان :

ففى هدأة المساء من تلك الليلة التاريخية الخالدة على الدهر ــ والتى اختيرت ليبدأ بها التقويم الإسلامى ــ جاء الدليل « عبد الله بن أريقط البكرى » يسوق الراحلتين اللتين أودعهما أياه أبو بكر منذ أيام ، وراحلة له ثالثة ، فأناخ عند فتحة الغار ، فخرج ﷺ وصاحبه ، وجاءت « أسماء » بطعامهما فى سفرة وقد فاتها أن تجعل للسفرة عصاما ، فلما همَّا بالرحيل وأرادت أن تعلقها ، أعوزها العصام تربط به السفرة إلى الرحل ، فحلّت نطاقها فشقته نصفين ، علقت السفرة بأحدهما ، وانتطقت بالشق الآخر . فبذلك سميت ذات النطاقين[1] .

ونظر « أبو بكر » إلى الراحلتين يفحصهما ، ثم اختار أفضلهما فقربها إلى المصطفى قائلًا : « اركب . . . فداك أبى وأمى » . . .

فركب النبى ﷺ ، ثم ركب « أبو بكر » وأردف خلفه مولاه « عامر ابن فهيرة » . . .

وسرى الركب من أسفل مكة ممعنا إلى الجنوب فى دربٍ غير مطروق ، ووقفت « أسماء » تتبعه بعينيها وقلبها حتى أبعد ، فعادت وحدها إلى بيت أبيها ، وهى توجس خيفة من تنبه المطاردين ...

وغابت « عائشة » عما حولها ، ومضت تسرى بروحها فى أثر الراحلين ، فما راعها إلا طرقات عنيفة تلح على الباب ، فوقفت مكانها لا تملك حراكا ، وخرجت ذات النطاقين تلقى الطارقين بليل ، فإذا نفر من قريش - فيهم أبو جهل بن هشام بن المغيرة المخزومى - يسألونها فى غلظة :

« أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ »

(١) ابن إسحاق ١٣١/٣ وابن سعد ، من حديث هشام بن عروة عن أبيه (٢٠٥/٨) والإصابة من طريق ابن إسحاق . وانظر تخريج الحديث فى (فتح البارى : ١٧٦/٧) .

قالت : « لا أدرى والله أين أبى . » .

وما كذبت ، فقد كان آخر عهدها بأبيها منطلقا من الغار ، ساريا فى مجاهل الفلاة ، إلى حيث لا تدرى أين بلغ به سراه فى صحبة النبى ﷺ .

فلم تشعر إلا ويد « أبى جهل » ترتفع بغتة فتلطم خدها لطمة قاسية ، طرحت قرطها ![1]

ثم انصرفوا بغيظهم يتهددون وتوعدون ...

* * *

ومضت أيام وليال ، لم يكن لمكة فيها من حديث إلا عن تلك المطاردة الشرِسة العنيدة ، تعدو فيها قريش وراء المهاجر شبه أعزل ، وقد جُنَّ خوفها أن ينجو بدعوته إلى حيث يغدو مطمئنا وما لها إليه من سبيل .

ونجا ﷺ ، وصاحبه فى الغار .

وتضاربت الأنباء فى وجهته ، حتى جاء خبر من يثرب أن المسلمين هناك يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة منتظرين ، فما يبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال . . .

وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم ولم يبق ظل ، سمعوا صيحة رجل من يهود : يا بنى قيلة ، هذا جدكم قد جاء .

فخرجوا مسرعين ليروا النبى ﷺ فى ظل شجرة ومعه أبو بكر فى مثل سنه ، وأكثرهم لم يكونوا رأوهما قبل ذلك ، فحفوا بالصاحبين وما يعرفون أيهما

(١) السيرة ١٣٢/٢ ، وتاريخ الطبرى : ٢٤٧/٢ وترجمة أسماء فى الاستيعاب بسند ابن عبد البر ، وفى الإصابة من طريق مسلم وابن سعد . وابن سيد الناس فى عيون الأثر (١٨٩/١) من طريق الغيلانيات .

النبى ﷺ ، حتى زال الظل عن أحدهما فقام الثانى فأظله بردائه ، فعرفوه[1] .

وسرى النبأ فى أنحاء « يثرب » وتعالى الهتاف من كل مكان ، وبدأت الأفواج تملأ الطرقات ساعية فى شوق ولهفة إلى حيث تلقى المهاجر العظيم ، وصيحات ابتهاجهم وأناشيد ترحيبهم ، تشق أجواز الفضاء !

وعرفت « عائشة » مكان الحبيب ...

وكذلك عرفت قريش ، حين لم تعد تجليها معرفة ، وجاء دورها لتنتظر فى خوفٍ وغيظٍ ، ماذا يأتى به الغد . . .

انكمشت فى قهر ، أنْ أعجزها الظفر بمهاجرٍ فرد ، خرج من « مكة » وليس معه غير صاحب واحد ، ودليل غير مسلم . ومولى تابع ...

وأرهف التاريخ سمعه ، يبدأ بهذه الهجرة إلى يثرب كتابا جديداً فى تاريخ الإنسانية ، ويبدأ بها ليثرب نفسها ، عهدا جديدا مباركا ، مدينة النبى عليه الصلاة والسلام .

(١) السيرة : ١٣٧/٢ ،وانظر نسب « قيلة » أم الأنصار الأوس والخزرج ، فى جمهرة أنساب العرب (٣١٢ – ٣٤٧) وفى « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » للسمهودى ص ٨ : ١٥٦ ط ١٩٥٥ .

العـــروس

بعد أن استقر ﷺ فى دار هجرته ، بعث « زيد بن حارثة » إلى مكة ليصحب بنات النبى ﷺ ، ومعه رسالة من « أبى بكر » إلى ابنه عبد الله ، يطلب إليه فيها أن يلحق به ، مصطحبا زوجته « أم رومان » ، وابنتيه « أسماء ، وعائشة » وكان مع زيد « أبو رافع » مولى النبى ﷺ .

وتهيأ الجمع للسفر ، وخرجوا صحبة يريدون دار الهجرة ، وما تكاد الدنيا تسع « عائشة » من فرحتها وابتهاجها ، وقد أمضت الأيام الأولى للسفر مرحة تتوثب ، فلما كانوا ببعض الطريق نفر بعيرها فاستغاثت « أم رومان » مذعورة :

« وابنتاه ، واعروساه ! »[1]

وأسرع عبد الله بن أبى بكر ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة ، وأبو رافع ، فردوا البعير النافر ، ومن ثم سكنت عائشة فوق راحلتها وأسبلت عينيها منتشية بقرب لقاء الأحباب . . .

* * *

وفى « المدينة » كان ﷺ يهيِّىء داراً لعائشة .

أقام ﷺ فى « قباء » أربعة أيام ، أسس خلالها أول مسجد فى الإسلام ، وكان مقامه عليه الصلاة والسلام بقباء ، فى مربد هناك لكلثوم بن هِدْم الأنصارى .[2]

(١) تاريخ الطبرى : حوادث الهجرة – والاستيعاب والإصابة ، فى ترجمة أم رومان رضى الله عنها .

(٢) السيرة لابن هشام : ١٣٩/٢ – وتاريخ الطبرى ٢٥٦/٢ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى : ٢٥٠/١ .

وركب ناقته « القصواء » يوم جمعة ، فأدركته صلاتها فى « بنى سالم بن عوف » فصلى أول جمعة بالمدينة ، ثم استأنف مسيره فكلما مر بحى من أحياء يثرب خرج إليه رجاله مرحبين داعين :

« هلم إلينا يا رسول الله ، إلى العدد والعدة والمنعة » .

فيجيب شاكرًا : « خلوا سبيل ناقتى » .

حتى انتهت إلى باب « أبى أيوب الأنصارى » وفيه نزل رسول الله ﷺ حتى بنى مسجده ومساكنه . . .(1)

وتنافس المهاجرون والأنصار فى البناء ، حتى تم بناء مسجد المدينة ، ومن حوله تسع حجرات ، بعضها من الجريد والطين ، وبعضها من حجارة مرضومة ، بعضها فوق بعض .

وكانت أبوابها جميعا تفتح على ساحة المسجد .

وفى واحد من هذه البيوت أقامت « سودة بنت زمعة » ترعى الشئون المنزلية ، وتسهر على خدمة النبى ﷺ ، وبنتيه أم كلثوم ، وفاطمة ...

أما « رقية » فكانت مع زوجها « عثمان بن عفان » حيث نزل بالمدينة .

وأما « زينب » فكانت « بمكة » مع زوجها « أبى العاص بن الربيع » ابن خالتها هالة ، وكان لا يزال مشركا ، لم يفرق بينهما الإسلام بعد ...

* * *

بعد أن تم بناء مسجده عليه الصلاة والسلام وبيته ، واستقر المسلمون فى دار الهجرةواطمأن بهم المقام ، آمنين من اضطهاد عدوهم ، تحدث « أبو بكر » بعد الهجرة بأشهر معدودات ، إلى محمد ﷺ فى إتمام الزواج الذى عقده بمكة قبل ثلاث سنين .

---

(1) السيرة ١٣٩/٢ ، وطبقات ابن سعد : ٤٩٩/١ ووفاء الوفا : ٢٥٦/١ .

فلبى ﷺ راضيا ، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل صهره الصديق ، حيث كان ينزل بأهله ، فى بنى الخزرج .

وتصف « عائشة » يوم عرسها فتقول : « جاء رسول الله بيتنا فاجتمَع إليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتنى أمى وأنا فى أرجوحة بين عذقين ، فأنزلتنى ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشىء من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب ، وقفتْ بى حتى ذهب بعض نفَسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره وقالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك[1] .

ووثب القوم والنساء فخرجوا ، وبنى بى رسول الله فى بيتى ، ما نُحرت علىَّ جزور ولا ذُبحت من شاة ، وأنا يومئذ ابنة تسع سنين ، حتى أرسل إلينا سعد بن عبادة بجفنة كان يرسل بها إلى رسول الله » .

وحُمِلَ إليهما كذلك قدح من لبن ، شرب ﷺ منه ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه ... » .

وكانت عائشة عروسا حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين ، وشعر جعد ، ووجه مشرق ، مشرب بحمرة ، وقد انتقلت إلى بيتها الجديد ، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخيل ، وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير . وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر ...[2] .

وفى هذا البيت المتواضع بدأت « السيدة عائشة » حياة زوجية حافلة ، ستظل حديث التاريخ حتى يومنا هذا وغد بعده ، كما بدأت تأخذ مكانها المرموق فى حياة الرسول ﷺ ، وفى تاريخ الإسلام .

(١) الإصابة ، وتاريخ الطبرى : ٣/١٧٦ ووفاء الوفا : ٢٦٠/١ مع صحيح مسلم : كتاب النكاح ، ح (١٤٤٢) .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ٤٥٩/٢ : ٤٦١ وانظر فى صحيح مسلم ، الحديثين ٢٠٨٢ ، ٢٤٣٨ .

كانت صغيرة السن ، أو طفلة – كما يحلو لذوى الهوى أن ينعتوها ، وقال المستشرق بودلى : « منذ وطئت قدماها بيت محمد ، كان الجميع يحسون وجودها . ولو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه ، لكانت عائشة بنت أبى بكر ... فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد ... »[1] .

وأدق من هذا أن يقال إن السيدة « عائشة » قد اكتمل نموها فى هذا البيت ، ونضجت شخصيتها وتدرجت بين عينى المصطفى من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها ، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب[2] إلى شابة ناضجة مجربة ، تسألها امرأة فى مسألة دقيقة من مسائل الزينة والتجميل ، فتجيبها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلى ! »

وتكره أن تلقى امرأةٌ زوجَها فى كآبة الحداد ، وهى تروى الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تحد فوق ثلاثة أيام إلا على زوج » .

وتظل ، رضى الله عنها ، تبارك الشهر الذى خُطبت فيه وتزوجته فيه ، وتختاره لنساء قومها ، تفاؤلا به .

وفى صحيح مسلم حديث عروة بن الزبير عنها ، قالت : تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ،وبنى بى فى شوال ، فأى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى ؟ قال عروة : وكانت عائشة تستحب أن تدخل نساءها فى شوال[3] . رواه ابن سعد ، من طريق الواقدى من حيث عروة عنها .

---

(١) بودلى : الرسول ، ص ٩٣ ، ١٣٠ من الترجمة العربية .

(٢) صحيح البخارى : ٣/١٨٢ ط الشرقية . ومسند أحمد .

(٣) كتاب النكاح من صحيح مسلم . ومعه عن الواقدى بسنده ، بلفظ مقارب ، من حديث عمرة بنت عبد الرحمن ، بن سعد بن زرارة الأنصارية المدنية ، عن عائشة رضى الله عنها (طبقات ابن سعد : ٨/ ٦٠) .

ولم يكن وجود « سودة » على مقربة منها ، زوجة ثانية للرجل الذى أحبته « عائشة » بكل كيانها ، يشغل بالها فى كثير أو قليل ، فما غاب عنها قط أن لا مكان لسودة فى قلب الزوج ، وإنما الذى كان يشغل عائشة ، هو ذلك الحب العميق الذى ظفرت به « خديجة » قبلها من زوجها ﷺ ، وتلك المكانة التى احتفظ بها لمن استأثرت بكل عواطفه ربع قرن من الزمان !

وأشد ما كان يغيظ العروس الشابة ، أن خديجة بقيت تشاركها عواطف زوجها ، وهى راقدة فى مثواها بالحجون ، تحت ثرى مكة ، فما تستطيع « عائشة » أن تشتفى منها بدعابة قاسية ، أو تباهيها بشبابها الغض وصباها الفتّى اليانع ، أو تفاخرها بأنها زُفّت إلى المصطفى ﷺ بكرا لم تعرف قط زوجًا غيره . . .

ومع المشهور من حبه ﷺ لعائشة ، حاولت أن تتجاهل هذه الضرة التى ماتت ، فذهبت محاولتها عبثا . ذلك أن طيف « خديجة » بقى ماثلا أبدا أمام عينى زوجها ، واسمها الحبيب على لسانه ، وصوتها فى مسمعه ، وذكراها حية ملء دنياه .

وزاد فى قسوة الموقف أن مضت الشهور والسنون ، و « عائشة » لا تنجب لزوجها ولدا[1] ، على حين ولدتْ له « تلك العجوز من قريش » — كما كانت تصفها — البنين والبنات .

وكانت عائشة تعرف فى زوجها ، وفى رجال قومها جميعا ، ذلك الحب الفطرى للأبناء ، والحرص على الإنجاب ، ثم ترى من تعلق الزوج — الذى أحبته جهد الحب — ببنات خديجة ، ما يرهف شعورها بوطأة الحرمان تجثم على

(١) فى ترجمتها بالإصابة ، قال ابن حجر : « فقيل إنها ولدت من النبى ﷺ ولدا فمات طفلا ، ولا يثبت هذا » وفيها : « وذكر أبو سعيد الأعرابى فى معجمه بسند ضعيف جدا ، إنها أسقطت من النبى ﷺ ، سقطاً » .

صدرها فتكاد تكتم أنفاسها لولا ما يغمرها من عطف الزوج ومحبته ، وما يأخذها به إيمانها من تجمل بالصبر فيما لا حيلة لها فيه . . .

وكانت بحيث تجد فى بنات محمد – زوجها الحبيب – ما يلطف من لهفتها على الأمومة ، لو حاولت أن تتبناهن ، لكنْ يبدو أنها ما تكاد تذكر أنهن ، كذلك ، بنات ضرتها« خديجة » حتى تحس كأن حواجز منيعة تقوم بينها وبينهن ، بل تحس أن كل واحدة منهن ، هى « خديجة » ذاتها ، تثير فيها أبدا شعورا مرا بالعقم ، وتذكرها فى كل آن بما كتب عليها من حرمان .

والتفتت عائشة حولها تلتمس من أبناء أخواتها من تفيض عليه عواطف أمومتها المحرومة كى لا يرهقها الكبت ، فأنزلت ابن أختها أسماء « عبد الله ابن الزبير » منزلة الابن ، وبه كانت تكنى فيقال : « أم عبد الله »[1] . وحين مات أخوها « عبد الرحمن » ضمت إليها ابنه القاسم وابنته الطفلة ، فيقول القاسم :

« فما رأيت والدة قط أبر منها » .

وكذلك حاولت أن تستعين على ما تجد من حرمان ، بما عرفت لها من موضع فى قلب المصطفى ﷺ لم تبلغه أخرى بعد خديجة ، وما حظيت به من حبه وإيثاره . . .[2]

* * *

(١) الاستيعاب : ١٨٨٣/٤ وفيه أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الكنية ، فقال لها : اكتنى بابنك عبد الله بن الزبير . ومعه (طبقات بن سعد : ٦٣/٨ ، ٦٦) .

(٢) انظر مناقبها فى صحيح البخارى ، وفضائلها فى صحيح مسلم .

الضـــــرائر

وإذ هى سعيدة بهذا الحب تحاول أن تجد فيه عوضا عن حرمانها . آملة أن تستطيع به – ولو بعد حين – تناسى ضرتها التى ماتت ، فوجئت بزوج جديدة تدخل بيت النبى ، وتشغل الحجرة التالية لحجرتها وحجرة « سودة » وتشاركها فى حياتها الزوجية ، يوما بيوم وليلة بليلة !

إنها « حفصة » بنت عمر بن الخطاب الذى أعز الله الإسلام به !

وروع « عائشة » أن يتزوج « محمد » ﷺ – عليها ، وما تزوج قط على خديجة ، حتى ماتت فى الخامسة والستين !

وأشقاها ألا يحميها شبابها وشرف أبوتها ، وحبُّ الرسول لها ، من ذلك الهم البغيض المر الذى لم يرض المصطفى لخديجة أن تذوقه ما عاشت !

وجاءت من بعد « حفصة » زوجات أخريات ، حتى امتلأت بهن البيوت التسعة . . .

كانت فيهن « زينب بنت جحش » الشابة الجميلة ، و« أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب » ، الحسناء الأبية المترفعة ، و« جويرية بنت الحارث » التى تأخذ العين بملاحتها ، و« صفية بنت حيى » سليلة اليهود ، الناعمة الساحرة ، و « أم حبيبة » بنت أبى سفيان زعيم مكة وقائد جيشها ...

ثم كانت هناك « مارية » المصرية الجذابة ، أم إبراهيم بن محمد .

وريحانة بنت عمرو : حسناء بنى قريظة ، لم يتزوجها ﷺ ، لكنها أقامت فى مِلْكِه ما عاش .

وكان هذا بحيث يجعل « عائشة » تسيغ هذه المشاركة على مر الأيام ، لكن يخطىء من يزعم أو يتوهم أنها أساغت يوما مرارة الضرائر ، ويجهل فطرة الأنثى من يظن أن « عائشة » استراحت من ألم حرمانها من الأبناء ووجدت فى كنيتها بأم عبد الله ، أو فى أمومتها للمؤمنين جميعا ، ما يطفىء شوقها لأن يكون لها ولد من زوج حبيب ، عزَّ مثله فى الأزواج .

ولم تدر « عائشة » أول الأمر كيف تدفع هذا الضر المحتوم ، فقد كانت تعرف ـــ كما يعرف سواها ـــ أن النبى ﷺ يتزوج لضرورة وحكمة ، وأنه أَمْلَكُ الناس لهواه . . .

وكانت تعلم ـــ ويعلم الناس جميعًا ـــ أن عائشة هى الزوج الحبيبة المفضلة ، أحظاهن عنده ﷺ . فهل تُسكن إلى رضى واستسلام ؟

كلا ، بل حرصت جهدها على أن تذود هؤلاء الأخريات عن مكانها فى قلب زوجها ﷺ ، مهما يكلفها الأمر ، وأن تحاول بكل أنوثتها وذكائها وصباها ، أن تلزمهن موضعا بعينه لا يتجاوزنه .

وأعانها على ذلك أن كان الرسول بشرا لا يبرأ من بشريته ولا يحمل « عائشة » أو غيرها من نسائه على التجرد منها .

فلتستجب « عائشة » لفطرتها دون كبت أو قهر ، ولتكن لنسائه مشاغلهن النسوية وشواغلهن العاطفية ، ولو جمحت بهن الغيرة ، وكلفته ﷺ من أمرهن شططا .

* * *

وكانت « عائشة » بينهن أشدهن غيرة عليه ، ونضالا فى سبيل الاستئثار بحبه .

وعذرها أنها أول من تفتح لها قلبه بعد « خديجة » ، وأنها وحدها التى تزوجها بكرا ، وأنها « عائشة بنت أبى بكر » .

وقد نظرت إلى ضرائرها تقيس نفسها إليهن ، محاولة قدر ما وسعها الجهد أن تزن كل واحدة منهن بإنصاف ، لتعرف من أين تأخذهن .

وبدأت فأسقطت من حسابها غير ذوات الخطر منهن ، ممن لا قبل لهن بمنافستها ، مثل « سودة بنت زمعة » ، و « زينب بن خزيمة الهلالية » التى لم تلبث أن ماتت بعد زواجها بأشهر معدودات .

ووجدت من بعد ذلك ألا طاقة لها بمحاربة الزوجات مجتمعات ، تظاهرهن « السيدة فاطمة الزهراء » التى أرادت لها « عائشة » منذ جاءت البيت المحمدى أن تكون لها شِبه ضرة .

وقررت أن تختار من هؤلاء ، أبعدهن عن الخطر فى ميدان المنافسة ، فتوددت فى شجاعة ولباقة إلى « حفصة بنت عمر »[1] متخذة من تقاربهما فى الأبوة سبيلاً إلى هذا التودد .

واستجابت « حفصة » لهذا التودد وقد سرَّها أن تؤثرها « حبيبة المصطفى » ، بالمودة ، وأن تعترف بأن بنت عمر ، أقرب نساء النبى إلى بنت أبى بكر ...

واتخذت « عائشة » من « حفصة » موضع سرها منذ سمعت بزواج رسول الله ﷺ من « أم سلمة » فشكت لحفصة أنها وجدتها أجمل مما يقول الناس ...

وهونت « حفصة » من خطر « أم سلمة » فإنها على جمالها كبيرة السن ، وإن الجمال ليذبل سريعا فى مثل سنها ، فلتُبق عائشة غيرتها لمن تستحق ...

وفعلت عائشة ...

ادخرت غيرتها للشابة الشريفة الحسناء « زينب بنت جحش » وراحت تراقبها وتحصى عليها أن أطال ﷺ مكثه لديها ، إذ كانت تسقيه من عسلٍ يحبه .

---

(١) فى حديث السيدة عائشة عن حزب النساء ، أن حزبها كان فيه حفصة وسودة وصفية والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر الأزواج رضى الله عنهن ، انظر السمط الثمين ص ٣٩ .

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت إن النبى ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلا ، فتواصيتُ أنا وحفصة : أيَّتنا دخل عليها النبى ﷺ فلتقل : إنى أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير ؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك فقال : « لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له . فنزلت : « **يـٰأَيُّها النبىُّ لِمَ تُحرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ** ﴾ الآيات .

وفى رواية بالصحيحين كذلك ، عن عائشة ، أن حفصة هى التى سقته من عكَّة عسلٍ أهدتها لها امرأة من قومها ، فأقسمت عائشة أن تحتال للأمر ، فكان تواطؤها مع سودة بنت زمعة وصفية بنت حيّى ، أيتهن دخل عليها النبى ﷺ فلتقل : أكلت مغافير ؟ ما هذه الريح التي أجد منك ؟ فيقول : « سقتنى حفصة شربة عسل » فتقول كل منهن : جَرَسَتْ نحلُه العُرفط - أى رَعَتْه .

والعرفط شجر يثمر المغافير ، مذاقها حلو ، ورائحتها كريهة ، فكان أن امتنع ﷺ من شرب العسل .

وأحست « سودة » ندما فقالت لصاحبتيها : « سبحان الله ! والله لقد حرمناه ! »[٢] .

فنظرت إليها عائشة ، أن اسكتى !

الحديث ، بروايتيه ، متفق عليه ، عن السيلة عائشة رضى الله عنها .

* * *

حتى جاءت وافدات أخريات شغلن « عائشة » حينا عن أم سلمة وزينب ، وإن عرفت أن هاتين أحب نساء النبى إليه بعدها ...

وإحدى هؤلاء الوافدات من كندة ، وثانية من مصر .

أما الأولى فكانت « أسماء بنت النعمان بن الأسود الكندية الجونية » التى

أحست « عائشة » خطر جمالها منذ وقعت عليها عيناها ، وقدرت أنها إذا لم تحل بينها وبين زوجها ﷺ ، فسوف تكلفها من أمرها عسرا .

ومن ثم قررت أن تفرغ منها قبل أن يتم الزواج !

وبدأت تعمل على الفور مستعينة بصواحبها !

دعت إليها حفصة ، وأخرى ممن يحرصن على أرضائها ، فقالت لهما :

« قد وضع يده فى الغرائب يوشكن أن يصرفن وجهه عنا » .

واتفقن على خطة موحدة : أقبلن على العروس مهنئات ، يجلونها للزفاف ويوصينها بما تفعل وما تقول استجلابا لرضى الزوج العظيم ومحبته ، فكان مما نصحن لها به أن تستعيذ بالله إذا ما دخل عليها !

وفعلت المسكينة !

لم تكد تراه مقبلا عليها ، حتى استعاذت بالله ، وفى حسابها أنها تستجلب محبته ورضاه !

فصرف رسول الله وجهه عنها وقال :

« لقد عُذت بمعاذ » ...

وغادرها من لحظته ، وأمر أن تُمتَّع وتلحق بأهلها(١) .

فبعثت إليه ، أو بعث أبوها ، من يتوسط لردها ويحدث عما كان من نسائه معها ، فلم يملك عليه الصلاة والسلام إلا أن يبتسم ويقول :

« إنهن صواحب يوسف ، وإن كيدهن عظيم ! »

وبقى عند كلمته ، فلم يمسك تلك التى عاذت بمعاذ ، وتخلصت عائشة من منافسة خطرة !

---

(١) اختلفت الروايات فى اسم التى استعاذت بالله عندما دخل عليها ﷺ ، فقيل هى أسماء بنت النعمان ، وقيل هى ابنة عم لها من كندة ، كذلك ــ السيرة ٢٩٧/٤ . وفى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (١٢٣/٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (١٣٩/٣) وانظر : المحبر لابن حبيب (٩٤) وعيون الأثر (٣١٠/٢) .

وأما « مارية » المصرية ، فلعل « عائشة » لم تأبه لها أول الأمر ، إذ كانت أمة قبطية أجنبية ، فى منزل دون منازل أمهات المؤمنين .

وربما استكثرت « عائشة » عليها أن تعدها منافسة لها .

حتى نبأتها حفصة بما كان من خلوه ، ﷺ بمارية فى بيت حفصة ، فاسترضاها بأن حرم « مارية » على نفسه ، موصيا « حفصة » بكتمان ما كان[1] .

لكن حفصة لم تستطع أن تكتم سرا عن عائشة ، فكأنما أشعلت فيها النار .

ولجت عائشة فى غيرتها ، والنساء يظاهرنها على النبى ﷺ ، غيظا من « مارية » التى حملت دونهن من رسول الله ، وترفق ﷺ بهن ما استطاع ، مقدرا بواعث هذا التظاهر ، لكنهن تمادين فى اللجاج إلى حد الشطط ، لطول ما أملى لهن ﷺ .

* * *

وما كان ﷺ فارغ البال لذلك الشطط النسوى المسرف ، ولا كان بحيث يرخى لعائشة وحفصة والباقيات أكثر مما فعل ، فاعتزلهن جميعا فى صرامة لم يألفنها .

وشاع فى المسلمين أن النبى ﷺ طلق نساءه ، وانكمشت المتظاهرات فى بيت النبى حزينات نادمات ، فقد جاوز الأمر ما قدّرن ، وما لهن من عاصم إذا لم تدركهن رحمة الله تعالى وعفو رسوله عليه الصلاة والسلام . . .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٨٦/٨ من عدة طرق ، تفسير الطبرى : سورة التحريم . والسمط ٨٥ ، مع أسباب النزول للواحدى : سورة التحريم .

ـــ ويأتى مزيد تفصيل فى تراجم السيدات : حفصة ، وزينب بنت جحش ، ومارية القبطية .

على أن « عائشة » — قائدة الثورة وزعيمة المتظاهرات — لم تفزع لغضب رسول الله ، بقدر ما فزعت لما مسه ﷺ من مشقة . وكان قلبها يتمزق ، كلما تمثلت الحبيب يأوى إلى خزانة له ذات مشربة[1] ، يرقى إليها على جذع خشن من جذوع النخل ، ويجلس غلامه « رباح » على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام بها ، وما من يد رقيقة تمسح عن جبينه الطاهر قطرات العرق ، ولا من زوج يسكن إليها ويرتاح .

ومضى شهر بأكمله والمصطفى فى شغل عنهن ، و« عائشة » فى شغل به ، وأمهات المؤمنين مروعات بالهجر ، والمسلمون يرقبون نبيهم فى عزلته دون أن يجرؤوا على مفاتحته فى موضوع نسائه ، إلا ما كان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه[1] .

* * *

ولكن النبى لم يطلق نساءه . ولطف الله بهن فاكتفى بإنذارهن إن لم يتُبن . فعسى ربه إن طلقهن ، أن يبدله أزواجا خير منهن .[2] وقال : « ما أنا بداخل عليهن شهرا » من شدة موجدته عليهن حين عاتبه الله تعالى[3] — وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين إن النبى ﷺ عائد إلى بيته . بعد إيلائه منهن تسعا وعشرين ليلة . فوقفن بأبوابهن فى لهفة يلتمسن نظرة إلى وجهه الكريم إذ يعود من معتزله ، على حين بقيت « عائشة » داخل بيتها تستعد للقاء الحبيب العائد ، إذ كانت تعرف عن يقين أن إليها أولَ المطاف !

وأمسكت قلبها أن يذوب حين سمعت خطواته تقترب من بابها . ولا ذت بكل ما استطاعت من تجمل لتتلقاه قائلة فى عتاب رقيق :

---

(١) انظر وصف المشربة التى اعتزل فيها الرسول نساءه ، بكتاب (وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى) للسمهودى : ٤٦٣/٢ مع المتفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى الإيلاء ، والتحريم .

(٢) سورة التحريم ويأتى حديث عمر ، فى مبحث ابنته حفصة رضى الله عنهما .

(٣) بلفظ عمر ، رضى الله عنه ، فى الحديث المتفق عليه .

« بأبى أنت وأمى يا نبى الله ! قلتُ كلمة لم ألق لها بالا فغضبتَ علىَّ » .

وإذ أقبل عليها مصغيا ، استطردت تقول فى دلال ودعابة حلوة :

« أقسمتَ أن تهجرنا شهرا ، ولما يمض منه غير تسع وعشرين ؟

فأشرق وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقد سره أن يعرف أنها كانت تحصى ليالى الفراق عدّاً ...

وقال لها إن شهرهما ذاك ، تسع وعشرون ليلة »

* * *

ونجت « عائشة » من محنة الهجر ، ومن قبل نجاها الله من محنة فادحة منكرة ، وتجلت لها رحمته تعالى حين أظلمت الدنيا حولها ، وأوشكت على الضياع ...

تلك كانت محنة الإفك ، ننقلها فيما يلى ، من حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها .

محنـــة الإفك

حدث ذلك فى السنة السادسة للهجرة ، مرجعهم من غزاة بنى المصطلق بالمريسيع ، « وفيها قال أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها الله عز وجل مما قالوا .

وكان عليه الصلاة والسلام فى خروجه لغزو بنى المصطلق ، أقرع بين نسائه على عادته كلما خرج فى سفر أو غزوة ، فخرج سهم « عائشة » .

وانطلقت فى صحبته سعيدة هانئة .

وكانت فألا حسنا على القائد المصطفى ، فعاد من غزوته منتصرا ، وسار ركبه الظافر يغذ السير إلى « المدينة » التى كانت إذ ذاك تهزج بأغانى النصر ...

وفى الطريق ــ قريبا من المدينة ــ أناخ العسكر فباتوا بعض الليل ، ثم أذن فيهم بالرحيل ، فارتحلوا ، وما يخطر ببال أحدهم أن السيدة عائشة قد تخلفت حيث أناخوا .

وبلغ الركب المدينة فى مطلع الصبح ، واقتيد بعير أم المؤمنين إلى مناخه أمام بيتها ، وأنزل الهودج فى رفق ، فإذا أم المؤمنين ليست فيه !

ولبث الرسول وصحبه ساعة من نهار ، حائرين قلقين ، وانطلق بعضهم فى الطريق يلتمسون العزيزة الغائبة ...

حتى ظهرت من بعيد تركب بعيرا ، يقوده رجل عرفوا فيه « صفوان بن المعطل السلمى » .

واطمأن النبى ﷺ أن وجدها بخير ، وسمع حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئًا .

قالت رضى الله عنها :[1]

« خرجت لبعض حاجتى ، قبل أن يؤذّن فى الناس بالرحيل ، وفى عنقى عقد لى فيه جزع « ظفار » — مدينة باليمن — فلما فرغت انسل من عنقى ولا أدرى . فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه فى عنقى فلم أجده ، وقد أخذ الناس فى الرحيل ، فرجعت إلى مكانى الذى ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته ، وجاء القوم — وأنا بعيدة — فرحلوا بعيرى وأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه — إذ كنت خفيفة لم يُثقلنى اللحم — فاحتملوا الهودج فشدوه على البعير و لم يشُكُّوا أنى فيه . ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به ، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب ، قد انطلق الناس ...

« فتلففت بجلبابى ، ثم اضطجعت فى مكانى ، وعرفت أن لو قد افتُقِدتُ لرُجع إلىَّ . فوالله إنى لمضطجعة ، إذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس ، فرأى سوادى فأقبل حتى وقف علىَّ — فعرفنى ، وكان يرانى قبل أن يضرب علينا الحجاب — فلما رآنى قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، ظعينة رسول الله ﷺ ! ما خلَّفكِ يرحمك الله ؟ !

فما كلمته ... ثم قرب البعير فقال : اركبى .

واستأخر عنى ، فركبت ، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعا يطلب الناس ، فوالله ما أدركنا الناس وما افتُقِدتُ ، حتى أصبحت ونزل الناس ، وطلع الرجل يقود بى » .

---

(١) حديث الإفك مروى بتمامه فى الصحيحين وأكثر المسانيد وكتب السنن ، وفى طبقات ابن سعد والسيرة الهشامية عن ابن إسحاق — والنقل منها ، مع زيادة من الصحيحين (٣/٣) وعيون الأثر (٩٦/٢ — ١٠٣) وهو فيها جميعا من رواية ابن شهاب الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها .

وأوت «عائشة» إلى فراشها فنامت هادئة ، والمدينة يقظى لا تنام ! ذلك أن قوما من اليهود والمنافقين ، على رأسهم « عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول » ـــ الذى ما برئ من حقده على النبى ﷺ وما فتىء يكيد له ـــ تلقفوا الحادثة فنسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات ، ليشفوا أحقادهم ...

وانتقل حديث الإفك من دار « ابن سلول » ومن لفّ لفه ، إلى أحياء المدينة ، وردده ناس من المسلمين ، فيهم « حسان بن ثابت الأنصارى » شاعر النبى ﷺ ، و « مسطح بن أثاثة بن عباد » قريب أبى بكر وموضع بره ، و « حمنة بنت جحش » ، ابنة عمة النبى ﷺ وأخت زوجته زينب ! ..

وبلغ الحديث أذنى محمد ﷺ ، كما بلغ مسامع أبى بكر وأم رومان فصكها صكا ! لكن أحدا منهم لم يستطع أن يواجه « عائشة » بالشائعة الرهيبة ، إذ كانت منذ عادت من غزوة بنى المصطلق ، معتلة تشتكى شكوى شديدة ، فظلت لا تدرى ما يقول الناس عنها ولا يبلغها من ذلك شيء ، إلا أنها أنكرت من رسول الله جفوة ظاهرة ، وقد عودها إذا اشتكت من قبل أن يلطف بها ويغمرها بحنانه ، فأمست هذه المرة ولا حظَّ لها من ذلك اللطف والحنان إلا أن يدخل عليها من حين إلى حين ، وعندها أمها تمرضها فيسأل :

« كيف تيكم » ثم ينصرف ، لا يزيد على ذلك !

ولم تشأ أن تسأله عما يريبها من جفائه ، فقد كان يبدو لها واجما مشغول البال ، وكانت تحس بقلبها أنه ﷺ يكابد هما ثقيلا ، فتماسكت متجلدة ، وهى تعلل نفسها بانقشاع هذه السحابة التى غشيت دنياها .

فتقول « عائشة » :

« حتى وجدتُ فى نفسى فقلت ، حين رأيت ما رأيت من جفائه لى : يا رسول الله ، لو أذنت لى فانتقلتُ إلى بيت أمى فمرضتنى ؟ قال : « لا عليك » .

فانتقلتُ إلى أمى ولا علم لى بشىء مما كان ، حتى نقهت من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ...

فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى « أم مسطح » بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف — وكانت أمها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد ابن تيم ، خالة أبى بكر — فو الله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت : تَعِسَ مِسْطَح !

قلت : بئس لعمر الله ما قلتِ لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا !

فقالت : أو ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قلت : وما الخبر ؟

قالت : نعم والله ، لقد كان ...

فو الله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ، ورجعت فمازلت أبكى حتى ظننت إن البكاء سيصدع كبدى ، وقلت لأمى :

— يغفر الله لك ، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟

قالت : أى بنية ! خفِّضى عليك الشأن ، فو الله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها ، لها ضرائر ، إلا كثَّرن وكثر الناس عليها ! »

لكن « عائشة » باتت مسهدة لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل عيناها بنوم .

* * *

وبعيدا عنها كان ﷺ يعانى مثل الذى تعانيه : قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم قارح ، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء .

وقد قام فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير

الحق ؟ .. والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا ، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى » .

فتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرا لنبيهم فى هذا البلاء ، ويثورون غضبا لشرف زوجة كريمة ، وعقيلة حرة ، فتختلط أصواتهم فى طلب الانتقام والتأديب ، ويتماسك الأوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر .

وتمضى عائشة فى وصف محنتها فتقول :

« ونزل رسول الله ﷺ فدخل علىَّ ، فدعا « على بن أبى طالب وأسامة بن زيد » فاستشارهما .

فأما أسامة فأثنى علىَّ خيرا وقال : يا رسول الله ، أهلك ، ولا نعلم منها إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وأما « علىّ » فإنه قال : يا رسول الله ، إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تَستخلِف ، وسل الجارية فإنها ستصدقك[1] .

« فدعا رسول الله ﷺ جاريتى « بريرة » ليسألها : فقام إليها « على بن أبى طالب » وقال :

ــ اصدقى رسول الله ﷺ .

فتقول « بريرة » : والله ما أعلم إلا خيرا ، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن عجينى فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه ، فتأتى الشاة فتأكله ! »

ويخرج ﷺ مثقل الكاهل محزون الفؤاد .

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبى بكر ، فإذا عائشة هناك مقرحة الأجفان

---

(١) انظر تعليق الإمام النووى فى شرح مسلم ، والحافظ ابن حجر فى فتح البارى ، على موقف الإمام على كرم الله وجهه ، مع (اللؤلؤ والمرجان ، هامش ح ١٧٦٣) ٢٥٩/٣ .

تبكى ، فتبكى لها زائرة عندها من الأنصار ، وأبواها ينظران إليها فى صمت وأسى .

ولأول مرة منذ شاع حديث الإفك ، جلس ﷺ يحدث عائشة ، قال :

« يا عائشة ، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله . وإن كنت قد قارفت سوءا مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة من عباده » .

فما هو إلا أن قال لها ذلك حتى جف دمعها وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت ، وحاولت أن تتكلم فعصى لسانها ، فالتفتت إلى أبويها ، منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ .

وإذ سكتا لا يحيران جوابا ، صاحت فيهما بملء عذابها : ألا تجيبان ؟

قالا معا بصوت تخنقه العبرات : والله ما ندرى بم نجيب !

فأسعفتها عيناها بفيض من الدمع أطفأ اللهب المشتعل فى كيانها ، ثم اتجهت إلى زوجها تقول فى إصرار :

« والله لا أتوب إلى الله مما ذكرتَ أبدا ، والله إنى لأعلم لئن أقررتُ بما يقول الناس ، والله يعلم أنى بريئة ، لأقولَنَّ ما لم يكن . ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون ، لا تصدقوننى » .

وحاولت أن تتذكر اسم « يعقوب » لتتأسى به فما استطاعت ، واستطردت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : ﴿ **فصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المستعانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ** ﴾ ثم تحولت ، واضطجعت على فراشها .

فلم يبرح ﷺ مجلسه عندها ، حتى تغشاه ما كان يتغشاه من نزول الوحى ، فسُجى بثوبه ، ووُضعت له وسادة من أدم تحت رأسه .

وأمسك الأبوان أنفاسهما حتى ظنت عائشة لتخرجن نفساهما ، فرقاً

وقلقا ، وأما هى فما فزعت ولا خافت ، إذ كانت تعرف براءتها وتعلم أن الله عز وجل غير ظالمها .

ثم سُرِّى عن رسول الله ، ﷺ فجلس يمسح العرق عن جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » .

وتنفس أبو بكر كمن أزيح عن صدره كابوس جاثم ، ووثبت أم رومان من مكانها وقد استخفها الفرح ، فأشارت إلى عائشة أن تقوم إلى زوجها ، فقالت عائشة فى إباء : « والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى » .

ثم التفتت إلى أبيها وهو يدنو منها فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحا وانفعالا ، فقالت له : « يا أبتاه هلا كنت عذرتنى ! » فأجاب : « أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟ »

وأما النبى ﷺ ، فرنا إليها فى عطف وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم ، وخرج إلى المسجد وتلا على الناس آيات النور :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟

لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ (١١ــ١٩) .

وبأمره تعالى ، جَلد الذين تقولوا بالفاحشة :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَـٰنِينَ
جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾

صدق الله العظيم . النور : ٤ .

* * *

العُـــرْوَةُ الوُثْــقَى

وعادت السيدة « عائشة » إلى مكانها فى البيت المحمدى ، تحف بها هالة من آيات النور ، نصرا إلهيًّا جعل براءتها من الإفك الأثيم ، قرآنا يتعبد به المسلمون ...

عادت لتستأنف حياتها الزوجية الحافلة ، مزهوة بصباها ودلالها وحظوتها عند الحبيب ، تباهى ضرائرها قائلة :

« أية امرأة كانت أحظى عند زوج منى ! »

ولا تفتأ تردد على مسامعهن قوله عليه الصلاة والسلام :

« حبك يا عائشة فى قلبى كالعروة الوثقى » .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ، قال : قلت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟

قال : « عائشة » قلت : من الرجال ؟ قال : « أبوها » قلت : ثم من ؟ قال : « ثم عمر بن الخطاب ... » فعدَّ رجالا » متفق عليه[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

قال لى رسول الله ﷺ ، « إنى لأعلم متى كنت عنى راضية ، وإذا كنت علىَّ غَضْبَى » قلت : ومن أين تعرف ذلك ؟ قال : « أما إذا كنت راضية فإنك تقولين : لا وربِّ محمد ، وإذا كنتِ غضبى قلتِ : لا وربِّ إبراهيم » . قلتُ : أجل والله يا رسول الله ، ما أهجر إلا اسمَك[2] » متفق عليه .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب (٢٠١/٢) ومسلم فى كتاب الفضائل : ح (٢٣٨٤) والنقل من البخارى .

(٢) صحيح مسلم : باب فضل السيدة عائشة (ح : ٢٤٣٩) والنقل منه . وأخرجه البخارى فى كتاب الغيرة (١٨٦/٢) . وابن سعد ، بسنده إلى عروة بن الزبير ، عن خالته عائشة رضى الله عنها (الطبقات الكبرى ٦٩/٨) .

و « حديث أمِّ زرعٍ » مشهور ، خلاصته أن إحدى عشرة نسوة جلسن يتحدثن عن أزواجهن ، وتعاهدن أن لا يكتمن من أحوالهم معهن شيئا . فتحدثت كل منهن عن زوجها وما تشكو من أمره أو أبويه ، فلما جاء دور أخراهن « أم زرع » تحدثت عن زوجها « أبى زرع » فأثنت عليه أطيب الثناء ، وأسهبت فى وصف كرم سجاياه وفيض خيره وجميل عشرته .

قالت السيدة عائشة بعد أن حكت خبرهن ؛ قال لى رسول الله ﷺ : « كنتُ لكِ كأبى زرع لأمِّ زرع »[1] .

وكان المسلمون يعلمون مكانتها عند النبى ﷺ ، فيتحَرَّوْن بهداياهم يوم عائشة ، يبتغون بذلك مرضاة رسول الله ﷺ »[2] . ومع أنه كان يرسل لكل زوجة نصيبها مما يتلقى وهو فى بيت عائشة ، إلا أن الغيرة استفزتهن ، فتشاورن فى وضع حد لما يلقين من بنت أبى بكر .

وانتهى بهن الرأى إلى أن يلتمسن من « السيدة فاطمة الزهراء » مخاطبة أبيها ﷺ فى الأمر . واستجابت رضى الله عنها فدخلت على أبيها وعائشة عنده فقالت : يا أبى ، إن نساءك أرسلننى إليك ، وهن ينشدنك العدل فى ابنة أبى قحافة ، فقال لها ، ﷺ : « أى بنية ، ألستِ تحبين ما أحب ؟ »

قالت : بلى . قال : « فأحِبِّى هذه » .

فعادت إليهن فأخبرتهن بالذى سمعت من أبيها ﷺ ، وقالت : « والله لا أكلمه فيها أبداً »[3] .

* * *

---

(١) متفق عليه من فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها .
وشرحه القاضى عياض فى كتاب مفرد ، نشرته وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالرباط .

(٢) صحيح مسلم : كتاب الفضائل ، ح (٢٤٤١) واللفظ منه . وصحيح البخارى فى كتاب الهبة . والإصابة ١٤٠/٨ .

(٣) صحيح مسلم ، الفضائل : ح (٢٤٤٢) . والإصابة ، من طريقه ، فى ترجمتها رضى الله عنها .

وقد ظلت السيدة عائشة رضى الله عنها ، تبارك ما عاشت ، الشهرَ الذى خطبها فيه النبى ﷺ ، وبنى بها فيه ، فكانت تستحب أن تزوج النساء من آلها فى شوال ، وتقول :

« تزوجنى رسول الله ﷺ فى شوال ، وبنى بى فى شوال ، فأى نساء رسول الله ﷺ كانت أحْظَى منى ؟ »(١) .

وحين كانت الغيرة تشتط بها ، كان النبى ﷺ يوسع لها العذر فيقول :

« ويحها ، لو استطاعت ما فعلت ! »

وفى صحيح الحديث عن عروة بن الزبير ، عنها : أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا ، قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : « ما لكِ يا عائشة ؟ أغِرتِ ؟ » فقلت : وما لى لا يغار مثلى على مثلك ؟(٢) .

وصدقت « عائشة » ...

وكتبت السيدة الزميلة « الدكتورة زاهية قدورة » ، فى رسالتها للدكتوراه عن « عائشة أم المؤمنين » : « إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها ، بل كانت تقف عند الحدود التى تقضى بها قواعد الدين والعدل ... وإن الأمر لم يكن ليدخل فى باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتاب التاريخ الإسلامى من الإفرنج أن يصفوها ... ولعل ما يرد على هؤلاء ، ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بين الضرائر ، وتفانيهن فى إرضاء زوجهن رسول الله » .

سبحان الله ! وما لها لا يغار مثلها على مثله ؟

وهل كان تحزبهن فى قصة المغافير ، وتظاهرهن ضد مارية ، من صنع الفرنجة ؟

أو كانت وصيتهن للعروس أن تستعيذ بالله إذا دخل عليها رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب النكاح : حـ (١٤٢٣) .

(٢) صحيح مسلم ، حـ (٢٨١٥) والسمط الثمين : ٨٠ .

إحدى الصور للاتفاق الرائع بين الضرائر ؟

اللهم لا ، وإنما كانت « عائشة » أنثى سليمة الفطرة ، ينزع بها ميراثها العاطفى إلى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقا أو مداراة .

وما غيرتها الشديدة ، بعد هذا كله ، إلا مظهر حب عميق لرجلها الفريد ، ودليل تعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ورغبة لا تقاوم فى الاستئثار به ...

ونظلمها ، ونظلم نبينا الكريم ، إذا تكلفنا نفى هذه الغيرة عنها . . .

لقد غارت على السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، وقد ماتت ولم ترها عائشة قط . ولم تنج من غيرتها حفصة ، وإنها لأقرب ضرائرها إليها ، وفى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها : إن النبى ﷺ أقرع بين نسائه ، فى سفر « فطارت القرعة لعائشة وحفصة ، وكان النبى ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث فقالت حفصة : ألا تركبين الليلة بعيرى وأركب بعيرك تنظرين وأنظر ؟ فقالت : بلى . فركبت فجاء النبى ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة ، فسلم عليها ثم سار حتى نزلوا ، وعائشة تدعو على نفسها تقول : '' يا ربِّ سلِّط علىَّ عقربا أو حية تلدغنى '' ولا أستطيع أن أقول له شيئا » ـــ متفق عليه .

الـــوداع

كانت السنوات التى تلت محنة الإفك حافلة بجليل الأحداث ...

والسيدة « عائشة » مع الحبيب ﷺ تشهد انتصاره ، وتتلقاه عائدا مظفرا من مغازيه ومشاهده ، وترى دعوته وهى تنتشر وتمتد ، كنور الفجر ينسخ الظلمات فتنجاب أمامه قطع الليل .

ثم آن للقائد أن يستريح بعد حياة ناصبة مناضلة مجاهدة ...

وآن للرسول البشر ، أن يرجع إلى ربه ، بعد أن بلغ رسالته .

عاد من حجة الوداع سنة عشر إلى « المدينة » فما أقام بها غير قليل حتى أرق ذات ليلة من أخريات صفر سنة إحدى عشرة ، فخرج إلى البقيع يحيى الراقدين هناك ويستغفر لهم . قالت السيدة عائشة ، فيما أسند ابنُ إسحاق عنها : رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى وأنا أقول :

« وا رأساه ! »

فقال : « بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! »

ثم قال : « وما ضركِ لو مُتِّ قبلى فقُمت عليك ، وكفنتُكِ ، وصليتُ عليك ، ودفنتك ؟ »

ردَّت وقد هاجت غيرتها :

« ليكن ذلك حظ غيرى ! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك ، لقد رجعتَ إلى بيتى فأعرستَ فيه ببعض نسائك ! فتبسم رسول الله ﷺ . وتتّام به وجعهُ وهو يدور على نسائه ، حتى استعزَّ به وهو فى بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يُمَرَّض فى بيتى فأذِنَّ له »(1) .

وفى (الصحيحين) من حديثها رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ كان

---

(1) بلفظ ابن إسحاق ، فى السيرة (٢٩٢/٤) بسنده عن عائشة رضى الله عنها .

يسأل فى مرضه الذى مات فيه ، يقول : « أين أنا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ » يريد يوم عائشة ، فأذِنَ له أزواجه أن يكون حيث شاء ، فكان فى بيت عائشة حتى مات عندها »(١) .

وانتقل إلى بيت الحبيبة تمرضه ، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، وقد ثقل ، فقال : « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس » فقالت عائشة : يارسول الله ، إن أبا بكر رجل أسيف ، وإنه متى ما يقم مقامك لا يُسمع الناس ، فلو أمرتَ عمر ؟ فقال ﷺ : « مروا أبا بكر أن يصلى بالناس ... » الحديث(٢) .

قالت عائشة : لقد راجعت رسول الله ﷺ فى ذلك ، وما حملنى على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع فى قلبى أن يحب الناس بعده رجلا قام مقامه أبدا ، ولا كنت أرى أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل رسول الله ﷺ ، عن أبى بكر »(٣) .

« وقُبِضَ رسول الله بين سحرى ونحرى ... فمن سفهى وحداثة سنى أنه ﷺ قبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى »(٤) .

* * *

وكادت تكون فتنة ، عصم الله المسلمين منها حين ألهم « أبا بكر » أن يقف فى المسلمين فيقول :

« أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت » ...

ثم تلا فيهم قوله تعالى فى كتابه المنزل على رسوله ﷺ :

---

(١) متفق عليه من حديثها (فضائل الصحابة فى اللؤلؤ والمرجان : ١٥٨٣)

(٢ ــ ٣) متفق عليه من حديثها (ك الصلاة ، اللؤلؤ : ح ٢٣٩ ، ٢٣٧) .

(٤) ابن إسحاق فى (السيرة ٣٠٥/٤) بإسناده عن عباد بن عبد الله بن الزبير) عنها . وتاريخ الطبرى : ١٦٧/٣ والنقل منه ــ ونحوه فى صحيح مسلم ، كتاب الفضائل : ح (٢٤٤٤) .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

آل عمران : ١٤٤

فو الله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت ، حتى تلاها « أبو بكر » يومئذ ![1] .

ودُفن ﷺ حيث قُبِضَ فى بيت « عائشة » .

وتولى أبوها الصديق الخلافة من بعده ...

* * *

وعاشت « عائشة » لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة ، والفقيهة الأولى فى الإسلام .

قال مسروق بن الأجدع الهمدانى ، التابعى الفقيه الإمام القدوة :

« لقد رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ الأكابر يسألونها فى الفرائض » .
وكان إذا حدث عنها قال : حدثتنى الصديقة بنت الصديق ، حبيبة حبيب الله .. »[2] .

وقال الإمام « الزهرى » : لو جُمِعَ علمُ عائشة ، إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ ، وعلم جميع النساء ، لكان علم عائشة أفضل .

وقال هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه : « ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة »[3] وعن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه قال :

« ما أشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما »[4] .

---

(١) صحيح البخارى ، مناقب أبى بكر ، رضى الله عنه (٢٠١/٢) .

(٢ ــ ٤) من ترجمتها فى طبقات ابن سعد : ٦٦/٨ ــ ٧٧ والاستيعاب : ١٨٨٣/٤ ، والإصابة ١٤٠/٨ .

عاشت لتصحح رأى الناس فى المرأة العربية ، وتشارك فى حياة الإسلام أقوى مشاركة ، فتخوض معركة الفتنة الكبرى التى صنعت التاريخ الإسلامى منذ مقتل « عثمان بن عفان » رضى الله عنه ، وتشهد الحرب يوم الجمل .

....

ثم توفيت رضى الله عنها فى السادسة والستين من عمرها ، بعد أن تركت أعمق الآثار فى الحياة الفقهية والاجتماعية والسياسية للمسلمين ، وحفظت لهم بضعة آلاف من صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ منها ألفان ومائة وعشرة أحاديث ، فى الكتب الستة .

وكانت وفاتها — على الأرجح — ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضين من رمضان سنة سبع وخمسين ، وصلى عليها « أبو هريرة » ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع — كما أوصت — على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية معولة ، فلم تُرَ ليلةٌ أكثرَ ناسا منها .

وأودع جثمانها مع أمهات المؤمنين ، وقد ألغى الموت ما كان بينها وبينهن من غيرة وتنافس ، وأخمد الزمن ذاك اللهب الذى توهج أعواما فى ذلك الكيان الرقيق اللطيف .

وفى (صحيح البخارى) أن عائشة رضى الله تعالى عنها أوصت عبد الله ابن الزبير — ابن أختها أسماء — أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع[1] .

ونزل معها إلى القبر ولدا أختها أسماء ذات النطاقين : عبد الله وعروة ابنا الزبير ، والقاسم وعبد الله ابنا أخيها محمد ، وعبد الله ابن أخيها عبد الرحمن ، وكلهم من رواة الحديث عنها[2] .

...

(١) وانظر وصف قبرها وموضعه ، فى (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) للسمهودى : ٩١٣/٣ .
(٢) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة ، وتهذيب التهذيب : فى ترجمتها رضى الله عنها .

ونامت أخيرا ، وخلفت الدنيا من ورائها ساهرة فيها ، والتاريخ مشغولا برصد دقائق حياتها منذ كانت فى السادسة من عمرها ، معنيا بتتبع حركاتها وسكناتها وكلماتها طوال الأعوام الستين التى عاشتها ملء الحياة ، من الشهر المبارك ، شوال ، الذى شرفت فيه بالزواج من خير البشر ، خاتم النبيين عليهم وعليها السلام ...

* * *

(٤)

حفصَة بنتُ عمَر

حَافظة المصحَف الشريف

« ... يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنُها وحبُّ الرسول ﷺ إياها . والله لقد علمتِ أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك »

عمر بن الخطاب رضى الله عنه

فى (الصحيحين)

الأرملة الشابّة

لم يشهد « بدرا » من بنى سهم غير رجل واحد ، هو[1] الصحابى الجليل « خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى » وكان من أصحاب الهجرتين ، هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين الأولين إليها ، ثم إلى المدينة ، وشهد « أحدا » كذلك ، ثم مات بعدها فى دار الهجرة ، من جراحة أصابته فى « أحد » وترك من ورائه أرملته « حفصة بنت عمر بن الخطاب العدوية » .

وتألم « عمر » لابنته الشابة التى ترملت فى الثامنة عشرة من عمرها .

وأوجعه أن يلمح الترمل يغتال شبابها ويمتص حيويتها . . . وبدأ يشعر بانقباض أليم كلما دخل بيته ، ورأى ابنته فى حزنها ، فبدا له ــ بعد تفكير طويل ــ أن يختار لها زوجا ، قد تأنس إلى صحبته فتسترد بعض الذى أضاعت فى حداد استغرق ستة أشهر أو تزيد ...

ووقع اختياره على « أبى بكر الصديق » صفىّ النبى ﷺ ، وصهره ، وصاحبه ، وأول رجل آمن وبايع ...

وارتاح للفكرة ، فإن أبا بكر فى رزانة كهولته وسماحة خلقه ووداعة طبعه ، كفيل بأن يحتمل « حفصة » بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الخلق ، وما ابتلاها به الترمل من كآبة وضجر .

وأرضاه أن يصهر إلى أحب رجل إلى رسول الله ﷺ .

ولم يتردد عمر ، بل سعى من فوره إلى أبى بكر ، فحدثه عن « حفصة » والصديق يصغى فى عطف ومواساة .

---

(١) انظر السيرة : ٦/٣ وطبقات ابن سعد : ٨١/٨ ، ٣٤١ وتاريخ الطبرى : ١٧٧/٣ ــ وترجمة خنيس فى : طبقات ابن سعد ، والاستيعاب ، والإصابة . ومعها : وفاء الوفا : ٩٠٠/٣ . وانظره فى نسب بنى سهم فى جمهرة الأنساب ١٥٦ ، والمحبر لابن حبيب ٨٣ ، ونسب قريش ٤٠٢ .

ثم عرض عليه أن يتزوجها ، وفى يقينه أن « أبا بكر » سيرحب بالشابة التقية ، ابنة الرجل الذى أعز الله الإسلام به .

لكن « أبا بكر » أمسك لا يجيب ! ..

وانصرف « عمر » لا يكاد يصدق أن صاحبه رفض « حفصة » بعد أن عرضها أبوها عليه .

وسارت به قدماه إلى دار « عثمان بن عفان » وكانت زوجته السيدة « رقية بنت محمد » ﷺ قد مرضت بالحصبة — بعد عودتها من الحبشة — والمسلمون يلقون عدوهم فى بدر ، ثم ماتت رضى الله عنها ، بعد أن تم النصر للمؤمنين[1] .

وتحدث عمر إلى عثمان ، فعرض عليه « حفصة » وهو لا يزال يحس مهانة الرفض من أبى بكر ، وإن حاول جهده أن يكظم غيظه ، فلعل الله قد اختار لحفصة « عثمان » وهو تعالى ، يعلم أى الرجلين أصلح للأرملة الشابة .

وكان جواب عثمان أن استمهله أياما ، جاءه بعدها فقال :

« ما أريد أن أتزوج اليوم ! »[2] .

فاغتاظ « عمر » من قسوة الموقف ، ثم اشتد به الغضب ، فانطلق إلى النبى ﷺ يشكو صاحبيه ...

أمِثْل حفصة — فى شبابها وتقواها وشرفها — تُرفَض ؟

وممن ؟ من أبى بكر وعثمان ، صاحبى الرسول ﷺ وصهريه ، وأوْلَى المسلمين بأن يعرفا قدر عمر ، وأحق الصحابة بألا يردا مثله صهرا ؟

واستأذن « عمر » على النبى ﷺ ، وما يملك نفسه من غضب وقهر ،

---

(١) يأتى حديث السيدة رقية رضى الله عنها فى كتابنا « بنات النبى » ﷺ .

(٢) هذه رواية الاستيعاب « ١٨١١/٤ » والإصابة ٥١/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ومعها رواية بطبقات ابن سعد من عدة طرق (٨١/٨) والسمط الثمين ٨٣ ، أن عمر عرض حفصة على عثمان ، ثم على أبى بكر ، رضى الله عنهم .

فتلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام هاشا باشا ملاطفا ، وأقبل عليه يسأله فى عطف ومودة عما يغضبه ...

ونفض « عمر » لدى النبى الكريم ما يرهقه ويقهره ، وحدثه عما كان من « أبى بكر بن أبى قحافة ، وعثمان بن عفان » ...

فتبسم ﷺ وقال :

« يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة »[1] .

وردَّد عمر مأخوذا بروعة المفاجأة : « يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ؟ »

وأشرقت فى خاطره لمحة مضيئة . أيتزوج النبى ﷺ ، ابنته حفصة ؟ ذاك والله شرف لم تتطاول إليه أمانيه .

وقام إلى المصطفى يصافحه متهللاً ، وقد زال عنه ما كان يجد من مهانة الرفض .

وخرج مسرعا ليزف إلى ابنته ، وإلى أبى بكر وعثمان ، وإلى المدينة كلها ، بشرى الخطبة المباركة .

ولقيه أبو بكر ، فما نظر إليه حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحه ، فمد إليه يده مهنئًا معتذرًا يقول :

« لا تَجِدْ علىَّ يا عمر ، فإن رسول الله ﷺ ، ذكر حفصَة ، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها لتزوجتها »[2] .

ومضى كل منهما إلى ابنته :

أبو بكر ليهون على « عائشة » من وقع الخبر .

وعمر ليبشر « حفصة » بأكرم زوج .

(١ – ٢) طبقات ابن سعد : ٨٢/٨ ، والاستيعاب : ١٨١١/٤ ، والإصابة ٥١/٨ وعيون الأثر ٣٠٢/٢ ، والسمط الثمين ٨٣ .

وباركت المدينة يد النبى ﷺ وهى تمتد لتكرم عمر بن الخطاب وتأسو جراح ابنته حفصة .

كما باركت بعد قليل زواج عثمان من « أم كلثوم بنت محمد » فى جمادى الآخرة ، من السنة الثالثة للهجرة .

وتهيأ بيت النبى لاستقبال « حفصة » التى تزوجها ﷺ فى شهر شعبان ، من تلك السنة على الأرجح[1] .

أسند ابن سعد عن سعيد بن المسيب ، سيد التابعين ، وذكر حديث الخطبة : قال :

« فخار الله لهم جميعا : كان رسول الله ﷺ لحفصة خيرا من عثمان ، وكانت بنت رسول الله ﷺ لعثمان ، خيرا من حفصة »[2] .

* * *

(١) ابن سعد : ٨٣/٨ تاريخ الطبرى : ٩/٣ ، الاستيعاب ، الإصابة ، وفاء الوفا للسمهودى : ٩٠٠/٣ .

وأرخ الذهبى زواجها : فى شهر رمضان (العبر : وفيات السنة الثالثة للهجرة) .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٨٣/٨ .

السِرّ المُذاع

جاءت العروس ، وفى البيت « سودة » و « عائشة » .

أما « سودة » فرحبت بها راضية ، وأما « عائشة » فغاظها أن يأتيها زوجها بضرة ، وما فعل ذلك قط مع « خديجة » .

وضايقها ألا تجد فى « حفصة » مغمزا ، فهى مَنْ هى ، شبابا وتقى ، وعزة نسب ...

لقد كانت عائشة تزهو على سودة وخديجة من قبلها ، بشبابها الغض وأبيها الصاحب الأول أحد العشرة ؛ وحظ « حفصة » من هذين ، ليس بالذى ينكر أو يجحد .

و « عائشة » كانت تضيق بيوم « سودة » التى ما اكترثت لها عائشة كثيراً ، حتى تنازلت لها عنه . فكيف يكون موقفها حين يبيت زوجها عند حفصة ؟

واحتارت ماذا تفعل ، إذ كانت تقدر مغزى زواج كهذا يرضى عمر ويباركه الإسلام والمسلمون .

وسكتت على مضض وغيرة ، إلى أن وفدت على بيت النبى أزواج جديدات ، فتناست « عائشة » ما كانت تجد من « حفصة » ، وحاولت أن ترى فيها أقرب ضرائرها إليها ، وأجدرهن بأن تقف معها فى وجه الخطر المشترك .

وأدركت حفصة ، أنها إذا جاز لها أن تنكر ضرة لها ، فليس من الحق ولا من العدل أن تكون هذه الضرة هى « عائشة » وقد سبقتها إلى بيت النبى ﷺ ، وإلى قلبه .

وربما جرح شعورها أن تعرف حب المصطفى لعائشة ، لكنها حين توالت الضرائر ، وقفت دون تردد ، إلى جانب بنت أبى بكر .

وكان « عمر » يرقب ابنته حفصة فى قلق مبهم ، فيريبه هذه التقارب ـــ غير الطبيعى ـــ بين ابنته وبين بنت أبى بكر ، فلما استبان له ما وراء تقاربهما من ائتمار بالزوجات الأخريات ، كره لحفصة أن تساير صاحبتها وليس لها مثلُ حظها من حب الرسول ﷺ ولا مكانتها من قلبه . فأقبل على ابنته يحذرها أن تتشبه بالصبية الحبيبة ، ويردها عن جموحها بمثل قوله :

« أين أنتِ من عائشة ، وأين أبوك من أبيها ؟ »

وسمع يوما من زوجته أن ابنته تراجع الرسول ﷺ حتى يظل يومه غضبان ، فمضى من فوره حتى دخل عليها فسألها إن كان ما سمعه حقا ؟ قالت بأنه حقّ . فزجرها قائلا :

« تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، يا بنية ، لا يغرنَّك هذه التى أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ إياها ، والله لقد علمتِ أن رسول الله ﷺ لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك ! » متفق عليه من حديث عمر رضى الله عنه فى باب الإيلاء والتحريم .

ويمضى عن « حفصة » وفى حسابه أنه قد ردها إلى ما ينبغى لها من خضوع ومجاملة ، لكنها كانت معتدة بذاتها مدلَّة بشخصيتها ، لا ترى فى منزلة عائشة أو سواها ما يجور على مكانتها ، أو ما يلزمها بأن تتكلف ما ليس فى طبعها . بل تركت نفسها على سجيتها ، فلم تكن تتحرج من معارضة زوجها ، عليه الصلاة والسلام ، حين يبدو له من الأمر ما لا يرضيها ، وربما سمعت منه حديثا فردت عليه غير متهيبةً إذا بدا لها وجه آخر فيما يقول . فى الصحيح من حديث جابر بن عبد الله الأنصارى عن أم مبشر الأنصارية ، رضى الله عنهم ، أنها سمعت رسول الله ﷺ عند حفصة ، يذكر فى أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال : « لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد

من الذين بايعوا تحتها » قالت حفصة : بلى يا رسول الله ! فانتهرها فتلت الآية : ﴿ وإنْ مِنْكُم إلّا وارِدُها ، كانَ عَلىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ فقال النبى ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[1] .

ولعل إباءها هو الذى فرض عليها أن تدارى غيرتها من « عائشة » وتحاول أن تلتمس فى صحبة هذه الشابة المرحة ، ومشاركتها فى معاركها الصغيرة ومؤامراتها الذكية ، ما يشغلها عن ذاك الهم المطوى ...

ويرخى لهما النبى ﷺ ما استطاع ، ويشفع لهما عنده أنوثة ضعيفة تستثير رحمته ، وبنوتهما لأعز صاحبين .

حتى تظاهرتا عليه ، ﷺ ، فكان الهجر واعتزاله ، عليه الصلاة والسلام ، نساءه « من شدة موجدته عليهن » وفى تظاهرهما نزلت آيات التحريم .

وفى المتفق عليه من حديث عمر ، رضى الله عنه ، قال ابن عباس ، رضى الله عنهما : مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع ، هيبة له ، حتى خرج حاجا فخرجت معه ، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق عدل إلى الأراك لحاجة له فوقفت له حتى فرغ ثم سرت معه فقلت : يا أمير المؤمنين ، من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه ؟ فقال : تلك حفصة وعائشة .. » الحديث بطوله[2] .

وفى رواية لحديث ابن عباس عن عمر ، متفق عليها كذلك ، أنه سأله : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ اللتان قال الله تعالى : ﴿ إن تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبُكما .. ﴾ ؟ قال : عجبا لك يا ابن عباس : هما

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل : من فضائل أصحاب الشجرة ، أهل بيعة الرضوان ، رضى الله عنهم . وابن سعد ، بإسناده ، فى غزوة الحديبية : الطبقات الكبرى : ٢/٧٣ ط ليدن ــ والآيتان من سورة مريم : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ، ك الطلاق : الحديثان (٩٤٤ ، ٩٤٥) .

عائشة وحفصة .. » الحديث بطوله ، وفيه قال عمر : فاعتزل النبى ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث ، حين أفشته حفصة إلى عائشة ..[1] .

وتعددت المرويات فى السر الذى نبأت به ، وفى أسباب نزول آيات التحريم ، وقد سبق حديث عائشة ، المتفق عليه ، فى نزول التحريم فى مكثة ﷺ عند زينب بنت جحش ، تسقيه عسلاً يحبه ، فتواطأت عائشة وحفصة ، أيتهما دخل عليها ﷺ فلتقل : إنى أجد ريح مغافير ، أكلتَ مغافير ؟ أو كان التواطؤ على حفصة ، بين عائشة وسودة وصفية .

وأسند الواقدى من عدة طرق ، عن ابن عباس وعدد من الصحابة رضى الله عنهم ، أن النبى ﷺ خلا بمارية فى بيت حفصة وكانت قد خرجت ، فجاءت ومارية معه ، فبكت مقهورة فاسترضاها ﷺ بأن أسر إليها أن مارية عليه حرام ، من يومئذ ، على أن تكتُم حفصة السر ، فأنبأت به عائشة .[2] .

وفى رواية بصحيح البخارى ، أنهن تظاهرن فى طلب التوسعة فى النفقة ، وفى أخرى عن عمر رضى الله عنه قال : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، الحديث .

وقد خرَّج الحافظ ابن حجر حديث عمر ، وغيره ، فى التظاهر والتحريم من مختلف الطرق وقال : « والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها ، بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن ... ويحتمل أن تكون الأسباب جميعها اجتمعت ، فأُشِيرَ إلى أهمها »[3] .

وهذا الذى رجحه الحافظ بن حجر ، هو المتداول فى كتب الفقه ، فى سبب نزول سورة التحريم[3] . وهو المتداول أيضا فى كتب التفسير . وعليه اقتصر الواحدى فى « أسباب النزول) لسورة التحريم .

(١) اللؤلؤ والمرجان ، ك الطلاق : الحديثان (٩٤٤ ، ٩٤٥) .
(٢) الطبقات الكبرى : ١٨٦/٨ — ١٨٧ . (٣) فتح البارى : ٢٣٣/٩ .
(٤) القاضى عياض فى شرح مسلم ، على هامش ١١٠٠/٢

وفى حديث عن ابن عمر ، رضى الله عنهما : أن عمر دخل على حفصة وهى تبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك ، إنه طلقك وراجعكِ من أجلى ، والله لئن كان طلقك لا كلمتُك كلمة أبدا(١) .

وفى هذا الارتجاع تختلف الروايات ، فمنها أن ذلك كان رحمةً بعمر الذى حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » فنزل جبريل عليه السلام من الغد وقال للنبى ﷺ : « إن الله يأمرك أن تراجع حفصة ، رحمة بعمر » .

وفى رواية أخرى أن جبريل عليه السلام قال : « أرجع حفصة ، فإنها صوامة قوامة ، وإنها زوجتك فى الجنة »(٢) .

والراجح أن هذا الطلاق الرجعى ، كان قبل تظاهرهما على النبى ﷺ ، فلما اعتزل نساءه ، كان من الطبيعى أن يكون إحساس حفصة بالذنب والندم ، أقوى وأشد من إحساس الأخريات ، فما كان لها وهى التقية العابدة أن تفشى سرا ائتمنها عليه رسول الله ﷺ ، ولا أن تقابل بالجحود ترضيته لها بتحريم حلالٍ له .

وفى حديث عمر لابن عباس ، المتفق عليه ، فى تظاهر عائشة وحفصة ، ذكر أنه كان له جار من الأنصار يتناوبان النزول على النبى ﷺ ، فيخبر كل منهما صاحبه بما حدث فى نوبته . قال عمر : وكنا قد تحدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا . فنزل صاحبى الأنصارى يوم نوبته ، فرجع إلينا عشاءً فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثَمَّ هو ؟ ففزعت فخرجت إليه فقال : قد حدث اليوم أمر عظيم . قلت : ما هو ؟ أجاء غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأهوَل : طلق النبى ﷺ نساءه . فقلت : خابت حفصة وخسِرتْ ،

---

(١) « رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح » (مجمع الزوائد : ٢٤٤/٩) والإصابة ، من طريق الطبرانى .

(٢) رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٢٤٤/٩) وفى ترجمتها بالاستيعاب والإصابة .

قد كنت أظن هذا يوشك أن يكون . فجمعتُ علىَّ ثيابى فصليت صلاة الفجر مع النبى ﷺ فدخل ﷺ مشربةً له ، فاعتزل فيها . ودخلت على حفصة فإذا هى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ ألم أكن حذرتُكِ هذا ؟ أطلقكن النبى ﷺ ؟ قالت : لا أدرى ، ها هو ذا معتزل فى المشربة . فخرجتُ فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكى بعضهم ، فجلست معهم قليلا ثم غلبنى ما أجد ، فجئت المشربة التى فيها النبى ﷺ فقلت لغلام له — فى رواية مسلم : أنه رَباح — استأذنْ لعمر . فدخل فكلم النبى ﷺ ثم رجع فقال : كلمتُ النبى ﷺ وذكرتُكَ له فصَمتَ . فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ، ثم غلبنى ما أَجِدُ فجئت فقلت للغلام : استأْذِنْ لعمر . فدخل ثم رجع فقال : قد ذكرتُك له فصمتَ . فرجعت فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثم غلبنى ما أجد فجئتُ الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم رجع إلىَّ فقال : قد ذكرتك له فصمت . فلما ولَّيت منصرفاً ، إذا الغلام يدعونى فقال : قد أذن لك النبى ﷺ . فدخلتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمالِ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش ، قد أثر الرمال بجنبه ، متكئا على وسادة من أدَمٍ حَشوُها ليف . فسلمت عليه ثم قلت وأنا قائم : يا رسول الله ، أطلقت نساءك ؟ فرفع إلىَّ بصره فقال : « لا » فقلت : الله أكبر . ثم قلت وأنا قائم ، أستأنس : يا رسول الله ، لو رأيتنى ، وكنا معشر قريش نَغلِبُ النساء فلما قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم ؟ فتبسم النبى ﷺ . ثم قلت : يا رسول الله ، لو رأيتنى ، ودخلتُ على حفصة فقلت لها : لا يغرنَّكِ أنْ كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى ﷺ ؟ يريد عائشة . فتبسم النبى ﷺ تبسمةً أخرى فجلست حين رأيته تبسم .. » الحديث .

واسترد عمر طمأنينته ، فما طلق نساءه وإنما هجرهن شهرا ...

ورُدَّت الروح إلى « عمر » ، فاستأذن ونزل إلى المسجد .

فبشر المسلمين : « لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه » .

* * *

وخرج النبى عليه الصلاة والسلام فتلا فيهم قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ
أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ
تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢)
وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ
بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ
فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا
وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ
إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ
مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ
وَأَبْكَارًا (٥) ﴾ .

صدق الله العظيم / التحريم ١ ـــ ٥

* * *

الوديعة الغالية

وعت نساء النبى رضى الله عنهن هذا الدرس ، وثابت « حفصة » إلى طمأنينتها وقد كادت تهلك أسى وندما .

ولا نعرف أنها من ذلك الحين ، قد اشتركت فى مؤامرة نسوية ببيت النبى ، أو تسببت له فيما يكره ما عاش ، فلما انتقل ﷺ إلى جوار ربه الأعلى وجُمِعَ المصحف فى عهد أبى بكر . كانت « حفصة » هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعا — وفيهن عائشة — لتحفظ النسخة الأولى للمصحف الشريف .

ذلك أن « عمر » لما استحرَّ القتل بالصحابة يوم اليمامة ، أشار على « أبى بكر : الخليفة الأول » أن يبادر فيجمع القرآن الكريم من صحفه المتفرقة ، قبل أن يبعد العهد بنزوله ، ويمضى حفظته الأولون ، وقد استشهد منهم مئات فى حروب الردة .

فاستجاب « أبو بكر » وجمع المصحف الكريم فكانت صُحُفُه عند أبى بكر حتى توفى ، ثم عند عمر حتى قُبِض ، فأوصى إلى حفصة فكان المصحف عندها[1] رضى الله عنهم جميعا .

* * *

فى أواخر جمادى الآخرة من السنة الثالثة عشرة للهجرة ، توفى أبو بكر الصديق ، أول الخلفاء الراشدين . وتولى الخلافة من بعده ، بعهدٍ منه ، أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن (٢٣٤/١ ط القاهرة) من طريق البخارى . مع صحيح البخارى ، ك الفضائل . وطبقات ابن سعد (٨٤/٨) .

وشهدت حفصة أمجاد أبيها ومآثره ، وفتوح الشام والعراق ومصر على عهده ...

إلى أن روعت وروع المسلمون كافة ، بالمصرع الفاجع لأمير المؤمنين عمر ابن الخطاب ، بطعنات من خنجر أبي لؤلؤة المجوسى ، فى ليالى المحاق من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة .

وترك أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى من كبار الصحابة ، فوليها أمير المؤمنين عثمان بن عفان . وفى عهده تم توحيد حرف المصحف ورسمه ، من المصحف المجموع المودع لدى أم المؤمنين حفصة . ونُسِخَت من المصحف العثمانى الإمام ، نُسخ وُزِّعت على الأمصار .

* * *

بعد مقتل ذى النورين عثمان رضى الله عنه ، فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، بويع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وكانت الفتنة الكبرى التى خرجت فيها السيدة عائشة مع الذين كرهوا البيعة ، وقد عزمت على السيدة حفصة فى الخروج معها ، فهمت بأن تستجيب لها ، كالعهد بهما فيما مضى . لولا أن ردّها أخوها : « عبد الله بن عمر » عن الخروج فى تلك الفتنة .

* * *

وأقامت بالمدينة عاكفة على العبادة قوامة صوامة ، إلى أن توفيت فى عهد معاوية بن أبى سفيان مؤسس الدولة الأموية . وشيعتها المدينة إلى مثواها بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضى الله عنهن[1] .

---

(١) فى سنة وفاتها خلاف ، والراجح أنها توفيت سنة سبع وأربعين . انظرها فى الطبقات والمحبر ٨٣ ، والاستيعاب والإصابة ، وفى عيون الأثر (٣٠٢/٢) . وتهذيب التهذيب ٤١٠/١٢ .

وبقى لها مع ذكراها أمّاً للمؤمنين حافظة للمصحف الشريف ، ما روت من الحديث عن النبى ﷺ ، وعن أبيها عمر رضى الله عنهما . روى عنها أخوها عبد الله وابنه حمزة ، فى عدد من حفاظ التابعين ...

* * *

(٥)

زينب بنتُ خُـزَيْمَـة

أمّ المسَــاكِين

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم »

ابن إسحاق : فى السيرة النبوية

لم يكن قد مضى على دخول « حفصة » البيت المحمدى غير وقت قصير ، حين دخلته أرملة شهيد قرشي من المهاجرين الأولين ، خامسة أمهات المؤمنين : « زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، الهلالية » .

ويبدو أن قصر مقامها ببيت النبى ﷺ ، قد صرف عنها كتّاب السيرة ومؤرخى عصر المبعث ، فلم يصل إلينا من أخبارها سوى بضع روايات لا تسلم من تناقض واختلاف .

لم يختلفوا فى نسبها من جهة أبيها ، كما صرح ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ، بعد سياق نسبها . وهو ما أجمعت عليه مصادرنا لترجمتها أو نسبها[1] .

وأما من جهة أمها ، فأغفلته جمهرة هذه المصادر . ونقل ابن عبد البر فيها قول أبى الحسن الجرجانى على بن عبد العزيز النسابة : « وكانت زينب بنت خزيمة أخت ميمونة بنت الحارث ــ أم المؤمنين ــ لأمها » قال ابن عبد البر : « ولم أر ذلك لغيره ، والله أعلم » . وحكاه ابن سيد الناس عن ابن عبد البر ، ولم يعقب عليه .

قلت : بل ذكره كذلك ، النسابة « أبو جعفر بن حبيب » فى مبحث (أسلاف رسول الله ﷺ) من قِبَل ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية . أمها : « هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة ، الحميرية » وأخوات ميمونة

(١) الطبقات الكبرى ، ونساء الاستيعاب والإصابة . والسيرة الهشامية ٢٩٧/٤ ، وتاريخ الطبرى ١٧٩/٣ ، والمحبر لابن حبيب ٨٣ ، وجمهرة أنساب العرب ٢٦٢ ، والسمط الثمين ١١٢ ، وعيون الأثر ٣٠٢/٢ .

لأبيها وأمها : أم الفضل لبابة الكبرى أم بنى العباس بن عبد المطلب ، ولبابة الصغرى أم خالد بن الوليد ، وعزة بنت الحارث ... وأختهن لأمهن : زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية ، وأسماء بنت عميس زوج الشهيد الطيار جعفر بن أبى طالب ، خلف عليها أبو بكر الصديق ثم على بن أبى طالب ، وسلامة بنت عميس زوج عبد الله بن كعب ...

« ولا يُعلم امرأة فى العرب كانت أشرف أصهارا من هند بنت عوف ، أم ميمونة وأخواتها »[1] .

واختلفوا فيمن كانت عنده قبل النبى ﷺ ، والراجح — والله أعلم — أنها : كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، فخلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، استشهد رضى الله عنه فى بدر ، فخلفه عليها النبى ﷺ .

وهى رواية ابن حبيب فى المحبر ، وابن سعد من طريق الواقدى ، والجرجانى النسابة — حكاه ابن عبد البر — وابن سيد الناس فى عيون الأثر ، والمحب الطبرى فى السمط ، وأحد الأقوال فى ترجمتها بالاستيعاب والإصابة .

وقيل : كانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد مناف فطلقها ، فخلف عليها النبى ﷺ . حكاه الطبرى وابن عبد البر عن قتادة . والواقدى عن الزهرى .

وفى السيرة الهشامية قال ابن إسحاق إنها كانت عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكانت قبله عند جهم بن عمرو بن الحارث الهلالى ، وهو ابن عمها .

وفى قول رابع إنها كانت عند عبد الله بن جحش فاستشهد فى أحد ، فخلف عليها النبى ﷺ . حكاه ابن عبد البر — عن الزهرى — وابن حجر فى (الإصابة) .

---

(١) المحبر : ١٠٥ — ١٠٩ ومعه الإصابة : ٩٥/٨ .

وعن « ابن الكلبى » : كانت عند الطفيل بن الحارث فطلقها ، فخلفه عليها أخوه فقتل عنها ببدر ، فخطبها رسول الله ﷺ .

وفى الطبرى :

« وفى هذه السنة ــ الرابعة ــ تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بنى هلال ، فى شهر رمضان ... وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث فطلقها » .

واختلفوا مرة ثالثة فيمن تولى زواجها من النبى ﷺ .

فى الإصابة عن « ابن الكلبى » أن رسول الله ﷺ خطبها إلى نفسها فجعلت أمرها إليه فتزوجها ...

وفى السيرة ، رواية ابن هشام : « زوَّجه إياها عمها : قبيصة بن عمرو الهلالى ، وأصدقها ﷺ أربعمائة درهم » .

واختلفوا رابعة فى المدة التى أقامتها ببيت النبى ﷺ :

ففى الإصابة رواية تقول : « كان دخوله ﷺ بها ، بعد دخوله على حفصة بنت عمر ، ثم لم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة وماتت » .

ورواية أخرى عن ابن الكلبى : « فتزوجها فى شهر رمضان سنة ثلاث ، فأقامت عنده ثمانية أشهر وماتت فى ربيع الآخر سنة أربع » .

وفى (العبر) قال الذهبى : « وفيها ــ يعنى السنة الثالثة ــ دخل بزينب بنت خزيمة العامرية ، أم المساكين ، فعاشت عنده ثلاثة أشهر وتوفيت » .

* * *

وكذلك اضطربت فيها نقول المحدّثين : ذكرها الدكتور هيكل باسم « زينب بنت مخزوم » فى قضية زواج زينب بنت جحش . وجزم بأنها « قد كانت زوجا لعبيدة بن المطلب الذى استشهد يوم بدر ، فلم تلبث إلا سنة أو سنتين (؟!) كما جزم بأنها « لم تكن ذات جمال »[1] .

(١) حياة محمد : ٢٨٨ ، ٢٩١ .

ومبلغ علمى أنه ما من مصدر مما وقفتُ عليه ، تعلق بوصف شكلها وصورتها .

وقال بودلى : « ... تبع زواجَ محمد من حفصة زواجٌ آخر ، وكان زواجا شكليا أكثر من أى شيء آخر . كانت العروس أرملة عبيدة بن الحارث ، ابن عم لمحمد سقط فى بدر ، وكان اسمها زينب بنت خزيمة ، وما ضمها محمد إلى نسائه إلا بدافع الشفقة ، وما اهتمت عائشة أو حفصة بها أبدا ، وماتت بعد زواجها بثمانية أشهر »[1] .

ولم يطل بها المقام فى بيت النبى ﷺ ، ليقال إن زواجها كان شكليا بدافع الشفقة .

* * *

على أنه مهما يختلف المؤرخون وكتّاب السيرة فى أمر زينب بنت خزيمة ، فقد أجمعوا على وصفها بالطيبة والكرم والعطف على الفقراء ، ولا يكاد اسمها يذكر فى أى كتاب مما ذكرنا إلا مقرونا بلقبها الكريم : أم المساكين .

فى السيرة الهشامية :

« وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم »[2] .

وعن الزهرى ، قال : تزوج النبى ﷺ زينب بنت خزيمة ، وهى أم المساكين . سميت بذلك لكثرة إطعامها المساكين . وهى من بنى عامر بن صعصعة[3] .

وفى الاستيعاب والإصابة :

« وكان يقال لها أم المساكين ، لأنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم » .

ومثله فى تاريخ الطبرى[4] .

---

(١) الرسول : ١٧٦ من الترجمة العربية .
(٢) السيرة : ٢٩٦/٤ .
(٣) رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات (مجمع الزوائد : ٢٤٨/٩) .
(٤) ٣٣/٣ .

وأحتاج إلى أن أشير هنا إلى مقال كتبه فضيلة الأستاذ « الشيخ محمد المدنى » فى مجلة الرسالة ــ عدد ١١٠٣ تاريخ ١٩٦٥/٣/٤ ــ فيه ما نصه :

« وكانت زينب بنت جحش رضى الله عنها هى أجودهن ــ يعنى أزواج النبى ــ وأبرهن باليتامى والمساكين ... حتى كانت تعرف بأم المساكين » .

والذى فى مصادرنا للسيرة وطبقات الصحابة وكتب التاريخ الإسلامى ، والأنساب ، تجمع على أن لقب أم المساكين إنما كان للسيدة « زينب بنت خزيمة » .

فلعل الوهم جاء من قول ابن الأثير فى ترجمتها بأسد الغابة : ذكر ابن منده فى ترجمتها حديث « أولكن لحوقا بى أطولكن يداً » وقد تقدم فى ترجمة زينب بنت جحش . وهو بها أليق لأن المراد بلحوقهن موتهن بعده ، ﷺ ، وهذه ، أى زينب بنت خزيمة ماتت فى حياته » .

نقله الحافظ ابن حجر فى الإصابة ، وقال : وهو تعقب قوى .

ويأتى حديث « أطولُكُنَّ يدًا » فى ترجمة أم المؤمنين زينب بنت جحش ، رضى الله عنها .

* * *

والراجح أنها ماتت فى الثلاثين من عمرها كما ذكر « الواقدى » ونقله « ابن حجر » فى الإصابة . ولم أقف على خبر عنها فى حياتها الزوجية القصيرة ، فحسبنا أن نتمثلها هناك قريرة العين بما نالت من شرف الزواج بالنبى ﷺ وأمومة المؤمنين ، منصرفة عن شواغل الحريم ، بما كان يشغلها من أمر المساكين ، قانعة بحظها من تقدير النبى ﷺ ، والمؤمنين ، لا يرهقها طمع ولا تنهكها غيرة ...

ورقدت فى سلام ، كما عاشت فى سلام . وصلى عليها النبى عليه الصلاة والسلام ، ودفنها بالبقيع فكانت أول من دفن فيه من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

ولم يمت منهن فى حياته ﷺ ، غير السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى — ومدفنها بالحجون فى مكة — والسيدة زينب بنت خزيمة الهلالية ، أم المؤمنين وأم المساكين .

* * *

(٦)

أُمُّ سَـــلَمَة

بنتُ زادِ الرَّكْبِ

« قالت أم سلمة : عجبا لك يا ابنَ الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه !
قال عمر : فأخذتْنى أخذًا كسرتْنى به عما كنت أجد »

(متفق عليه)

من حديث ابن عباس عن عمر
رضى الله عنهم

العِـزّة والجمَال

خلا بيت « أم المساكين » فى دور النبى ﷺ ، وقتا غير قصير ، ثم جاءت « أم سلمة » فشغلته .

اسمها : هند بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم : القرشية المخزومية(1) .

قالت ، فيما روى ابن سعد فى (طبقاته) من طريق الواقدى بسنده إليها :

« ... فتزوجنى رسول الله ﷺ فنقلنى فأدخلنى بيت زينب بنت خزيمة ، أم المساكين » .

إنها ضرة جديدة عزيزة ، عريقة المنبت ، ذات جمال وإباء وفطنة ، تزفها إلى بيت النبى ﷺ أمجاد طوال عراض :

أبوها : أحد وجوه قريش المعدودين ، وأجوادهم المشهورين ، وقد ذهب على الدهر بلقب « زاد الركب » أن كان إذا سافر لا يترك أحدا يرافقه ومعه زاد ، بل يكفى رفقته من الزاد .

وأمها : عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة الكنانية ، من بنى فراس الأمجاد . وكان جدها علقمة ، يلقب بجذل الطعان .

وزوجها الذى مات عنها : عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الصحابى ذو الهجرتين ، ابن عمة المصطفى « برة بنت عبد المطلب بن هاشم » وأخوه ، ﷺ ، من الرضاعة ، أرضعتهما ثويبة ،

---

(1) السيرة ٣٤٥/١ ، ٢٩٤/٤ ، طبقات ابن سعد ٩٢/٨ ، تاريخ الطبرى ١٧٧/٣ ، ونسب قريش ٢١٦ ، المحبر ٨٣ ، الاستيعاب ١٩٣٩/٤ ، السمط الثمين (٨٦) ، الإصابة ٢٤٠/٨ ، عيون الأثر (٨٦/٢) .

مولاة أبى لهب ، كما فى الحديث المتفق عليه عن أم حبيبة رضى الله عنها ، أنها عرضت أختها على رسول الله ﷺ ، لما بلغها أنه خطب بنت أم سلمة فقال : « لو لم تكن ربيبتى ما حلّت لى ، أرضعتنى وأباها ثويبة »[1] .

وكان لأبى سلمة ، ولزوجه هند ، إلى جانب النسب العريق ، ماض مجيد فى الإسلام ، فقد كانا من بين السابقين الأولين ، وهاجرا مع العشرة الأولين إلى الحبشة ، حيث ولدت هند هناك ابنهما « سلمة »[2] .

ثم قدما مكة ، بعد تمزيق صحيفة المقاطعة ، وقد ضرى اضطهاد قريش للمسلمين . فلما أذِنَ النبى ﷺ لأصحابه فى الهجرة إلى يثرب بعد بيعة العقبة الكبرى ، أجمع « أبو سلمة » أمره على الهجرة بأهله ، فكانت قصة خروجهما مأساة ما تزال ــ على بعد العهد بها وتطاول الآماد ــ مثيرة أليمة الوقع .

حدثت « أم سلمة » رضى الله عنها ، قالت :[3]

« ... لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة ، رحل بعيرا له وحملنى وحمل معى ابنى سلمة ، ثم خرج يقود بعيره ، فلما رآه رجال بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟

ونزعوا خطام البعير من يده وأخذونى ، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وأهووا إلى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجى :

ــ والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا .

---

(1) السيرة : ١٠٢/٣ والاستيعاب (٦٣٩ ، ١٦٨٢) وانظر معهما : جمهرة أنساب العرب (١٣٤) ونسب قريش (٣٣٧) . مع حديث أم حبيبة رضى الله عنها ، فى ك الرضاعة باب تحريم الربيبة وأخت المرأة (اللؤلؤ ح ٩٢٠) .

(2) السيرة ٣٤٥/١ .

(3) ابن إسحاق : السيرة ١١٢/٢ والنقل منها ، والسمط الثمين ٨٧ ، مع ترجمتها فى الاستيعاب والإصابة من طريق ابن إسحاق .

فتجاذبوا ابنى سلمة حتى خلعوا يده ، وانطلق به رهط أبيه ، وحبسنى بنو المغيرة عندهم .

ومضى زوجى أبو سلمة حتى لحق بالمدينة . وفُرِّق بينى وبين زوجى وابنى ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنةً أو قريبا منها .

حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى فقال لبنى المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنها .

وما زال بهم حتى قالوا :

— الحقى بزوجك إن شئت .

وردَّ علىَّ بنو عبد الأسد عند ذلك ابنى ، فرحلت بعيرى ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله ...

حتى إذا كنت بالتنعيم — على فرسخين من مكة — لقيت عثمان بن طلحة[1] فقال : أين يا بنت أبى أمية ؟

قلت : أريد زوجى بالمدينة .

فقال : هل معك أحد ؟

فقلت : لا والله ، إلا الله وابنى هذا .

فقال : والله ما لك من مَتْرَك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فو الله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه . إذا نزل المنزل أناخ بى ثم تنحى إلى شجرة

---

(١) كان عثمان يومئذ على كفره ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد . فلما فتحت مكة ، دفع النبى ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وقتل عثمان شهيدا بأجنادين فى خلافة عمر رضى الله عنهما ، وانظر ترجمته فى

فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه ورحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبى . فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاد حتى ينزل بى . فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمر بن عوف بقباء ـــ وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره ـــ قال :

إن زوجك فى هذه القرية ، فادخليها على بركة الله .

ثم انصرف راجعا إلى مكة .

فكانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة ، كما كانت من المهاجرين الأولين إلى الحبشة . وكذلك كان زوجها أبو سلمة ، عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، أول من هاجر إلى يثرب من أصحاب رسول الله ﷺ[1] .

* * *

وفى المدينة ، عكفت على تربية صغارها ، وتفرغ زوجها للجهاد .

ولما خرج ﷺ فى غزوة ذى العشيرة ـــ فى جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة ، وهى الغزوة التى وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم بنى ضمرة ـــ اختار من بين أصحابه أبا سلمة ، فاستعمله على المدينة[2] .

وشهد غزوة « بدر » الكبرى ، فكان أحد ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ، تمَّ بهم النصر على ثلاثة أضعافهم من المشركين ، فى أولى المعارك الحاسمة بين الوثنية والتوحيد ... ثم شهد يوم أحد ، وأبلى فيه بلاء مشهودا . ورُمىَ بسهم فى عضده مكث يداويه حتى ظن أنه التأم .

فلما أرجف المرجفون بالإسلام بعد « أحد » وبلغ النبى ﷺ بعد شهرين اثنين من المعركة ، أن بنى أسد يدعون إلى مهاجمته فى دار هجرته ، دعا إليه

(١) السيرة ٣٤٤/٢ وطبقات ابن سعد ٨٧/٨ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ١١٥/١ . مع (فتح البارى ١٧٦/٧)

(٢) طبقات ابن سعد ٤/٢ ط ليدن والسيرة ٢٤٨/٢ ، وعيون الأثر ٢٢٦/١ .

« أبا سلمة » فعقد له لواء سرية إلى قطن ، وهو جبل بناحية فيد ـــ ماء لبنى أسد بن خزيمة ـــ ومعه مائة وخمسون رجلا ، منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص ...

ونفذ « أبو سلمة » ما أمر به النبى ﷺ من أخذ العدو على غرة ، فأحاط بهم فى عماية الصبح على غير أهبة منهم للقتال ، وقاد معركة ظافرة ، ثم رجع وصحبه إلى المدينة سالمين غانمين ، قد أعادوا بعض ما ضيعت « أحد » من هيبة المسلمين(1) .

فى هذه السرية ، انتكأ الجرح الذى أصاب أبا سلمة يوم أُحد ، فظل به حتى مات منه لثمانٍ خلون من جمادى الآخرة سنة أربع .

وحضره النبى ﷺ وهو على فراش موته ، وبقى إلى جانبه يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه ، وكبر عليه تسع تكبيرات .

قيل له : يا رسول الله ، أسهوت أم نسيت ؟ فقال :

« لم أسه ولم أنس ، ولو كبَّرتُ على أبى سلمة ألفا ، كان أهلا لذاك »(2) .

فى صحيح الحديث عن أم سلمة أن أبا سلمة ، رضى الله عنهما ، حدثها أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمره الله به من قول : (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجِرْنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها) إلا آجره الله فى مصيبته وكان قمينا أن يعوضه خيرا منها » فلما هلك أبو سلمة ذكرتُ الذى حدثنى به عن رسول الله ﷺ فكنت أقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرا منها)

---

(1) طبقات ابن سعد : ٣٥/٢ ، عيون الأثر ٣٨/٢ .

(2) تاريخ الطبرى : ١٧٧/٢ ، الإصابة : ٢٤٠/٨ .

ثم قلت : أنّى أُعاض خيرا من أبى سلمة ؟ وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى »[1]

وأسند ابن سعد عنها أن أبا سلمة دعا لها قبل موته : « اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلا خيرا منى ، لا يحزنها ولا يؤذيها . فلما مات أبو سلمة قلت : من هذا الذى هو خير من أبى سلمة ؟ » وذكر الخطبة[2] .

قال ابن عبد البر ، إن أبا سلمة ، قال عند وفاته : « اللهم اخلفنى فى أهلى بخير » فأخلفه رسولَ الله ﷺ على زوجته أم سلمة فصارت أمًّا للمؤمنين ، وعلى بنيه : سلمة وعمر وزينب » ودرّة[3] .

* * *

تلبث كبار الصحابة حتى انتهت عدة « أم سلمة » فتقدم إليها منهم « أبو بكر الصديق » خاطبا ، فرفضت فى رفق .

وتلاه « عمر بن الخطاب » فلم يكن حظه منها غير حظ صاحبه .

ومن بعدهما ، بعث إليها النبى ﷺ يخطبها ، فتمنت لو يتاح لها ذاك الشرف العظيم ، لكنها أشفقت ـــ وقد جاوزت سن الشباب ، ومعها عيال لها صغار ـــ ألا تملأ مكانها فى بيت النبى ، إلى جانب عائشة وحفصة .

وأرسلت إلى النبى ﷺ تعتذر ، وتقول : إنها غيرى ، مُسِنَّة ... ذات عيال

فقال عليه الصلاة والسلام :

« أما أنك مسنة ، فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله »[4] .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ، ك الجنائز . وابن سعد بسنده إليها فى (الطبقات ٨/٨٨) .

(٢) الطبقات الكبرى : ٨/٨٨ .

(٣) الاستيعاب : ترجمة أبى سلمة : عبد الله بن عبد الأسد المخزومى رضى الله عنه .

(٤) السمط الثمين : ٨٩ ، والمحبر ٨٥ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ٢/٣٠٤ .

وتم الزواج فى شهره المبارك « شوال من السنة الرابعة على الصحيح »[1] .

تقول أم سلمة ، وذكرتْ إدخالها بيتَ زينب بنت خزيمة بعد وفاتها : « ... فإذا جَرَّة هناك ، فاطَّلعتُ فإذا فيها شىء من شعير ، وإذا رَحى وبرمة وقِدْرٌ نظرت فإذا فيها كعب من إهالة ــ شحم ــ فأخذت ذلك الشعير فطحنتُه ثم عصدته فى البرمة ، وأخذت الكعب من الإهالة فأدمته به ، فكان ذلك طعام رسول الله ﷺ وطعام أهله ليلة عرسه »[2] .

وتكلفت « عائشة وحفصة » ما أطاقتا من شجاعة ، لتستقبلا الزوجة الجديدة بشىء من المجاملة ، لكن « عائشة » لم تطق صبرا على هذا التكلف ، فكشفت لحفصة عما تطوى من ألم وغيرة . فى (طبقات ابن سعد) عن الواقدى ، حديث عائشة رضى الله عنها : « لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة ، حزنت حزناً شديداً لما ذكر من جمالها . فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وُصِفَتْ به ، فذكرتُ ذلك لحفصة ــ وكانتا يدًا واحدة ــ. فقالت : « لا والله ، إن هى إلا الغيرة ، ما هى كما يقولون » ... وذكرتْ كبرَ سنها ...

« فرأيتُها بعد ذلك فكانت لعمرى كما قالت حفصة ، ولكنى كنت غيرَى »[3] .

وما من شك فى أن « أم سلمة » قد سرها أن تلمح تأثير دخولها على عائشة ومن معها ، أسند الواقدى من حديث الزهرى عن هند بنت الحارث الفراسية قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن لعائشة منى شعبة ما نزلها منى أحد » فلما تزوج أم سلمة سئل : يا رسول الله ، ما فعلت الشعبة ؟ فسكتَ : فعُرِف أن أم سلمة نزلت عنده[4] .

---

(١) الإصابة وعيون الأثر ، خلافا لما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب « سنة اثنتين » ولا يصح .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٩٢/٨ .

(٣ــ٤) طبقات ابن سعد : ٩٤/٨ ، والإصابة من طريقه .

ولعلها ــ لذلك ــ قد رضيت أن تبعث بطفلتها الصغيرة إلى حاضنة ، كي تفرغ لواجباتها الزوجية[1] .

وفي الصحيحين حديث أم سلمة رضي الله عنها ، قالت :[2]

قلت : يا رسول الله ، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم ؟ ولست بتاركتهم هكذا وهكذا ، إنما هم بنيَّ . قال : « نعم ، لكِ أجرُ ما أنفقتِ عليهم » .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : دخل عليَّ يوما رسول الله ﷺ فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال : « يا حميراء ، كنت عند أم سلمة » فقلت : أما تشبع من أم سلمة ؟ فتبسم[3] .

* * *

وبدا واضحا أن « أم سلمة » تعرف لنفسها قدرها ، وتأبى على « عائشة » أو سواها التعرض لها بما يخدش كرامتها ، وقد أعزها مجد عتيق موروث وآخر حديث مكتسب .

وكذلك أبت على « عمر » رضي الله عنه أن يتكلم في مراجعة أمهات المؤمنين لزوجهن المصطفى ﷺ .

في (الصحيحين) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، عن عمر رضي الله عنه ، قال : « والله إنْ كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسَم لهن ما قسم . فبينما أنا في أمرٍ أتأمره إذ قالت امرأتي : لو صنعتَ كذا وكذا ؟ فقلت لها : ما لَكِ ولما هٰهنا ، فيم تكلفك في أمرٍ أريده ؟ فقالت لي : عجبا لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تُراجَع وإن ابنتك لتُراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ » .

---

(١) السيرة ٢/١٧١ ، والسمط ٩٠ ، والإصابة .

(٢) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان : ١/٢٣٤ ح (٥٨٥) .

(٣) الطبقات الكبرى : ٨/٨٠ .

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة فقال لها : « يا بنية ، إنك لتُراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعه . فقلتُ : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ . يا بنية ، لا يغرَّنْكِ هذه التى أعجبها حسنُها حبُّ رسول الله ﷺ إياها ـــ يريد عائشة : قال : ثم خرجتُ حتى دخلت على أم سلمة ، لقرابتى منها ، فكلمتها ، فقالت أم سلمة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ! قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ؟ »

قال عمر : « فأخذتنى ، والله ، أخذًا كسرتْنى به عن بعض ما كنت أجِدُ ، فخرجت من عندها » الحديث ، بطوله[1] .

وما قالت كلمتها هذه إلا وهى مدلة بمكانها عند النبى ﷺ وفى بيته ، فقد كان ﷺ يعدها من أهله : حدثوا أنه كان يوما عندها وابنتها زينب هناك فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين رضى الله عنهم ، فضمهما إليه ، ثم تَلَا : ﴿ **رحمةُ اللهِ وبرَكاتُهُ عليكُم أهلَ البيتِ إنهُ حميدٌ مجيد** ﴾ فبكت « أم سلمة » فنظر إليها رسول الله ﷺ وسألها فى حنو : ما يبكيك ؟ ... قالت : يا رسول الله خصصتهم ، وتركتنى وابنتى . قال : إنك وابنتك من أهل البيت[2] .

وقد شبت زينب فى رعاية النبى ﷺ ، « فكانت من أفقه نساء أهل زمانها ، ويروى أنها « دخلت على النبى ﷺ وهو يغتسل فنضح فى وجهها ، فلم يزل ماء الشباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت[3] .

---

(١) من حديث عمر رضى الله عنه ، فى الإيلاء ومن تظاهرنا على النبى ﷺ : متفق عليه (اللؤلؤ : ١٢٩/٢ ح ٩٤٤) .

(٢) السمط الثمين : ٢٠ .

(٣) أخرجه ابن عبد البر وابن حجر فى ترجمة « زينب » رضى الله عنها ، بالاستيعاب والإصابة .

وبلغ من إعزازه ﷺ ربيبه « سلمة » أنْ زوّجه « أُمامةَ بنت حمزة بن عبد المطلب » عمه الشهيد رضى الله عنه .

« ويقول أهل العلم بالنسب ، إن سلمة هو الذى عقد للنبى ﷺ ، على أُمّه أم سلمة . فلما زوجه أمامة بنت حمزة بن عبد المطلب ، أقبل ﷺ على أصحابه فقال : ترون كافأته ؟[1] .

وكذلك شب أخوه عمر وأخته دُرَّة ، فى كفالة النبى ﷺ ورعايته ، فكانا مع سلمة وزينب ، من ربائبه وأهل بيته رضوان الله عليهم .

....

(١) أخرجه ابن عبد البر فى ترجمة « سلمة » بالاستيعاب . وانظر فى طبقات الصحابة : عمر بن أبى سلمة ، ودرة بنت أبى سلمة ، ربيبى النبى ﷺ .

وحيٌ ... ومشـــورَة

وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في بيت « عائشة » فتباهى بذلك ضرائرها ، حتى جاءت « أم سلمة بنت زاد الركب » فكان مما أوحى إليه وهو عندها قوله تعالى ، في سورة التوبة :

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

وفي سبب نزول الآية يروون أن النبي ﷺ ، لما غزا بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة ، وحاصرهم حتى جهدهم الحصار ، قذف الله في قلوبهم الرعب فبعثوا إلى رسول الله أن يرسل إليهم صاحبه « أبا لبابة بن عبد المنذر الأنصاري » ليستشيروه في أمرهم . فأرسله إليهم ، فلمَّا رأوه قام إليه الرجال ، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه ، فرق لهم .

وسألوه : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

فأجاب : « نعم ، إنه الذبح » . وأشار بيده إلى حلقه .

فما زالت قدماه من مكانهما حتى عرف أنه خان الله ورسوله .

وانطلق على وجهه ، فربط نفسه إلى عمود من عمد المسجد ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت . وعاهد الله : أن لا أطأ بني قريظة أبدا ، ولا آوى في بلدٍ خُنتُ الله ورسوله فيه أبداً » .

قال ابن هشام :

« ... أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال ، تأتيه امرأته في كل وقتِ صلاةٍ فتحله للصلاة ، ثم يعود فيرتبط بالجذع ... »

قال ابن إسحاق : فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، وكان قد استبطأه ،

قال : « أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » ثم روى ابن إسحاق بسنده ، أن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحَر وهو فى بيت أم سلمة ، فقالت ، وقد سمعْته يضحك ، قلتُ :

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

قال : « تيبَ على أبى لبابة » .

قلت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟

فقال : « بلى ، إن شئتِ » .

فقامت على باب حجرتها ، وذلك قبل أن يضرب الحجاب على أمهات المؤمنين ، فقالت : يا أبا لبابة ، أبشر فقد تاب الله عليك .

فثار الناس ليطلقوه ، فأبى وقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده .

فلما مر رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه[1] .

* * *

وفى تفسير البخارى لسورة التوبة من حديث كعب بن مالك الأنصارى ـــ أحد الثلاثة الذين خُلِّفوا وتيب عليهم ، رضى الله عنهم ـــ قال : فأُنزل الله من توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة فى شأنى معنية فى أمرى ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سلمة ، تِيب على كعب » قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ الحديث بطوله[2] .

---

(١) السيرة ٣٤٦/٣ ـــ والنقل منها ـــ وتاريخ الطبرى ، السنة الخامسة من الهجرة ٥٤/٣ ، وعيون الأثر ٢ / ٧٠ من طريق ابن إسحاق . مع ترجمة أبى لبابة بن عبد المنذر فى الكُنى من الاستيعاب . ومن الإصابة .

(٢) صحيح البخارى : ك التفسير ، سورة التوبة . مع (فتح البارى ٢٣٨/٨) .

فى (الصحيحين) من فضائلها رضى الله عنها ، حديث أسامة بن زيد ، رضى الله عنهما ، أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ وعنده أم سلمة ، فجعل يحدث ثم قام ... » الحديث ، بطوله[1] .

* * *

فى العام السادس للهجرة ، صحبت « أم سلمة » النبى ﷺ فى رحلته إلى « مكة » معتمرا ، وهى الرحلة التى صدت فيها قريش « محمدا » وأتباعه عن دخول البلد الحرام ، وتم عهد الحديبية .

وكان « لأم سلمة » رضى الله عنها يومئذ دور جليل مذكور فى تاريخ الإسلام .

ذلك أن الصحابة دخل عليهم أمر عظيم حين بلغهم نص العهد ، ظنا منهم أنه بخس المسلمين حقهم وهم المنتصرون الغالبون . ويكفى أن نذكر من ذلك أنه لما التأم الأمر بالاتفاق على شروط الصلح ، ولم يبق إلا كتابته والإشهاد عليه ، جاء عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال : « بلى » فقال : أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ؟ قال : « بلى » قال : فعَلامَ نُعطِى الدنِيَّةَ فى ديننا ؟ أنرجع ولَمَّا يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : « ابنَ الخطاب ، إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا » فانطلق عمر إلى أبى بكر فقال له مثل ما قال للنبى ﷺ ، فقال : إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا . فنزلت سورة الفتح فقرأها رسول الله ﷺ ، على عمر إلى آخرها ، فقال عمر : يا رسول الله ، أوَ فتح هو ؟ قال : « نعم »[2] .

---

(١) متفق عليه من حديث أسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ والمرجان ، من فضائل أم سلمة رضى الله عنها : ح ١٥٩٤) .

(٢) متفق عليه من حديث أبى وائل شقيق بن سلمة ، عن سهل بن حنيف رضى الله عنه . والنقل من (اللؤلؤ والمرجان ، باب صلح الحديبية (ح : ١١٦٨) .

ورواه ابن إسحاق من حديث الزهرى ، بإسناده ، فى السيرة (٣/٣٣١) بتقديم وتأخير . واليعمرى فى عيون الأثر (٢/١١٩) من طريق ابن إسحاق .

فى رواية معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، رضى الله عنهما ، فى قضية الحديبية : أنه : (لما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته ، قال لأصحابه : « قوموا فانحروا ثم احلقوا » فما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على زوجه « أم سلمة » فذكر لها ما لقى من الناس فقالت : يا نبى الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بَدنتك وتدعو حالقك فيحلقك . فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك : نحرَ بَدنته ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً)[1] .

قال الحافظ ابن حجر فى ترجمتها بالإصابة : « وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب . وإشارتها على النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يوم الحديبية ، تدل على وفور عقلها وصواب رأيها » .

وثاب المسلمون إلى عقولهم بعد أن غلبتهم عليها عواطفهم ، فأدركوا أى صلح خطير عقد النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنه ما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، فلقد دخل فى دين الله بعد الحديبية ، مثل من كان قبل ذلك وأكثر .

فكان عمر رضى الله عنه يقول : ما زلتُ أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق ، مخافة كلامى الذى تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيرا »[2] .

* * *

وكذلك صحبت « أم سلمة » النبى ﷺ فى غزوة خيبر ، وفى فتح مكة ،

---

(١) صحيح البخارى (ك الشروط ، باب الشروط فى الجهاد) وهى رواية عبد الرزاق عن معمر ، فى (المصنف ، ك المغازى ، باب الحديبية) .

(٢) ابن إسحاق عن الزهرى ، فى أمر الهدنة بالسيرة (٣/٣٣١) . مع صحيح البخارى : ك الشروط .

وفى غزو هوازن وثقيف ، وحصار الطائف ، ثم فى حجة الوداع ، سنة عشر من الهجرة .

ولا أعلم أنها ظاهرت السيدة عائشة على نساء النبى ﷺ ، إلا ما كان من غيرتها من « مارية القبطية » حين حملت من سيد البشر ، ولم تحمل منه أم سلمة وهى التى ولدت لابن عمته البنين والبنات .

فلما لطف الله بها ، وبسائر أمهات المؤمنين بعد محنة اعتزال النبى ﷺ إياهن ، ساد الهدوء الجو العام للبيت المحمدى . إلى أن مرض عليه الصلاة والسلام ، واستبطأ يوم عائشة ، فسمحت أم سلمة وسائر أمهات المؤمنين ، عن طيب خاطر ، بأن يُمرض حيث أحبَّ ، فى بيت عائشة .

* * *

اللهُ مِن وَرَاء هَذِه الأمّة

ثم حاولتْ من بعده ، ﷺ ، أن تتجنب الخوض فى الحياة العامة ، إلى أن كانت الفتنة الكبرى فآزرت أمير المؤمنين الإمام عليًّا ، ابن عم النبى صلى الله عليه وعلى آله ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبا الحسن والحسين . رضى الله عنهم .

وودت لو تخرج فتنصره ، لكنها كرهت أن تبتلى وهى أم المؤمنين بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « عليا » كرم الله وجهه وقدمت إليه ابنها عمر قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنك لا تقبله منى ، لخرجتُ معك . وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك »[1] .

ثم مضت إلى « عائشة » فقالت لها فى إنكار :

« أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ ... الله من وراء هذه الأمة ! .. لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لى : ادخلى الفردوس ، لاستحييت أن ألقى محمدًا هاتكة حجابا قد ضربه علىَّ » .

* * *

وتقدم العمر بأم سلمة حتى امتُحنت ، كما امتحن الإسلام وأمته ، بمذبحة « كربلاء » ومصارع الإمام الحسين وآل البيت ، على الساحة المشئومة .

---

(١) شهد عمر بن أبى سلمة رضى الله عنهما يوم الجمل مع الإمام على ، كرم الله وجهه واستعمله على فارس والبحرين (الاستيعاب والإصابة) .

« توفيت رضى الله عنها بعدما جاءها نعى الحسين بن على رضى الله عنهما » على ما صح عند الحافظ ابن حجر ، وحكاه فى ترجمتها بالإصابة وتهذيب التهذيب عن أبى بكر بن أبى خيثمة وابن حبان . وحكاه القاضى عياض عن ابن أبى خيثمة وابن عبد البر . وهو أيضاً ما أثبته ابن حبيب . خلافا لقول الواقدى بوفاتها سنة تسع وخمسين[1] وردَّه الحافظ ابن حجر ، فى الإصابة .

وصلى عليها « أبو هريرة » رضى الله عنه وشيع المسلمون إلى البقيع ، أم سلمة بنت زاد الركب ، آخر من مات من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

* * *

حديثها عن النبى ﷺ فى الكتب الستة . وفيها كذلك ما روى ابنها سلمة وبنتها زينب ، ربيبا النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم[2] .

كما روى عنها مكاتبُها نبهان ، وأخوها عامر بن أبى أمية المخزومى ، وابنُ أخيها مصعب بن عبد الله بن أبى أمية ... وخيْرة أم الحسن البصرى ، وسليمان ابن يسار ، وأسامة بن زيد ، وهند بنت الحارث الفراسية ، وصفية بنت شيبة ، وأبو عثمان النهدى وحميد الطويل وعروة بن الزبير ، وكريب مولى عبد الله ابن عباس ، فى كثرة من حُفَّاظ التابعين . . .

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد : ٩٦/٨ ومعه الإصابة ، وتهذيب التهذيب (٤٥٦/١٢ : هند بنت أبى أمية المخزومية) وصحيح مسلم ، هامش (٢٢٠٨/٤) مقابلا على الاستيعاب ١٩٢٨/٤ .

(٢) تراجم : هند بنت أبى أمية ، وعمر بن أبى سلمة ، وزينب بنت أبى سلمة ، رضى الله عنهم فى الإصابة وتهذيب التهذيب . وطبقات ابن سعد .

(٧)

زينب بنت جَحْش

أكرمُهنَّ وليًّا وسَفِيراً

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ صدق الله العظيم

سورة الأحزاب : ٣٧

« ولم أرَ امرأةً قط خيرًا فى الدين من زينبَ وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يُتصدق به ويُتقرب به إلى الله عز وجلّ »

السيدة عائشة ، أم المؤمنين

(صحيح مسلم : ك الفضائل)

شـــريفة ومَولىٰ

حين دخلت « أم سلمة » بيت النبى ﷺ وتحدثت « عائشة » إلى « حفصة » عما تجد من لواذع الغيرة لما سمعت من جمال العروس ، لفتتها « حفصة » إلى أنها على جمالها كبيرة السن ، ثم أوصتها أن تستبقى غيرتها لمن هى أولى .

وكأنما كانت « حفصة » تنطق بظهر الغيب ، فما مضى على زواج النبى ﷺ من « أم سلمة » غير عام أو بعض عام ، حتى دخلت بيته ﷺ من هى أولى بغيرة عائشة :

« زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسدية » الشابة الشريفة الحسناء ، من بنى أسد بن خزيمة المضرى ، وحفيدة عبد المطلب بن هاشم ، أمها « أميمة بنت عبد المطلب » عمة النبى ﷺ .

* * *

ولو كانت « زينب » قد جاءت معتزة بجمالها وشبابها وقرابتها للنبى ﷺ فحسب ، لكانت بهذا كله كفيلة بأن تثير غيرة من فى بيته من أزواج ، فكيف وقد كان زواجها بأمر الله تعالى [1] فى القرآن الكريم ؟

ولا نعرف من بين أمهات المؤمنين من شغل زواجها المجتمع المدنى مثل « زينب بنت جحش » ، ذلك لما سبق هذا الزواج ، وأحاط به ، من ظروف خاصة ، وما أثاره من شبهة حسمها الوحى .

---

(١) ترجمتها فى : طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة وتهذيب التهذيب . والمحبر لابن حبيب : ٨٥ ، والسيرة الشامية ٣٩٨/٤ ، والسمط : ١٠٧ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ مع : نسب قريش ١٩ ، وجمهرة الأنساب ١٨٠ .

ولبيان هذا لا بد من استطراد يسير ، نرجع به إلى ما قبل المبعث ، حين رجع « حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى » من تجارة له ، ومعه رقيق ، فيهم غلام فى الثامنة يدعى زيدا .

وما كان « زيد » عبدا ، بل هو « زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب الكلبى » من كلب بن وبرة القضاعى القحطانى ، من بنى زيد اللات ، خرجت به أمه « سعدى بنت ثعلبة » لتزيره أهلها بنى معن بن طيىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر ، فباعوه بسوق من أسواق العرب ، وكان حكيم ابن حزام بن خويلد الأسدى ، هو الذى اشتراه .

وجاءت « خديجة » — وهى يومئذ زوج سيدنا محمد بن عبد الله — تزور ابن أخيها ، فعزم عليها أن تختار من شاءت من الغلمان ، فأخذت « زيداً » ورآه سيدنا « محمد » فاستوهبه منها فوهبته له راضية[1] .

وكان أبوه « حارثة بن شُراحيل » قد جزع عليه أشد الجزع ، وخرج يلتمسه حتى سمع بمكانه فى مكة ، فانطلق مع أخيه « كعب » حتى وقفا على محمد بن عبد الله ، حيث وجداه فى البيت العتيق ، فقالا له :

« يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم جيران الله ، تفكون العانى وتطعمون الجائع ، وقد جئتك فى ابننا ، فتحسن إلينا فى فدائه ؟ »

قال : « أو غير ذلك ؟ »

قالا : « ما هو ؟ » .

أجاب : « أدعوه وأُخَيِّره ، فإن اختاركما فذاك ، وإن اختارنى فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً » .

قالا : « قد زدتَ على النصفة » .

---

(١) هذه رواية السيرة : ٢٦٤/١ وتاريخ الطبرى ٢١٥/٢ وترجمة زيد فى الاستيعاب (٥٤٤/٢) وطبقات ابن سعد (٤٠/٣) ومعها رواية أخرى أن حكيم بن حزام اشتراه لعمته من سوق عكاظ بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها سيدنا محمد وهبته له فأعتقه وتبناه قبل المبعث . وقريب منه ، ما فى السمط الثمين (١٨٠) .

ودُعَى زيد ، فعرف أباه وعمه ، وخَيَّره سيدنا محمد : إن شاء ذهب معهما ، وإذا أحب أقام معه .

فاختار سيده !

وتوسل إليه أبوه :

« يا زيد ، أتختار العبودية على أبيك وأمك ، وبلدك ، وقومك ؟ »

فتماسك « زيد » ليجيب :

« إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ، وما أنا بالذى أفارقه أبدا » .

فعند ذلك أخذ محمد بيده ، وقام به إلى الملأ من قريش فأشهدهم أنْ زيدا ابنه وارثا وموروثا .

ودعى الغلام « زيد بن محمد » .

وغداة ليلة القدر ، كان زيد فى الأربعة الأولين السابقين إلى الإسلام .

وعندما آخى النبى ﷺ بين أصحابه المهاجرين ، كان زيد وحمزة بن عبد المطلب الهاشمى ، أخوين .

فلما بلغ « زيد » سن الزواج ، اختار له النبى عليه الصلاة والسلام بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب : « زينب بنت جحش » .

وكرهت زينب ، وكره أخوها « عبد الله بن جحش » أنْ تزف الشريفة المضرية إلى مولى ، رغم أصله العربى الصريح أبًا وأمًّا . حتى نزل فيهما قوله تعالى : ﴿ **ومَا كَانَ لمؤمنٍ ولَا مؤمنةٍ إذا قضَى اللَّهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهمُ الخِيَرةُ مِن أمرِهم ، ومَن يعصِ اللَّهَ ورسولَهُ فقد ضَلَّ ضلالًا مبينًا** ﴾[1] .

وتزوجت « زينب » زيدا ... طاعةً لأمر الله ورسوله ، وإلزاما بالمبدأ الإسلامى : لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٦ .

زواجٌ بأمرِ الوَحْى

لكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما ، فما نسيت « زينب » قط أنها الشريفة لم يجر عليها رق ، ولا أساغت أن تكون تحت مولى كهذا ، دخل بيت آلها رقيقا !

وقاسى « زيد » من صدها وترفعها ما جعله يشتكى إلى النبى ﷺ غير مرة ، ما يجد من سوء معاملة زينب ، فكان يوصيه بمزيد من الصبر والاحتمال ، حتى أذن الله تعالى ففارقها زيد ، وتزوجها ابن خالها ، صلى الله عليه وسلم ، بأمر الوحى .

وفى طلاقها ثم زواجها ، مرويات شتى ما كنت لأتشاغل بها ، لولا أنها عُزِيت بأُخَرَة إلى من خاضوا فيها من أعداء الإسلام ، من المبشرين والمستشرقين . وصُرِفتْ عن الرواية الإسلامية ، وكأن فيها ما يريب !

فى رواية لابن سعد والطبرى من طريق الواقدى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء بيت زيد يطلبه فلم يجده ، وقامت إليه زينب فُضُلا فأعرض صلى الله عليه وسلم عنها ، فقالت : ليس هو ها هنا يا رسول الله فادخل بأبى أنت وأمى . وأبى رسول الله أن يدخل . وإنما عجِلتْ إليه زينب لما قيل لها : رسول الله صلى الله عليه وسلم على الباب ، فولّى وهو يهمهم بشىء لا يكاد يُفهَم منه ، إلاّ أنه ربما أعلن : « سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب » وجاء زيد إلى منزله فأخبرته امرأته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى منزله . فقال زيد : ألا قلتِ له أن يدخل ؟ قالت : قد عرضتُ عليه فأبى .. فخرج زيد حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول

الله ، بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلاّ دخلت بأبى أنت وأمى .. ؟ ثم سأله ، كما كان يسأله من قبل : فأفارقها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أمسِكْ عليكَ زوجَك » فما استطاع زيد مع زينب صبرا ، فكان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره ، فيقول له : « أمسك عليك زوجك » ..[1]

وفى رواية أخرى للطبرى ، من طريق يونس بن عبد الأعلى ، الصدفى المصرى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرج يوما يريد زيدًا ، وعلى الباب سِتْر من شعر ، فرفعت الريح الستر وزينب فى حجرتها ، وانصرف صلى الله عليه وسلم ، لم يدخل . فجاءه زيد فقال : يا رسول الله ، أريد أن أفارق صاحبتى . فقال : « ما لَكَ ؟ أرابَكَ منها شىء ؟ فقال : لا والله يا رسول الله ، ما رابنى منها شىء ولا رأيتُ إلا خيرا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمسكْ عليك زوجك واتَّقِ الله » فذلك قول الله عز وجل :

﴿ وإذْ تقولُ لِلَّذِى أنْعَمَ اللهُ عليهِ وأنْعمْتَ عليهِ أمْسِكْ عليكَ زوجَكَ واتَّقِ اللهَ ، وتُخفِي فى نفسِكَ ما الله مُبْدِيه ﴾[2] ..

وتأول « الزمخشرى » الآية ، من سورة الأحزاب فنحا بها منحًى صريح الاعتزال ، على ما يأتى فى موضعه من هذا العرض ..

هل يجدى أن نقذف بهذه المرويات جملة ونرمى بها المستشرقين والمبشرين ، ونحملها على زور مفترياتهم ، مع وجودها مدونة فى كتب إسلامية مبكرة ، كطبقات ابن سعد ، ومحبر ابن حبيب ، وتاريخ الطبرى ومعجم الطبرانى وكشاف الزمخشرى ؟!

أغلب الظن أن « الدكتور محمد حسين هيكل » لم يقف على هذه المرويات ، فذهب إلى أنها ــ يقينا ــ من مفتريات المستشرقين والمبشرين :

---

(١) طبقات ابن سعد (١٠١/٨) والنقل منه ، وتاريخ الطبرى ، السنة السادسة (٤٢/٣ ط أولى ، حسينية) من طريق الواقدى ، ونحوه فى المحبر (٨٥) والسمط ١٠٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤٣/٣ . والنقل منه ، والطبرانى فى زوائده بمجمع نور الدين الهيثمى .

« الذين أضفوا عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووله ، وأنه يكفى لهدم كل القصة من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه ، هى ابنة عمة رسول الله عليه الصلاة والسلام .. و .. وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا ، قبل أن تتزوج زيدا .. وأنه الذى خطبها على زيد مولاه . إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص : من أنه مرَّ ببيت زيد ولم يكن فيه فرأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان الله مقلب القلوب . أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار على غرفة زينب فألفاها فى قميصها وكأنها مدام ريكاميه . فانقلب فجأة ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت مخزوم وأم سلمة » .(1)

وكان يكفى الدكتور هيكل القول بأن هذا الزواج لم يدفع إليه ميل ولا عاطفة ، وإنما أراد أن يأتمر بكم الله فيما أبطل من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء ، ثم أشفق مما يمكن أن يقول الناس فى خرقه لعادة لهم قديمة متأصلة ، فلم يرضَ له الله أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه .(2)

لكنه أضاف :

« أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقاصيص التى يكررها المستشرقون والمبشرون .

« ولكنها شهوة التبشير المكشوف تارة ، والتبشير باسم العلم أخرى ، والخصومة القديمة للإسلام تأصلت فى النفوس منذ الحروب الصليبية ، هى التى تملى على هؤلاء جميعا ما يكتبون »(3)

ولا حيلة لنا فى عزو هذه المرويات إلى المبشرين ، مع وجودها فى كتب لقدامى المؤرخين والمصنفين والمفسرين المسلمين ، مطبوعة متداولة بين

---

(1) حياة محمد : ٢٩١ : وقوله « زينب بنت مخزوم » فيه وهم ، فهى بنت خزيمة الهلالية ولم تدرك زواج زينب بنت جحش ، بل توفيت قبله بزمن .

(٢ — ٣) حياة محمد ، صلى الله عليه وسلم : ٢٩٢-٢٩٤ .

الدارسين والقراء . لهذا قدَّرتُ أن فحص هذه المرويات ونقدها ، إسنادًا ومتنًا ، أَوْلى من إنكارها وحملها على شهوة التبشير ومفتريات الاستشراق .

رواية الواقدى ، فى طبقات ابن سعد ، عن الستر الذى حركته الريح ، قال فيها الحافظ ابن حجر : « وسنده ضعيف »[1]

وهى عند الطبرى من طريق الواقدى ، ومعها الرواية الأخرى من طريق ابن عبد الأعلى الصدفى ، وكلتاهما من مراسيل التابعين . وقد اقتصر الطبرى على ذكرهما فى (تاريخه) ولم يشر إليهما فى (تفسيره) لسورة الأجزاب .

وما رواه الطبرانى ، خرجه نور الدين الهيثمى من زوائده قال : « بسند مرسل ، وفى بعض رجاله ضعف »[2]

وتأوُل الزمخشرى مشوب بمنحى المعتزلة ، قال : « فإن قلت : ما الذى أخفى فى نفسه ؟ قلتُ : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها . فإن قلت : كيف عاتبه الله فى ستر ما استهجن التصريح به ؟ .. قلتُ : كم من شىء يحتفظ منه الإنسان ويستحى من اطلاع الناس عليه وهو فى نفسه مباح متسع وحلال مطلق ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ... لأن طموح قلب الإنسان إلى بعض مشتهياته غير موصوف بالقبح فى العقل ولا فى الشرع ، لأنه ليس بفعل الانسان ، ولا وجوده باختيار »[3] .

وذلك ، منه ، صريح اعتزال .

قال القاضى عياض :

« ... فإن قلتَ : فما معنى قوله تعالى فى قصة زيد : ﴿ **وإذ تقولُ لِلّذى أنعم اللهُ عليه وأنعمتَ عليه أمسِكْ عليكَ زوجَك** ﴾ .. الآية ، فاعلم أكرمَكَ الله ، ولا تسترب فى تنزيه النبى ﷺ من هذا الظاهر ، وأن يأمر زيدًا

---

(١) فتح البارى : ٣٢١/١٣ ط أولى .

(٢) مجمع الزوائد : ٢٤٧/٩ ط بيروت .

(٣) تفسير الكشاف : سورة الاحزاب جـ ٢٣٧/٣ ط التجارية .

بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها كما ذكر عن جماعة من المفسرين . وأصحُّ ما فى هذا ما حكاه أهل التفسير عن على بن حسين ، أن الله تعالى كان أعلَمَ نَبِيَّه أن زينب ستكون من أزواجه ، فلما شكاها إليه زيد قال له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » ، وأخفى منه فى نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها ، مما اللهُ مُبديه ومُظهره بتمام التزويج وطلاق زيد لها . وروى نحوَه عمرو بن فائد — الأسوارى — عن الزهرى .. ويوضح هذا أن الله لم يُبدِ من أمره معها غير زواجه لها ، فدلَّ أنه الذى أخفاه ﷺ .. ولو كان على ما رُوِى فى حديث قتادة من وقوعها فى قلب النبى ﷺ عندما أعجبته ، ومحبته طلاق زيد لها ، لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مدّ عينيه لما نُهِىَ عنه من زهرة الحياة الدنيا . ولكان هذا نفس الحسد المذموم الذى لا يرضاه ولا يتسم به الأتقياء فكيف سيد الأنبياء ؟ قال القشيرى : وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبى ﷺ وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته ، وهى بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ ، وهو زوَّجها لزيد ؟ وإنما جعل الله طلاق زيدٍ لها وتزويج النبى ﷺ إياها ، لإزالة حرمة التبنى وإبطال سنته ، كما قال عز وجل : ﴿ **ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالِكم** ﴾ . وقال : ﴿ **لكيلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ فى أزواجِ أدعيائهم** ﴾ وقد قيل : كان أمره لزيد بإمساكها قمعاً للشهوة وردًّا للنفس عن هواها . وهذا إذا جوَّزنا عليه أنه رآها فجأة واستحسنها . ومثلُ هذا لا نُكرةَ فيه ، لما طُبِعَ عليه ابنُ آدم من استحسانه الحسنَ ، ونظرةُ الفُجْاءة معفو عنها ، ثم قمع نفسَه عنها وأمر زيدا بإمساكها . وإنما تُنكَر تلك الزيادات التى فى القصة ، والأوْلى ما ذكرناه عن على بن حسين . وحكاه السمرقندى ، وهو قول عطاء ، واستحسنه القاضى القشيرى ، وعليه عوَّل أبو بكر بن فورَك وقال إنه معنى ذلك عند المحققين من أهل التفسير ، قال : والنبى ﷺ منزه عن النفاق وإظهار خلاف ما فى نفسه ، وقد نزهه الله عن ذلك بقوله : ﴿ **ما كان على النبىّ من حَرَجٍ فيما فَرَض اللهُ له** ﴾ .. قال : وليس معنى

الخشية هنا الخوف ، وإنما معناه الاستحياء ، أى يستحيى منهم أن يقولوا : تزوج زوجة ابنه ، وأن خشيته ﷺ من الناس ، كانت من إرجاف المنافقين واليهود وتشغيبهم على المسلمين بقولهم : تزوج زوجة ابنه بعد نهْيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان ، فعتبه الله على هذا ، ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحلهّ اللهُ له ، كما عتبه على مراعاة رضى أزواجه فى (سورة التحريم) بقوله : ﴿ **لِمَ تحرم ما أحَلَّ الله لك** ﴾ الآية . كذلك قوله له هٰهنا : ﴿ **وتخشَى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه** ﴾ .[1] .

* * *

بعد فحص النظار لما مَّر من مرويات ، ونقد القاضى عياض ــ عالم المغرب المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ــ أضيفُ من مصادرنا الموثقة ، مما صح عند حفاظنا الأئمة فى هذه القضية :

أخرج الإمام البخارى فى كتاب التوحيد من (صحيحه) حديث أنس ابن مالك رضى الله عنه ، قال : « جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبى ﷺ يقول : « اتّقِ الله وأمسِكْ عليك زوجك » قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتما شيئا لكتم هذا الحديث .

وفى تفسير آية الأحزاب : « ... وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » أسند البخارى عن أنس ، رضى الله عنه : أنها نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة » رضى الله عنهما .

وقد استوفى الحافظ ابن حجر فى هذا الموضع من كتاب التفسير بصحيح البخارى ، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته ، ثم قال : « ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبى حاتم والطبرى ، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغى التشاغل بها . والذى أوردته عنها هو المعتمد . والحاصل

---

(١) القاضى عياض : الشفا (١٦٦/٢ ــ ١٦٨) ط الحلبى ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م .

أن الذى كان يخفيه النبى ﷺ ، هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته . والذى كان يحمله على إخفاء ذلك ، خشيةُ قولِ الناس : تزوج امرأة ابنه . وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنى ، بأمرٍ لا أَبْلَغَ فى الإبطال منه ، وهو تزوج امرأةِ الذى يُدعَى ابنًا ، ووقوعُ ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم ، وإنما وقع الخبطُ فى تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم »[1]

* * *

لم يبق مجال لقول ، مع قوله عز وجل فى آية الأحزاب فى تمام سياقها :

﴿ وإذ تقولُ لِلَّذِى أنعمَ اللهُ عَليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسِكْ عَلَيْكَ زوجَكَ واتّقِ اللهَ ، وتُخفِى فى نفسِكَ مَا الله مُبْديهِ وتَخْشَى الناسَ واللهُ أحَقُّ أن تخشاهُ ، فلما قَضَى زيدٌ منها وَطَراً زوَّجناكَها لِكَىْ لا يكونَ عَلَى المؤمِنينَ حَرَجٌ فى أزواجِ أدْعِيائِهم إذَا قضَوا منهنَّ وطَرًا ، وكانَ أمرُ اللهِ مفعولًا ﴾ ـــ ٣٧ .

صدق الله العظيم

---

(١) فتح البارى ٨/٣٧١ ، وقابل على : الاستيعاب ١٨٤٩/٤ ، وتفسير الطبرى ٧٥/٢١ ، والإصابة ٩٢/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ .

وَلِيمَةٌ .. وحِجَاب

فى صحيح الحديث عن ثابت البُنانى عن أنس رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عِدَّةُ زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : « فاذْكُرْها علىَّ » فانطلق زيد حتى أتاها وهى تُخَمِّر عَجِينَها ، قال : فلما رأيتُها عظُمتْ فى صدرى حتى ما أستطيع أن أنظر إليها ، أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها . فوليتُها ظهرى ونكصتُ على عَقِبى فقلت : يا زينب ، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامِرَ ربى . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن » . قال أنس : ولقد رأيتُنا أنِ رسول الله ﷺ أطعمنا الخبز واللحم حين امتد النهار ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام . فخرج رسول الله ﷺ واتبعتهُ فجعل يتتبع حُجَر نسائه يسلم عليهن ، ويقُلْن : كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى ، أنا أخبرته أن القوم خرجوا ، أو أخبرنى ؟ فانطلق حتى دخل البيت فذهبتُ أدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب » .

وفى رواية لمسلم ، نزلت آية الحجاب : ﴿ **لا تدخُلوا بيوتَ النبِّى إلا أن يُؤْذَنَ لكم إلَى طعامٍ غيرَ ناظرين إناهُ** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **واللهُ لا يَسْتحِيى منَ الحقِّ** ﴾(١)

---

(١) صحيح مسلم : ك النكاح ، باب زواج زينب : ح ١٤٢٨/٨٩) مع حديث أنس فى المتفق عليه ، فى (اللؤلؤ ك النكاح ، ح ٩٣) وابن سعد فى ترجمتها بالطبقات من عدة طرق ، والاستيعاب والإصابة .

وعن ثابت عن أنس رضى الله عنه ، قال : ما رأيتُ رسول الله ﷺ أوْلَم على امرأة من نسائه ما أوْلم على زينب ، فإنه ذبح شاة »[1] .

وفى (الصحيحين) عن أنس رضى الله عنه ، أن أُمَّه « أم سليم الأنصارية » عمدت إلى تمر وسمن وأَقِط فاتخذت طعاما فى بُرْمة ، فأرسلت بها معه إلى النبى ﷺ ، هديةً له يوم عرسه بزينب . فانطلق بها أنس فأمره ﷺ أن يضعها ، وأن يدعو رجالا سماهم ، قال : « وادعُ لى من لقيت » . قال أنس : ففعلت الذى أمرنى ، فرجعت فإذا البيت غاصٌّ بأهله ، فرأيت النبى ﷺ وضع يديه على تلك الحَيْسَة ـــ الطعام ـــ وتكلم بها ما شاء الله ، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم : « اذكروا اسم الله وليأْكلْ كل رجل مما يليه » حتى تصدعوا جميعا فخرج منهم من خرج وبقى نفر يتحدثون » .. الحديث بطوله ، وفيه أنه ﷺ لما رجع وأرخى الستر سمعه أنس يتلو :

﴿ يـٰأيها الذينَ آمنوا لاَ تدخُلوا بيوتَ النبِّى إلا أن يُؤذنَ لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرِينَ إناهُ ، ولـٰكن إذا دُعِيتُمْ فادخُلوا ، فإذا طَعِمتُم فانْتِشروا ، ولاَ مُسْتأنِسينَ لحديثٍ ، إنَّ ذٰلكم كانَ يؤذِى النبَّى فيستَحْيِى منكم ، واللّهُ لا يستحيِى منَ الحقِّ ﴾[2] الآية .

ومن يومئذ ، فُرض الحجاب على نساء النبى ، وعلى المؤمنات جميعا ، آية تصوُّنٍ وعزةٍ ، وسمةَ كرامةٍ وترفُّعٍ عن الابتذال ...

* * *

كانت العروس يوم تزوجها النبى ﷺ فى السنة الخامسة على أرجح

---

(١) مسلم ، ك النكاح (ح ٩٠) .

(٢) الحديث متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه . واللفظ من (اللؤلؤ والمرجان : ك النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس) والآية من سورة الأحزاب : ٥٣ .

الأقوال ، بنت خمس وثلاثين سنة .(١)

وكان اسمها « بَرَّة » فسماها ﷺ زينب ، وفى (الصحيحين) حديث زينب بنت أبى سلمة ، ربيبة النبى ﷺ ، قالت رضى الله عنها :

« كان اسمى برَّة ، فسمانى رسول الله ﷺ زينب . ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمُها بَرَّة ، فسماها زينب »(٢) .

* * *

(١) الإصابة ، عن الواقدى : ٩٣/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٤/٢ .

(٢) متفق عليه واللفظ من صحيح مسلم ١٦٨٧/٣ : ح (٢١٤٢) مع (اللؤلؤ والمرجان ٤٧/٣) .

أكرمُهنّ وَليًّا وسَفِيرًا

ودخل محمد ﷺ ببنت عمته ، التى زوجه إياها الله تعالى .

وباتت « عائشة » ليلتها فريسة الغيرة ، قد أخذها — فيما قالت — « ما قَرُب وما بعُد ، لما تعرف من جمال زينب ، ولما هى حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها » .

وكذلك غارت نساء النبى رضى الله عنهن ، وضقن بهذه العروس الجديدة : تعتز بجمال وشرف وقربى من رسول الله ﷺ ، وبأن الله هو الذى زوجها .

وفى حديث أنس ، رضى الله عنه ، بكتاب التوحيد من صحيح البخارى ، قال : « ... فكانت زينب تفخر على أزواج النبى ﷺ ، تقول : زوجكن أهاليكن ، وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات »[١]

وفى رواية ، قالت : « أنا أكرمُكن وليا ، وأكرمكن سفيرا : زوجكن أهلكن ، وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ! »[٢]

وعدّ ابن حبيب زواجها ، فى مناقب قومها بنى أسد[٣] .

وإذا كانت « أم سلمة » قد سرها أن ترى أثر دخولها على عائشة ، الزوج المفضلة ، فلا ريب أن زينب قد أرضاها أن تجىء فتتقدم « أمَّ سلمة » ، غريمة لعائشة !

---

(١) معه (فتح البارى : ٣٢/١٣) .
(٢) طبقات ابن سعد : ٧٣/٨ ، المحبر ٨٦ ، الاستيعاب ، الإصابة ، عيون الأثر .
(٣) المحبر : ٨٦ .

ولم تكتم عائشة غيرتها من زينب ، كما لم تكتمها من أم سلمة ، بل اعترفت بأنهما : « كانتا أحب نسائه إليه ـــ فيما أحسب ـــ بعدى » .

ثم تؤثر زينب وحدها بمنافستها فى الحظوة فتقول : « لم تكن واحدة من نساء النبى تناصينى غير زينب »(١) .

أى تنازعنى وتبارينى ، من قولك : ناصيت فلانا اذا أخذت بناصيته ونازعته .

وقد مر بنا ما كان من ضيق « عائشة » بميله ﷺ إلى زينب « وإطالته المكث لديها » ثم تآمرها مع حفصة وسودة ، أيتهن دخل عليها ﷺ إثر انصرافه من عند زينب ، فلتقل له : « إنى أجد ريح مغافير »(٢) .

وكان يحدث أحيانا أن تحتد بينهما المنافسة فى حضرته ﷺ ، فيدعهما وشأنهما لعل فى هذا راحة لهما وتنفيسا عن مشاعرهما . وقد استطاعت « عائشة » مرة أن تغلب « زينب » فما زاد ﷺ على أن تبسم وقال :

« إنها ابنة أبى بكر »(٣) .

....

وحدث مرة أخرى ، أن أفلت لسان « عائشة » بكلمة غضب لها المصطفى ، فقد تلقى هدية وهو فى بيتها ، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها . لكن زينب ردَّت ما جاءها ، فلم تملك عائشة أن قالت كلمة جارحة ، فقام عنها ، ﷺ ، مغضبا .(٤)

* * *

---

(١) السيرة ٣١١/٣ ، الاستيعاب ، الإصابة .

(٢) حديث العسل والمغافير متفق عليه (اللؤلؤ ١٢٧/٢) وقد مرَّ ، مع : السيدة عائشة ، والسيدة حفصة رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه البخارى فى المناقب ، ومسلم فى باب فضائل السيدة عائشة رضى الله عنها (ح : ٤٤٢)

(٤) طبقات ابن سعد : ١٨٨/٨ ، والسمط الثمين : ٤٠ ، وانظر فيه (فتح البارى ٢٣٢/٩) .

وأطولُهنَّ يـدًا

على أن هذه الخصومة المحتدمة بين الزوجتين الأوليين ، لم تمنع « زينب » من الدفاع عن « عائشة » فى محنة الإفك ، وقد ذكرت لها عائشة هذا الموقف النبيل فقالت فى رواية ابن إسحاق من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها :

« وكان كِبر ذلك — الإفك — عند عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول فى رجال من الخزرج ، مع الذى قال مسطح وحمنة بنت جحش . وذلك أن أختها زينب كانت عند رسول الله ﷺ ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصينى فى المنزلة عنده غيرها ... فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلا خيرا ، وأما حمنة بنت جحش فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارنى لأختها ، فشقيتْ بذلك »[1] .

وفى رواية عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال لزينب : « ماذا علمتِ أو رأيت ؟ » قالت : يارسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكتْ فيمن هلك . »[2]

أجل عصمها الله تعالى بدينها ، وقد كانت « زينب » رضى الله عنها صالحة تقية ، ورعة . .

---

(١) السيرة ٣ / ٣١٢ ، مع حديث الإفك ، رواية الزهرى ، فى الصحيحين .
(٢) متفق عليه ، والنقل من اللؤلؤ ، ك التوبة : ح ١٧٦٣ .

شهدت لها بذلك غريمتها السيدة عائشة فقالت :

« ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل »[1] .

وأسند أبو عمر فى الاستيعاب عن عبد الله بن شداد الليثى أن رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب : « إن زينب بنت جحش أواهة » فقال رجل : يا رسول الله : ما الأواه ؟ ...

قال : الخاشع المتضرع . ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿ **إنَّ ابراهيمَ لَحليمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ** ﴾[2] .

وكانت كذلك كريمة خيرة ، تصنع بيديها ما تحسن صنعه ثم تتصدق به على المساكين ، عيال الله الذى أكرمها وأعزها ، وآثرها بما لم يؤثر به زوجة سواها .

* * *

وألغى موت محمد ﷺ ، ما بين « زينب » وبين ضرائرها من التنافس فى زوجهن الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فلم يعدن يذكرن إلا أنها كانت له ﷺ زوجا حبيبة ، وللمؤمنين أما رحيمة ، ولربها عابدة قانتة .

ذكرتْها « أم سلمة » فترحمت عليها وذكرت ما كان يكون بينها وبين « عائشة » ثم قالت :

« كانت زينب لرسول الله ﷺ معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة صوامة ، صناعا وتتصدق بذلك كله على المساكين » .

وسُمعت « عائشة » تقول حين بلغها نعى « زينب » :

---

(١) صحيح مسلم ، ح : (٢٤٥٢) ، والاستيعاب ، والمسمط ١١٠ ، والإصابة .

(٢) الاستيعاب ، والآية من سورة هود : ٧٥ .

« لقد ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل » .

فى (الصحيحين) من حديث عائشة رضى الله عنها ، أن بعض أزواج النبى ﷺ قلن للنبى ﷺ : أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : « أطولكن يدا » فأخذوا قصبة يذرعونها ، فكانت سودة أطولهن يدا . فعلمنا بعدُ أنما كانت — زينب — طول يدها الصدقة وكانت أسرعنا لحوقا به وكانت تحب الصدقة » .

وفى رواية عن السيدة عائشة ، قالت :

« قال رسول الله ﷺ : أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا ...

« فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ، ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى ﷺ إنما أراد طوال اليد بالصدقة ، وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز ، وتتصدق فى سبيل الله »[1] .

وفى الصحيح أن « عمر بن الخطاب : أمير المؤمنين » أرسل إليها عطاءها اثنى عشر ألفاً ، فجعلت تقول : « اللهم لا يدركنى هذا المال فى قابل ، فإنه فتنة »[2] .

ثم قسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ « عمرَ » ذلك ، فوقف ببابها وأرسل إليها بالسلام وقال :

« بلغنى ما فرقتِ ، فأرسل ألف درهم تستبقينها » .

وأرسل الألف ، فتصدقت بها جميعا ، لم تبق منها درهما .

وحين حضرتها الوفاة — سنة عشرين —[3] قالت :

---

(١) طبقات ابن مسعد : ٨ / ١٠٨ السمط الثمين : ص ١١٠ . والاستيعاب : ٤ / ١٨٥١ والإصابة ٨ / ٩٣ عن الواقدى .

(٢) فى ترجمتها : الاستيعاب والإصابة . وأخرجه مسلم بلفظ مقارب ، فى كتاب فضائل الصحابة : ح (٢٤٥٢) ومعه طبقات ابن سعد : ٨ / ١١٠ .

(٣) الإصابة عن الواقدى ، والسمط الثمين ١١١ ، مع طبقات ابن سعد : ٨ / ١٠٩ .

« إنى قد أعددت كفنى ، وان عمر أمير المؤمنين ، سيبعث إلىَّ بكفنٍ ، فتصدقوا بأحدهما . وإن استطعتم أن تتصدقوا بحقوى — إزارى — فافعلوا »(١)

* * *

وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وشيع أهل المدينة إلى البقيع ، أم المؤمنين زينب بنت جحش ، أول من مات من نساء النبى ﷺ بعده ، وأسرعهن لحاقا به . وازدحموا على نعشها : روى ابن سعد من طريق الواقدى بسنده عن عبد الله بن أبى سليط الحجازى التابعى ، قال : رأيتُ أبا أحمد بن جحش يحمل سرير زينب بنت جحش — أخته — وهو مكفوف وهو يبكى . فأسمعُ عمرَ يقول : يا أبا أحمد . تنحَّ عن السرير ، لا يُعَنِّكَ الناسُ . وازدحموا على سريرها — فقال أبو أحمد : يا عمر ، هذه التى نِلْنَا بها كل خير ، وإن هذا يبرد حَرَّ ما أجد . فقال عمر : الزمْ ، الزمْ . »(٢)

وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، قال : رأيت عمر بن الخطاب سنة عشرين فى يوم صائف ، ورأيت ثوبا مُدَّ على قبرها ، وعمر جالس على شفير القبر ، معه أبو أحمد ذاهب البصر . وعمر بن الخطاب قائم على رجليه ، والأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، قيام على أرجلهم . »(٣)

« وعن الشعبى أنه صلَّى مع عمر على زينب ، وكانت أول نساء النبى ﷺ موتا — بعده ، وكان عمر يعجبه أن يدخلها فى قبرها ، فأرسل إلى أزواج النبى ﷺ : من يدخلها فى قبرها ؟ فقلن : من كان يراها فى حياتها فليدخلها فى قبرها »(٤)

* * *

---

(١) فى رواية انها توفيت سنة احدى وعشرين ، عام فتح العرب للاسكندرية (الاستيعاب ٤ / ١٨٥٢) والإصابة ٨ / ٩٤ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ .

(٢ — ٣) طبقات ابن سعد : ٨ / ١١٣ .

(٤) « ورواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح » : مجمع الزوائد للنور الهيثمى : ٩ / ٢٤٨ .

حديثها عن النبى صلى الله عليه وسلم، مخرج فى الكتب الستة . روى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش ومولاها مدكور وأم المؤمنين أم حبيبة . والربيبة زينب بنت أبى سلمة ... وعدد من كبار التابعين والتابعيات[1]

* * *

(١) تهذيب التهذيب : النساء ١٢ / ٤٢٠ (٢٨٠١) .

(٨)

جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث الخزاعية

سَيِّدَة بنى المُصطَلِق(*)

« وما من امرأة أعظم على قومها بركةً منها : أُعْتِق بزواجها من رسول الله ﷺ أهلُ مائةِ بيت من بنى المصطلق . »

(السيرة ، والاستيعاب والإصابة)

(*) من كتَّاب السيرة من يقدمون فى ترتيب أمهات المؤمنين ، « أم حبيبة بنت أبى سفيان » على جويرية ، باعتبار خطبة الأولى وهى فى الحبشة . كما فى السيرة الهشامية والمحبر .

ومنهم ، كالحافظ ابن سيد الناس فى عيون الأثر ، من قدم جويرية على أم حبيبة ، باعتبار بناء الرسول عليه الصلاة والسلام بها . حين عادت من الحبشة بعد خيبر .

الأسيرة الحسناء

شُغِلَ المصطفى عليه الصلاة السلام ، بعد زواجه بزينب بنت جحش ، بأحداث هامة كبار ، ملأت النصف الثانى للعام الخامس الهجرى ، ففى شهر شوال وأوائل القعدة[1] كانت وقعة « الخندق » التى لقى فيها ﷺ والمسلمون جموعَ الأحزاب من المشركين الذين عبأهم اليهود لحرب الإسلام فى دار هجرته . لقيهم النبى ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين وراء الخندق الذى حفره حول المدينة ، وقد أقبلت قريش فى عشرة آلاف من أحابيشهم ، ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد .

ونقض اليهود عهد الموادعة ، وجهروا بالخيانة والغدر . وعظم البلاء بالمسلمين واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وزلزلوا زلالا شديدا حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق وقال قائلون : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط » .

وتخاذل المنافقون الذين خرجوا للقتال طمعا فى الغنيمة ، فلما ظنوا أنه مهزوم ، كروا راجعين إلى ديارهم .

وكان حصار مرهق استغرق سبعة وعشرين يوما ، ثم دارت الدائرة على المشركين ، وتم النصر لرسول الله ﷺ ، والذين معه[2] .

* * *

---

(١) فى السيرة (٣ / ٢٤) ان غزوة الخندق كانت فى شوال سنة خمس ، ومثله فى تاريخ الطبرى (٣ /٤٣) قابل على طبقات ابن سعد (٢ / ٤٧) وعيون الأثر ٢ / ٦٨ .

(٢) السيرة ٣ / ٢٣٠ ـــ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٤٧ وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٦ .

ووضع المسلمون السلاح وقد أجهدتهم المعركة ، وأووا إلى بيوتهم فى الصبح يلتمسون راحة ، فما انتصف النهار حتى تناهى إلى أسماعهم صوت مؤذن النبى ﷺ يؤذن فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة » .

واستأنفوا القتال ، وحاصروا يهود بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة قبل أن يتم التسليم فى شهر ذى القعدة وصدر ذى الحجة[1] .

بعدها كانت غزوة بنى لحيان ، وغزوة ذى قرد . وعاد ﷺ إلى المدينة فما كاد يقيم بها شهراً وبعض شهر ، حتى بلغه أن بنى المصطلق ـــ وهم حى من خزاعة ـــ يجمعون الجموع لقتاله ، بقيادة زعميهم « الحارث بن أبى ضرار بن حبيب المصطلقى الخزاعى »[2] .

وخرج إليهم ﷺ ومعه من نسائه « عائشة بنت أبى بكر » حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، فكان قتال انتهى بهزيمة بنى المصطلق .

وسيقت نساؤهم سبايا ، وفيهن « بَرَّة بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب » سيد القوم وقائدهم ، أو « جويرية » كما سماها ﷺ .

وقفل راجعا إلى المدينة .

فبينا هو جالس يوما فى حجرة عائشة ، سُمعت امرأة تستأذن فى لقائه ﷺ .

وقامت « عائشة » إلى الباب لترى مَن تلك ، فإذا شابة حلوة ، مفرطة الملاحة ، « لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه[3] » فى نحو العشرين من عمرها ، ترتجف قلقا وذعرا ، وقد زادها انفعالها حيوية وجمالا .

---

(١) والسيرة ٣ / ٣٠١ تاريخ الطبرى : ٣ / ٥٣ .

(٢) تاريخ الطبرى ، حوادث السنة السادسة للهجرة . وانظر جمهرة أنساب العرب : ٢٢٨ .

(٣) ابن اسحاق فى السيرة : ٣ / ٣٠٧ ، وتاريخ الطبرى : ٣ / ٦٦ والاستيعاب ٤ / ١٨٠٤ والسمط الثمين : ١١٧ .

فى رواية عن السيدة عائشة أم المؤمنين ، وذكرت الأسيرة الحسناء ، قالت : « ..فوقعتْ فى سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى ، فكاتبها على نفسها ...وكانت امرأة حلوة لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فبينا النبى ﷺ عندى إذ دخلت عليه جويرية تسأله فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتُ دخولها على النبى ﷺ ، وعرفت أنه سيرى منها الذى رأيت . »[1] .

ودخلت الشابة المليحة فقالت فى ضراعة تمازجها عزة :

« يا رسول الله ، أنا بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعتُ فى السهم لثابت بن قيس ... فكاتبتُه على نفسى ، فجئتك أستعينك على أمرى » .

ورق قلبه الكريم للعربية الخزاعية ، بنت سيد بنى المصطلق ، فى موقفها ببابه ضارعة إليه ، ولا مَن تلوذ به فى محنتها سواه .

* * *

وتكلم ﷺ فقال : « فهل لك فى خير من ذلك ؟ »

سألت فى لهفة وحيرة : « وما هو يا رسول الله ؟ »

قال : « أقضى عنك كتابتك ، وأتزوجك »

فتألق وجهها الجميل بفرحة الغبطة ، وقالت وهى لا تكاد تصدق أنها قد نجت من الضياع والهوان : « نعم يا رسول الله ! » .

قال عليه الصلاة والسلام : « قد فعلت ! »[2] .

وفى رواية بالاستيعاب والإصابة ، « أن النبى ﷺ سَبَى جويرية ــ وينوى أن يتزوجها ــ فجاءه أبوها فقال : يا محمد ، أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فإن

---

(١) طبقات ابن سعد (٨ / ١١٦) والسيرة ، والاستيعاب والإصابة من طريق الواقدى .

(٢) السيرة ٣٠٧/٣ ــ والنقل منها ــ وطبقات ابن سعد ١١٨/٨ ــ والمحبر ٢٨٩ وتاريخ الطبرى ٦٦/٣ وترجمة جويرية فى الاستيعاب ١٨٠٤/٤ ، والإصابة ٤٣/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٥/٢ .

ابنتى لا يُسَبى مثلُها ، فخلِّ سبيلها . قال عليه الصلاة والسلام : « أرأيتَ إن خيَّرتُها ، أليس قد أحسنتُ ؟ » قال : بلى . فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : اخترت الله ورسوله .

وقيل إن أباها كان قد أخفى بأحد شعاب مكة بكرين مما جاء به فى فداء ابنته ، فلما سأله رسول الله ﷺ عنهما ، قال : « أشهد أنك رسول الله حقا »[1] فخطب إليه ابنته ، فزوجه إياها ، وكان صداقها أربعمائة درهم[1] .

* * *

(١) السيرة : ٣ /٣٠٨ ، والسمط ١١٧ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ .

بَرَكة العَرُوس

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج بنت الحارث بن أبى ضرار ، فتداعَوا لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج .

وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها ، فأرسلوهم أحرارا وهم يقولون : « أصهار رسول الله » .

ودخلت العروس بيت النبى ، وما من امرأة أعظم على قومها بركة منها : أُعتِقَ بزواجها من رسول الله ﷺ ، أهلُ مائةِ بيتٍ من بيوت بنى المصطلق(١) .

« وسماها ﷺ جويرية ، كراهة أن يقال : خرج من عند برة»(٢) .

وظلت « جويرية » ما عاشت ، تبارك تلك اللحظة السعيدة التى لقيته فيها ، فنجت من العار ، وأعتقت قومها من الأسر ، وكرمت بالزواج من سيد البشر .

وكذلك ظلت « عائشة » تذكر تلك اللحظة ، لكن فى مرارة وألم ، فتقول فى صراحة مؤثرة :

« ... وكانت امرأة حلوة ملاحة ، لا يراها أحد الا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها ، فو الله ما هو إلا أن رأيتها على باب

---

(١) السيرة ٣ / ٣٠٧ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٦٦ ــ والاستيعاب ، والإصابة والسمط الثمين ١١٦ . ومناقبها ، رضى الله عنها . فى (مجمع الزوائد ٩ / ٢٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس : ٣ / ١٦٧٨ ح (٢١٤٠) وابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب من عدة طرق ، وابن حجر فى الإصابة ، من طريق مسلم .

حجرتى فكرهتها وعرفت أن سيرى منها ﷺ ما رأيت ... »[1] .

وهل من حرج على الرسول ﷺ فى أن ينظر لجويرية ؟

قال « السهيلى » فى شرحه للسيرة الهشامية : « وأما نظره عليه السلام لجويرية . . . فإنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة . وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها . وقال للمغيرة ، بن شعبة ، حين شاوره فى نكاح امرأة :

« لو نظرتَ إليها ، فإن ذلك أحرى أن يؤدم بينكما . وقال مثل ذلك لمحمد ابن مسلمة الأنصارى الخزرجى حين أراد نكاح بثينة بنت الضحاك»[2] .

وقد كان ما توقعت « عائشة » وخافت :

نظر ﷺ الى الأسيرة الحسناء ، وأصبحت « جويرية بنت الحارث » شريكة لعائشة فى بيت النبى ﷺ .

كما أصبحت ، وقد أسلمت وحسن إسلامها ، أما للمؤمنين .

على أن « عائشة » ما لبثت أن شغلت عن « جويرية » وغير جويرية ، بما أعقب تخلفها عن الركب العائد من غزاة بنى المصطلق ، من قيل وقال .

حتى إذا انجلت محنة الإفك ، وعادت رضى الله عنها إلى بيت النبى معتزة بما أنزل الله فى براءتها من آيات ، واجهتها « جويرية » بملاحتها الأخاذة ، فما كان من عائشة إلا أن قالت فى زهو وهى تنقل بصرها بين جويرية ، وزينب بنت جحش ، وأم سلمة ، وحفصة ، وطيف ماثل من خديجة :

« لم يتزوج ، ﷺ ، بكرا سواى » .

ذلك أن « جويرية » كانت قبل أن تسبى زوجة لمسافع بن صفوان

---

(١) أسنده ابن إسحاق فى السيرة ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن حجر فى الإصابة ، من طريق ابن إسحاق .

(٢) الروض الأنف ٣ / ١٩

(نساء النبى — ١٢) .

المصطلقى ابن عمٍّ لها ، قتل يوم المُرَيْسِيع .[1]

وقد عاشت إلى أن استقر الأمر لمعاوية ، وتوفيت بالمدينةبعد منتصف القرن الأول الهجرى ، سنة ست وخمسين على الأرجح . وصلى عليها « مروان بن الحكم » أمير المدينة وقد بلغت سبعين سنة . وقيل : توفيت سنة خمسين ، وهى بنت خمس وستين سنة » .

رضى الله عن جويرية ، أم المؤمنين التى « لم تكن امرأة أعظم على قومها بركةً منها » .

* * *

وقد روت عن النبى ﷺ أحاديث مخرجة فى الكتب الستة ، ومن الرواة عنها عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما .

(١) فى المحبر ٨٩ ، وطبقات ابن سعد ٨ / ١١٦ ، والاستيعاب : ٤ / ١٨٠٤ والاصابة ٨ / ٤٣ والسمط الثمين ص ١١٦ ، وتاريخ الطبرى (٣ / ١٧٧) .
(٢) الاستيعاب ، والإصابة ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٥ وتهذيب التهذيب ١٢ / ٤٠٧ ، والسمط ١١٨ .

(٩)

صَفِيّة بنتُ حُيَيّ

عَقيلة بنى النضير

« وأمر ﷺ بصفية فحِيزتْ خلفه وألقى عليها رداءه ، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه » .

(صحيح مسلم ، والسيرة النبوية)

خَرِبتْ خيْـــبَر

انتهت السنة السادسة للهجرة ، بعد أن أحدثت فى بيت النبى ضجة ما مثلها ضجة : تزوج فيها ﷺ جُويرية بنت الحارث ، وابتلى بمحنة الإفك فى أعز أزواجه عليه ﷺ وأحبهن إلى قلبه بعد خديجة . وفيها أيضا ، تم صلح الحديبية .

وبزغ هلال المحرم من سنة سبع ، وهو يتهيأ لمعركة حاسمة فى جبهة اليهود الذين كشفت وقعة الخندق عما ينطوون عليه من حقد مرير ، وما يبيتون للإسلام من شر وغدر .

وخرج عليه الصلاة والسلام فى النصف الثانى من المحرم[1] إلى « خيبر » معقل العدو ، فما أشرف عليها حتى قال :

«الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين » .

وخربت خيبر : فُتِحَتْ حصونها حصنا حصنا ، وقُتِلَ رجالها ، وسُبِىَ نساؤها ، وفيهن عقيلة بنى النضير « صفية بنت حُيى بن أخطب » التى ينتهى نسبها إلى هرون أخى موسى عليهما السلام ، وأمها برة بنت شموال — أو : سموأل — القرظية .

ولم تكن قد جاوزت السابعة عشرة من عمرها .

لكنها ، على صغر السن ، تزوجت مرتين :

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم : « سَلاَم بن مِشْكَم القرظى .

---

(١) فى السيرة ٣ / ٣٤٢ ، وتاريخ الطبرى ، وعيون الأثر ٢ / ١٣٠ . وفى طبقات ابن سعد أن غزوة خيبر كانت فى جمادى الأولى .

ثم خلف عليها « كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق النضرى » صاحب حصن « القموص » أعز حصن فى خيبر[1] .

وقد اقتحم المسلمون الحصن بعد نضال عسير ، وجىء بكنانة حيا ، وكان عنده كنز بنى النضير ، فسأله ﷺ عنه ، فجحد أن يكون يعرف مكانه ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام :

« أرأيتَ إن وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ » .

قال : نعم...

فلما اكتُشف مخبأ الكنز عنده ، دفعه ﷺ إلى « محمد بن مَسْلَمة الأنصارى البدرى » فضرب عنقه بأخيه « محمود بن مسلمة » الذى قتله اليهود فى أول المعركة عند حصار حصن ناعم ، ألقوا عليه رَحًى فقتلته [2]

وسيقت نساء القموص سبايا ، وفى مقدمتهن « صفية » امرأة كنانة ، وابنة عم لها ، يقودهما « بلال » مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ومر بهما « بلال » على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود ، فهمّت « صفية » أن تصيح ، لكن الصيحة احتبست فى حلقها لا تنطلق .

وأما ابنة عمها فأعولت صارخة ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ... وجىء بهما إلى رسول الله ﷺ :

« صفية » فى حزنها الصامت وجزعها المكبوت ، تحاول أن تتماسك فى ترفع وكبرياء ، وما من أحد يعرف فيم كانت تفكر ، وإن بدا أنها تلوذ أمام القائد المنتصر بآخر ما كان لها من عزة فى قومها .

---

(١) كذا فى السيرة ٣ / ٣٥١ وتاريخ الطبرى ٣ / ٩٥ ، ١٧٨ ؛ والمحبر ٩٠ ، وعيون الأثر ٢ / ٣٠٧ . وفى طبقات ابن سعد ٢ / ٧٧ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٧١ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ : « كنانة ابن أبى الحقيق » ولعله من رفع النسب إلى جَدّه .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ /٩٥ والسيرة : ٣ /٣٥١ ــ وانظر طبقات ابن سعد ٢ /٨١ . وترجمة محمود بن مسلمة الأنصارى وأخيه محمد بن مسلمة رضى الله عنهما فى القسم الأول من حرف الميم فى الإصابة .

والأخرى ، شعثاء الشعر معفرة بالتراب ، ممزقة الثياب ، لا تكف عن عويل ونواح .

قال ﷺ وهو يشيح بوجهه عنها :

« اغربوا عنى هذه الشيطانة »[1] .

ثم دنا من صفية ، وقد بدا عليها أنها راغبة فى أكثر من حماية النبى الفارس ، فألقى عليها نظرة رحيمة وهو يقول لبلال :

« أنُزعت يا بلال منك الرحمةُ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »[2] .

ثم أمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليه رداءه ، فكان ذلك إعلاماً بأنه ﷺ قد اصطفاها لنفسه .

وفى حديث عن « أنس رضى الله عنه » أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حيى ، قال لها : « هل لك فىَّ ؟ قالت : يا رسول الله ... قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف إذا أمكننى الله منه فى الإسلام ؟ » فأعتقها عليه الصلاة والسلام وتزوجها وكان عتقها صداقها[3] .

« ودفعها ﷺ إلى أم سليم تهيئها ، وتعتد عندها »[4] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ والسيرة ٣ / ٣٥٠ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ — والسيرة : ٣ /٣٥١ ،٤ / ٢٥٦ والإصابة ٨ / ١٢٦ وانظر طبقات ابن سعد : ٢ / ٨١ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٢ / ٨٤ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٧٢ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ والسمط الثمين : ١٢٠ ، وعيون الأثر ٢ /٣٠٧ مع (الصحيحين . كتاب النكاح باب فضيلة إعتاقه أمَة ثم يتزوجها / اللؤلؤ والمرجان ، ح ٩٠٠) .

(٤) صحيح مسلم ، ك النكاح : ح (٨٦/ ١٣٦٥) .

رُؤيا العَروس وذكرَياتها

وانتظر ﷺ بخيبر حتى هدأت المناحة ، وظن أن الروع قد ذهب عن « صفية » أو كاد ، فحملها وراءه وانطلق بها إلى المنزل فى أطراف خيبر — على بعد ستةِ أميال منها — فمال يريد أن يعرس بها ، لكنها تمنعت وأبت عليه أن يفعل(١) .

فوجدها — ﷺ — فى نفسه ، وشق عليه تمنعُها . . . ثم استأنف مسيره راجعا بعسكره إلى المدينة ، فلما كان بالصهباء — بعيدا عن خيبر — نزل هناك يستريح ، فبدا له أن « صفية » متهيئة للعرس « جهَّزتها له أم سُليم ، فأهدتْها له من الليل . »(٢)

وظهرت « صفية » عروسا مجلوة ، تأخذ العين بسحرها حتى لتقول أم سنان الأسلمية ، إنها لم تر بين النساء أضوأ منها(٣) .

ووراء جلوة الفرح المرتقب ، غابت آثار الحزن والألم ، وكأن العروس نسيت المذبحة المروعة التى ألقت بأهلها صرعى مجندلين ، وأخرجتها من حصن « القموص » ذليلة أسيرة ، تساق بين السبايا !

وتمت أقيمت وليمة العرس : « أصبح النبى ﷺ فقال : '' من كان عنده شىء فليجىء به '' وبسط نِطْعاً ، فجعل الرجل يجىء بالتمر ، وجعل الرجل يجىء بالسمن .... فكانت وليمة رسول الله ﷺ(٤) .

---

(١) السمط الثمين ١٢٠ ، والإصابة ٨ / ١٢٦ .
(٢) من حديث أنس رضى الله عنه ، المتفق عليه (اللؤلؤ والمرجان ، ك النكاح : ح ٩٠٠) .
(٣) الإصابة : ٨ / ١٢٦ مع طبقات ابن سعد (٨ / ١٢١) .
(٤) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه (اللؤلؤ ، ك النكاح : ح ٩٠٠) .

دخل ﷺ ، على صفية ، وفى نفسه شىء من موقفها الأول . وأقبلت عليه فقالت : إنها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة ، فقال غاضبًا :

« ما هذا إلا أنك تُمنين ملكَ الحجاز محمدا ! »[1] .

ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ونظر ﷺ إلى أثر اخضرار فى عينها ، وقد سره ما سمع من حديثها ، وهمَّ بأن يقبل عليها ، لكنه أمسك وسأل :

« ما حملك على الامتناع أولا ؟ » أو قال : ما حملك على إبائك فى المنزل الأول ؟

وأجابت العروس من فورها :

« خشيتُ عليك قربَ اليهود »[2] .

فزال ما كان يجد فى نفسه من جفوة .

وتسترجع صفية ذكريات لها عن إرهاص أهلها اليهود بنبىٍّ منتظر يعرفونه من أسفارهم ، ثم حقدهم وغيظهم يوم استقبلت يثرب النبى المهاجر ، الذى طالما بشرت يهود بقرب مبعثه ، تستغل البشرى لحماية ثروتها بيثرب من غازٍ وطامع ، أو تتفاخر بها على العرب الأميين ، فيما تتفاخر من علمها بالكتاب .

تقول صفية بنت حيى بن أخطب :

« كنتُ أَحَبَّ ولدِ أبى إليه وإلى عمى أبى ياسر ، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه . فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قُباءَ ، غدا عليه أبى وعمى مغلِّسين ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، فأتيا كالَّيْنِ ساقطين يمشيان الهوينا . فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إلَّى واحد منهما مع ما بهما من الغم . وسمعت عمى أبا ياسر وهو يقول لأبى : أهو هو ؟

(١) السيرة ٣ / ٣٥٠ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ٩٤ ــ وبلفظ : « ملك يثرب » فى حديث ابن عمر ، رضى الله عنهما ، رواه الطبرانى ، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد : ٩ / ٢٥١) والسمط الثمين ١٢٠ وفى رواية بالإصابة ــ عن ابن إسحاق فى رواية يونس بن بكير أنها قصت رؤياها على أمها ــ وفى عيون الأثر ، أنها قصتها على أبيها .

(٢) الإصابة ١ / ١٢٦ .

« قال : نعم والله . قال عمى : أتعرفه وتثبته ؟. قال : نعم . قال فما فى نفسك منه ؟ أجاب : عداوته والله ما بقيت »(١)

* * *

وهناك خارج القبة التى دخل فيها ﷺ على صفية ، بات رجل من الأنصار ، هو « أبو أيوب خالد بن زيد » يقظان ساهرا ، متوشحا سيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من المصطفى ، فلما أصبح ﷺ سمع حركته ورأى مكانه فسأله :

« مالك يا أبا أيوب ؟ »

أجاب رضى الله عنه :

« يا رسول الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفرٍ ، فخِفْتُها عليك »

فيروى أن رسول الله دعا له قائلا :

« اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى »

أو قال : « رحمك الله يا أبا أيوب » مرتين(٢) .

ولم يكن المسلمون قد نسوا بعد ، الفعلة الشنعاء لامرأة أخرى من يهود خيبر ، هى « زينب بنت الحارث » امرأة سَلاَم بن مِشكم ، أحد زعمائهم القواد .

دخلت « زينب » عليه ، ﷺ وهو مطمئن بعد أن استسلم اليهود لمصيرهم ووقعوا الصلح مع القائد المنتصر ، فأهدت إليه شاة مسمومة ، وكانت قد سألت بعض أصحابه : أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ قيل لها : الذراع . فأكثرت السم فى الذراع حتى سرى منها إلى سائر الشاة .

---

(١) السيرة ٢ / ١٦٥ ووفاء الوفا ١ / ٢٧٠ .

(٢) السيرة ٣ / ٢٥٤ ــ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٨٤ .

ووضعتها بين يديه ﷺ ومعه صاحبه « بشر بن البراء » ، فتناول ﷺ الذراع ، وأعطى ابن البراء قطعة أخرى أكلها غير مستريب .

لكن النبى ﷺ لم يسغ الذراع ، بل لفظها وهو يقول : « ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » .

ودعا بامرأة سلام ، فاعترفت بأنها سمت الشاة عامدة . ولما سألها ﷺ عما حملها على ذلك ، ردّت :

« بلغتَ من قومى ما لا يخفى عليك ، فقلتُ : إن كان نبيا فسيُخبَر ، وإن كان ملكا استرحت منه » .

فتجاوز عنها ﷺ ، ومات « بشر بن البراء » رضى الله عنه من أكلته التى أكل . . .[1]

فلعل « أبا أيوب الأنصارى » ذكر هذه الفعلة اليهودية ، حين بات ساهرا حول القبة التى دخل فيها ﷺ على « صفية » عقيلة بنى النضير .

* * *

وبلغ الركب المدينة . وفى حديث أنس رضى الله عنه قال : « فعثرت الناقة الضباء ، وندرت صفية فقام ﷺ فسترها ، وقد أشرفت النساء فقلن : أبعد الله اليهودية »[2] .

وآثر ﷺ ألا يدخل بالعروس على نسائه ، « وقد خرجت جواريهن يتراءينها ويشمتن بصرعتها »[3] ، فأنزلها فى بيت لصاحبه « حارثة بن النعمان الأنصارى » .

وتسامعت نساء الأنصار بها ، فجئن ينظرن إلى جمالها ، ولمح ﷺ زوجته

---

(١) السيرة ٣ / ٣٥٢ ، وتاريخ الطبرى ٣ / ٩٥ .
وأخرجه مسلم ، بلفظ مقارب ، من حديث أنس رضى الله عنه (باب السم ح ٢١٩٠) ٤ / ١٧٢١ وروى ابن سعد حديث الشاة المسمومة التى أهديت إلى الرسول ﷺ يوم فتح خيبر ، عن أبى هريرة ... وفيه ان الذين سموها وأهدوها ، جماعة من اليهود (٢ / ٨٤) .
(٢ ــ ٣) صحيح مسلم ٢ / ١٠٤٨ : ح (١٣٦٥) .

« عائشة » تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان .

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وقال :

« كيف رأيت يا شقيراء ؟ »

فأجفلت عائشة ، وقد هاجت غيرتها ، ثم هزت كتفها وهى تقول :

« رأيت يهودية ! » زادت فى رواية : « بين يهوديات »

ورد عليها النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا تقولى ذلك ، فإنها أسلمت وحسن إسلامها »[(١)] .

ولم تعلق « عائشة » بكلمة ، بل سارت إلى البيت حيث كانت حفصة فى انتظارها ، مشوقة إلى أن تسمع رأيها فى العروس .

ولم تنكر « عائشة » أنها جميلة حقا ، ولعلها زادت فحدثت « حفصة » عما كان من تتبّع الرسول لها وحواره معها . وأسند الواقدى عن أم سنان الأسلمية ، قالت : لما نزلنا المدينة — بعد خيبر — لم ندخل منازلنا حتى دخلنا على صفية منزلها . وسمع بها نساء المهاجرين والأنصار فدخلن عليها متنكرات ، فرأيت أربعا من أزواج النبى ﷺ منقبات : زينب بنت جحش وحفصة وعائشة وجويرية ، فأسمع زينب تقول لجويرية : ما أرى هذه الجارية إلا ستغلبنا على عهد رسول الله ﷺ . فقالت جويرية : كلا ، إنها من نساء قلما يحظين عند الأزواج .»[(٢)]

....

(١) ابن سعد فى طبقاته ، وابن حجر — من طريقه — فى الإصابة ، والسمط ٨٠ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٨ / ٩٥ .

زوجي محمّد ، وأبي هَارُونُ ، وعمّي موسَى

ثم انتقلت « صفية » إلى دور النبى ، فواجهتها هناك مشكلة محيرة : كانت
ائشة ومعها حفصة وسودة فى جانب ، والزوجات الأخريات فى جانب تقف
ه السيدة فاطمة الزهراء ، رضى الله عنهن .

وكان على « صفية » أن تختار ، وإنه لموقف دقيق صعب ، فما كانت فى
كائها بالتى تناصب « الزوجة الأثيرة » أو « الابنة الغالية » عداء أو شبه
داء !

ثم أسعفتها لباقة طبعها وواتاها حذرها الموروث ، فقررت أن تتقرب من
ائشة وحفصة والزهراء جميعا !

وكان مظهر تقربها إلى ابنتى أبى بكر وعمر ، إظهاراستعدادها للانضمام
هما ... وأما « الزهراء » فأهدتها « صفية بنت حيى » حلية لها من ذهب ،
زا لمودتها وإعلانا لمسالمتها ![1]

ولعل « صفية » أرادت أن تحتمى بهذا الموقف اللبق ، مما كانت تخاف من
يض بأصلها اليهودى ، وتذكير بما بين قومها والإسلام من عداء مستحكم
ر .

وما كان لها ، فى الحق ، أن تخشى أذى من « الزهراء » فإنها ـــ رضى
عنها ـــ كانت أحرص الناس على سلام ، وأبر بأبيها من أن تشارك فى
الضجيج النسوى ، اللهم إلا أن تدفع إلى شىء من ذلك دفعا ، كالذى
نا إليه من سفارتها لأزواج النبى عند أبيها ﷺ فى أمر السيدة عائشة .
ولعل صفية كانت فى مأمن كذلك ، من جهة أم سلمة رضى الله عنها .

---

١) الإصابة جـ ٨ / ١٢٧ .

أسند الواقدى عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ومعه فى ذلك السفر صفية بنت حيى وأم سلمة ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هودج صفية وهو يظن أنه هودج أم سلمة — وكان ذلك اليوم يومها — فجعل يتحدث مع صفية فغارت أم سلمة ، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدُ أنها صفية ، فجاء إلى أم سلمة فقالت : تتحدث مع ابنة اليهودى فى يومى ؟ قالت : ثم ندمتُ على تلك المقالة » فكانت تستغفر منها ، قالت : يا رسول الله ، استغفر لى فإنما حملنى على ذلك الغيرة »[1] .

وإنما الخوف كل الخوف من « عائشة » فى غيرتها الجامحة ، وضيقها بكل ضرة حسناء تدخل بيت المصطفى وتشاركها فيه !

ولم يعصم « صفية » مما كانت تخاف ، تقربها من عائشة وحفصة ، فما أكثر ما سمعت التعريض جهرا وتلميحا بالدم اليهودى الذى يجرى فى عروقها ؟ ! وما أكثر ما صكت أذنيها سهام جارحة ، تأبى عليها أن تسكن وتطمئن ، فى ظلّ أكرم زوج ! والذى آلم « صفية » أن عائشة وحفصة — اللتين انضمت إليهما — كانتا تشاركان الأخريات فى النيل منها ، ومفاخرتها بأنهن قرشيات أو عربيات ، وهى الأجنبية الدخيلة .

* * *

وبلغ « صفيةَ » كلام عن حفصة وعائشة ، فلما حدثت به النبى صلى الله عليه وسلم وهى تبكى ، قال ﷺ :

« ألا قلت : وكيف تكونان خيرا منى ، وزوجى محمد ، وأبى هرون ، وعمى موسى ؟ »[2]

ونزل كلام المصطفى على « صفية » بردا وسلاما ، وكان لها منه حمى وملاذ .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٨ / ٩٥ .
(٢) الإصابة ٨ / ١٢٧ — والنقل منها — والاستيعاب ٤ / ١٨٧٢ ، والسمط ١٢١ .

كان النبى ﷺ ، يحسُّ غربة « صفية » فى دوره بين نسائه ، فيدافع عنها كلما أتيحت له فرصة .

حدثوا أنه كان فى سفر ومعه « صفية » و« زينب بنت جحش » فاعتل بعير « صفية » وفى إبل زينب فضل ، فقال لها :

« إن بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا ؟ »

أجابت فى ترفع وازدراء :

« أنا أعطى تلك اليهودية ؟ » .

فولى ﷺ عنها مغضبا ، وتركها شهرين أو ثلاثة لا يقربها ، أو قيل « فهجرها لذلك ، ذا الحجة ، والمحرم ، وبعض صفر ، ثم أتاها بعد ، وعاد إلى ما كان عليه معها »(١) .

ولم تحرم « صفية » هذه الحماية حتى آخر أيامه عليه الصلاة والسلام . رُوىَ أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراش الرسول ﷺ فى مرضه الأخير ، فقالت صفية : إنى والله يانبى الله ، لوددت أن الذى بك بى . فما كان من أزواجه إلاَّ أن غمزن ببصرهن . فما راعهن إلا أن قال عليه الصلاة والسلام :

« مَضْمِضْنَ » !

تساءلن فى دهشة : من أى شىء ؟

قال : « من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة »(٢)

* * *

ولحق المصطفى بربه الكريم ، وافتقدت « صفية » تلك الحماية الطيبة ، فما نسى ناسٌ لها أنها منحدرة من سلالة يهود ، وما أنفوا من نَبْزِها بذلك اللقب ، على الرغم من حسن إسلام صفية ، وزواجها من النبى عليه الصلاة والسلام .

---

(١) أخرجه ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة ، بسنده إليها . وابن حجر فى ترجمة صفية بالإصابة ، من طريق ابن سعد .

(٢) ابن سعد فى الطبقات ، بسند عن زيد بن أسلم . وابن حجر فى الإصابة ، من طريقه .

حدثوا أن جارية لها أتت « أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، إن صفية تحب السبت وتصل اليهود »
فبعث « عمر » إلى صفية يسألها عن ذلك فأجابت :
«أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فإن لى فيهم رحما فأنا أصِلُها . »
ثم انثنت الى جاريتها فسألتها عمَّا حملها على مثل ذلك الافتراء ، فأجابت الجارية : « الشيطان ! »
وردت « صفية » :
« اذهبى فأنت حرة »[1]

* * *

واندفعت « صفية » راضية أو كارهة ، تشارك فى المعركة السياسية التى بدأت فى عهد « عثمان » وكان موقفها إذ ذاك شبيها بموقفها بين عائشة والزهراء ، فبالرغم من حرصها على مودة عائشةالتى كانت حينذاك ذات نفوذ سياسى قوى ، ومكانة فى الدولة الإسلامية رفيعة ، لم تأل « صفية » جهدا فى الولاء لأمير المؤمنين « عثمان » رضوان الله عليه ...

حدث مولى لصفية يدعى كنانة — وقيل هو ابن أخيها — قال :
« قدمت صفية ، فى حجابها ، على بغلة لتردَّ عن عثمان ، فلقينا الأشتر — هو النخعى — فضرب وجه البغلة ، وهو لا يعرف راكبتها ، فقالت لى صفية : رُدَّنى لا تفضحنى !
ثم وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء ، وهو رضى الله عنه ، فى محنة الحصار[2] .

* * *

(١) رواه ابن عبد البر فى ترجمتها بالاستيعاب ٤ / ١٨٧٢ ، وابن حجر فى الإصابة ٨ / ١٢٧ من طريقه والسمط ١١٢ .

(٢) ابن سعد فى الطبقات . حكاه ابن حجر فى آخر ترجمتها بالإصابة .

وماتت « صفية » حوالى سنة خمسين ، والأمر مستقر لمعاوية ...

ودفنت بالبقيع ، مع أمهات المؤمنين . رضى الله عنهن .

حديثها عن رسول الله ﷺ مخرج فى الكتب الستة ، ومن الذين رووا عنها : ابن أخيها ومولاها كنانة ، ومولاها الآخر يزيد بن متعب ، والإمام زين العابدين على بن الحسين ، ومسلم بن صفوان ، فى عدد من حفاظ التابعين رضى الله عنها وعنهم .

* * *

(١٠)

أمّ حَبيبَة

رَملة بنت أبى سُفيان

« ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة فدخل على ابنته « أم حبيبة » ... فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال : يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه »

ابن إسحاق : السيرة النبوية

عودة المهَاجرة

رجع النبى ﷺ إلى مدينته ، وقد تمَّ له النصر فى « خيبر » ، وتزوج عقيلة بنى النضير ، وسيقت بين يديه غنائم اليهود .

وتأهبت « المدينة » للقائه ، وقد أعدت له أسعد مفاجأة ترضيه !

فهناك فى « المدينة » ، وهو ﷺ غائب فى خيبر ، كان مهاجرة الحبشة قد جاءوا فى صحبة « عمرو بن أمية الضمرى » الذى بعثه النبى عليه الصلاة والسلام إلى « النجاشى » ليعود بمن بقى فى بلاده من المهاجرين الأولين[1] .

وحملهم « عمرو » فى سفينتين ، فبلغ بهم « المدينة » حيث الأهل والأنصار ، ومعركة « خيبر » إذ ذاك فى ذروة احتدامها .

وأعقب وصولَهم إعلانُ فتح « خيبر » والنصر المبين على يهودها ، وخرج أهل « المدينة » لاستقبال العسكر المنتصر ، فضاقت بهم أرجاء الوادى ، وقد بُحّت أصواتهم من هتاف ودعاء .

وأهلَّ عليهم ﷺ ، فلمح من بينهم أصحابه الذين هاجروا من « مكة » أيام الاضطهاد والعذاب ، أولئك الذين كان آخر عهده — ﷺ — بهم ، يوم تسللوا من « مكة » أيام المحنة ، خارجين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، وأقصى ما يتمناه أحدهم أن يموت على الإسلام غريبا مهاجرا فتكون له الجنة .

وكانوا رضى الله عنهم قد تواعدوا على اللقاء فى الدار الآخرة . . . . وها هم أولاء يلتقون فى المدينة المنورة ، يوم الاحتفال بفتح خيبر ، وقد صارت للإسلام الكلمة العليا فى جزيرة العرب !

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤ / ٣ ، تاريخ الطبرى : ٣ / ٨٩ .

ووثب رسول الله ﷺ من فوق راحلته ، فالتزم ابن عمه « جعفر بن أبى طالب » معانقا ، وقبل عينيه وهو يقول غبطة :

« ما أدرى بأيهما أنا أسر : بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر ؟ »[1] .

والتفت ﷺ بعد ذلك يلتمس بقية صحبه المهاجرين ، وقد كانوا فيما أحصى « ابن اسحق » ستة عشر رجلا[2] .

بين المهاجرات العائدات ، كانت « أم حبيبة ، بنت أبى سفيان بن حرب » تنتظر النبى ﷺ ، ليحملها إلى بيته !

وقد مضى على زواجه بها بضع سنين ، مذ كانت فى مهاجرها بالحبشة . فلنمضِ مع الأحداث ، راجعين بها إلى بدايتها هنالك ...

....

(١ ، ٢) السيرة :٤ / ٣ ، ٥ وتاريخ الطبرى : ٣ /٩٠ .

محنة فى الغربة

كانت « رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية » ، زعيم مكة وقائد المشركين ، زوجة لابن عمّة المصطفى ، « عبيد الله بن جحش الأسدى » أخى السيدة زينب أم المؤمنين . وقد أسلم عبيد الله فأسلمت معه « رملة » ، وأبوها « أبو سفيان » على الكفر . وكذلك أمها : صفية بنت أبى العاص الاموية .

وخشيت أذى أبيها ، فهاجرت بدينها مع زوجها ، فى الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وهى مثقلة بحملها ، وتركت أباها « بمكة » وقد جن غيظه وقهره ، أنْ أسلمت ابنته وليس له إليها سبيل . وهناك فى الحبشة ، وضعت « رملة » بنتها « حبيبة بنت عبيد الله » التى كنيت بها أمُّها « أم حبيبة » .

وإذ هى فى غربتها تكتم حنينها إلى الوطن ، وتحاول أن تجد فى زوجها عوضا عمن فارقت من أهل وعشيرة ، قامت ذات ليلة من نومها مذعورة ، فقد روعت فى الحلم برؤية « عبيد الله » بأسوأ صورة ، وأصبحت فإذا هو قد ارتد عن دينه الذى من أجله هاجر إلى الحبشة ، ودخل « النصرانية » دين الأحباش ...

وحاول أن يردها عن دين الإسلام فصبرت على دينها(١) .

وكادت « بنت أبى سفيان » تهلك غما وأسى وحسرة :

فيم كانت هجرة عبيد الله إذن ، وفيم كان عذاب الاضطهاد ومحنة التشرد وأشجان الاغتراب ، ومرارة التنكر للآباء والأجداد ، وهذا هو يصبأ عن

---

(١) ابن سعد فى الطبقات ، ٨ / ٩٦ والمحبر : ٨٨، والاستيعاب ١٨٤٤ ، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ٨ /٨٤ ، عنه . والسمط ٩٦ .

الإسلام الذى من أجله احتملت « رملة » كل ذلك ، ورضيت أن تذيق أباها عذاب القهر والغم ؟

لقد كان أكرم لعبيد الله ، أن يبقى على دين آبائه وأن يقاتل عنه مع قومه وعشيرته دفاعا عن ديانة وجدوا آباءهم عليها مِنْ قديم الحقب .

أما أن يكفر بهذا كله ، ويرضى بالإسلام دينا ليجىء إلى الحبشة فيكفر بالدين القيِّم ، ويستبدل به دينا غريبا لقوم غرباء ، فى يُسْر ودون تحرج ، كما يبدل ثوبا بثوب ، فأية مهانة وأى عار !

وهذه الابنة الحبيبة ، ما ذنبها لكى تولد لمثل هذا الأب الصابئ المرتد ؟ وما جريرتها لتخرج إلى الحياة فى أرض غريبة ، وقد انبتَّ ما بين أبويها وتمزق شمل أسرتها وتوزعت أهلَها ديانات شتى : فأبوها نصرانى ، وأمها مسلمة ، وجدها مشرك عدو الإسلام !

واعتزلت « رملة » الناس شاعرة بالخزى لفعلة الرجل الذى كان لها زوجا ، ولطفلتها والدا ...

وأغلقت الباب عليها وعلى وليدتها « حبيبة » لمضاعفة الغربة ، لا تريد أن تلقى الناس فى دار هجرتها ، ولا سبيل لها إلى أرض الوطن ، وهناك أبوها يعلن حربا شرسة على النبى الذى صدقته وآمنت به ...

وأين تراها تقيم فى « مكة » لو عادت ؟

أفى بيت أبويها وقد حيل بينها وبينه منذ أسلمت ؟

أم فى دار « آل جحش » رهط زوجها ، وقد أقفرت بهجرة أهلها وصارت منهم خلاء ؟

لقد بلغها من أنباء مكة أن « عتبة بن أبى ربيعة ، والعباس بن عبد المطلب ، وأبا جهل بن هشام بن المغيرة » مروا بدار بنى جحش وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، ثم تنفس الصعداء وقال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يومًا ستدركها النوباء والحوب !

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها » .

فقال أبو جهل : « وما تبكى عليه ؟ » ... ثم قال :

« هذا عمل ابن أخى ، فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا »[1] .

كلا ، لا سبيل لرملة إلى « مكة » والمعركة محتدمة بين أبيها والنبى ﷺ ، ودار بنى جحش تخفق أبوابها يبابا !

---

(١) السيرة : ٢ / ١١٥ .

خِطبة من الحجَاز

ومرت فترة من الزمن وهى فى عزلتها الحزينة ، فما شعرت ذات يوم إلا وطرقات تلح على بابها الموصد ، مستأذنة لجارية من جوارى النجاشى ...

وفتحت « أم حبيبة » الباب ، فدخلت الجارية وأدت إليها رسالة النجاشى :

« إن الملك يقول لك : وكِّلى مَن يزوجك من نبى العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له ! » .

واستعادت « رملة » حديث الجارية مرتين وثلاثا ، حتى إذا استيقنت من البشرى نزعت سوارَين لها من فضة فقدمتهما إليها حلاوة البشرىٰ ، ثم أرسلت إلى « خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس » ــ كبير المهاجرين من قومها بنى أمية ــ فوكلته فى زواجها[1] .

وفى المساء ، دعا النجاشى إليه مَن بالحبشة من المسلمين ، فجاءوا يتقدمهم جعفر بن أبى طالب ، ابن عم النبى ﷺ ، وخالد بن سعيد ، وكيل رملة ..

وتكلم النجاشى وترجم المترجم :

«إن محمد بن عبد الله كتب لى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فمن أولاكم بها ؟ »

أجاب القوم : « خالد بن سعيد ، قد وكَّلتْه »

فاتجه إليه النجاشى قائلا :

---

(١) أخرجه ابن سعد من حديث أم حبيبة رضى الله عنها . وحكاه ابن حجر فى ترجمة « رملة » بالإصابة ٨ /٨٤ . والسمط الثمين ٦٧ . وفى رواية للزبير بن بكار : زوجها إياه عثمان بن عفان . وهى رواية مرجوحة (الاستيعاب) .

« فزوّجْها من نبيكم ، وقد أصدقتُها عنه أربعمائة دينار » ـــ وقيل : أربعة آلاف ـــ فقام خالد وقال :

« قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، وزوجته أم حبيبة » ... وقبض الصداق .

وأوْلَم لهم النجاشى وليمة الزواج قائلا « اجلسوا ، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزوج »[1] .

ثم أتوا باب « أم حبيبة » مهنئين مباركين . « وأولم عليها عثمان بن عفان لحما وثريداً »

وباتت بنت أبى سفيان ، وهى « أم المؤمنين » !

وأصبحت فجاءتها « جارية النجاشى » تحمل إليها هدايا نساء الملك من عودٍ وعنبر وطيب ، فقدمت إليها « أم المؤمنين » خمسين دينارا من صداقها قائلة :

« كنت أعطيتك السوارين بالأمس وليس بيدى شىء من المال ، وقد جاءنى الله عز وجل بهذا » .

فأبت أن تمَّس الدنانير ، وردَّت السوارين وهى تقول : ان الملك أجزل لها العطاء ، وأمرها ألا تأخذ من أم المؤمنين شيئا ، كما أمر نساءه أن يبعثن إليها مما عندهن من طيب .

وتقبلت « أم حبيبة » الهدية شاكرة ، فاحتفظت بها حتى حملتها معها إلى بيت النبى ، فكان ﷺ يرى عندها طيب الحبشة وعودها فلا ينكره .

(١) الاستيعاب لابن عبد البر : ٤ /١٩٣٠ والمحبر ٨٨ ، والإصابة ٨ / ٨٤ . وفى رواية بهما ، أن الذى زوَّجها : عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية . وهو ابن أخى أمها « صفية بنت أبى العاص بن أمية » ولعله الذى زفها إلى النبى ﷺ ، بعد هجرتها من الحبشة إلى المدينة . والله أعلم .

بين الأب والزوج

احتفلت « المدينة » بدخول بنت أبى سفيان بيت النبى ﷺ .

وأولم خالُها « عثمان بن عفان » وليمة حافلة ، نحر فيها الذبائح وأطعم الناس اللحم . وباتت « مكة » ساهدة مؤرقة ، تردد قول زعيمها أبى سفيان والد أم حبيبة ، حين بلغه نبأ زواجها :

« هذا الفحل لا يُجدع أنفه ! »[1]

ولم يكن قد مضى على زواجه ، ﷺ ، من عقيلة بنى النضير ، غير أيام معدودات . . .

واستقبلت نساء النبى زميلتهن « أم حبيبة » بشىء من المجاملة ، ولم ترَ « عائشة » فيها أول الأمر ما يشعل غيرتها ، إذ كانت «رملة » تدنو من عامها الأربعين ، وليس لها سحر صفية ، ولا ملاحة جويرية ، ولا حسن أم سلمة ، ولا جمال زينب ...

وأبدت « عائشة » استعدادها لقبول الزوجة الجديدة فى صفّها ، لكن « بنت أبى سفيان » أنفت أن تكون تابعة لأخرى ...

وبقدر ما أنكرت « عائشة » ألا تسارع « رملة » إلى كسب رضاها كما فعلت « حفصة بنت عمر » ، أنكرتْ « بنت أبى سفيان » على « عائشة » الزهو الطامح إلى الاستئثار بالنفوذ فى بيت النبى ...

---

(١) طبقات ابن سعد ٨ / ٩٩ : تاريخ الطبرى : ٣ /٩٠ : والسمط الثمين : ٩٩ ـــ والاستيعاب ٤ / ١٨٤٥ ونسب قريش ١٢٢ ، والإصابة ٨ /٨٥ .

لكن الجفوة بينهما لم تشتد إلى درجة الخصومة السافرة المعلنة ، وإن بقيت « عائشة » تهاب « رملة » وتخشى وقوفها فى سبيل ما تشتهى من تفرد بالكلمة العليا بين ضرائرها !

وكانت « رملة » بحيث تفعل ما تخشاه « عائشة » لولا أن ظلت تحس فى أعماقها حزنا قاسيا ، لأن أباها لا يزال على الوثنية الضالّة .

وآلمها أن تظل الحرب بين زوجها وأبيها قائمة ، تأكل من رجال أعزة عليها ، فما من قتيل إلا وهو من شيعة أبيها ، وما من شهيد إلا وهو من صحابة زوجها ، أبنائها المؤمنين !

* * *

وبلغها يومًا أن قريشًا نقضت عهد « الحديبية » وأدركت بفطنتها وبما تعرف من خلق زوجها ﷺ وسيرته ، أنه لن يسكت على ضيم ولن يرضى أن يُغدر به أو ينقض له عهد ، فهل تراه يغزو « مكة » ليهدم الأصنام على رؤوس المشركين وفيهم أبوها ، وإخوتها ، وأكثر أهلها وعشيرتها ؟ كذلك لاحت نذر الخطر فى « مكة » فاجتمع قادتها يتشاورون فى أمر « محمد » الذى يوشك أن ينقض عليهم ولا قبل لهم به . لقد كانوا من قبل يستهينون به وبمن اتبعه ، فهل تراهم يستهينون به اليوم وقد بلغ من القوة والمنعة ما بلغ ، وصار له السلطان الأكبر فى بلاد العرب ؟

واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا منهم إلى المدينة يفاوض محمدا ـ ﷺ ـ فى تجديد الهدنة ومد أجلها عشر سنين ، ولكن من يكون رسولهم ؟

أبو سفيان بن حرب ، ولا أحد سواه !

على هذا أجمعوا أمرهم ، ولم يستطع « أبو سفيان » إلا أن يذعن . وأنّى له أن يعتذر وهو الذى أشعل النار وسهر عليها يمدها بالوقود من فلذات أكباد مكة ... فلْيصْلَ اليوم حرَّها ، ولْيمضِ إلى « محمد » خصمه الألد ، يسأله الموادعة والمسالمة !

وخرج « أبو سفيان » من مكة مكرها يريد المدينة . فلما بلغها أشفق من لقاء « محمد » وذكر أن له ابنة هناك فى بيت خصمه ، فتسلل إليها يستعين بها على ما جاء من أجله .

وفوجئت به « أم المؤمنين » يدخل بيتها ، ولم تكن قد رأته منذ هاجرت الى الحبشة ، فوقفت تجاهه بادية الحيرة ، لا تدرى ماذا تفعل أو ماذا تقول ... وأدرك « أبو سفيان » ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس ، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش ، فما راعه إلا أن وثبت « رملة » فاختطفت الفراش وطوته فى إعزاز ، ثم وقفت تلهث .

سألها وهو يلوذ بالصبر :

« أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عنى ؟ » .

وجاءه ردُّها :

« هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك ، فلم أحب أن تجلس عليه ! » .

قال والألم يفرى كبده : « لقد أصابك يابنية بعدى شر »[1]

وانصرف مقهورا ...

واستندت هى على جدار بيتها ، عصية الدمع ، معطلة الحواس .

حتى جاء رسول الله أخيرا فعرفتْ ما كان من أمر « أبى سفيان » :

ذهب إلى النبى ﷺ فكلمه فى العهد فلم يجبه بشىء ..[2] .

فتوسل بأبى بكر إلى الرسول لكن أبا بكر رفض ...

فكلم « عمر بن الخطاب » فرد عليه فى غلظة وجفاء : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » .

وانطلق أبو سفيان إلى بيت « على بن أبى طالب » وعنده فاطمة بنت رسول

---

(١) السيرة : ٤ / ٣٨ ، وابن سعد فى الطبقات :٨ / ١٠٠ والاصابة ، عنه .

(٢) السيرة : ٤ / ٣٨ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ والسمط الثمين : ص ١٠٠ .

الله ، وولدها الحسن يدب بين يديها ، فقال : « يا على ، إنك أَمَسُّ القومِ بى رَحِماً ، وإنى قد جئت فى حاجة .. فاشقع لى إلى محمد » .

قال « على » :

« ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

فالتفت أبو سفيان إلى السيدة فاطمة وسألها متوسلا :

« يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخرِ الدهر ؟ » .

ردَّت رضى الله عنها :

« والله ما بلغ بُنَىَّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ » .

وإذ سدت السبل فى وجهه ، التمس نصيحة ابن عم النبى ، علىّ بن أبى طالب ، فقال كرم الله وجهه :

« والله ما أعلم شيئا يغنى عنك شيئا ، لكنك سيد بنى كنانة . فقم فأَجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك . وما أظن ذلك مغنيا ، ولكنى لا أجد لك غيره »[٢] .

فذهب « أبو سفيان » إلى المسجد ، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ، ثم أسرع إلى راحلته وانطلق بها يعدو فى طريق مكة ، كأنه يفر من مطارد ...

* * *

سمعت « أم المؤمنين » ما جرى لأبيها ، فما زادت على أن دعت لزوجها ﷺ بالنصر ، وقد رأته يتخذ أهبته للمعركة الفاصلة فى البلد الحرام .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ .

(٢) السيرة : ٤ / ٣٨ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٢ .

ولعل نساء النبى راقبنها وهى فى موقفها ذاك الدقيق الحرج ، ترى جيش المدينة يتأهب لأخذ قومها على غرة ، ومكة لا تزال فى حيرة من الأمر ، تستمع لما كان من أمر أبى سفيان الذى رجع من وفادته خائبا على غير قرار ، يقول :

« جئت محمدا فوالله مارد علىَّ شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو »[1] .

كان الموقف صعبا بالغ الصعوبة ، دقيقا أشد الدقة ، فانتصار محمد — ﷺ — يعنى القضاء على أبيها وعشيرتها ، وإن « أم المؤمنين » لتناصب قومها العداء ، وتبرأ منهم إلى الله ورسوله ، ولكن هل يبرأ دمها من دماء لهم سيطت به ؟ ... وهل يبرأ قلبها من الحزن للمصير الفاجع الذى ينتظرهم ؟ ! كلا ، بل إن عنَتَهم عزيز عليها ، مثلما هو عزيز على رسول الله ﷺ .

وإذ هى فى حيرتها المضنية لاح لها شعاع من الأمل :

ألا يمكن أن يسلم أبو سفيان كما أسلم عمر بن الخطاب وأخوها معاوية ، وخالد بن الوليد ، وأبو العاص بن الربيع ، زوج السيدة زينب كبرى بنات النبى ﷺ ؟ ..

إنه لأمل واهٍ ، أقرب إلى أن يكون سرابا ، ولكنها تشبثت به ليعصمها من الحيرة والجزع ،فتوجهت إلى السماء ، تدعو الله أن يهدى أبا سفيان إلى الإسلام !

وأحست حينذاك طمأنينة وسلاما ، فتلت ما نزل من آى الكتاب الكريم حين تزوجها محمد رسول الله :

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

---

(١) السيرة : ٤ / ٣٩ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١١٣ .

(٢) السمط الثمين : ١١٠ — والآية من سورة الممتحنة « ٧ » .

وكان هذا أقصى ما تملك « أم المؤمنين ، بنت أبى سفيان » لأبيها وأهلها ..

على حين بلغ الجزع برجل من البدريين رضى الله عنهم ، أن بعث كتابا مع امرأة من « مكة » تدعى « سارة » ووعدها مكافأة سخية إذا هى أبلغت كتابه قريشا ، ليعلموا الخطر الذى يوشك أن يدهمهم[1] .

وعلم النبى ﷺ بكتاب صاحبه « حاطب بن أبى بلتعة » فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، فأدركا « سارة » ومازالا بها حتى أخرجت الكتاب من ذوائب شعرها .

ودعا النبى إليه صاحبه ، فسأله عما حمله على ذلك . قال حاطب :

« يا رسول الله ، أما والله إنى لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرتُ ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم » .

فوثب به « عمر بن الخطاب » واستأذن النبىَّ ﷺ ، فى أن يضرب عنقه ، لكنه ﷺ حال دونه ، إذ كان من أصحاب « بدر »[2] .

وإنما جئت بحديث « حاطب » هنا ، لنقدر صعوبة الموقف على « أم المؤمنين بنت أبى سفيان » حين رأت زوجها ﷺ وهو خارج فى عشرة آلاف مقاتل يريد « مكة »

* * *

وتم الفتح ...

وطارت البشرى إلى « المدينة » بما أفاء الله على رسوله من نصر ...

وتسامعت « دار الهجرة » بما كان من لقاء النبى ﷺ ، بأبى سفيان ، الذى أرسلته مكة حين رأت نيران العسكر الغازى تتوهج قريبا منها ، ليستطلع أمر هذه الجيوش الزاحفة نحو البلد الحرام .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٤ / ٤٠ — والإصابة : حاطب بن أبى بلتعة .

(٢) ابن إسحاق فى السيرة : ١٠/٤ وابن سيد الناس فى (عيون الأثر ١٦٧/٢) من طريقه .

وعرف « العباسُ بن عبد المطلب » أبا سفيان فقال ينبئه بالخبر :

« ويحك يا أبا حنظلة ، هذا رسول الله فى الناس ، واصباحَ قريشٍ إذا دخل مكة عنوة ! فأسلم ثكلتك أمك وعشيرتك »[1]

قال أبو سفيان :

« فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟ » .

فأردفه « العباس » وراءه ، وسار به خلال المعسكر ، مارا بعشرة آلاف أوقدوا نيرانهم لتلقى الرعب فى قلوب المشركين .

فلما مرا بنار « عمر بن الخطاب » عرف أبا سفيان فأسرع إلى خيمة النبى ﷺ ، مستأذنا فى أن يضرب عنقه ...

وجاء العباس ، على أثره فقال : « إنى يا رسول الله قد أجرته » .

وأمسك القوم أنفاسهم حتى سمعوا كلمة الرسول عليه الصلاة والسلام :

« اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحتَ فائِتنى به » .

وقضى « أبو سفيان » ليلته مؤرقًا يترقب حكم « محمد بن عبد الله » فى كبير قريش .

فلما كان الصبح جىء بأبى سفيان إلى حضرة النبى ﷺ ، وفى مجلسه كبار المهاجرين والأنصار[2]

وتكلم النبى ﷺ :

« ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ »

قال : « بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أنْ لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئا بعد ! »

---

(١) ابن اسحاق ، السيرة : ٤ / ٤٥ ــ والنقل منها ، مقابلا على صحيح البخارى ، ك المغازى ، مع (فتح البارى ٨ / ٤) وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٠ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٩٨ .

(٢) السيرة : ٤ / ٤٥ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ٤٠ .

قال النبى ﷺ :

« ويحك يا أبا سفيان : ألم يأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ »

قال « أبو رملة » :

« بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه ، فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئاً ! »

ولكن « أبا سفيان » ما لبث أن أعلن اسلامه ..

فالتمس « العباس » من النبى ﷺ أن يكرم الرجل بشىء يُزَكّيه لدى قومه ، فأجاب النبى الكريم :

« نعم ... من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن »(1)

وبعث أبو سفيان من نادى فى مكة :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ... »

فما زالت أصداء الهتاف تُرجّع فى الأفق حتى بلغت سمع « أم حبيبة » فهتفت وقد هزها الفرح :

« من دخل دار أبى فهو آمن ! »

ألا ما أكرم زوجها ﷺ ، وما أحلمه ، وما أنبله ، وما أوصله !

وسجدت لله شاكرة ...

وقامت لترى وقع النبأ الجليل على عائشة ، وحفصة ، وكل نساء النبى ﷺ ..

* * *

وأحست أن قد أزيح عن كاهلها عبء باهظ ، ومن تلك اللحظة لم تقبل قط أن تتحداها « عائشة » ، أو تمارس معها ما اعتادت أن تمارسه من تحكم وزهو ومباهاة .

---

(1) السيرة : ٤/٤٦ ـــ وتاريخ الطبرى : ٣/١١٧ وطبقات ابن سعد : ٢/٩٨ والعيون : ٢/١٧٠ .

وظلت ما عاشت ، تقف لعائشة بالمرصاد ، وتتصدى لها كلما أسرفت فى غلوائها ، أو اشتطت فى اعتدادها بمكانتها .

حتى إذا حان الرحيل ، دعت إليها « عائشة بنت أبى بكر » فقالت لها وهى تحتضر :

« قد كاد أن يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فتحلليننى من ذلك ؟ »

أو قالت : « قد يكون بيننا ما يكون بين الضرئر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك » .

فحللتها عائشة واستغفرت لها ، واذ ذاك أضاء وجهها الشّاحب بنور الرضى وهمست :

« سررتنى سرَّكِ الله » .

وفعلت مثل ذلك مع « أم سلمة بنت زاد الركب »[1]

ثم رقدت بسلام ، وأودع جسدها ثرى البقيع الطيب ، فى المدينة المنورة فى سنة أربع وأربعين على الأرجح .

لها فى الكتب الستة خمسة وستون حديثا ، روت عنها بنتها حبيبة ربيبة المصطفى ﷺ ، وابن أخيها عبد الله بن عتبة بن أبى سفيان ، وابن أختها أبو سفيان بن سعيد بن المغيرة ، وعروة بن هشام بن المغيرة ، وأبو صالح السمّان ، وزينب بنت أبى سلمة ، ربيبة النبى ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم[2].

* * *

(١) أخرجه ابن سعد ، من حديث عائشة رضى الله عنها (٨ / ١٠٠) وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ، من طريق ابن سعد ، والسمط ١٠١ .

(٢) الإصابة ٨ / ٨٥ ، وتهذيب التهذيب ١٢ / ٤١٩ .

(١١)

ميمونة بنت الحارث الهلالية

آخِرُ أمهات المؤمنين

« ذهبت والله ميمونة ... أما إنها والله
كانت من أتقانا وأوصلنا للرحم »
عائشة بنت أبي بكر
الإصابة

« الأخوات مؤمنات »

لم يكن هنالك ما يشغل المسلمين بعد فتح « خيبر » وعودة بقية المهاجرين من الحبشة ، مثل التفكير فيما نص عليه « عهد الحديبية » فى ذى القعدة سنة ست ، من أن « يعود محمد وأصحابه إلى مكة فى العام الذى يليه ، فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف فى قربها ، ولا شىء غيرها »(١) .

وبات المهاجرون يحلمون بالعودة إلى « أم القرى » ويتمثلون أنفسهم وقد آبوا إلى أرض الوطن ، فطافوا بالبيت العتيق ثم ملأوا أعينهم من مراتع الصبا ومثوى الأجداد .

لقد مضت أعوام ذات عدد منذ أخرجوا من ديارهم وحيل بينهم وبين البيت الذى جُعل مثابة للناس وأمنا ، يأتون إليه من كل فج عميق .

فلما سعوا إليه فى العام السادس للهجرة معتمرين مسالمين وصاروا على مرحلة من « مكة » ، قام لهم المشركون فصدوهم عن المسجد الحرام ، وإن قبلوا أخيرًا أن يتركوا المسلمين يعودون إليه فى قابل ...

ومرت الأيام بطيئة والليالى طويلات ، حتى استدار العام ونادى النبى ﷺ فى الناس كى يتجهزوا للخروج إلى مكة .

* * *

وركب ناقته « القصواء » وتبعه ألفا راكب من المهاجرين والأنصار

---

(١) انظر نص العهد فى المتفق عليه من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه فى (اللؤلؤ والمرجان ك الجهاد ، الحديبية) .

يتلهفون شوقا إلى أقدم بيت عُبِد الله فيه ، وحرصا على السعى إلى مثابة حجهم ومهوى أفئدتهم .

وتراءت لهم على البعد رؤى حافلة مثيرة ، للقرية المباركة : مهد النبى الهاشمى ومنزل الوحى .

وارتفعت أصوات الحداة تبشرهم بالوعد الصادق ، وأمامهم « عبد الله بن رواحةالأنصارى » رضى الله عنه ، آخذا بخطام « القصواء » ينشد حاديا :[1]

خَلُّوا بنى الكفارِ عن سبيله
خلُّوا ، فكلُّ الخير فى رسوله

....

يـا ربِّ إنى مؤمـن بقيلـه
أعرف حقَّ الله فى قبولـه

حتى دخلوا مكة ، آمنين محلقين رءوسهم ومقصِّرين لا يخافون ، وقد جلا عنها الكفار المشركون فما فيها منهم يومئذ أحد .

وصدق الوعد الحق :

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[2] . .

وهتفوا فى صوت واحد ملبين :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك » .

فتجاوبت أرجاء « مكة » بدعاء المؤمنين ، ومادت الأرض تحت أقدام

---

(1) ابن اسحاق فى السيرة : ٤ / ١٣ ، وابن سعد فى الطبقات (٢ / ٨٨) وتخريجه فى (فتح البارى : ٧ / ٣٥١) .

(2) آية ٢٧ سورة الفتح .

المشركين الذين ضربوا خيامهم خارج البلد الحرام ، وأحسوا كأن الجبال الشم الصلاب تكاد تتصدع من رهبة وجلال ...

وتتابع الدعاء من ساحة الحرم :

« لا إله الا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » .

فما بقى مكى إلا وقد أيقن يومئذ أن يوم النصر الاكبر للمؤمنين جد قريب ...

وفعل المشهد المهيب أثره فى مكة وأهلها

فإذا سيدة من أكرم سيدات مكة ترنو إلى الركب النبوى وغاية أمانيها أن تغدو أما للمؤمنين .

تلك كانت « برة بنت الحارث بن حزن بن بجير العامرية الهلالية » إحدى الأخوات التى قال فيهن رسول الله ﷺ : « الأخوات مؤمنات »[1] .

شقيقتها « أم الفضل » لبابة الكبرى بنت الحارث » زوج العباس بن عبد المطلب وأم بنيه ، وأول امرأة آمنت بعد خديجة عليها السلام .

وأخوات برة لأمها :

« زينب بنت خزيمة الهلالية العامرية » أم المؤمنين وأم المساكين . و « أسماء بنت عميس الخثعمية » زوج جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين ، وأم ابنه عبد الله ، وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق فولدت له محمدا ، ثم خلف عليها الإمام على بن أبى طالب فولدت له يحيى ، رضى الله عنهم » .

و « سلمى بنت عميس » زوج حمزة بن أبى طالب ، أسد الله وشهيد أحد وأم بنته « أمامة » التى زوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام ربيبَه سلَمة . أمُّهن جميعا ، هند بنت عوف بن زهير بن الحارث ، التى كان يقال فيها :

---

(١) انظرهن فى الطبقات الكبرى ٨ / ٢٤٩ ومجمع الزوائد : ك المناقب ٩ / ٢٤٩ .

« أكرم عجوز فى الأرض أصهارا هند بنت عوف : أصهارها ، رسول الله ﷺ ، وأبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وحمزة والعباس ابنا عبد المطلب رضى الله عنهما ، وجعفر وعلى ابنا أبى طالب رضى الله عنهما » .

وكان لهند غير هؤلاء ، أصهار آخرون من ذوى المكانة : الوليد بن المغيرة المخزومى ، زوج لبابة الصغرى بنت الحارث ، أم خالد ، وأبىّ بن خلف الجمحى ، زوج ابنتها عصماء بنت الحارث ، وزياد بن عبد الله بن مالك الهلالى ، زوج عزة بنت الحارث .

ولبابة ، وعصماء ، وعزة ، بنات الحارث ، شقيقات لبرة ..(1)

كانت « برة » إذ ذاك أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها ، قد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى(2)

وكانت قد جعلت أمرها إلى شقيقتها « أم الفضل » فتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس ، وجعلت له أمرها فأنكحها النبى ﷺ وليا عنها وأصدقها عنه أربعمائة درهم . وسماها ﷺ « ميمونة » وفى رواية عن الزهرى أنها التى وهبت نفسها للنبى ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى فيها : ﴿ **وامرأةً مؤمنةً إنْ وَهَبَتْ نفسَها لِلنبيِّ إنْ أراد النبيُّ أن يستنكحَها خالصةً لكَ من دونِ المؤمنين** ﴾(3) .

قال السهيلى : « لما جاءها الخاطب بالبشرى وكانت على بعير ، رمت بنفسها من على البعير وقالت : البعير وما عليه لرسول الله ﷺ » .

ولم يرد اسم « ميمونة » رضى الله عنها فى تفسير البخارى لآية الأحزاب

---

(1) انظر مع طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة (ميمونة بنت الحارث) : السيرة ٤ / ١٩٦ ، والمحبر ١٠٧ ، وجمهرة الأنساب لابن حزم ٢٦٢ وعيون الأثر ٢ / ٣٠٨ والسمط الثمين ١١٣ .

(2) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ٤ / ١٩٦ ــ والاستيعاب . قابل على تاريخ الطبرى : ٣ / ١٧٨ ــ والاستيعاب والإصابة والسمط الثمين ١١٥ .

(3) سيرة ابن هشام : ٢٩٦/٤ والاستيعاب ١٩١٦/٤ . والإصابة ١٩٢/٨ ، وعيون الأثر ٣٠٩/٢ . كلهم عن الزهرى . والآية من سورة الأحزاب (رقم ٢٠) .

(١١٥) وأسند فيها عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى : ﴿ **تُرجِى إليكَ من تشَاء منهنَّ وتُؤوِى إليكَ من تشَاءُ .** ﴾ ـــ الآية ٥١ ـــ قلتُ : « ما أرى ربَّكَ إلا يسارع فى هواك » خرجه الحافظ ابن حجر من مختلف طرقه وبمختلف رواياته وأسماء الواهبات ثم قال : '' والمراد أنه صلى الله عليه وسلم ، لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان مباحاً له لأنه راجع إلى إرادته لقوله تعالى ﴿ **ترجى إليك من تشاء منهن** ﴾ . والمحفوظ أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل بأحد من الواهبات كما تقدم (فتح البارى ٨ / ٣٧٢)

* * *

كانت الأيام الثلاثة التى نص عليها عهد الحديبية[٢] ، قد قاربت نهايتها ، فود المصطفى لو يمهله المكيون ريثما يتم الزواج ، فيكسب بهذا الإمهال مزيدا من الوقت ، ليمكن للإسلام من هؤلاء الذين لا يزالوا يكفرون بألسنتهم عنادا وحسدا ...

فلما جاءه رسولا قريش يطلبان إليه أن يخرج ، إذ انقضى الأجل المنصوص عليه فى العهد ، قال مسالما :

« ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ »

(١) نص العهد على أن يرجع ﷺ وأصحابه فلا يدخلوا مكة عامئذ ، السنة السادسة هـ ، ثم يدخلها بأصحابه فى عام قابل ، فيقيموا بها ثلاثة أيام ـــ راجع نص العهد فى تاريخ الطبرى ٣ / ٧٩ وطبقات ابن سعد : ٢ / ٧٠ . مع (اللؤلؤ والمرجان ، ك الجهاد ، باب الحديبية) .

لكن رسولى قريش ، أدركا أن مكة لن تلبث أن تفتح أبوابها لمحمد طائعة ، إذا امتد مقامه بها أياما أخريات .

رَدًّا فى جفاء : « لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا »[1]

فنزل على كلمتهما وفاءً بعهده ، وأذَّن فى المسلمين بالرحيل مخلفا مولاه « أبا رافع » بمكة ، ليلحق به فى صحبة « ميمونة » .

....

(١) السيرة : ٤ / ١٤ وطبقات ابن سعد ٢ / ٨٨ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١٠٠ ، والاستيعاب والإصابة ، وعيون الأثر ٢ / ١٤٨ .

البقعة المباركة

وفى « سرف » قرب التنعيم ، على بريدٍ من مكة ، جاءت « ميمونة » يصحبها مولى النبى عليه الصلاة والسلام . . .

فبنى بها ﷺ فى ذى القعدة من سنة سبع ، ثم انصرف بها راجعا إلى « المدينة » .

وسماها « ميمونة » أن كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة الغراء ، التى دخل فيها أم القرى ، لأول مرة من سبع سنين ، ومعه صحابته آمنين لا يخافون ...

ودخلت « ميمونة »بيت النبى مسالمة ، قد اكتفت من دنياها بما منّ الله عليها به من نعمة الإسلام ،وشرف الزواج بالنبى الكريم عليه الصلاة والسلام .

وما من ريب فى أن الغيرة أخذتها من « عائشة » ثم من « مارية » : أن استأثرت الأولى بأوفى حظ من حب النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان للثانية شرف أمومتها لابراهيم .

وما من ريب كذلك فى أنها لم تقاوم عاطفة الجماعة ، حين تجمح الغيرة بنساء النبى ، وهى منهن .

لكن مؤرخى الإسلام وكتاب السيرة ، لا يذكرون لها ، فيما عدا ذلك ، حادثة مخاصمة انفردت بها فى البيت المحمدى .

وفى الصحيحين ، أنه ﷺ كان فى بيتها حين اشتد به الوجع فى مرض الموت ، فرضيت أن ينتقل ليُمرضَ حيث أحب ، فى بيت عائشة .

* * *

(١) السيرة : ٤ / ١٤ ــ وتاريخ الطبرى : ٣ / ١٠١ ــ والاستيعاب : ٤ / ١٩١٨ ووفاء الوفا للسمهودى : ١ / ٣١٦ .

فلما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى جوار ربه الأعلى ، عاشت « ميمونة » تذكر اليوم الميمون الذى جمعها بخير البشر ، وتحن إلى البقعة المباركة فى « سرف » حيث بنى بها ...

وقد أوصت أن تدفن فى موضع قبتها هناك ، فلما ماتت سنة إحدى وخمسين ، على الأرجح ، صلى عليها ابنُ أختها عبد الله بن عباس ، وأوصى الذين يحملونها بالترفق بها . حتى أرقدوها حيث أحبت ...[1]

وتركت من ورائها ذكرى عاطرة ...

حدث ابنُ أختها « يزيد بن الأصم العامرى » قال :

« تلقيت عائشة من مكة ، أنا وابنٌ لطلحة من أختها ، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه ... فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت علىَّ فوعظتنى موعظة بليغة ثم قالت : أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت من بيوت نبيه ؟ ... ذهبتْ والله ميمونة ، ورُمِى بحبلِك على غاربك . أما أنها كانت والله من أتقانا لله ، وأوصلنا للرحم »[2] .

سلام على ميمونة ...

وسلام على نساء النبى ﷺ ، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .

* * *

---

(١) لاخلاف فى مدفنها فى موضع قبتها بسرف ، لكنهم اختلفوا فى تاريخ وفاتها . نقل ابن سعد عن الواقدى أنها ماتت سنة إحدى وستين . وقال ابن عبد البر : سنة إحدى وخمسين ، وقال ابن حجر : هو الأثبت . وتعقب قول الواقدى فوهمه فيه مستدلا بحديث عائشة بعد وفاة ميمونة رضى الله عنهما . ولم يذكر ابن سيد الناس فى وفاتها غير سنة إحدى وخمسين ، وقد بلغت ثمانين سنة (عيون الأثر ٢ / ٣٠٩) .

(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات بسنده إلى يزيد ، وابن حجر فى ترجمتها بالإصابة ، من طريق ابن سعد .

مــارية القبطيّة

أمّ إبراهــيم

« إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ،
فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما »
رسول الله ﷺ
(صحيح مسلم)
باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر

هـدية مِن مِصـر

غير بعيد من بيت النبى ، فى منزل خاص بعوالى المدينة ، كانت تقيم سَرِية للنبى ﷺ لم تحظ بلقب أم المؤمنين ، ولكنها حظيت دونهن جميعا بنعمة أمومتها لابنه ابراهيم عليه السلام إلى جانب حظوتها ، مثلهن ، بشرف الصحبة .

ولم تكن تقيم فى حجرات النبى بالمسجد ، إلا أن أثرها فى هذه الحجرات وساكناتها كان جد بعيد .

فمن تكون هذه السرية ؟ وكيف دخلت حياته ﷺ ؟ وأى موضع كان لها فى هذه الحياة ؟

فى قرية عتيقة من صعيد مصر ، تدعى « حَفْن » من كورة « أُنْصِناَ »[1] الواقعة على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، ولدت « مارية بنت شمعون » لأب قبطى ، وأم مسيحية رومية .

وأمضت بها حداثتها الأولى قبل أن تنتقل فى مطلع شبابها الباكر مع أختها « سيرين » إلى قصر « المقوقس عظيم القبط ملك الإسكندرية » .

وقد سمعت هنالك بما كان ظهور نبى فى جزيرة العرب يدعو الى دين سماوى جديد ، وكانت فى القصر حين وفد « حاطب بن أبى بلتعة » رضى الله

---

(١) الضبط عن أبى عبيد البكرى فى معجم ما استعجم ، وفيه : ويقال إن سحرة فرعون كانوا منها ، وأنه جلبهم منها يوم الموعد . وهى واقعة فى شرق النيل وكانت حسنة البساتين والمتنزهات كثيرة الثمار والفواكه » نقله التقى المقريزى . وقال أبو حنيفة الدينورى : ولا ينبت البِنج إلا بأنصنا وهو عُودٌ ينشر منه ألواح السفن . (خطط المقريزى ١ / ٢٠٤) .

وللأستاذ حفنى ناصف بحث فى (موطن مارية القبطية من الديار المصرية) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين فى أثينا سنة ١٩١٥ . وانظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، القسم الأول : البلاد لبلاد المندرسة (أنصنا : ص ١٣٢) ط دار الكتب المصرية .

عنه[1] ، موفدا من هذا النبى العربى يحمل رسالة إلى المقوقس .

وأذن له فى الدخول ، فأدى الرسالة ، كتاب النبى ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلِمْ تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يا أهلَ الكتابِ تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم إلَّا الله ولا نشركَ به شيئًا ، ولا يتخذَ بعضُنا بعضًا أربابا من دونِ اللَّهِ ، فإنْ تَوَلَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون »[2] .

وقرأ المقوقس الكتاب ثم طواه فى عناية وتوقير ، ووضعه فى حُقٍّ من عاج دفعه إلى واحدة من جواريه .

والتفت بعد ذلك إلى « حاطب » يسأله أن يحدثه عن النبى — ﷺ — ويصفه له ، فلما فعل ، فكر المقوقس مليا ثم قال لحاطب :

« قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ... ولكن القبط لا تطاوعنى » وضنَّ بملكه أن يفارقه . ثم دعا بكاتبة فأملى عليه رده :

« ... أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام ...

« وقد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة ، ومطية لتركبها ، والسلام عليك »[3] .

---

(١) من البدريين . وكان أحد الستة الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام فى محرم سنة سبع بعد فتح خيبر (السيرة ٤ / ٢٥٤ ، طبقات ابن سعد ١ / ٢٥٨ ، تاريخ الطبرى ٤ / ٨٤) مع ترجمة حاطب رضى الله عنه ، فى (الاستيعاب : رقم ٤٥٧) ومارية ، رضى الله عنها فى نساء الاستيعاب ٤٠٩١ ، ونساء الاصابة ٩٧٩ .

(٢ — ٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٨٥ والمحبر ٩٨ ، وعيون الأثر٢ / ٢٦٦ والنقل منه ، وفى الهدية ، عند ابن سعد (١ / ٢٦٠) الحمار عفير ، أو يعفور . حكاه ابن حجر فى ترجمة مارية بالإصابة .
— مع الآية ٦٤ من سورة آل عمران .

ودفع « المقوقس » كتابه إلى « حاطب » معتذرا بما يعلم من تمسك القبط بدينهم ، وموصيا إياه بأن يكتم مادار بينهما ، فلا يسمع القبط منه حرفًا واحدا .

وانطلق « حاطب » عائدا إلى النبى ﷺ ، ومعه « مارية » وأختها « سيرين » وعبد خصى ، وألف مثقال ذهبا ، وعشرون ثوبا لينا من نسج مصر ، وبغلة شهباء « دلدل » وجانب من عسل « بنها » وبعض العود والند والمسك .

وشعرت الأختان بوحشة لفراق الوطن ، فسارتا تملآن أعينهما من الوادى الحبيب ، حتى إذا غابت عنهما آخر معالمه ، ألقتا نظرة وداع ، على الأرض التى حُلَّت فيها تمائمهما ، ودرج عليها صباهما .

وأحس « حاطب » ما تجد الأختان الشابتان من شجن الفراق ، فأقبل عليهما يحدثهما عن تاريخ لبلاده عريق ، ويروى لهما ما وعى من قصص وأساطير نسجها الزمان حول مكة والحجاز طوال قرونٍ لا عداد لها ، ثم انثنى يتحدث عن النبى ﷺ ، حديث مؤمن وامق وتابع صاحب ، فأخذت الشابتان بما سمعتا وانشرح قلباهما للإسلام ونبيه الكريم .

واستغرقهما التفكير فى الحياة الجديدة التى توشك أن تستقبلهما ، وفى السيد النبى الذى ينتظر فى « المدينة » رجوع صاحبه « حاطب » بجواب المقوقس . وفى الإصابة من طريق ابن سعد ، أن حاطبا عرض الإسلام على مارية ورغبها فيه ، فأسلمت هى وأختها .

* * *

حتى بلغ الركب المدينة سنة سبع من الهجرة ، وقد عاد النبى ﷺ من « الحديبية » بعد أن عقد الهدنة مع قريش .

وتلقى ﷺ كتاب المقوقس ، وهدية مصر ...

وأعجبته « مارية » فاكتفى بها ، ووهب أختها « سيرين » شاعره « حسان بن ثابت » فهى أم ولده عبد الرحمن .

وطار النبأ إلى دور النبى ، أن شابة مصرية حلوة ، جعدة الشعر ، جذابة الملامح قد جاءت من أرض النيل هدية للنبى ﷺ فأنزلها بمنزل لحارثة بن النعمان الأنصارى ، قرب المسجد .

وتكلفت « عائشة » ما استطاعت من جهد ، لكى تعلل نفسها بألا خطر عليها من هذه الشابة الجديدة ، فما كانت سوى جارية قبطية غريبة ، أهداها سيد إلى سيد .

لكنها راحت ترقب فى كثير من القلق ، مظاهر اهتمامه ﷺ بتلك المصرية الطارئة ، وقد أثار جزعها أن تراه ﷺ يكثر من التردد عليها ، ويمكث لديهًا طويلا « فكان عامة الليل والنهار عندها » فى ساعات فراغه(١) .

وفى رواية للواقدى بسنده عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب بمارية القبطية ، وكانت بيضاء جعدة جميلة ، فأنزلها وأختها على أم سُلَيم بنت ملحان ، فدخل عليهما فعرض عليهما الإسلام فأسلمتا . وحولها إلى مالٍ له بالعالية ، ووهب أختها سيرين ، حسانَ بن ثابت(٢) .

---

(١) أسنده ابن سعد فى الطبقات من حديث السيدة عائشة ، وذكره ابن حجر فى الإصابة من طريق ابن سعد .

(٢) طبقات ابن سعد : ١ / ١٣٤ .

طيفٌ وأمَل

مضى عام أو نحو من عام و« مارية » سعيدة بحظوتها لدى السيد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، قد اطمأن بها المقام فى كنفه ، وأرضاها أن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين .

وانحصرت أمانيها وخواطرها ، بل انحصر وجودها كله فى شخص ذلك السيد العظيم الذى ربطها القدر به على غير ميعاد ، فكان لها السيد والصاحب والأهل والوطن ، وصار همها أن تظل أبدا موضع حظوته ورضاه .

وكانت تحمل فى كيانها سحر مصر ، وفى أعطافها أريج الوادى العطر ، كما كانت تحف بها رؤى مثيرة وأطياف ساحرة ، لإيزيس فى حبها العبقرى ، ونفرتيتى فى جمالها الباهر ، وحتشبسوت فى ملكها العتيد ، وكيلوباتره فى جاذبيتها الآسرة ..

ولم يَغِض ذلك النبع الدافق الذى كان يمدها فى كل آن بعذب الحديث وشهى السمر ، على أنها كانت مشوقة أبدا لأن تستعيد قصة « هاجر » الفتاة المصرية التى جاءت من أرض النيل ، وحملت من سيدها « ابراهيم » فأثارت غيرة امرأته السيدة « سارة » فما زالت بزوجها حتى مضى بتلك المصرية وابنها إلى البيت العتيق ، حيث تركهما هنالك : وحيدين بوادٍ غير ذى زرع عند أطلال البيت المحرم العتيق .

وطالما شاق « مارية » أن تسمع الحديث عن نجدة السماء التى هدت « هاجر » إلى نبع زمزم ، وكيف بدأت الجزيرة العربية بانبثاق ذاك النبع المبارك حياة جديدة ، وكيف عاشت « هاجر » ملء التاريخ ، وصار مسعاها مهرولةً

بين الصفا والمروة ، شعيرة مقدسة من شعائر حج العرب فى الجاهلية والإسلام .

وألِفت « مارية » حين كانت تخلو بنفسها ، أن تفكر فى « هاجر » ومصريتها وأمومتها لاسماعيل وللعرب ، فلم تخطئ فيها ملامح شبه بها : فكلتاهما جارية مصرية ، وكانت « هاجر » هبة من سارة للنبى ابراهيم عليه السلام ، كما أن « مارية » هبة من المقوقس للنبى محمد ﷺ وقد أثارت كلتاهما غيرة الزوجات الشرعيات فى بيت السيد النبى ابراهيم ، و محمد ، صلوات الله عليهما .

ولكن « هاجر » كانت أما لولد ابراهيم ، فهل تغدو « مارية » أما لولد محمد ؟ ! ..

ما أبعد الأمنية ، بل ما أدناها من المستحيل ! ...

لقد تزوج المصطفى ﷺ منذ ماتت السيدة خديجة ، عشر زوجات ، منهن الشابة الفتية ، والمرأة الناضجة ، ومنهن من كانت ذات ولد . ولكن أرحامهن جميعا أمسكت فما تجود بولد واحد للنبى الذى تخطف الموت أبناءه من خديجة ، فلم يدع له سوى ابنة واحدة ، هى السيدة « فاطمة الزهراء » .

وقد شارف الستين من عمره ، وبدا كأنه كف عن تمنى الولد ، بعد سنين مجدبة ، مع زوجات ذوات عدد .

فأنّى لمارية أن يكون لها مثل ما كان لهاجر من أمومتها لإسماعيل ؟

يا لها من أمنية أبعد من الوهم ، ويا له من أمل أوهى من السراب !

....

بُشْـــرَى

استقبلت « مارية » عامها الثانى فى حياة النبى ﷺ ، وما تكفّ عن ذكر هاجر ، واسماعيل ، وابراهيم .

وفجأة أحست بوادر حمل مستكن ، فكذبت إحساسها واتهمت يقظتها ، وخيل إليها أن المسألة لا تعدو أن تكون وهما جسمه شوقها الملح إلى الأمومة ، وتفكيرها الدائم فى هاجر واسماعيل .

وكتمت ما بها شهرا وشهرين وهى فى ريب من الأمر ، لا تدرى أحق هو أم ذاك حلم يقظة ورؤيا منام .. حتى تجسمت البوادر الأولى وصارت أوضح من أن تتهم .

هنالك أفضت به إلى أختها « سيرين » فأكدت لها أن ليس فى الأمر وهم ولاشبه وهم ، وإنما هو جنين حى .

وأخذ « مارية » من الانفعال والفرح ما قرب وما بعُد ، فما حسبت أن السماء سوف تستجيب لدعائها هكذا ، وتحقق أملها الذى بدا عقيما واهيا كالسراب .

واستغرقتها نشوة حالمة ، حتى جاء السيد الرسول ، فأفضت إليه ﷺ بالسر الخطير الذى تجنه أحشاؤها .

وتذكر ما كان يلحظه من توعكها وقلقها وزهدها فى الطعام ، وهى أعراض عرفها من قبل فى « خديجة » فى مستهل كل حمل ، لكنه حسبها فى « مارية » وعكة طارئة لا تلبثُ أن تزول .

ورفع إلى السماء وجها مشرق الأسارير يشكر لخالقه ذاك العزاء الجميل

الذى منَّ به على عبده الرسول ، إثر فقد ابنته الغالية « زينب » بعد أن ماتت قبلها رقية ، وأم كلثوم ، ومات عبد الله ، والقاسم ...

سبحانه ، جلَّتْ قدرته وعظمت آياته ، ووسعتْ رحمتهُ عبده المصطفى ، كما وسعتْ من قبله ، عبديه ابراهيم وزكريا عليهما السلام قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(1) .

ومن آياته تعالى فى زكريا والبشرى : **﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾**(2) .

لكن « مارية » لم تكن عجوزا ، كما لم يكن ﷺ عقيما قد بلغ من الكِبَر عِتِيّا ! وفاض عالمهما المشترك بالهناءة والغبطة .

* * *

سرعان ما سرت البشرى فى انحاء المدينة أن المصطفى ﷺ ينتظر مولودا له من « مارية المصرية » ، وما بقارىء حاجة إلى أن نصور له وقعها الأليم على نساء النبى ﷺ .

أتحمل هذه الغريبة الطارئة ، ولما يمض عليها فى المدينة سوى عام واحد ، وإن منهن من أمضت معه ﷺ عدة أعوام بلا حمل ؟ ...

أيؤثرها الله بهذه النعمة الكبرى ، وأمهات المؤمنين ــ وفيهن بنتا أبى بكر

(١) سورة الذاريات : الآيات : ٢٤ – ٣٠ .
(٢) سورة مريم : الآيتان ٨ , ٩ .

وعمر ، وبنت زاد الركب ، وحفيدة أبى طالب ، وبنت أبى سفيان — محرومات لا يلدن ؟

روى ابن سعد من طريق الواقدى ، أن رسول الله ﷺ « حجب مارية وكانت قد ثقلت على نسائه ، وغِرْنَ عليها ، ولا مثل عائشة »[1] .

ونقلها ﷺ إلى « العالية » بضواحى المدينة ، توفيرا لراحتها وسلامتها ، وعناية بصحة جنينها .

وسهر عليها يرعاها ، وكذلك فعلت أختها « سيرين » حتى بلغ الجنين أجله وحانت ساعة الوضع ذات ليلة من شهر ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ودعا ﷺ قابلتها « سلمى : زوج أبى رافع » ثم انتحى ناحية من الدار ، يصلى ويدعو ...

فلما جاءته أم رافع بالبشرى[2] أكرمها كل الإكرام، وخف إلى مارية فهنأها بولدها الذى أعتقها من الرق ثم حمل وليده بين يديه فى غبطة وسماه « ابراهيم » تيمنا باسم جد الأنبياء[3] .

وتصدق ﷺ على مساكن المدينة بوزن شعر الوليد ورقا ، وتنافست نساء الأنصار أيتهن ترضعه ، وأحبوا أن يفرِّغوا مارية للنبى ﷺ لما يعلمون من هواه فيها ، فاختار مرضع ولده ، وجعل فى حيازتها قطعة من الماعز كى ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها[4] .

---

(١) الطبقات الكبرى ، ترجمة ابراهيم عليه السلام (١ / ١٣٥) .

(٢) وفى رواية ان الذى حمل البشرى الى النبى ﷺ ، مولاه أبو رافع زوج سلمى : (ابن سعد ١ / ١٣٦ السمط : ١٤٠) وانظر الاستيعاب : ١ / ٥٤ .

(٣) السمط الثمين : ١٤٢ — وانظر الاستيعاب : ٤ / ١٩١٣ .

(٤) فى (صحيح مسلم ، ك الفضائل : ح ٢٣١٥) أنها « أم سيف » ، امرأة أبى سيف قين بالمدينة . وفى رواية للواقدى أنها أم بردة بنت المنذر الأنصارية (١ / ١٣٦) وانظر ترجمته عليه السلام فى الإصابة والاستيعاب : ١ / ٥٥ وفى رواية أنه ﷺ ، حلق رأس ولده يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وذبح كبشين « وفاء الوفاء : ١ / ٣١٦ » .

وراح يرقب نموه يوما بعد يوم ، ويجد فيه أنسه ومسرته ، ويود لو شاركته دنياه كلها فى هذا الأنس . ،

حمله يوما بين ذراعيه إلى « عائشة » فبلغ من شدة قهرها أن كادت تبكى مما تجد ، لكنها أمسكت عبرتها مغيظة . . .

وأدرك ﷺ على الفور مدى ما تكابد ، فانصرف بولده وهو يرثى لعائشة ...

وظلت النار ترعى تحت رماد من التجمل والتكلف والمدارة ، حتى كان اليوم الذى اجتمع فيه ﷺ بمارية فى بيت « حفصة » فاندلع الضرام من تحت الرماد متوهجا ، وكان ما كان من قصة التحريم .

....

وخُيل لمارية أنها بلغت مناها ، فهذه هى تلد للنبى ﷺ ولداً كما ولدت « هاجر » لإبراهيم ابنه اسماعيل عليهما السلام .

وهذه هى محنة الغيرة تنتهى على خير لها .

ولم يسعد « مارية » شيء قدر ما أسعدها أن تهب السيد المصطفى عليه الصلاة والسلام على اليأس غلاما تقر به عينه ، ويتعزى به عمن فقد من أبناء السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها .

* * *

لكنها لم تنج من غيرة نساء النبى ﷺ :

فى (الإصابة) من طريق عَمرة ، بنت عبد الرحمن ، عن عائشة رضى الله عنها ، قالت : « ما غِرتُ على امرأة إلا دون ما غِرْتُ على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأُعجب بها رسول الله ﷺ ، وكان أنزلها أولَ ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان ، الأنصارى ، فكانت جارتنا ، فكان عامة الليل

والنهار عندها .. فجزعتُ فحولها إلى العالية ، وكان يختلف إليها هناك ، فكان ذلك أشد علينا » زادت فى رواية : « ثم رزقها الله الولدَ وحُرِمناه منه » .

على أن غيرة أمهات المؤمنين ، رضى الله عنهن ، لم تنلْ من » مارية » ما نالته شائعة سوء أرجف بها مرجفون من أهل المدينة .

ولم يتخل الله تعالى عنها فى محنتها ، بل أتاح لها دليلا قاطعا على براءتها من الريبة ، فى حديث صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أخرجه مسلم فى (صحيحه : كتاب التوبة ، باب براءة حرم النبى ﷺ ـــ أم ولده ابراهيم ـــ من الريبة) وأخرجه الحافظ أبو عمر ابن عبد البر فى ترجمتها ، رضى الله عنها ، بالاستيعاب[1] .

* * *

(١) وانظر مناقب ابراهيم عليه السلام فى (مجمع الزوائد : ٩ / ١٦١ ـــ ١٦٢) .

الهلال الغارب

لكن سعادتها لم تطل سوى عام وبعض عام ، ثم كانت المحنة الفادحة والثكل المر ..

مرض « ابراهيم » ولما يبلغ عامين من عمره ، فجزعت أمه ودعت إليها أختها ، وقامتا ساهرتين حول فراشه تمرضانه ونفساهما تذوبان عليه من لهفة وقلق ، لكن الحياة أخذت تنطفىء فيه رويدا روّيدا ... فجاء أبوه معتمدا على يد « عبد الرحمن بن عوف » لشدة ألمه ، فحمل صغيره من حجر أمه وهو يجود بنفسه ، ووضعه فى حجره محزون القلب ضائع الحيلة ، لا يملك إلا أن يقول فى أسى وتسليم :

« إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا » ثم ذرفت عيناه وهو يرى ولده الوحيد يعالج سكرات الموت ، ويسمع حشرجة احتضاره ، مختلطة بعويل الأم الثكلى والخالة المفجوعة ..

عن « أنس بن مالك » رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله ﷺ على « أبى سيف ، القيْن » وكان ظئرا لابراهيم عليه السلام ، فأخذ رسول الله ﷺ ابراهيم فقبّله وشمّه . ثم دخلنا عليه بعد ذلك وابراهيمُ يجود بنفسه . فجعلت عينا رسول الله ﷺ تدمعان فقال له عبد الرحمن بن عوف ، رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يا ابن عوف ، إنها رحمة . ثم أتبعها أخرى فقال ﷺ : إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1] » .

---

(١) متفق عليه من حديث أنس رضى الله عنه والنقل من (اللؤلؤ ، ك الفضائل ح ١٤٩٥) .

توفى عليه السلام لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة على الأرجح[١] .

وانحنى الأب الثاكل على جثمان فقيده فقبله والدمع يفيض من عينيه ثم تمالك نفسه وقال : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمرٌ حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأوّلنا ، لحزنّا عليك حزنا هو أشد من هذا . وإنا بك يا ابراهيم لمحزونون . تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب »[٢] .

ثم نظر إلى مارية فى عطف ورثاء ، وقال يواسيها : « إن ابراهيم ابنى ، وإنه مات فى الثدى ، وإن له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنة »[٣] .

وأقبل ابن عمه ﷺ « الفضل بن عباس » فغسّل الصغير الميت ، وأبوه ﷺ جالس يرنو اليه فى حزن .

وحُمل من بيت ظئره على سَرير صغير وصلّى عليه أبوه ، عليه الصلاة السلام وكبّر أربعاً . ثم سار وراءه إلى البقيع ، وأضجعه بيده فى قبره ، ثم سوى عليه التراب ونداه بالماء[٤] .

وآب المشيعون واجمين ، وقد غام الأفق وانكسفت الشمس ، فقال قائلون : « أنها انكسفت لموت إبراهيم » .

وبلغت الكلمة مسمع النبى ﷺ ، فصلّى بالناس صلاة الكسوف وخطبهم ، قال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا »[٥] .

---

(١) طبقات ابن سعد . ولا خلاف فى أنه عليه السلام ولد سنة ثمان (فتح البارى : ٣ / ١١٣) .

(٢) الاستيعاب : ١ / ٥٦ ــ والنقل منه ــ والإصابة : ابراهيم بن محمد عليه السلام . والسمط الثمين ١٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الفضائل : ٤ /١٨٠٨ (ح ٢٣١٦) وانظر (فتح البارى ١١٣/٣) .

(٤) طبقات ابن سعد : ١ / ١٤١ ، عيون الأثر ٢ / ٢٩١ ــ والنقل منها ــ والاستيعاب من طريق الواقدى ١ / ٥٦ .

(٥) متفق عليه من عدة طرق بألفاظ متقاربة (اللؤلؤ والمرجان : ك الكسوف) .

وطوى جرحه فى قلبه الكبير صابرا مستسلما لقضاء الله فيه ، واعتكفت « مارية » فى بيتها تحاول ان تتجمل بالصبر حتى لاتنكأ الجرح فى قلب السيد الرسول ، فإذا عز الصبر خرجت إلى البقيع فاستروحت لقرب فقيدها ، والتمست راحة فى البكاء .

* * *

ولكن أيامه ﷺ لم تطل بعد موت « ابراهيم » فى السنة العاشرة للهجرة ، فما أهل ربيع الأول من السنة التالية حتى شكا ﷺ ، ثم لحق بربه الأعلى ، وترك « مارية » من بعده تعيش خمس سنوات فى عزلة عن الناس ، لا تكاد تلقى غير أختها سيرين ، ولا تكاد تخرج إلا لكى تزور قبر الحبيب بالمسجد ، أو قبر ولدها بالبقيع .

فلما ماتت سنة عشر من الهجرة « أخذ أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يحشد الناس لجنازتها ، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع[1] .

* * *

(١) ترجمتها رضى الله عنها فى الطبقات والاستيعاب والإصابة .

وصية النبى ﷺ بأهل مصر

﴿ **كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت** ﴾ فحسبُ « مارية » أنها دخلت فى حياة النبى ﷺ ، وأنْ آثرها الله تعالى بأمومتها لإبراهيم عليه السلام .

وارتبطت ذكراها بذكرى هاجر فى وعى التاريخ وضمير الأمة ، ورجَّعت الأجيال ما بينهما من صلة حميمة ، منذ جاءتا الحجاز ، فتاتين من مصر ، هديتين من ملكها : هاجر أم ولد ابراهيم عليه السلام ، ومارية أم ولد محمد عليه السلام . ولعل أول من ربط بين مارية وهاجر ، سيدنا محمد ﷺ ، فى وصيته بأهل مصر . محفوظة موثقة ، مدونة فى صحاح الحديث فى (باب وصية النبى ﷺ بأهل مصر) .

بعنوان هذا الباب ، أخرج مسلم فى (صحيحه) من طريقين حديث أبى ذر الغفارى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحما ــ أو قال : ذمة وصهزا . »

وفى رواية : « استوصوا بأهل مصر خيرا فإن لهم نسبا وصهرا . »

النسب من جهة هاجر أم « اسماعيل عليه السلام ، جدِّ العرب العدنانية . والصهر من جهة مارية القبطية أم ابراهيم بن محمد » عليه السلام . ففى أهل مصر ، خئولة ولد ابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

وتداول الحفاظ حديث الوصية النبوية بأهل مصر ، فرواها « أبو يعلى

---

(١) صحيح مسلم ، ك الفضائل ، باب (وصية النبى ﷺ بأهل مصر) .

الموصلى » فى مسنده ، و « أبو القاسم الطبرانى » فى معجمه الكبير و « نور الدين الهيثمى » فى مجمع الزوائد .

وقد فتحت مصر سنة عشرين بعد تسع سنين من وفاة المصطفى ﷺ ، فكانت الوصية من وثائق الفتح : ذكرها « عمرو بن العاص ، رضى الله عنه » فى مفاوضات الصلح بينه وبين مندوبى المقوقس ، قال لهما فيما قال : « وقد أعلمنا ، نبينا ﷺ ، أنا مفتتحوكم وأوصانا بكم ، حفظاً لِرَحمنا فيكم ، وان لكم ، إن أجبتمونا ذمة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أمير المؤمنين : استوصوا بالقبطيين خيرا فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وصهرا .. »[1] .

وأخرج مؤرخو مصر الإسلامية ، حديث الوضية فى كتب فتوح مصر وفضائلها ، فأخرجها من عدة طرق « ابن عبد الحكم أبو القاسم عبد الرحمن » فى مستهل كتابه (فتوح مصر) والربيع الجيزى فى (من دخل مصر من الصحابة ، رضى الله عنهم) .

ومَن بعدهما من المؤرخين الحفاظ من : أبى جعفر الطحاوى ، وابن يونس الصدفى فى تاريخيهما الكبيرين ، إلى التقى المقريزى ، وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) والجلال السيوطى فى (حسن المحاضرة) .

ودخل حديث الوصية فى كتب الدلائل ، أذكر منها (دلائل النبوة لأبى بكر البيهقى ، ولأبى نعيم الأصبهانى) .

وكذلك أخذت بلدة (حَفْن ، من كورة أنصنا) الأثرية القديمة من صعيد مصر موضعها من كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين فى (النجوم الزاهرة : ١ / ٢٩) عن ابن كثير :

« وقد وضع عنهم ـــ أهل حَفْن من كورة أُنْصِنا ـــ معاويةُ بن أبى سفيان

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤ / ٢٢٧ ـــ ٢٢٨ (سنة عشرين) .

الجزية إكراما لابراهيم بن رسول الله ﷺ » من مارية القبطية . قال ياقوت فى (حفن) من معجم البلدان : « وكلّم الحسن بن على رضى الله عنهما معاوية لأهل حفن فوضع عنهم معاوية خراج الأرض » .

ويقال إن « عبادة بن الصامت الأنصارى » رضى الله عنه ، وكان ممن شهد فتح مصر ، بحث عن تلك البلدة وسأل عن موضع بيت مارية بها ، فبنى به مسجدا .

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾

صدق الله العظيم

* * *

الكتابُ الثالث

بناتُ النَّــــبيِّ

(صلى الله عليه وعلى آله وسلم)

تقـديم :

تمضى القرون والأدهار ، وشخصية « محمد ﷺ » موضع اهتمام الكتاب والدارسين على اختلاف نحلهم وشتى مذاهبهم ، يجدون فيها المادة الخصبة للدراسة الجديدة أبدا ، ويلتمسون لديها ما يجلو أسرار العظمة الإنسانية كما تمثلت فى بشر رسول ، بهر الدنيا وصنع التاريخ ، وإنه ليأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ..

ذلك لأن الانسانية — على كثرة من عرفت فى تاريخها الطويل من رسل وأنبياء ، وقادة وأبطال — ستظل أبد الدهر ترنو إلى هذا النبى العربى الذى اصطفاه الله تعالى بشرا رسولا ، فكانت هذه البشرية آية عظمته ، بقدر ما هى تكريم للبشرية .

وحين تختلف بالناس الأديان ، وتفرقهم المذاهب والملل والأهواء أحزابا وشيعا ، تظل البشرية ما بقيت ، تعتز بأن يكون منها نبى ، حمل إلى الدنيا رسالة التوحيد التى رفعت عنها وصمة الوثنية ولعنة الشرك ، وتلافى الناس من آيات الله تعالى فى ختام رسالاته :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

وهذا الإيمان العميق بعظمة البشر الرسول ، هو الذى وجَّه دراساتى للجوانب التى اخترتها من شخصيته الفذة : فكان كتابى عن « أم النبى » محاولة لفهم جانب البنوة فى الوليد اليتيم الذى وضعته امرأة من قريش تأكل القديد ، كما تضع كل أنثى من البشر ، ليكون بعد أن يبلغ أشده ، المصطفى المبعوث بآخر رسالات الدين .

وكان كتابى عن « نساء النبى » ﷺ محاولة لدرس شخصية الزوج الرسول ، إذ يمارس حياته الزوجية فى بيته بفطرةٍ سوية ، لم تجردها النبوة من العواطف والرغبات ، ولم تنكر على نسائه ـــ أمهات المؤمنين ـــ نوازع الفطرة وميراث حواء . .

وهذا كتابى عن « بنات النبى » ﷺ أحاول فيه أن أقدم شخصية الأب الرسول ، وأن أجتلى عاطفة الأبوة ، ممثلة فى شخص نبى إنسان ، اصطفاه الله رسولًا ، وأراد له أن يكون والدا لبنات أربع ، فى بيئةٍ وأدت البنات وفُتنت بالبنين ...

* * *

وبعد ، فأحسب أن قارئى يقدر أن لموضوع هذا الكتاب من الجلال والمهابة والحرمة عند مثلى ، ما يحميه من شطط القلم وجموح الخيال ، ومن ثم لا أرانى فى حاجة إلى أن أؤكد أن مادة الكتاب تاريخية أصيلة ، قد أخذت من مصادرها الأصول ، وأن ليس لى من عمل فيه سوى جهد البحث وأمانة النقل وأسلوب التناول والأداء . والله مع مَن بَرَّ واتَّقَى ، له الحمد والمنة وبه المستعان .

المبحث الأول

الأبوّة فى المجتمَع العَربىّ

— الأَبُوَّة فى الجاهليَّة

— الأَبُوَّة العَربيَّة فى الرسَالة المحَمَّديّة

وَفى شَخْصِ رَسُولِ ٱللهِ عَلَيْهِ الصَّلاَة والسّلام

الأبوّة فى الجاهليّة

حين تهيأت للكتابة عن بنات النبى ﷺ ، بدأت أقرأ فى كتب السيرة والحديث والتاريخ ، لأستخلص منها ما يتصل بهؤلاء الكريمات اللواتى شرُفن بأَجَلِّ أبوة عرفتها البشرية منذ كانت . غير أنى ما كدت أمضى فى القراءة ، حتى وجدت أنى لن أستطيع الوفاء بحق الموضوع ، إذا لم أبدأ قبل كل شىء بدراسةٍ لأبوة محمد ﷺ ، وهى دراسة شاقة ، تحتاج دون ريب إلى دراية عامة بالمجتمع العربى ومعرفة مكان الأبوة فيه ، ليكون لنا من هذا ما يجلو صورة الأب الرسول ، ويزيدنا إدراكا لنواحى السمو والجلال فيها .

والحديث عن الأبوة فى المجتمع العربى ، حديث يطول ، وأخشى إذا أنا أرسلت قلمى يكتب فيه ملء عنانه ، أن يستغرق أكثر القدر المفروض لهذا الكتاب أو يجور على الموضوع الأصيل الذى يحدده عنوانه ، ومن ثم رأيت ضبطا للتناول ، أن أنسقه فى مباحث ثلاثة : ألم فى أولها بالأبوة العربية كما تصورها الحياةُ الجاهلية ، وأنتقل منها إلى هذه الأبوة فى الرسالة المحمدية ، ومن ثم فى شخص الأب الرسول عليه الصلاة والسلام .

* * *

أما الأبوة العربية كما تصورها الحياة الجاهلية ، فربما بدا لأول وهلة ، أنها غير ذات اتصال قريب بموضوعنا ، لكنا إذا ذكرنا أن محمدا ﷺ تزوج قبل أن يبعث بخمسة عشر عاما ، وأن بناته الأربع جميعا قد ولدن فى الجاهلية ، وأدركن المبعث وثلاث منهن متزوجات ، إذا ذكرنا هذا ثم أضفنا إليه ما نعرف من احتكام الوراثة وأثر البيئة ، بدت لنا صلة « الأبوة العربية فى الجاهلية »

بموضوعنا ، قوية وثيقة إلى حد لا يسمح لنا بتجاهلها أو التغاضى عنها ، حين نحاول أن نتحدث عن « محمد » ﷺ فى أبوته ...

ذلك لأنه إذا كان المنهج العلمى ، يأبى أن نبتر شخصا من بيئته التى صنعته ، أو أن نفصل بينه وبين آبائه وأجداده الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، فنحن أولى بأن نذكر هذا ، فى الحديث عن بشر رسول ، طالما اعترف بفعل الوراثة فى مثل قوله ﷺ : « **تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس** » أو قوله « **لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما** » وقال عليه الصلاة والسلام : « **إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم** »[1] كما اعتز بأمهاته « العواتك من سُليم » ، وابن امرأةٍ من قريش تأكل القديد . . .

وهذه الفطرة البشرية السوية فيه ، تعدها الإنسانية — كما قلت غير مرة — على اختلاف الأديان والأجناس ، وعلى مر الحِقَب والدهور ، من آيات عظمته وملامح شخصيته ، وهى التى تجعلنا نرجع بالحديث عن أبوته ﷺ ، إلى ماضٍ قريب وبعيد ، ملتمسين من صميم البيئة العربية فى جاهليتها ، الأصول الأُولى للأبوة التى تجلت لنا فى « محمد بن عبد الله » قبل مبعثه ، ثم بعد أن اصطفاه الله نبيا رسولا ...

والملحظ الأول الذى نسجله هنا ، هو أن المجتمع العربى فى الجاهلية قد كان يخضع لنظام القبيلة ، وللأبوة فى هذا النظام مقام جليل وشأن ذو خطر ، ذلك لأن القبيلة فى أصلها لا تعدو أن تكون فروعا تكاثرت من جذر واحد هو الأب الذى تنتمى إليه . ثم ، بمضى الزمن تنمو الفروع فيغدو كل منها قبيلة مستقلة ، على نحو ما نرى فى انفصال الخلايا الحيوية أو الاجتماعية عن

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضى الله عنه . وانظر (عيون الأثر ١ / ٢٣) .

أصلها الأول ، عندما تتهيأ لها مقومات الحياة مستغنية عن ذلك الأصل ...

ويحدث أحيانا ، أن تنتمى القبيلة إلى الأم ، وهو طور عرفته العربية فى جاهليتها القديمة ، وبقيت منه آثار فى أنساب العرب المسلمين ...

وطبيعة هذا النظام ، تجعل شيخ القبيلة ــ الذى هو فى الواقع أبوها الكبير ــ ملكا غير متوج ، وحاكما لا يُعصى له أمر ، فمن حدثته نفسه بالخروج على سلطانه ، كان هذا السلوك خروجا على أعراف القبيلة ، جزاؤه الخلع والطرد من مجتمع القوم ...

وما بنا حاجة إلى التماس الشواهد على ما كان للأب من مكانة فى الجاهلية العربية ، فما ذاك بالأمر الذى يخفى ، ولنا أن نقول بعد هذا إن لقريش على وجه الخصوص ، أن تدَّعى فضلَ تمثيلها لأعزِّ ما عرف المجتمع العربى من تكريم للأبوة ، إذ كانت هى القبيلة التى مَثَّلتْ أكثر ما للعرب فى الجاهلية من أمجاد ، واجتمع لها من العزة والمنعة والجاه والشرف ، ما لم يجتمع مثله لقبيلة أخرى . . . فلا عجب أن اعتزَّت بالأصول والآباء ، وحرصت على نقاء النسب وتخير الأرحام ، وآية ذلك ما نرى من تسجيلها لنسب بطونها وأفخاذها ، ماضية به إلى قرون وأجيال ، لم يفتها منه أم ولا أب ، على ما نعرف من صعوبة ذلك والأمية فيهم فاشية ، والعهد بهم جد قديم . ولايشغلنا اتهام بعض المُحْدَثِين والمفتونين ، بأنها أنساب اخترِعَتْ بأَخَرة . فقد صح منها على ضوابط المنهج النقلى ما يصل إلى عدنان وقحطان[1] ثم إن هذا الاتهام على وهنه ، أبلغ فى الدلالة على ما للأبوة من خطر فى تقدير القوم ، وإلا لما عناهم قط أن يجهدوا أنفسهم باختراع سلاسل من الأنساب يسدون بها الثغرات التى تركتها أنامل الزمن فى تاريخ العرب الطويل .

والحق أن الاعتزاز بالأبوة كان من أظهر ما يميز المجتمع العربى ، وأن تكريم

(١)راجع فيه : مقدمة ابن عبد البر لكتابه (القصد والأمَم فى أنساب العرب والعجم ، ومقدمة ابن حزم لكتابه (جمهرة أنساب العرب) .

الآباء قد كان تقليدا متبعا ، فمن ارتاب فى هذا فليذكر أن العرب يبدأون تاريخهم الدينى بقصة جدهم « اسماعيل » الذبيح الذى جاد بالحياة طاعة لأبيه ، وتجنيبا له من ذنب عصيان الخالق(١) ، ثم يختمون تاريخهم الدينى فى الجاهلية ، بقصة بنى عبد المطلب الذين ما ترددوا فى طاعته يوم أخبرهم بنذره لَيذبحنَّ أحدهم لله عند الكعبة لو بلغوا عشرة بل لبوا طائعين ومضوا يحملون قداحهم إلى الكعبة ، خيث وقفوا هنالك بجانب أبيهم الشيخ ، ينتظرون أيهم يكون الذبيح(٢) .

ولنذكر كذلك أن العرب لم يجدوا ما يبررون به عبادتهم للأوثان بعد أن دعاهم محمد ـــ ﷺ ـــ إلى التوحيد ، إلا أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَآؤُهُم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ؟(٣)

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَآءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَآؤُهُمْ مِّن قَبْلُ ﴾(٤) .

وما نقموا على « محمد ، ﷺ » شيئا مثلما نقموا عليه أن غضَّ من آبائهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم ، بل إن « أبا طالب » نفسه ـــ عم النبى ﷺ وكافله ـــ ودَّ لو يتبع ابنَ أخيه ، لولا أن وجد غضاضة فى مفارقة دين آبائه ، فقال معتذرا : « أى ابن أخى ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلصُ إليك شىء تكرهه ما بقيت » (٥).

وكذلك فعلت العرب البائدة فى سالف الحقب وغابر الدهور : ردوا

---

(١) تاريخ الطبرى ١٩١/٢ ط الحسينية .
وانظر الآية ١٠٢ من سورة الصافات وأقوال المفسرين فيها .
(٢) السيرة ١٦٠/١ ـــ ١٦٤ ط الحلبى ، وتاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ .
(٣) البقرة ١٧٠ وانظر معها آيات : لقمان ٢١ ، والمائدة ١٠٤ ، والأعراف ٣٨ .
(٤) سورة هود : ١٠٩ .
(٥) السيرة (٢٦٤/١) وتاريخ الطبرى ٢١٤/٢ .

رسلهم بمثل ما ردت به قريش رسولها ، فقوم عاد قالوا لنبيهم هود ﴿ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[1] .

وثمود : ﴿ قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَا أَتَنْهَـٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَآؤُنَا وإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[2] .

هم الآباء دائما : سنُتهم عبادة ، ودينُهم ميراث ، واتّباعهم فرض محتوم .

ونظام القبيلة ، الذى جعل للأبوة مثل تلك المكانة فى المجتمع العربى القديم ، هو نفسه الذى جعل العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الإنجاب ويعتزون بكثرة الولد ، إذ كانت القوة والكثرة ، هما مناط العزة والمنعة ، وقوام الحياة فى مجتمع كهذا يقوم على التنافس بين القبائل والتزاحم على موارد العيش . فلا عجب أن صارت كثرة الولد نعمة ما بعدها نعمة ، كما صار تعدد الزوجات ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ..

ونذكر هنا ـــ خبر « عبد المطلب » ـــ جد المصطفى عليه الصلاة والسلام ـــ وقد انتهت إليه سقاية الحجيج وراثة عن جده « قصىّ » فكان يلقى فى سبيل ذلك كل المشقة والعناء . واذ يطيل التفكير فيما تناقله الرواة عن بئر زمزم المباركة التى طُمِرت تحت رمال الزمن ، تلح عليه الرؤى فى أن يمضى للتنقيب عن البئر المباركة التى بثت الحياة فى الوادى الأجرد ، منذ فجرها الله للجد الأعلى اسماعيل . فيمضى « عبد المطلب » ومعه ابنه الحارث ، وليس له يومئذ ولد غيره ، فما كاد يجىء بالمعول ويبدأ فى الحفر حتى قامت اليه قريش ، تقسم ألا تتركه يحفر فى ذلك المكان الذى شاءت الأقدار أن يقع بين الوثنين الكبيرين : « أساف ونائلة » . وأدرك عبد المطلب أن قريشا إنما استضعفته لقلة ولده ، فنذر لئن وُلِدَ له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . ثم تلا ذلك ما هو ذائع مشهور من انطلاقه

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٧٠ .

(٢) سورة هود : ٦٢ ، وانظر معها آيات : الزخرف ٢٣ ، لقمان ٢١ ، ابراهيم : ٤٠ .

ببنيه العشرة إلى الكعبة وخروج السهم على عبد الله — أصغر بنيه — فهمَّ بذبحه لولا أن كان الفداء ![1]

وللقصة دلالتها الصادقة على الاعتزاز بكثرة الولد فى مجتمع القبائل ، حيث لا أمل لإحداها فى البقاء ، إذا لم يكن لها من أبنائها من يمنعونها ويحمون حماها ...

ولا أريد أن أدع الحديث عن الأبوة والبنوة عند العرب الماضين ، دون أن أعرض هنا مشهدا إنسانيا مؤثرا ، من القرآن الكريم ، لعاطفة الأبوة وما لها من سلطان قاهر لا قبل لبشر بمقاومته — حين يدعو الواجب — ولو كان من الأنبياء المصطفين . ذلك هو مشهد « نوح » عليه السلام ، حين ركب ومن اتبعوه فى الفُلْكِ :

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَا بُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِى إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ ٱلْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2] .

فما أرحم الأبوة تأبى أن تلعن الولد الكافر أو تبرأ منه أو تدعو عليه . وهذه

---

(١) ابن هشام : السيرة ٢٦٤/١ — تاريخ الطبرى ١٧٤/٢ . والخبر بتفصيل فى كتابى (أم النبى عليه الصلاة والسلام) .

(٢) سورة هود ، الآيات ٤٢ — ٤٨ .

الآيات البينات لا تجحد بشرية الأنبياء ولا تبرئهم من نوازع غريزة لولاها لما قامت حياة ..

والله تعالى لم يلعن الأب بدعائه للابن الضال ، ولم يطرد به عبده نوحا من رحمته ، ويحرمه شرف مكانه رسولا يدعو إلى الحق ، بل وعظه ، جل جلاله ، ثم أمره أن يهبط بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه !

وسلام على إبراهيم إذ يدعو ربه :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

* * *

هل لنا أن نقول بعد هذا ، إن علاقة الآباء بالأبناء فى المجتمع العربى بلغت من القوة مبلغا لا يعرفه مجتمعنا العصرى الحديث ، الذى يميل بالتدريج نحو الانفصام ، ويتخلى شيئا فشيئا عن تقاليده الموروثة فى الأبوة والبنوة ، فيعترف للآباء بحقهم فى تحديد النسل ، وللأبناء بشخصية كاملة الحرية والاستقلال ، بل ربما اعترف لهم أحيانا بأنهم أحق بالحياة بما أنهم أصحاب الغد . وعلى الآباء أن يخلوا لهم الطريق ! !

وقلما يفتش مجتمعنا العصرى عن آباء الرجل وأجداده ، على حين كان المجتمع العربى القديم يعتز بكرم الأبوة وعراقة الأصل وشرف المنبت .

....

(١) سورة ابراهيم . الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

الأبوّة العَربيّـة

فى الرسالة المحمدية ، وفى شخص الرسول عليه الصلاة والسلام

من فجر المبعث ، عرفت قريش أن رسالة التوحيد تدعو إلى نبذ دين الآباء وتمحق الأصنام والأوثان التى ظلوا لها عاكفين ...

وما كانت قريش لتأبى أن تصغى إلى الأمين الذى ما عهدت عليه كذبا قط ، لولا أن جوهر رسالته يقوم على التوحيد ، ولا يرضى بما دون القضاء على الآلهة الموروثة عن الآباء :

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** ﴾ ؟[1]

على أن القرآن الكريم فى محقه لوثنية الأسلاف ، أبقى للأبوة حرمتها فجعل برَّ الوالدين تاليا للتوحيد : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ، وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا** ﴾[2]

ولم يأذن الإسلام للابن بعقوق الأبوين حتى مع الشرك ، بل نهاه الله تعالى عن طاعتهما فى ذلك ، دون أن يهدر حقهما عليه فى أن يصاحبهما فى الدنيا معروفا قال تبارك وتعالى :

﴿ **وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ**

---

(١) آية ١٧٠ سورة البقرة .

(٢) الإسراء : آيتا ٢٣ . ٢٤ وانظر معهما آيتى : ٣٦ النساء . ١٥١ الانعام .

أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۞ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

وعرض القرآن كذلك للبنوة ، فصرح فى آيات محكمات بأن البنين زينة الحياة الدنيا ، وعدّهم من النعم الكبرى التى منّ الله بها على عباده :

﴿ يُرسلِ السماءَ عليكُم مِدْرَارًا ۞ ويُمْدِدْكُم بأموالٍ وبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لكُم أنْهَارًا ﴾ .

﴿ المالُ والبنونَ زِينةُ الحياةِ الدنيا ﴾[2]

ويقال هنا إن القرآن الكريم حذرنا من الفتنة بالأبناء ، لما يعلم من إسرافنا فى حبهم والشغف بهم ، فطرة الله التى فطر الناس عليها :

﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[4]

لكن فى هذا التحذير تنبيها على ما للبنين علينا من سلطان يشق علينا أن نقاومه ، وما لهم فى قلوبنا من حب قد يعمى ويصم ...

* * *

والعلاقة بين الأبناء والآباء تأخذ فى الرسالة المحمدية وضعا ساميا ، بحيث لا يهدرها اختلافُ الدين ولا يفصمها تباين العقيدة . وبلغ من تقدير القرآن الكريم لقوة هذه العلاقة أن نتلو هذه الآيات فى هول اليوم الآخر :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الحج ١ — ٢

---

(١) سورة لقمان : ١٤ . ١٥ .

(٢) معها آيات المدثر ١١ — ١٦ . النحل : ٧٢ المؤمنون ٥٥ . الشعراء ١٣٣ .

(٣) آل عمران ١٤ ، ومعها آيات : الحديد ٢٠ سبأ ، المنافقون ٩ ، التغابن ١٥ .

(٤) الأنفال : ٢٨ ، معها : التغابن ١٥ ، آل عمران ١٠ ، المنافقون ٩ ، سبأ ٣٧ .

وقد كان النبى ﷺ القدوة الصالحة للمؤمنين والمثل الأعلى فيهم ، فرأى المسلمون من أفعاله ﷺ ، وسمعوا من أحاديثه ، ما لمس أعمق مشاعر الأبوة فيهم ، واستثار أنبل ما فى نفوسهم التى جُبِلت على توقير الآباء ورعاية الأبناء ...

قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور »(١)

وقدَّم بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله : أقبل رجل على النبى ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : « فهل من والديك أحد حى ؟ » قال : نعم . قال : « فتبتغى الأجر من الله ؟ » قال : نعم . قال : « فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما »(٢)

وحدَّث الصحابى « معاوية بن جاهمة السلمى » رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة . قال : ويحك ، أحيَّة أمُّك ؟ .. قلت : نعم ... قال : « ارجع فَبِرَّها » ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت : يا رسول الله انى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة ، قال : ويحك ، أحية أمك ؟ قلت : نعم يا رسول الله قال : فارجع إليها فبرها » . . .

ثم أتيته من أمامه ، فأعدت ما قلت ، فقال : « ويحك ! . . الزم رِجْلَها ، فثمَّ الجنة ! »(٣) .

وفى (كتاب الإيمان من الصحيحين) حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى كتاب الإيمان ، من عدة طرق .

(٢) صحيح مسلم كتاب البر والصلة .

(٣) فى رواية ابن عبد البر بالاستيعاب (٣ / ١٤١٣) أنه ﷺ قال لمعاوية : « فالزمْها ، فإن الجنة تحت قدميها » .

يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما حق الوالدين على ولدهما ؟ ... قال : « هما جنتك ونارك » .

وإنه لحق لا يهدره الشرك : قالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة ، فى عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُه قائلة : إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصِلُ أمى ؟ .. قال : « نعم ... صِلِى أمَّك »

وأخرج « مسلم » فى كتاب فضائل الصحابة ، حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنت أدعو أمى إلى الإسلام وهى مشركة ، فدعوتها يوما فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره ، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى ، قلت : يا رسول الله ، إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام فتأبى علىّ فدعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادعُ اللّهَ أن يهدى أمَّ أبى هريرة . فقال ﷺ « اللهم اهدِ أمَّ أبى هريرة » فخرجت مستبشرا بدعوة نبى الله ﷺ . فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف ، فسمعتْ أمى خَشْفَ قَدمىّ فقالت : مكانَك . وسمعتُ خضخضة الماء . قال : فاغتسلتْ ولبستْ دِرعَها وعجلتْ عن خمارها . ففتحتْ الباب ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكى من الفرح ، قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك وهدَى أمَّ أبى هريرة . فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرا » . . .

* * *

وكذلك لا ينقطع هذا البر بالموت : عن مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما من بعد موتهما ؟ ..

قال : نعم ... الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا تُوصَل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » .

وإنما استحقت الأبوة هذه المنزلة السامية ، لما تبذل وتحتمل فى سبيل الأبناء ، ولما تمنح من حب صادق وحنان خالص ، ولأنها فى جوهرها بذل وتضحية وإيثار . ورسول الله ﷺ فى إنسانيته الرفيعة أكرم من يقدر هذا . فى صحيح الحديث أن سبيا قدم على النبى ﷺ بالمدينة « فإذا امرأة منهم قد تحلب ثديها ، إذا وجدت صبيا فى السبى أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال النبى ﷺ لأصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ قالوا : لا ، وهى تقدر ألا تطرحه . فقال : الله أرحم بعباده من هذه بولدها »[1] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض غزواته ، فمر بقوم ، وامرأة فيهم تحصب تنورها ومعها ابن لها ، فإذا ارتفع وهج التنور تنحت به ، فأتت النبى ﷺ فقالت : أنت رسول الله ؟ .. قال : نعم ... قالت : بأبى أنت وأمى ، أليس الله بأرحم الراحمين ؟ .. قال : بلى ... قالت : أليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟ .. قال : بلى .. قالت : فإن الأم لا تلقى ولدها فى النار .

فأكب رسول الله ﷺ يبكى ثم رفع رأسه لها وقال : « إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد الذى يتمرد على الله ويأبى أن يقول لا إله الا الله » .

وفى صحيح الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتت امرأة النبى ﷺ بصبى لها فقالت : ادع الله له فلقد دفنتُ ثلاثة ... قال : « دفنتِ ثلاثة ؟ ... لقد احتظرت بحظار شديد من النار » .

وأخرج مسلم فى صحيحه حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتُقَبِّلون صبيانكم ؟ فقالوا :

---

(١) صحيح البخارى : ك ٧٨ باب ١٨ وسنن ابن ماجه : ك ٣٧ باب ٣٥ .

نعم . قالوا : لكنا والله ما نفعل . فقال رسول الله ﷺ : « وما أملِكُ ، إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ »

وأخرج معه حديث أبى هريرة ، قال : إن الأقرع بن حابس التميمى أبصر رسول الله ﷺ يقبل الحسن . فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله ﷺ : « إن من لا يَرحم ، لا يُرحم »

وليس عجبا من دين الفطرة ، ألا يوصِّى الوالدين بولدهما كما وصَّى الإنسان بوالديه . ذلك لأن الفطرة السوية تعرف عقوق الأبناء ، فأما عقوق الآباء فلا تعرفه أبدا . وعلى هذا المبدأ ، تقرر فى الشرع أن « لا يُقادَ والد بولده » فالأصل فى الأب أن يفتدى ولده بالمهجة و الروح ، ومحال أن يؤذيه إلا تحت وطأة ظروف صعبة تعطل إرادته وتخرجه عن أبوته وتفقده وعيه ورشده .

* * *

المبحث الثانى

الأنثى فى المجْتمَع العربىّ

— « وليس الذَكَر كالأنْثى »

— « وإذا المَوءودَةُ سُئِلَتْ »

— المثَل والقُدوَة

﴿ وليس الذَكَرُ كالأنثى ﴾

فى التناسل بقاء النوع . وكل كائن حى مدفوع إليه بأقوى غرائزه . وينفرد الإنسان بأنه الذى يعى سنة الفطرة ويدرك حكمة التناسل ، ويتعلق طموحه بأن يكون ولده امتدادا لحياته على وجه أصلح ، ومطمح آماله الكبار .

لكن الذى يبدو شذوذا فى منطق الفطرة ، هو كراهة الآباء مولد الإناث ، وهن حاملات أجنة البشرية والمرجوات للإنجاب الذى نعرف ولعهم به وحرصهم عليه .

والإنجاب فى عُرف الأسلاف ، لا يكون إلا بالأولاد الذكور ، وإذا قالوا : منجبات العرب ، فإنما يعنون بالمنجبة منهن « مَن ولدت ثلاثة بنين فأكثر ، شرفوا فى قومهم »[1] ففيم كرهوا مولد الأنثى ، ولاسبيل إلى إنجابٍ دون أمهات ؟

نميل إلى القول بأن ظروف الحياة فى الأزمنة القديمة أغرتهم بالحرص على كثرة الولد ، والزهد فى الإناث . فما هن بحيث يمنعن الحمى ويحمين الذمار ، ولا فيهن غنية حين يُهدَّد وجودُ القبيلة . وهن بعدُ هدف العدو إذا أغار ، يقصدهن بالسبى الذى يورث القبيلة ذل العُمر وعار الأبد .

وغنى عن البيان أن ذلك قديم فى البشرية ، وليس قصرا على العرب وحدهم ، وفى القرآن الكريم من سورة آل عمران :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ، إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ،

---

(١) المحبر لابن حبيب : ٤٥٥ .

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ، وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ ٣٥ ــ ٣٦ .

وفى حديثنا عن المجتمع العربى بخاصة ، نذكِر الشائع المعروف من زهدهم فى البنات وما حملوا من همهن ، قال شاعرهم :

إنى وإنْ سِيقَ إلىَّ المهرُ
ألفٌ ، وعبدان ، وذُودٌ عشر
أَحَبُّ أصهارى إلىَّ القبر

وكانوا فى خطبة المرأة بالجاهلية ، إن كان الخاطبُ من العشيرة قال أبوها أو أخوها إذا حملها إليه : « أيسرتِ وأذكرتِ ولا آنثتِ ، جعل الله منكِ عدداً وعزا وجلدا ... »

وإذا زُوِّجَتْ فى غربةٍ ، قال لها : « لا أيسرتِ ولا أذكرتِ ، فإنك تُدنِين البعداءَ وتَلِدينَ الغرباء ... »[1]

وغريب فى المنطق ، أن يكون هذا موقفهم من الإناث ، مع المأثور من تقديسهم للأمومة ، والمحفوظِ من غزلياتهم السائرة فى النساء ، واعتزازهم بالانتماء إلى المنجبات . ولا يُعرف قط أنهم وصفوا الآباء بالمنجبين ، أو مدحوا سيدا بأنه ابنُ منجب !

وأعجب منه فى شذوذ المنطق ، أنهم كانوا يسمون الملائكة تسمية الأنثى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَآئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئًا ﴾
النجم ٢٧ ــ ٢٨

ويقولون إنها بناتُ الله (النحل ٥٧ ، والإسراء ٤٠ ، والطور ٣٩)

وكذلك سموا أصنامَهم تسميةَ الأنثى ، وأشركوها بالله تعالى فى عبادتهم :

---

(١) المحبر : ٣١٠ .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ . النجم ١٩ — ٢٢

وكانت لهم طقوسٌ عجيبةٌ فى القرابينِ من الأنعام التى جعلوها لآلهتهم : منافعُها وألبانُ الإناث منها للرجالِ دون الإناث ، إلا أن تموت البهيمة التى جعلوها للآلهة ، فعندئذ يشترك فى أكلها الرجال والنساء[1] ، قال تعالى :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ . الأنعام ١٣٩

....

(١) بتفصيل فى كتاب المحبر : ٣٣٠ — ٣٣١ .

﴿ وإذَا المـَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾

ثم إن هؤلاءِ الذين جعلوا لله البنات وسموا الملائكة والأصنام المعبودة تسمية الأنثى ، هم الذين وأدوا البنات ، على ما فى الوأد من وحشية ضارية تنفى الوائد عن الآدمية .

ولقد قيل فى تعليل ذلك الوأد أسباب كثيرة : منها أنهم كانوا يئدون الزرقاء والبرشاء والكسحاء تشاؤما منها ، ويأسا من تزويجها وفيها عاهة .

وآخرون ، وأدوا بناتهم خوفاً من الفضيحة والعار ...

ويقال إن أول من فعل ذلك « لقمان بن عاد » من العرب البائدة ، وذلك أنه رُوع بخيانة نسائه فراح يقتلهن انتقاما واشتفاء ، ولما انحدر إلى الطريق على اثر المذبحة ، لقى ابنته فوثب عليها وقتلها متأثرا بما جرب على النساء من خيانة وسوء ...

ومنه الوأد اتقاء لعار السبى أو الزواج من غير كفء ، كالذى حكاه بعض المفسرين ، من أن « النعمان بن المنذر » أغار على تميم حين منعته الإتاوة ، فحاربهم وسبى نساءهم . ولما ذهب « قيس بن عاصم » ، سيد تميم ، ليستردّ سباياه ، تخلفت بنتٌ له مؤثرة أن تبقى مع النعمان ، فعاد « قيس » وقد جُنَّ غضبه فوأد كل بناته . ثم مضى على ذلك ، لا تولَّد له بنت إلا وأدها ، واقتدى به رجال من تميم وغيرهم .

وأخرج الحافظ ابن حجر فى ترجمة « قيس بن عاصم » رضى الله عنه ، من طريق الزبير بن بكار فى الموفقيات : « قال أبو بكر لقيس بن عاصم : ما حملك على أن وأدتَ — وكان أول من وأد — فقال : خِشيت أن يخلف عليهن غير كفء » .

وأخرج كذلك من طريق الحافظ « ابن منده » بسنده إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول ــ وسئل عن الآية : ﴿ **وإذا الموءودة** ﴾ ــ فقال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى وأدت ثمانى بنات لى فى الجاهلية . فقال : ﴿ **أعتِق عن كل واحدة منهن رقبة** ﴾ الحديث[1] .

* * *

ووأدُوا كذلك رفقا بالبنات ورحمة بهن ، لما عرفوا من عجز الأنثى وقسوة الحياة عليها ، فآثروا لهن الموت على التعرض لعوادى الزمن وأفاعيل الدنيا . واختاروا مرارة الثكل وفجيعة الحزن ، على احتمال همِّ الأنثى ومعاناة الكرب الذى قال فيه الشاعر :

وزادنى رغبةً فى العيشِ معرفتى ذلَّ اليتيمةِ يجفوها ذوو الرحِمِ
أخشى فظاظةَ عمٍّ أو جفاءَ أخ وكنتُ أبكى عليها من أذَى الكَلِم
تهوى حياتى وأهوَى موتها شفَقا والموتُ أكرم نزَّالٍ على الحُرُمِ
إذا تذكرتُ بِنتى حينَ تندُبنى فاضتْ لعبرةِ بِنتى عَبرتى بِدَمِ

كما وصف ما ظفر به بعد موتها من راحة البال فقال :

فالآن نمتُ ، فلا همٌّ يؤرقنى بعد الهدوء ولا وجدٌ ولا حلمُ

وقيل كان الوأد بقية متخلفة من عبادة قديمة ، قُدمت فيها الإناث قرابينَ إلى الآلهة ، على نحو ما عُرِف عن مصر قبل الإسلام من تقديم عروسٍ للنيل ضحية وقربانا . ولعل لهذا صلة بما أشرنا إليه آنفا ، من تسميتهم الملائكة والأصنام تسمية الأنثى ، على ما فى هذا من شذوذ المنطق .

ولو كان الأمر فى مثل هذا يخضع للعقل والمنطق ، لأبوا أن يتعبدوا لأصنام تحمل أسماءَ إناث ، لكنه التقليد الموروث والعادة المتبعة لا تدع لصاحبها عقلا . وما دام الناس من ذكر وأنثى ، فليتقاسموهما : لهم البنون ولله الإناث : قال

---

(١) الإصابة : ٢ / ٢٥٨ رقم (٧١٨٨) ونحوه فى تفسير الطبرى لآية الموءودة من سورة التكوير .

تعالى فى سورة الصافات ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَآئِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . ﴾
١٤٩ ـــ ١٥٤

* * *

ووأدوا خشية فقر وإملاق ، والرواة يذكرون فى ذلك عددا ممن استنقذهن « صعصعة بن ناجية المجاشعى » من الوأد لهذا السبب وحده ، وأخريات فداهن « زيد بن عمرو بن نفيل القرشى العدوى » أبو الصحابى سعيد ، أحد العشرة رضى الله عنهم . فأما صعصعة فيقال إن أول ما كان من نهوضه بتلك المكرمة ، أنه مر برجل من تميم يحفر حفرة ، وغير بعيد منه امرأة تبكى متشبثة بوليدة لها . فلما سألها صعصعة عما بها ، أشارت إلى الرجل وقالت : هذا زوجى يريد أن يئد ابنتى . وانثنى صعصعة إلى الرجل يسأله : ما حملك على هذا ؟ قال : الفقر . فافتداها منه بناقتين يتبعهما أولادهما ، وعاش السيد الكريم لا يسمع بموءودة عن فقر إلا سعى فى فدائها ، فلما مات ترك لبنيه مجدا خالدا ، باهى به حفيده « الفرزدق » قائلا :

وجَدِّى الذى منع الوائداتِ ... وأحيا الوئيدَ فلم يوأدِ[1]

وقال :

أجار بنات الوائدين ومن يُجِرْ ... على الفقر يعلم أنه غير مخفر

وأما « زيد بن عمرو بن نفيل القرشى العدوى » فكان إذا سمع بفقير يهم بوأد ابنته ، مضى إليه فقال : « لاتقتلها ، أنا أكفيك مئونتها » فإذا كبرت عاد بها إلى أبيها فراجعه فى أمرها ، وخيَّره بين استردادها أو بقائها حيث هى ، فى كنف الذى استحياها ..

---

(١) المحبر : ١٤١ ، وفى رواية : « ومنا الذى منع الوائدات » انظر هامش ص ٢٤٠ من السيرة ج ١ .

قال « ابن إسحق » فى السيرة :

« حُدِّثتُ أن سعيد بن زيد بن عمرو ، وعمر بن الخطاب ـــ وهو ابن عمه وصهره ـــ قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد ؟ .. قال : نعم ، يُبعث أمةً وحده » ...[1]

* * *

والراجح أن الوأد عن إملاق ، كان الغالب فيهم . إذ خصَّه القرآن بالذكر فى آيتين :

الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ١٥١

والإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ ٣١ .

ولم يرد لفظ « إملاق » فى غير هذين الموضعين . ومعناه الفقر بنفاد المال لا يبقى منه شىء . ومن استعماله فى العربية : مَلَق الثوب غسله ، والولدُ أمَّه رضعها . فذكر الإملاق فى الآيتين ـــ دون الفقر وهو من معجم ألفاظ القرآن ـــ شاهد على أن الرجل منهم لم يكن يقتل ولده إلا وهو معدم لم يبق له من المال شىء .

ويصف لنا « الزمخشرى » كيف كان يتم الوأد : « يخرج الرجل وليدته وقد حفر لها بئرا فى الصحراء ، فيدسها هناك ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر . وقيل كانت الحاملُ إذا أوشكت على الوضع حُفرت حفرة ونقلت قريبا منها عندما يجيئها المخاض ، فإذا ولدت بنتا رموا بها فى الحفرة ، وإن ولدت ذكرا أمسكوا وعادوا به »[2] .

---

(١) السيرة ١ / ٢٤٠ ومعها الاستيعاب : وترجمة سعيد بن زيد رضى الله عنه ٢ / ٨١٧ . وانظر نسب عمر بن الخطاب بن نفيل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فى ولد عدى بن كعب بكتاب (نسب قريش : ٣٤٧) .

(٢) الكشاف : ٤ / ١٨٨ آية الموءودة من سورة التكوير .

تلك صورة بشعة ومتناقضة لوضع الأنثى فى الجاهلية ، وليس بالغريب أن توارى بشاعتها أوضاعا أخرى كريمة لبنات العرب ، كن فيها موضع الإعزاز والحنان ، ولا من الغريب أن تطغى تلك الأخبار السود ، على أخبار أخرى مشرقة ، تحدث عما كان من إيثار بعض العرب لبناتهم بالحب ، وافتدائهن بالمهج والأرواح ، وأن يحجب الصدى الحزين الذى يُرجِّع صراخ الموءودات ونواح أمهاتهن الثكالى ، أصداء أخرى ، تتناهى إلينا من قديم العرب البائدة ، حيث تروى الأساطير مثل قصة فتاة جديس — وقد نقلها المسعودى فى مروج الذهب — التى حررت قومها من جبروت ملك طسم وإذلاله ، حين ثارت على الشرط المشئوم الذى كان يقضى بألا تُزف عروس من جديس إلى زوجها ، إلا بعد أن تقضى ليلة فى فراش الطاغية . وخرجت الثائرة ، من مخدعه فانطلقت فى الحى بثياب عرسها الممزقة ، الملوثة بدماء العار ، وهى تصرخ :

لا أحدَ أذلُّ من جديسِ
أهكذا يُفْعَلُ بالعروس !

ثم أبت أن تمضى إلى زوجها ، وقادت معركة باسلة انتهت بنصر جديس ومقتل الطاغية ...

وكذلك تاه فى غمار مأساة الوأد ، مثلُ حديث « بهيسة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى » : خطبها « الحارث بن عوف » سيد بنى عبس ، فلما أراد الدخول بها كرهت أن يمسها ، واستنكرت أن يخلو للنساء ورَحَى الحرب تطحن الحيين من عبس وذبيان ، فلم يجد وسيلة الى إرضائها ، إلا أن يخرج فيحتمل — هو وهرم بن سنان — ديات القتلى من الفريقين ...

بل كدنا ننسى — فى غمرة الأسى لمأساة الوأد — أن من الآباء من كُنوا بأسماء بناتهم ، كأبى أمامة النابغة الذبيانى ، وأبى الخنساء قيس بن مسعود الشيبانى ، وأبى سلمى ربيعة بن رباح — والد زهير — وأبى عفراء حنظلة

الطائى ، وأبى سَفَّانَةَ حاتم طيِّىء . وقد بقى منه فى الإسلام كثير ، حيث نجد فى باب الكُنى من طبقات الصحابة رضى الله عنهم ، عشرات منهم كُنوا ببناتهم ، وآخرين نسبوا إلى أمهاتهم . .

وغاب عنا كذلك ـــ أو كاد ـــ أن من سادة العرب من كُرموا بمدح بناتهم ، وأن من هؤلاء البنات من استُجير بها فأُجارت .[1] .

ويزيد فى قسوة المأساة وسوء أثرها وعنف صداها ، أن قيل إن الوأد كان عاما فى القبائل كلها ، على ما نقل « الميدانى »[2] و « النويرى »[3] وإن أكد رواة آخرون ، ان الوأد لم يكن فى غير تميم وقيس وأسد وهذيل وبكر بن وائل ، وأنها جميعا تخلصت منه قبل الإسلام ، إلا ما كان من تميم . فقد جاء الإسلام وفيها الوأد .

* * *

ومهما يكن فإننا إذ استطعنا أن نجزم بأن الوأد لم يكن شائعا ولا واسع النطاق ـــ وهذا لا يُهَوِّن من بشاعته ـــ فلسنا بحيث نملك أن ننفيه عن الأسلاف العرب ، ولا نحن بقادرين على الارتياب فى أمره وقد تواترت به الأنباء ، ونَعَاه عليهم القرآن الكريم .

الذى نملكه هو أن ننفى عموم الوأد ، ونستبعد القول بأنه كان على نطاق واسع ، وإلا كان ضربا من الانتحار الجماعى ، والاستسلام المخبول للفناء والانقراض .

على أننا لا نكتفى بهذا فى نفى عموم الوأد ، بل نضيف إليه أن هناك عوامل طبيعية واقتصادية كانت تعطل عملية الوأد على نطاق واسع : كان هناك الميراث القديم من عهد « الأمومة » فى انتماء القبائل والأفراد إلى أمهاتهم ، وفى تسمية

(١) انظرهن فى مطلب الوافيات لأزواجهن ، من (المحبر لابن حبيب : ٤٣٣ ـــ ٤٣٥) .
(٢) مجمع الامثال : ١ / ٣٨٩ .
(٣) نهاية الارب : ٣ / ٤٢ ط دار الكتب بالقاهرة .

العشيرة باسم « البطن » وفى تسمية الأصنام والملائكة والآلهة بأسماء إناث ، وهذه البقايا الموروثة كانت تضفى على الأنثى لونا من القداسة ، وتعصمها من الإبادة ، وان ظهرت أحيانا بمظهر مناقض هو وأد الفتاه تأثرا — فى رأى بعض علماء الاجتماع — بالطقوس الدينية القديمة ، على نحو ما كان يحدث لعروس النيل ...

وكانت هناك غريزة حفظ النوع وما يتصل بها من حرص على البقاء ، تحمى بقوتها التى لا تدانيها قوةٌ غريزةٌ أخرى ، بنات العرب من الوأد قدر المستطاع .

وكانت هناك الأنثى فى حياة كل رجل : أُمًّا ، أو زوجة ، أو حبيبة أو أختا ، تلطف من النظرة البغيضة إلى البنت ، وتفسح أمامها مجال الحياة .

ثم كان هناك إلى جانب هذا كله ، بل قبل هذا كله ، العاملُ الاجتماعى والاقتصادى ، المحكوم بسنة الفطرة وقانون الطبيعة : البنت حين تكبر ، وعاء للولد وصانعة للبنين ، ولئن كان العرب فى نظرتهم الجانبية إلى البنت اعتبروها كَلاًّ عليهم وعالة ، لقد بقى هناك الجانب الآخر ، وهو أنه لا سبيل إلى ولد لا تحمله أنثى جنينا وتغذوه رضيعًا وتحضنه صبيا وتربيه غلاما وترعاه رجلا ، والحياة تتابع مسيرتها بمقتضى السنن الثابتة ، مقدرة ضرورةَ وجود البنات لبقاء البشرية وعمران الكون ، لا تبالى ما إذا كان القوم منتبهين إلى هذا أو غير منتبهين .

ومن هنا رجحنا فى اطمئنان ، أن الوأد لم يكن عاما ولا واسع النطاق ، وقدرنا الجانب الآخر من حياة الأنثى فى المجتمع العربى بالجاهلية ، حيث عاشت الناجيات من الوأد ، ملء عيون القوم وقلوبهم . وسبق فى الفصل الذى قدمتُه عن « الأنوثة والأمومة » فى كتابى « أم النبى » ﷺ بعضُ ما نقلت من أخبار تكريم الإناث وتقديرهن وإعزازهن والاعتراف بمآثرهن .

ولا غرابة فى أن تجمع البيئة الواحدة فى الزمن الواحد بين النقيضين ، فتزهد

فى ولادة البنت وقد تئدها كراهة لها أو لفرط حبها إياها وخوفها عليها ، فى الوقت الذى تفتدى فيه نساء القبيلة بالدماء ! وتضيق ببنت تولد ، مع أنها ترفعها إلى مقام الملائكة وتسمو بها « أما » إلى حيث لا مزيد من التكريم والإكبار . لا غرابة فى هذا ، فالحياة ما تزال تجمع بين المتناقضات دون أن يختل نظام الكون أو يضطرب مَسَار الفلك . والأمر فى وأد الأنثى أو إعزازها ، مردُّه إلى العادة والعرف ، وإلى التقليد الاجتماعى الذى لا يعتمد على شىء من التفكير ، وإنما يتم بتوجيه الرأى الجماعى دون أن يكون للفرد الموقف المنفرد ، كالذى شهدنا فى البيئة العربية القديمة من تسمية الأصنام بأسماء إناث ، وهذا مظهر تقديس وتكريم ، ومن وأد البنات زهداً فيهن وضِيقًا بهن .

وكالذى نشهده اليوم فى مجتمعات رجعية : تعلم الفتاة وتأذن لها فى الخروج والاحتراف وقد تأبى فى الوقت نفسه على خاطبها أن يراها . وشبيه به ما نشهده فى المجتمع الشرقى : ترقى المرأة فيه إلى منصب الأستاذية بالجامعة وينكر عليها عضوية المجامع الإسلامية والعربية مع الترحيب بها (سكرتيرة) وموظفة إدارية ! ويضيق أشد الضيق بظهورها فى المؤتمرات الإسلامية ، ولا يحرك ساكنا لسهرها فى الملاهى الليلية أو ظهورها عارية فى المصايف ! !

وإنما يحدث هذا التناقض ومثله ، لأنها كما ذكرتُ مسائل عرفية وليست منطقية ، ينفعل الفرد فيها بشعور الجماعة ، ويتأثر بعقلية القطيع فيسيغ ما لعل عقله يأباه ، ويتحمس لتأييد ما كان جديرا بمعارضته لو نجا من احتكام العادة وسلطان العرف واستهواء الرأى العام .

* * *

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث عن مركز الأنثى فى المجتمع العربى ، فلا نملك بعد طوال البحث والتنقيب عن الأخبار المروية فى إعزاز الأنثى وتكريمها ، والتماس الأدلة والشواهد المؤكدة بأن مأساة الوأد لم تكن عملية

إبادة بالجملة ، أقول : لا نملك بعد هذا كله الا أن نعترف بأن منزلة البنات كانت بلا ريب ، دون منزلة البنين ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ . . .

وكذلك غَبَرَ العربُ زماناً ومنهم من يَدسُّ وليدته فى التراب ، ومنهم من يُمسكها على مضضٍ وهون ، ومن ثم يبيت ساهرا عليها مهموما بها ، حتى يدفعها إلى زوج كفء ، أو يسلمها إلى القبر خير الأصهار ....

* * *

وجاء الاسلام فوضع حدا للمأساة البشرية الفاجعة التى جاوزت فى بشاعتها أقسى المدى ، وأول ما نزل من آياته تعالى فى الوأد ، قوله عز وجل منذراً بيوم الحساب :

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَىِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] .

ثم نزل من بعد ذلك قولُه تعالى فى سورة الإسراء وهى مكية :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ ٣١ .

ثم قوله تعالى فى سورة الأنعام المكية :

﴿ قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ١٥١ .

ويرى المفسرون ، أن قتل الأولاد فى الآيتين ، يعنى وأد البنات ...[2]

وحكم بالخسران والضلال على السفهاء والمفترين الذين قتلوا أولادهم :

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ الأنعام ١٤٠ .

---

(١) سورة التكوير : الآيتان ٨ — ٩ .
(٢) الكشاف : ٢ / ٣٥٩ .

وفى (الصحيحين) من عدة طرق ، حديث « عبد الله بن مسعود » رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أى ذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نِدًّا وهو خالقك » قلت : إن ذلك لعظيم ، ثم أى ؟ قال : « ثم أن تقتل ولدَك مخافة أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك »[1] .

* * *

على أن تحريم الوأد لم يمنع من الضيق بالبنات والزهد فيهن . بقية فينا من رواسب الماضى الطويل تأصلت على مر الزمن حتى صارت شبه طبيعية فينا يعز التخلص منها بعد زوال الأسباب التى قضت بها أول الأمر . فخروج المرأة الجديدة إلى ميادين العمل وقدرتها على الكسب المادى ووصولها إلى مناصب علمية وإدارية قيادية ، لم يضع المولودة الأنثى كالذكر بمنزلة سواء ، ولا حماها ساعة ميلادها من الاستقبال الكريه القبيح الذى تسجله أغانينا الشعبية ، ويحفظه ديوان الشعر العربى الإسلامى ، فى مثل ما رواه « الجاحظ » من أبيات حزينة لأمٍّ هجرها زوجها حين ولدت له أنثى ، وأقام عند جارتها ، ضرة لها ، قالت والدة الإناث :

مـــا لأبى حمزةَ لا يأتينـــا
يظـل فى البيت الـذى يلينـا
غضبـانَ أن لا نلـد البنينـا
تـالله مـا ذلك فى أيدينـا
وإنما نأخـذ مـا أُعطينـا[2]

---

(١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم فى كتاب الإيمان من صحيحه .

(٢) هو أبو حمزة الضبى . انظر قصة هجره زوجته والشعر الذى قالته ، فى كتاب (البيان والتبيين) ١ / ١٦٣ ط التجارية ١٩٣٢ م .

ونحن نتلو آيات الله البينات المحكمات :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

النحل ٥٧ ـــ ٥٩ .

قد يقال هنا إن تغير الوضع الاقتصادى لا يمنع كراهة الأ نثى خوف عارٍ قد يلحق بأهلها من سلوكها ، أو خشية تفتت مالِ الأسرة عن طريق الميراث ، فنرد على هذا بأن البنات مكروهات حتى فى البيئات المتحللة التى لا تكترث بالسلوك ، وفى الأسر الفقيرة التى لا جاه لها ولا مال ، وفى المجتمعات الاشتراكية التى تحد من الملكية ، وتحدد الدخل ، ولا تعترف بجاه موروث . ذلك لأن كراهتهن ميراث قد انحدر إلينا من قديم الحقب ، وعادة نشأت فى الأصل بحكم البيئة وأثر العوامل القاهرة ، ثم أخذت مجراها فى عواطفنا على طول الزمن ، فلم يعد من السهل التخلص منها ، حتى مع تغيير البيئة وزوال العوامل المادية .

والقرآن الكريم فى خبرته الفذة بطبيعة البشر ، وتقديره الحكيم لما تخضع له من شتى المؤثرات ، أدرك ما يشق على القوم من قهر الوراثة العاطفية وسلطان الطباع التى صنعتها البيئة وحفرت مجراها فى نفوسهم على تتابع العصور وتعاقب الأجيال . لكنه كذلك ، فى تساميه بالإنسانية ، لم ييأس من رياضة المسلمين على الرضى بالبنات وحمايتهن من أثر الظلم والكراهية ، فتتابعت آياته الكريمة والأحاديث النبوية ، حاثَّةً على اتقاء الله فيهن ، حاضَّةً على إنصافهن ومساواتهن بالبنين قدر ما تحتمل الطبائع والأوضاع .

المثَــلُ والقُــدْوَة

وما أحسبنى فى حاجة هنا إلى ذكر الحقوق الإنسانية والشرعية والمدنية التى كفَلها الإسلام للمرأة ، أو بيان المنزلة الكريمة التى وضعها فيها : فقد كثر القول فى هذا منذ ظهرت الدعوة الى تحرير المرأة[1] ، وكانت الشريعة الإسلامية الغراء هى النبع الأول الذى استمد منه دعاة التحرير أدلتهم وأسانيدهم لدفع ما حاق بالمرأة الشرقية فى العصور المتأخرة من ظلم ، وفكّ الأغلال التى كبّلتها بآسمِ الدين ، والدين منها براء ...

لكنْ يطيب لى مع ما أعرف ويعرف القراء من هذا كله ، أن أروى بعض ما قرأت من وصايا النبى ﷺ بالإناث ، وأعرض هنا من حديثه معهن ، ما أراه تمهيدا طبيعياً للحديث عن أبوته لبنات أربع :

فى الصحيحين ــ والنقل من البخارى ــ أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى ، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة ، أخذتْها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت : فدخل النبى ﷺ فحدثته بأمرها فقال : « من بُلِىَ من هذه البنات بشىء فأحسن إليهن ، كنَّ له سترا من النار » .

---

(١) للاستاذ سعيد الافغانى : الأستاذ بجامعة دمشق ، كتاب عن (الإسلام والمرأة) عرض فيه هذا الجانب عرضا وافيا .

وانظر كذلك الفصل الذى كتبته عن « المرأة المسلمة » فى كتاب (الاسلام : أمس واليوم وغدا) ط الحلبى بالقاهرة ، والبحث الذى قدمته فى (شخصية المرأة فى القرآن الكريم) إلى مؤتمر الإسلام والأسرة بجامعة الازهر : ديسمبر ١٩٧٥ ، وبحث (المفهوم الإسلامى لتحرير المرأة) نشرته جامعة أم درمان الإسلامية .

وفى صحيح « مسلم » عن أنس بن مالك أنه قال : قال رسول الله ﷺ : من عال جاريتين حتى تبلغا ، جاء يوم القيامة أنا وهو — وضم أصابعه » .

وفى سنن « أبى داود » عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يُهِنها ولم يؤثر ولده عليها — يعنى الذكور — أدخله الله الجنة » .

وروى البخارى كذلك حديث الصحابى الذى جاء يستأذن النبى عليه الصلاة والسلام فى أن يوصى بماله للمسلمين ، إذ لم يرزق بولد ذكر ، ولم تكن أحكام المواريث قد نزل بها القرآن بعد ، فسأله ﷺ : هل لك بنات ؟ فلما قال : نعم ، أبى عليه ﷺ أن يوصى بماله ، وله بنات .

كذلك فعل لامرأة صاحبه « سعد بن الربيع الأنصارى » رضى الله عنه ، جاءته بابنتين لها فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قُتِلَ معك يوم أحد ، وقد استفاد عمهما مالهما وميراثهما كله فلم يدع لهما مالاً إلا أخذه ، فما ترى يا رسول الله ، لا تنكحان أبدا إلا ولهما مال ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « يقضى الله فى أمرك » وأمهلها الى الغداة ، فنزلت آية المواريث ، فقال ﷺ : « ادعوا لى المرأة وصاحبها » . فلما جاءا ، قال لعَمّ البنتين : أعطهما الثلثين ، وأعطِ أمَّهما الثمن ، وما بقى فهو لك »[1]

وما رُئى أكرم منه قط فى معاملة الإناث والترفق بهن والانتصاف لهن . عن عائشة رضى الله عنها أن فتاة دخلت عليها فقالت وهى بادية الانفعال والغضب : إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع به خسيسته وأنا كارهة . فدَعتْها السيدة الكريمة لتجلس . حتى جاء النبى ﷺ ، وسمع شكوى الفتاة ، فأرسل إلى أبيها ثم جعل أمرها إليها . فقالت وقد زال عنها ما كانت تشعر به من غضاضة :

---

(١) أخرجه مسلم فى ميراث الكلالة (ح : ١٦١٦ ، ١٦١٧ وقابل على سنن ابن ماجه : ٤٨ / ١٨ .

« قد أجزتُ ما صنع أبى ، ولكن أردت أن أعلمَ : أللنساء من الأمر شىء ؟ »

ولقد أجارت زينب بنت النبى ﷺ ، أبا العاص بن الربيع عندما أسر بالمدينة قبل أن يسلم[1] ويأتى حديثها فى المبحث الخاص بها . واستأمنت « أم حكيم بنت الحارث بن هشام » — عام الفتح — لعكرمة بن أبى جهل ، فأمنه ﷺ مع أنه كان قد ذكر اسمه بين الذين أمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة . وفى يوم الفتح ، لاذ رجلان من بنى مخزوم ببيت أم هانىء بنت أبى طالب ، فدخل أخوها « على » يريد قتلهما ، وأجارتهما فقال عليه الصلاة والسلام :

« قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء ، وأمَّنا من أمنت ، فلا يقتلهما »[2] .

ثم كانت معاملة النبى ﷺ للإناث ، على قرب العهد بالجاهلية ، فوق الذى طمعن فيه أو طمحن إليه من عزة وكرامة ومروءة . . .

وما من ريب فى أن البيئة كانت محتاجة الى هذا المثل الصالح والقدوة الطيبة فى شخص النبى الكريم لتقاوم ما ألفته فى معاملة الإناث . ويكفى لنقدر تلك الحاجة ، أن نتدبر ما فى (الصحيحين) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

« والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا فى أمر أتأمَّره إذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا ؟ .. فقلت لها : ومالك أنت ولما ها هنا ؟ ... وما تكلفك فى أمر أريده ؟ .. فقالت لى : عجبا يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجَع أنت ، وان ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ يقول عمر : فأخذت ردائى ثم انطلقت حتى دخلت على حفصه فقلت لها :

يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ قالت : إنا والله لنراجعه ! ثم خرجتُ حتى دخلت على « أم سلمة » لقرابتى منها ،

---

(١) السيرة ٤ / ٥٢ . وأخرجه الحاكم أبو أحمد بسند صحيح عن الشعبى (الإصابة ، ترجمة أبى العاص ٧ / ١١٨) .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ٢ / ١٠٤ ط بريل — ابن إسحاق : السيرة ٤/ ٦٠ وأخرجه مسلم فى صحيحه . ك صلاة المسافرين .

فكلمتها ، فقالت لى : « عجبا لك يا ابن الخطاب ! .. قد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه ..» قال عمر : فأخذتْنى أخذاً كسرتْنى به عن بعض ما كنتُ أجِدُ »[1] .

وهذا الحديث ، قد يغنى عن مزيد بيانٍ لمدى حاجة المجتمع الإسلامى ، إلى مثلٍ أعلى يروضه على غير موقفه من الإناث ، فهذا عمر ، صهر النبى ﷺ وصاحبه الذى أعز الله به الإسلام ، قد وعى ما نزل من آيات الله فى النساء ، وكان من أفقه المسلمين بالدين القيم ، ومع ذلك كره أن تشترك معه زوجته فى أمر له ، وأنكر منها أن تشير عليه برأى ، فلما تمثلتْ بابنته حفصة استفظع واستنكر ، وانطلق إليها مغضبا يسألها فيما سمع ، وإنه ليطمع فى أن تردَّ بالنفى ، لكنها أكدت له أنها ، ونساء النبى ، يراجعنه ﷺ حتى يظل يومَه غضبان ، فانصرف عمر عنها مغضبا لا يكاد يصدق أذنيه ، إلى أن ردته « أم سلمة » بكلمتها الصادعة :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلتَ فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه » ؟[2]

وتلقى « عمر » الدرس البليغ من بيت النبى ﷺ ، وكذلك تلقاه الصحابة والمسلمون ، فلا عجب أن رأينا « أبا دُجانة » الفارس[3] يأخذ سيف النبى ﷺ يومَ أُحُد ، وينطلق به مختالا وقد عصب رأسه بعصابة له كانت تسمى عصابة الموت ، فما يلقى أحدا من المشركين إلا صرعه ، حتى يبلغ « هند بنت عتبة » تزأر فى قومها محرضة على الفتك بالمسلمين ، فيضع الصحابى الفارس السيف على مفرقها لكنه لا يلبث أن ينأى به عنها وهو يقول : « أكرمتُ سيف رسول الله أن أضرب به امرأة . »

---

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان : ١٢٩/٢ (ح ٩٤٤) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ٢ / ١٢٩ (ح ٩٤٤) .

(٣) هو الصحابى الفارس ، سماك بن خرشة الأنصارى . انظر ترجمته رضى الله عنه فى الطبقات الكبرى والاستيعاب والإصابة . وقصته مع هند بنت عتبة فى (السيرة) : ٣ / ٧٣ .

هذا هو « محمد بن عبد الله » فى إنسانيته الرفيعة وبشريته المثالية ، وأبوته الرحيمة التى تفيض بأرق العواطف وأنبلها ، وأحسب أن قد آن الأوان لنتحدث عنه ﷺ أبا لبناتٍ أربع ، وُلِدْنَ له جميعا قبل أن يُبْعَثَ رسولا ، وعِشْنَ معه العهدَ المكىَّ كله ، ثم صحبنه رضى الله عنهن ، فى دار الهجرة . . .

المبحث الثالث

الأخواتُ الأرْبَع

— البَيْت وَالأبوانِ

— أبو البَنــات

— الشــقيقان

— الشــقيقاتُ الأرْبَع

— فى بَيتهنّ الأوَّل

البَيتُ والأبوانِ

فى جوار الحرم المكى ، حيث دور قريش حافَّة بالبيت العتيق مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف العريق ، قامت الدار التاريخية التى كُتِب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله الهاشمى ، وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس ، عائدا من غار حراء ليلة القدر ، مبعوثا بختام رسالات الدين .

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق ، فيُنزل اليها بعدد من الدرجات ، توصِل إلى ممر قامت على يساره شبه مصطبة مرتفعة عن الأرض بنحو قَدم ، وطولها عشرة أمتار ، وأما عرضها فأربعة ...

وعلى اليمين باب صغير ، يُصعد اليه بدرجتين ، يؤدى إلى طرقة ضيقة عرضها نحو من مترين ، وفيها ثلاثة أبواب : يفتح أولها ، من الجانب الأيسر ، على غرفة صغيرة مساحتها نحو ستة أمتار ، كانت للنبى المختار محرابا ومعبداً ، ويؤدى الباب الأمامى إلى بهو متسع طوله ستة أمتار وعرضه أربعة ، وقد جعل مخدعا للزوجين ، وأما الباب الثالث فعلى يمين الداخل ، وهو يفتح فى غرفة مستطيلة ، طولها سبعة أمتار وعرضها أربعة ، وقد جعلت لبنات محمد ﷺ ، وعلى طول هذا المسكن من ناحية الشمال فضاء واسع ، مساحته ستة عشر مترا فى سبعة أمتار ، ويرتفع عن الأرض بنحو متر ، وفيه كانت السيدة « خديجة » تخزن تجارتها قبل الزواج ، فلما تزوجت واعتزلت التجارة ، استعملت هذه المساحة لاستقبال الضيوف[1] .

---

(١) نقلنا هذا الوصف ملخصا من « الرحلة الحجازية » ـــ وفى تاريخ الطبرى « ٢ / ١٩٧ » تحديد لمنزل خديجة الذى تزوجت فيه ، رضى الله عنها ، من سيد البشر .

هذه هى الدار التى استقبلت محمدا — أول ما استقبلته — يوم اختارته السيدة خديجة ليخرج فى مالها إلى الشام متاجرا ، ثم استقبلته عائدا من رحلته ، حيث خفق له قلب سيدة نساء قريش وأخذها منه تفردُ سماته وجلال شخصيته ، حتى إذا كانت السنة الخامسة والعشرون من عام الفيل — السنة الخامسة عشرة قبل المبعث — دقت الطبول فى الدار ، احتفالا بزواج زين شباب قريش شرفا وأمانة وخلقا ، بالسيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، سيدة نساء قريش وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا[1] .

وقضت مكة أياما وليالى ، ولا حديث لها الا عن ذاك الزواج المشهود . ولم تكن بهجة الحفل وحدها هى التى استأثرت بحديث القوم ، وانما كانت المفاجأة غير المنتظرة ، فما دار بخلد أحدهم أن ترغب « السيدة خديجة » فى الزواج من جديد بعد الذى عُرف من زهدها فى الرجال وانصرافها عنهم وردّها سادة قريش واحدا بعد الآخر ، ولا خطر ببالهم أن يكون « محمد » ابن الخامسة والعشرين ، هو الزوج المختار للأرملة الثرية ، ذات الأعوام الأربعين .

وإذا كان رجال من قريش قد نقموا يومئذ على العقيلة الغنية ، أن تؤثر عليهم شابا غير ذى مال ، فلعل بنات هاشم قد تحدثن طويلا عن شبابه الغض ، تستأثر به سيدة تزوجت من قبل مرتين ، وتصرفه عن العذارى الهاشميات ، ذوات الصبا الندىّ ...

على أن أحدا من هؤلاء أو أولئك لم يزعم — صادقا — أن خديجة فى عزتها وشرفها وثرائها ، غير كفء لمحمد ، أو أن محمدا فى عراقة نسبه وطيب عنصره وجلال شخصيته ، غير كفء لخديجة ، وإنما أقصى ما قيل عنهما ، إنها كهلة ثرية فى الأربعين ، وانه شاب فقير فى الخامسة والعشرين[2] .

---

(١) السيرة ١ / ٢٠١ وانظر (جمهرة أنساب العرب) ص ١١١ ط الذخائر .

(٢) لم نطل الحديث هنا عن الزوجين ، وإنما اقتصرنا على القدر الذى نحتاج اليه فى الحديث عن الابوين . ولمن شاء أن يرجع إلى الفصل الخاص بالسيدة خديجة رضى الله عنها فى كتابى « نساء النبى » ﷺ .

وحين ذهب أثر المفاجأة ولم يعد يجدى حديث عن فارق السن والثروة بينهما ، كفَّت أندية قريش ومسامر مكة عن ذلك الكلام العقيم ، وبدأت تستعيد ذكريات بعيدة أثارتها المناسبة ، وتنفض عنها غبار السنين . .

وربما كان أول ما تذاكره القوم يومئذ ، قصة ابنة عمٍّ لخديجة ، ثرية ناضجة ، اختارت هى الأخرى شابا هاشميا فقيرا وعرضت عليه نفسها منذ ستة وعشرين عاما ، وإن كان لم يستجب لها . .

تلك هى « رقية بنت نوفل » الأسدية ، أخت ورقة : رأت عبد الله بن عبد المطلب إثر انصرافه من الكعبة بعد أن افتُدِى من الذبح وفاء لنذر أبيه ، فلمحت عليه مخايلَ مجد مرجو وآنستْ منه نوراً ذكرها بما كانت تسمع من بُشريات عن نبى منتظر . فعرضت عليه نفسها ، وله مثلُ الإبل المئة التى نحرت عنه ، فاعتذر فى تلطف ومضى فتزوج آمنة بنت وهب ، زَهرة بنى زُهْرة[1] ...

وهذه هى خديجة بنت عم رقية ، تتقدم بكل جاهها وثرائها وعزتها ، إلى محمد بن عبد الله ، تعرض عليه أن يتزوجها . .

وعاش « ورقة بن نوفل » ليسمع استجابة محمد لخديجة بنت عمه ، ويشهد حفل عرسها ، بعد أن شهد بالأمس البعيد انصراف عبد الله أبى محمد ، عن أخته بنت نوفل . .

وحين كانت مسامر مكة فى شغل بالحديث عن الزوجين السعيدين ، كان « ورقة » يسترجع ما ذكرته له « خديجة » من وصف غلامها ميسرة لرحلته مع محمد فى مالها إلى الشام ، ويربطه بما سمع منذ ستة وعشرين عاما ، من كلام أخته عن النور الذى رأته فى وجه عبد الله ، فيكاد « ورقة » يلمح فى

---

(١) السيرة الهشامية ١ / ١٦٤ ــ تاريخ الطبرى ٢ / ١٧٤ وطبقات ابن سعد (١ / ٥٨ أول) ولا أعلم خلافا فى أن التى عرضت نفسها على عبد الله ، هى بنت نوفل ، أخت ورقة ، لكن الخلاف على اسمها وقد سبق عرضه مفصلا فى كتابى (أم النبئ) عليه الصلاة والسلام .

صهره الشاب ، ملامح النبى المنتظر الذى شاع أن زمانه قد أظل ، ثم يصحو الشيخ من تأملاته فيقول :

لججتُ وكنتُ فى الذكرى لَجوجاً لِهــمٌّ طــالما بــعثَ النشيجــا
ووصفٍ من « خديجةَ » بعد وصفٍ فقد طال انتظارِى يا خــديجا[1]

وبدأت حياة زوجية هانئة يظللها الحب المتبادل والتقدير المشترك والمودة الخالصة ، ونهل الزوجان من نبع السعادة صافيا لم تشبه شائبة من كدر ، ثم لم يكد يمضى على زواجهما عامان أو ثلاثة ، حتى بدت بوادر الثمر المبارك للزوجية السعيدة ، فخفق قلب « محمد » فرحا وغبطة ، إذ يوشك للمرة الأولى أن يغدو أبا . وأثارت الأبوة المرتقبة أعمق عواطفه ، وأرق انفعالاته ، وهو مقبل على التجربة العظمى التى لا يكمل وجودُ الرجل بغيرها ، فعما قريب يشهد فلذة منه تخرج إلى النور وتستقبل الحياة ، لتكون امتدادًا لحياته ، وعما قريب يرى صورته ممثلة فى كيان صغير لطيف ، تتم به هذه السعادة التى عرفها منذ عرف « خديجة » .

وذكر أمه التى رحلت عن الدنيا وهو صبى فى السادسة ، وذكر أباه الذى ثوى فى « يثرب » وخلَّفه جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » فتمنى لو أنهما عاشا ليفرحا بوحيدهما ويملآ أعينهما من مولوده المنتظر . .

ولم ينس جدَّه الشيخ « عبد المطلب » الذى كان له من بعد أبيه أبا ، فرق قلبه وهو يستعيد ذكراه ، وتندت عيناه شجوا ورحمة ، ثم آب من تأملاته وراح يراقب زوجه الحبيبة وهى تروح وتغدو فى الدار بخطوات أثقلها الحمل الغالى ، ووجهها المشرق يتألق بالسعادة والحنان . .

لم تكن هذه تجربتها الأولى فى الأمومة ، فقد ولدت البنين والبنات من

---

(١) السيرة ١ / ٢٠٢ ، عن ابن إسحاق ، فى ثلاثة عشر بيتا .

زوجيها السابقين : عتيق بن عائذ المخزومى ، وأبى هالة التميمى[1] . فهل تراها كفت عن التشوق للأبناء ووجدت فيمن ولدت ما يرضى أمومتها ويغريها بالقناعة والاكتفاء ؟ . .

معاذ الحب أن تقنع أمومة خديجة بأبنائها الأولين ، فلا يشوقها أن يكون لها ولد من زوجها الحبيب « محمد بن عبد الله الهاشمى . »

ومعاذ الفطرة السوية للأنوثة الناضجة المجربة ، أن تزهد خديجة فى الأبناء ، فلا تتلهف على ولد يؤكد حيويتها ، ويثبت أنها ما تزال فتية منجبة !....

وكيف يُظن بها الزهد فى الولد ، وهى ترى زوجها العزيز فى عز فتوته ونضرة شبابه ، وقد بدأت هى العقد الخامس من عمرها ، فى بيئة تتزوج بناتها دون العاشرة ، وتكتهل نساؤها دون الأربعين ؟ . .

ما أظن أن امرأة فى قريش كانت أشدَّ لهفة على الحمل ، من هذه السيدة التى جربت الأمومة من قبل وكان لها بنون وبنات . بل لعلها ما كانت هى نفسها ، فى زواجها الأول أو الثانى ، بأشوق منها إلى الولد فى زواجها هذا الثالث والأخير ، إذ كانت فى المرتين الأوليين ، أبعد من أن تُتهم بالجفاف أو يُظن بها اليأس ، وأما فى هذه المرة فالأمل فى الإنجاب أبعد ، والاتهام باليأس قريب . .

ومن سُنة الفطرة ، أن تكون المخاوف ساورتها فى مطلع حياتها الزوجية الجديدة ، وأشفقت من أن تمسك رحمها فلا تجود بولد لهذا الحبيب الذى لم يتزوج سواها من قبل ، ولا عرف مثلها الولد . .

ولم يرُعها أن تتمثل عجائز قريش وهن يتربصن بها الأيام يملأن أشداقهن بالحديث عن كهولتها المجدبة وحيويتها الناضبة ، ولا أهمها أن تتصور سيدات

(١) الاصابة : ٨ / ٦١ ــ الاستيعاب ٤ / ١٨١٧ وانظر « جمهرة انساب العرب » ١٣٣ ؛ ١٩٩ ط الذخائر وكذلك (نسب قريش ٢٢ ذخائر ، « تاريخ الطبرى ٣ / ١٧٥ » مع المبحث الخاص بها فى كتابى (نساء النبى) ﷺ .

بنى هاشم وهن يتأسفن على زين شباب الهاشميين فى حرمانه من الذرية ، بقدر ما شغلها وراعها أن تكون هى السبب فى هذا الحرمان ، وربما طاف بها طائف من القلق حين يكون زوجها بعيدا عنها فى بعض شئون العمل أو التجارة ، فيذود النوم عن عينيها ويؤرق لياليها ، ولا تجد ما يسرى عنها الا أن تلوذ بالسماء ضارعة إلى الله أن يتم عليها نعمته ، ويهبها ولدا من زوجها الحبيب . وما تزال كذلك حتى يئوب إليها محمد ، فتشعر بالحيوية تسرى إليها منه ، وتحسّ نفحة عطرة تنسيها هواجسها التى شغلت بالها وترد إليها ثقتها فى نفسها ، واطمئنانها إلى حيويتها المذخورة الخصبة . .

فلما لاحت بوادر الحمل ، هز الفرح أعطافها فأقبلت على زوجها مشوقة تزف إليه البشرى ، ثم بعثت رسلها يذيعون النبأ السعيد فى دور بنى هاشم وينشرونه فى أحياء قريش ، وأغدقت عطاءها على ذوى الحاجة ، كأنما أرادت أن تُشرِك « مكةَ » كلها فى فرحتها فلا يبقى فيها جائع ولا محروم . .

* * *

أبو البَنات

واستمرأت متاعب الحمل واستخفت ثقله ، فظلت طوال شهوره التسعة ، تعد دنياها لاستقبال الوليد ، وتختار له المرضع قبل أن يولد[1] .

حتى آن أوان الوضع ، فتجلدتْ للتجربة التى عرفت من قبل شدتها وقسوة آلامها ، على حين وقف الزوج فى محرابه ينتظر اللحظة المرتقبة بلهفة مشوبة بشيء من القلق ، لم يلبث أن تبدد حين انبعثت من مخدع الوالدة ، صيحة رقيقة واهنة ، معلنة عن بشرى المولد .

وتبعتها أصوات ابتهاج عالية ، سرت مع الهواء إلى الحرم ، وبلغت أسماع الحى القرشى ، فعرف القوم أن خديجة بنت خويلد وضعت مولودها الأول ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم .

ومضت فترة من الوقت والأب الكريم يرنو إلى مخدع زوجه مستثار الشوق إلى رؤية الفلذة الحية من صلبه ، ثم فتح باب المخدع عن القابلة « سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب »[2] تحمل إلى الأب طفلته الأولى ، فتلقاها بين ذراعيه فرحا ، ودنا بها من الوالدة الراقدة فى فراش الوضع ، مسترخية الأعضاء من فرط الإجهاد ، بادية الغبطة والهناءة مع ذاك . .

وتلاقت أعينهما على وجه الوليدة الحلوة ، وخفق لها قلباهما وهما يريان فيها صورتهما معا .

وسماها أبواها « زينب »[3] .

---

(١) الإصابة : ٨ / ٦١ .

(٢) ذكر ابن عبد البر فى « الاستيعاب ٤ / ١٨٦٢ » أن سلمى كانت قابلة ابراهيم وبنى فاطمة رضى الله عنهما .

(٣) قال أبو عمر بن عبد البر فى الاستيعاب ٤ / ١٨٥٣ « كانت زينب أكبر بناته ﷺ ، لاخلاف أعلمه فى ذلك إلا ما لا يصح ولا يسلم » وانظر ترجمتها فى طبقات ابن سعد ، والإصابة .

ونحرت الذبائح احتفالا بمولدها . .

ترى هل مر ببالهما فى تلك اللحظة خاطر مشترك ، هو أن الله رزقهما بأنثى ، وليس الذكر كالأنثى ؟ . .

وهل ود كلاهما لو أن الوليدة كانت ولدا ؟ . .

ربما ، فما من شيء كهذا بمستغرب من زوجين مثلهما ، فى فطرتهما السوية ، وتأثرهما الموروث بما جبلت عليه بيئتهما من حب البنين . لكن ذلك الخاطر لم يكن بالذى يعكر عليهما صفو الفرحة بسلامة الوضع ، أو يشوب حرارة ترحيبهما بمولد طفلتهما الأولى بشائبة من فتور . وتشبثت الأم بوليدتها أياما قبل أن تدفع بها إلى المرضع المختارة ، على المألوف من عادة أشراف مكة . .

وشغلا بالحديث عنها طوال فترة رضاعتها ، حتى عادت أشبه بزهرة غضة ناضرة ، أضفت على البيت مزيدا من الإشراق والبهجة . .

ولم يطل بها المقام فى البيت ، حتى استقبل أختها « رقية »(٢) فاتصل بها الأمل فى نماء الأسرة ، واعتدها الأبوان الكريمان بشرى خير وبركة . .

ثم جاءت من بعدها « أم كلثوم » وكان الظن أن يضيق الأبوان بمولد أنثى ثالثة ، فى بيئة مفتونة بالبنين ، ولكنهما أدركا أن الأمر فى هذا لله وحده ، وما كانا ليجحدا نعمته عليهما ، ومن ثم أقبلا على طفلتهما الثالثة ، شاكرين لله ما أعطى ، طامعين مع هذا فى مزيد من كرمه . .

وأقبل العام العاشر من زواج محمد وخديجة ، وهما يستعدان لاستقبال الثمرة الرابعة للزوجية المباركة . . .

---

(١) لم يتفق الأخباريون وكتاب السيرة ، والنسابون ، على ترتيب ولادة أنباء محمد ﷺ وما هنا هو ما اطمأننت إليه بعد مقابلة المرويات فى مختلف المصادر ، وهو ما فى : السيرة ١ / ٢٠٢ قال ابن إسحاق : وهو المشهور . وابن عبد البر فى (الاستيعاب ٤ / ١٨١٨) وحكى فيه الإجماع . وابن حجر فى (الإصابة ٨ / ١٥٧) وقال إنه : الذى يسكن إليه اليقين .

وصادف مولدها ، حادثا جليلا فى تارخي الأب ، وتاريخ مكة والبيت العتيق : فقد حدث وقتئذ أن أجمعت قريش أمرها على أن تعيد بناء الكعبة ، بعد أن طال ترددها فى ذلك ، تهيبا وتحرُّجا . . .

وكانت الكعبة قد أضرت بها شرارة طارت من مجمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها ، ثم انحدر سيل دافق من الردم الذى بأعلى مكة ، فتصدعت الجدران المتأثرة بفعل الحريق ، ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة اليدين ، لا تدرى ماذا تفعل لتحتفظ بالبيت العتيق الذى جعل من « مكة » مثابة حج العرب جميعا ومهوى أفئدتهم ، وأنزل قريشا ، بحكم جوارها للحرم ، منزلة لا تدانيها منزلة قبيلة سواها . . .

وشاع وقتئذ أن البحر رمى بسفينة رومية جنحت إلى جدة ، فسعى إليها رجال من قريش وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل قبطى مصرى نجار بناء[1] .

وتم الاستعداد لتجديد الكعبة ، وقريش ما تزال تتهيب أن تهدم بناءها الأول ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المعول وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير ! » ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون إليه مرتاعين ، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا . فلما لم يصبه سوء ، أبوا مع ذلك الا أن يتربصوا ليلتهم تلك ، ليروا ماذا يكون . وأصبح « الوليد » غاديا على عمله لم يمسه شر ، فهدم وهدم الناس معه .

وتنافست القبائل فى جمع الحجارة لبناء الكعبة ، وشارك « محمد » فى ذلك العمل المجيد ، فكان ينقل الحجر مع الناقلين ، حتى إذا تم البناء ، اختصمت قبائل قريش فى الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن تستأثر بشرف رفعه إلى موضعه . واشتدت الخصومة حتى أنذرت بحرب ، ومكثت قريش على ذلك

---

(١) السيرة ١ / ٢٠٥ وشرحها فى االروض الأنف(١ / ٢٢١ ــ ٢٢٩) وعيون الأثر (١ / ٥٢) .

أربع ليال أو خمسا ونذر الخطر تزداد ، حتى قام فيهم « أبو أمية زاد الركب ابن المغيرة والمخزومى » ـــ وهو يومئذ أسنُّ قريش كلها ، وهو والد أم المؤمنين أم سلمة ـــ فقال :

« يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه » . . .

فقبلوا ، وتعلقت عيونهم جميعا بالباب تترقب الحكم المجهول ، وإنهم لكذلك ، إذ أقبل رجل شاب ، تام الفتوة متزن الخطا من غير تكلف ، رزين من غير فتور ، بهىّ الطلعة مع جد ووقار ، فهتفوا جميعا لما أن رأوه :

« هذا الأمين ، هذا محمد بن عبد الله الهاشمى ، رضينا بحكمه » . . .

وأقبلوا عليه فحدثوه بما اشتجر بينهم من خلاف ، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر فوضعه بيده الكريمة فى الثوب وقال :

« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا » . . .

ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه محمد بيده ودعم بناءه . . .

وكانت سنه يومئذ ، خمسا وثلاثين سنة ، على ما روى ابن إسحاق[1]

* * *

وآب « الأمين » إلى بيته ، حيث ترك زوجه فى الغداة على وشك الوضع وسعى إلى الكعبة داعيا ، فكان أول ما استقبله عند عودته ، بشرى مولد ابنته الرابعة « فاطمة » .

واقترنت هذه البشرى ، ببشرى نجاة قريش على يد الأمين ، مما كان يتهددها من حرب وفجار .

---

(١) السيرة : ١ / ٢٠٤ ـــ ومثله فى تاريخ الطبرى ٣ / ٢٠١ .

ورددت محافل مكة قول الشاعر القرشى :[1]

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها ، فالبغض بعد مودة وأوقد نارا بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ولم يبق شىء غير سَلِّ المهند
رضينا وقلنا : العدلُ أولُ طالع يجىء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد فقلنا : رضينا بالأمين محمد

وأقبل « محمد » على زوجه مهنئا بسلامة الوضع ، ثم تلقى طفلته الرابعة يبارك مولدها فى ذلك اليوم الأغر ، وكأنما رأى فى ذلك الاتفاق ، آية من الله ، تحبب إليه رزقه ، وتصرف سمعه عما كان يقال حينذاك عن أبوته لبنات أربع . . .

وتطلع إلى السماء شاكرا حامدا ، راضيا بما يأتيه من عند الله ، مستثار الرحمة والحنان لتلك المخلوقات اللطيفة البريئة ، يتلقاها القوم كارهين ، وما جاءت إلى الدنيا مختارة ، ولا هى بمسئولة عن تخلف البنين . .

ثم رنا إلى زوجه فى عطف وتأثر ، يريد أن يبث فى نفسها الطمأنينة والرضى بما أعطاهما الله ، وأن يهوِّن عليها أمرا لا يد لها ولا لأحد فيه ، وإنما تلك إرادة الله ، سبحانه ، لا راد لأمره ، ولا معقب على إرادته . . .

لكن « خديجة » لم تكن فى حاجة إلى مواساة ، فإنها ما كادت تملأ عينيها من وليدتها الرابعة ، حتى تفتح لها قلبها ، وقد رأت فيها صورة من أبيها ![2] . .

فأدركت أن الله سبحانه حَبَا هذه الوليدة بعناية منه ، حين برأها على مثال « محمد » العزيز ، فكان شبهها به ، كافيا وحده لأن يحميها من جفوة

---

(١) هو هبيرة بن أبى وهب المخزومى . (السيرة : هامش ١ / ٢٠٩) وأبو وهب : خال عبد الله بن عبد المطلب . وانظر موقفه وخطبته عندما همت قريش ببناء الكعبة ، فى السيرة ١ / ٢٠٩ .

(٢) انظر باب فضائل السيدة فاطمة رضى الله عنها فى صحيح مسلم (ح : ٢٤٥٠ . ومسند الإمام أحمد : ٣ / ١٦٤ ، ١٩٧) .

الاستقبال ، ويفجر لها أسخى ينابيع الحب والإعزاز فى قلب هذه الأم التى اكتفت من دنياها جميعا بأن تكون زوجَ محمد ، وأرضاها كل الرضى ، أن تدخر لها السماء تلك النعمة الكبرى ، بعد أن نفضت يديها من الرجال ، وأوصدت قلبها على يأس . . .

* * *

الشـقيقـان

وبقى للأبوين ـــ كى تتم سعادتها ـــ مطلب واحد : أن يهبهما الله مولودا ذكرا ، بعد أن منَّ عليهما بإناث أربع . .

وبدا الأمل بعيدا ، إذ كانت السيدة خديجة قد جاوزت ، بعد مولد فاطمة ، سن الخمسين ، لكنها مع ذاك لم تكن قد بلغت مرحلة اليأس من الولد رغم السن العالية ، ولا أخلفتها عادتها المؤذنة بصلاحيتها للحمل ، ومن ثم لم يقطع الزوجان الرجاء فى فضل الله . .

ثم استجاب الله لدعائهما فوهبهما غلامهما « القاسم » ثم تلاه « عبد الله » فتضاعفت الفرحة بمولده ، حين ظُن ألا رجاء . . .

لكن الله لم يشأ للوليدين أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر . .

أما متى ولدا ، وكيف وأنى ماتا ، فالمؤرخون وكُتاب السيرة لم يتفقوا على قول واحد فى ذلك الأمر مع ما له من أهمية قصوى فى حياة الأسرة المحمدية والتاريخ الإسلامى ، وعلى قرب عهد ابنى محمد ، بمبعث الأب المصطفى ﷺ .

بل إنهم اختلفوا فى عدد الذكور من أبناء محمد وخديجة ، وهل كانا اثنين ، أو كانوا ثلاثة ، أو أربعة ؟

فالذى فى (السيرة)[1] قول ابن اسحاق : « أكبر بنيه : القاسم ، ثم

(١) السيرة الهشامية : ١ / ٢٠٢ ط أولى / الحلبى بالقاهرة .

الطيب ، ثم الطاهر . . فأما القاسم والطيب والطاهر فهلكوا فى الجاهلية ، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه . . »

وفى (تاريخ الطبرى) ما نصه : « فولدت — خديجة — لرسول الله ثمانية : القاسم والطيب والطاهر وعبد الله ، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة »[1] .

وجاء فى (الاستيعاب) :[2]

« وأجمعوا أنها ولدت له أربع بنات كلهن أدركن الإسلام وهاجرن ، فهن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم . .

« وأجمعوا أنها ولدت له ابنا يسمى القاسم ، وبه كان يكنى ﷺ . هذا مما لا خلاف فيه بين أهل العلم . وقال معمر عن ابن شهاب : زعم بعض العلماء أنها ولدت له ولدا يسمى الطاهر . .

وقال بعضهم : ما نعلمها ولدت له إلا القاسم ، وولدت له بناته الأربع . وقال عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهرى :

« ولدت له خديجة : فاطمة ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقيه ، والقاسم ، والطاهر ، وقال قتادة : ولدت له خديجة غلامين وأربع بنات : القاسم وبه كان يكنى . . وعبد الله مات صغيرا » .

وفى « الروض الأنف »[3] رواية عن الزبير بن العوام بن خويلد : « ولدت خديجة له : القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله .

« وبلغ القاسم سن المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت عندما مات » .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣ / ١٧٥ .

(٢) حـ ٤ ص ١٨١٨ .

(٣) السهيلى : ١ / ١٢٣ .

« وفيه كذلك ، فى الموضع نفسه ، أن خديجة رضى الله عنها : « دخل عليها رسول الله ﷺ ، بعد المبعث ، وهى تبكى فقالت ، يا رسول الله ، درت لبينة القاسم — تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى ثديها — فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ! فقال الأب ﷺ : إن له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته . قالت : لو أعلم ذلك لهوّن علىّ . فقال ﷺ : إن شئت أسمعتكِ صوته فى الجنة . فأجابت : بل أصدق الله ورسوله » . .

وعلى هذه الرواية ، يكون القاسم مات رضيعا فى الإسلام كأخيه عبد الله ، الذى لقب بالطاهر والطيب لمولده فى الإسلام على ما نقل عن « الزبير » ابن أخى السيدة خديجة . .

وفى (الإصابة) فى ترجمة السيدة خديجة أم المؤمنين :[1]

« فولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطيب والطاهر ، سمّى بذلك لأنها ولدته فى الاسلام » . .

وفى (جمهرة أنساب العرب)[2] « وكان لرسول الله ﷺ من الولد سوى ابراهيم : القاسم ، وآخر اختُلِف فى اسمه فقيل : الطاهر ، وقيل الطيب ، وقيل عبد الله . . ماتوا صغارا جدا . وكان له عليه السلام من البنات زينب أكبرهن ، وتاليتها رقية ، وتاليتها فاطمة ، وتاليتها أم كلثوم . أم جميع ولده — حاشا ابراهيم — خديجة أم المؤمنين » . .

وليس التوفيق بين هذه الروايات بمتعذر ، فيما يختص بعدد أبناء محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ يقال إن اللقب التبس بالاسم ، وجُعِلَ الطيب والطاهر ولدين مع القاسم فهم ثلاثة ، أو مع القاسم وعبد الله ، وبذلك يكون للنبى ﷺ من السيدة خديجة ولدان اثنان ، وهذا هو المشهور عند جمهور

---

(١) الاصابة : ٨ / ٦١ .

(٢) لابن حزم : ١٤ ط الذخائر الأولى .

السلف ، وهو ما يمكن ترجيحه بعد مقابلة كل تلك المرويات [١] والله أعلم .

وأما فيما يتعلق بوقت ولادتهما ووفاتهما ، فقد ذكر « ابن اسحاق » ـــ دون إسناد ـــ موتهما فى الجاهلية ، على حين روى غيره أن القاسم ولد فى الجاهلية ومات فى الإسلام ، وأما عبد الله فولد ومات فى الإسلام . وقد حكاه السهيلى عن الزبير بن بكار ، ونص روايته :

« الذى قاله الزبير ، وهو أعلم بهذا الشأن ، أنها ولدت له القاسم وعبد الله ، وهو الطاهر والطيب ، سمى بذلك لأنه وُلد بعد النبوة . وبلغ القاسمُ المشى غير أن رضاعته لم تكن كملت » [٢] .

* * *

وأيا ما كان الأمر ، فالذى لا ريب فيه أن البيت المحمدى لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين أحدهما قبيل المبعث ، والآخر فى مستهله ، ولعله مما يؤنس إلى هذا ، قوله تعالى فى « سورة الكوثر » خطابًا لنبيه الكريم :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾

وسورة الكوثر ، مكية مبكرة ، والمشهور أنها الخامسة عشرة فى ترتيب النزول ، بين السور المكية وعددها ست وثمانون سورة . وجمهرة المفسرين على أن الكوثر نزلت فى « العاص بن وائل السهمى » أحد أشراف مكة الذين ساروا إلى أبى طالب يسألونه أن يرد ابن أخيه عن الدعوة إلى دينه .

وكان العاص ـــ فيما نقل ابن إسحاق كذلك ـــ « إذا ذُكر محمد ، ﷺ ، قال

(١) انظر مع ما نقلنا هنا : المحبر لابن حبيب ٧٩ ، ونسب قريش ، للمصعب الزبيرى : ٢١ أولى ذخائر . وعيون الأثر : ٢ /٢١٦ .

(٢) الروض الأنف ١ / ٢١٤ .

لقومه : دعوه ، فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ، لو مات لانقطع ذكرُهُ واسترحتم من أمره » فأنزل الله فى ذلك سورة الكوثر[1] . .

ويقول « الزمخشرى » فى تفسير آية الكوثر : « إن من أبغضك هو الأبتر لا أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين إلى يوم القيامة فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر : يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك ، فمثلك لا يقال له أبتر ، وإنما الأبتر هو شانئك المنسى فى الدنيا والآخرة ، وإن ذُكر ذكر باللعن »[2] . .

ولم يدُر بخلد ذلك الشانئ ، يوم عيَّر محمدا ، أن ذِكْرَ ابنِ عبدِ الله سوف يبقى حيًّا خالدا ما عُبِد الله فى الأرض . . .

لقد كان أقصى ما يتصوره هو والمشركون من قريش ، أن يستأثر حفيد عبد المطلب الهاشمى دونهم بالزعامة فى مكة ، وربما امتد سلطانه إلى القبائل القريبة المجاورة فيبقى له الأمر ما عاش ، ثم ينقطع ذكره بموته ، وأما أن يمتد سلطانه من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، ويخلد ذكره على مر العصور والآباد ، فذلك ما لم يكونوا يتصورونه .

....

وما كانت قرشية « محمد » الصميمة الخالصة ، لتهوِّن عليهم انتقال الزعامة إليه ، فإن المنافسة على الشرف بين بيوت قريش كانت على أشدها . .

رووا أن الأخنس بن شريق الثقفى أتى أبا الحكم بن هشام بن المغيرة المخزومى ، فسأله : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال :

« ماذا سمعت ؟ ! . . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ــ يعنى الديات ــ وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا

(١) السيرة : ٢ / ٣٤ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٢٣٧ ، سورة الكوثر .

تحاذينا على الرُّكَبِ وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! . . فمتى ندرك مثل هذه ؟ ! . والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه »[1] . .

على أن النزاع بين بنى عبد مناف أنفسهم ربما كان شبيها بهذا أو أشد منه ، فقد كان هنالك البيت العبشمى والبيت الهاشمى ، يتنازعان ما استرده أبواهما « عبد شمس وهاشم : ابنا عبد مناف » من ميراث جدهم « قصى » الذى كان قد أوصى بما بيديه من مناصب الشرف لولده « عبد الدار » كى يلحقه بأخيه « عبد مناف » الذى شرف فى زمان أبيه وذهب كل مذهب ، وقد بُعث محمد ﷺ رسولا ، وفى بنى هاشم بن عبد مناف السقاية والرفادة ، وفى بنى عبد شمس بن عبد مناف اللواء ، ونذكر هنا ما مر بنا من خبر قيام قريش على « عبد المطلب » حين هم بحفر بئر زمزم ، كيلا يستأثر دونهم بهذا الشرف ، فهل تراهم يتركون حفيد عبد المطلب يظهر نبيا ورسولا من السماء ؟ . .

إلى ذلك المدى بلغت المنافسة على الرياسة والشرف بين بيوت قريش ، فلا عجب أن بات القوم يتعللون بانقضاء ذكر محمد بموته ويقول قائلهم مهونا عليهم الأمر :

« دعوه فإنما هو أبتر ! . . »

وأما محمد ﷺ فقد كان يؤمن بأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومخلد دعوته ، دون حاجة إلى ولد من صلب الرسول يرثها وينهض بها من بعده ، فالنبوة اصطفاء لا وراثة ، وهو ﷺ قد بعث خاتما للمرسَلين ، لا نبى بعده .

ولست بالقائلة مع هذا ، أن محمدا ﷺ تجرد من حب البنين ، فما كانت

(١) السيرة ١ / ٣٣٨ ، رواه ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهرى . وأبو الحكم بن هشام المخزومى ، هو الملقب فى الإسلام بأبى جهل .

فطرته السويّة بالتى تجمّد فيها أسمى المشاعر الإنسانية وتنزع منها غريزة يرتهن بها حفظ النوع وعمران الكون . . .

ولقد فاضت عاطفة أبوته على اثنين كانا له بمثابة الولد : « على بن أبى طالب » وكانت قريش قد أصابتها أزمة شديدة وأبو طالب ذو عيال ، فقال محمد لعمه العباس ، أغنى بنى عبد المطلب :

« إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب الناسَ ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله : آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا ، فنَكلِهما عنه » . .

ووسعَّ محمد لابن عمه « على » مكانا فى بيته ، وفى قلبه ، ثم زوجه ، بعد الهجرة ، من الزهراء ، أصغر بناته وأحبهن إليه . .

و « زيد بن حارثة الكلبى » وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة الطائىّ ، خرجت به صبيا لتزيره أهلها فى طيّىء ، فأصابته خيل من بنى القين بن جسر فباعوه بسوق حباشة ، واشتراه حكيم بن حزام بن خويلد لعمته السيدة خديجة التى وهبته لزوجها قبل المبعث ، فأعتقه وتبناه ، وأذاع فى الملأ من قريش أنه ابنه وارثا وموروثا ، فصار يدعى زيد بن محمد . حتى جاء أمر الاسلام : « ادعوهم لآبائهم » فدُعى زيدَ بن حارثة ، وظل مع ذلك أثيرًا عند المصطفى مقربا إليه عزيزا عليه . . وكذلك فاضت عاطفة أبوته على ربائبه من نسائه أمهات المؤمنين« هند بن أبى هالة التميمى » ، ربيب رسول الله ﷺ ، أمه خديجة بنت خويلد — وعن « هند » رُويت صفةُ الرسول الكريم ، رواها الحسن بن على بن أبى طالب عن خاله هند بن أبى هالة ربيب النبى ، أخى فاطمة الزهراء[1] — وسلمة بن أبى سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومى ، وإخوته عمر وزينب ودرة : أمهم أم سلمة أم المؤمنين .

---

(١) الاستيعاب: ٤ / ١٥٤٤ والشفا للقاضى عياض .

وحبيبة بنت عبيد الله بن جحش : أمها أم حبيبة بنت أبى سفيان ، أم المؤمنين .

وقد ظل محمد — ﷺ — حتى أخريات أعوامه يشتاق الولد ويلتمس الوسيلة إليه ، حتى إذا وهبه الله على الكبر غلاما ، امتلأت نفسه الكبيرة غبطة وهناءة وفرحا ، لولا أن الله لم يمهل « ابراهيم » غير ثمانية عشر شهرا ثم قبضه إليه ، فحزن الأب الثاكل لفقده أشد الحزن ولم يكتم ألمه ، ولا ملك دموعه ، وإن ظل على الحزن مستسلما لقضاء الله الذى شاء لحكمة سامية ، ألا يكون لمحمد فى تلك البيئة المفتونة بالبنين ولدٌ ذَكَر ، وإن دان برسالته ملايين البشر فى مشارق الأرض ومغاربها . .

* * *

وعاشت له بناته الأربع إلى ما بعد المبعث والهجرة ، وقضى الله تعالى أن يثكل ثلاثا منهن ولا يبقى له غير الزهراء .

ولا نعلم أحدًا ممن عاصروه وحاربوه نبيًا رسولًا ، جحد حبَّه ﷺ بناته جميعا ، وإنما يستريب الجاهلون والمفتونون فى ذلك الحب ، وبخاصة ما تواترت به الروايات عن حبه صغرى بناته « السيدة فاطمة الزهراء » فيزعم مُحْدثون أنها إضافات متأخرة عن عصر المبعث ، بعد ظهور التشيع .

ولا نتعجل الآن الرد على ذلك الزعم الباطل . حسبنا — مؤقتا — أن نقدر حين نذكر حب محمد بناته الأربع ، أثر السيدات الكريمات اللواتى دخلن حياته قبل أن يغدو أبا : أمه « آمنة بنت وهب » وقد ظل ما عاش يذكرها ويأسى لفقدها ؛ و « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية » أمه التى أرضعته ؛ و « فاطمة بنت أسد بن هاشم » زوجة عمه أبى طالب التى كانت له من بعد أمه أما ؛ و « خديجة بنت خويلد » زوجه الحبيبة التى أنسته مرارة يتمه وحرمانه ، وملأت دنياه حبا وأنسا وطمأنينة وسلاما . .

سبحانه جلَّت حكمته ، لكأنما أراد أن يروض الرجل الذى يصطفيه نبيا ، على احتمال أبوة البنات والصبر عليها ، فنشأ – ﷺ – على الاعتداد بالذات ، وعدم الاستنصار بالولد ، وكان فى أبوته لبنات أربع قدوة صالحة للمؤمنين برسالته التى أعزت الأنوثة ، وقررت لها من الحقوق ما لا تطمح النساء إلى مثله أو قريب منه ، أبدَ الدهر . . . .

* * *

الشقيقاتُ الأربع
في بيتِهنَّ الأوّل

خرجن إلى الدنيا فى أكرم بيت ، وأنبتتهن سلالة قرشية عريقة أصيلة ما يعرف العرب أعز منها ولا أنقى ، واستقبلهن البيت الكريم استقبالا لم تظفر بمثله لداتهن ، فقد كن ثمرة طيبة لزواجٍ سعيد قام على الحب المتبادل والمودة الخالصة ، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجه الحبيبة التى أنسته بحنانها الفياض كل ما ذاق فى طفولته من يتم ، وكانت له عوضا جميلا عما قاسى من حرمان . .

وتجد فيهن الأم ، فلذات حية من زوجها الحبيب الذى أُخِذَتْ منذ عرفته بجلال طلعته ، وأسرها بنبل شخصيته ، وجميل خصاله ، فتفتح له قلبها المغلق وأقبلت على الحياة من جديد .

وكانت طفولتهن سعيدة ناعمة ، لم ترهق بشظف العيش ، ولا أذبلها الحرمان . .

ودرجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة ، فالتُمست لهن — واحدة بعد الأخرى — خير المراضع بعيدا عن حر مكة الخانق وقيظها المنهك ، حتى إذا أدركن سن الفطام عدن إلى حضانة الأم التى كانت لهن خير مربية ، وقد نفضت يديها منذ تزوجت « محمدًا » من كل ما كان يشغلها من شئون التجارة ، وتركت للزوج الأمين الإشراف عليها وأقبلت هى بكل طاقتها ترعى دنياها الجديدة ، غير ملقية بالا إلى ما وراء جدران بيتها السعيد . .

وأكسبتها تجربتها السابقة فى الأمومة ، خبرة بحضانة الصغار ودراية بتربيتهم ، فأسرعت فتياتها إلى النمو بفضل ما تهيأ لهن من رعاية مثالية ، وتفتح صباهن كما يتفتح الزهر فى المنبت الطيب . وإذا كانت ظروف الأسرة يسرت لها ما تحتاج إليه من الموالى والخدم ، فإن عمل هؤلاء لم يكن يتجاوز شئون الخدمة إلى حضانة الأطفال ، إذ حرصت السيدة خديجة على أن تتولى بنفسها تلك المهمة الجليلة ، كى تعد بناتها للمستقبل المرجو لهن ، وما فى مكة من تدانيهن شرفا وعزة . .

حتى إذا شبت كبراهن « زينب » عن الطوق ، بادرت أمها بتمرينها على المشاركة فى العبء الكبير ، وأخذتها مبكرة مأخذ الجد ، ونأت بها عما تلهو به لداتها . وأترابها فى ملاعب الطفولة ، فكانت « زينب » لشقيقتها الصغرى « فاطمة » أما صغيرة ترعى شئونها وتمضى فراغها فى ملاعبتها ، كيما تعفى أمها من بعض مشاغلها وقد علت بها السن وجاوزت الخمسين من عمرها . .

وقرَّب هذا الوضع ما بين زينب وفاطمة ، كما أوجد تقارب السن ألفة بين الأختين رقية وأم كلثوم ، فكانتا رفيقتين متلازمتين ، يجمعهما الملعب المشترك والفراش الواحد ، والطباع المتشابهة ، والسمت المتماثل .

وسارت الحياة بالشقيقات رخية هانئة . . . حتى تزوجت كبراهن « زينب » فافتقدتها أخواتها وشعرن بالوحشة لغيابها ، ولبثن ليالى عديدات ينظرن إلى فراشها الخالى فيخامرهن إحساس مبهم يختلط فيه الفرح بالأسى ، ودار سمرهن طوال هاتيك الليالى ، حول الزواج ، وقد أعياهن أن يدركن كنه هذا الوضع الذى ينتزع الفتاة من أحضان أهلها ، ويلقى بها وحيدة إلى رجل قد يكون غريبا أو شبه غريب !

وكانت صغراهن « فاطمة » بحكم طفولتها ، أجهلهن لحكمة الزواج وأشدهن ضيقًا به ، فما أرضاها قط أن يبعدوا عنها « أمها الصغيرة » التى

طالما لاعبتها ودللتها ورعتْها . ولعلها ساءلت أختيها كيف هان على الأسرة أن تستقبل حادث الزواج بالفرح المعلن ، والاحتفال المشهود . وكان أولى بها أن تتمسك بزينب ، أو فلتودعها كارهة ، بغير احتفال !

وتحاول رقية — متأثرة بشعورها أن الدور عليها — أن تهون الأمر على أختها الصغرى فاطمة ، وأن تقنعها أن أبويها ما كانا ليسلما « زينب » إلى زوجها فى احتفال بهيج كالذى كان ، لو لم يكن فيه خيرها وسعادتها . .

ولكن فاطمة تصر على رأيها فى الزواج ، وقد يبدو لأم كلثوم أن تقول لأختيها :

— من يدرى ؟ . . لعل ضجة العرس إنما قُصِدَ بها إلى شغل العروس عن التفكير فى أبعاد التجربة الجديدة التى تواجهها بالانتقال من مهد حداثتها ومرتع صباها . . .

وإذ تحس من أختها « فاطمة » بوادر الاقتناع ، تمضى مزهوة برأيها ، فتلفت نظر أختيها إلى ما بدا على أمهما بعد فراق زينب من شجو تحاول أن تكتمه ، فتفلت منها بوادر واشية به دالة عليه .

ثم تسألهما :

— أما سمعتماها غير مرة تنادى « رقية » باسم « زينب » ثم تتنبه فجأة ، فتستدرك بصوت رقيق حالم : ويحى ! . . . لقد نسيت أن زينب لم تعد هنا !

فتردد فاطمة فى أسى :

— هو ما تقولين . . .

وأما رقية فتجيب :

— إنك تبالغين يا أم كلثوم ، فالواقع أن أمنا قد ألفت أن تنطق باسم زينب ، وليس فى سبق لسانها بهذا الاسم ما يستغرب ، وانما هو حكم الإلف والعادة . .

ولكن « أم كلثوم » تستطرد قائلة دفاعا عن وجهة نظرها :

ــ فما قولك إذن فى أبينا ؟ . . أو ما تلاحظين عليه منذ حين أنه يأنس إلى الخلوة ويميل إلى الوحدة ويجنح إلى الصمت والتأمل ؟ أوَ ما يبدو عليه فى هذه الأيام أنه مشغول البال بهمٍّ يطويه ؟

قالت « فاطمة » وهى تنتفض حبا وحنانا :

ــ يا لأبى العزيز ! . . إنه لكما ذكرتِ يا أم كلثوم . .

وقالت رقية :

ــ وما يدريكما أن لفراق زينب صلةً بميل أبينا إلى العزلة وشغفه بالخلوة ؟

فهزت « أم كلثوم » رأسها وهى تقول بلهجة ذات مغزى :

ــ ما أراك يا رقية إلا تعدين نفسك لمثل مصير زينب ، وقد جاء دورك !

فردت « رقية » فى غير انفعال :

ــ ما خطر لى هذا يا أخت ببال . .

وعقبت فاطمة :

ــ فلتتزوجا أنتما وليبارك الله لكما ، أما أنا فلست بتاركة أبوىَّ ما استطعت إلى ذلك سبيلا . .

فما مضى على زواج « زينب » غير قليل ، حتى خطبت أختاها رقية وأم كلثوم ، وبقيت هى فى بيت أبيها ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . . .

إلى هنا ينمتهى الفصل الأول من حياة الشقيقات الأربع ، بانتهاء حياتهن المشتركة فى بيت أبويهن ، ويبدأ فصل آخر نرى فيه كل واحدة منهن قد واجهت دنياها الجديدة واستقبلت بحياتها الخاصة ، فلنحاول أن نتبع كلا منهن ، لنصحبها فى ذلك الدور الثانى من حياتها ، ونرى ما فعلتْ بها الأيام . .

* * *

(١)

زينبُ الكُبْرَىٰ

- العَروسُ الهاشِميَّة
- ابن الخَالة
- سَعَادة لم تطل
- لَيل لا يبْدُو لَه آخِر
- الأسير وَالقِلاَدة
- مسْلِمة وَمشرك
- طارق بِلَيْل
- لقاء .. وَفِرَاق
- ذِكرَى ...

زينبُ الكبْرىٰ

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت إليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبوها من كرام الفتية القرشيين . . .

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الأمل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابنِ خالتها « أبى العاص بن الربيع » أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواها ، أن كانت خالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت « محمد » كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، ما يطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة ، فراح يرمقها وهى ترق سراعا فى مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ملء النضرة والبهاء . . .

وكان مكانها فى بيت أبيها ، كبرى بنات أربع ، قد أسرع بها إلى النضج قبل الأوان ، بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الأم الطيبة التى كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، وأجهدها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع داركا فى العقد الخامس من عمرها ، فأضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الأنوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الإهاب . . .

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألم ببيت خالته فيؤخذ بملاحتها وعذوبة حنانها وذُكاء ملامحها ولطف طباعها . . .

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الإلمام ببيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين إليها من الحجيج والتجار ،

والتجار ، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، إلى الشمال وإلى الجنوب ، فى الصيف والشتاء ، تحبسه عن « أم القرى » فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ الرحلة منها أشهرا ذوات عدد ، لكنه كان يرنو إلى « أم القرى » على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين ، يؤنسه طيف من تلك الصبية الرقيقة الوديعة ، التى يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة نبيلة . . .

ولم يغب عن باله قط ، أن الفتية الأمجاد من آل هاشم يرنون إلى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن إلى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من يتاح له مثل مكانته فى بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف فى كسب ود « زينب » والوسيلة إلى الظفر بإعجابها وتقديرها . . .

وأبت عليه ثقته فى نفسه أن يدخل مع منافسيه فى معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالى لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا ، إلى دعم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين . . .

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غير قليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكتمان والحرص والتأنى ، ولكنه فى الوقت نفسه جعل « زينب » تطمئن إليه وتأنس له فى غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل شخصيته التى أنضجتها التجربة والرحلة ، ما جعلها تعتز به أخا ، ولا ترى فى فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وإن كان فيهم من يُوزن به أصالة ونسبا ، وربما مالًا كذلك . . .

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت « محمد » قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب » ترتاح إلى محضره ، ويطيب لها أن تصغى إلى ما فى جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة الأسفار ، وكأنما كانت ترى فى وعيها لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذى تميزت به عن لداتها وأترابها . . .

وربما جاءها فى بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ، فتتقبلها فى سماحة وبشر ، وترى فيها تحية جميلة لما يربطهما من أواصر المودة فى القربى . . .

وهكذا تفتح له قلبها على مهل ، فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها فى رفق ولطف ، وكانت أمها إلى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لا تنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » وإلا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه . . .

و « خديجة » قد عرفت الحب الطاهر ونهلت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها الفذة — التى بدت للقوم فى حينها أشبه بمغامرة — أشد تحمسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق إيمانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعودين السعداء . . .

وتلطفت السيدة الأم ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب ابنته الأولى ، فرقَّ قلب الأب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما ينهلان ، فى حياتهما الزوجية ، من ذاك النبع السخى المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يزهد أو يمل . . .

هنالك وافقت « خديجة » على أن يتقدم ابن أختها إلى أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى إلى جانبها ، لكنها رأت حرص الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الأمين ، وخشيت إن هى تريثت أن يسبقوا « أبا العاص » إلى طلب يد « زينب » فيكون شىء من الحرج لا ترضاه لزوجها

وقد أحسن « محمد » لقاء « أبى العاص » كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه إليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من « زينب » ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه

الرغبة إلى ابنته ، فإنها لأهل لأن تكون صاحبة الكلمة الأولى فى أمر زواجها .

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو « أبى العاص » ورأيها فيه ، لكنه ، على ما يعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع فى الأمر دونها . وأراد بعد كل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد إلى أمها فى آن تسبقه إليها . ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ــ بنيتى زينب ، إن ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك . . .

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم إلا إن كانت تأبى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الأمر على ماتكره . . .

وتلبث الأب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الأم الطيبة . . . وعندئذٍ عاد إلى حيث ترك « أبا العاص » ينتظر ، فصافحه مهنئا داعيا مباركا . . .

* * *

وذاع النبأ السعيد فى مكة ، فوجمت له قلوب شبان طمعوا فى الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يسعه أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بنى العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص إلا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا إلا خيرا ؟...

قرشى صميم ، يلتقى نسبه من جهة الأب مع « محمد بن عبد الله » عند الجد الثالث : عبد مناف بن قصى ، فهو « أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى[1] .

---

(١) نسب قريش ٢٣١ وجمهرة أنساب العرب : ٧٠ ــ ذخائر . والمحبر ٥٣ . وكُنَى الاستيعاب ٤ / ١٧٠١ والاصابة ٧ / ١١٨ .

ويلتقى نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ، عند جدهما الأدنى : خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب . . .

وكان إلى جانب ذلك الأصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالأمين[1] ، كما لقبوا محمد بن عبد الله . . .

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم إليه ما جعله يتقدم إلى الصف الأول من صفوف التجار ، وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها[2] .

ولقائل أن يقول إن السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب ، ولآخر أن يقول إن محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه . . .

فلئن كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، لقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ما يزكيه ويغنيه ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف إليه أى عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشى العالى . . .

* * *

تهيأ البيت المحمدى للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذى يقترن عادة بإعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » فى طلب أزكى العطور والأطياب ، كما أرسلت خديجة من يجوبون الأسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس . على حين مضى « أبو العاص » يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو فى هذا السبيل بما يتيحه له كرمه ، وثراؤه العريض . . .

---

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٣١ ط الذخائر .

(٢) السيرة : ٢ / ٣٠٦ وانظر معها الاصابة لابن حجر : ترجمة أبى العاص .

وآن موعد الزفاف ورددت أرجاء مكة أصداء العرس ، ونُحرت الذبائح ودعى إليها أهل البلد العتيق . . .

وصحبت الأسرة المحمدية عروسها إلى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الأول الذى حُلت فيه تمائمها . . .

ثم تركتها فى رعاية زوجها الكريم . . .

وهناك أظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة خالصة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن يتنعما بالعيش فى ظل الزوجية الموفقة ، وإن مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت . حين يُضطر أبو العاصى إلى السفر فى تجارته ، فيمضى تاركا قلبه فى مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق ، وتستعين عليه بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلى ، واسترواحا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد ما يلوح فى أفق الأسرة من طلائع ذلك الغد المغيب . وقد كثر انقطاع أبيها إلى التعبد والتأمل فى خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها إلا أن ترمقه على العبد ، وتُهَيِّئ له ما فى وسعها من أسباب الراحة والهدوء . . .

وتتشاغل « زينب » بالمشاركة فى تدبير شئون الدار لكى تتيح لأمها الفراغ للتفكير فى الحبيب وإعداد زاده والسهر على راحته . حتى يعود « أبو العاص » من سفره فترجع زينب إلى بيتها حيث تفضى إلى زوجها بما يساورها من قلق ، فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها إلى مألوف حالتها من دعة وإشراق ، وربما أنشدها بعض ما كان ينشده فى سفره ، وهو عنها بعيد :

ذكرتُ زينب لما ورّكتْ إرَماً فقلت سقيا لشخصٍ يسكن الحرما
بنت الأمين جزاها الله صالحة وكل بعلٍ سيثنى بالذى علما(1)

(1) طبقات ابن سعد : ٨ / ٢٠ ـــ الاستيعاب ٤ / ١٨٥٤ واروض الأنف ٣ / ٦٨ ، وعيون الأثر ٢ / ٢٨٩ .

ثم منّ الله عليهما بوليدهما « علىّ بن أبى العاص » ومن بعده جاءت أختة « أمامة »[1] ففاض عالمهما بالغبطة والفرح . . .

وذات صباح ، سعت « زينب » مبكرة إلى بيت أبيها وأبو العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل » .

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هذه الحال من اللهفة والاهتمام والانشغال ، وقد راعها أن مرّت بها فلم تكد تراها . بل اندفعت لا تلوى على شىء نحو مخدع زوجها . حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج إلى بناتها وقد عاودها هدوؤها . . .

وأصغت « زينب » إلى أمها وهى تحدثها حديثا عجبا عن نزول الوحى على أبيها ﷺ وهو يتعبد فى غار حراء ، فأُخِذَتْ بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك أن الأمر كان من الخطر والجلال بحيث قصُرتْ عن إدراكه وأعياها أن تبلغ مداه . . .

ولبثت فى مكانها ساكنة لا تريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهى ، بل خيل إليها أنها تسبح نائمة فى بحر لجى لا تدرك عبره !

حتى ردها إلى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :

ـــ أوَ ما يسرك يا أختى أنك بنتُ نبىّ هذه الأمة ؟

أجابت بعد تأمل صامت :

ـــ أجل والله يا فاطمة ، وأى فتاة لا يزدهيها ذلك الشرف الذى ما بعده شرف ؟ لكنه الذى سمعتُ من قول خالى « ورقة » : ليُكَذَّبَن أبى ، وليوذَين ، وليُخْرَجَن ، وليقاتُلَنَ [2]

(١) نسب قريش ٧٠ ـــ وجمهرة أنساب العرب ٧٠ ؛ ١٥٨ ، والاستيعاب ٤ / ١٨٥٤ والمحبر ٥٣ ؛ ٩٩ وعيون الأثر ٢ / ٢٨٩ .

(٢) السيرة الهشامية ١ / ٢٧٤ ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٠٧ .

ففكرت « فاطمة » مَلِيًّا وقد عزَّ عليها أن يُؤذَى أبوها . ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :

هو والله ما قالت أمى لأبى :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، والله ما يخزيك الله أبدا . إنك لَتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكَلَّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق »[1] .

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وإن أحست كلتاهما أن لهذا الأمر ما بعده !

* * *

عاد « ابن الربيع » من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد ..

وتحدثت إليه زوجه « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وفخرا ، فما راعها إلا أن أمسك صامتا لا يعقب !

وسألته : ما بك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يملأ عينيه منها : لى يا حبيبة أنى خائف . . .

ثم غض بصره وهو يردد كمن يحدث نفسه :

ــ لو تبعتُه لقال القوم : فارق دين آبائه إرضاء لزوجِه وحميه ، ولو خالفته . . .

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة :

ــ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق . . ورنت إليه طويلاً قبل أن تستطرد قائلة : وأنا بعد قد أسلمتُ يا ابن الخالة . .

قال وقد أسقِط فى يده : أَوَ قد فعلتِها يا زينب ؟

---

(١) متفق عليه من حديث المبعث ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، مرفوعا (اللؤلؤ : باب بدء الوحى) ح (٨٩) .

قالت : وكذلك أسلمت أمي وأخواتي ، وعليّ ابن العم أبي طالب ، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابنُ عمك عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد . . .

فلم يبد عليه أنه أصغى إلى ما تقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام : فهل فكرت يا زينب حين تبعتِ دين أبيك ، فيما يحدث لو أنى بقيت على دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب : كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق إلى الإسلام كما سبق إليه من قومك عثمان ابن عمك والزبير ابن خالك . .

فانثنى مولّيًا ، وخرج إلى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جمر .. ٨

وآب إليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به ، بل تركته حتى جلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

ــ لقيتُ أباكِ اليوم فى الكعبة يا زينب ، ودعانى إلى الإسلام(١) .

ثم لم يزد . . .

وكان فى وجوم ملامحه ، وانكسار صوته ، ما يغنى زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة ؟

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والأسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتى همَّا بعناق ، ثم ما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقف بينهما فيحول دون ما يبغيان من شعورٍ بالتدانى ، والتماس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا . . .

ولم يناما ليلتهما ، ولا ما بعدها من ليال ، اللهم إلا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفواتٍ قلقة ممزقة .

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ما تكابد :

---

(١) السيرة ٢ / ٢٠٦ .

ــ والله ما أبوك عندى بمتَّهم ، وليس أحب إلَّى من أن أسلك معك يا حبيبة فى شِعب واحد . لكنى أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بدين آبائه مرضاةً لامرأته وحَمِيه ، فهلا قدَّرت وعذرتِ ! ؟

وتمثل بموقف العم أبى طالب بن عبد المطلب : بقى على دين قومه ، وإن محمدًا لأحبُّ إليه من ولده ، وما يساوره فى صدقه أدنى ريب .

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وإن خايلها الأمل فى أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة . . .

* * *

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى ، وهذه قريش قد لجت فى عداوتها للرسول ﷺ ، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الأذى إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا محمدًا إلى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى سُجلت فى صحيفة عُلقت بالكعبة، وخرجت بالهاشميين إلى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك فى حصار طويل منهك امتد ثلاث سنين[1] .

ولم تكن « زينب » فيمن خرج إلى الشعب ، لكن أنباء من فيه كانت تأتيها فى دار زوجها ، فتروعها بالذى يكابده أهلها هنالك . . .

ولم تنجل محنة الحصار ، إلا لتسلم إلى ليل طويل ، لا يبدو له آخر ! . . .

مات العم « أبو طالب » بعد ستة أشهر من تمزيق صحيفة المقاطعة .

وبعده بثلاثة أيام[2] ، توفيت خديجة أم المؤمنين الأولى ، وربة بيت النبى ﷺ وأم عياله ، ووزيره فى الإسلام .

---

(١) السيرة : ١ / ٣٧٥ . تاريخ الطبرى ٢ / ٢٢٥ . ومعهما عيون الأثر ١ / ١٣٠ .
(٢) المحبر : ١١ ، عيون الأثر : ١ / ١٣٠ .

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على النبى ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب فك الحصار ، إلى أشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا . .

وبدأ المسلمون يهاجرون تباعا إلى يثرب فرارا بدينهم من الفتنة والأذى ، حتى لم يبق مع النبى ﷺ بمكة إلا من حُبس أو فُتن ، غير « علىّ بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق » رضى الله عنهما . . .

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة أن المشركين قد ائتمروا بمحمد ﷺ ليقتلوه ويستريحوا منه . . .

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها إلى أقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق . .

وأوجست فى قلبها خيفةً « زينبُ » وهى تصغى إلى أنباء المطاردة الشرسة العنيدة ، حتى إذا بلغها وصول أبيها ﷺ إلى مأمنه فى دار الهجرة ، اطمأن بالها . . .

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيها « فاطمة وأم كلثوم » إلى هناك ، وكانت « رقية » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت زينب فى دار زوجها أبى العاص بن الربيع بمكة ، إذ لم يكن الإسلام قد فرق بينهما بعد . .

وتلفتت حولها فإذا مكة قد خلت من كل الأهل ، وإذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم إلا من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين . . .

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسائلها : أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا ؟

أين الأمين والطاهرة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم وعبد الله ؟

رحلوا جميعا . فأما خديجة وولداها فإلى غير مآب ، وأما محمد ﷺ ، وبناته فإلى هجرة واغتراب . .

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها . حتى أراحها البكاء هونا ، فأغرقت فى تأمل صامت حزين :

واعجبا ؟ الأحياء من أهلها وأحبابها جِدُّ نائين ، والموتى منهم هم الجيران الأقربون ! .

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتصدع : إن زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه ، ولو كان قد أسلم لما تمزّق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدة عن أبيها وأخواتها . .

* * *

وتتابعت النذر معلنة عن دنو عاصفة عاتية ، فمحمد ﷺ قد وجد فى « يثرب » أنصارا ودارا ومقاما ، وأصحابه هناك يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعير تحمل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فعاد المسلمون إلى يثرب بالعير واثنين من الأسرى ، وتركوا ابن الحضرمى صريعا بسهم على أديم الصحراء[1] .

وظل أهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى أمر هذه القلة المهاجرة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفارى » ــ وكان مسافرا فى تجارة بالشام مع أبى سفيان ــ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحوّل رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

ــ يا معشر قريش . . اللطيمةَ اللطيمةَ ! . . أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى لكم أن تدركوها . . الغوثَ الغوثَ ![2] . .

(١ ــ ٢) السيرة : ٢ / ٢٥٢ ؛ الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٥ وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٦٣ ، وعيون الأثر ١ / ٢٢٧ .

فجاءته الأصوات من كل جانب : أيظن محمد وأصحابه أن تكون عِير أبى سفيان كعيرِ ابنِ الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فأدركت أنها الحرب . . .

الحرب بين قريش والمسلمين . . .

وفى الأولين زوجها ووالد طفليها علىّ وأمامة : أبو العاص بن الربيع .

وفى الآخرين أبوها : محمد رسول الله ﷺ

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة أشقى منها ولا أفدح هما .

فلما أصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير إلى دار الهجرة فى ألف مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح .

كم ترى يكون عدد الجيش مع أبيها فى المدينة ؟ مائة ! مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يا لزينب مما تتمخض عنه المعركة الرهيبة غير المتكافئة . .

وانثنت إلى مهد صغيريها ، على وأمامة ؛ فرنت إليهما بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين :

ـــ لن تطلع علينا الشمس فى مثل يومنا هذا ، إلا وأنتما يتيمان ، أو أنا . .

ثم أرخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها . واستسلمت لقضاء الله وقدره . . . .

ولم تحاول أن تتابع أنباء القتال الدائر أو تلتمس ما يصل إلى مكة من أخباره ، فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » إلا اليتم أو الترمل !

وإذ هى منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة : أوَ ما بلغك النبأ العجيب ؟

فنظرت إليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب . . .

واستطردت العمة : انتصر محمد فى قلة من صحابته ، على قريش فى كثرتها وعدتها . .

فانتفضت زينب هاتفة : انتصر أبى ! ؟ . . وافرحتاه ! . .

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفليها إلى صدرها واستعبرت باكية . . .

لكن العمة عَجِلتْ إليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص . بل وقع فى أسر صهره الكريم ﷺ .

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح . . .

* * *

وأتتها بقية من الأنباء بعد حين . . .

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذى ترك هامات قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر . . .

وأذيعت أسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء . . .

وكان « أبو العاص » ذا مال ، وقد أراد أهله أن يغلوا فى فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتديه بما هو أغلى من المال . .

* * *

سيق أسرى بدر إلى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتأملهم الرسول ﷺ ملياً ، ثم نحّى عنهم صهره « أبا العاص بن الربيع » وفرق الباقين بين أصحابه وقال : « استوصوا بالأسارى خيرا » . . .

وبقى أبو العاص عند النبى ﷺ ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها . . .

وغالوا فى الفداء ، حتى إن المرأة لتسأل عن أغلى ما فُدى به قرشى ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها فى فداء ابنها[1] . . .

(١) السيرة : ٢ / ٣١٦ ، والطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة . وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ١١ — ولاحظ أن ابن الربيع ، يذكر فى بعض المصادر باسم « أبى العاصى » وفى آخر باسم « أبى العاص » .

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو أبى العاصى ، فقال للنبى ﷺ :

ـــ بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها ، أخى ، أبى العاصى ابن الربيع . . .[1]

وأخرج من ثيابه صرة قدمها إلى المصطفى فإذا فيها « قلادة » من جزع ظفار ـــ بلد باليمن ـــ لم يكد ﷺ يراها حتى رق لها رِقَّةً شديدة ، وخفق قلبه للذكرى . . .

لقد كانت قلادةَ « خديجة » أهدتها إلى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها إلى أبى العاصى ، ابن أختها « هالة » . . .

وأطرق الصحابة خُشعًا وقد أخِذوا بجلال الموقف :

قلادة الحبيبة ، تبعث بها بنت النبى إلى أبيها ، فى فداء زوج حبيب !...

وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :

« إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها . فافعلوا » .

قالوا : نعم يا رسول الله . .

وأدنى محمد ـــ ﷺ ـــ إليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسرَّ إليه حديثا لم يُعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا . ثم حيًّا ومضى ، فلما أبعد ، التفت ﷺ إلى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبى العاص خيرا وقال :

« والله ما ذممناه صهرا »[2] .

* * *

(١) مسند أحمد : ٦ / ٢٧٦ والسيرة ٢ / ٣٩٧ : والاستيعاب والاصابة : ترجمة أبى العاص .

(٢) السيرة : ٢ / ٣١٧ ، وابن سعد فى الطبقات ٨ /٣١ من طريق الواقدى ، وتاريخ الطبرى ٢ / ٢٩١ ، والاستيعاب : ٤ / ١٧٠١ .

وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل من صحيحه ، وفيه أن النبى ﷺ « ذكر صهرا له فى بنى عبد شمس . فأثنى عليه فى مصاهرته إياه فأحسن » ٤ / ١٩٠٢ ح ٢٤٤٩ .

دخل « أبو العاص » بيته فما رأته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها إليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعال ، فرفعت وجهها الجميل إلى السماء تحمد الله أن رده سالما إليها وإلى طفليه ، وتضرعت إليه تعالى أن يشرح قلبه للإسلام . . .

وشغلتْها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه زوجها من وجوم واكتئاب ، إلى أن قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها :

ــ جئتك مودعا يا زينب . . .

سألت بقلب واجف : هكذا ولما نكد نلتقى !

قال ومازال يتحاشى النظر إليها : لستُ راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة ! . .

ورابها ما سمعت .

كانت تعرف أن قريشا ساومت أصهار محمد ﷺ ، على أن يردوا بناته إليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا أختيها « رقية وأم كلثوم » فردَّاهما إلى أبيهما ، وأما أبو العاص فتركهم يقولون :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش . . .

ثم صدمهم بردِّه : لا والله إنى لا أفارق صاحبتى ، وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش[1] .

فهل تراهم عاودوه اليوم فى أمر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان فى « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجمد أطرافها وتسرى إلى قلبها ، فاستندت إلى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يائس ، ماذا بعد . . .

(١) السيرة : ٣٠٧/٢ وانظر معه فى الاستيعاب والإصابة ترجمة أبى العاصى وسعى قريش فى طلاقه لزينب ، رضى الله عنهما .

وأدرك « أبو العاص » ما هجس فى قلبها ، فبادرها قائلا فى حنو وكأنما ذاب قلبه فى صوته : رحماك يا حبيبة ، إن أباك هو الذى طلب أن أردك إليه ، لأن الإسلام فرَّق بينى وبينك ، وقد وعدتُه أن أدعك تسيرين إليه ، وما كنت لأنكث عهدى . . .

وحملها صوته إلى بعيد . . .

وتمثلت نفسها فى يثرب ، تقبل أباها وتعانق أخواتها ، وتلقى النازحين من لأهل والعشيرة ، والصحابة من المهاجرين والأنصار .

وانتشت بالحلم الهنىء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على « أبى العاصى » غارقا فى شجنه ، فسألته مترفقة :

— كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

— ليس بالكثير . . . إن هى إلا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم . . . .

وبقى سؤال لزينب : وترافقنى إلى دار الهجرة ؟

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه وأجاب :

— كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتى أخوك زيد بن حارثة ، ومعه صاحب من أنصار أبيك حتى يبلغا « بطن ياجج » — على بعد ثمانية أميال من مكة — فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك إلى أبيك بيثرب[1] .

* * *

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، وأخرجها من بيت زوجها أبى سفيان إلى محافل

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٨ — وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩١ .

مكة وأنديتها تدعو للثأر من المسلمين الذيت قتلوا يوم بدر : أباها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وعمها شيبة ، وأخاها الوليد بن عتبة ، وأبناء عمومتها : عبيدة والعاصى ابنى سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، وعقبة بن أبى معيط ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان بن حرب . . .

ولم يخفَ على هند ــ فى ذكائها اللماح ــ أن زينب إنما تتجهز لِتلحقَ بأبيها ، لكنها أرادت أن تستوثق من الأمر ، فدنت منها وقالت متلطفة : يا بنت محمد ، ألم يبلغنى أنك تريدين اللحوق بأبيك ؟..

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب ، وأضافت هند مجاملة :

ــ أى ابنة عمى ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك فإن عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال . . .

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، فهمت بأن تفضى إلى هند برحيلها القريب ، لولا أن شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها . . .

ومضت كلتاهما لشأنها . . .

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ، ولكنى خِفتُها فأنكرت أن أكون أريد اللحوق بيثرب »[1] . . .

وأما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والحمية . . .

* * *

وسرعان ما حل الموعد المضروب . . .

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٨ ، وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩٢ .

وودعت « زينب » أبا العاص وداع مُحِبَّةٍ غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع . . .

وحاول « أبو العاص » أن يتجلد فقال : مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت أيامنا وليالينا السعيدة . . .

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بزينب إلى حيث ينتظرها زيد وصاحبه . . .

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طُوى ، فكان أسبقهم إليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جُن حزنه على إخوةٍ له ثلاثة ، صرعوا جميعا يوم بدر بأيدى أصحاب محمد ﷺ[1] .

ونخس البعيرَ ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، وإذ ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

ــــ والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما . . .

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

ــــ كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك . . .

فكفَّ كنانة . . .

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

ــــ إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذُلٍّ أصابنا ، وأن ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن

(١) السيرة ٢ / ٢٦٦ ، الروض ٣ / ١٢٤ ، العيون : ١ / ٨٥ .

أبيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسُلَّها سرا فألحقها بأبيها[1] .

فكبر على « كنانة » أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع فى الناس أن قد ردتها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت إليها فراعه أن رآها تنزف دما ، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء . . .

وعاد بها إلى مكة ، حيث بقى « أبو العاص » إلى جانبها أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار ،فلما تمالكت بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها إلى « زيد بن حارثة » وما تزال تنزف دما . . .

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزى والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :

ـــ أمعركة مع أنثى عزلاء ؟ . . فهلا كانت هذه الشجاعة يومَ بدر ؟

أفى السلم أعيارٌ ، جفاءً وغلظةً   وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟

ورجع « كنانة » إلى أخيه بعد أن اطمأن عليها وهو يرفع صوته منشدًا :

عجبت لهبَّار وأوباش قومه   يريدون إخفارى ببنت محمد !

ولست أبالى ، ما حييتُ ، عديدهم   وما استجمعتْ قبضا يدى بالمهند![2]

* * *

استقبلت « يثرب » بنت النبى ﷺ باحتفال مهيب ، شابت فرحةَ اللقاء فيه ، سَوْرةُ الغضب لما أصاب العقيلة الكريمة أولَ خروجها من مكة ، وحملت الركبان إلى قريشٍ قولَ شاعر الأنصار منذراً متوعدا :

أتانى الذى لا يقدر النار قدره   لزينب فيهم من عقوق ومأثم

فأقسمت لا تنفك منا كتائب   سراة خميس فى لهام مسوَّم

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٩ ـــ وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٩٢ .

(٢) السيرة : ٣١٠/٢ ، وشرحها فى الروض الأنف ٦٨/٣ .

نزوع قريشَ الكفرِ حتى نعلّها بخاطمةٍ فوق الأنـوف بميسم
نـنـزلهم أكنـاف نجد ونخلـه وإن يُتهموا بالخيل والرجْل نُتهِم

. . . .

فأبلغْ أبا سفيـان إمّا لقيتَـه لئن أنت لم تخلص سجودا وتُسلم
فأبشر بخزيٍ فى الحياة معجل وسربال قارٍ خالدا فى جهنم ! . .[1]

كذلك تحدثت الركبان بغضب المصطفى ﷺ لابنته ، حتى لقد أمر أصحابه أن يحرقوا بالنار الرجلين الأثيمين ــ هبارا وزميله ــ إذا هم ظفروا بهما ، لكنه ﷺ لم يكد يخلو إلى نفسه ويتدبر ما كان من أمره بإحراق الرجلين ، حتى رأى أنه جاوز فيهما ما يحق لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث إلى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالإحراق عقوبة القتل . .

حدث أبو هريرة رضى الله عنه قال :

بعث رسول الله ﷺ سرية أنا فيها ، فقال لنا : « إن ظفرتم بهبار بن الأسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه إلى زينب ــ سماه ابن إسحاق فقال : هو نافع بن عبد قيس ــ فحرقوهما بالنار . » . .

« فلما كان الغد بعث إلينا فقال : إنى كنت أمرتكم بتحريق هذين الرجلين إن أخذتموهما ، ثم رأيت أنه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار إلا الله ، فإن ظفرتم بهما فاقتلوهما »[2] . . .

* * *

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الأحداث ، و « زينب » فى حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر « أبى العاص » للإسلام . . .

---

(١) السيرة : ٢/٣١٠ .
(٢) ابن إسحاق ، فى (السيرة ٢ / ٣١٢) بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وليس بمستغرب ألا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين ، وألا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء أبيها ﷺ من شواغل الغيرة والتنافس ، وألا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى المدينة والمشركين فى مكة . . .

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكرياتٍ ألمت بها فذادت النوم عن عينها . . . وطاب لها أن تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها إياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ، وقد دخل فى الإسلام ألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا أن النصر المبين آت دون ريب كما وعد الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟ . .

ودنا الفجر وما تزال فى يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح فى تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق والإجهاد .

وارتابت « زينب » فى يقظتها وظنت أن ما ترى ليس إلا طيف من تحب ، يسرى إليها فى هدأة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح . .

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألمّ بها ، وغمغمت فى شجوٍ ورقة :

ــ أبو العاص ! . .

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ــ أجل يا أعزّ من لى . . . أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى إليك والمطاردون فى أثره . . .

ولم تصدق « زينب » سمعها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهى ما تزال أشبه بمنومة ، واستمرأت أن تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ،

إلى أن لمحت نور الفجر يتسلل من كُوَّة فى الدار ، وسمعت بلال بن رباح يؤذن لصلاة الصبح بصوته الرخيم ، فتجيبه أصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا الأذان :

« الله أكبر » . . .

وميزت خطوات قريبة ساعية إلى المسجد فعرفت أنه أبوها ، ﷺ يخرج ليصلى بالناس . . .

وقالت كمن تحدث نفسها :

ــ رباه ، لكأنى فى يقظة ! وكأنى بك يا أبا علىٍّ إلى جانبى ! . .

فرد عليها صوتٌ من حسبته طيفا : أجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد أن أجهده السرى ، وأرهقته المطاردة ، وأضناه الفراق ! . .

فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت إليه تريد أن تحييه ، حتى إذا لم يبق بينها وبينه إلا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت إليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام . . . .

وهز ابن الربيع رأسه أسفا وهو يجيب عن سؤالها الصامت :

ــ كلا يا زينب ، لم آتِ يثرب مسلما ، وإنما خرجت تاجرا إلى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتى وأقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فأصابوا كل ما معى وأعجزتُهم هاربا ، حتى إذا جنَّ الظلام جئتك متخفيا مستجيرا . . .

فعادت إلى مكانها الأول ، وهى تقول بصوت حزين :

ــ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا أبا علىّ وأمامة . .

ولفهما صمت مشحون بالشجن ، وغرق الكون من حولهما فى سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت أنفاسها لحظة ، ثم تناهى إلى سمعها

صوت أبيها ﷺ يكبر فى المسجد ، ويكبر معه الناس ، فجمعت زينب نفسها وقامت إلى الباب ، ثم صاحت بأعلى صوتها :

« أيها الناس ، إنى أجرت أبا العاص بن الربيع »[1].

وحمل نسيم الفجر صوتها إلى من فى المسجد ، فلما سلم الرسول ﷺ أقبل على من معه فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ »

قالوا : « نعم يا رسول الله » . . .

قال : « أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم »

وأضاف بعد صمت قصير :

« إنه يُجِيرُ على المسلمين أدناهم ، وقد أَجَرْنا من أجارت »[2] . . .

* * *

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى قالت ضارعة :

« يا رسول الله ، إن أبا العاص إن قَرُبَ فابنُ عَمٍّ ، وان بَعُدَ فأبو ولدٍ ، وإنى قد أجرتُه . . . »

فرنا إليهما الأب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

« أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يَخلُصنَّ إليك ، فإنك لا تحلين له »[3].

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فأتبعاه بصريهما حتى إذا أبعد ، التفت كل منهما إلى صاحبه ، وقالت زينب عاتبة :

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٦٣/٢ ، والسيرة ٣١٢/٢ ، والاستيعاب ٧٠٢/٤ والاصابة : ١١٩/٧ ، ٩١/٨ .

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ — وطبقات ابن سعد : ٦٣/٢ . . تاريخ الطبرى : ٢٩٢/٢ .

(٣) السيرة : ٣١٣/٢ — وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ١٧٠٢/٤ وأخرجه ابن حجر فى ترجمة أبى العاص ، من طريق الحاكم أبى أحمد ، فى الكنى ، ومن طريق البيهقى (١١٩/٧) .

ـــ هان عليك فراقنا يا أبا العاص . . .

فأجابها وهو يمسك قلبه :

ـــ معاذ الحب يا زينب ، أما والله ما طاب لى من بعدك عيش . . .

فسألته : ففيم إذن هذا العذاب ؟ . . وحتام ؟ . .

أجاب : حتى يقضى الله فينا أمره . .

وأخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعة ترنحت فى مقلتيه . . .
همست فى ضعف : يرحمنا الله يا ابن الخالة . . .

فرفع وجهه إليها وقال متمهلا : لقد عرضوا علىّ بالأمس أن أسلم وآخذ ما معى من أموال فإنها أموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدأ به إسلامى ، أن أخون أمانتى[1] . . .

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ما وراء كلامه ، لكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفليه النائمين فى سلام . . .

وفى الصبح ، بعث النبى ﷺ من يصحب « أبا العاص » إلى المسجد ، حيث كان ﷺ يجلس فى جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصابوا مال أبى العاص . . .

وقال لهم النبى عليه الصلاة والسلام :

« إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نُحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به » . . .

أجابوا بصوت واحد : يا رسول الله ، بل نرده عليه . . .

وأسرعوا يفعلون ، حتى إن أحدهم ليأتى بالدلو ، وبالإناء الصغير ، وبالسقاء البالى . . إلى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا[2] . .

(١) السيرة : ٣١٤/٢ .

(٢) السيرة : ٣١٣/٢ ، وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/٢ ـــ والاستيعاب والاصابة ، فى : أبى العاص .

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ــ حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى لى . . .

والتفت « أبو العاص » إلى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا . . .

* * *

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش إذ رأته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الأعداء فى يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى إلى كل ذى مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يُسمَع وصاح بأعلى صوته :

ــ يا معشر قريش ، هل بقى لأحدٍ منكم عندى مال لم يأخذه ؟ . .

قالوا : « لا . . . فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما ! . . . »

فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :

ــ فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، والله ما منعنى من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها ، أسلمت(1) . . .

وخلَّف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ، وانطلق مستقبلا دار الهجرة .

* * *

استهلَّ المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول ﷺ وصحبه من الحديبية ــ على نحو مرحلة من مكة ــ بعد أن عقدوا الصلح التاريخى الذى بدا كأنه المحاولة الأخيرة لمشركى مكة ، قبل المعركة الفاصلة .

وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول ﷺ يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة معتمراً مسالما لا يريد قتالا :

---

(1) السيرة : ٣١٣/٢ ــ وتاريخ الطبرى : ٢٩٣/١ والاستيعاب : ، والإصابة (الكنى) .

« يا ويح قريش ! . . لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ . . فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! » .

وأشار إلى صفحة عنقه . . .

وصدق رسول الله : يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب وما يزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين أنها معركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون إلا أن يلقوا بفلذات أكبادهم وقودا لنار الحرب . . .

وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة للمسلمين المهاجرين وطن ورحم وقربى ، وإن دار الهجرة لتفتح قلبها قبل أبوابها لكل من يفد إليها من هؤلاء مسلما ، وتوطىء له فى رحابها منزلا وسكنا . . .

وها هى ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، إلى المسجد النبوى ، مارا فى طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى ﷺ ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه : أترى المصطفى يرد عليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، فجمع شجاعته وتقدم إلى المصطفى ﷺ ، بحاجته فى استرجاع زينب . . .

وأثنى ﷺ عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاة والسلام ، وسار إلى بيته ومعه ابن الربيع . . .

ودعا إليه ابنته ، فردها على أبى العاص : قيل ردها إليه على النكاح الأول ، وقيل ردها عليه بنكاح جديد[1] .

واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال .

* * *

ومضى عام واحد ، ثم كان الفراق الذى لا لقاء بعده فى هذه الدنيا .

توفيت « زينب » رضى الله عنها فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على أديم الصحراء وهى خارجة من مكة .

وريع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ أحد منهم على إبعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء أبوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

« اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا . . . »[2]

هنالك غادر « أبو العاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف بالباب محزونا شارد النظرات ، إلى أن جهزوها للرحلة التى لا يئوب منها مسافر . . .

وصلى عليها أبوها المصطفى عليه الصلاة والسلام فى مسجده ، ثم شيعها إلى مرقدها حيث أودعها ثرى طيبة . . .

ورجع « أبو العاص » إلى داره التى كانت بالأمس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والأشجان .

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد فى ولده « علىّ » بعض عزاء ، ثم ثكله ، وبقيت ابنته « أمامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب . . .

---

(١) على القول الأول اقتصر الطبرى « ٢٩٣/٢ » وابن حبيب فى (المحبر ٥٣) وأخرجه ابن عبد البر فى الاستيعاب ١٧٠٣/٤ من حديث ابن عباس ، ثم أتبعه بالقول الآخر وقال : رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وهو قول الشعبى وطائفة من أهل السير . وانظر طبقات ابن سعد ٣٣/١ ، والروض (٦٩/٣) .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ، ك الجنائز من حديث أم عطية الأنصارية رضى الله عنها من عدة طرق ، وعنه فى (الإصابة : ٩٢/٨) .

وكذلك وجد المصطفى ﷺ فى « أمامة » ما يخفف حزنه على « زينب » فكان يأنس بها ويهش لها ، وفى (الصحيحين) أنه كان يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فإذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها . . .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أن الرسول ﷺ أهديت إليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : « لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىَّ » فقالت النساء : ذهبت بها ابنة أبى قحافة ! . . . لكن رسول الله دعا « أمامة » بنت زينب : فأعلقها فى عنقها . . .(١)

وما كان أحبَّ اسمها إليه ! حدثت زينب بنت أبى سلمة ، ربيبته ﷺ قالت : « كان اسمى برة ، فسمانى رسول الله ﷺ زينب . ودخلتْ عليه زينب بنت جحش واسمها برة ، فسماها زينب »(٢) .

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها ، وتذكر أيامهما السعيدة فى مكة إذ البال خلىّ وشمل الأسرة ملتئم . ثم كان لها ـــ بعد سنين ـــ بعض عزاء فى تسمية وليدتها ـــ من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ـــ باسم « زينب » إحياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لا يمل . . .

ولحق « أبو العاص بن الربيع » بزينب ، أيام أبى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة(٣) . . .

وأوصى بابنته أمامة إلى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن أسد ، وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها الزهراء ، رضى الله عنها وعنهم ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهى تطيف به إذ هو مسجى على فراشه ، يمزق القلوب ويفتت الأكباد . . .

---

(١) أسنده ابن سعد فى الطبقات ، من رواية الليث بن سعد ، وعنه فى (الإصابة ١٤/٨) .
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه : ١٦٨٨/٣ ، ح (٢١٤٢) .
(٣) طبقات ابن سعد ، والاستيعاب والإصابة .

قالت « أم الهيثم النخعية »[٤] :

أشابَ ذؤابتي وأذلَّ ركني « أمامةُ » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتِها إليه فلما استيأستْ رفعتْ رهينا

وكان الإمام الشهيد كرم الله وجهه قد قال لأمامة حين حضره الموت : « إنى لا آمن أن يخطبك هذه الطاغية — يعنى معاوية — بعد موتى ، فإن كان لكِ فى الرجال حاجة فقد رضيتُ لك المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيراً » . . .

فلما انقضت عدتها ، كتب « معاوية » إلى مروان بن الحكم يأمره أن يخطبها عليه ، وبذل لها مائة ألف دينار ، فلما ذكرتْ ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

— أتتزوجين ابنَ آكلة الأكباد ؟ فلو جعلتِ أمرك إلىَّ ؟

أجابت وقد ذكرت وصيةَ زوجها الإمام الراحل : « نعم . . . »

فقال المغيرة : « قد تزوجتك . . . »

وأقامت معه حتى مات ، عن غير خلف وكذلك مات أخوها « على » قبلها مراهقا ، كما نص على ذلك المصعب الزبيرى ، وابن حزم[٢] .

وكل ما وصل إلينا من أخباره — فيما بين مولده وموته — خبر « زعموا فيه أن رسول الله ﷺ أردفه خلفه يوم فتح مكة » .

وبموتهما انقطع عقب « زينب الكبرى بنت النبى » صلى الله عليه وعلى آله وسلم

* * *

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ٢٢ مع جمهرة أنساب العرب ١٤ . والعيون ٢٨٩/٢ ومناقب أمامة رضى الله عنها ، فى (مجمع الزوائد ٢٥٤/٩) .

(٢) نسب قريش : ١٢ ، ٢٢ ، وجمهرة الأنساب ١٥ . مع طبقات ابن سعد : ٣١/١ ، ومناقب أمامة فى (مجمع الزوائد ٢٥٤/٩) .

(٢)

رُقَيّة ذات الهجرتين

عليها السـلام

ـ الخَاطِبَانِ

ـ ظلال عَلَى الأفق

ـ فى بَيتِ أبى لهب ،

مَع حَمّالة الحَطب

ـ النجاة

ـ مع عثمان ذى النورين

ـ وهجرة إلى الحبشة

وعودة إلى أم القرى

ـ الهجرة الثانيَة

ـ مأتم فى يَوم النصر

ـ الثرى الطّهور

الخـــاطبـــــانِ

بعد زواج « زينب » من أبى العاص بن الربيع بوقت قصير . استقبل البيت المحمدى وفدا من آل عبد المطلب ، جاءوا يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين ، وقد خافوا أن يسبقهم إليه كفء كريم من شباب قريش . . .

وكانت الشقيقتان رقية وأم كلثوم ، على مألوف عادتهما من الملازمة ، حين وفد القوم ، فقالت أم كلثوم وقد عرفت بفطنتها فيم جاءوا :

ــ ما أرى دورك إلا قد حان يا رقية . . .

وقبل أن تهم رقية بجواب ، أقبلت « فاطمة » تقول ردًّا على ما سمعت من كلام أختها أم كلثوم : بل جاء دوركما معا ! . . .

ذلك أنها كانت تنعم بملاعبة أبيها حين جاء الضيوف ، فلم تشأ أن تفارقه ، بل انتظرت وفى حسابها أنهم قد ينصرفون على عجل ، فتستأنف ما كانت تحظى به من صحبة أبيها . . .

وأتيح لها بذاك أن تسمع قول شيخهم أبى طالب :

ــ إنك يا ابن أخى قد زوجت زينبَ أبا العاص بن الربيع ، وإنه لنعم الصهر ، غير أن بنى عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أخت خديجة ، وليسوا دونه شرفا ونسبا . . .

أجاب محمد : « صدقت يا عم . . . » .

وقال الشيخ : وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم ، وما أراك تضن بهما على ابنى عمك . . .

معاذ القرابة والرحم ، ولكن هلا أمهله العم حتى يتحدث فى هذا إلى ابنتيه ؟

ولم تنتظر « فاطمة » لتسمع أكثر من هذا ، بل أسرعت تعدو نحو أختيها فى بهو الدار وأسرت اليهما بالنبأ الخطير . . .

ووجمت الأختان لما سمعتا ، فقد كان الأمر كله مفاجأة غير متوقعة ، ومن ثم استغرقهما جمود صامت ، وراحت كل منهما تنظر إلى الأخرى ، وكأنها تستنجد بها أو تحاول أن تستبين موقفها ، لكن بصريهما ارتدا إليهما بغير جواب . . .

هنالك التفتتا معا إلى « فاطمة » وقالتا :

ــ فهل عرفتِ لأى أبناء العم يسعى جدنا الشيخ ؟

أجابت الصغيرة : كلا ، فما أطقت صبرا بعد أن سمعت حديث الجد ، وعجِلتُ إليكما بالنبأ دون انتظارٍ لما بعده . . .

وأطرقت لحظة مفكرة ثم قالت بصوت خفيض ، وكأنها تحدث نفسها :

ــ وماذا يعنينى من اسم الخاطبين ؟ . . . ليكونا من يكونان ، فلن يتغير الموقف فى كثير أو قليل ، وعما قريب يتكرر المشهد القاسى ، وتُنتزع رقية وأم كلثوم من بيتنا كما انتزعت زينب من قبل ، وتنقلان إلى دار أخرى غير هذه الدار ، وأبقى هنا وحدى ، بغير أخت !

واغرورقت عيناها بالدموع ، حين أقبلت أمها تلتمس أختيها ، ولم يفت الأم فى اشتغالها بالأمر المهم ، أن صغيرتها فاطمة تبكى ، فانعطفت إليها تسألها فى حنان : ماذا يبكيك يا صغيرتى ؟ . .

أجابت وهى تتشبث بها معانقة :

ــ لا تدَعى أحدا ينتزعنى منك ومن أبى ، فلست أطيق فراقكما . . .

فتبسمت « خديجة » ضاحكة من قولها ، وأجابتها :

ـــ كلا ، لن تتركينا يا حلوة ، حتى تريدى أنت ! . . .

فصاحت « فاطمة » بملء سذاجتها : لكنى لن أريد ! . .

وعقبت الأم هامسة فى دعابة وشجو :

ـــ كذلك تقولين الآن يا صغيرتى ، وكذلك كنا نقول من قبل . . .

وأسبلت جفنيها حالمة ، وارتدت بها الذكرى إلى أربعة عشر عاماً مضت ، فرأت نفسها تعيش خلية البال قد نفضت يديها من الرجال وعقدت العزم على ألا تتزوج ، حتى لقيت محمدا فلم تنتظر حتى يتقدم إليها خاطبا ، بل كانت هى التى سعت إليه ، غير مكترثة بما قد يقول الناس ، ولا ملقية بالا إلى ما يحتمل أن يلقاها به المجتمع القرشى ، حين يبلغه نبأ سعيها للزواج من شاب فقير ، وهى التى ردَّت خاطبيها من سراة قريش وكبار رجالها . وهذه هى تقف بعد بضعة عشر عاما من زواجها بمحمد ، لتبارك اليوم السعيد الذى لقيته فيه ، وتستعيد ذكراه الحلوة ، فتشعر بدفء الحب يذود عنها برودة الشتاء وهى تدنو حثيثا من عامها الخامس والخمسين ! . . .

وآبت من حلمها الهنىء الذى ما تزال فى نشوة منه ، فإذا صغيرتها « فاطمة » تبادرها سائلة :

ـــ من يكون الخاطبان يا أم ؟ . .

أجابت فى إيجاز وهى ترنو إلى رقية وأم كلثوم ، وقد وقفتا غير بعيد تصغيان :

ـــ عتبة وعتيبة ، ابنا العم عبد العُزَّى[1] .

وأطالت النظر إلى ابنتيها لتلمح وقع الجواب عليهما ، لكنهما انسحبتا إلى مخدعهما فى سكون ، دون أن تنبسا ببنت شفة . . . وتبعتهما فاطمة . . .

---

(١) هذا هو اسمه ، وقد غلبت عليه كنيته « أبو لهب » بن عبد المطلب بن هاشم . وأمه لبنى بنت هاجر الخزاعية ، وجدته لامه : هند بنت عمرو بن كعب ، من تيم بن مرة ـــ راجع جمهرة انساب العرب : ١٨ ـــ ذخائر .

وبقيت الأم وحدها وقد شعرت بانقباض لا تدرى سببه ، فعلّلت ذلك بقرب فراقها لابنتيها . على أنها ما لبثت بعد فترة تأمل ، أن عرفت فيم انقباضها : لقد كانت لا تستريح إلى « أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس » زوجة عبد العزى وأم ولديه ، ففيها شيء من قسوة القلب وشراسة الطباع وحدة اللسان . . . وفيها كذلك صلف أحمق وطيش أهوج ينأيان بها عما يجب لمثلها من اتزان ووقار ، ويفقدانها ذلك السمت الجليل الذى يغلب على السيدات القرشيات ، وقد أشفقت « السيدة خديجة » على ابنتيها من معاشرة هذه المرأة ، فما هما بها قِبَل وما تزالان صغيرتين ، ولو أن الأمر بيديها لحالت دون إتمام هذا الزواج المقترح ، لكنها تخشى إن هى فعلت ، أن تثير غضب الهاشميين عليها ، وتتعرض لاتهامهم إياها بأنها تحاول أن تمزق ما بين محمد وآله من أواصر القربى . . .

والسيدة خديجة إلى جانب هذا ، تعرف لأم جميل انتماءها إلى بيت قرشى كبير ، ولن تسكت على مهانة الرفض بل ستسعى جهدها لتؤلب قومها على خديجة ، وإنها لقادرة على أن تفعل ، وحسبها أن تتناولها بلسانها السليط وتنطلق فى المجتمع القرشى متحدثة بما شاءت وشاء لها حقدها من مفتريات . . .

وكانت السيدة خديجة بحيث تفضى إلى زوجها بمخاوفها ، فما اعتادت قط أن تخفى عنه شيئا مما يهجس فى خاطرها لكنها كرهت أن تشغله بهذه الهواجس ، وهى تراه مشغول البال دائم التفكير منصرفا عن شواغل الدنيا ، وإنها لتدرك بفطنتها وقوة حبها لمحمد ، أن هناك أمرا خطيرا يشغله ، وان لم تدرِكْنَهَ هذا الأمر ، ولا هى بحيث تحمله على الإفضاء به إليها قبل أن يفعل ذلك من تلقاء نفسه . . وإنما حسبها أن توفر له ما يحتاج إليه من هدوء وسلام ، وأن تحوم حوله من غير أن تثقل عليه ، وترقبه فى خلوته بعين ساهرة ، دون أن تقتحم عليه خلوته . . .

وما كان لها وهى الحريصة على طمأنينته أن تعكر هدوءه بمخاوفها من أم

جميل بنت حرب ، أو تشغله بالصراع بين حرصه على راحة ابنتيه ، وبرِّه بقومه واحترامه لأعمامه واعتزازه بعشيرته الهاشمية ، أو تعرضه ـــ وهو فى حالته تلك ـــ لعداوة عمه عبد العزى وبغضاء امرأته .

وفى الغرفة القريبة ، كانت الفتاتان مطرقتين ساهمتين ، وأختهما الصغرى ترقبهما فى حيرة : إن الأمر اليوم ليختلف عما شاهدت من « زينب » فلقد كانت بادية البشر والإشراق تستعد للفرح فى غبطة وعلى استخياء ، وأما رقية وأم كلثوم فتبدوان أقرب إلى الاكتئاب والقلق . ولم تستطع طفولة فاطمة أن تميز بين زواج قام على المودة والتعاطف والألفة ، وآخر تعقده أواصر العشيرة وروابط الدم . . .

ولم تتبادل الأختان حديثا عن حياتهما المقبلة ، لكن أفكارهما كانت تدور بلا ريب فى مدار واحد : ما بال الأسرة تتعجل زواجهما ، هلا أتاحت لهما وقتا تألفان فيه فكرة الانتقال إلى دار أم جميل ؟ . . .

وفى الحق إنهما ما أنكرتا من أمر عتبة وعتيبة شيئا واضحا محددا ، فهما من فتية آل هاشم الأمجاد ، ولهما كذلك فى بنى عبد شمس عز الخؤولة وصراحة النسب القرشى الكريم ، وأما العم عبد العزى ، فله ـــ إلى جانب حسبه وثرائه ـــ مكرمة سابقة هيهات أن يجحدها آل محمد ، فإنه ما كاد يسمع بشرى مولد محمد ابن أخيه عبد الله ، حتى أعتق جاريته « ثويبة » التى حملت إليه البشرى السعيدة . . .

وما غاب شىء من هذا عن بال رقية وأم كلثوم ، لكنهما رغم ذلك تجفلان من فكرة الانتقال إلى بيت العم ، أيكون هذا لأنهما لم تألفا بعدُ الوضعَ الجديد ، ولم يتح لهما وقت لتأخذا نفسيهما بالرضى عنه ؟ أم لعلهما تكرهان أن تستبدلا بالعيش مع أمهما السيدة المهذبة اللطيفة الوقور ، عشرة « أم جميل بنت حرب » ـــ زوج العم عبد العزى ـــ ذات السمت السوقى والطبع الجامح الحاد ؟ . .

وقالت أم كلثوم لرقية :

ـ إنك لتعلمين أن أبانا لن يقضى هذا الأمر دوننا ، فماذا ترينك فاعلة ؟

فشحب وجه رقية وهى تجيب :

ـ لست بالتى تعق أباها ، فتعرضه للحرج أمام أهله وعشيرته الأدنين . . .

ثم رنت إلى أختها وقالت تشجعها فى رقة وعطف :

ـ لا عليك يا أختاه ، فسنكون معا . . .

* * *

فى بيت أبى لهب
مع حمـــالة الحطب

وكذلك تم الأمر فى هدوء مشوب بالقلق : تزوجت رقية عتبة بن عبد العزى بن عبد المطلب الهاشمى ، وتزوجت أختها أم كلثوم أخاه عتيبة[1] . وبارك محمد ابنتيه ثم تركهما فى حراسة الله ورعايته ، وانصرف إلى ما كان يشغله من تعبد وتأمل . . .

وكذلك شغلت السيدة خديجة عن ابنتيها بالتفكير فى زوجها الحبيب ، وقد ازداد ميلا إلى الخلوة ونزوعا إلى الصمت والتأمل . وبدا كأنه نفض يديه من شواغل الدنيا وانطوى على نفسه يعالج وحده ذلك الهم الجليل الذى يكتمه حتى عن « خديجة » موضع حبه وثقته وسكنه . . .

ليته يدعها تشاركه الهمَّ وتحمل معه العبء الذى يحسه ثقيلا باهظا ! ليته يخفف عنها ما تعانيه من قلق ووحشة ، فيفضى إليها بالذى شغل باله !

---

(١) فى طبعة نهضة مصر من الاستيعاب ما نصه : « كانت رقية تحت عتبة بن أبى لهب ، وكانت أختها أم كلثوم تحت عتبة بن أبى لهب » وكتب المحقق على هامشه : فى نسخة (أ) : عتيبة (٤ / ١٨٢٩) وهذا من عجيب الوهم !

وفجأة ، لاح لها فى هدأة الليل شعاع من نور أضاء الظلمة التى أغرقت الكون من حولها ، وتناهى إلى مسمعها فى ذلك الصمت العميق ، صدى من قول ابن عمها « ورقة بن نوفل » لها . وقد استبطأ أمرا توقعه ، بعد أن سمع حديث ميسرة عن محمد فى رحلتهما إلى الشام :

لجحت وكنتُ فى الذكرى لجوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتين على رجائى ... حديثك أن أرى منه خروجا !
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تموجا
فيا ليتنى إذا ما كان ذاكم ... شهدتُ فكنت أوَّلهم ولوجا[1]

ثم صمت الصدى ، وعاد السكون يلف الكون الهاجع . فأغمضت خديجة عينيها ، واستسلمت للرقاد بعد أن ألح عليه السهاد . . .

ومضت أيام وليال ، كثر فيها خروج محمد إلى غار حراء وقلب خديجة يصحبه مطيفا به محوما عليه ، وإن بقيت بجسمها فى البيت ، تعد له زاده ، وتبعث وراءه من يحرسه ويأتيها بأنبائه ، وترصد مطلع النور المرتقب . . .

وقد تذكر ابنتيها رقية وأم كلثوم ، فيرق قلبها رحمة لهما وإشفاقا عليهما مما قد يثقل عليهما من عشرة « أم جميل » لكنها لا تلبث أن تنسى همها ذاك فيما يملأ دنياها من طلائع الأمر الجليل المرتقب . . .

* * *

ولم يكذب السيدة خديجة ظنُّها . . .

فما كاد محمد ﷺ يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الحق ، حتى أُخرِجت « رقية وأم كلثوم » من بيت أبى لهب ، ورُدتا إلى بيت أبيهما ! . .

وكانت قريش قد ائتمرت بسيدنا محمد ﷺ فى بناته قائلة :

---

(١) السيرة : ٢ / ٢٠٣ .

ــ إنكم قد فرَّغتم محمدا من همِّه ، فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن . . .

ومشوا إلى أصهار الرسول الثلاثة ، فقالوا لهم واحدا بعد الآخر :

ــ فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت . . .

فأما « أبو العاص » فأبى مؤثرا صاحبته على نساء قريش جميعا . وأما ابنا أبى لهب فاستجابا على الفور ، واختار عتبة زوجةً من آل سعيد بن العاص ، بدلا من « رقية بنت محمد »[1]

وفى الحق ، ان ابنى أبى لهب لم يكونا فى حاجة إلى سعى من قريش فى طلاق العروسين ، فلقد تكفلت به « أم جميل بنت حرب » من قبل ، حين أقسمت ألا يظلها وبنتى محمد سقف ، ثم مازالت بزوجها « أبى لهب » حتى أثارت حفيظته على العروسين الهاشميتين ، فقال لولديه :

ــ رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد . . .[2]

وكان الظن بابنى العم ألا يفعلا . . .

بل كان الظن بالعم ألا يقف هذا الموقف من حفيدتى أخيه عبد الله ، وابنتى محمد الذى ابتهج بمولده وأعتق جاريته حين بشرته به . . .

لكن « أم جميل » كانت وراءه ، تسوقه أمامها مسلوب النخوة مضيع المروءة فاقد الإرادة ، وتسمم الدم الهاشمى الذى يجرى فى عروقه ، وتنسيه ما توجبه عليه عمومته لمحمد من نجدة وحفاظ . . .

لكأنما أرادت هذه العبشمية أن تكيد لبنى هاشم ، الذين استأثروا بأكثر المجد والشرف دون قومها بنى عبد شمس ، فراحت تفرق شمل الهاشميين وتمزق أواصرهم وتضرب بعضهم ببعض . . .

---

(١) السيرة : ٢ / ٣٠٧ ــ وانظر معها الاصابة : ج ٨ / ٣٨ ــ و (مسند أحمد) ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ .

(٢) فى الروض الأنف ٣ / ٦٨ ، أن عتبة وعتيبة طلقاهما بعزم أبيهما عليهما وأمهما حين نزلت ﴿ تبّت يدا أبى لهب وتب ﴾ فأما عتيبة فدعا عليه النبى ﷺ أن يسلط عليه كلبا من كلابه ، فافترسه الأسد من بين أصحابه . وأما عتبة فمن مسلمة الفتح . انظر ترجمته فى (الإصابة ، القسم الأول من حرف العين : ٥٤٠٥) .

أو كأنما أرادت هذه المرأة الحقود ، أن تشفى غليلها من « خديجة بنت خويلد » التى كانت ملء العيون مهابة وجلالا ، ملء الأسماع عزة ونُبْلا ، فراحت تؤجج غضب القوم على محمد ﷺ لتغيظ غريمتها خديجة وتعكر عليها صفو سعادتها التى كانت مضرب الأمثال . . .

ولم يكفها أن ردت إليها ابنتيها طالقتين ، بل خرجت ومعها زوجها أبو لهب إلى صميم المعركة بين محمد وقريش ، فما كان أحد أشد عداوة منهما للنبى ﷺ ، ولا بلغ أحد من أذاه قدر ما بلغا ، ولا سُمع أن أحدا من بنى هاشم ظاهر قريشا على حفيد هاشم ، كما فعل أبو لهب ! . .

وإنه لموقف يدعو حقا إلى الدهشة والعجب . . .

وليس مثار الدهشة أن أبا لهب لم يسلم ، فكذلك بقى أكثر الهاشميين على دين آبائهم زمنا طال أو قصر ، لكنهم مع ذلك أبوا أن يخذلوا ابن عبد الله أو يسلموه . . .

٨

أقبل حمزة بن عبد المطلب ، أخو أبى لهب ، ذات يوم متوشحًا قوسه عائدا من رحلة صيد ، فلقيته امرأة تقول :

« يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام ؟ وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره » . . .

فاحتمل حمزةَ الغضب ــ ولم يكن قد أسلم بعد ــ واندفع غير ملق بالا إلى أحد فى الطريق ، حتى عثر بأبى الحكم جالسا فى القوم بالبيت العتيق ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فشجه به شجة منكرة ثم قال :

« أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ . . فرُدَّ ذلك علىَّ إن استطعت ! »[1] ومضى إلى المصطفى ابن أخيه ، فبايعه . . .

---

(١) السيرة : ١ / ٣١٢ ، ومعها الطبقات والاستيعاب والاصابة ، ترجمة حمزة « رضى الله عنه » وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٢٤ والروض الأنف ٢ / ٤٩ وفيه شعر لحمزة رضى الله عنه ، حين أسلم . وعيون الأثر ١ / ١٠٤ .

وهكذا أسلم حمزة ، رضى الله عنه ، لأنه لم يطق أن يؤذَى ابنُ أخيه بمرأى منه أو مسمع !

وكذلك لم يطق أحد من بنى هاشم وبنى عبد المطلب أن يخذل محمدا ، سواء فى ذلك الذين أسلموا منهم والذين لم يسلموا ، غير أبى لهب !

فى الصحيحين[1] عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال :

لما أنزل الله تعالى : ﴿ **وأَنْذِرْ عشِيرتَكَ الأقربِينَ** ﴾ خرج رسول الله ﷺ حتى أتى الصفا فصعد عليه فهتف : « يا صباحاه ! » فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه فقال : « أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقىَّ ؟ » قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » قال أبو لهب : تبًّا لك ! ما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت : ﴿ **تبَّتْ يَدَا أبى لَهبٍ وتَبَّ** ﴾ .

تمام السورة : ﴿ **ما أغنَى عنهُ مالُه وما كَسبَ * سَيَصْلَى نارًا ذاتَ لَهبٍ * وامرأتُهُ حَمَّالةَ الحطبِ * فى جِيدِها حبلٌ مِن مَّسَد** ﴾ . .

ذلك لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر . . .

قال ابن إسحاق :

فذُكِر لى أن أم جميل حمَّالة الحطب ، حين سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن ، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفى يدها فهر من حجارة ــ قطعة تملأ الكف ــ فلما وقفتْ عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر ،

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، ومسلم فى كتاب الإيمان . والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ١ / ٥٧ ، ح ١٢٤) . ورواه ابن سعد فى (الطبقات ١ / ١٩٩) من طريق الواقدى ، بسنده عن ابن عباس ، رضى الله عنهما .

فقالت : يا أبا بكر ، أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله إنى لشاعرة . ثم قالت :

مُذَمَّما عصينا

وأمـرَه أبينـا

ودينَـه قلينـا

وانصرفت ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال : « ما رأتنى ، لقد أخذ الله ببصرها عنى »[1] .

وفى حمالة الحطب ، يقول « الأحوص عبد الله بن محمد بن عبد الله الدوسى ،الشاعر الأنصارى » رضى الله عنه :

ما ذاتُ حَبْلٍ يراه الناسُ كلهمُ وسْط الجحيم ولا يخفَى على أحدِ
كلُّ الحبال ، حبال الناس، من شعَر وحبلُها وسْط أهل النار من مَسَدِ[2] .

وربما استيقظ ضمير أبى لهب مرة ، وحَمِىَ فى عروقه الدم الذى يحن إلى ابن الأخ ، فثار مغضبا لما يرى من جور قريش على بنى هاشم . حدثوا أن أبا سلمة المخزومى بن برة بنت عبد المطلب ، استجار بخاله أبى طالب ، حين أرادت قريش أن تفتنه عن إسلامه ، فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له :

ــ لقد منعتَ منا ابنَ أخيك محمدا ، فمالك ولصاحبنا تمنعه منا ؟

قال : إنه استجار بى وهو ابن أختى ، فإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى . . .

وكان أبو لهب حاضراً ، فقال مغضبا : يا معشر قريش . والله لقد أكثرتم

---

(١) السيرة : ١ / ٣٨٢ .

(٢) نسب قريش : وجمهرة الأنساب ٣١٣ .

على هذا الشيخ ؟ . . ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من بين قومه ، والله لتنتهُنَّ عنه أو لنَقومَنَّ معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد . . .

فآثروا أن يبقوا عليه فى حزبهم وقالوا :

« بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة »[1] .

لكنها مرة واحدة يتيمة ، لم يذكر الرواة فيما أعلم ، أن « أبا لهب » وقف مثلها مرة أخرى ، بل ظل على مظاهرته أعداء قومه حتى مات ، . .

وأعشى سحرُ « أم جميل » عينيه فلم يعد يبصر ، وقذف به وراء هاشميته وإنسانيته .

فى السيرة النبوية أن بنى هاشم والمؤمنين حين جهدوا من ضيق الحصار فى شعب أبى طالب ، كانوا إذا قدمت العير مكةَ وأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام لعياله ، يقوم أبو لهب عدو الله فيقول : يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن ألا خسار عليكم . . .

فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا ، حتى يرجع المسلم أو الهاشمى إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس فى يديه شىء يطعمهم به . ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المسلمون ومن معهم من بنى هاشم جوعا وعرياً[2] .

وأدع الخبر بغير تعليق ، وأدع معه ذلك الاستطراد الطويل الذى مضيت فيه بالرغم منى ، متأثرة بما قرأت عن أبى لهب وأنا ألتمس أخبار ابنتى محمد ، ﷺ ، فى زواجهما الخائب بابنى ذلك العم الجاحد العاق ، وعودتهما إلى أبويهما ، شفاء لحقد حماتهما أم جميل بنت حرب ، حمالة الحطب . . .

وبين هاتيك السطور التى نقلتها ، أقرأ ما لم يُكتب عن معاملة هذه العبشمية

---

(١) السيرة : ٢ / ١٠ .

(٢) وانظر كذلك مسند أحمد ٣ / ٤٩٢ ، ٤ / ٣٤١ . وتاريخ الطبرى : ٢ / ٢٢٥ .

لابنتى محمد ، إذا صحت الرواية القائلة بأن الطلاق تم بعد انتقالهما إلى بيت أبى لهب ، وليس قبل الدخول بهما كما تقول رواية أخرى[1] . . .

وأكاد ألمحهما وراء هذا كله ، فى تجربتهما القاسية المرة ، حين غادرتا بيتهما الأول الذى تظله أجنحة الحب والمودة — أو كانتا بسبيل أن تغادراه — إلى بيت تتلقاهما فيه ، وهما فى جلوة العرس ، امرأة سليطة ركبها الشيطان ، فتلقى عليهما ظلها الثقيل صباح مساء ، وترصد حركاتهما وسكناتهما ، وتحاسبهما على النظرة والهمسة واللفتة ، وتنقم عليهما ما ترى فى سمتهما النبيل وملامحهما اللطيفة ، من مخايل السيدة « خديجة بنت خويلد » موضع غيرتها وحسدها . . .

فإذا قابلت العروسان صنيع حماتهما بالتجمل والصبر ، أساءت الظن بوادعتهما فحملتها محمل الازدراء والترفع ، وازدادت لذلك شراسة وغلظة وجفاء . . .

* * *

النجـــاة

احتملتا همومهما فى صمت وصبر ، حتى أراحهما الله من ذاك الكرب ، ونجاهما من كيد حمالة الحطب وعيشتها النكدة ! . .

على أن الحياة فى بيت أبيهما — ﷺ — كانت قد تغيرت عما ألفتا فى أمسهما الخَلِىِّ السعيد ، فولى عنها ما كانت تنعم به من راحة وهدوء . . .

أو لم يقل المصطفى ﷺ لزوجه : « مضى عهد النوم يا خديجة » ؟ . . بلى ، وجاء عهد السهد والاضطهاد والامتحان والعذاب فى سبيل الله ، وإن المصطفى ليعود إلى بيته كلما خرج ، محزونا لما يجد من عنت قومه وصدهم عن سبيل الله ، فما تزال السيدة خديجة تثبته وتهون عليه ما يلقى ، حتى يزول ما به من حزن . . .[2]

---

(١) ابن حجر : الاصابة ٨ / ٨٣ ، ٨ / ٢٧٢ .

(٢) السيرة النبوية : ١ / ٢٥٧ .

ومع كل ذلك البلاء ، طاب لرقية وأم كلثوم أن تشاطرا أبويهما ما يلقيان فى سبيل الله ، وارتاحت نفساهما لاحتمال كل صنوف الأذى .

* * *

وخاب ظن حمالة الحطب وظنُّ المشركين من قريش ، فلم يُشغل « محمد » ــ ﷺ ــ بابنتيه عن دعوته ، ولم يشق عليه طلاقُهما ، فقد نجاهما الله من محنة العيش مع ابنى حمالة الحطب وأبى لهب ، ثم ما لبث أن أبدلهما خيرا منهما : زوجا صالحا كريما ، من النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضى الله عنهم ، ذلك هو « عثمان بن عفان ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس »[1] أعزه الله فى الجاهلية فكان من أعرق فتيان قريش نسبا . يلتقى مع الرسول الكريم من جهة الأب عند عبد مناف بن قصى ، ومن ناحية الأم عند عبد المطلب بن هاشم ، فجدة عثمان لأمه ، هى البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب جد النبى[2] ﷺ . . .

وكان « عثمان » إلى هذا النسب العريق ، بهى الطلعة ، فخم السمت موفور المال ، رضى الخلق . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « كان عثمان أوصلَنا للرحم ، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين[3] » .

أعزه الله فى الإسلام فكان من السابقين الأولين ومن العشرة المبشرين بالجنة ، رضى الله عنهم .

* * *

---

(١) نسب قريش : ١٠ وصحيح مسلم : ٤ / ١٨٦٦ وصحيح البخارى : ٦٢ باب ٥ ، ٧ ، ٨ / ١ باب ١١٩ .

(٢) الاستيعاب : ٤ / ١٠٣٨ ، ونسب قريش ١٨ .

(٣) الاستيعاب ٤ / ١٠٣٩ وانظر باب فضائله فى كتاب فضائل الصحابة ، من صحيح مسلم .

تقدم « عثمان » الى رسول الله ﷺ يسأله شرف المصاهرة ، فزوجه ﷺ ابنته « رُقية » ولم يُر زوجان قط أجمل منهما ولا أبهى فيروى أن النساء غنَّين فى عرسهما :

أحسن شخصين رأى إنسان رقية وبعلها عثمان[1]

ولم تشارك « مكة » هذه المرة فى الاحتفال بالعرس الكريم ، بل باتت قريش بغيظها مسهدة تفكر فى هذا الخصم العنيد الذى يزداد على الاضطهاد قوة وثباتا . ويتحدى فى قلة عزلاء من صحابته ، قبائل قريش مجتمعة ، وفيها الجاه والكثرة والبأس !

وعجبت لهؤلاء النفر الذين اتبعوه ، يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولا يترددون فى افتدائه بالمهج والأرواح ، بل يرون الاستشهاد فى سبيل دينه مجدا وانتصارا . . .

من هؤلاء ، من كان بالأمس له عدوا ، ومنهم من تردد أمدا قبل أن يؤمن برسالته ، ولكنهم جميعا ما كادوا يسلمون حتى التفوا حوله يبذلون له الحب محضا خالصا على نحو لا تعرف الدنيا له مثيلا . . .

وتذاكرت قريش ليلتئذ صبر المسلمين على محنة التعذيب فى مستهل المبعث . فقد « وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش . وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر » حتى يفتنوهم عن دينهم ، فيؤثر أحدهم أن يموت على أن يرتد إلى دين الكثرة الغالبة ![2]

وطال ليل قريش وهى تذكر « عثمان بن عفان » الذى رضى أن يبيع أهله وعشيرته ودنياه فى سبيل رضى محمد وربه ، وإنه ليعلم ما يلقى أصحاب

---

(١) الروض الأنف ٢ / ٧٩ ، والاصابة ، فى ترجمة « سعدى بنت كريز بن ربيعة » خالة عثمان ، رضى الله عنهما .

(٢) تاريخ الطبرى : ٢ / ٢٣٠ — والسيرة : ١ / ٢٣٩ .

« محمد » من أذى ، ويقدر أنه باتباعه الدين الجديد ، قد حكم على نفسه بخصومة المجتمع القرشى الذى أحله مكانا مرموقا . . .

* * *

ولو نظرت قريش ليلتئذ بظهر الغيب ، لرأت فتى أمية « عثمان بن عفان » يهاجر من مكة ، بموطن آبائه ومهد طفولته ومناط عزته ، إلى بلد ناء وقوم غرباء . . .

« ذلك أن محمدا ـــ ﷺ ـــ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم الى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

فكان « عثمان بن عفان » أول من هاجر إلى الحبشة ، وهاجرت معه زوجته السيدة « رقية » على قرب عهدهما بالزواج[1] . . .

وتجلد المهاجر وهو يلقى نظرة وداع على البلد الحبيب . . .

وأما « رقية » فلم تملك دمعها ، وهى تطوف بمغانى صباها مودعة ، وتعانق أباها وأمها وأخواتها الثلاث ، قبل أن تتبع زوجها إلى مهاجرِه .

وتمهلت فى مسيرها إلى حيث كانت راحلتها تنتظر ، فلما آن أوان الرحيل تلفتت وراءها لتملأ عينيها من الوطن فحال الدمع دون ما تبغى .

وكذلك سارت الجمال وئيدا تريد أن تتزود من عبير أم القرى ، فلما خرجت إلى الصحراء العارية الجرداء ، انطلقت خفافا ، تتسمع غناء الحادى :[2]

---

(١) السيرة : ١ / ٣٤٤ والطبرى : ٢ / ٢٣١ .

(٢) ليس هذا الحداء مما نقلت ، بل رجَّعتُ فيه صدى وجدانى وأنا أتمثل رحلة المهاجرين . فمن العجيب أن إذاعات عربية اشترت من بعضهم حلقات فى نساء مسلمات ، منقولة نصا من كتبى فى سيدات بيت النبوة ، وفى حلقة السيدة رقية ، هذا الحداء ! !

الأهـل والأوطـانْ فراقهـم صعبُ
لكنـه الايمانْ فـداؤه القـلب
والـروحُ والأبـدانْ فليقبـل الـربُّ
فليقبل الـربُّ

وهز الصوت الشجى قلب « رقية » فأصغت إليه وهى ترتجف انفعالا وتأثرا ، ثم أطلت من هودجها لعل أثرا من مكة ما يزال يلوح من بعيد . فإذا زوجها « عثمان » على قيد خطوة منها ، يرنو إليها فى عطف مشوب بالعتاب !

وفهمت « رقية » ما يهجس فى خاطره ، فأشرق وجهها بابتسامة راضية وقالت : الله معنا ، ومع الذين تركناهم برغمنا فى جوار البيت العتيق . . .

ثم استدبرت أحبَّ أرض ، وقد هون عليها محنة الفراق أن « عثمان » إلى جانبها ، وأكرِمْ به صاحبا وعشيرا . . .

* * *

فى أول مرحلة من الطريق ، أناخت الإبل ريثما تجمع المهاجرون الأولون فى سبيل الله ، فبلغت عدتهم بضعة عشر رجلا[1] ، فيهم من بنى عبد شمس ، آل عثمان : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، أخو هند ، وصهر أبى سفيان ، تصحبه زوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو العامرية . . .

ومن بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ، أخوال رقية : الزبير بن العوام ابن خويلد . . .

ومن بنى عبد الدار بن قصى ، أبناء عم عثمان ورقية : مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار . . .

---

(١) عدَّ ابن إسحاق هذا الفوج الأول عشرة : السيرة ١ / ٣٤٥ . وفى رواية أنهم كانوا أحد عشر رجلا وأربع نسوة « الطبرى : ٣ / ٢٣١ وعند الواقدى أنهم كانوا اثنى عشر رجلا وأربع نسوة : طبقات ابن سعد ١ / ٢٠٤ .

ومن بنى زهرة ، أخوال المصطفى ﷺ : عبد الرحمن بن عوف الزهرى . . .

ومن بنى مخزوم : عبد الله بن عبد الأسد ، ابن عمة المصطفى ، برة بنت عبد المطلب ، تصحبه زوجُه « هند بنت زاد الركب ، أبى أمية بن المغيرة المخزومى » ـــ خلفه عليها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد « أحد » ـــ

وتبادل المهاجرون الأولون تحية الإسلام ، ثم قاموا جميعا للصلاة ، يؤمهم عثمان بن مظعون الجمحى ، فلما قضوا الصلاة رفعوا وجوههم الى السماء يدعون الله أن ينصر دينه ، ويحمى رسوله من كيد المشركين . . .

واستقبلوا الجنوب راحلين ، وقد استمرأوا ما يملأ قلوبهم من شجن ، وطاب لهم أن يكتووا بنار الغربة فى سبيل دينهم الحق ، والتمسوا العوَض عمن فارقوا من الأهل والأحباب ، فى هؤلاء الصحب الكرام ، رفاق السفر والإخوان فى الدين والهجرة . رضى الله عنهم جميعا . .

* * *

رحَّبت الحبشة بالمهاجرين الأولين ، وأوسعت لهم فى أرضها مكانا سهلا ، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جديدة من إخوانهم المسلمين ، حتى بلغت عدتهم ثلاثة وثمانين غير أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا ، أو وُلدوا فى مهاجَرهم . . .

وسرَّ « رقية » أن كان فيهم من بنى هاشم : ابنُ عم أبيها « جعفر بن أبى طالب » ، ومعه امرأته « أسماء بنت عميس » . . .

ومن بنى أمية ، آلِ زوجها عثمان : عمرو بن سعيد بن العَاص بن أمية ، وأخوه خالد ، ومعهما زوجتاهما . . .

ومن بنى أسد : عبد الله بن جحش ـــ ابن أميمة بنت عبد المطلب عمة المصطفى ـــ وأخوه عبيد الله ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، التى تزوجها المصطفى عليه الصلاة والسلام بعد سنين . . .

ومن أخوالها بنى زهرة : عامر بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة . . .

ومن بنى عامر : ثمانية نفر ، منهم السكران بن عمرو ، ومعه امرأته « سودة بنت زمعة بن قيس » التى خلف عليها المصطفى ، بعد عام الحزن . . .

* * *

وأحاط المهاجرون الأولون بالوافدين يسألونهم كيف تركوا النبى عليه الصلاة والسلام ؟ وكيف حال الأهل والصحابة بمكة ؟ !

قالوا : على العهد بهم ، لم ينسوا من هاجروا فى سبيل الله .

وحدثوا أن « النبى » عليه الصلاة والسلام افتقد أنباء ابنته ، حتى أتت امرأة أخبرته ﷺ أنها رأت رقية وزوجها . فقال :

« منحهما الله ، إن عثمان أول من هاجر بأهله »(1) .

* * *

لم تضق الحبشة بالوافدين الثمانين ، كما لم تضق بمن سبقوهم ، بل أمَّنهم « النجاشى » وأحسن جوارهم ، وتركهم أحرارا يعبدون الله لا يخافون على ذلك أحدا . . .

هنالك رفع « عبد الله بن الحارث بن قيس السهمى » صوته منشدا وهو يرجو رضى الله عنه أن يُسمِع من بمكة :(2)

يا راكبا بلغنْ عنى مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كلَّ امرىءٍ من عباد الله مضطهدٍ ... ببطن مكة مقهورٍ ومفتون

---

(1) الاصابة : ٨ / ٨٣ .

(٢) السيرة : ١ / ٣٥٤ ، وانظر معه فى الاصابة ترجمة عبد الله بن الحارث .

أنَّا وجدنا بلاد الله واسـعـة ... تُنْجِى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... يٍ فى الممات وعيب غير مأمون

ثم انثنى إلى قلبه المثقل بأشجان الغربة ، فهاجت مواجعه لما ذكر من بغى قريش ، وقال :[1]

أبت كبدى ، لا أكذبَنْكَ ، قتالهم ... علىّ ، وتأباه علىَّ أنـاملى
وكيف قتالى معشرا أدبـوكم ... على الحق أن لا تأشبوه بباطل

وقال المهاجر « عثمان بن مظعون الجمحى » يعاتب ابن عمه وكان شريفا فى قومه :[2]

أأخرجتنى من بطن مكة آمنا ... وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع
تريش نبالا لايواتيك ريشهـا ... وتبرى نبالاً ريشُها لك أجمعُ
وحاربت أقواما كراما أعـزة ... وأهلكتَ أقواما بهم كنت تفزع
ستعلم ان نابتْك يوما مُلِمَّـة ... وأسلمك الأوباشُ ، ما كنت تصنعُ

وبلغت هذه الأصوات ومثلها مكة ، فأفزعت قريشا فوق ما بها من فزع . . .

وأطار النوم من عيونها ، أن أصحاب محمد قد أمنوا بأرض الحبشة وأصابوا بها دارا وقرارا ، فائتمر المشركون فيما بينهم على أن يبعثوا منهم رجلين من دهاتهم ، لكى يفسدوا ما بين النجاشى وبين المهاجرين المغتربين . . .

ووقع اختيارهم على « عبد الله بن أبى ربيعة » ـــ والد الشاعر عمر ـــ و « عمرو بن العاص بن وائل »[1] وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ، فانطلقا بها على مرأى ومسمع من محمد ﷺ ، ومن بقى إلى جانبه من أصحابه وآله . . .

---

(١) السيرة : ١ / ٣٥٥ ، وشرحها فى الروض الأنف ٢ / ٨١ .

(٢) هذه رواية ابن إسحاق فى اسم مبعوثى قريش إلى النجاشى (السيرة ١ / ٣٥٦) قابلها على : الروض الأنف (٢ / ٩١) وعيون الأثر (١ /١١٩) .

وأشفق « أبو طالب » على من بأرض الحبشة ــ وفيهم ولده جعفر ، وولدا ابنتيه أميمة وبرة ، ورقية حفيدة أخيه عبد الله ــ من مكيدة عمرو وصاحبه ، فأنشد شعرا يستثير فيه كرم « النجاشى » ويحضه على أن يحمى جواره :

ألا ليت شعرى كيف فى النأى جعفرُ　　وعمرو، وأعداء العدو الأقاربُ ؟
وهل نالت آفعالُ النجاشى جعفرا　　وأصحابَه ، أو عاق ذلك شاغبُ ؟
تعلمْ ، أبيتَ اللعن ، أنك ماجدُ　　كريم ، فلا يشقى لديك المُجانبُ
وأنك فيض ذو سجال غزيـرة　　ينال الأعادى نفعَها والأقـارب(٢)

فهزت قريش رأسها لمَّا سمعت نداءه ، وقال قائلها مستهزئا : مايبلغ صوت الشيخ من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وماذا تجدى الكلمات مع الهدايا التى حملها مبعوثا مكة إلى النجاشى وبطارقته ؟

* * *

وكان المهاجرون فى منزلهم النائى ، يرهفون أسماعهم إلى ما تناثر من شائعات شتى مبهمة عن ائتمار قريش بالمسلمين المغتربين فلا يكادون يلقون إليها بالا ، حتى رابهم ذات يوم وصول « عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة » إلى هناك والتماسهما لقاء البطارقة واحدا بعد الآخر ...

ثم ما لبث المهاجرون أن تلقوا دعوة النجاشى ليتحدث إليهم فى أمر ذى بال ، فذهبوا وهم يتساءلون :

ــ ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟

وكان الجواب الذى أجمعوا عليه :

ــ نقول والله ما علمنا ، وما أمرنا به نبينا ...

وسعت المهاجرات إلى منزل رقية رضى الله عنها وعنهن ، وقد خامرهن

شيء من القلق ، فإذا لديها « أم سلمة ، هند بنت زاد الركب »[1] تحدث عما علمت من مكيدة الرجلين ...

قالت :

ــ هو ما سمعتن من ائتمار قريش بنا لما بلغها أنا جاورنا بالحبشة خير جار : أمِنا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذَى ولا نسمع شيئا نكرهه ، فبعثوا هذين الرجلين معهما هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وقالوا لهما أن يدفعا إلى كل بطريق هديته ، قبل أن يكلما النجاشي فينا ، ثم يقدما إلى النجاشي هديته ، ويسألاه أن يسلمنا اليهما قبل أن يكلمنا ...

« فخرجا حتى قدما الحبشة ، ففعلا ... وقالا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى إلى بلد الملك غلمان منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فان قومهم أعلى بهم عينا ــ أبصر بهم ــ وأعلم بما عابوا عليهم ...

فوعدهما البطارقة خيرا ، ثم إنهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه بمثل ما كلما به البطارقة ، فقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، قومُهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسْلِمْهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم ..

« فغضب النجاشي وقال : لا ها الله ! .. إذن لا أسلمهم إليهما ولا يُكاد قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على سواى ، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان فى أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى

---

(١) تزوجها الرسول عليه الصلاة والسلام بعد وفاة زوجها أبى سلمة المخزومى من جرح أصابه يوم أُحُد .

قومهم ، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى ... »[1]

وهذا هو قد أرسل إلى رجالنا يدعوهم ، فلننتظر ما الله يرضى لنا ...

* * *

وطال انتظارهن قبل أن يعود الرجال من قصر النجاشي ويحدثوا عما كان ...

استقبلهم النجاشي وقد جمع أساقفته حوله ومعهم صحفهم منشورة ، فسأل المهاجرين : « ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل ؟ » . .

فأجاب عنهم « جعفر بن أبى طالب » :

ـــ أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوىّ منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعنا على ما جاء به من الله ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك » .

---

(١) أسنده ابن إسحاق من طريق الزهرى ، إلى أم سلمة رضى الله عنها : السيرة ٣٥٧/١ ، ومعه السمط الثمين للمحب الطبرى ٨٦ ، وعيون الأثر ١١٩/١ .

فصمت النجاشي مليا ثم سأل : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

أجاب جعفر : نعم ...

قال النجاشي : فاقرأه على ...

فتلا جعفر صدرا من سورة مريم ...

قالوا : فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم ، ثم قال :

ــ إن هذا والذى جاء به « عيسى » ليخرج من مشكاة واحدة .

والتفت إلى عمرو وعبد الله ، مبعوثى قريش ، قائلا :

ــ انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم ولا يُكادون ...

فانصرفا ، أما عمرو بن العاص فلم يفقد ثقته فى دهائه ولا استسلم للهزيمة صاغرا ، بل قال مهددا : والله لآتينه غدا عنهم بما أُستأصل به خضراءهم (يعنى شجرتهم التى منها تفرعوا) .

وأما عبد الله بن أبى ربيعة ، فأخجله أن يكون النجاشي الغريب ، أبر بجيرانه منه ، وما فيهم من لا يمت إليه بقربى أو رحم . . .

قال لعمرو : لا نفعل ، فان لهم أرحاما وإن كانوا قد خالفونا . . .

ورد « عمرو » فى إصرار :

ــ والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد !

ومضى النهار كله وقطعة من الليل ، وعمرو بن العاص يدبر لغده ، وأما المهاجرون فباتوا آمنين لا يخافون من النجاشي غدرا ، وقد أجمعوا رأيهم أن يجيبوه إذا سألهم عن عيسى بن مريم ، بما قال الله وما جاءهم به نبيهم ﷺ ، وليكن بعد ذلك ما يكون . . .

فلما أصبحوا دعاهم النجاشي وسألهم عما يقولون فى « عيسى » فأجاب جعفر :

« نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » ...

قالوا : فمد النجاشى يده إلى الأرض فأخذ منها عودا وقال لجعفر :

ــ والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ ، هذا العود ...

ثم أمسك لحظة ، وجعل ينقل بصره بين البطارقة ، وعمرو وصاحبه ، حتى استقر على المهاجرين فقال :

« اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى ، من سبَّكم غرم ــ كررها ثلاثا ــ وما أحب أن لى جبلا من ذهب ، وأنى آذيت رجلا منكم » ...

والتفت من بعد ذلك إلى بطارقته قائلا :

« ردوا عليهما هداياهما ، فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حتى ردّ علىَّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىَّ فأطيعهم فيه »[1] .

ورجع عمرو وعبدالله إلى قريش بخفى حنين ...

وأقام المهاجرون مع خير جار ما شاء الله لهم أن يقيموا ...

على أن قلوبهم ظلت أبدا تنزع إلى مكة ، وتحن إلى من تركوا بها من الأهل والأحباب ...

وظلت أسماعهم مرهفة ، تتلهف على أنباء الرسول ﷺ وصحبه فى محنتهم بالمشركين . . .

ولعل السيدة « رقية » كانت من أشد المهاجرين حنينا إلى مكة ، ولعلها ما افتقدت أبويها وأخواتها من قبل ، مثلما افتقدتهم آنذاك ، فلقد أثرت الأحداث الشداد التى مرت بها فى صحتها ، فأسقطت جنينها الأول ، حتى خيف عليها من فرط الضعف والإعياء . . .

---

(١) السيرة ٣٦٠/١ وما بعدها . عيون الأثر ١١٩/١ .

لكنها وجدت من رعاية زوجها وحبه ، ومن عطف المهاجرين وعنايتهم ، ما أعانها على اجتياز الأزمة الحرجة ، ريثما عاودتها العافية بورود الأنباء من مكة ، أن قريشا يئست من الرسول وصحبه ، فرفعت الحصار المنهك الذى ضربته على الهاشميين ...

وأضافت الشائعات أن قريشا ثابت إلى رشدها لما رأت من عجيب ثبات النبى ﷺ ، والذين معه ، فمالت فئة منها إلى الإسلام عن تأثر واقتناع ، ورغبت أخرى فيه لما تستبصر من رجحان الإيمان ، فى موازين القوى . .

وقد أصغى مهاجرة الحبشة إلى هذا الذى قيل وشاع ، فهفت قلوبهم إلى العودة إلى الوطن ...

ولم يقو بعضهم على مغالبة ذلك الحنين المستثار ، فتهيئوا للرحيل على عجل ، يحدوهم الشوق إلى أحب أرض وأعز موضع ، على حين آثر آخرون أن يتلبثوا فى مهاجرهم ، ريثما يستيقنون مما قيل عن مهادنة قريش للرسول ﷺ ، وإسلام عدد منها ...

* * *

عـودة إلى أم القـرى

سار الركب فى طريق مكة ، وقد بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين رجلا يتقدمهم « عثمان بن عفان » وزوجه السيدة« رقية » وابنهما عبد الله رضيعا ، والزبير ابن العوام ابن اخت السيدة خديجة ، وعبد الله بن جحش ابن عمة المصطفى ، وأبو سلمة بن عبد الأسد معه امرأته « أم سلمة ، هند بنت أبى أمية » ، والسكران بن عمرو معه امرأته سودة بنت زمعة » .

وراحوا خلال سفرهم الطويل يعللون أنفسهم بلقاء الأحباب ، ويتشاغلون بتمثل ما ينتظرهم فى الوطن من أنس وطمأنينة ...

حتى اذا عبروا البحر واستقلوا رواحلهم ساعين إلى البلد العتيق ، خايلتهم

الرؤى ، وسبقتهم قلوبهم إلى الوطن إلى أن بلغوا مشارف مكة ، فكانت اليقظة المروعة ..

فهناك على الصخور الملتهبة ، رأوا بأعينهم التى ما زالت بها بقية من خدَر الحلم ، نفرا من اخوانهم المسلمين المستضعفين ، تسومهم زبانية قريش سوء العذاب ...

وأخذت العائدين صيحاتٌ من هنا وهناك ، تعدهم بالويل والهلاك ، وصمت الحادى ، وطارت النشوة ، وتمزقت الرؤى ، وتبعثرت الأمانى ...

ولبثوا هنالك يومهم ، حتى اذا أدبر النهار دخل بعضهم مكة فى جوارٍ من الوليد بن المغيرة المخزومى ، أو أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى ...

وعلى أثرهم دخل الباقون مستجيرين بالحرم الأقدس ، وعلى وجوههم نور الاستشهاد ...

* * *

وآبت « رقية » إلى بيت أبيها مشوقة مجهدة ، فخفت أختاها أم كلثوم وفاطمة للقائها ، وتشبثتا بها معانقتين ، وهما تغالبان الدمع وتتكلفان التجلد ... وأفلتت من عناقهما وسألت مستريبة :

ــ أين أبى ، وأين أمى ؟ ...

أجابتا :

ــ أبوك بخير ، وقد خرج للقاء العائدين معك من مهاجرة الحبشة ...

ثم اختلجت شفاههما فى تأوه مكتوم ...

وعادت رقية تسأل وقد أوجس قلبها خيفة : « وأمى ، أين هى ؟! »

فأطرقت « أم كلثوم » صامتة لا تجيب ، وأما « فاطمة » فغادرت الغرفة وهى تنشج باكية ...

هنالك كفت « رقية » عن أسئلتها ، وسارت مترنحة نحو مخدع أمها الراحلة حيث تهالكت على فراشها جامدة العين زائغة البصر ، مثلجة الأطراف ...

إلى أن جاء أبوها ﷺ ، فأذاب ذلك الجمود بحرارة لقائه ، وأزاح بحنوه ما ران على قلب ابنته من أثر الصدمة . .

وأسعفها الدمع ما شاء لها حزنها وأساها ، ثم أوت إلى الصدر الرحب الكريم ، وثابت إلى السكينة والصبر .

* * *

الهجـرة الثـانية

ولم يطل بها المقام بمكة بعد ذاك ...

هاجر أبوها ﷺ إلى يثرب ، وكذلك هاجرت هى فى صحبة زوجها .

وكانت قد ولدت طفلها عبد الله بن عثمان(1) ، فملأ عليها منزلها الجديد أنسا ، وأقبلت عليه تريد أن تنسى به مرارة ثكلها لجنينها البكر ، ولوعة مصابها فى أمها ، وما ذاقت فى هرجتها من شجن الغربة . . .

وحسبت أنها قد استوفت حظها من الآلام ، لكن الله تعالى امتحنها بمصاب جديد ...

مات « عبد الله » صبيا فى السادسة من عمره ، بنقرة من ديك ، فترنحت رقية تحت وطأة الثكل المرير المضاعف ، صريعة الحمى ، قيل إنها الحصبة .

وأقام « عثمان » إلى جانبها يمرضها ويرعاها ، حتى إذا تناهى إلى سمعه صوت داعى النبى صلى الله عليه وسلم يؤذن أنْ حىّ على الجهاد ، ويستنفر المهاجرين والأنصار للقاء عدوهم فى « بدر » ، ود عثمان لو يلبى الداعى الكريم ، لكن قلبه لم يطاوعه على فراق « رقية » التى كانت تعالج ما يشبه سكرات الموت ، فتخلف عن شهود موقعة بدر بأمر النبى ﷺ ، وراح يشهد معركة الموت فى أعز من له !(2)

---

(1) نسب قريش : ٢٢ والاصابة جـ ٨٣/٨ ، والاستيعاب : ١٠٣٧/٣ .

(2) الاصابة ٨٣/٨ — وتاريخ الطبرى : حوادث السنة الثانية للهجرة ، والطبقات الكبرى لابن سعد : ٦/٢

وقسا الصراع وطال ، ثم رفَّت روحها على شفتيها فى حشرجة وانية ، وعيناها على زوجها ، وغابت عن الوجود ...

ورنا إليها « عثمان » يتزود لفراق طويل ، وفى مسمعه صدى من حشرجة الموت ، مختلطا بهتاف البشرى بانتصار المسلمين فى « بدر » ...

* * *

مأتم يوم النصر

وجاء الأب الثاكل فدنا من ابنته الراقدة يودعها بادى الحزن والأسى ، ثم انثنى فى رفق نحو ابنته « فاطمة » التى أكبتْ على مضجع أختها تبكى ، فجعل ﷺ يمسح دموعها بطرف ثوبه[1] ...

ولم تتمالك النساء أنفسهن ، فانسحبن من حضرته مجهشات بالبكاء وقد تخلى عنهن ما كن يصطنعن فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم من تجمل وتصبر . . وهاج نحيبهن غضبَ « عمر بن الخطاب » فزجرهن فى عنف وقسوة محاولا أن يأخذهن بما يجب لمثل هذا المكان من سكينة ووقار ، لكن المصطفى الرحيم كفه عنهن قائلا :

« دعهن يا عمر ، مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان »[2] ..

وصلى الأب النبى على ابنته رقية ...

وشيعت « يثرب » جثمان بنت النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ذات

(١) الاصابة : ٨٣/٨ .

(٢) أسنده ابن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ثم عقب عليه بقوله : فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر — هو الواقدى — فقال : الثبت عندنا أن رقية توفيت ورسول الله صلى الله عليه وسلم ببدر . ولعل هذا الحديث فى غيرها من بناته صلى الله عليه وسلم . فان كان فى رقية وكان ثبتا فلعله أتى قبرها بعد قدومه إلى المدينة — من بدر — (الطبقات ٣٧/٨) .

الهجرتين ، حتى ووريت الثرى الطيب الذى ارتوى يومئذ بدماء الأبرار من شهداء « بدر » رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وضرب أبوها ﷺ ، لصهره « عثمان » بسهمه وأجره ، مما أفاء الله على المسلمين فى « بدر » إذ كان إنما تخلف عن شهودها ، لمرض « رقية » الراحلة[1] رضى الله عنهما .

* * *

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٦ مع ترجمة عثمان ورقية ، رضى الله عنهما ، فى الإصابة .

(٣)

أمّ كلـثوم

عليها السـلام

- مع رقية ، فى بيت أبى لهب
- طلاق . . وهجـرة
- فى بيت ذى النورين
- مع رقيَّة دَائمًا
- الرحيـــــلُ

أراد الله بها خيرا فطلقها « عتيبة بن أبى لهب » عدو الله ، ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع « حمالة الحطب » كما نجت معها أختها العزيزة « رقية » التى ما لبثت أن تزوجت « عثمان بن عفان » وهاجرت معه إلى الحبشة ...

وبقيت « أم كلثوم » مع أختها الصغرى « فاطمة » فى بيت أبيهما ، ﷺ ، بمكة ، تشاركان أم المؤمنين الأولى عبئها الجليل ، وتستقبلان معها النبى عليه الصلاة والسلام إذ يعود كل يوم إلى بيته ، وعلى كاهله الكريم العبء الثقيل ، وعلى ثيابه الطاهرة آثار ما كان يلقى من أذى قريش وحربها ، فيحطن به فى بر وحنو ، يحاولن ما استطعن أن ينفضن عنه هذه الآثار ، وأن يروحن عنه فى الفترات القليلة التى كان يسكن فيها إلى بيته وأهله ...

وهكذا عاشت « أم كلثوم » مع آلها فى صميم معركة الاضطهاد الأولى التى بلغت أقسى ذروتها حين يئست قريش من خذلان أبى طالب لابن أخيه ، وخاب سعيها لديه كى يسلمه إلى أعدائه فيبطشوا به ...

ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب ، وأسلم عمر بن الخطاب ، فطار صواب قريش وتخلى عن رجالها ما عرفوا به من رشد وحلم ، فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم ، وسجلوا مقاطعتهم فى وثيقة علقوها فى جوف الكعبة(١) ، وخرج محمد بأهله ومن تبعه إلى شعب أبى طالب ، وانحازت إليه بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، إلا أبا لهب ...

وهناك عاشوا فى ضيق الحصار ، حتى إنهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، وأقاموا على ذلك نحو ثلاث سنين لا يصل إليهم شىء إلا سرا ...

حدثوا أن أبا جهل بن هشام ، لمح حكيم بن حزام بن خويلد الأسدى ، يسير متخفيا معه غلام يحمل قمحا ، يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى

---

(١) انظر حديث « الصحيفة فى السيرة ٣٧٥/١ وفى تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢ ، وعيون الأثر ١٢١/١ .

مع زوجها ﷺ وبنتيها أم كلثوم وفاطمة فى الشعب ، فتعلق به أبو جهل وصاح :

« أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ ... والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة »[1] .

* * *

حتى بلغ منهم الجوع مبلغا يصوره لنا قول سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بعد محنة الحصار بِسنين :

« لقد جُعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن ! »[2] ...

ومن عجب أن ذلك السهم الذى راشته قريش ، ارتد عن المؤمنين دون أن يزعزع إيمانهم مثقال ذرة ، أو يزحزحهم قيد شعرة ، عن موقفهم من نصرة النبى ﷺ ، وعاد السهم منطلقا إلى معسكر قريش فأصاب منها مقتلا ! ...

ذلك أن نفرا من مشركى قريش ، روعهم الحصار الغشوم المضروب على المؤمنين منهم ، فثارت ضمائرهم وسلطت عليهم سوط عذاب ...

وبدأ الحصار يهتز ويتداعى تحت وطأة الندم وعذاب الضمير ...

حدثوا أن هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى — وكان ابن أخى نضلة بن هاشم لأمه — كان يأتى ليلا بالبعير قد أوقره طعاما ، حتى إذا بلغ به فم الشعب ، خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه ، فيدخل البعير على بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، بما يحمل[3] ...

---

(١) السيرة : ٣٧٩/١ تاريخ الطبرى : ٢٢٥/٢ .
(٢) السيرة : ١٧/٢ .
(٣) السيرة : ١٤/٢ .

وذات ليلة ، خرج ﷺ إلى قريب من فم الشعب يستقبل البعير الموقر طعاما ، كيما يشرف على توزيعه فى ذوى العيال ممن معه ، وسهرت « أم كلثوم » عند فراش أمها التى علت بها السن وأنهكتها الأحداث وأحست دنو أجلها ، وان بدا أنها تقاوم الضعف والمرض ببسالة ، وتتشبث بالحياة من أجل زوجها الحبيب ، ومن أجل بنتيها أم كلثوم وفاطمة ...

وقالت تناجى ابنتها :

ــ ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة ، فأموت قريرة العين راضية .

فهتفت « أم كلثوم » من كل قلبها :

ــ لا بأس عليك يا أماه !

ثم خنفتها العبرات فلم تزد ...

واستطردت الأم :

ــ أى وربى لا بأس علىَّ يا ابنتى ! .. ما من امرأة فى قريش حظيت بما حظيت به من نعمة ، بل ما من امرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من عزّ : حسبى من دنياى أنى زوج الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى ، وأنى أم المؤمنين ...

ثم أسبلت عينيها وهمست :

اللهم إنى لا أحصى ثناء عليك ! .. اللهم إنى لا أكره لقاءك ، ولكن أطمع فى مزيد من الجهاد لأكون أهلا لما أنعمتَ علىَّ ! ..

واحتضر الضوء النحيل الشاحب الذى كانت تبعثه ذبالة واهية هناك ، ولفَّ الكونَ سكون خاشع ، وأرهف الليل سمعه لهذه النجوى المؤثرة ، فما عاد يُسمَع فيه سوى أنفاس أم المؤمنين ، وخفقات قلب ابنتها التى راحت تدعو صامتة . . .

ثم ... فتح الباب ، فانبثق منه شعاع من نور باهر أضاء المخدع ، ودخل

ﷺ بهى الطلعة متهلل الأسارير ، فما كادت زوجته تلمحه حتى نهضت للقائه بوجه مشرق وقد سرى فى بدنها الكليل فيض من القوة والعافية ...

وأصغت « أم كلثوم » إلى ما كان أبوها عليه الصلاة والسلام يحمل من الأنباء ، فأحست كأن ظلام الليل ينقشع رويدا رويدا ، كيما يفسح المجال لنور فجر جديد ...

فلقد عاد العم « أبو طالب » فى ليلته تلك من زيارة الحرم الأقدس . ليتحدث مَن فى الشعب عما رأى هنالك وما سمع من أمر نقض الصحيفة .

مشى هشام بن عمرو — ذاك الذى كان يحمل المئونة إلى المحاصرين . ليلا — إلى زهير بن أبى أميّة المخزومى ، أخى هند أم سلمة ، بنت زاد الركب المخزومية ، فقال له :

— يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء ، وأخوالك حيث علمت ؟ .. أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم ابن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه من مقاطعتهم ، ما أجابك إليه أبدا ! ..

فأصغى زهير ، وفكر مليا ثم سأل :

— ويحك يا هشام ! .. فماذا أصنع ؟ .. إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها ..

قال هشام : قد وجدتَ رجلا ...

فسأله : من هو ؟ ..

أجاب : أنا ...

قال زهير : ابغنا رجلا ثالثا ..

فذهب هشام إلى المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له :

— يا مطعم ، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف وأنت شاهد

على ذلك موافق لقريش فيه ؟ .. أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدنهم إليها منكم سراعا..

فكان جواب مطعم كجواب زهير ..

ومضى هشام بعد ذلك إلى أبى البخترى بن هشام ، فحدثه بمثل ماحدث به صاحبيه زهيرا ومطعما ، فسأله أبو البخترى :

ـــ وهل أجد من يعين على هذا ؟ ..

أجاب هشام :

ـــ نعم ، ابن زاد الركب ، والمطعم بن عدى ، وأنا ، معك ...

فطلب إليه أبو البخترى أن يلتمس مؤيدا خامسا ، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلمه فى بنى هاشم وذكر له قرابته منهم وحقهم عليه ، فأجاب زمعة ...

وتواعد الخمسة على اللقاء ليلا بخطم الحجون ـــ بأعلى مكة ـــ وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، واتفقوا كذلك على أن يبدأ « زهير » فيكون أول من يتكلم فى مجتمع القوم ...

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا « زهير » عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس فقال :

ـــ يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ؟ .. والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ...

قال أبو الحكم بن هشام ، وكان فى ناحية المسجد :

ـــ كذبتَ ، والله لا تشقّ !

فأجابه صوت « زمعة بن الأسود » :

ـــ أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابها حيث كُتِبت !

وثنى أبو البخترى :

ـــ صدق زمعة : لا نرضى ما كُتِب فيها ولا نقر به ...

وأيدهما المطعم :

ـــ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها ..

وتابعهم هشام بن عمرو مؤيدا ، فنقَّل أبو الحكم عينيه بين هؤلاء الرجال الخمسة ثم صاح مستريبا :

ـــ هذا أمر قُضِى بلَيل ، تُشوور فيه بغير هذا المكان ...

فلم يعره الرجال اهتماما ، وقام المطعم بمرأى من القوم ـــ وفيهم أبو طالب قد انتحى ناحية من المسجد ـــ والتمس الصحيفة ليشقها ، فإذا الأَرَضة قد أكلتها فلم تدع منها إلا : « باسمك اللهم »[1] .

ووجمت قريش ، وأسقط فى يديها وأحست بالسهم الذى راشته يرتد إلى صدرها فيمزقه ...

ونهض أبو طالب يسعى إلى الشِّعب بالبشرى ، وقد ذكر ـــ وهو فى طريقه من البيت العتيق ـــ بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة ، فهتف منشدا وهو يرجو أن يبلغهم هنالك صدى من صوته :

ألا هل أتى بحريِّنا صنعُ ربنا ... على نأيهم ، والله بالناس أروَدُ
فيخبرهم أن الصحيفة مُـزقتْ ... وأنْ كلَّ ما لم يرضه الله مُفسَد
تَراوَحها إفك وسحر مجمـع ... ولم يُلفَ سحرٌ آخرَ الدهر يصعد
جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا ... على ملأ ، يهدى لحزم ويرشد
قعودا لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة ، بل هـم أعـز وأمجد
قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا ... على مهل ، إذ سائر الناس رُقَّد[2]

---

(١) انظر حديث « نقض الصحيفة » فى السيرة : ٢/١٤ : ١٦ والحوار بنصه منقول منها .

(٢) القصيدة رواها ابن اسحاق ، وعدد أبياتها ستة وعشرون ـــ السيرة : ٢/١٧ ، ١٨ .

وأيقظ صوته كل من فى الشعب ، فهبوا من مضاجعهم يهتفون بالبشرى ، وصاح المسلمون منهم : « الله أكبر » ...

وباتوا ليلتهم وما تمس جنوبهم مضجعا ، لفرط الفرح والانفعال ...

وأصبحوا ساعين إلى الكعبة فطافوا بها ، ثم آبوا إلى بيوتهم فى مكة ، ينتظرون ماذا يكون من قريش بعد أن خاب كيدها وتهاوى الحصار ..

* * *

وفى بيت النبى ﷺ بمكة ، رقدت السيدة خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها بعد أن اطمأنت على زوجها الحبيب ، ثم ما لبثت روحها أن فاضت ، والنبى إلى جانبها يهون عليها سكرات الموت ، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم[1] ...

وبناتها الثلاث : زينب وأم كلثوم وفاطمة ، يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل ...

وفى اليوم العاشر من شهر رمضان سنة عشر من المبعث ، حُملت إلى الحجون ، وهنالك أضجعها زوجها ﷺ بيديه فى حفرتها ، ثم ودعها وآب إلى بيته محزونا ، فضمَّ إليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة ، يواسيهما ويعينهما على المصاب

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به ، فلم يعد له فيها بعد رحيل « خديجة » مقام !

لكن طيفا منها ظل يلم به غاديا ورائحا ، فيؤنس غربته فى وطنه ، حتى أذن الله له فى الهجرة إلى يثرب ...

---

(١) الاصابة جـ ٨ ، والسمط الثمين ١٧ ، مع مناقبها وفضائلها ، رضى الله عنها ، فى الصحيحين .

وودع ﷺ بناته ، ثم ذهب فى ضحوة النهار إلى بيت الصديق أبى بكر فاستصحبه ...

وتلبث لحظة قبل أن يفصل عن مكة ، فأشرف من علية هناك على مهد الصبا ومبعث النور ، ثم قال :

« والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ، وإنك لأحب أرض الله إلىَّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى ما فارقتك » ..

ومضى مع صاحبه الصدّيق فى طريقه إلى الغار ، وترك ابنتيه أم كلثوم ، وأختها فاطمة ، وحيدتين فى البيت المهجور ، يكاد يتلفهما الأسى لولا رحمة الله . . .

* * *

وتثاقلت الأيام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ، ومضت الليالى مثقلات بالسهد والشجن ، حتى جاءت البشرى بوصول النبى ﷺ سالما إلى يثرب ، ثم ما لبث زيد بن حارثة أن أقبل ، ليصحب أم كلثوم وشقيقتها فاطمة ، وآل أبى بكر إلى دار الهجرة .

وأمضت بنتا النبى يومهما الأخير بمكة مع أختهما زينب زوج أبى العاص ، يذكرن الأمس السعيد الذى ولّى وراح ثم أغلقن الدار التى شهدت ماضيهن الخلى ، وسعين إلى الحجون فروين قبر الأم الطاهرة بدموعهن . . .

وأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ، ومضت بها إلى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل[1] . . . .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣٨/٨ .

وألقتا نظرة وداع على مغانى مكة وما تدريان أتكون إليها عودة !

ثم اندمجتا فى الركب المهاجر ، وقد خفف عنهما شجنَ الفراق أنهما ذاهبتان إلى أبيهما ﷺ فى منزله الكريم بين الأنصار !

* * *

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث ...

وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصرا من « بدر » ، كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية » يوم النصر ...

وأهلَّ العام الثالث وما يزال الحزن على رقية جديدا ، وما تزال قريش تبكى قتلاها وتتداعى للثأر من الفئة الظافرة ...

وكانت « أم كلثوم » تلمح « عثمان » فى هذه الفترة ، وهو يلازم أباها ويلتمس لديه العزاء عن فقيدته الغالية ...

إلى أن كان يوم من أيام شهر ربيع ، وقد أوى ﷺ إلى بيته يستريح ، فإذا عمر بن الخطاب يسعى إليه مستثار الغضب ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان ...

لقد عرض على أحدهما بعد الآخر ، أن يتزوج من بنته « حفصة » بعد أن مات عنها زوجها خُنيس بن حذافة السهمى رضى الله عنه ، فسكت أبو بكر ، وأجاب عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم[1] ...

وسمعت « أم كلثوم » أن أباهاصلى الله عليه وسلم قال لعمر ملاطفا :

— يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمانُ من هى خير من حفصة ![2] ...

وخفق قلبها لما سمعتْ !

(١ ، ٢) الاستيعاب ١٨١١/٤ ، ١٩٥٢ ، المحب الطبرى : السمط الثمين ٨٣ .

فما من امرأة خير من بنت عمر إلا بنت النبى ﷺ ، فهل تشغل مكان أختها « رقية » فى بيت عثمان ؟

وعجبت لأن أباها لم يحدثها فى هذا الأمر من قبل ، وقد عهدته لا يزوج واحدة من بناته دون أن يعرف رأيها ...

وعادت بها الذكرى إلى ماض بعيد ، يوم وقفت هى وأختها الراحلة « رقية » تصغيان إلى أبيهما حين عرض عليهما رغبة ابنى أبى لهب فى الزواج منهما ...

وقد عُقد الزواج ، ثم واجهت الأختان حظهما المشترك ، إلى أن طلقهما ابنا حمالة الحطب فى وقت واحد ...

وتزوجت « رقية » بعد ذلك من عثمان ، فأى قدر عجيب يجمع بين الأختين ، لو كُتِب لأم كلثوم أن تتزوج هى أيضا من زوج شقيقتها : عثمان ابن عفان ؟!

وبينما هى تفكر – شبه حالمة – فى الخيوط الخفية التى ينسجها القدر ليربط بينها وبين أختها رقية ، دخلت عليها « أم عياش » خادم النبى ، تدعوها للقاء أبيها ﷺ ...

وفى شهر ربيع الأول سنة ثلاث من الهجرة تم عقد زواجها من عثمان ذى النورين[1] ، « على مثل صداق رقية ، وعلى مثل صحبتها » وخرجت إلى بيت زوجها وعليها ثوب عرس ، شبيه بذلك الذى دخلت به رقية على عثمان ...

وبعث معها أبوها ، ﷺ ، « أمّ عياش » كما بعثها مع أختها من قبل ...

فلما شارفت البيت الجديد ، أحست كأن طيفا من أختها الراحلة ينتظرها لدى الباب ، ليصحبها هنالك فلا يفارقها فى يقظة أو منام ...

(١) فى ترجمته بالاستيعاب (١٠٧٩/٣) : « قيل للمهلب بن أبى صفره : لم قيل لعثمان : ذا النورين ؟ قال : لأنه لم يُعلَم أن أحدا أرسل سِترا على ابنتى نبىٍّ غيره » .

ولعلها همست فى شجن : لم يبق يا رقية إلا أن ألحق بك حيث ترقدين ، فيجمعنا الموت كما جمعتنا الحياة منذ كنا ! . . .

لكنها عاشت ست سنين ، رأت فيها الإسلامَ يبلغ أوج انتصاره . وشاهدت أباها المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج من غزاة إلى غُزاة ، مُؤيَّدًا مظفرا ، وزوجها ذو النورين معه ، صاحبا ومجاهدا بماله ونفسه :

رُوى أنه كانت « بئر دومة » بالمدينة ليهودى يبيع للمسلمين ماءها . فقال رسول الله ﷺ : « من يشترى دومة فيجعلها للمسلمين يضرب دلوه فى دِلائهم ، وله بها مشرب فى الجنة ؟ » فأتى عثمان اليهودى فساومه بها فأبى أن يبيعه إلا نصفها باثنى عشر ألف درهم . فجعله عثمان للمسلمين ، واتفقا على أن يكون لليهودى يوم ولعثمان يوم ، فكان إذا جاء يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين . فلما رأى اليهودى ذلك ، قال لعثمان : أفسدتَ علىَّ ركيَتى فاشترِ النصف الآخر . فاشتراه بثمانية آلاف درهم .

وقال رسول الله ﷺ : « من يزيد فى مسجدنا ؟ » فاشترى عثمان موضع خمس سوارٍ فزاده فى المسجد[1] .

وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة ، خرج أبوها ﷺ على راحلته القصواء ، فى نحو ألف وأربعمائة من أصحابه ، يريدون « مكة » لقضاء العمرة ، ليس معهم سلاح إلا السيوف فى القِرَب ...

وتصدت قريش لهم ، قرب الحديبية ، تأبى أن يدخلوا مكة ...

وقال المصطفى ﷺ لصهره ذى النورين « عثمان بن عفان » : اذهب إلى قريش فأخبرهم أنّا لم نأت لقتال أحد ، وإنما جئنا زوارا لهذا البيت معظمين لحرمته ، معنا الهَدى ننحره وننصرف .

---

(١) الاستيعاب : (١٠٣٩/٣) .

وأمسكت « أم كلثوم » قلبها ، وهى تخشى على زوجها أذى المشركين وساورها القلق ، وهى فى انتظار أوبة عثمان ، بعد أن طال غيابه ... فما راعها إلا نبأ ذاع ، أن عثمان قد قتل ...

قال النبى ﷺ لما بلغه النبأ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . ودعا المسلمين إلى « بيعة الرضوان » وفيها بايع لعثمان رضى الله عنه ، فضرب بشماله على يمينه وقال : « إنه ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله ... »[1]

لكن لم يطل بأم كلثوم الحزن !

فلقد عاد « عثمان » من رحلته ، لم يصبه أذى ...

وتم صلح الحديبية ...

وكان « عثمان » ممن لم يرضوا عن شروطه ...

وحين نحر الرسول هديه وحلق رأسه ، حلق عامة الصحابة ، وقصر نفر ، منهم « عثمان بن عفان » ![2]

وقد عز الموقف على « أم كلثوم » وهى تسمع أباها يقول : « رحم الله المحلقين ... » قالها ثلاثا ...

ولم تطمئن ابنته ، حتى قال من بعد ذلك : « والمقصرين ... » .

وعرفت كذلك أنه عُدَّ من أصحاب بيعة الرضوان وإن تغيب عنها ، إذ بعثه النبى ﷺ إلى مكة ، فى أمرٍ « لا يقوم به غيره » .

* * *

وتم النصر الأكبر ...

---

(١) ابن إسحاق عن الزهرى بسنده فى السيرة ٣٣٠/٣ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٠/٢ ، عيون الأثر ١١٨/٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٥/٢ .

فتحت مكة ، بعد عامين من صلح الحديبية ، وأدركت « أم كلثوم » هذا الفتح ، كما أدركته أختها « فاطمة » ...

ورقَّ قلباهما لذكرى الراحلات الغاليات : أمهما خديجة ، وشقيقتيهما زينب ، ورقية . رضى الله عنهن . .

وأدركت كذلك ، مسيره ﷺ إلى (تبوك) فى شهر رجب من سنة تسع .

ولم يكن ﷺ يجد ما يحمل عليه أصحابه الذين لبوا داعى الجهاد وأرادوا الخروج معه ، فكان لعثمان رضى الله عليه عنه ، مثوبة أن جهز جيش العُسْرة — كما سُمِّى جيش تلك الغزوة — بتسعمائة وخمسين بعيرا . وأتمَّ الألف بخمسين فرسا . وفى روايةٍ أنه رضى الله عنه حمَل فى جيش العُسرة على ألف بعير وسبعين فرسا[1] .

* * *

ثم رحلت « أم كلثوم » .

ماتت فى بيت عثمان ، فى شهر شعبان سنة تسع ، عن غير ولد ...

ووسدوها ثرى « يثرب » إلى جانب ما بقى من رفات أختها ، ووقف المصطفى ﷺ على قبر ابنته دامع العينين ، مثقل القلب بألم الثكل المتتابع ...

ورحم الله « أم كلثوم » فأعفاها من محنتى اليتم والترمل ، فلم تشهد رحيل أبيها عن الدنيا ، بعد عام واحد ، ولا المصرع الفاجع لزوجها « عثمان » يوم الدار بعد نحو ربع قرن من الزمان ، على مرأى من زوجتيه اللتين جاءتا الدار بعدها : أم البنين بنت عبيدة بن حصن ، ونائلة بنت الفرافصة الكلبية[2] ...

---

(١) الاستيعاب ٣ / ١٠٤٠ ، وطبقات ابن سعد : ٨ / ٣٨ .
(٢) تاريخ الطبرى ، ونسب قريش : ١٠٢ ذخائر .

(٤)

فاطِمَة الزهْرَاء

أمّ أبيها

عليها السلام

- أحبُّ البنات .
- فى دوَّامَة الأحدَاث
- الهِجُرة والبَيْت الجَديد
- سحَابة صيف
- محنَة تنجلى
- حلم هَنىء
- يقظة مروّعة
- التئام الشمْل
- تاريخ ممتَدّ

كانت رابعة البنات فى تلك البيئة التى عرفناها مفتونة بالبنين ؛ لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الإسلامى كما لم تدخله أخرى من أخواتها رضى الله عنهن ، وتركتْ فيه من خطير الآثار ما جاوز كل تصور واحتمال ، يوم استقبلها البيت المحمدى وليدة ، قبل المبعث بخمس سنوات ...

ولقد شاء الله أن يقترن مولدها ، فى السنة الخامسة قبل المبعث ، بالحادث الجليل الذى ارتضتْ فيه قريش « الأمين » حكما فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود ، بعد تجديد بناء الكعبة المكرمة(١) ، فاستبشر أبواها بمولدها واحتفلا بها احتفالا لم تألفه « مكة » فى مولد أنثى سبقتها ثلاث أخوات ليس بينهن ولد . وأمضت طفولتها سعيدة بحب أبويها وتدليل أخواتها ، وبخاصة كبراهن « زينب » التى كانت لها بمثابة أم صغيرة ...

حتى تزوجت « زينب » من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع ، ومن بعدها تزوجت « رقية وأم كلثوم » من ابنى العم عبد العزى بن عبد المطلب ، فعز على فاطمة أن تفارقها أخواتها واحدة إثْرَ أخرى ، وأعياها — فى طفولتها الباكرة — أن تدرك حكمة هذا الزواج الذى يفصل بين البنت وأبويها ، وبين الأخت وأختها . وشغلتها هذه الخاطرة أياما وليالى ذات عدد ، حتى تركت أثرا عميقا فى مشاعرها الغضة وقلبها البكر ، وكان للظروف التى طرأت على البيت حينذاك ، فعلُها فى تقوية ذلك الأثر : فلقد شغل الأب بتأملاته التى انتزعته من دنيا الناس ومضت به إلى عزلة عابدة متأملة ، وشغلت الأم بزوجها الحبيب تحنو عليه ما أقام معها وترسل قلبها فى أثره إذا غاب ، وشغلت

---

(١) ابن سعد ، (الطبقات ١/١٤٥) عن الواقدى . وجزم به المدائنى (الإصابة ٨/١٥٧) .

الأخوات الثلاث بحياتهن الزوجية الجديدة ; وتُركت « فاطمة » شبه وحيدة مع خواطرها التى انفردت بها وراحت تؤثر فى وجدانها على مهل ...

وكانت بحيث تجد فى ابن العم ، علىّ بن أبى طالب ـــ ذاك الذى اختاره أبوها فضمه إليه واتخذه ولدا(1) ـــ أخا وزميلا ، فما كان يكبرها بأكثر من أربع سنين ، لولا أنها استحيت أن تفضى إليه بهمومها التى تدور حول الزواج ، ولو حاولت أن تفعل لما طاوعها لسانها ...

ثم كان الحادث الأجل الذى هز الجزيرة هزا ، فانتزع فاطمة من شواغلها الخاصة وأيقظها فى عنف من أحلام طفولتها ، وألقى بها فى دوامة الأحداث الهائلة التى أعقبت المبعث ...

ووجدت نفسها ـــ ولما تتجاوز الخامسة من عمرها ـــ تواجه الرجّة العنيفة ، وتقف فى مهب الإعصار الذى أثارته الوثنية العاتية ، فى وجه الدين الجديد . . .

لكنها لم تأس قطّ على ما فاتها من مرح الصبا ولهو الحداثة ، ولا عز عليها أن تتخلى هكذا سريعا عما كانت تنعم به من راحة وخلو بال ، بل حلّت تمائم صباها راضية ، وهجرت ملاعب أترابها ولداتها فى غير تردد ، واستقبلت الحياة الجديدة وهى تدرك على صغر السن ، معنى بنوتها للنبى الذى اصطفاه الله رسولا ، وتعى ثقل العبء الذى يجب عليها أن تحمله ، لتكون جديرة بمكانها من المصطفى الذى يلقى قريشا مجتمعة ، أعزل إلا من إيمانه بالحق ، وحيدا إلا من فئة قليلة مضطهدة .

ولم تعد « فاطمة » تشعر بالوحدة التى كانت فيها قبل المبعث ، فلقد ربط الإسلام بينها وبين أبيها المصطفى ، ووالدتها أم المؤمنين ، وأخواتها المسلمات ، برابطة أقوى من النسب وأغلى من الدم وأقرب من الرحم ، ونسى كل فرد

(1) السيرة : ٢٦٣/١ .

فى البيت المحمدى شواغله الخاصة ، منذ تلاقوا جميعا حول دين واحد ، لا يدينون بغيره ، ورب واحد ، يجثون له سجدا ، لا يشركون به إلها آخر ولا يعبدون ربًّا سواه ...

وسرها أن « علىّ بن أبى طالب » كان أحد الثلاثة الذين سبقوا إلى الإسلام ، إذ كان بمثابة أخ لها عزيز ، ولا يهون عليها أن يختلف بهما الدين فتحظى هى بنعمة الإسلام دونه ، ويترك هومكانه فى بيت سيد البشر ، ليلحق بالعصبة الكافرة التى باءت بغضب من الله ...

وودت لو يسلم شيخ الهاشميين « أبو طالب » فإنه لكما قال أبوها صلى الله عليه وسلم : « وأنت أى عمٍّ ، أحق مَن بذلتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى ، وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه » ...

وودت كذلك لو يسلم أبو العاص بن الربيع ، ابن خالتها هالة ، وزوج شقيقتها العزيزة زينب . بل ودت لو يسلم بنو هاشم جميعا ، فهم آل أبيها وعشريته الأقربون ، يعز عليه فراقهم ، ويشق عليه عَنَتُهم وعداوتهم ، لكن الله أراد أن يمتحن آل النبى ويصهرهم فى بوتقة الابتلاء ، وشاء تعالى ، جلَّت مشيئته ، أن يضرب رسوله المصطفى المثَل الأعلى فى قوة العقيدة وصدق الايمان وجلال التضحية ...

كما آثر — سبحانه وتعالى — فاطمة بنت محمد بالحظ الأوفى من الألم النبيل ، فكتب لها أن تشهد محنة البلاء العظيم منذ طفولتها الباكرة ، وتعيش دون أخواتها جميعا ، حتى يجود أبوها البطل بأنفاسه ، ويلحق بالرفيق الأعلى . . .

وكانت لذلك كله أهلا ...

وهذه هى ، قد هجرت ملاعب الصبا وانتبذت من صواحبها مكانا قريبا من أبيها فى قلب الميدان ، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتبع

أباها إذ يسعى إلى أندية قريش ومحافلها مبشرًا ونذيرًا ، ويلقى فى سبيل رسالته ما يلقى من كيد الطغاة وأذى السفهاء . . .

كانت هناك ، قريبا منه ، يوم أقبل يمشى إلى الكعبة حتى استلم الركن ، فما لمحه المشركون حتى وثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ — وعدوا ما قال من شتم آبائهم وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم —

فيقول عليه الصلاة والسلام : « نعم ، أنا الذى يقول ذلك » ...

وأمسكت « فاطمة » أنفاسها وهى ترى رجلا منهم يأخذ بمجمع رداء أبيها ، وشل الذعر حركتها فوقفت حيث هى ، وقام أبو بكر دون رسول الله ﷺ ، وهو يقول منكرا :

« أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟ ! » .

فالتفتوا إليه وشرر الغضب يتطاير من أعينهم ، فجذبوه بلحيته ، ثم لم يدعوه إلا وقد صدعوا رأسه ![1] ...

وغادرمحمد — ﷺ — البيت الحرام ، ومشى فى الطريق ، وابنته تتبعه عن كثب ، فلم يلقه أحد من الناس ، لا حرٌّ ولا عبد ، إلا كذبه وآذاه ، حتى بلغ بيته ، فتدثر فى فراشه مقرورا ينتفض من شدة ما أصابه ...

وكانت هناك ، تقف غير بعيد من أبيها وتحوم بعينيها وقلبها حوله ، إذ هو ساجد فى الحرم ، وحوله ناس من مشركى قريش ، فجاء « عقبة بن أبى معيط » بِسَلْىِ جزورٍ ، فقذفه على ظهره ، فلم يرفع — ﷺ — رأسه حتى تقدمت ابنته فاطمة فأخذت السلَي ودعت على من صنع ذلك ، واذ ذاك رفع ﷺ رأسه وقال :

---

(١) السيرة : ٣١٠/١ .

« اللهم عليك الملأ من قريش ! .. اللهم عليك أبا جهل بن هشام وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وعقبة بن أبى معيط ، وأبىّ بن خلف » ...

فخشع المشركون لدعائه ، وغضوا أبصارهم حتى انتهى من صلاته وانصرف إلى بيته ، تصحبه ابنته فاطمة ...

ولن تمضى غير أعوام معدودات لترى فاطمة هؤلاء الملأ الذين دعت ودعا عليهم أبوها صلوات الله عليه وسلامه ، صرعى مجندلين حول ماء بدر ...

وكانت هناك ، يوم خرج النبى ﷺ إلى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وأنذِرْ عشيرَتَكَ الأقربينَ ﴾ فجعل ينادى :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ... لا أغنى عنكم من الله شيئا ...

« يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئا ...

« يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئا »[1]

وخفق قلب « فاطمة » حنانا وتأثرا ، فهمست تقول :

ــ لبيك يا أحبَّ والد وأكرم داع ...

ثم جمعت نفسها وسارت بين الناس بِجِرمها الصغير اللطيف ، مرفوعة الهامة مشرقة الأسارير ، وكأنما ازدهاها أن يختارها أبوها ﷺ ، من بين أخواتها جميعا ، بل من بين أهل بيته الخاص ، ليؤكد للبشر أنه لا يغنى من الله شيئا عن أعز الناس عنده وأحبهم إليه وأدناهم منه ...

لقد بدأ بقريش قومه وقبيلته ، ثم بنى عبد مناف عشيرته الأقربين ، ثم عمه العباس وعمته صفية ، ثم كانت ابنته فاطمة هى آخر من يتخذه النبى

---

(١) حديث متفق عليه : أخرجه الشيخان من عدّة طرق : البخارى فى كتاب الوصايا ، ومسلم فى كتاب الإيمان . والنقل هنا من (اللؤلؤ والمرجان ١/٥٧ : ح ١٢٣) .

مثلا فى ذلك الموقف الجليل . فعندها إذن ، ينتهى أقصى ما يبلغه ﷺ فى العظة والاعتبار ، وإذا كان محمد لا يغنى عن بنته فاطمة من الله شيئا ، فهل يطمع غيرها — كائنا من كان — فى أن يغنى عنه أحد من الله شيئا ! ؟

وفى صحيح الحديث عن رسول الله ﷺ ، قال :

« إنما فاطمة بضعة منى ، يؤذينى ما آذاها ، ويريبنى ما رابها » .

« خير نساء العالمين أربع : مريم وآسية وخديجة وفاطمة » ...

« إن الله ليرضى لرضاكِ ويغضب لغضبكِ » .

وعن ابن جريج : « قال لى غير واحد : كانت فاطمة أصغر بنات النبى ﷺ وأحبهن إليه »[1] ...

* * *

وسبق أن أشرنا إلى اتهام متعصبى المستشرقين والمفتونين ما يملأ كتب السيرة والحديث من حب النبى ﷺ ابنته فاطمة ، والزعم بأنها مرويات صُنِعت بأَخَرة ، بعد ما تطورت فكرة الشيعة تطورها السياسى والدينى ، ذا الأثر البالغ فى التاريخ الإسلامى كله ..

وفى ذلك يقول « لامنس » :

« إن المؤرخين المسلمين تناسوا فاطمة فلم يحفلوا بها أول الأمر ، حتى إذا ظهرت فكرة التشيع فى الإسلام ، عادوا يطيلون الحديث عنها ، وأخذت شهرتها تذيع وتنتشر على حين ظلت أخواتها وليس لهن ذكر ولا عنهن حديث » ...

ويرد أحد الكتاب المسلمين — الأستاذ عمر أبو النصر — على هذا الزعم قائلا :

---

(١) من : كتاب المناقب فى صحيح البخارى ، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم . مع ترجمتها رضى الله عنها فى : طبقات ابن سعد ١٥/٨ والاستيعاب ١٨٩٣/٤ والإصابة ١٥٧/٨ .

« فأما عدم ذكر مؤرخي السيرة لفاطمة وغير فاطمة من بنات رسول الله ﷺ ، فمرده أن مؤرخي السيرة إنما كانوا يؤرخون للنبوة والإسلام ، ولم تكن النبوة والإسلام معلقين ببنات الرسول متصلين بهن ، خصوصا وأنهن لم يخضن حربا ولا اندفعن فى معركة ولا كان لهن من الشأن فى سياسة الرسول وشريعته ما يدفع المؤرخ إلى ذكرهن والتبسط فى تاريخهن . ومن البداهة والحالة هذه ألا يذكر المؤرخون من أخبارهن إلا ما كان له كبير شأن أو عظيم أثر »[1] .

وأوْلى منه أن يُردَّ عليهم ، بأن المرويات عما حظيت به الزهراء ، أم أبيها ، من حبه ﷺ ، وصلت إلينا فى مدونات موثقة ، لرجال الطبقات الأولى من أئمة الحفاظ وعلماء السيرة ومؤرخي عصر المبعث ، بأسانيدهم الصحيحة إلى عصر النبى ﷺ وصحابته رضى الله عنهم ...

وهذه المدونات القديمة ، قد تعاقب على خدمتها أجيال من أئمة النقاد وأعلام النظار ، فحصاً وتوثيقا وتهذيبا واستدراكا ، على أدق ضوابط المنهج النقلى للرواية : متنا وإسنادا ورجالا . ولا أحتاج فى رد هذا الزعم الباطل إلى مزيد ، اللهم إلا أن أعرض مثلا من تهافت هذه العصبة الحاقدة من المستشرقين ، فى حديث الحلية التى رُوِى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال فيها : « لأهبنها أحب أهلى إلَّى » ثم دفعها إلى حفيدته « أمامة بنت أبى العاص بن الربيع » فلقد تلكأ غير واحد من المستشرقين عند هذا الحديث ، يريدون أن ينقضوا به كل ما تواترت به الأحاديث والأخبار ، عن حبه ابنته فاطمة . ومن عجب أنهم حملوا خبر الحلية محمل الثقة التى لا يرتفع إليها ظن ولا تجوز عليها ريبة ، واتهموا بالوضع المرويات الخاصة بالسيدة فاطمة ، مع أن المصدر واحد !

ولو أنهم كبحوا جماح هواهم لما رأوا فى حديث الحلية سوى مظهر من

---

(١) عمر أبو النصر (فاطمة بنت محمد ، ٦٠) صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

مظاهر عطفه ﷺ على حفيدته الطفلة التى خلفتها أمها الراحلة ، السيدة زينب ، ولفتة كريمة من لفتاته التى طالما أسعدت النساء من أهله وعشيرته ، وسنجده ﷺ فى موقف آخر ، يُهدَى حلةً من استبرق ، فيقول لابن عمه على : « اجعلها خُمُرا بين الفواطم » فشقها « على » أربعة أخمرة ، أحدها لفاطمة بنت محمد ، والثانى لفاطمة بنت أسد بن هاشم ، زوج أبى طالب وأم بنيه على وجعفر وعقيل ، والثالثة لفاطمة بنت الشهيد حمزة بن عبد المطلب ، والرابع لفاطمة بنت أبى طالب « أم هانئ » ، وفى رواية ، لفاطمة بنت شيبة بن ربيعة ، زوج عقيل بن أبى طالب ...

* * *

وندع هذا لنسأل : لم استأثرت السيدة فاطمة بهذه المكانة الخاصة عند أبيها ﷺ ؟

وهو سؤال يعرض لمن يكتب عن الزهراء ، أما متعصبو المستشرقين فأراحوا أنفسهم كما رأينا بجواب سهل قريب ، هو أن ما رُوِى عن حب محمد لفاطمة إنما اخترعته الشيعة بعد وفاته — ﷺ — وما هذا بمستغرب منهم ، فهكذا يلتوى تاريخ الإسلام فى أيديهم ويصطبغ بصبغة من التعصب لا نلومهم عليها وهم بشر لا يبرأون من ضعف وهوى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نأسف لما ضاع ويضيع على الإنسانية من جهود هؤلاء الباحثين الذين نقدر ما أتيح لهم من صبر على البحث ، ودأب فى الدرس ، كانا جديرين بأن يؤتيا طيّب الثمر ، لو برئا مما شابهما من شوائب هذا التعصب ، وهيهات !

وأما الدارسون المخلصون ، فلا يشق عليهم أن يصلوا إلى نتائج أعمق من هذه التى التقطها القوم ارتجالا من أقرب الطرق ، كأن يربطوا بين هذا الحب للبنت الرابعة ، وما عرف عن العرب بخاصة من كراهة للإناث ، فلعل المصطفى فى حبه لفاطمة ، كان متأثرا وبما يُظن من عدم ترحيبه بمولدها بعد أن سبقتها أخوات ثلاث .

فمحمد ﷺ ، فى أبوته الرحيمة وإنسانيته المهذبة ، أهل لأن يغمر بحبه هذه البنت التى شاء لها القدر أن تجيء حيث يُظن ألا تلقى ترحابا ، وأحق بأن يحبوها مزيدا من عطفه حتى لا تحس — ولو على سبيل الوهم — أنها غير مرغوب فيها . ونحن الأمهات قد بلونا هذا الشعور الغامر بالحنان والرحمة ، حين تولد لنا بنت ثانية أو ثالثة ، فكيف إذن يكون موقف الأب الكريم الذى اصطُفى ليُبعث رسولا ؟ .. مثله بلا ريب من يذود عن طفلته تلك الظلال الكئيبة التى تحيط بمولد البنت الرابعة ، ويحميها من ذلك الاحساس المر الذى قد يكسر قلبها ويعقد نفسيتها ..

ولنا أن نقول بعد هذا ، إن تلك المكانة الخاصة لفاطمة عند أبيها ، لم تنقص حبه أخواتِها الثلاث ، ولنا أن نقول كذلك إن حظ الزهراء من حب أبيها ﷺ قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات ، ثم تضاعف بمولد الحسنين ، وانقطاع ذريته ﷺ إلا من ولد هذه الابنة الوحيدة التى بقيت له !

* * *

دخلت « فاطمة » على أمها السيدة خديجة ، تحدثها — والدنيا لا تسعها من فرط فرحتها وزهوها — عما سمعت من دعوة أبيها لقومه أن يشتروا أنفسهم ، فإن أحدا لن يغنى عن أحد من الله شيئا ، حتى فاطمة بنت محمد ، لن يغنى عنها أبوها النبى شيئا إذا لم تؤمن ...

وهى قد آمنت بالله وصدقت بنبيه ورسالته ، وباعت دنياها بالآخرة ، ولَلآخرة خير وأبقى ...

مرت الأم الطيبة بيدها الحانية على جبين ابنتها الطفلة ، وهمست فى رفق :

— ماذا ستلاقين من بعدى يا صغيرتى ؟ .. لقد نلتُ حظى من الدنيا فأنا هامة اليوم أو غد ، وأختاك زينب ورقية قد اطمأن بهما مكانهما فى كنف

أكرم زوجين ، ولأم كلثوم من سنها وتجربتها ما يغرى بشىء من الطمأنينة عليها ، وأما أنت يا فاطمة ، فتستقبلين الحياة هكذا فى مستهل الصبا ، حافلة بالمتاعب منذرة بمزيد من المحن والآلام ..

فردت فاطمة وهى تذكر أباها صلى الله عليه وسلم :

ــ اطمئنى ، فلا بأس علىَّ يا أماه ، لتطغ قريش ما شاءت لها وثنيتها أن تطغى ، ولتمضين فى اضطهادها للفئة المسلمة إلى أقسى وأفدح ما تستطيع ، فلقد طابت نفوسهم باحتمال هذا العذاب الجليل ، و « فاطمة » أجدر بأن تحمل منه ما يكافئ ما نعمت به من بنوتها للنبى ، واستئثارها بالحظ الأوفى من محبته واعزازه ...

* * *

واستجاب الله لها ، فامتحن إيمانها بأقسى ما يمتحن به مثلها ، فقد كان تعلقها بأبيها يجعلها تتعذب لما يلقى من فادح الأذى ، وتروَّع بالذى يكابده أتباعه من اضطهاد مرير ، حتى لتكاد تحس لسع الصخور الملتهبة التى كانت تلقى عليهم حين يحمر القيظ ، وتتحسس على بدنها أثر السياط التى كانت قريش تلهب بها ظهور من تقدر عليه من المستضعفين .

وصحبت « فاطمة » أبويها إلى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار المنهك سنين عددا ، ثم عادت إلى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد موت أمها السيدة خديجة ، ثم هجرة أبيها إلى يثرب ، بعد أن لم يبق له فى مكة مكان !

وعلى أثره هاجر « على » ابن العم أبى طالب ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام فى مكة ، ريثما أدى عن النبى المهاجر ، الودائع التى كانت عنده للناس[1] ... وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيهما فصحبهما إلى

---

(١) السيرة ١٢٩/٢ .

يثرب ، وأغلقت دارُ المصطفى بمكة ، كما أغلقت دور المسلمين فيها هجرةً ، ليس فيها ساكن ...

ولم تمر رحلتهما بسلام : فما كادتا تودعان أم القرى وينفصل بهما الركب مستقبلا طريق الشمال ، حتى طاردهما اللئام من مشركى قريش ، وباء « الحويرث بن نقيذ بن عبد بن قصى » ـــ وكان ممن يؤذى أباهما النبى بمكة ـــ بإثم اللحاق بهما حتى نخس بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض[1] ...

وكانت فاطمة يومئذ ، ضعيفة نحيلة الجسم ، قد أنهكتها الأحداث الجسام التى لقيتها قبل أن تمتلىء شبعا وريا ، وترك الحصار المنهك أثره فى صحتها وإن زاد معنويتها قوة على قوة ، فلما نخس بها « الحويرث القرشى » فرمى بها وأختها على أديم الصحراء الأوعث ، سارت بقية الطريق متعبة ، إلى أن بلغت « المدينة » وما تكاد ساقاها تنهضان بها ، فلم يبق هناك من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمرّ السنوات وأبوها ﷺ لا ينسى الفعلة الآثمة ، بل سنراه فى العام الثامن للهجرة ، يذكر الحويرث يوم الفتح الأكبر ، ويسميه مع النفر الذين عهد إلى أمرائه أن يقتلوهم وإن وجِدوا تحت أستار الكعبة ..

وكان على بن أبى طالب ، أحق هؤلاء الأمراء بقتل الحويرث ، وقد فعل ![2] ...

* * *

كان ﷺ قد شرع فى بناء مسجده ومنزله ، حيث بركت ناقته القصواء عند وصوله إلى دار الهجرة ، ونزل ﷺ ريثما يتم البناء ، فى دار أبى أيوب الأنصارى . وهى الدار التى صارت من بعده إلى مولاه « أفلح » فاشتراها منه المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بألف دينار ، بعد ما خربت وتداعت جدرانها ، فأصلحها وتصدق بها على بعض فقراء المدينة .

---

(١) السيرة : ٥٢/٤ .

(٢) السيرة ٥٢/٤ ـــ وتاريخ الطبرى ، حوادث السنة الثامنة للهجرة .

وكان ﷺ يعمل فى بناء مسجده وبيته الجديد ، مما حفز همة المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا يتنافسون على العمل وقائلهم يقول :

لئن قعدنا والنبى يعمـلُ
لَذاك منا العمـلُ المضلـل

فيجيبه الأصحاب :

لا عيش الا عيش الآخره
اللهم فارحم الأنصار والمهاجره !

ورُئِىَ المصطفى يومئذ وهو ينفض بيده الكريمة وفرة « عمّار بن ياسر » وقد جاء مثقلا بما يحمل من اللبنِ ..

وسُمع على بن أبى طالب ينشد مرتجزا :

لا يستوى من يعمر المساجدا
يـدأب فيـه قائما وقاعـدا
ومن يُرى عن الغبار حائدا

فأخذها عنه « عمار » وجعل يرتجز بها حتى تم البناء ...

و لم يكن البيت الجديد قصرا فخما ولا صرحا مشيدا ، بل كان حجرات بدوية مفتوحة على فناء المسجد النبوى ، بعضها من حجارة مرصوصة ، وبعضها من جريد يمسكه الطين ، وكانت جميعا مسقوفة بالجريد . . .

وأما ارتفاعها فيقول الحسن بن على ، سبط النبى وابن بنته الزهراء : كنت أدخل بيوت النبى ﷺ وأنا غلام مراهق ، فأنال السقف بيدى .

وفى صحيح البخارى ، أن بابه عليه الصلاة والسلام كان يُقرع بالأظافر — يعنى : لا حلق له !

وأما الأثاث فأقصى ما عرفت المدينة يومئذ قِلَّةً وخشونة وتواضعا ، وكان سريره ﷺ ، خشبات مشدودة بالليف .

إلى هذا المنزل الجديد المتواضع ، جاءت فاطمة بنت محمد مهاجرة من مكة ، لترى أباها ﷺ فى أعز موضع ، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام ، وآخى ﷺ بين الأنصار وبينهم ، ليذهب عنهم وحشة الاغتراب ، ويشد بعضهم أزر بعض ...

وتمت المؤاخاة قبل قدوم « فاطمة » من البلد العتيق ، ولعلها لو كانت بيثرب يومها ، لما استغربت أن ترى أباها ﷺ يقف فى أصحابه فيقول :

« تآخوا فى الله أخوين أخوين » ...

ثم يأخذ بيد على بن أبى طالب ويقول :

« هذا أخى »(١) ...

ويختار لعمه جعفر ـــ وكان ما يزال غائبا بأرض الحبشة ـــ معاذ بن جبل الأنصارى ، ولأبى بكر الصديق ، خارجة بن زهير الخزرجى ، ولعمر بن الخطاب ، عتبان بن مالك العوفى ، ولأبى عبيدة بن الجراح ، سعد بن معاذ ، ولعثمان بن عفان ، أوس بن ثابت أخا بنى النجار ، وللزبير بن العوام بن خويلد ، سلمة بن سلامة ...

وهكذا ذهب كل مهاجر بأخ ، وذهب على بن أبى طالب بسيد البشر أخا ! ...

ولن يمضى وقت طويل ، حتى نرى عليا ، صهرا لأخيه النبى عليه الصلاة والسلام ، وزوجا لأحب بناته إليه ...

* * *

كانت « فاطمة » وقتئذٍ قد قاربت عامها الثامن عشر ، وما تزال منصرفة عن الزواج زاهدة فيه ، متأثرة بنفورها القديم منه ، يوم انتزعوا أختها الحبيبة « زينب » من بيت أبويها ، وزفوها إلى دار أبى العاص بن الربيع ، وفاطمة طفلة فى عامها الرابع ...

ولقد مضت الأعوام ، ونمت الطفلة فأدركت مع الزمن حكمة الزواج ، وأعدتها

---

(١) السيرة : ٢ / ١٥٠ والاستيعاب ٣ / ١٠٩٨ ، والمحبر ٧٠ .

فطرتها لأن تستجيب لهذا الوضع الطبيعى الذى بلته كل أنثى قبلها : من حواء ، إلى خديجة وزينب ورقية وأم كلثوم ، سلام الله عليهن . .

وكانت إلى ذلك كله ، تحس ابن العم « على بن أبى طالب » قريبا منها فى المنزل الجديد ، وتلمحه يحوم حول أبيها ﷺ وفى نفسه أمر يكتمه لا يريد أن يفصح عنه ، وعلى لسانه كلمات يمسكها قبل أن تمس شفتيه . على أن « فاطمة » لم تكن بالتى يخفى عليها سر ابن العم ، فمنذ بلغت سن الزواج وهى تحس بإلهام فطرتها ووحى قلبها ، أن « عليا » متعلق بها غير منصرف عنها ولا راغب فى سواها من بنات المسلمين ..

وكذلك هى : لم تشعر فى عالمها النفسى بمن هو أقرب إليها من « على » وأعز موضعا ، وهو بعد أكثر من أخ عزيز وابن عم قريب ، فليس بين فتية قريش من يفوقه شجاعة وذكاء وعزيمة ، ولا بين شباب المسلمين جميعا من هو أسبق منه إلى الاسلام أو أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

ولكنها مع ذلك أغلقت قلبها دونه كما أغلقته دون الرّجال جميعا ، مؤثرة مكانها إلى جانب أبيها الحبيب ، متشبثة بموضعها فى بيته الكريم ، فمنذ ماتت أمها « السيدة خديجة » ـــ رضى الله عنها ـــ وهى ترى نفسها ربة هذا البيت التى تحمل عبء إدارته ، وخليفة الأم الراحلة فى الوقوف إلى جانب المصطفى المجاهد ، تهيئ له راحة وسكنا ، وقد بلغت فى ذلك المجال ما جعلها تظفر بأجلّ كنية : « أم أبيها » .

وما كانت لتعدل بموضعها ذاك الأعز ، موضعا سواه !

لكن إلى متى ؟

هذا ما لم تفكر فيه الزهراء ، رضى الله عنها ، أو لعلها فكرت فيه حينا ثم انصرفت عنه ، كيلا تثقل على حاضرها بما يحتمل أن يأتى به الغد المجهول .

---

(١) السيرة : ٢٦٢/١ وانظر معها ترجمة الإمام على كرم الله وجهه ، فى الاستيعاب والإصابة ، وكتاب المناقب فى الصحيحين .

حتى دخلت « عائشة بنت أبى بكر » فى حياة محمد ـــ ﷺ ـــ زوجة وربة بيت ، فأحست « الزهراء » أن قد آن لها أن تنتقل من بيت أبيها راضية أو كارهة ، لكى تخلى المكان لربته الشابة الذكية الحسناء !

ولا أستبعد أن تكون الزهراء رضى الله عنها قد ذكرت أمها الراحلة طويلا ليلة زُفت « عائشة » إلى المصطفى ، بعد الهجرة بأشهر معدودات ، وأخذت مكانها فى داره ودنياه ، ولعل الزهراء بكت أمَّها أحر بكاء فى ليلتها تلك ، ثم هون عليها الأمر أن يجد أبوها ـــ الذى تؤثره على نفسها ـــ فى عروسه اللطيفة ، ما يؤنس وحشته بعد رحيل خديجة ، وما يسرى عن فؤاده بعض الشجن الذى أثقله زمنا طال حتى أوشك أن يبلغ أربع سنوات . .

* * *

وزواج « أبى الزهراء » من عائشة لم يكن مفاجأة لابنته ولا لأحد من قومه ، فهو ﷺ قد خطبها قبل هجرته من مكة ، يوم سعت إليه « خولة بنت حكيم » متلطفة مترفقة تقول :

« يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ! » ..

ثم ما زالت به حتى أذن لها أن تمضى فتخطب له سودة بنت زمعة ، وعائشة بنت أبى بكر(١) ...

وما كانت الزهراء لتكره أن يجد أبوها النبى من تسكن إليها نفسه ويرتاح لها فؤاده ، وانها لتعرف ما يحمل من أعباء الرسالة ومشاق الجهاد ، وما يجده من محنة الصد عن البيت العتيق ، وقسوة الاضطهاد من قومه وعشيرته .

وقد جاءت « سودة » قبل عائشة ، فشعرت فاطمة ـــ كما لم يشعر سواها ـــ أن الفراغ فى حياة أبيها زوجا ، ظل كما كان قبل أن تجىء سودة

---

(١) انظر الفصل الخاص بالسيدة عائشة ، فى كتابى « نساء النبى » ﷺ .

بنت زمعة . فإن المصطفى لم يتزوجها إلا جبرا لخاطرها وعزاء لها عن زوجها « السكران بن عمرو » الذى لم يكد يعود بها من مهاجرَهما فى الحبشة حتى مات وتركها أرملة مسنة ، قد هدت المحن قواها ، وطحنتها السنون الطوال العجاف ...

ولم يغب عن الزهراء ، ولا غاب عن سودة ، أن حظ هذه الزوجة من الرسول بر ورحمة ، لا حب وتآلف وامتزاج ، فلا عجب أن بقيت الزهراء « أم أبيها » فى مكانها الأول ، دون أن تشعر بأن وجود « سودة » يغنى عنها ...

وأما حين جاءت « عائشة » فالأمر جد مختلف !

فلا عجب أن لم يمض على دخولها بيت النبى أربعة أشهر حتى كانت « الزهراء » فى طريقها إلى بيت على بن أبى طالب[1] ...

* * *

والواقع أن « عليا » كان يتلبث حتى تحين فرصة مواتية مسعفة ، يستطيع فيها أن يطمع فى قبول الزهراء الانتقال من بيت أبيها إلى بيت الزوجية ...

وطال انتظاره بضع سنين ، حتى إذا دخل ﷺ بعائشة الحبيبة ، خامر « عليا » الرجاء فى تحقيق رغبته ، لكنه ظل محجما فترة ، لا يدرى بم يمهرها وليس فى يده مال ، ثم زاد إحجامه ، حين بلغه أن أبا بكر وعمر — رضى الله عنهما — قد طلبا يد الزهراء ، فردهما أبوها ﷺ فى رفق بالغ[2] ...

وشعر خاصة أصحاب « على » بما يهمه ، فشجعوه على خطبة الزهراء ، وذكروا له قرابته من أبيها ، ومكانته عنده ، ومكانة أبويه من قبله : والده

---

(١) الاستيعاب : ١٨٩٣/٤ ، والإصابة ١٥٧/٨ .
(٢) طبقات ابن سعد : ١٩/٨ وسنن النسائى : ٢٦ ك / النكاح .

أبى طالب ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ، أول هاشمية وَلَدَتْ لهاشمى[1] ...

قال « على » يائسا : « بعد أبى بكر وعمر ؟ »

أجابوه :

— ولم لا ؟ .. ووالله ما بين المسلمين — وفيهم أبو بكر وعمر — من له مثل قرابتك من رسول الله ، وقد كفله أبوك ، ورعته أمك ، ثم نشأت فى كنفه وربيت فى بيته ، وكنت أسبق فتى إلى الاسلام .

وتشجع « على » وأخذ طريقه إلى ابن عمه ، حتى إذا جاءه حيَّاه بتحية الإسلام ، ثم جلس قريبا منه على استحياء ، لا يذكر حاجته ...

وأدرك ﷺ أن أخاه وابن عمه وصاحبه ، جاء لأمر لا يقوى على الإفصاح عنه ، فأقبل عليه يسأله فى تلطف :

— ما حاجة ابن أبى طالب ؟

أجاب بصوت خفيض ، وهو يغض من بصره :

— ذكرتُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ...

قال صلى الله عليه وسلم ، وما يزال على بشْره وتلطفه : « مرحبًا وأهلا ! »[2] .

أو قال فى رواية : « هى لكَ يا علىّ »[3] .

ثم أمسك لا يزيد ...

وطال صمته ، فانصرف « على » حائرا قلقا ، لا يدرى بم يجيب أهله وأصدقاءه الذين كانوا فى انتظاره ، يترقبون عودته بكلمة أبى الزهراء .

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٩/٨ ، نسب قريش ٤٠ ، والاستيعاب ١٨٩١/٤ وهى إحدى الفواطم الاربع التى آثرهن الرسول ﷺ بهدية جاءته . مع (طبقات ابن سعد : ١٩/٨) .

(٢ - ٣) طبقات ابن سعد : ٢١/٨ ، ١٩/٨ .

فلما ألحوا عليه ، قال : « ما أدرى والله شيئا : تحدثت إلى رسول الله ﷺ بالأمر ، فما زاد على قوله : « مرحبا وأهلا ! » .

هتفوا جميعا : « يكفيك من رسول الله إحداهما ! » .

ثم تركوه مستجد الأمل ، حيّ الرجاء . . .

* * *

وأقبل فى اليوم التالى فوقف غيرَ بعيد من المصطفى ، وقال بحيث يسمعه عليه الصلاة والسلام :

« أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته ، فقلت : والله ما لى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه » .

التفت اليه أبو الزهراء وسأله مترفقا :

ــ وهل عندك شىء ؟

أجاب على : « لا ، يا رسول الله ... »

لكن المصطفى ذكر أن « عليا » أصاب درعا من مغانم بدر ، فعاد يسأله : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ »

أجاب وقد غلبه التأثر لما يلقى من بر النبى ﷺ ورعايته :

ــ هى عندى يا رسول الله ...

قال عليه الصلاة والسلام : « فأعطها إياها ... »[1]

فانطلق« على » مسرعا ، وجاء بالدرع ، فأمره ﷺ أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها[2] ...

---

(١) طبقات ابن سعد : ٢٠/٨ من طريق ابن عيينة ، وغيره .

(٢) صحيح البخارى : كتاب البيوع . ومسند أحمد ١٤٢/١ .

وتقدم « عثمان بن عفان » فاشترى الدرع بأربعمائة وسبعين درهما ، حملها « على » ووضعها أمام المصطفى ، فتناولها بيده الكريمة ثم دفعها إلى « بلال » ليشترى ببعضها طيبا وعطرا ، ثم يدفع الباقى إلى « أم سلمة » لتشترى جهاز العروس[1] ...

ودعا المصطفى صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من على بن أبى طالب ، على أربعمائة مثقال من فضة ، على السُّنة القائمة والفريضة الواجبة ، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين الهاشميين ، والدعاء لهما بالذرية الصالحة . ثم قدم إلى الضيوف وعاء فيه تمر[2] .

* * *

على هذا النحو من التواضع ، تمت خطبة الزهراء بنت النبى لابن عمه على ، « وعُقِدتْ أخطرُ مصاهرة عرفها الإسلام فى تاريخه الحافل الطويل .. »

تمَّ عقد النكاح فى شهر رجب من مقدمهم إلى المدينة المنورة ، فلما أهلَّ فى السنة الثانية مرجعهم من بدر ، كان « على » قد وفق إلى استئجار منزل خاص يستقبل فيه عروسه الزهراء بعد تجهيزها « وما كان حشو فراشهما ووسائدهما إلا الليف ، ولقد أولم علىّ على فاطمة ، فما كانت وليمة فى ذلك الزمان أفضل من وليمة علىّ : رهن درعه عند يهودى بشطر من شعير[3] » .

واحتفل بنو عبد المطلب بهذا الزواج كما لم يحتفلوا بزواج مثله من قبل ، وجاء حمزة ــ عم محمد ، وعلى ــ بشارفين فنحرهما وأطعم الناس . (الإصابة ، من الصحيحين) ..

فلما تم الحفل انصرف القوم مهنئين ، ودعا المصطفى « أم سلمة » فطلب اليها أن تمضى بالعروس إلى بيت على ، ولينتظراه هناك ..

---

(١) مسند أحمد : ٩٣/١ ، ١٠٤ ، ١٠٨ وسنن النسائى : كتاب النكاح باب ٨١ .
(٢) الإصابة : ١٥٨/٨ .
(٣) من حديث أسماء بنت عميس رضى الله عنها ، فى الطبقات الكبرى ٢٣/٨ .

وأذن « بلال » لصلاة العشاء فصلى النبى بالمسلمين فى المسجد ، ثم مشى إلى دار على ، حيث دعا بماء فقرأ عليه بعض آى الذكر الحكيم ثم أمر العروسين أن يشربا منه ، وتوضأ بالباقى ونثره على رأسيهما[1] ، وهمَّ بعد ذلك بالانصراف وهو يقول :

« اللهم بارك فيهما ، وبارك عليهما ، وبارك لهما فى نسلهما » وفى رواية أنه صلى الله عليه وسلم قال لابنته : « يا فاطمة ، أما إنى ما آليت أن أنكحتك خير أهلى »[2] .

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الأمر بأنه إنما تركها وديعة عند أقوى الناس إيمانا وأكثرهم علما وأفضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا ..[3] .

ثم انصرف وطيف من « خديجة » يطيف بالعروس فى ليلتها الأولى ، ويحوم حولها ، ويسرى عنها بعض ما تجد من وحشة لفراق الأب ، وشجن لغياب الأم ...

واستجاب الله لدعاء نبيه فى تلك المناسبة السعيدة ، فكانت الزوجية المباركة التى شاء سبحانه أن تنحصر فى ثمرها ذرية نبيه المصطفى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

* * *

كانت سن « الزهراء » عندما تزوجته ثمانية عشر عاما[4] ، ولكن الهوى جمح بالمستشرق « لامانس » فخيل إليه أنها كانت أسنَّ من ذلك بكثير ، « وإنما

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٥/٨ والاستيعاب والإصابة .
(٢) ابن سعد : ٢٤/٨ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١٦/٣ والاستيعاب والإصابة .
(٤) انظر المحبر ، لابن حبيب : ٥٣) .

عمد بعض كتّاب السيرة إلى تأخير ميلادها ، كيلا يقال إنها ظلت مزهودا فيها مرغوبا عنها إلى أن فاتت سن الشباب » ..

ولعلنا لو سألناه : فلم لم يفعل كتّاب السيرة مثل هذا مع خديجة وعائشة ؟ .. لِم لَم يجعلوا الأولى أصغر سنا ويضيفوا إلى الأخرى عشر سنين أو عشرين ، ليلائموا بينهما وبين زوجهما النبى فى السن ؟ .. أقول : لعلنا لو سألنا « لامانس » مثل هذا السؤال لما حار جوابا ...

و « لامانس » — فيما أرجح — قد اعتمد فى ذلك على خلاف يسير الشأن فى تاريخ مولد الزهراء ، فاستغله إلى أبعد حد فى إرضاء هواه ، وبدلا من أن يزن الروايات المختلفة ويعرضها على مقاييس النقد ، يضع أصبعه على قول نقله « المسعودى » بولادة الزهراء قبل الهجرة بثمانية أعوام فحسب ، وآخر ذكره « اليعقوبى » بأنها ولدت بعد نزول الوحى . يضع « لامانس » إصبعه على هذا القول أو ذاك ، فيجزم بتأخير تاريخ ميلادها ، متجاهلا أقوال الجمهرة من الثقات الذين عليهم المعتمد فى هذا الشأن ، كابن إسحاق ، وابن سعد ، والطبرى ، وابن عبد البر ، وهم يكادون يجمعون على أن مولدها قد كان قبل البعثة بخمس سنين .

* * *

والخلاف — كما قلنا آنفا — يسير الشأن ، لأننا تعودنا أن نلقى مثله وأكثر حيث لا تكاد تخلو ترجمة شخص من بعض خلاف ، وبخاصة فى سنة مولده ، إذ المألوف ألا تتجه العناية إلى ترجمة شخص الا بعد أن ينمو وتظهر شخصيته ويبدو أنه جدير بالعناية ، وكان للمستشرق أن يأخذ من هذه الظاهرة العامة ما شاء ، لا أن يتمسك بجزئية بعينها ، ثم يخصها بالتجريح والطعن وسيِّىء التأويل ..

وما أظن « لامانس » بالذى يغيب عنه الموقف المنهجى حين يختلف الرواة ، لكنه تجاهل عامدا « ابن اسحاق » إمام كُتاب السيرة ومن أقربهم عهدا بزمن المبعث ، وهو لم يذكر فى مولد « فاطمة » غير قول واحد اقتصر

عليه : السنة الخامسة قبل البعثة ، ثم أيده بحكم عام هو أن بنات محمد ﷺ ولدن جميعا قبل أن يبعث ﷺ ، وهذا القول أغفله « لامانس » كما أغفل معه أقوال الأئمة من حفاظ الحديث والثقات من المؤرخين والعلماء بالصحابة ، ليتمسك برواية المسعودى ، حتى إذا استغلها ما شاء له التعصب فى الزعم بأن كتّاب السيرة أخروا مولد فاطمة لكى ينفوا عنها تهمة البوار ، عاد فنقضها برواية « اليعقوبى » التى تقول بولادة الزهراء بعد المبعث ! ...

* * *

إلى ذلك الحد ، بلغ بمتعصبى المستشرقين التواء الأسلوب وانحراف المنهج واغتصاب الدليل ، وكانوا فى غنى عن هذا كله ، ليصلوا إلى ما شاءوا تقريره من تأخر زواج فاطمة . . . فسن الثامنة عشرة متأخرة إذا قيست بسن أخواتها الثلاث حين تزوجن ، وهى أبعد تأخرا إذا قيست بسن أم المؤمنين « عائشة » بنت أبى بكر ، لكن معاذ الحق أن يكون هذا التأخر عن زهد فيها ورغبة عنها ، فهى بنت الأمين الطاهرة ، وهى أخت زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، اللواتى تنافس شبان قريش على الزواج منهن ولما يزلن فى مستهل الصبا ، وكانت بعد هذا كله ، أقرب الناس شبها بأبيها فى الخلقة والسَّمْت ، وهو من هو بهاء طلعة وجمال صورة ، وإنما عرف القوم زهد الزهراء فى الزواج ، وتشبثها بمكانها إلى جانب أبيها ﷺ ، وقدروا موضعها من البيت المحمدى وحاجته إليها بعد وفاة أمها رضى الله عنهما .

ثم ، لم لا نقول — إذا لم يكف كل ما قدمنا — إن تأخر زواجها كان عن تهيب لها ؟ .. لقد بعث أبوها ﷺ ، وهى وحدها التى لم تتزوج ، إذ كان عمرها خمس سنوات ، والناس بعد المبعث أحد رجلين : إما كافر بنبوة محمد وهيهات أن يفكر فى مصاهرته — وقد علمنا ما كان من سعى قريش إلى أصهار محمد فى رد بناته الثلاث إليه كى يشغلوه بهن — وإما مسلم يؤمن بنبوة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد عرفنا موقف المسلمين من نبيهم

وإلى أى مدى كانوا يجلونه ويعظمونه ويفتدونه بالمهج والأرواح ، فغير مستغرب ألا يروا أنفسهم كفئا لمصاهرته ، وأن يغضوا الطرف عن « أم أبيها ، الزهراء » إجلالا وتهيبا .

ولا يرد على هذا بأن « عثمان » رأى فى نفسه كفئا لرقية ، فهو على موضعه فى قريش بعامة ، ثراء وشرفا وجاها ، إنما طمع فى الزواج من بنت النبى ﷺ ، بعد أن طلقها ابن أبى لهب كيدا وحقدا ، وليس الأمر كذلك مع الزهراء ...

ونحن ــ حتى يومنا هذا ــ نرى بنات الأسر الكريمة يتأخر زواجهن فى انتظار الأكفاء وهم عادة القلة ، إذ القاعدة المطردة أنه كلما تميزت الفتاة لعلمها أو ثرائها أو عزتها ، قلَّ أكفاؤها ...

ولم يكن « على » مع ذاك أول من طمع فى الزواج من « فاطمة » بعد تهيب وتردد ، فقد تسامى إلى ذلك الشرف قبله ، صاحبا الرسول أبو بكر وعمر ، على ما روى « البلاذرى » فى « أنساب الأشراف » ، وابن سعد فى طبقاته(١) ، والنسائى فى سننه(١) ، فردهما أبوها صلى الله عليه وسلم ردا كريما ...

ويأبى « لامانس » بعد ذلك كله إلا أن يعلل الزهد المزعوم فى « الزهراء » بأنها كانت محرومة من الجمال والذكاء والمرح (!!)

* * *

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب إلى أن توصف بالخشونة والتقشف ، وهى فى ذلك تختلف عن حياة أخواتها اللواتى أتيح لهن حظ غير قليل من الثراء المادى ، فقد تزوجت « زينب » من أبى العاص وهو معدود من أثرياء مكة ، وتزوجت رقية وأم كلثوم أولا من

---

(١) جـ ٨ ص ١١ .
(٢) كتاب النكاح ، الباب السابع .

ابنى « عبد العزى بن عبد المطلب » ذى المال الوافر ، ثم تزوجتا واحدة بعد الأخرى من « عثمان بن عفان » وأما « على بن أبى طالب » فلم يك ذا حظ من مال مكتسب أو موروث ، إذ كان أبوه على عظم مكانته وعلو شرفه ، قليل المال كثير العيال ، مما دفع ابن أخيه محمدا إلى أن يقترح على عمه « العباس » التخفيف من أعباء أبى طالب ، بأن يأخذ كل منهما أحد بنيه فيكفله عنه . وكان من نصيب « على » أن يختاره « محمد » دون بقية أبناء العم ..

وبُعث « محمد » ﷺ رسولا ، فكان « على » أول من آمن به صبيا ، إذ كان عمره عشر سنوات على ما نقل ابن اسحق[1] وهكذا اشترك « على » فى الجهاد بمجرد أن شب عن الطوق ، وشُغل بالجهاد عن جمع المال ، وصرفته صحبة النبى ﷺ وهو يواجه طواغيت المشركين ، عما كان يرجى أن يشتغل به من التجارة التى هى حرفة الرجال من قريش ، وصنعة الأشراف فى مكة ، وسبيل الثراء بالوادى الأجرد غير ذى الزرع ، فلا عجب أن رأيناه يطلب يد « الزهراء » وليس فى يده ما يمهرها به سوى درع أفاءها الله عليه من مغانم « بدر » التى أبلى فيها « على » خير البلاء[2] .

ولم يغب شيء من ذاك عن فاطمة حين عرض عليها أبوها ﷺ طلب « على » يدها ، ولو صح ما رواه « البلاذرى » أن الزهراء ذكرت فقر خطيبها ، فرد أبوها المصطفى يزكيه :

« إنه سيد فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، وانه أكثر الصحابة علما وأفضلهم حلما وأولهم إسلاما » ...[3]

أقول لو صحت هذه الرواية ، لكانت مما يقال عادة فى مثل هذا الموقف ،

---

(١) السيرة : ٦٢/١ .

(٢) السيرة ٣٧٢/٢ .

(٣) انظر معه فى ترجمتها بالاستيعاب ، ما رواه ابن السراج بسنده الى عمران بن حصين (١٨٩٥/٤) .

لكن « لامانس » لم يدعها تمر دون أن يغمز ويلمز ، ليغض من شأن الامام علىّ كرم الله وجهه ، حتى إذا أحس أن الفقر لا يمكن أن يعاب به الإمام ، وقد نشأ النبى ﷺ يتيما فقيرا — راح يتخبط ليلتمس مغمزا آخر ، وأخذ يبدى ويعيد عن ضآلة حظ « على » من جمال الصورة وحسن الشكل ! ... ولو راجع نفسه فسألها : كيف يستقيم مزعمه فى أن شخصية فاطمة رُسِمَتْ بأخرة ، وأضيفت إليها ألوان زاهية من صنع التشيع ، مع هذا الذى ينقله من روايات عن الإمام على ؟ .. أقول : لو راجع نفسه ، لاستوقفه هنا أن مؤرخى الاسلام لم يضيفوا إلى إمام الشيعة من الثراء والجمال ما يرفع قدره عند أمثال « لامانس » ، بل إنهم — بشهادته — قد ذكروا أنه كرّم الله وجهه « كان فقيرا معدما قصيرا أفطس الأنف دقيق الذراعين » دون أن يجدوا فى ذلك ما يغض من شأنه ، أو ينقص مقداره حين يوزن بموازين الرجال ويقدر بمقاييس الأبطال ! ..[1]

* * *

ونرجع الى حيث تركنا « الزهراء » تستقبل فى عامها الثامن عشر حياتها الجديدة ، فلا نرى أحدا من رواة المسلمين حاول أن ينفى عنها ما كانت تجده من شظف العيش ، أو يجىء فى جهازها بفراش وثير وأثاث جميل ، بل نقرأ أنها دخلت بيت زوجها بخميلة ، ووسادة أدم حشوها ليف ، ورحاءين وسقاءين ، وجرّتين ، وشىء من العطر والطيب ...[2]

وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادما تعينها أو تقوم عنها بالعمل الشاق ، فكان عليها — رضى الله عنها — أن تنفرد بهذا العبء الثقيل[3] ، لكن « عليا » لم يكن يهون عليه أن يراها هكذا كادحة

---

(١) انظر مناقب الإمام على رضى الله عنه فى صحيح البخارى : كتاب المناقب . وباب فضائله من كتاب الفضائل فى صحيح مسلم . و (مجمع الزوائد للهيثمى ، المجلد التاسع) .

(٢) صحيح البخارى ٦/٦٩ ، ٧ وصحيح مسلم ك ٨٠/٤٨ ، والإصابة ١٦٠/٨ .

(٣) طبقات ابن سعد ١٥٩/٨ ، والإصابة ٢٥/٨ من طريقه .

مجهدة ، فحاول أن يساعدها فى بعض أعمال البيت ما مكنته ظروفه من ذلك ، إذ كان يخشى أن يستنفد العبء ما بقى لها من قوة جسدية ، بعد الذى كابدته ــ منذ عامها الخامس ــ من محنة الحصار ومشقة الهجرة ومتاعب الجهاد ...

حتى ناء كلاهما بما يحمل ، فانتظر كرم الله وجهه فرصة مواتية ، وقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباها صلى الله عليه وسلم عاد من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا :

ــ لقد شقوتِ يا فاطمة حتى أسليت صدرى ، وقد جاء الله بسبى ، فاذهبى فالتمسى واحدة تخدمك ...

أجابته وهى تنحى الرحى جانبا فى تعب وكلال : أفعل إن شاء الله ...

ثم لبثت ساعة حيث هى فى ساحة الدار ريثما استردت بعض قواها الذاهبة وقامت فتلفعت بخمارها تسعى إلى بيت أبيها بخطوات بطيئة وانية ، فلما رآها ﷺ هش لها وسأل :

ــ ما بِك يا بنية ؟

قالت : « جئت لأسلم عليك ! » ...

ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله ...

ثم عادت من حيث أتت ، لتنبىء زوجها أنها تحرجت من أن تطلب من أبيها شيئا ، فقام كرم الله وجهه وصحبها إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وتولى عنهاالسؤال وهى مطرقة من استحياء ...

قال ، عليه الصلاة والسلام :

« لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع ، وأنفق عليهم بالثمن . » . .

فانصرفا شاكرين ، وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الرحيم ، وشغلته نهاره كله ! ...

وجن الليل وكان البرد قاسيا ثقيل الوطأة ، فرقدا على فراشهما الخشن يحاولان النوم فلا يجدان إليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، فإذا بالباب يفتح « ويقبل عليهما المصطفى وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين ، إذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما ، وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رأساهما » . فهبَّا للقاء الضيف الكريم ، لكنه ﷺ ابتدرهما قائلا : « مكانكما » .

ثم أضاف فى رفق وهو يقدر حالهما : « ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟ » .

أجابا معا : « بلى يارسول الله ... »

قال : « كلمات علمنيهن جبريل : تسبحان دبرَ كلِّ صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا ، وإذا أويتما إلى فراشكما ، تسبحان ثلاثة وثلاثين ، وتحمدان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين » . . .[1]

ثم ودعهما ومضى ، بعد أن زودهما بهذا المدد الإلهى ، ولقنهما هذه الرياضة تغلب المصاعب وتخفف المتاعب ...

ولقد سُمِعَ « الإمام على » بعد أكثر من ثلث قرن يذكر كلمات النبى ﷺ ويقول : « فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ! »[1] .

سأله رجل من العراقيين : « ولا ليلة صفين ؟ »

فردّ مؤكدًا : « ولا ليلة صفين ! »[2]

* * *

وتأبى سنة الله التى فطر الناس عليها ، ألا تؤثر هذه الحياة الشاقة الكادحة على صحة « الزهراء » ومزاجها ، وقد كان وجودها رضى الله عنها فى صميم

---

(١) متفق عليه من حديث الإمام على كرم الله وجهه . والنقل من (اللؤلؤ : ك الذكر والدعاء ، ١٧٣٩) وقوبل على رواية ابن سعد فى الطبقات (٢٥/٨) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ٢٠٩١/٤ ، ورواه ابن سعد ، فى طبقاته (١٩٥/٨) بلفظ مقارب والإصابة ١٥٩/٨ من طريقه .

المعركة منذ طفولتها ، يميل بها عن المرح والابتهاج ، ثم أحزنها موت أمها أشد الحزن ، وزادها وحشة وشجنا . وكانت إلى جانب ذلك كله مشغولة البال بأبيها ﷺ ، تفكر فيه على البعد والقرب ، وتتبعه قلبها فى غزواته ومشاهده . وقد تأذن لها الظروف بمصاحبته الى ميدان القتال ، كما حدث فى موقعة « أحد » إذ رُئِيَتْ هنالك تضمد الجراح وتأسو الكلوم وتسقى المحتضرين من الشهداء ..

وليست هذه الظروف مجتمعة ، مما يعين على بهجة وانشراح ، ولعل الزهراء حاولت أن تتأسى بغيرها من نساء البيت النبوى ، وهى ترى مثلا ، أم المؤمنين عائشة ، تضفى على بيت زوجها إشراقا وتبث فيه حيوية وأنسا ، وتلقى البطل إذ يعود إلى سكنه ، بابتسامتها الوضاءة ودعابتها الذكية ومرحها الحلو ...

وربما حاولت الزهراء كذلك ، أن تنحى عن بيتها الخاص ظلال الكآبة التى كانت تغشاه لفرط نزوعها إلى ذكرى أمها ، ومزيد قلقها على أبيها وزوجها ، وعمق تأثرها بما لقيت ولقى أهلها والمسلمون من محن وبلاء ، لكنها أعوزها — لكى تنجح فى محاولتها هذه — أن تجد إلى جانبها زوجا لطيفا وديعا هينا لينا ، و « على » كرم الله وجهه لم يكن من هذا الصنف من الأزواج ، بل كانت فيه شدة أقرب إلى أن تكون صرامة ، وخشونة توشك أن تشتبه بالغلظة ، وحزما يكاد يكون صلابة ، ولئن كانت رضى الله عنها فى حاجة إلى يد حانية رقيقة ، تأسو جرحها وتنسيها ما لقيت فى مستهل صباها من متاعب وصدمات ، وتلطف أشجانها لفراق بيتها الأول الحبيب ، لقد كان « على » كرم الله وجهه لا يقل عنها حاجة إلى هذه اليد اللطيفة الرحيمة التى تنفض عنه غبار المعارك التى خاضها منذ كان صبيا ...

فليس يروعنا إذن ، ما تحدث به الرواة من خلاف كان يقع أحيانا بين الزوجين ، وقد يبلغ أحيانا سمع الأب المصطفى ﷺ فيهتم ويحاول جهده أن يروضهما على مزيد من الاحتمال ..

حدثوا أنه ﷺ ، رئى ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته فاطمة ، لا يخفى ما يظهر عليه من الهم والقلق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة : يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر فى وجهك !

فأجاب عليه الصلاة والسلام :

« وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين إلىَّ ؟ »[1]

وحدث مرة أن ضاقت « الزهراء » بما تجد من شدة زوجها وصلابته ، فقالت له :

« والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ » ...

وخرجت ، و « على » فى أثرها ، حتى جاءت أباها فشكت إليه ما أنكرت من زوجها ، فتلطف الأب النبيل فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله ...

قال « على » كرم الله وجهه وهو يصحب زوجته إلى بيتها :

ــ والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا ![2]

* * *

لكنه كاد أن يأتى ــ غير متعمد ــ شيئا تكرهه فاطمة أشد الكره ، وتألم منه أقسى الألم ...

وأى شيء أبغض إلى الزهراء ، من أن يأتيها زوجها وابن عمها بضرة ! ؟

لقد همَّ « على » بالزواج على الزهراء ، وفى حسابه أنه لا حرج عليه من حلال مباح شرعا ، وأنه يجوز على بنات النبى ﷺ ما يجوز على سائر المسلمات فيما أحله الشرع للمسلمين من تعدد الأزواج . ولعله توقع أن

(١-٢) طبقات ابن سعد : ٢٦/٨ ، والإصابة (١٦٠/٨) من طريقه .

لا يُلام على ابتلاء الزهراء بضرة لها ، فلها أسوة بعائشة بنت الصديق ، وحفصة بنت عمر ، وأم سلمة بنت زاد الركب . . . ولقد قال النبى عليه الصلاة والسلام ، فى المرأة المخزومية التى سرقت واستشفع له قومها بحِبِّه أسامة بن زيد بن حارثة :

« أتشفع فى حدٍّ من حدود الله ؟ ! » ثم خطب الناس فقال : « إنما أهْلَكَ الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وايمُ الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعتُ يدها »(١)

* * *

لكن الأمر جرى على غير ما توقع « علىّ » كرم الله وجهه .

لم يكد يبدى رغبته فى خطبة بنت عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى ، على السيدة فاطمة الزهراء ، حتى غضبت رضى الله عنها وغضب لها أبوها ، عليه الصلاة والسلام . وكان الموقف بالغ الدقة والحرج :

فالنبى عليه الصلاة والسلام يعلم حق « على » فى الزواج ولو على فاطمة بنت محمد ...

ومحمد ، فى أبوته الرحيمة وبشريته السوية ، يؤذيه أن تروِّع أحبُ بناته بضرة ، ويشفق عليها من تجربة قاسية ، يعلم أنها لا قبل لها باحتمالها .

ألا ليت « عليا » قد صبر على واحدة ، أسوة بابن عمه حين اكتفى بخديجة زوجاً ، مدى ربع قرن من الزمان ! .. إذن لأعفى الأب النبى من الموقف الصعب ..

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء ، ومسلم فى كتاب الحدود ، والنقل من (اللؤلؤ والمرجان ٢١٤/٢ : ح ١١٠٠) .

وإنى لأتمثله ﷺ ، يرنو إلى بنته الغالية وهى تترقب البلاء فى خوف وقهر ، فتكاد لفرط أساها وقلقها ، تذوب من ضعف وكمد ، ويود بكل ما استطاع أن يدفع عنها ما تكره ، وأن يحميها من الخوف الذى يقرح أجفانها ويروع أمنها ، ويؤرق لياليها ، لكن هل يحرم النّبى ما أحلَّ الله ؟ ..

كلا ! لكن للقضية وجها آخر : إن عليا ذكر بنت « عمرو بن هشام المخزومى » ، فهل يرضى الله أن يجمع بيت « على » بين بنت رسول الله ، وبنت عدو الله ؟

أبوها « عمرو أبو الحكم بن هشام » هو « أبو جهل » الذى لم ينس النبى والذين آمنوا معه ، ما لقوا من شدة وطأته وفحش عداوته للإسلام .

هو عدو الله الذى قال لقريش : « يا معشر قريش ، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون من عيب آلهتنا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسنَّ له غدًا بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد فضختُ به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى ، فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم »[1] ...

وهو القائل مستهزئا بالنبى عليه الصلاة والسلام :

« يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم فى النار ويحبسونكم فيها ، تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عددا ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ؟ » فنزلت فيه :

﴿ وما جعلنا أصحابَ النارِ إلا ملائكةً وما جعلنا عِدَّتَهم إلاَّ فتنةً لِلذينَ كفروا ﴾ الآية ٣١ / المدثر[1] ...

ثم هو القائل للأخنس بن شريق ، حين سأله رأيه فيما سمعه من القرآن : « ماذا سمعت ؟ .. تنازعنا وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ،

---

(١) السيرة : ٣١٩/١ .
(٢) والسيرة : ٣٣٣/١ ، ٣٣٥ .

وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ! .. فمتى ندرك هذه ؟ .. والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه .. »

وهو هو الذى كان إذا سمع برجل أسلم ، من ذوى الشرف والمنعة ، أنَّبه وأخزاه ، وقال : « تركت دين أبيك وهو خير منك ؟ .. لنسفهن حلمك ، ولنقبحن رأيك ، ولنضعن شرفك » . وإن كان الذى أسلم تاجرا ، قال : « والله لنكسدن تجارتك ، ولنهلكن مالك » . وان كان ضعيفا ضربه وأغرى به ...

وهو هو ، الذى لقى « حكيم بن حزام بن خويلد » يحمل طعاما يريد به عمته خديجة رضى الله عنها ، فى محنة الحصار ، فتعلق به اللعين وقال : « أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ .. والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » وأبى أن يطلقه حتى اشتبكا ونال أحدهما من صاحبه ...

وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم * كالمُهْلِ يغلى فِى البطون * كغَلْيِ الحميم !** »[1] ...

وهو هو الذى اعترض وفدا من نصارى نجران جاءوا مكة يستطلعون لقومهم أمر محمد حين بلغهم خبره ، فما جلسوا اليه واستمعوا له حتى آمنوا به ، فلقيهم أبو جهل إثر انصرافهم فقال لهم : « خيَّبكم الله من ركب ! .. بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه ؟ ! .. ما نعلم ركبا أحمق منكم ! »[2] ...

وهو هو الذى رأى لقريش قبيل الهجرة ، أن تختار كل قبيلة منها فتى شابا

(١،٢) السيرة : ٢/٢٢ ، ١٢٦ ، ١٣٢ .

جليدا نسيبا ، ثم يُعطى سيفا صارما ، فيعمدوا جميعا إلى محمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فيتفرق دمه فى القبائل جميعا[1] ...

فلما هاجر ﷺ ، غدا القوم وفيهم أبو جهل ، فوقفوا بباب أبى بكر ، فخرجت إليهم بنته أسماء فقالوا لها :

ــ أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟ ..

أجابت : « لا أدرى والله أين أبى .. »

فرفع « أبو جهل » يده ــ وكان فاحشا خبيثا ــ ولطم خدها لطمة طرحت قرطها ...

وحين تهيأ الفريقان للقتال فى بدر ، بعث جيش قريش من يأتيها بنبأ العدو ، فرجع إليها محذرا ، ومشى حكيم بن حزام بن خويلد إلى عتبة بن ربيعة يرجوه أن يرجع بالناس ، فكاد عتبة يستجيب له ، وسأل « حكيما » أن يذهب إلى أبى الحكم ، فما يخشى « عتبة » المخالفة من سواه ، فلما سمع أبو جهل بهذا ، أبى إلا القتال ! ..

وكان أحد سبعةٍ ، سُمع النبى ﷺ ، يدعو عليهم يوم بدر .

وظل ــ عليه الصلاة والسلام ــ يقول لأصحابه : اطلبوه .

وقُتل كافرا ملعونا ، وجىء برأسه إلى « محمد » فحمد الله ! ..[1]

واستبقى عليه الصلاة والسلام ، جملَ أبى جهل ، حتى إذا توجه إلى مكة معتمرا بعد أربع سنوات ، ساق الجمل هديا ، ونحره عام الحديبية[2] ...

....

أتكون بنت هذا الرجل ، ضرة لفاطمة بنت النبى ؟ ..

يأبى الله ورسوله ذلك .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/١٥ ، ١٧ .

(٢) السيرة الهشامية : ٣ / ٣٣٤ ، الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢/٦٩ .

خرج ﷺ إلى المسجد مغضبا حتى بلغ المنبر فخطب الناس فقال :

« إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى أن ينكحوا ابنتهم علىَّ بن أبى طالب ، فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فان ابنتى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها ، وإنى أتخوف أن تفتن فى دينها » ...

ثم ذكر ﷺ صهره أبا العاص — وهو من بنى عبد شمس ، لا من بنى عبد المطلب كعلي — فأثنى عليه فى مصاهرته إياه أحسن الثناء وقال :

« حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فأوفى لى ، وإنى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدًا »[1] .

ولقد ورد هذا الحديث فى الكتب الستة الأمهات ومسند أحمد بن حنبل ، ولكن أحدا من الرواة لم يذكر لنا وقعه على المسلمين وصداه فى المدينة .

فهل يعيينا أن نتصور مدينة الرسول وقد باتت ليلتها ساهرة ، تؤمِّن على قول النبى ﷺ ، وترى فيه آية ناطقة بأبوته الرحيمة التى كانت مضرب الأمثال ، ودليلا جديدا من أدلة حبه لبناته ، هذا الحب الذى شاءَ الله أن يملأ به قلب النبى المختار ، فى بيئة وأدت بناتها ؟! ..

أو هل يقصر خيالنا عن متابعة « على » وهو ينصرف من المسجد إثر سماعه خطبة صهره النبى عليه الصلاة والسلام ، ويأخذ طريقه إلى بيته بطىء الخطو ، مثقل القلب يفكر فيما كان !؟ ..

أتراه حقا قد أراد الزواج على فاطمة ، من بنت عدو الإسلام ؟ ..

كيف هان عليه — مع جهاده الطويل الباسل المشهود فى سبيل الدعوة

---

(١) متفق عليه من حديث الزهرى عن المسور بن مخرمة ، مرفوعا (والنقل من اللؤلؤ والمرجان : فضائلها رضى الله عنها . ح ١٥٩١) وسنن أبى داود « كتاب ١٢ » وسنن الترمذى « كتاب ٤٦ » وسنن ابن ماجه : ٥٦/٩ ومسند أحمد : ٣٢٦/٤ ، ٣٢٨ .

المحمدية ــ .. أن يُروِّع أمن الحبيبة بنت الحبيب ، ويكسر قلبها بزواج مثل هذا مِظنّة أن يؤوَّل بالرغبة عنها إلى سواها ؟ ..

لقد كان لزواج المصطفى ﷺ من كل واحدة من نسائه مبرراته الخاصة ، وظروفه الملجئة ، وإلا فما باله ﷺ ، قد اكتفى بخديجة خمسا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها حتى ماتت وهو فى الخمسين من عمره ، وحين كانت الأحداث الكبار تشغل باله ، والجهاد فى سبيل الدين الجديد يملأ وقته ؟ ..

ألا فلتكن بنت أبى جهل من حظ غيره ، وأما هو ، فليس بالذى يحبط جهاده المشهود ، فيستبدل بالنبى ﷺ ، أبا جهل بن هشام صهرا ! .. وليس هو بالذى يؤذى نبيه وأباه وابن عمه ، فى أحب بناته إليه ، ولن يكون أبو العاص بن الربيع ، قبل إسلامه ، أبر منه ببنت محمد ، ابن عمه عبدالله بن عبد المطلب ، ولا أرعى فى مصاهرته للنبى ذماما ! ..

* * *

وينتهى به المسرى إلى البيت ، حيث يجد « الزهراء » فى وحدتها تجتر أحزانها وتسامر همومها ، فيدنو منها حتى يأخذ مكانه إلى جانبها صامتا لا يدرى ماذا يقول ...

وإذ رآها تبكى ، همس معتذرا :

ــ هبينى أخطأتُ فى حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة....

ومضت قطعة من الليل قبل أن تجيب : « غفر الله لك يا ابن العم » .

فأقبل عليها مترفقا ، ثم راح يروى لها ما كان من حديث المسجد ، ويصف لها شعوره حين سمع ابن عمه يتحدث عن ضيقه بالأذى يلحق ابنته فاطمة ، وإنكاره أن يتزوج « على » من بنت أبى جهل مع الزهراء ، وقسَمِه صلى الله عليه وسلم ، ألا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدا ! . .

واغرورقت مقلتا « فاطمة » بالدموع تأثرا بحب أبيها ، وانفعالا بموقفه ، ثم قامت للصلاة ! ..

* * *

وبقى سؤال ذو بال :

متى همَّ « على » بالزواج على الزهراء أم أبيها ؟

صمت المؤرخون ورجال الحديث فلم يشيروا إلى موعد الخطبة ، على ما لذلك من أهمية وخطر ، لكننا نطمئن إلى أنها كانت فى الفترة الأولى من زواجهما ، وهو اطمئنان لا يسنده دليل نقلى ، وإنما يوجه إليه فهمنا لطبيعة الموقف ، وتقديرنا أنه أقرب احتمالا ، قبل أن يرزقا الولد ، حين كانت فاطمة وعلىّ فى مستهل حياتهما الزوجية ، لم تألف بعد شدته وصرامته ، ولم يُرُضْ هو نفسه على احتمال ما كانت لا تزال تجد من حزن لفقد أمها ، وشجو لفراق بيتها الأول ! ...

وبهذا الاطمئنان ، نميل إلى توقيت الحادثة على وجه التقريب ـــ والله أعلم ـــ بالعام الثانى من الهجرة ، قبل أن يأتيهما العام الثالث بأولى الثمرات المباركة للزواج ...

* * *

انقشعت السحابة التى ظللت أفق « الزهراء » حينا لا نحدد مداه ، وعاد البيت أصفى جوا مما كان قبل أن يمتحن بتلك التجربة القاسية ، ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة : فاطمة فى الدار تقوم على خدمة زوجها ما وسعها الجهد ، وتتخلص شيئا فشيئا مما كان يعتادها من شجن وانقباض ، وعلىٌّ إلى جانبها يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح فى جو « المدينة » الذى لم تسعفها صحتها على أن تألفه بسرعة كما ألفه كثير من المهاجرين ، ويحاول قدر ما أطاق ، أن يترفق بها ويروض نفسه على شىء من اللين واليسر ..

ثم شاء الله أن يقر عين الزهراء وأعين آل البيت ، فوضعت بكرها « الحسَن بن على » فى السنة الثالثة من الهجرة[1] ، وسعى البشير إلى أبيها ﷺ بالنبأ السعيد ، فخف إليها مشوقا فرحا ، وحمل وليدها بين ذراعيه ، وتلا الأذان فى مسمعه ، ثم أقبل عليه يتأمله فى غبطة وحنان وهو يذكر ولديه اللذين استردهما الله صغيرين قبل سن الفطام ! ..

واحتفلت مدينة الرسول بمولد « الحسن » وتصدق جده ﷺ على الفقراء من أهلها بزنة شعره فضة . ثم راح يرقب تفتح الحياة فى هذه الفلذة الغالية منه ، فلما بلغ الوليد من العمر عاما وبعض عام ، حتى أردفته أمه الزهراء بشقيقة « الحسين » فى شهر شعبان سنة أربع من الهجرة[2] ...

وتفتح قلب النبى لهذين الحفيدين الغاليين يملآن حضن أم أبيها « الزهراء » ، ورأى فيهما امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض ، ومتنفسا لما يفيض به قلبه الكبير من عاطفة الأبوة التى يئست من الولد منذ ماتت خديجة رضى الله عنها ...

كان ﷺ ، وقتئذ — فى العام الرابع الهجرى — فى نحو السابعة والخمسين ، وقد مضى على وفاة خديجة ما يقرب من سبع سنين ، تزوج خلالها من خمس نساء : سودة بنت زمعة الكهلة الأرملة ، وعائشة بنت أبى بكر الصبية البِكر ، وحفصة بنت عمر الشابة الناضجة ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين ، وأم سلمة ، هند بنت أبى أمية المخزومى زاد الركب ، وقد دخل بها فى شوال من السنة الرابعة للهجرة ، وكان لها بنون وبنات من زوجها الأول ، « عبد الله بن عبد الأسد بن المغيرة ، ابن عمة المصطفى برة بنت عبد المطلب » . ومع ذلك ، لم يرزق النبى بولد من إحدى هاتيك الزوجات

(١ ، ٢) طبقات ابن سعد والاستيعاب والإصابة : ترجمتا الحسن والحسين ، رضى الله عنهما وانظرهما فى كتاب المناقب ، من صحيح البخارى ، والفضائل من صحيح مسلم .

الخمس ، وبدا أن قد انقطع خلف محمد بن عبد الله ، إلا أن يكون عن طريق ابنته « الزهراء » ..

فلا عجب أن أقبل ﷺ على سبطيه « الحسن والحسين » يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان ، ويفيض عليهما من عاطفة الأبوة ما شاء له الحرمان من الولد ، على كثرة من تزوج من النساء ..

كما لا عجب أن دعاهما ابنيه ، فعن أنس بن مالك أنه ﷺ « كان يقول لفاطمة رضى الله عنها : ادعِى لى ابنيَّ ... فإذا ما جاءا إليه شمَّهما وضمهما » ..

ونقل الترمذى فى (سننه) عن « أسامة بن زيد رضى الله عنهما » قال :

«طرقت باب النبى ﷺ فى بعض الحاجة ، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه يا رسول الله ؟ فكشفه ، فإذا الحسن والحسين ، وقال : هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم إنى أحبهما فأحبهما ، وأحب من يحبهما »[1] .

وكان اسماهما ـــ رضى الله عنهما ـــ نغمة حلوة فى فم أبى الزهراء ، يستعذبها ولا يمل من ترديدها ، وفيهما كان يجد أنسه ومَسْلَاته عمن فقد من الأبناء . .

* * *

لقد آثر الله الزهراء بالنعمة الكبرى ، فحصر فى ولدها ذرية نبيه المصطفى ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية منذ كانت ...

كما كرم الله وجه « على » فجعل فى صلبه نسل خاتم الأنبياء ، فكان له من هذا الشرف عز الأبد . . .

---

(١) وانظر مناقبهما فى (اللؤلؤ والمرجان ، ك الفضائل ، ح ١٥٦٨ ، ١٥٦٩) ..

وعليّ ، أقرب أصهاره إليه مكانا وأمسهم رحما . فى عروقه يجرى الدم الهاشمى النقى ، وعند عبدالمطلب يلتقى نسبه بنسب المصطفى ، فكلاهما له حفيد . . .

وقد كان لمحمد عند أبى طالب منزلة الابن : كفله منذ بلغ الثامنة من عمره ، حتى إذا شب واستقل بحياته بعد زواجه من السيدة خديجة ، ضم إليه عليا ابن العم أبى طالب ، وأنزله من بيته وفى قلبه منزلة الولد .

وكان « على » يعرف منزلته عند صهره النبى ويعتز بها إلى حد جعله يسأل المصطفى ذات مرة وقد غمره فيض عطفه :

ـــ أيهما أحب إلى رسول الله : ابنته الزهراء ، أم زوجها على ؟ ..

قال ﷺ متلطفا : « فاطمة أحب إلىَّ منك ، وأنت أعز علىَّ منها ! »

وليس بمستغرب بعد هذا ، أن يعى الزمن من آيات حب الرسول للزهراء وعلى وبنيهما ، ما نستطيع معه أن نتمثله ﷺ وهو يرنو إلى بيت صهره « على » كلما مر به ، وقلبه الكريم يخفق حبا وحنوا ، فإذا وجد من وقته سعة ، عرَّج على دار الأحبة ، فأسعد أهلها بعطفه ، وأسبغ على سِبطيه فيضا من حنانه !

وحدث فى إحدى المرات أن ألفى ابنته وزوجها قد غلبهما النعاس ، والحسن يبكى ويطلب طعاما ، فلم يهن على الأب الكريم أن يوقظ العزيزين النائمين ، بل أسرع إلى غنمة كانت تقف فى ساحة الدار ، فحلبها وسقى « الحسن » من لبنها حتى ارتوى ! ..

ومر بالبيت يوما وهو متعجل ، فبلغ مسمعه صوت بكاء الحسين ، فدخل يقول لابنته معاتبا : « أوَ ما علمتِ أن بكاءه يؤذينى ؟ .. »

ولا أصف هنا ما كان لهذا الحب الأبوى من أثر بعيد عميق فى إسعاد « فاطمة » التى أرهقها الحزن صغيرة ، وأنهكها العبء شابة ، كما لا أصف هنا مدى ما بعث فى حياتها الزوجية التى عرفنا خشونتها وقسوتها ماديا ، من بهجة وأنس وإشراق . فلقد أسعد « فاطمة » أن تكون أما لهذين الولدين الأثيرين عند أبيها ﷺ ، وأرضاها أن تستطيع بفضل الله ، أن تهيّئ لأبيها الحبيب ــ بعد أن انتقلت من بيته ــ هذه المتعة الطيبة التى يجدها فى سبطيه الغاليين ...

ولم يكن على ــ كرم الله وجهه ــ أقل منها سعادة وغبطة ، فلقد سره ، بل أعزّه ، أن تتصل به حياة ابن عمه النبى هذا الاتصال الوثيق ، فيمتزج دمه بدم النبى الزكى ، لتخرج من صلبه ذرية سيد العرب ، وبنو بنته الزهراء ، ويذهب دون الناس جميعا بمجد الأبوة لسلالة النبى ، وآل بيته الأكرمين ...

* * *

وتوالى الثمر المبارك : ولدت الزهراء طفلتها الأولى فى العام الخامس من الهجرة ، فسماها جدها « زينب » تحية لذكرى خالتها الراحلة التى لم ينسها أبوها ، ولا نسيتها أختها « فاطمة » قط ! ..

ثم وضعت الزهراء بعد عامين من مولد « زينب » طفلة ثانية اختار لها ﷺ اسم ابنته « أم كلثوم » ، كأنما كان يحس أنه ثاكلها بعد عامين اثنين ! ..

وبذلك قدر للزهراء أن تحيى بابنتيها ذكرى أختيها زينب وأم كلثوم بنتى النبى ، كما شاء لها الله أن يكون منها ولدا الرسول « الحسن والحسين » حين عَزَّ الولد ..

وحفظ الله تعالى لنبيه هذا القدر من نعمة الأبوة ، فلم يفجعه فى الزهراء ولا فى أحد بنيها حتى لحق ــ ﷺ ــ بالرفيق الأعلى ...

لقد مات ولداه « القاسم وعبد الله » صغيرين ، ثم رزقه الله على الكبر ولدَه الثالث « ابراهيم » فى ذى الحجة من السنة الثامنة بعد الهجرة ، فقرت به عيناه ﷺ ، لكن الفرحة لم تتم ، إذ ما لبث الهلال أن غرب ، وثكل النبى ﷺ ولده الثالث قبل أن يستكمل عامه الثانى ، وأبوه المصطفى قد جاوز الستين من عمره . . .

كذلك ماتت بناته الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وهن فى ربيع العمر ، وأرقدهن أبوهن الثاكل المحزون ، واحدة بعد الأخرى ، فى ثرى يثرب الذى ضم جثمان أبيه عبد الله حين كان محمد لا يزال جنينا فى رحم أمه « آمنة بنت وهب » ...

وعاشت له فاطمة ، كما عاش بنوها يملئون دنياه بهجة وأنسا وحيوية ، ويرضون فيه عاطفة الأبوة التى آدها ثكل البنين والبنات ، ولم يبق لها إلا هذه البنت الحبيبة ، تعوض أباها عمن فقد ، وتعزيه عمن غاب ...

عاشت « الزهراء » ليظل أبوها ما عاش يجد من يدعوه : « يا أبت »

وعاش ولداها ليظل النبى الإنسان يسعد بترديد اللفظ العذب : « ابنى » ...

وعاشت بنتاها زينب وأم كلثوم ، ليظل الأب الحنون يدعو باسم ابنتيه الراحلتين ، بعد أن لبث زمنا يفتقدهما ويمسك لسانه عن ندائهما ..

ووقف التاريخ الإنسانى يرقب مبهورا هذا النبى الإنسان ، فى أبوته الفياضة بأنقى الحب وأصفى الحنان ، وأصغت الانسانية فى فخر واعتزاز ، إلى ما تواترت به الأخبار من حديث ذلك الحب الكبير ، الذى يكشف عن جانب من عظمة الرجل المصطفى خاتما للنبيين عليهم السلام .

وما تزال حتى اليوم ، وغدٍ ، وإلى الأبد ، ترى فيه آية من آيات الله فى صفوة خلق الله !

وهيهات لها أن تنسى مشهده وهو يمشى فى أسواق المدينة حاملا أحد

سبطيه على كتفه ، حتى إذا بلغ المسجد وقام للصلاة ، وضعه إلى جانبه فى رفق وأقبل يؤم القوم ، فتأخذهم الحيرة والعجب إذ يطيل السجود على غير المألوف من عادته ، فلما قضيت الصلاة قيل له :

ــ يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك ...

فقال : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

أو تنسى مرآه وقد وقف يوما يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل النبى ﷺ من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال يخاطب القوم :

« صدق الله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُم وأَوْلَادُكُم فِتْنَة ﴾ .. نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما » ..

أو تغيب عنها صورته ، وهو آخذ بكتفى الحسين ، وقدماه على قدميه ﷺ ، يرقصه قائلا : « ترقَّ ، ترق » فما يزال الصبى يترقى حتى يضع قدميه على صدر جده ، فيقول له : افتح فاك ! .. فيفتحه ، ويقبله ﷺ وهو يقول : « اللهم إنى أحبه ، فأحبَّه وأحبِبْ من يحبه »[1]

أو يفوتها موقفه ، وقد خرج يوما فى نفر من صحابته إلى طعام دُعُوا إليه ، فإذا بالحسين فى السكة يلعب مع غلمان من أترابه ، فتقدم المصطفى أمام القوم وبسط يديه محاولا أن يمسك بالحسين ، وهو يفر ها هنا ، وها هنا ، فما زال ــ ﷺ ــ يضاحكه حتى أخذه ، فوضع إحدى يديه تحت قفاه ، والأخرى تحت ذقنه ، ثم قبله وقال : « حسين منى وأنا من حسين ... أحب اللهم من أحب حسينا ! »

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ١٨٨٢/٤ .

والناس من حوله خاشعون إجلالا ، يقول قائل منهم : أراه ﷺ يصنع هذا بسِبْطِه ، فوالله إن لى ولدا وما قبَّلته قط ! ..

فيرد النبى الانسان ، وقد أنكر هذه الغلظة الجافية :

« من لا يَرحم ، لا يُرحم ! » ...

* * *

ويرخى الزمن للزهراء ، لتشهد أباها صلى الله عليه وسلم وهو ينسخ الظلمات بنور الإسلام ، ويدنو من النصر المؤزر الذى وعده الله به والمسلمين ، وتمسى رضى الله عنها ذات ليلة ، وهى تتأهب للسفر إلى مكة — قبيل الفتح — وقد ذاد الكرى عن عينيها قربُ الأوبة إلى الوطن الذى غابت عنه ثمانية أعوام ، فراحت تسامر زوجها المهاجر ، وتستعيد وإياه ذكريات صباهما الخلىّ الذى مضى وراح :

أترى مكة لا تزال على العهد بها كما تركاها منذ سنين ، أم غيَّرها كرُّ الغداة ومر العشى ، ومحت يد الحدثان من معالمها ما كان لكليهما بالأمس مهدا ومرتعا ؟

ودار الأهل ، حيث مولد « فاطمة » ، أتراها باقية كما كانت ، أم عدا عليها العدو فنقضها وصيرها طللاً دارسا وخرابا بلقعا ؟

والكعبة الشريفة ، أما يزال الحمام الأبيض الجميل يرتع فى حماها آمنا ملء الحرية والحياة ، أم روعته الوثنية الغاشمة الضالة فانكمش هناك مكتئبا محزونا مهيض الجناح ؟

وملاعب الصبا ، أما تزال تذكر مَن رحل عنها من الأحباب ، أم نسيتهم على مر الأيام وتطاول السنين ، فعادتِ لا تعرف منهم اليوم أحدا ولا ترد لسائل جوابا ؟

ومثوى خديجة ، وقبر أبى طالب ، وقبور غيرهما من الأهل والعشيرة ، أما تزال محتفظة بودائعها الغالية ، أم تاهت معالمها بما أجَنَّتْ من رفات الأعزة الراحلين ؟

وإذ هما فى غشية من شجوهما يطرق الباب ، فينهض على — كرم الله وجهه — ليرى من الطارق بليل ، وتفتح « الزهراء » عينيها وإن فيهما لبقيةً من خدر الذكرى ، فإذا أمامهما « أبو سفيان بن حرب » حامل لواء المشركين ، وزوج آكلة الأكباد « هند بنت عتبة » التى صنعت ما صنعت بشهداء أُحُد . .

ويتكلم « أبو سفيان » فيذكر كيف جاء إلى المدينة لمَّا بلغ قريشًا تأهبُ « محمد » للمسير إلى مكة ، فرأى من قوة الإسلام ، ومن استعداد الجيش المعبأ للزحف على مكة ، ما روعه . فدخل على ابنته أم المؤمنين « رملة ، أم حبيبة » فما كاد يهم بالجلوس على الفراش حتى طوته عنه كراهةَ أن يجلس عليه وهو مشرك ، فانصرف محزونا حتى أتى النبى ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئا ، فذهب إلى أبى بكر ، ثم إلى عمر ، يسأله أن يشفع له فأبى عمر قائلا : « أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ؟ .. فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ لجاهدتكم به ! »[1]

وصمت « أبو سفيان » ريثما استرد أنفاسه ثم قال لابن أبى طالب :

— يا علىّ ، إنك أمسُّ القوم بى رَحِمًا ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعنَّ كما جئتُ خائبا ، فاشفع لى إلى رسول الله ...

فقال علىّ : « ويحك يا أبا سفيان ! .. والله لقد عزم الرسول ﷺ على أمرٍ ما نستطيع أن نكلمه فيه ... »

فالتفت « أبو سفيان » إلى الزهراء ، وكانت حتى تلك اللحظة صامتة لم تتكلم ، فقال لها وهو يشير إلى « الحسن » الذى استيقظ من نومه ، وراح يدب بين يدى أمه :

— يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيَّكِ هذا فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

---

(١) السيرة : ٤/٣٨ .

ردَّت ، رضى الله عنها : « والله ما بلغ بُنَىَّ ذاكَ أن يجير بين الناس ، وما يجير أحدٌ على رسول الله ﷺ ... »

وقام « أبو سفيان » لينصرف مخذولا ، ثم تلبث لدى الباب برهة وقال فى انكسار :

ـــ يا أبا الحسن ، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىَّ ، فانصحنى .

قال على : « والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا ، ولكنك سيد بنى كنانة ، فقُمْ فأجر بين الناس ، ثم الحق بأرضك » ...(٢)

قال : « أوَ ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟ » .

فصمت رضى الله عنه لحظة ثم قال :

ـــ لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غير ذلك ...

فانصرف « أبو سفيان » وقد استقر عزمه على أن يعمل بما أشار « على » ، وأغلق الزوجان بابهما وجلسا يتحدثان عن عجائب القدر وتصاريف الأيام ، حتى مضى شطر من الليل فناما يحلمان بالأوبة المنتظرة إلى أم القرى : مقر الكعبة ، ومهد الصبا ، ومنزل قريش . . .

* * *

وسار ﷺ من المدينة فى عشرة آلاف من المسلمين ميمما شطر البلد الحرام الذى تسلل منه مهاجرًا منذ ثمانية أعوام ولا أحد معه إلا صاحبه الصديق . . .

وخرجت « الزهراء » فيمن خرج من آل البيت النبوى ، لتشهد العودة الظافرة والنصر المبين ...

ولم يفتها أن تلمح خلال النقع المثار ، تلك البقعة التى كادت تلقى فيها حتفها وهى فى طريقها إلى دار الهجرة ، مع أختها « أم كلثوم » ...

---

(١) السيرة : ٤/٣٩ .

وهاجت شجونها للذكرى ، أين رقية ، وأين زينب ؟ .. لقد هاجرتا مثلها من مكة ، لكن إلى غير رجعة أو مآب ...

وهذه هى ، تعود ولم يبق لها من شقيقاتها الثلاث ، غير واحدة ، وثوت الأخريان فى ثرى يثرب ...

غير أن الأطياف بقيت معها ، وهى تقترب من أم القرى ، فما انفكت فى غمرة من شجوها وأساها حتى بلغ الركب « مرَّ الظهران » حيث عسكر النبى ﷺ بجيشه ترقبا للمعركة الفاصلة ...

ثم لم يكد النهار يولى ، حتى أقبل « أبو سفيان بن حرب » قائد لواء المشركين ، فبات ليلته بباب النبى انتظارا لأمره ﷺ فى أهل مكة ، فلما تنفس الصبح دخل على محمد فأسلم ، ثم انطلق عائدا إلى مكة فوقف بحيث يُسمع وقال :

« يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »[1] ...

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام ، ووقف ﷺ على راحلته بذى طوى ، بين كبار الصحابة ، ثانيا رأسه تواضعا لله على ما أكرمه ، حتى لتكاد الشعرات التى بين شفته وذقنه تمس الرَّحل ...

ونظَّم دخول جيشه إلى البلد العتيق ، فقسمه فرقا على رأس كل منها أحد كبار الصحابة ، وكانت الراية مع سعد بن عبادة الأنصارى ، فقال ﷺ لعلى : « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها ! »[2]

---

(١) السيرة : ٤٧/٤ ــ والاستيعاب : أبو سفيان بن حرب وقد فصلنا الحديث عن اسلامه فى الباب الخاص بابنته « أم حبيبة ، رضى الله عنهما » فى كتاب « نساء النبى » صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

(٢) السيرة : ٤٨/٤ وتاريخ الطبرى ، فتح مكة .

ومن قبل ، كان « على » حامل « العقاب » فى خيبر ، وهى أول راية للرسول ﷺ(١) .

وكذلك حمل « على » لواء رسول الله فى غزوة بنى قريظة ، ولواء المهاجرين يوم أُحُد(٢) .

* * *

دخل المصطفى ﷺ ، يوم الفتح ، من « أذاخر » حتى نزل بأعلى مكة ، وضُربت له قبّة هناك ، قريبا من مثوى « خديجة » . وصحبته إليها ابنته « الزهراء » وقد أنساها الفرح الأكبر كل ما ألمَّ بها من شجن ، منذ مرت بالمكان الذى نخس فيه « الحويرث » راحلتها وهى مهاجرة من مكة ، فألقت بها على الأرض ...

لكن أباها ، عليه الصلاة والسلام ، لم ينس ! .. وهذا هو يعهد إلى أمرائه من المسلمين ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، واستثنى نفرا سماهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وجدوا تحت أستار الكعبة ...

وكان من هؤلاء « الحويرث بن منقذ » وقد تولى قتله زوج الزهراء ...

وكادت الجبال تتصدع من خشية ورهبة ، وهى تصغى إلى هتاف عشرة آلاف من المسلمين :

الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا إله إلا الله والله أكبر ...

* * *

ثم أوى ﷺ إلى قبته ، حيث كانت « الزهراء » تنتظره هناك ...

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٧٧/٢ .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٧/٢ .

وقد حمل « على » بعد ذلك لواء النبى صلى الله عليه وسلم ، يوم حنين « الطبقات الكبرى ١١٧/٢ » .

حدثت أم هانىء بنت أبى طالب ــ وكانت زوجة لهبيرة بن أبى وهب المخزومى ــ قالت :

« لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فرَّ إلَّى رجلان من بنى مخزوم ــ قال ابن هشام : هما الحارث بن هشام ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة ــ فدخل علىَّ أخى ، على بن أبى طالب ورآهما فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمانى ركعات من الضحى ، ثم انصرف إلَّى فقال : مرحبا وأهلا يا أم هانىء ، ماذا جاء بك ؟ .. فأخبرته خبر الرجلين وخبر « على » فقال ﷺ : قد أجرنا من أجرتِ ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلهما »[1] ...

واستراح ﷺ برهة ريثما اطمأن الناس عقب موجة الفتح الدافقة ، فخرج حتى جاء البيت الحرام وسط الجموع الزاخرة ، فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه أمر ففتحت له الكعبة ثم وقف على بابها فخطب فى الناس خطبة الفتح ، ثم قال :

« يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ .. قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

وأقبل المساء رقيقا نديا بعد نهار حار ، حافل بالحركة والضجيج ، فضمت « أم القرى » جناحيها على أبنائها المهاجرين العائدين ، وعلى من نزل معهم من الأنصار وبقية المسلمين ، وسهرت السماء ترعى ذلك الحشد الجامع الذى لم تشهد قط مثله حول قائد نبى ، وطافت الملائكة بحزب الله تبارك انتصاره على حزب الشيطان ..

وهناك كانت « فاطمة » غير بعيدة من أبيها الفاتح ، ترقد ساهرة فى فراشها ، يقظى لا تنام ..

---

(١) السيرة : ٤ / ٥٤ مع صحيح مسلم ، ك صلاة المسافرين .

كم شاقها فى ذلك الليل الساجى أن تتمثل أمها خديجة وهى تطل من عُلاَها على حبيبها النبى فى يومه الأغر الميمون ؟ !

وكم شجاها أن تتمثل شقيقتيها الراقدتين بيثرب ، تسرى روحاهما إلى البلد العتيق الذى لم يكتب لهما رجعة إليه ، فتطيفان بمن بقى من الأهل والأحباب ، وتشاركان فى فرحة النصر المؤزر ؟ !

وكم رق قلبها لذكرى طفولتها الباكرة فى البيت السعيد ، حيث الشمل ملتئم والحياة حب وصفو !

وطاب لها أن تبيت هكذا ساهرة يقظى ، حتى تسمع صوت « بلال » يؤذن لصلاة الصبح من فوق الحرم الأقدس ، فيخشع الكون لجلال الدعاء ، ويخف المؤمنون من مضاجعهم ساعين إلى المسجد الحرام ، ليقيموا للمرة الأولى فى تاريخ الاسلام ، فريضة الصبح فى البيت العتيق المطهر من الأوثان !

قال « على » وهو يتهيأ للخروج إلى صلاة الصبح :

ــ أما نمتِ يا أم الحسن ؟

أجابت وقد غلبها التأثر :

ــ بل أردت أن أستمتع بعودتنا الظافرة وأنا كاملة اليقظة ، وكأنى أشفق إذا نمت ، أن يكون الأمر كله رؤيا منام ...

ثم قامت تصلى ، وأغفت قليلا بعد أن طال عليها السهر . . .

وأصبحت تمنى نفسها بالعودة إلى دار مولدها ، ومرتع صباها وصبا « على » ولكن هذه الدار كانت قد انتقلت على أثر الهجرة إلى مِلْكِ « عقيل ابن أبى طالب » وقد سأل أسامة بن زيد النبىَّ ﷺ يومئذ : أين تنزل فى دارك بمكة ؟ .

فقال : « وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور ؟ »[1] .

وتساءلت الزهراء : ترى أى دار يختار أبى لتكون لنا فى مكة منزلا ؟

وكذلك تساءل الأنصار بعد الفتح ويوم حنين ، وقد ظنوا أن المصطفى مقيم بمكة ، لما رأوا من فرحه ﷺ بمسلمة الفتح ، وحرصه على تأليفهم ، وغبطته بالرجوع إلى مكة بعد طول اغتراب ...

وقال قائلهم : « لقد لقى والله رسول الله ﷺ قومه ! » ..

وأنشد شاعرهم « حسان بن ثابت الأنصارى » يعاتب النبى ﷺ ، أنْ زاد فى عطاء المؤلفة قلوبهم ـــ من مغانم حنين ـــ دون الأنصار :

وأْتِ الرسول فقل : يا خير مؤتمَن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البشرُ
علام تُدعى « سليم » وهى نازحة ... قُدَّام قوم همُ آووا وهم نصروا ؟
سماهمُ الله أنصارا بنصرهمُ ... دينَ الهدَى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا ... للنائبات وما ضاقوا وما ضجروا
والناس ألْبٌ علينا فيك ، ليس لنا ... إلا السيوفَ وأطرافَ القنا وَزَر
فما ونينا ، وما خُنَّا ، وما خبروا ... منا عثارا وكل الناس قد عثروا ![2]

وبلغ الصوت مسمع « فاطمة » كما بلغ مسمعَ كل من في مكة ، فقدرت أن لهذا العتاب ما بعده ، وأشفقت من الموقف الصعب ، وان اطمأنت إلى أن أباها ﷺ سوف يجد منه مخرجا ...

لكن أى مخرج ؟

لم تدر « فاطمة » على التحديد ، حتى سمعت أباها صلى الله عليه وسلم يسأل النقيب « سعد بن عبادة » رضى الله عنه وقد شكا له ما تجد الأنصار :

---

(١) متفق عليه من حديث اسامة رضى الله عنه (اللؤلؤ : ك الحج ، ح ٨٥٧) وفى الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٩٨ . بلفظ : « وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟ » .

(٢) السيرة : ٤ / ١٠٤ .

« فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ »

قال : « يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى ... »

فلم تبد على النبى الكريم بادرة ضيق أو ضجر ، بل عطف على صاحبه وطلب إليه أن يجمع له قومه الأنصار ، فلما فعل « سعد » خرج إليهم ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجِدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ .. ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألَّف بين قلوبكم ؟ » ...

أجابوا : « بلى ، الله ورسوله أمَن وأفضل » ...

قال : « ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟ » ...

قالوا مشفقين : « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ .. لله ولرسوله المَنُّ والفضل » ...

فما راعهم الا أن قال النبى الكريم ، عليه الصلاة والسلام :

« أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدقتم ولصُدقتم : أتيتَنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك ! .. أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم ، فى لعاعة ــ بقلة خضراء ناعمة ــ من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ... ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ ... فوالذى نفسُ محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصارُ شِعبا لسلكتُ شعب الأنصار ، .. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار ! » ..

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وهتفوا بملء إيمانهم : رضينا برسول

الله قسما وحظا ![1] ...

وكذلك بكى أهل مكة ، وقد رأوا النبى ﷺ يوشك أن ينصرف راجعا إلى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما ...

وراحت « الزهراء » تودع دار الصبا ، وتزور قبر « خديجة » قبل أن يحين الرحيل ! ...

ولم يجاوز مقامها بمكة غير شهرين وبعض شهر : جاءتها فى شهر رمضان من العام الثامن للهجرة ، وغادرتها مع أبيها إلى مدينة الأنصار ، فى أخريات ذى القعدة من العام نفسه بعد قضاء العمرة . . .

لكأنما كان الأمر كله ، كما قالت فاطمة عليها السلام فى الليلة الأولى بعد الفتح ، رؤيا منام ...

وقد امتد الحلم الهنىء عامين ، سعدت فيهما « الزهراء » بصحبة أبيها تصافح طلعته البهية فى الغدو والآصال ، وتنعم بحبه المضاعف لها ولبنيها وزوجها ، ما شاء الله لها أن تنعم ، وأتيح لها فى تلك الفترة أن تسترد بعض ما ذهبت به الصدمات الأولى من قواها ، فتتوفر على تربية بنيها ، ولد الرسول وأحبابه ، تاركة شئون الدار لخادم جاء بها « على » بعد أن أيسر .

* * *

فى السنة التاسعة للهجرة ، شيعت دار الهجرة ثالثة بنات النبى : « أم كلثوم » زوج عثمان . رضى الله عنهما ثم شيعت بعدها ، فى السنة العاشرة ، ابراهيم بن محمد ، من مارية القبطية . وتجلدت الزهراء للمصاب ، ولم يبق لأبيها من الولد سواها .

ثم كانت المصيبة الكبرى :

شكا أبو الزهراء ﷺ من مرض ألمَّ به ، فى ليال بقين من صفر فى السنة الحادية عشر للهجرة ، فحسب آل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث

---

(١) السيرة : ٤ / ١٤٢ . والنقل منها . وانظر مناقب الأنصار رضى الله عنهم فى الصحيحين .

أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت ! ...

غير أن « أم أبيها ، الزهراء » لم تكد تتلقى دعوة أبيها صلى الله عليه وسلم ، حتى أجفلت مرتاعة . وأسرعت إلى داره ملبية دعوته ، وأزواج النبى صلى الله عليه وسلم عنده ، فلما رآها أبوها مقبلة ، أشبهَ أحدٍ به سمتا وهديا — على ما وصفتها السيدة عائشة ، رضى الله عنهما — هشَّ للقائها قائلا : « مرحبا بابنتى » . . .

ثم قبَّلها وأجلسها إلى يمينه وأسرَّ إليها أنه يحسب أن قد حان أجله ، فلما بكت هوَّن عليها بقوله :[1]

« وإنك أول أهل بيتى لحوقا بى » ثم أضاف : « يا فاطمة ألا ترضين أن تكونى سيدةنساء المؤمنين . أو سيدة نساء هذه الأمة ؟ » ...[1]

فسرَّها ما سمعت ، وضحكت بعد بكاء ، فعجبت السيدة عائشة وقالت : « ما رأيت كاليوم فرحا أقرب إلى حزن ! » ثم سألت الزهراء حين سنحت فرصة ، عما أسرَّ به ﷺ إليها ، فقالت أم أبيها :

« ما كنت لأُفشى على رسول الله سرَّه ! » ..[2]

وانصرفت يومئذ إلى دارها ، يساورها قلق مشوب بالخوف . وكان ﷺ لما اشتد به وجعه ، دارعلى نسائه أمهات المؤمنين كمألوف عادته ، حتى إذا بلغ بيت « أم المؤمنين ، ميمونة بنت الحارث الهلالية » تتامَّ به وجعه فدعا أزواجه إليه واستأذنهن فى أن يمرض فى بيت عائشة .

وأقامت « أم أبيها » إلى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء والابتهال ...

(١—٢) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (اللؤلؤ ، ك الفضائل ، باب فضائل الزهراء رضى الله عنها ح ١٥٩٣) .
مع طبقات ابن سعد ، ١٦/٨ .

لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه ...

فخنقتها العبرة وقالت بصوت يفيض حزنا ولوعة :

« واكربى لكربك يا أبتاه » ...

فرد عليها وهو يرنو إليها فى عطف وحنو :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم » [1]...

ثم حمَّ القضاء ، ولحق ﷺ بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده يتيمة حزينة ، لا تجد إلى العزاء سبيلا ! ...

* * *

وأذهلها المصاب الفادح ، فما أفاقت من غشيتها إلا وقد تمت البيعة « لأبى بكر الصديق » فى السقيفة ، ولما يكد يمضى على وفاة رسول الله ﷺ ، غير يومين .

وجمعت كيانها الممزق ، وتحاملت تسعى إلى قبر الحبيب وما تقوى قدماها على حملها ، حتى إذا بلغته أخذت قبضة من تراب القبر فأدنتها من عينيها اللتين قرّحهما البكاء ، ثم راحت تشمها وهى تقول متفجعة :

ماذا على مَن شمَّ تربة أحمد ... ألا يشم مدى الزمان غواليا ؟
صُبَّت علىَّ مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عُدنَ لياليا !

واستعبرت باكية ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى كمن فرغت من الدنيا ! ..

---

(١)صحيح البخارى : (باب مرضه ﷺ ، ووفاته) مع فتح البارى ١٠٥/٨ وطبقات ابن سعد ٢/٢ ومسند أحمد : ١٤١/٣ .

وأتبعوها عيونهم الدامعة وقلوبهم المتصدعة ، حتى إذا بلغت دارها استأذن عليها « أنس بن مالك : خادم أبيها النبى » وراح يسألها الصبر الجميل ...

قالت له معاتبة : « كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ .. »

فشهق بدمعه دون أن يجرؤ هو أو سواه على أن يعاود الحديث فى الصبر والعزاء ...

الصبر والعزاء ؟ ... كيف وكل مصاب بعد المصاب فيه لمم ! ؟ ...

* * *

ودخل على أثره زوجُها « على » كرم الله وجهه ، وفى صحبته رجال من بنى هاشم ، فتحدثوا على مسمع منها بالذى كان من أمر البيعة ...

وتذاكروا بلاء « على » فى نصرة الإسلام ، ومكانه من رسول الله ﷺ ، وقد آخى النبى ﷺ بينه وبين علىّ قبل الهجرة . وشهد « على » مع النبى عليه الصلاة والسلام مشاهده كلها إلا غزوة تبوك ، مستخلفا إياه على المدينة .

وكان يحمل لواء المهاجرين يوم أُحُد ، ولواء النبى ﷺ يوم غزوة بنى قريظة ، وحمراء الأسد ، ويومَ حنين ...

وحمل يومَ خيبر ، أول راية للإسلام ... وكان ﷺ قد اتخذها من برد لزوجه عائشة » أم المؤمنين ، وقال : « لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه » فقاموا يرجون لذلك ، أيهم تُعطَى ؟ فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين على ؟ » الحديث ..(1)

---

(١) متفق عليه من حديث سهل بن سعد ، رضى الله عنه مرفوعا (اللؤلؤ : ك فضائل الصحابة . ح ١٥٥٧) .

وفى رواية : فتطاول « عمر بن الخطاب » لها واستشرف ، رجاء أن يدفعها رسول الله ﷺ إليه . فلما كان الغد ، دعا النبى ﷺ « عليا » ودفعها إليه[1] ...

ويُروَى أنه فى يوم الفتح ، كانت الراية مع « سعد بن عبادة الأنصارى » رضى الله عنه، فقال ﷺ لعلى : « أدركْه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها »[2] . . . .

وقاد سرايا النبى ﷺ إلى « فدك » فى شعبان من السنة السادسة للهجرة ...

وإلى « الفُلس : صنم طيِّىء » فى السنة التاسعة ...

وإلى « اليمن » فى السنة العاشرة ...

وعاد منها جميعا مظفرا منصورا ...

وعلى « القصواء » ناقة الرسول المباركة ، خرج « على » إلى الحج بعد الفتح بعام[3] ليتلو فى الجمع (سورة براءة) ...

ويوم آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، اصطفى « عليا » أخا .

ويوم خرج إلى « بدر » غازيا ، ومعه أصحابه ، كل ثلاثة على جمل ، اختار عليا وأبا لبابة زميلين ، وقد عرضا عليه ﷺ أن يمشيا ليستريح فى مركبه ، فأبى وقال :

« ما أنتما أقوى على المشى منى ، وما أنا أغنى عن الأجر منكما »[3]

« وتذكر القوم أحاديث النبى ﷺ لعلى ، وفى علىّ : منها قوله عليه الصلاة والسلام ، حين استخلفه على المدينة ، لما خرج إلى تبوك : « ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هٰرونَ من موسىٰ ؟ إلا أنه لا نبىَّ

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٨٠ .
(٢) السيرة : ٤٨/٤ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١٢١/٢ .
(٤) طبقات ابن سعد : ١٤/٢ .

بعدى »[1]

« أنت ولىُّ كلِّ مؤمن بعدى »[2]

« من كنتُ مولاه ، فعلىٌّ مولاه ؟ »[3]

« لا يحبه إلا مؤمن ، ولا يبغضه الا منافق »[4] .

ثم هو ابن عم النبى ، وزوج ابنته الزهراء ، وأبو الحسنين ريحانتى المصطفى ، وأول فتًى إسلاما ، وأطولهم فى الجهاد باعا ، وفتى قريش شجاعة وعلما ؟ ..

كان بنو هاشم يرجون الخلافة له ، لكن البيعة تمت لأبى بكر رضى الله عنه .

وأمسكت « الزهراء » صامتة لا تعقب ، ومضت أيام وهى فى عزلة عن الناس ، لا تنشط للنضال عن ميراثها الذى أباه عليها أبوبكر ، وهل أبقى الحزن لها من قوة تسعفها على نضال ؟ ..

ثم ما لبث علىّ ، أن بايع أبا بكر ، رضى الله عنهما .

وكان قد تخلف عن بيعة السقيفة ، وقال : « أفكنت أدع رسول الله فى بيته ولم أدفنه ، وأخرج أنازع فى سلطانه ؟ »[5]

وترد الزهراء : « ما صنع أبو الحسن إلا ما ينبغى . . . » . . .

* * *

ثم لا يذكر المؤرخون — فيما قرأت — إلا أن الزهراء قد عافت الدنيا ، فلم تُرَ قط منذ مات أبوها ﷺ ، إلا محزونة باكية ...

---

(١) متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، مرفوعا . ورواه الترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد .

(٢) رواه الترمذى والإمام أحمد فى المسند . (٣) رواه الإمام أحمد فى المسند .

(٤) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حنبل .

(٥) كان على رضى الله عنه ، هو الذى غسل الجسد الشريف ، انظر طبقات ابن سعد ٦٠/٢ ومسند أحمد : ٢٦٧/١ — والسيرة جـ ٤

وعز العزاء وغُلِب الصبر ، ولم يبق لها من رجاء الا أن تلحق بأبيها كما بشرها قبل الرحيل ...

وما أسرع ما لحقت به ! ...

أصبحت يوم الاثنين ، الثانى من شهر رمضان سنة إحدى عشرة ، فعانقت أهلها وملأت عينيها منهم ، ثم دعت إليها « أم رافع » مولاة أبيها عليه الصلاة والسلام ، فقالت لها بصوت واهن خفيض :

ـــ يا أمه ، اسكبى لى غسلا ...

واغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم لبست ثيابا لها جددا كانت قد نبذتها حدادا ، ثم قالت لأم رافع :

« اجعلى فراشى فى وسط البيت » ...

فلما فعلت ، اضطجعت عليه واستقبلت القبلة ، تتهيأ للقاء ربها ، ولقاء أبيها الحبيب ... ثم أغمضت عينيها ونامت !

* * *

وقام « على » فاحتملها باكيا ، ودفنها ليلا ، ثم ودَّعها وعاد محزونا إلى صغاره ، وإلى البيت الذى أوحش من بعد « الزهراء » ...

وبات المسلمون محزونين ، بعد أن شيعوا إلى القبر آخر بنات النبى ﷺ ولما تمض ستة أشهر بعد وفاته ، على أرجح الأقوال « لم يكن قد عاش له صلى الله عليه وسلم سواها ، ولم تتجاوز منهن واحدة خمسًا وثلاثين سنة »[1] .

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ولكن فى غير هذا العالم ، فضم ثرى طيبة جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها ﷺ وأخواتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، رضوان الله عليهن ...

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد : ١٨/٨ والاستيعاب والإصابة ، فى ترجمتها رضى الله عنها .
مع جمهرة ابن حزم : ١٤ ط أولى ذخائر .

وطوى القدر الصفحة الأولى من حياة الزهراء ، ثم ما لبث أن عاد بعد حين إلى الكتاب التاريخى الحافل ، ليملأه بنضال الشيعة ، ومأساة كربلاء ، ومصارع الطالبيين ، وتمويه الدعوة العباسية ، وقيام الدولة الفاطمية ، وما حف بذلك من جليل الأحداث ، وما تخلف عن ذلك كله من بعيد الآثار فى حياة العقيدة الإسلامية ، وفى التاريخ المذهبى والسياسى للمسلمين ! ..

وتتغير الأحداث والدُول ، وتبقى « أم أبيها » ملء الحياة ، فى ذريتها الطاهرة المباركة ، آل النبى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

الكتابُ الرّابع

السَّيدة زينب
عَقيلةُ بنى هاشم

السَّيِّدَة زينب
عَقيلةُ بنى هَاشم
رَضِىَ الله عَنها

إهــــداء

مــــدخل

الفصل الأول : فى بيت النبوة

الفصل الثانى : عقيلة بنى هاشم

الفصل الثالث : بطلة كربلاء

الفصل الرابع : بعد المـأســاة

إهــداء

إلى أبى ، العارف بالله ، العالم العامل القدوة ،

فضيلة الأستاذ « الشيخ محمد على عبد الرحمن الحُسَيْنى » .

ذكرتك يا أبى وأنا أكتب كل كلمة فى هذا الكتاب ، فلما فرغت منه شعرت كأنما كنت معى : تكتبه لى وتمليه علىّ ...

ها هو ذا ، أهديه إليك ، تحية برٍّ ووفاء لعهد خلا ، أيام كنت صبية أباهى بك لداتى وأترابى جميعًا ، حين نمر « بمعهد دمياط الدينى — فى جامع البحر » فى طريقنا إلى المدرسة ، فنراك من نافذة المعهد ، فى حلقة من طلاب العلم ، يصغون إلى درسك بكل عقولهم وكل جوارحهم . فإذا عدنا من المدرسة ، ألفيناك فى حلقة أخرى من صحبك ومريديك يأخذون «العهد» عليك ، ويصغون وأصغى معهم إلى حديثك المؤثر عن طريق الوصول إلى الحق ، فأشعر — على صغر السن — أننى أتطاول إلى ذاك الأفق العالى الذى تحلق فيه ، وأستشرف له طامحةً مريدة !

ولم أنسَ يا أبى ، على بُعد العهد وتطاول السنين ، مجلسك فينا تحدثنا عن آل البيت الكرام أولئك الذين أشربتنا منذ الصغر حبهم ، وعلمتنا أن نرعى شرف انتسابنا إليهم ..

* * *

أذكرها يا أبى ليلة من ليالى شهر رجب ، وقد رأيناك تتهيأ للسفر فى غد إلى القاهرة ، وأمنا الغالية — نضر الله وجهها — تترقب ساعة الوضع . فالتمسناك — أنا وشقيقتى الكبرى فاطمة — وأنت فى خلوتك تتهجد ، ورجوناك أن ترجىء سفرك ذاك ، فقد كنا خائفتين ..

قلت لنا :

ــ لا تخافا ولا تحزنا ، فالله معها ...

ثم أفسحت لنا مكاناً إلى جانبك ، ومضيت تحدثنا عن رحلتك التى لم تكن تستطيع أن ترجئها ، لأنك تؤدى بها واجباً مفروضاً ، هو المشاركة فى الاحتفال بذكرى « السيدة زينب » .

ومضى وهن من الليل ونحن فى مجلسنا منك ، نسمع قصتها المؤثرة ، فلما أسفر الصبح ودعتنا وأنت تقول لأمى :

ــ إنْ وضعِتها أنثى ، فسميها زينب ...

ثم تركتَها وإيانا ، لرعاية الله ...

ومن تلك الليلة يا أبى ، وعيت اسم « السيدة زينب » وبعض ملامحها اللافتة المؤثرة ، ثم لم أنسها أبداً ...

* * *

واليوم شاقنى أن أكتب عن « السيدة » ، فلما تهيأت للكتابة ، ألفيتنى أعود إلى أمسى ذاك البعيد ، فأتمثله شاخصاً أمامى ملء الحياة ، وظل هكذا : شاخصاً ، ماثلاً حاضرا ، حتى فرغت من الكتابة ، فوضعت قلمى وأنا أشعر بشىء من الإجهاد ، وغفوت حالمة ، أذكر الماضى الذى ولّى وراح ...

واستمرأت مذاق هذا الشجن ، فكدت أسلم له نفسى ، لولا أنى سمعت نداء طفلتى من بعيد ، فصحوت من إغفاءتى وأنا أردد :

أبقاك الله يا أبى ورضى عنك . .

ورحم الله أمى ...

عائشة

مـــدخل

هذا الكتاب ليس سردًا تاريخيًا بحتاً ، وإن أخذ مادته كلها من مراجع تاريخية أصيلة ، كما أنه ليس قصة خالصة ، وإن بدا كأنه كذلك ، فى العرض والأداء .

وإنما هو ترجمة لسيدة من بيت النبوة ، قدر لها أن تعيش فى فترة تموج بجليل الأحداث ، وأن تشارك فى تاريخ الدولة الإسلامية مشاركة ذات بال . . .

اقترن اسمها فى تاريخنا ، والتاريخ الإنسانى ، بمأساة فاجعة هى مأساة « كربلاء » . التى أجمع المؤرخون على أنها كانت إحدى المعارك الفاصلة فى تاريخ الشيعة بخاصة ، والتاريخ الإسلامى بعامة ، ثم ذهب بعضهم بعد ذلك ، إلى أنها كانت الجولة الحاسمة التى أصَّلت التشيع ومكَّنت له مذهبا ، يرون أن الدم المسفوح فى تلك المذبحة المشؤومة ، هو الذى صبغ تاريخنا السياسى والمذهبى بتلك الصبغة الدامية التى نعرفها فى « مقاتل الطالبيين » وحركات « الشيعة » .

دور « السيدة زينب » فى المأساة غير مجهول ، بل إن منهم من سماها « بطلة كربلاء » لأنها السيدة الأولى التى ظهرت فى اللحظة الحرجة ، تأسو الكلوم ، وتواسى المحتضرين ، وتثور للضحايا الشهداء الذين نُبِذوا هنالك فى العراء : أشلاء مبعثرة . . .

لكنى أرى دورها الحقيقى قد بدأ بعد المأساة ، إذ كان عليها أن تحمى السبايا من الهاشميات اللاتى فقدن الرجال ، وأن تناضل مستبسلة عن صبى

مريض ــ هو زين العابدين على بن الحسين ــ كاد لولاها أن يذبح ، فتفنى بذهابه يومئذ سلالة الإمام . ثم كان عليها بعد ذلك ألا تدع الدم المسفوك يذهب هدراً ..

وما أحسبنى أغلو أو أسرف ، إذا قدَّرت أن موقف السيدة زينب بعد المذبحة ، مما جعل من « كربلاء » مأساة تاريخية . .

* * *

ولم تعش « زينب » رضى الله عنها طويلاً بعد الفاجعة ، لكنها استطاعت فى تلك الفترة القصيرة التى عاشتها ، أن تشعل فى نفوس الشيعة حزناً مستعراً لم يخمد لهيبه حتى اليوم ، وأن ترهق الذين أسلموا آل البيت بوخز الحسرة والندم ، وتجعل التكفير عن خطيئتهم ميراثاً رهيباً مقدساً ، يتوارثونه جيلاً بعد جيل .

وأعود فأقول إن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون صورة لحياة تلك « السيدة » رسمها المؤرخون الثقات من قبلى ، ثم جاء « المنقبيون » فأضافوا إليها ألوانا وظلالًا لها موضعها فى الرواية النقلية ، وعميق إيحائها وصدق دلالتها .

وقد حرصت ما استطعت ، على أصالة المادة التاريخية فى الصورة ، دون أن أهدر هذه الظلال أو أهوِّن من شأنها : لأنها ــ مهما يكن رأى العلم والتاريخ فيها ــ عنصر فى صورة « السيدة » كما تمثلها السابقون وكما رأوها ، ولا أرى من حقى أن أغض من أى ظل منها ، إلا إذا كان من حق الدارس النفسى أن يغض من الرؤى والأحلام ...

وكل عملى فى الكتاب ، أنى ألفت بين الألوان التاريخية وهذه الظلال المنقبية ، لأجلو منها صورةً لتلك التى شاركت فى صنع تاريخنا الإسلامى ، وذهبت قصة وعبرة ومثلاً ...

الفصل الأول

فى بيت النبوّة

ـ آبَــاء وأجــدَاد
ـ ظِــلال على المهد
ـ الصِّبــاَ الحَزين

آباءٌ وأجْدادٌ

كان البيت الكريم ينتظر ساعة الوضع فى لهفة وترقب ، ومن ورائه عشرات الألوف من الصحابة ، يترقبون النبأ السعيد وقلوبهم تحف بالسيدة الوالدة إجلالاً ومحبة ، وألسنتهم تلهج لها بالدعاء الحار ! . .

إنها « الزهراء » بنت النبى ، توشك أن تضع فى بيت النبوة مولوداً جديداً لزوجها الإمام على ، كرم الله وجهه . بعد أن أقرت عينى أبيها المصطفى بسبطيه الحبيبين : الحسن ، والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش ، هو شقيقهما المحسن بن على بن أبى طالب .

وحانت الساعة المرتقبة . . .

وأذيعت البشرى أن « الزهراء » قد وضعت أنثى باركها جدُّها صلى الله عليه وسلم ، واختار لها اسم « زينب » إحياءً لذكرى ابنته الراحلة « زينب » التى كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل ، فوجد المصطفى عليها ، وحزن لفقدها حزناً ثقيلاً ! . .

تلك الراحلة ، هى كبرى بناته ﷺ ، تزوجت ابن خالتها « أبا العاص ابن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس » قبل النبوة ، فلما كان المبعث أسلمت هى ولم يسلم ، على أنه ظل رفيقا بها محباً لها ، وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يفارقها كما فعل ابنا « أبى لهب » زوجا أختيها « رقية ، وأم كلثوم » . حتى كانت غزوة « بدر » وأسر « أبو العاص » فيمن أسر من مقاتلة قريش ، فأرسلت « زينب » — وهى لا تزال بمكة — تفتديه ، وبعثت قلادة كانت أمها « خديجة » — رضى الله عنها — قد أهدتها إليها يوم زواجها بأبى العاص ، فلما رأى المصطفى ﷺ القلادة ، رق قلبه لها وقال لصحبه البدريين :

— إن رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها الذى لها فافعلوا .

قالوا : نعم يا رسول الله . . .

وأطلق ﷺ أسيره ، على ان يرسل « زينب » إلى المدينة ، فما عاد لها مكان فى بيت « أبى العاص » وقد فرق إسلامها بينها وبينه .

وهاجرت « زينب » إلى المدينة تطوى جوانحها على شجو وشجن ، وبقى « أبو العاص » بمكة ، يغالب شوقه إلى زوجه النائية .

ثم خرج من بعد ذلك فى تجارة إلى الشام ، فأسرتْه حين عودته سرية للمسلمين ، غلبت على القافلة المكية بمن فيها من رجال ومال ، لكن « أبا العاص » تمكن من الإفلات ودخل « المدينة » مستخفياً يلتمس السيدة « زينب » فلما بلغ دارها ، لاذ بها مستجيرًا فرحبت به ثم تمهلت حتى صلى النبى بالناس صلاة الصبح ، فصاحت بأعلى صوتها :

ــ أيها المسلمون ، إنى قد أجرت « أبا العاص بن الربيع » .

وتناهى صوتها إلى أبيها فمس قلبه ، وأقبل على من حوله يسألهم :

ــ هل سمعتم ما سمعت ؟ أجابوا : نعم .

قال : فوالذى نفسى بيده ما علمت بذلك حتى سمعت ما سمعتم !

ثم قال : « يجير على المسلمين أدناهم . . . »

وقام يسير صامتًا ، متمهلًا ، حتى دخل على ابنته « زينب » فقال لها : « أكرمى مثواه ، ولا يخلصُ إليك فإنك لا تحلين له »

ثم انطلق ﷺ ، عائدًا إلى صحبه ، فدعا إليه رجال السرية التى أسرت قافلة قريش وقال :

« إن هذا الرجل من حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالًا ، وهو مما أفاء الله عليكم به ، وأنا أحب أن تحسنوا وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق . »

قالوا : بل نرده عليه .

وودع « أبو العاص » تلك التى كانت زوجه . . .

وأثنى على ذلك الذى كان صديقه وزوج خالته وصهره . .

وانطلق إلى « مكة » فأدى إلى الناس ما كان فى عهدته من أمانات لهم ، وقفل راجعًا إلى « المدينة » ليبايع صاحبه ، ويتزوج « بزينب » مرة ثانية .

لكن « زينب » ما لبثت أن ماتت متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من « مكة » إلى « المدينة » بعد غزوة « بدر » ذلك أن أحد المشركين لقيها وهى فى الطريق إلى دار الهجرة ، فنخسها فى بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها .

ماتت ، وظل أبوها ﷺ يجد فى قلبه لوعة الحزن ، حتى إذا ما ولدت أختها « الزهراء » أنثاها الأولى ، سماها « زينب » .

* * *

تعالى هتاف « المدينة » فى العام السادس من الهجرة ، للوليدة الغالية « زينب بنت على بن أبى طالب » تلك التى تلاقى فيها أعزُّ ما عرفت قريش والعرب من كريم الأصول ونقى السلالات .

أمها « الزهراء » : أحبُّ بنات المصطفى إليه وأشبههن به فى خُلق وخَلق ، آثرها الله بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، فكتب لها أن تكون ــ وحدها ــ الوعاء الطاهر للذرية الطاهرة ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من آل البيت . . .

* * *

وأبوها « على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، القرشى الهاشمى » ابن عم النبى ﷺ ، وربيبه ، وأول من آمن به صبياً ، وفتى قريش شجاعة وتقى وعلماً .

* * *

وجَدّاها لأمها : « محمد رسول الله » و « خديجة بنت خويلد » : أولى أمهات المؤمنين ، وأقرب نساء النبى إليه وأعزهن عليه حية وميتة ، انفردت بحبه وبيته خمسًا وعشرين سنة ، لا تشاركها فيه امرأة أخرى ، ووقفت إلى جانبه فى سنى الاضطهاد العشر الأولى من المبعث ، تؤازره وترعاه ، وتهوّن عليه ما يلقى من قريش فى سبيل رسالته .

كانت وحدها إلى جانبه لما آب من غار « حراء » مرتعدًا مقرورًا يتلو ما أُنزل إليه من آيات الوحى الأولى :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ولدى « خديجة » ــ قبل سواها ــ سكنت نفسه واطمأنت ، وزايله ما عراه من رهبة الوحى ، الأول ، فى ليلة القدر . . . . وهى إلى جانبه مؤمنة

مصدقة ، واثقة راجية ، محبة متفانية ، لا يزعزع ثقتها فيه وإيمانها به أن قريشًا تنكر ما جاء به ، وأن شيوخ قومها قد يظنون به الظنون ويتمهونه بالسحر أو بالجنون . فكانت له سكنًا وملاذًا وصاحبًا ووزيرًا . . .

* * *

ولقد ماتت « خديجة » ومحنة الاضطهاد فى إبانها ، لكنها كانت قد مكَّنت للدعوة وتركت إلى جانب زوجها المصطفى ﷺ صحابة مخلصين ، يؤمنون به ويؤثرون الموت على التخلى عنه ، وكان فقدها فى هذه الفترة العصيبة بدء مرحلة من مراحل الجهاد ، إذ نبا بزوجها المصطفى مكانه بعدها بمكة ، فكانت « الهجرة » التاريخية .

هاجر وفى قلبه ذكرى باقية لتلك الحبيبة الأولى ، لم تستطع واحدة من أزواجه اللواتى جئن بعدها ــ وفيهن السيدة عائشة ــ أن تطمس هذه الذكرى الحية فى قلب محمد ﷺ ، أو تجرح جلالها : أقبلت « هالة » ــ أخت خديجة ــ ذات يوم لزيارة النبى ﷺ فى « المدينة » ، فلما سمع صوتها فى فناء دُوره ــ وكان يشبه صوت العزيزة الراحلة ــ تأثر لها وشجته الذكرى ، فقالت له « عائشة » بعد انصراف « هالة » :

ــ ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، قد أبدلك الله خيراً منها ؟ !

فتغير وجهه عليه الصلاة والسلام ، وقال مغضبًا :

« والله ما أبدلنى الله خيرًا منها : آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ورزقنى منها الله الولدَ دون سائر النساء » .(١)

* * *

(١)مستخلص من ترجمتها ، رضى الله عنها ، فى (كتاب نساء النبى) ﷺ .

وجدّ « زينب » لأبيها ، أبو طالب بن عبد المطلب : عم المصطفى ، ومن كان له بعد أبيه أبا . فلقد مات « عبد الله » و « محمد » جنين فى بطن أمه ، ومات « عبد المطلب » وحفيده غلام فى السابعة أو نحوها ، فكفله عمه « أبو طالب » ، وكان له الأب والحامى والصديق ، لم يتخل عنه لحظة فى سنى المحنة كما فعل عمه « أبو لهب » الذى كان أشد على ابن أخيه « محمد » من المشركين الغرباء ، وكانت زوجه « أم جميل » تحمل إليه الحطب فيقذف به « محمدًا » وهو يسبه ويلعنه . ولقد أبى وأبت امرأته حمالة الحطب ، أن يُظل سقفُ بيتهما ابنتى محمد « رقية وأم كلثوم » اللتين تزوجهما « عتبة وعتيبة ، ابنا أبى لهب » قبل المبعث ، فطلقاهما ليتزوجهما « عثمان بن عفان » ذو النورين الواحدة بعد وفاة أختها .

كلا ، لم يتخلِ « أبو طالب » عن ابن أخيه كما فعل « أبو لهب » ولم يسلمه إلى أشراف قريش عندما ألحوا فى طلبه ، وإنه ليصغى إلى « محمد » يقول :

« والله يا عمِّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه » .

فيتناول الشيخ يد ولده فى حنو وتأثر وهو يقول :

ـــ اذهب وقل ما أحببتَ ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

وصدق وعده . . ظل يحميه إبان المحنة ، غير مكترث لإنذار قريش أن تنفى الهاشميين جميعاً إذا لم يسلموا ابنهم « محمداً » ليقتل .

وإلى شِعب « أبى طالب » أوى ﷺ وزوجه وأصحابه وعشيرته ، طوال المدّة التى حاصرهم فيها القرشيون وحاولوا القضاء عليهم جوعاً . ثم مات « أبو طالب » بعد أن ماتت « خديجة » بقليل ، ففقد صلى الله عليه وسلم بموتهما أحب اثنين إليه وأقدرهم على تأييده ومنعه ، فكانت الهجرة . . .

* * *

وجدة زينب لأبيها : « فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف » زوجة العم أبى طالب ، وأول هاشمية تزوجت هاشمياً وولدت له ، أدركت النبى ﷺ فأسلمت وحسن إسلامها ، وأوصت إليه حين حضرتْها الوفاة فقبل وصيتها ، وصلى عليها ، ونزل فى لحدها ، وأحسن الثناء عليها . رووا فى ترجمتها عن « ابن عباس » رضى الله عنهما ، أنه قال : « لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله ﷺ قميصه ، ونزل معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : يا رسول الله ، ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بهذه المرأة . فقال : إنه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبرّ بى منها . . . »

* * *

وجدُّ « زينب » الأعلى لأبويها على وفاطمة ، « عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى القرشى » : أمين الكعبة وصاحب السقاية والرفادة ، انتقل إليه هذا الشرف عن آبائه وأجداده كابراً عن كابر ، فما كان لأحد من غير بنى قصىّ ، لمئات سنين ، أن يتولى حراسة الكعبة وسقاية الحجيج .

منعه الله من « أبرهة » حين دهم مكة فى جيش من أصحاب الفيل ، فجعل الله تعالى كيدهم فى تضليل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

* * *

ظِلالٌ على المهْدِ

تلك هى الوليدة التى استقبلتها مدينة جدِّها ﷺ فى العام السادس للهجرة ، وهو العام الذى شهد استقرار الأمر للمصطفى عليه الصلاة والسلام ، وخروجه على ناقته القصواء — التى حملته من « مكة » قبل ست سنين ، مهاجرا مع صاحبه الصديق — فى أربع عشرة مائة من المهاجرين والأنصار ، فى ملابس الإحرام ، يريدون العمرة ، ومكة وقتئذ معقل الأعداء من قريش ، ثم يعودون ظافرين بصلح « الحديبية » مع قريش ، فكان فتحا مبينًا .

* * *

وبدا كأن كل شيء يَعِدُ الوليدة بحياة سعيدة ، وأقبل المهنئون من بنى هاشم والصحابة ، يباركون هذه الزهرة المتفتحة فى بيت النبوة ، تنشر فى المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح فى طلعتها المشرقة ووجهها الوضاء ، ملامح آباء وأجداد لها كرام .

لكنهم فوجئوا — لو صدقت الأخبار — بظلال حزينة على المهد الجميل ! ظلال ربما لا يكون لأكثرها مكان عند المؤرخين المدرسيين ، لكن لها مكانها فى المنهج النقلى ، وتفسيرها الوجدانى .

فى الخبر أن نبوءة ذاعت عند مولد الطفلة ، تشير إلى دورها الفاجع فى مأساة « كربلاء » ، وتُحدث بظهر الغيب عما ينتظرها فى غدها من محن وآلام .

كانت المأساة معروفة فيما يقولون ، قبل موعدها بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ففى (مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١ / ٨٥) أن جبريل عليه السلام أخبر « محمداً » ﷺ بمصرع الحسين وآل بيته فى كربلاء .

ونقل « ابن الأثير » فى (الكامل : ٤ / ٣٨) أن النبى ﷺ أفضى بذلك إلى « أم سلمة » رضى الله عنها ، فلما قتل « الحسين » عليه السلام ، أعلمت الناسَ بقتله .

ويفهم من تأريخه لأحداث سنتى ٦٠ ــ ٦١ هـ ، أن الخبر كان متداولا ، بصورة أو بأخرى . فلقد ذكر أن « زهير بن القين البَجلى » ــ وهو عثمانىُّ الهوى ــ خرج من « مكة » بعد أن حج عام ٦٠ ، فصادف خروجُه مسير « الإمام الحسين » إلى العراق ، فكان « زهير » يساير « الحسين » إلا أنه لاينزل معه ، فاستدعاه « الحسين » يوماً فشقَّ عليه ذلك ، ثم أجابه ، فلما خرج من عنده أقبل على أصحابه فقال : « من أحبَّ منكم أن يتبعنى وإلا فإنه آخر العهد » .

ثم راح يروى لهم قصة قديمة من عهد النبى صلى الله عليه وسلم . قال « زهير » إنه خرج مع جماعة من المسلمين فى غزوة لهم فظفروا وأصابوا غنائم فرحوا بها ، وكان معهم « سلمان الفارسى » فأشار إلى أن « الحسين » سيقاتل يوماً ويُقتَل ، ثم قال سلمانُ لأصحابِه : « إذا أدركتم سيد شباب أهل محمد ، فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معه ، منكم بما أصبتم اليوم من الغنائم » .

قال ابن الأثير : وتوجّه زهير ــ بعد أن حدَّث أصحابه بحديث سلمان الفارسى ــ فودع أهله ، وطلق زوجته مخافة أن يلحقها أذى ، ولزم الحسين حتى قتل معه » .

وكان « الإمام الحسين » ــ فيما يُروَى ــ يعلم منذ طفولته بما قدر له ، كما كان دور أخته « زينب » حديث القوم منذ ولدت . فهم يذكرون أن « سلمان الفارسى » أقبل على « على بن أبى طالب » يهنئه بوليدته ، فألقاه واجماً حزيناً ، يتحدث عما سوف تلقى ابنته بعده . . .

وبكى « على » : الفارس الشجاع ، ذو اللواء المنصور ، الملقب بأسد الإسلام !

* * *

أكانت هذه المرويات جميعاً من مخترعات الرواة ومبتدعات السمار ؟ .

أكانت من إضافات المنقبيين وتصورات المتحدثين عن الكرامات ؟ .

أكانت من رؤى الحالمين المغرقين فى الخيال ؟

ذلك ما قرره « رونالدسون » فى كتابه (عقيدة الشيعة) ، و « لامنس » فى (فاطمة وبنات محمد) .

وأما رواتها المسلمون فما يشك أكثرهم فى أن هذه المرويات صادقة لا ريب فيها ، وليس الأقدمون وحدهم هم الذين اطمأنوا إلى صدق هذه المرويات ، بل إن من كتَّاب العصر أيضا من لا يقل عنهم إيمانًا بتلك الظلال التى أحاطت بمولد « زينب » . منهم الكاتب الهندى المسلم « محمد الحاج سالمين » إذ يصف فى الفصل الأول من كتابه (سيدة زينب Sayyidah Zeinab) كيف استُقبِلت الوليدة بالدموع والهموم ، ثم يمضى ـــ بعد أن ينقل بعض المرويات عن النبوءة ـــ فيتمثل « النبى العظيم وقد انحنى على بنت الزهراء يقبلها بقلب حزين وعينين دامعتين ، عالماً بتلك الأيام السود التى تنتظرها وراء الحجب » .

ويمضى « سالمين » فيتساءل : « ترى إلى أى مدى كان حزنه ﷺ حين رأى بظهر الغيب تلك المذبحة الشنعاء التى تنتظر سِبطَه الغالى ! وكم اهتز قلبه الرقيق الحانى وهو يطالع فى وجه الوليدة الحلوة ، صورة المصير المنتظر ؟ ! » .

ولا نحيل أن يكون شىء من هذه الشائعة قد شاع ، ثم هى اليوم ـــ بعدما كانت ـــ ظلال على الصورة المعروضة يُلْقِى مثلها على مهد الوليدة ، كآبة ووجوماً ، ويثير لها أعمق عواطف الرحمة والرثاء .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا ، أن « الزهراء » رضى الله عنها لم تكن أيام الحمل مشرقة مطمئنة ، فلقد كانت تعتادها من حين إلى حين ، نوبات من القلق والاكتئاب ، وهى نوبات قديمة غير طارئة ، لعلها بدأت بموت أمها السيدة « خديجة » رضى الله عنها ، ثم أخذت تزداد فى بطء ، منذ جاءت السيدة « عائشة » بيت المصطفى وشغلت مكانَ الأم الراحلة ، وهو المكان الذى تُرِكَ بضع سنين لفاطمة ، الابنة الأثيرة المحببة .

وليس ببعيد أن يكون لحالة الحمل أثر فى اشتداد ما كانت « فاطمة » تعانى من ذلك ، مع ما تجد لفقد الأم . . .

* * *

ونرمق « زينب » وهى تدرج فى ساحة البيت الشريف ، محوطة برعاية خاصة من جدها ﷺ ، وعطف سابغ من آلها الكرام ، فنراها على البعد صبية حلوة فى حضانة « الزهراء » تتلقى عنها الدروس الأولى فى الحياة ، فإذا جاوزت دور الحضانة ألفت أباها الفارس أمير البيان ، وأخويها الشقيقين ، والعلماء الفقهاء من الصحابة الكرام رضى الله عنهم .

ولم تظفر صبية من لداتها — فيما نحسب — بمثل ما ظفرت هى به فى تلك البيئة الرفيعة من تربية عالية ، وكان هذا كله بحيث يرضى « زينب » فى صباها ويتيح لنا أن نراها مرحة سعيدة ، ولكنها لا تكاد تشب عن الطوق حتى يقال إنها عرفت النبوءة الأليمة : قيل أنها كانت تتلو شيئاً من القرآن الكريم بمسمع من أبيها ، فبدا لها أن تسأله عن تفسير بعض الآيات ففعل ، ثم استطرد — متأثراً بذكائها المرهف — يلمح إلى ما ينتظرها فى مستقبل أيامها من دور ذى خطر ، ولشد ما كانت دهشته حين قالت له « زينب » فى جد رصين :

— أعرف ذلك يا أبى . . . أخبرتنى به أمى .

ولم يجد الأب ما يقول ، فأطرق صامتاً وقلبه يخفق رحمة وحناناً .

* * *

وأرانى قد تناولت الحديث عن صبا « زينب » لألمح امتداد هاتيك الظلال الحائمة حول مهدها . فلأترك هذا إلى حين ، ولأعد إلى طفولتها الباكرة ، فأراها تستقبل من الأحداث الكبرى ظلال الواقع ، ولما تزل طفلةً فى الخامسة من عمرها !

....

الصِّبَا الحَزين

لم تكن « زينب » جاوزت الخامسة ، حين لبّى جدها ﷺ نداء ربه ، وثوى جسده الطاهر حيث قبض فى بيت أم المؤمنين « السيدة عائشة » . بعد أن فتح « مكة » وطهّر البيت الحرام من الأوثان ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وختم الوحى . . .

ولعل الطفلة تابعت المشهد الرهيب لتشييع جدها العزيز إلى مثواه وإن لم تدرك فى حداثتها الغضة ، مغزى تلك الرحلة الأليمة المحتومة ، أو تفهم مدار ذلك الحوار بين الصديقين الصاحبين : « عمر وأبى بكر » ، يصيح أولهما :

ـــ إن محمداً لم يمت ، ووالله ليرجعَن كما رجع موسى !

ويحاول أبو بكر أن يرده عن قالته ، ثم لما رأى إصراره عليها صاح فى الجمع الحاشد :

ـــ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت . ثم يتلو الآية المحكمة :

﴿ ومَا محمدٌ إلّا رسولٌ قد خلتْ من قبلهِ الرسلُ ، أفئن ماتَ أو قُتِلَ انقلبتُم على أعقابِكم ، ومن ينقلبْ علَى عَقِبيْه فلن يَضُرَّ اللّهَ شيْئًا ، وسَيجزِى اللّهُ الشاكرين ﴾ .

أجل ، لا أقول إن بنت الخامسة أدركت مغزى هذا أو ذاك ، ولكنها رأت ـــ دون شك ـــ مشاهد الذهول والحزن والجزع ، وأصغت إلى عويل الباكيات وصراخ الحزانى . ومن يدرى ما الذى كان يدور بخلد الصغيرة الذكية وهى تلقى جدها الكبير صامتاً فى تلك المناحة المفجعة ، ساكناً والدنيا من حوله ضاجة صاخبة ، هائجة مائجة ، ثائرة فائرة ، كأنما قد لفَّها إعصار ؟ !

أى خوف غامض قد غزا قلبها الخلىّ إذ ذاك ، وروَّع نفسَها الساذجة الآمنة ؟

أى طائف من الحزن المبهم قد طاف بها فى عامها الخامس فأسمعها صدى الموت ، وأراها موكب الرحيل ؟ .

إنى لأتمثلها واقفة هناك ، تشهد جدها فى ضجعة الموت ، وترى رأسه يسقط فى حجر « عائشة » فتضعه فى رفق على وسادة ، وتسبل عليه ثيابه ، وتغمض عينيه ، وتقبل الجبين العزيز ، ثم تنطلق إلى الرحبة فيرتفع الصياح والعويل ، متنقلاً من حجرة « السيدة عائشة » إلى دور النبى ، ومنتشراً من بعد ذلك إلى « أُحد » ، و « قباء » و « بدر » إلى أم القرى فما وراءهما من الجزيرة العربية .

ويُغسل الجسد الزكى ويطيّب بالمسك ، ويكفن بأثواب ثلاثة ، ثم يؤذن للناس فيدخلون جماعات ليودعوا أعزّ راحل . . .

أتمثلها هناك . . . تحدق فى القوم وهم يحفرون حفرة عميقة فى بيت الحبيبة عائشة ، ثم يأتى ثلاثة من الصحابة ــ تعرف فيهم زينب أباها علياً ــ فيُدْلون الجسد فى الحفرة مترفقين ، ويبنون لبناتٍ فوقه ! . . .

أتمثلها كذلك ، وهى تلوذ بحضن أمها « الزهراء » تلتمس مأمناً من خوف وفزع ، فإذا الأم حزينة ولهى . . .

وتنعطف الطفلة إلى أبيها ، فتراه أشد ما كان حزنا وغماً .

* * *

حدث هذا بمرأى من الصبية أو مسمع ، وما أحسبها نسيت مع الأيام ، مشهداً أليماً طالعته فى صباها حينذاك ، يوم حاول « عمر بن الخطاب رضى الله عنه » أن يدخل بيت « الزهراء » كى يحمل « علياً » على البيعة « لأبى بكر رضى الله عنه » خشية تفرق الكلمة وتمزق الشمل ، فلم تأذن له أم أبيها رضى الله عنها . .

ومضى « عمر » محزوناً يسأل « أبا بكر » أن ينطلق معه إلى « فاطمة » ليسترضياها .

وانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا « علياً » فكلماه ، فأدخلهما عليها ، فلما أخذا مجلسيهما وتكلم « أبو بكر » قال :

ــ يا حبيبة رسول الله ، والله إن قرابة رسول الله أحب إلىّ من قرابتى ، وإنك أحبُّ إلىَّ من عائشة ابنتى ، ولوددتُ يوم مات أبوك أنى متُّ ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك ، وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ، إلا أنى سمعته ﷺ وآله يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

فأدارت « فاطمة » إليهما وجهها الشاحب الحزين وسألت :

ــ أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله ﷺ وآله تعرفانه وتعملان به ؟

قالا معاً : « نعم » .

فقالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : « رضى فاطمة من رضاى ، وسخط فاطمة من سخطى ، فمن أحبَّ فاطمة ابنتى فقد أحبنى ، ومن أرضى فاطمة فقد أرضانى ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطنى ؟ » .

قالا : « نعم سمعناه من رسول الله ﷺ وآله » .

وعادت فأشاحت بوجهها الحزين .

وخرج الزائران يبكيان !..

حتى إذا لقيا القوم ، سألهم « أبو بكر » أن يقيلوه من البيعة فأبوا ...

* * *

وتمضى الأيام التى أعقبت وفاة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، كئيبة مثقلة بالأحزان و « زينب » جالسة إلى فراش أمها العليلة بادية اللهفة والخوف والإشفاق .

وغشيت البيتَ سحبٌ من الوجوم والانقباض « فما يذكر التاريخ أن أم أبيها الزهراء ضحكتْ بعد وفاته حتى لحقت به » ، وما يعرف أنها غادرت مخدعها إلا إلى قبر أبيها تبكيه ، وتأخذ بيدها حفنة من تراب القبر فتجعلها على عينيها ووجهها وهى تنشج :

ماذا على من شمّ تربة « أحمد » ألا يشمَّ مدَى الزمانِ غَوَاليا
صُبَّتْ علىَّ مصائب لو أنها صُبَّتْ على الأيامِ عُدْنَ لياليا

فيبكى الناس لبكائها .

وجرؤ « أنس بن مالك » يومًا فاستأذن على « فاطمة » رضى الله عنهما ، ومضى يتوسل إليها أن تترفق بنفسها ، وأن تلوذ بالصبر الجميل على المصاب الجليل ، فتجيبه سائلة :

ــ كيف مكنك قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟

فيبكى « أنس » بكاء شديدًا ، وينصرف عنها متفجعًا .

وضربوا بها المثل فى الحزن ، وعدوها من البكائين الخمسة أو الستة فى التاريخ : بكى « آدم » ندمًا ، وبكى « نوح » قومَه ، وبكى « يعقوب » ابنَه « يوسف » ، وبكى « يحيى » خوفَ النار ، وبكت « فاطمة » أباها .

وسيأتى حفيدها بعدها فيأخذ مكانه إلى جانبها فى هذه السلسلة الأليمة للبكائين ، ويضاف اسمُه إلى أسمائهم فيقال : « ... وبكى علىٌّ زينُ العابدين أباه الحسين » .

* * *

ثم أدركتها رحمة الله فلحقت بأبيها بعد قليل : قيل بعد ستة أشهر ، وقيل بل ثلاثة ، وقيل أقل من ذاك .

وتكرر المشهد أمام « زينب » .

ولكنها فى هذه المرة كانت أنضج إدراكًا وأرهف حسًا ، وفقدُ الأم جدير بأن ينضج الوعىَ ويذيق الطفولة مرارة الحزن .

لم يعد خوفها غامضًا ولا حزنها مبهمًا . فهى تعرف أن أمها ترحل إلى غير عودة إلى الحياة الدنيا ، وهذه هى ــ ابنتها زينب ــ تحدق فى القوم وهم يودعون جثمان أمها « الزهراء » فى ثرى « طِيبة » بجوار أبيها عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأزكى التحية ...

وتصغى « زينب » يومئذ إلى أبيها ، وقد تمهل عند قبر « الزهراء » يندبها مودعًا :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقَّ عنها تجلدى ، إلا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضعَ تعزٍّ !

(إنا لله وإنا إليه راجعون) فلقد استُرجعت الوديعةُ وأُخذَت الرهينةُ ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارَكَ التى أنت بها مقيم . والسلام عليكما سلامَ مودِّع لا قالٍ ولا سئم ! فإن أنصرفْ فلاَ عنْ ملالةٍ ، وإنْ أُقم فلا عن سوءِ ظنٍّ بما وعد الله الصابرين » .

* * *

وتعود « زينب » إلى الدار ــ وفيها أخواها ، وأختها الشقيقة الصغرى أم كلثوم ــ فتلقى الدار من أمها قفرًا .

وتفقدها إذا جنَّ الليل وإذا طلع النهار ، فلا تجد إلا الوحشة والفراغ ...

ويحدثها قلبها أن قد فقدت أعزَّ وأجمل ما فى الحياة ، فتحس لذلك ألمًا مرهقًا يحاول أبوها أن يخففه عنها بفيض من رعايته .

وقد وفدت على دار « على بن أبى طالب » ــ على فترات بعد وفاة « الزهراء » زوجات أخريات ولدن له البنين والبنات :

« أم البنين بنت خزام بن خالد العامرية » ولدت لعلى : العباس ، وجعفرًا ، وعبد الله ، وعثمان .

وليلى بنت مسعود بن خالد النهشلى الدارمية ، ولدت له : عبيد الله ، وأبا بكر .

وأسماء بنت عميس الخثعمية : ولدت له :محمدا الأصغر ويحيى .

والصهباء بنت ربيعة التغلبية ، ولدت له : عمر ، ورقية .

وأمامة بنت أبى العاص بن الربيع ــ أمها زينب بنت الرسول ﷺ ــ ولدت له : محمدًا الأوسط .

وخولة بنت جعفر الحنفية ، ولدت له : محمدًا الأكبر المعروف بابن الحنفية .

وأم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفية ، ولدت له : أم الحسن ورملة الكبرى .

ومخبأة بنت امرىء القيس بن عدى الكلبية ، ولدت له : بنتًا ماتت صغيرة .

وفدت هؤلاء الزوجات(1) ، لكن مكان « الزهراء » ظل شاغرًا فى بيت زوجها الإمام « على » وأما فى قلوب أبنائها : الحسن ، والحسين ، وزينب ، وأم كلثوم ، فهو أبدًا شاغر ...

وتريد الرواية أن تنفرد « زينب » من دون هؤلاء الأشقاء ، بوصية من أمها « الزهراء » على فراش الموت وهى : « أن تصحب أخويها وترعاهما وتكون لهما من بعدها أُمًّا » .

ولم تنس « زينب » هذه الوصية .

وإذا استطعنا أن نتناسى إلى حين ، أحزان تلك الصبية التى رُوِّع عامها الخامس بشهود مأساة الموت مرتين ، فى أعز الناس عليها وأحبهم إليها ، وأن نكف عن التحديق فى تلك الظلال التى حامت على مهدها ، والأحزان التى

---

(1) من نسب قريش . قابل على جمهرة الأنساب لابن حزم ، وانظر فى (المحبر : 55) أصهار الإمام على كرم الله وجهه .

أرهقت صباها ، ألفينا جانبًا آخر من الصورة مشرقًا ، حيث تبدو « زينب » فى بيت أبيها ذات مكانة أكبر من سنها : أنضجتها الأحداث ، وهيأتها لأن تشغل مكان الراحلة الكريمة ، فتكون للحسن والحسين وأم كلثوم ، أُمًّا لا تعوزها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وإيثار ، وإن أعوزتها التجربة والاختبار .

وما بالغريب أن تشغل « زينب » مكان الأم ولما تبلغ العاشرة من عمرها إذا لم نقس زمانها بزماننا ومكانها بمكاننا ، فنزعم أن هذه سن اللهو واللعب ! تلك الحياة البدوية التى تنضجها شمس الصحراء بحرارتها اللافحة ، وتهبها من حدة اليقظة وامتداد البصر ودقة الحس وسرعة الإدراك ، ما لا يتاح للفتاة فى زماننا هذا الناعم المترف .

ولماذا نبعد ، وإن من أمهاتنا وجداتنا من حملن أعباء الزوجية والأمومة وهن فى العاشرة أو بعدها بقليل ، على حين نرى — نحن بناتهن — أن سن الخامسة والعشرين هى الملائمة لحمل مثل هذه الأعباء ؟ !

لقد تزوجت أختها الصغرى « أم كلثوم » وهى فى حداثتها الغضة قبل البلوغ ، أميرَ المؤمنين « عمر بن الخطاب » ، وتزوجت السيدة « عائشة بنت أبى بكر » قبل العاشرة ، ولم يرَ القوم فى مثل هذا ما يثير دهشة أو عجبًا ، وإن رآها أكثر الغربيين فى يومنا هذا ، أعجوبة الأعاجيب . وإنما قلت : أكثر الغربيين ، لأن فيهم قلة ، استطاعت أن تعقل هواها فقدرت الزمان والمكان ...

الفصل الثانى

عقيلة بني هَاشِـــم

- الزوجــة
- الأبنَــاء
- البَيــت

عقيلة بنى هَاشِــم

اختار « الإمام على كرم الله وجهه » لابنته حين بلغت مبلغ الزواج ، من رآه جديرًا بها حسبًا ونسبًا . وقد أقبل عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش ، ذوى الشرف والثراء ، فكان « عبد الله بن جعفر » أحق هؤلاء جميعاً بزهرة آل البيت وعقيلة بنى هاشم .

* * *

أبوه جعفر بن أبى طالب : ذو الجناحين وأبو المساكين ، شقيق « على » وحبيب « النبى » الذى قال فيه « أبو هريرة » : « ما ركب أحد المطايا ... ولا احتذى النعالَ أحدٌ بعد رسول الله ﷺ وآلهِ ، أفضل من جعفر بن أبى طالب » .

هاجر بدينه إلى الحبشة إبان الاضطهاد ، ثم رجع مع بقية من كان بالحبشة من المهاجرين وصادف وصوله إلى « المدينة » فتح « خيبر » فالتزمه الرسول ﷺ معانقًا وجعل يقبله بين عينيه ويقول : « ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحًا : بقدوم جعفر ، أم بفتح خيبر » ؟

وسُمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول : « الناس من شجر شتى ، وأنا وجعفر من شجرة واحدة » .

وخرج ، رضى الله عنه ، مع الجيش الذى توجه إلى مؤتة ، من بلاد الروم فى السنة الثامنة من الهجرة ، وقد جعل النبى ﷺ لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، « فإن أصيب زيدٌ فجعفر بن أبى طالب على الناس ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس » .

ومضى جند الإسلام حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم جموع « هرقل » فانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة ، ودارت المعركة طاحنة : قاتل « زيد » رضى الله عنه ، براية ﷺ حتى مزقته رماح القوم ، فأخذها « جعفر » وقاتل بها حتى قطعت يمناه فأخذها بيساره وقاتل حتى قطعت يسراه ، فاحتضن الراية حتى استشهد ، رضى الله عنه[1] .

وأم عبد الله بن جعفر ، « أسماء بنت عميس » : أخت « ميمونة أم المؤمنين » و« سلمى » زوج حمزة بن عبد المطلب ، و« لبابة » زوج العباس ابن عبد المطلب .

تزوجها « جعفر » فكانت أم أولاده جميعا ، فلما قُتِل تزوجها « أبو بكر » فولدت له محمداً ، ثم توفى عنها فخلف عليها « على بن أبى طالب » فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر . وفى رواية « الواقدى » أنها ولدت له عوناً ويحيى .

* * *

وُلِدَ « عبدُ الله بن جعفر » بأرض الحبشة ، لما هاجر أبواه إليها ، فكان أول من ولد بها من المسلمين . وينقل « ابن حجر » فى (ترجمة عبد الله بالإصابة) أن النبى ﷺ قال فيه : « وأما عبد الله فيشبه خُلقى وخَلقى » ثم أخذ بيمينه فقال : « اللهم اخلف جعفراً فى أهله ، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه ــ قالها ثلاث مرات ــ وأنا وليُّهم فى الدنيا والآخرة »

وأسند الإمام أحمد عن عبد الله بن جعفر قال : لقد رأيتنى وقثم وعبد الله ــ ابنى العباس والزبير رضى الله عنهم ــ ونحن صبيان نلعب إذ مرّ رسول الله ﷺ فقال : « ارفعوا هذا إلىَّ » فحملنى أمامه . وقال لقثم : « ارفعوا هذا إلىَّ ، فحمله وراءه ، ثم مسح على رأسى ثلاثا ، كلما مسح قال : اللهم اخلف جعفرًا فى ولده .» .

---

(١) السيرة الهشامية : ٤ / ١٥ ، وطبقات ابن سعد ، غزوة مؤتة . وترجمة جعفر رضى الله عنه فى الإصابة ، ومناقبه فى (مجمع الزوائد للهيثمى : ٩ / ٢٧١) مع (نسب قريش ، وجمهرة الأنساب) .

وفى الصحيحين : قال ابنُ الزبير لابن جعفر رضى الله عنهم : أتذكر إذ تلقينا رسول الله ﷺ أنا وأنت وابنُ عباس ؟ قال : نعم ، فحملنا وتركك »(١)

كان « عبد الله » سيداً شهماً كريماً عفًا ، سمى قطب السخاء ، لا يبيع معروفاً ولا يرد سائلاً ؛ عن « محمد بن سيرين » أن رجلاً من التجار جلب سكراً إلى المدينة فكسد عليه فبلغ خبره « عبد الله بن جعفر » فأمر قهرمانه أن يشتريه ويهبه للناس .

ووجه إليه « يزيد بن معاوية » مالاً جليلاً هدية ، فلما تلقى عبد الله المال ، فرقه فى أهل « المدينة » ولم يدخل داره منه شيئًا ، فذلك قول « عبد الله ابن قيس الرقيات » :

وما كنت إلا كالأغر « ابنِ جعفر » رأى المالَ لا يبقى ، فأبقى له ذكرا

وقول « الشماخ ، معقل بن ضرار » :

إنك يا ابنَ جعفر نعم الفتى ونعم مأوى طارقٍ إذا أتى
وُربَّ ضيفٍ طرق الحَىَّ سرى صادف زاداً ، وحديثاً ما اشتهى

وروى « ابن قتيبة » فى (عيون الأخبار) أن « معاوية » لما قدم « المدينة » منصرفًا من « مكة » بعث بهداياه وصِلَاته إلى « الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر » فى عدد من أشراف قريش . ثم أوصى رسله أن يتريثوا حتى يروا ما يفعل كل رجل بهديته ، فلما خرج الرسل قال معاوية لمن حوله :

ـــ إن شئتم أنبأتكم بما يكون من القوم : أما « الحسن » فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب ويهب ما بقى من حَضَرَه ، ولا ينتظر غائباً .

وأما « الحسين » فيبدأ بأيتام من قُتِلَ فى صفين ، فإن بقى شىء نحر به

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر ، رضى الله عنهما : والنقل من (اللؤلؤ والمرجان : ك فضائل الصحابة : ح ١٥٧٢)

الجزر وسقى به اللبن . وأما « عبد الله بن جعفر » فيقول لمولاه : يا بديح ، اقضِ به دينى ، فإن بقى شىء فأنفذ به عِدَاتى .

وأما فلان ...

قالوا : وعاد الرسل فحدثوا بما رأوا وما سمعوا ، فكان الأمر كما قال « معاوية » .

ولقد أسرف « عبد الله بن جعفر » على نفسه فى الجود ، لا يبالى أن يهلك ماله أو أن يصل إلى أعدائه(١) ذكره ابن حبيب فى (أجواد الإسلام) وخصه بذكر ماله فى الجود من « أحاديث كثيرة عجيبة » ملأت صفحاتٍ من كتابه (المحبَّر) ، وختمها بقوله : « وأحاديثه فى الجود أكثر من أن تستقصى » (٢) .

* * *

أثمر الزواج المبارك ثمرته ، فولدت « زينب بنت الزهراء » لعبد الله بن جعفر أربعة بنين : علياً ، ومحمداً ، وعوناً الأكبر ، وعباساً ، كما ولدت له فتاتين ، إحداهما « أم كلثوم » التى أراد « معاوية » بدهائه السياسى ، أن يزوجها من ابنه « يزيد » كسباً للهاشميين ، فترك « عبد الله » أمر ابنته لخالها « الإمام الحسين » الذى اختار لها « القاسم بن محمد بن جعفر بن أبى طالب » . جفيد ذى الجناحين .

و لم يفرق الزواج بين « زينب » وأبيها وإخوتها ، فقد بلغ من تعلق « الإمام على » بابنته وابن أخيه ، أن أبقاهما معه ، حتى إذا ولى أمر المسلمين وانتقل إلى الكوفة ، انتقلا معه فعاشا فى دار الخلافة ، موضع رعاية أمير المؤمنين وإعزازه ، ووقف عبد الله بجانب عمه فى نضاله ، فكان أميرًا من أمراء جيشه فى « صفين » .

وعرف الناس مكانة « عبد الله » من بيت النبوة ، فكانوا يلتمسون لديه الوسيلة إلى أمير المؤمنين ، وإلى ولديه الحسن ، والحسين ، فلا يُرَدُّ له طلبٌ ولاَ يَخِيبُ فيه رجاء .

(١) وانظر مناقب عبد الله بن جعفر رضى الله عنه فى (مجمع الزوائد : ٩ / ٢٧٥) .
(٢) المحبر (فصل أجواد الإسلام) ١٤٧ — ١٥٠ .

فى ترجمته رضى الله عنه بالإصابة عن « محمد بن سيرين » أن دهقانًا من أهل السواد كلم « ابن جعفر » فى أن يكلم « عليًا » فى حاجة ، فكلمه ، فقضاها ، فبعث إليه الدهقان أربعين ألفًا فردّها قائلًا : إنا لا نبيع معروفًا .

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى (مقاتل الطالبيين) أنه لما مات « الحسن ابن على » أراد آل البيت أن يدفنوه مع رسول الله ﷺ كما أوصى قبل وفاته ، « فركب بنو أمية فى السلاح ، وجعل مروان بن الحكم يقول :

★ يا رب هيجا هى خير من دعه ★

أيدفن عثمان فى أقصى البقيع ، ويدفن الحسن فى بيت رسول الله ﷺ ؟ لا يكون ذلك ابَداً ، وأنا أحمل السيف » .

وأبى « الحسين » أن يدفن أخاه إلا مع جده ، فكادت الفتنة تقع ، لولا ، كلمة من « عبد الله بن جعفر » لابن عمه « الحسين » قال :

« عزمتُ عليكَ بحقى ألا تكلم بكلمة » .

ومضى بجثمان ابن عمه « الحسن » إلى البقيع ، وانصرف « مروان بن الحكم » .

* * *

كيف كانت « زينب » تبدو فى ريعان شبابها ؟ ...

تُمسكُ المراجع التاريخية عن وصف صورتها لنا فى تلك الفترة ، إذ هى فى خدرها محجبة لا نكاد نلمحها إلا من وراء ستار ، غير أنها سوف تخرج من خدرها بعد عشرات سنين ، فى محنة كربلاء . فيصفها من رآها وقتئذ رأى العين فيقول فيما نقل « الطبرى » :

« ... وكأنى أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس طالعة ... فسألت عنها ، فقالوا : هذه زينب بنت على » .

ويصفها أنصاريٌّ رآها عقب وصولها إلى مصر ، بعد مصرع الحسين رضى الله عنهما ، فيقول :

« ... فوالله ما رأيت مثلها وجهاً كأنه شقة قمر » .

كانت « السيدة » يومئذ فى الخامسة والخمسين من عمرها : غريبة متعبة ، مفجوعة ثكلى . فكيف بها إبان الشباب قبل أن تأكلها السنون وتطحنها الأحزان وتجرعها كأس الثكل حتى الثمالة ؟

وأما شخصيتها ، فيبدو أننا سوف ننتظر ـــ هنا أيضاً ـــ ريثما تكشف الأحداث عن قوة جنانها وثبات فؤادها ، وتبديها لنا فى أنبل صورة من الشجاعة والإباء والترفع .

وسيبدى المؤرخون إعجابهم بموقفها المشهور من « يزيد بن معاوية » ويدون لها ابن الأثير فى (أسد الغابة) وابن حجر فى (الإصابة) ما اتصلت به الرواية من قوة برهانها وقوة حجتها وموفور شجاعتها وعقلها .

وسوف يسمعها أهل عصرها فى كربلاء ، وفى مجلس والى « الكوفة » وفى حضرة « يزيد بن معاوية » ، فتبهرهم بلاغتها ، ويشهدون لها بسحر البيان .

روى « الجاحظ » فى (البيان والتبيين) عن « خزيمة الأسدى » قال : « دخلت الكوفة بعد مقتل الحسين ... فلم أر خفرة أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين ، على بن أبى طالب » .

* * *

هذه هى « زينب » كما رأيناها بعد كربلاء ، وكما بَدَتْ لنا منها ملامح فى إبان شبابها ، حيث نسمع أنها كانت تشبه أمها لطفاً ورقة ، وتشبه أباها علماً وتقى .

وكان لها ـــ فيما تقوّل بعض الروايات ـــ مجلس علمى حافل ، تقصده جماعة من النساء اللواتى يردن التفقه فى الدين .

وهكذا اجتمع لها مالم يجتمع لسواها من نساء جيلها ، فكانت « عقيلة

بنى هاشم » يروى عنها « ابن عباس » رضى الله عنهما فيقول : « حدثتنى عقيلتنا زينب بنت على »[1] .

وغلب عليها هذا اللقب ، فكان يقال « العقيلة » فيُعرف أنها هى ، ويعتز أبناؤها بهذا ، فيعرفون (ببنى العقيلة)[2] .

* * *

(١ ، ٢) الاصفهانى : (مقاتل الطالبيين) ٩١ .

الفصل الثالث

بطَــلة كربَــلاء

ــ نذر العاصفة

ــ رَحِيـــــل

ــ دَليـــل الركب

ــ محاوَلة .. وإصرار

ــ نحوَ وَادِى الموْت

ــ يَــــوم الطــفِّ

نذرُ العَاصِفَة

لم نكن لنلقى بأنفسنا فى غمار الأحداث السياسية العنيفة التى شهدها (البيت العلوى) لو أن « العقيلة » أقامت بعيدة عن ميدان الأحداث وبقيت فى الحجاز عاكفة على حياتها الخاصة متفرغة لأعباء الزوجية والأمومة .

أما وقد ساقتها الظروف إلى صميم الدوامة الهادرة التى تلف الدولة الإسلامية فى عنف ، فنحن مضطرون إلى أن نمضى فنرقب النذر التى آذنت بالعاصفة العاتية الهوجاء .

وقد تمر فترة طويلة تغيب « زينب » خلالها فى غمرة الأحداث هذه ، بل قد نفقد أثرها أحيانًا فى ضجة الدوى الراعد الذى كان يصم الآذان ، ويدير الرؤوس ، لكنا سنجدها أخيرًا بعد أن تكون الأحداث العنيفة قد هيأت المسرح لظهور (بطلة كربلاء) .

ومن هنا يبدو عذرنا إذ نطيل الحديث عن معارك سياسية قد يظن ظانٌّ أنها لا تمس « زينب » إلا من حيث صلتها بالقادة والأقطاب ، ومكانها من البيت الهاشمى ، على حين نرى فى كل هذه المعارك ، مقدمات لها خطرها فى توجيه حياة « زينب » وأثرها فى إعدادها لدورها المقدور ...

* * *

قدر « لزينب » أن ترى مجرى الحوادث عن كثب : شهدت الأمر ينتقل من « أبى بكر » إلى « عمر » ثم إلى « عثمان » عام ٣٥ هـ ، لتبدأ المعركة الطاحنة ، معركة الفتنة التى لعل نارها لم تخب حتى يومنا هذا .

سمعت أصداء صوت « عائشة أم المؤمنين » وكانت بمكة تريد عُمرة — وهى تحض على المطالبة بدم عثمان الشهيد ، وتصيح فى الناس : « إن الغوغاء

من أهل الأمصار وعبيد أهل المدينة ، وقد سفكوا الدم الحرام فى الشهر الحرام ، واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم . . . » [1]

ثم تخرج « عائشة » على الجمل من المدينة ، قائدة لمن خرجوا يقاتلون الإمام « على ، أمير المؤمنين » .

وما كان « على » قاتِلَ « عثمان » أو المحرض عليه أو الراضى به ، ولا كانت « عائشة » راضية عن « عثمان » أو ولية دمه المسفوك ، بل تكلمت فيه قبل مصرعه بما أنكرت منه .

ومن المؤرخين من يذهب إلى أنها ما كانت لتثور ، لو أن الأمر لم ينتقل إلى « على بن أبى طالب » . روى « المدائنى » أنه لما قتل « عثمان » كانت « عائشة » بمكة ، وبلغها النبأ وهى خارجة ، فقالت وهى لا تشك فى أن « طلحة بن عبيد الله التيمى » صاحب الأمر : « إيه يا صاحب الإصبع — وكانت تلك كنية طلحة منذ قطعت إصبعه دفاعًا عن الرسول ﷺ يوم أُحد — إيه أبا شبل ، إيه ابن عم ! لكأنى أنظر إلى إصبعه وهو يباع له حثوَ الإبل » .

ثم لما عرفت « عائشة » بعد أن قضت العمرة بما تم من البيعة « لعلى » ، أمرت بردِّ ركائبها إلى مكة وهى تقول : قتلوا ابن عفان مظلومًا ...

سألها سائل : ألم أسمعك تقولين وذكرها ببعض ما قالت . .

وروى « الطبرى » فى تاريخه أنه لما قتل « عثمان » تساقط الهُرَّابُ إلى « مكة » و « عائشة » هناك تريد العمرة ، فأخبروها أن قد قتل « عثمان رضى الله عنه » فقالت ما معناه

(1) تاريخ الطبرى : ٥ / ٦٥ باختصار .

ـــ هذا غب ما كان بينكم وبينه من عتاب الاستصلاح .

حتى إذا قضت عمرتها وخرجت ، لقيها رجل من أخوالها من بنى ليث ، يقال له « عبيد بن أبى سلمة » المعروف « بابن أم كلاب » ، سألته عما وراءه ، فأصم ودمدم . . .

فلما استحثته قال : « قتل عثمان » وسكت .

قالت : « ثم صنعوا ماذا » ؟ فقال :

ـــ أخذها أهل « المدينة » بالإجماع فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز : اجتمعوا على « على بن أبى طالب » .

فقالت : ردونى ، ردونى »

ورجعت إلى مكة وهى تقول كلمتها : قتل والله « عثمان » مظلومًا . والله لأطلبن بدمه ...

لعل أم المؤمنين السيدة عائشة ، لم تنس أنه زوج الزهراء بنت « السيدة خديجة » الودود الولود التى شغلت من قلب زوجها ، فى حياتها وبعد الممات ، مكانًا لم تستطع « عائشة » بكل شبابها وجمالها ونضرتها وحيويتها وذكائها ، أن تزحزحها عنه .

أو لعلها لم تغفر لـ « على » موقفه فى فرية الإفك ، فقد كان ممن أشار على الرسول ـــ ﷺ وآله ـــ بطلاقها ، فالنساء غيرها كثيرات . وقال للنبى عليه الصلاة والسلام : « سل الخادم وخَوِّفها . . »

وقيل كثير وكثير . . . أصغَتْ إليه « عائشة » ووعَتْه ، ولعلها لم تستطع أن تتناساه !

* * *

كانت « زينب » حين شبت الفتنة ، فى الثلاثين من عمرها ، تعيش مع

زوجها وبنيها فى دار الخلافة ، وترقب عن كثب وميض تلك الفتنة ، وتشهد أباها أمير المؤمنين يخوض المعركة تلو المعركة ويفرغ من موقعة « الجمل » ليلقى « معاوية » فى جيش الشام « بصفين » ثم يفرغ منه ليلقى الخوارج فى « النهروان » وهكذا على مدى خمس سنين طوال .

ولا يذكر التاريخ هنا « لزينب » مشاركة فعلية فى الملحمة ، وإنما انفردت « عائشة » بدور البطولة فى المأساة المعروفة فى التاريخ باسم موقعة « الجمل » الذى ركبته أم المؤمنين على رأس الجموع المعارضة الثائرة ، وكانت هى القائدة العليا للجيش : تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء ، وتوجه الرسل بكتبها ذات اليمين وذات اليسار مصدرة بالعبارة التالية :

« من عائشة ابنة أبى بكر ، أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ﷺ وآله ، إلى ابنها الخالص فلان . . . أما بعد فإن أتاك كتابى هذا فاقدم فانصرنا . . »

ولباها من لبى ، ورد عليها من ردّ . .

وبذل بنو أمية لهذا الخروج أموالهم فى سخاء ...

فلما فصل جيشها من « مكة » كانت عدته ثلاثة آلاف سارت بهم حتى دخلت « البصرة » ، ووقفت تخطب فى الجمع المحتشد هناك تحرض على قتلة عثمان :

« ... كان الناس يتجنون على عثمان ، ويزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا ... فننظر فى ذلك فنجده بريئًا نقيًا وفيًا ، ونجدهم فجرة كذبة ، يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا تِرَةٍ ولا عذر ... » .

فهاج الناس وماجوا ، فأُسكِتَ لها الناسُ ، فقالت منذرة بعواقب مصرع أمير المؤمنين ، ذى النورين :

« إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غيَّر وبدّل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة

حتى قُتل مظلومًا تائبًا ... قتلوه محرمًا ، ذبحًا كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشًا رمت غرضها بنبالها ، وأدمتْ أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئًا ولا سلكت به سبيلاً قاصدًا . أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، ولَيُسلَّطن عليهم قوم لا يرحمونهم ، يسومونهم سوء العذاب .

« أيها الناس ، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل دمَه ، مصصتموه كما يماص الثوب الرحيض ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابن أبى طالب بغير مشورة من الجماعة ، ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم ؟

« ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولايدخل فيهم من شرك فى دم عثمان » .

....

وتصدى لها « الأحنف بن قيس » يقول : إنى سائلك ومغلظ لك فى المسألة ، فلا تجِدى علىّ . فما زال يسألها حتى قال : ألا تخبريننى يا أم المؤمنين ، أللحرب قدمت أم للصلح؟ » .

أجابت وهى تكظم غيظها : بل للصلح .

فقال لها : « والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ، ما اصطلحوا على يديك ، فكيف والسيوف على عواتقهم ؟ » .

فلم تدر بم تجيب ، واكتفت بأن تقول فى ألم : « لقد استغرق حلمَ الأحنفِ هجاؤه إياى ، إلى الله أشكو عقوق أبنائى » .

* * *

وكان ما كان ، وعقر « الجمل » وكادت « أم المؤمنين السيدة عائشة » رضى الله عنها ، تُصاب لولا أن أنقذها أمير المؤمنين كرم الله وجهه ونادى مناديه :

« ألا يجهز على جريح ، ولا يتبع مُوَلٍّ ، ولا يطعن فى وجه مدبر ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن » .

ووقف أمير المؤمنين بعد انتصاره ، يرجع البصر فى جثث القتلى وقد بلغوا نحوًا من عشرة آلاف : كله مسلمون ، وفيهم الصحابة من آل البيت ، وحملة القرآن الكريم ، وحفاظ السنة النبوية . رضى الله عنهم

ثم أشاح بوجهه عن الساحة المغطاة بالجثث ، ورفع يديه إلى السماء ينشد فى ضراعة وابتهال :

إليك أشكو عُجَرِى وبُجَرِى
ومعشراً أغشوا علىَّ بصرى
قتلت منهم مُضَرِى بِمُضَرى
شفيت نفسى وقتلت معشرى

ثم صلى على القتلى من أهل الكوفة والبصرة . (١)

وأعيدت السيدة « عائشة » رضى الله عنها إلى « المدينة » بعد أن انفردت ببطولة الملحمة ، لم تترك لامرأة سواها مكاناً إلى جانبها ، اللهم إلا أن تكون كلمة عابرة أو مشهداً ثانوياً ليس بذى بال :

ودَّت أم المؤمنين « أم سلمة » أن تخرج لتنصر « الإمام علياً » لكنها كرهت أن تُبْتَلَى بمثل ذاك الخروج ، فجاءت « علياً »وقدمت إليه ابنها « عمر » قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنكَ لا تقبلُه منى ،

---

(١) الطبرى : ٦ / ٢٣١ حوادث سنة ست وثلاثين للهجرة ، ما كان من توجع « الإمام على » على قتلى يوم الجمل .

لخرجت معك . وهذا ابنى عمر — والله لهو أعز علىّ من نفسى — يخرج معك فيشهد مشاهدك » .

وأتت « السيدة عائشة » فقالت لها :

« أى خروج هذا الذى تخرجين ؟ ... الله من وراء هذه الأمة !

* * *

لكن السيدة « عائشة » مضت فى طريقها ، وتخلفت أمهات المؤمنين عنها — وكن قد خرجن معها إلى مكة — مؤثرات أن يرجعن إلى « المدينة » إلا « حفصة بنت عمر » فإنها قالت : « رأيى لرأى عائشة تبع » .

وأرادت أن تخرج معها إلى البصرة . فحال أخوها « عبد الله بن عمر » بينها وبين الخروج فأرسلت إلى عائشة معتذرة عن القعود . فقالت عائشة : يغفر الله لعبد الله بن عمر .» (١)

* * *

وأما السيدة « زينب » بنت الإمام على ، فلم نلمح لها أثرًا و لم نسمع لها صوتًا . وكأن القدر كان يدخرها لموقف من نوع آخر ، عندما يحين أوان ظهورها فى « كربلاء » بعد ربع قرن من يوم الجمل .

لكنها مع ذلك كانت هناك فى دار الخلافة ، حيث مركز الأحداث ، وقطب رحاها ! ترمق أباها أمير المؤمنين فى حب وقلق ، وهو يخوض المعركة تلو المعركة ، ويفرغ من موقعة « الجمل » ليلقى « معاوية » فى « صفين » ثم « الخوارج » فى « النهروان » ؛ وهكذا على مدى خمس سنوات ، لم يهدأ فيها يومًا . حتى كانت تلك الليلة المشئومة ، لتسع عشرة خلون من شهر رمضان

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥ / ١٦٧ (سنة ٣٦ هـ) .

سنة ٤٠ هـ وقد خرج الإمام فى الفجر يصلى بالناس فى المسجد الأعظم بالكوفة ، و « زينب » فى الدار ما تدرى إلا وضجة تعلو آتيةً من ناحية المسجد ، مبددة أصداء الأذان الذى ارتفع منذ لحظات من مآذن الكوفة : حيَّ على الصلاة ، حيَّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر . . .

وأمسكت « زينب » قلبها فى ذعر مبهم ، وأصغت فى وجوم وقلق إلى الضجة وهى تقترب من دار الخلافة شيئاً فشيئاً ، حتى إذا بلغت ساحة الدار ميزت « زينب » صيحات مروعة ، تعلن ملء الفضاء : أن قد طُعِنَ أمير المؤمنين ....

جمعت « زينب » كيانها الموشك على التداعى ، وتحاملت تستقبل أباها الحبيب محمولاً على الأعناق ، قد أصابته طعنة قاتلة مسمومة ، من سيف « عبد الرحمن بن ملجم المرادى ، الخارجى » :

وأكبت عليه تقبله وتغسل جرحه بدموعها ، وأختها « أم كلثوم إلى جانبها تصيح بالقاتل وقد جىء به مكتوف اليدين : أى عدو الله ، لا بأس على أبى ، والله مخزيك » .(١)

وسمعت « زينب » فيما سمعت من العُوَّاد ، خبرَ « ابن ملجم » : كان ثالث ثلاثة من الخوارج ، ائتمروا « بعلى ومعاوية وعمرو » ثأراً لإخوانهم قتلى « النهروان » وحسماً لذاك البلاء الذى استشرى منذ يوم التحكيم .(٢)

وقد خرج « ابن ملجم » من « مكة » وسار حتى قدم « الكوفة » فزار رجلاً من أصحابه من « تيم الرباب » فصادف عنده « قطام بنت أبى الأخضر » الخارجية ، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهروان ، سنة ٣٨ هـ وكانت فائقة الجمال ، تعد من أجمل نساء زمانها . فلما رآها « ابن ملجم » أخذت قلبه ،

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ / ٧٥ — ٧٧ ، ومقاتل الطالبيين ٣٦ .

(٢) انظر فى (تاريخ الطبرى : ٦ / ٨٧ سنة ٤٠ هـ خبر الرجلين اللذين خرجا لقتل عمرو بن العاص ومعاوية .

وأراد أن يخطبها فسألته : ما الذى تسمى لى من الصداق ؟

أجاب : احتكمى ما بدا لك .

فقالت فى عزم وصرامة :

« أنا محتكمة عليك : ثلاثة آلاف درهم ، وعبدًا ، وقينة ، وقتلَ علىّ بن أبى طالب » !

ففكر برهة ثم قال لها وهو يكتم أمره :

لك جميع ما سألتِ . فأما قتلى « عليا » فأنى لى بذلك ؟

قالت على الفور :

ــ تلتمس غرته ، فإن أنت قتلته شفيت نفسى وهناك العيشُ معى . . .

فنظر إليها متأملاً ثم قال : أما والله ما أقدمنى هذا المصير ــ وقد كنتُ هارباً منه لا آمن مع أهله ــ إلا ما سألِتنى من قتل « على » فلكِ ما سألتِ ! ..

ثم مضت فندبت له من يساعده ويقويه ، وذهب هو فلبث أياماً ثم أتاها مع صاحبيه فى الليلة الموعودة ، فدعت لهم بحرير فعصبت به صدورهم ، وقلدتهم سيوفهم ، وأرسلتهم ... فكان ما كان .(1)

قال ابن أبى مياس المرادى :

فلم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة — كمهر « قطام » من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينـة — وضرب « علىّ » بالحسام المصمم

ولا مهر أغلى من علىّ وإن علا — ولا فتك إلا دون فتكِ ابنِ ملجم

* * *

تكاثر العواد يقفون بباب أمير المؤمنين ضارعين داعين ، فلما لم يؤذن لهم فى الدخول عليه ، عرفوا أنه الخطر قد اشتد والجرح قد غار ، وقال قائلهم لحاجب الإمام : قل له : يرحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً ، فوالله لقد كان الله فى صدرك عظيماً ...

---

(1) تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير : سنة ٤٠ هـ ومعهما جمهرة الأنساب لابن حزم : ١٨٩ ، ومقاتل الطالبيين ٣٢ .

وجاءوه بأطباء الكوفة فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من « أثير بن عمرو ابن هانىء »، وكان متطبباً يعالج الجراحات ، أصابه « خالد بن الوليد » مع أربعين غلاماً فى « عين التمر » فسباهم .

ونظر « أثير » إلى جرح الأمير ، فدعا برئة حارة وانتزع عرقاً منها فأدخله فى الجرح ثم استخرجه ، فإذا عليه بياض الدماغ ، فقال له يائسا :

ـــ يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فإن عدو الله قد وصلت ضربته إلى أم رأسك .

فدعا الإمام ولديه « الحسن والحسين » وتهيأ لكتابة وصيته ...[٢]

ومن تلك اللحظة ، لم تدع « زينب » فراش أبيها ...

كانت تريد أن تتزود منه قبل الرحيل .

وما أسرع ما رحل أمير المؤمنين !

طُعِنَ فى فجر الجمعة ، فمكث أقل من يومين ، وتوفى ليلة الأحد ، لإحدى وعشرين ليلة مضت من شهر رمضان عام ٤٠ هـ وهو ابن ثلاث وستين على أرجح الأقوال .

وكانت خلافته خمس سنين .

وترك من ورائه ولديه الحسن ، ثم الحسين ، لخصمه الداهية « معاوية » .

وترك العقيلة « زينب » لتشهد آل البيت وهم يصلون النار التى أشعلتها فتنة الثأر « لعثمان » رضى الله عنه .

* * *

وأما « السيدة عائشة » فيقال إنها حين أتاها النعى ، تمثلت بقول الشاعر :[١]

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قرّ عينًا بالإياب المسافر

---

(٢) انظرها فى : تاريخ الطبرى : ٦ / ٨٥ ، وابن الأثير ٣ / ١١٩ ومقاتل الطالبيين : ٣٨ .

(٢) طبقات ابن سعد : ٣ / ٤٠

ثم سألت : من قتله ؟ .

فقيل لها : رجل من مراد .

وسمعتها « زينب بنت أم سلمة » رضى الله عنهما فسألتها منكرة :

ــــ ألعلى تقولين هذا ؟

قالت : إنى أنسى ، فإذا نسيت فذكرونى . ثم أنشدت :

ما زال إهداءُ القصائد بيننا   باسم الصديقِ ، وكثرةِ الألقاب

حتى تُرِكْتَ كأنَّ قولَك فيهمُ   فى كلِّ مجتمع طنينُ ذبابِ

وفى رواية أن الذى جاءها بنعيه ، « سفيان بن أبى أمية » .

* * *

ولكنها لم تلق عصاها و لم تستقر بها النوى ، فإن مقتل « الإمام على » كرم الله وجهه لم يكن سوى حلقة من سلسلة الفواجع التى ألمت بآل البيت ، ودفعت بهم طعاماً لنار الفتنة العمياء . . .

ثكلت « زينب » أباها .

وجاء دور شقيقها « الحسن »

بدأ هذا الدور بخطبة مؤثرة قال فيها :

« ... لقد قُبِضَ فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ، ولا يدركه الآخرون بعمل ، ولقد كان يجاهد مع رسول الله ﷺ وآله ، فيقيه بنفسه ، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح عليه . وما خلَّف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم بقية من عطائه ، أراد أن يبتاع منها خادماً لأهله » .(١)

ثم خنقته العبرة فبكى ، وبكى الناس معه . . .

وانتهى هذا الدور ــــ دور الحسن ــــ بعد عشر سنين . .

حاول فى أولها أن يقف لخصمه الداهية « معاوية » ، فخذله أهل الكوفة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩١ ، ومقاتل الطالبيين : ٥١ .

فكان أنْ تنازل عن الخلافة « لمعاوية » بعد أن شدَّ بعض أهل العراق على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وامتدت يد أحدهم فنزعت مطرفه عن عاتقه ، فبقى جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، وامتدت يد أخرى فأخذت بلجام بغلته وطعنته فى فخذه ! فازداد لهم بغضاً ومنهم رعباً ، وولى عنهم وهو يقول : « يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى » .[1]

ومرّضت « زينب » أخاها الجريح ، فلما اندمل الجرح نسيت مواجعها إلى حين ، وظنت أن نزول « الحسن » عن حقه منجيه من الهلاك ، وحاقن دماء آلها من سيوف القتلة !

ولكن « معاوية » كان يريد الخلافة ملكاً أموياً ، ولن يستطيع أن يأخذ البيعة لابنه « يزيد » والحسن بن على حى يتنفس ! ..

ولم يكن عهده « للحسن » أن يلى الأمر من بعده ، هو الذى يشغله ويهمه ، بل اليقين بأن المسلمين لا يرضون بيزيد بن معاوية ، بديلاً من « الحسن بن على » سبط النبى صلى الله عليه وسلم .

وإن معاوية ليذكر تماما ، يوم خطب فى الناس ـــ بعد أن تنازل له الحسن ـــ فذكر « علياً » فنال منه ، ونال من « الحسن » فقام « الحسين » ليرد عليه فأخذ « الحسن » بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبى على ، وأنت معاوية وأبوك صخر . وأمى فاطمة وأمك هند ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجدك حرب ، وجدتى خديجة ، وجدتك قتيلة ؛ فلعن الله أخملنا ذكراً وألأمنا حسباً وشرنا قدماً وأقدمنا كفراً ونفاقاً » .

فقالت طوائف من أهل المسجد : آمين ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٥ ، مع الإصابة ٢ / ١٣ .

وارتفع صوت يقول : ونحن نقول : آمين !

وردد آخرون : ونحن أيضاً نقول آمين !

أيمكن أن يحقق « معاوية » مأربه و « الحسن » ملء قلوب هؤلاء الناس وإن خذلته سيوفهم رهبة من « معاوية » ؟!

قالوا : وانصرف « الحسن » بعد تنازله عن الخلافة إلى « المدينة » فأقام بها نحو ثماني سنوات ، وأراد « معاوية » البيعة لابنه « يزيد » فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر « الحسن بن علي » فيشاع أنه مات مسموماً . وأن الذي تولى ذلك من « الحسن » ، زوجته « جعدة بنت الأشعث بن قيس الكِندية »[1]

فخلف عليها رجل من « آل طلحة » فأولدها ، فكان إذا وقع بين أولادها وبين بطون قريش كلام ، عيروهم وقالوا : يا بني مسمة الأزواج ...[2]

* * *

وشيعت « زينب » أخاها ، ثم آبت إلى البيت الحزين ، بعد أن أرقدوا فقيدها بالبقيع . وقد صلّى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة . وفي الخبر أن الإمام الحسين قدمه للصلاة على أخيه ، رضي الله عنهما ، وقال : لولا أنها سُنة ، ما قدمتُك .

وجاء الدور على الإمام الحسين ...

---

(١) الاستيعاب ، ترجمة الحسن رضي الله عنه ، من طريق « عمر بن شبّة وأبي بكر بن أبي خيثمة وعلى هامش ترجمة الإمام الحسن بالاستيعاب نقلا من هوامش (الاستيعاب) ما نصه : نسبة السم إلى معاوية غير صحيحة ، لما في (تاريخ ابن خلدون) : ما ينقل من أن معاوية دس له السم مع زوجته جعدة بنت الأشعث . فهو من أحاديث الشيعة . وحاشا لمعاوية مثل ذلك .

(٢) مقاتل الطالبيين : ٧٣ .

الهجـــرة

قال أبو عمر ابن عبد البر : وكان معاوية قد أشار بالبيعة إلى يزيد ، ابنه ، فى حياة الحسن وعرض بها ، ولكنه لم يكشفها ولا عزم عليها إلا بعد موت الحسن . وروينا من وجوه أن الحسن بن على لما حضرته الوفاة قال للحسين : يا أخى ، إن أبانا رحمه الله تعالى لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استشرف لهذا الأمر ورجا أن يكون صاحبه ، فصرفه الله عنه ووليها أبو بكر . فلما حضرت أبا بكر الوفاة تشوف لها أيضا فصُرِفَتْ عنه إلى عمر . فلما احتضر عمر جعلها شورى بين ستةٍ هو أحدهم فصرفت عنه إلى عثمان . فلما هلك عثمان ، بُويع ثم نوزع حتى جرد السيف فى طلبها فما صفا له شيء منها . وإنى والله ما أرى أن يجمع الله فينا ، أهلَ البيت ، النبوة والخلافة . فلا أعرفن ما استخفك أهل الكوفة فأخرجوك »[1]

* * *

جاء دور « الحسين » فتهيأت « زينب » لترعى أخاها وهو يرى الأمر يخرج من بيت « النبى » إلى بيت « أمية » ملكاً موروثاً .

ذلك أنه لم تكد تمضى على وفاة « الحسن » ست سنوات ، حتى دعا « معاوية » جهراً إلى البيعة لابنه « يزيد » من بعده ، فاستوثق له الناس راضين أو مكرهين ، غير خمسة نفر لم يكن فيهم من هو أحق بالغضب لهذه البيعة من « الحسين بن على » ولد « الزهراء » وسبط النبى ﷺ .

وعاش « معاوية » أربع سنوات بعد أخذه الناس بالبيعة لابنه ، والإمامُ

---

(١) الاستيعاب ، ترجمة الإمام الحسن . وفى أسد الغابة : « فلا يستخفنك أهل الكوفة فيخرجوك » .

« الحسين » عند موقفه ، لا يرضى أن يعترف بيزيد ولى عهدٍ للأمة . .

أفأنكروا على غذيِّ النبوة ، حقه فى الخلافة ، وهو التقى النقى العالم الفقيه ، لكى يرثها فتى من بنى أمية خليع رقيق الدين ، صاحب لهو وشراب ؟ أيورثه أبوه الخلافة ملكًا عضودًا هرقليًا ، وفى المسلمين صحابة أجلاء ، منهم الإمام « الحسين » ولد أم أبيها الزهراء ، وحفيد الطاهرة رضى الله عنهم جميعًا ؟

يأبى الإسلام ذلك ، ويأباه « الإمام الحسين » .

وإن « معاوية » لَيعرف هذا حق المعرفة ، ويعرف مَنِ « الحسين » ومَنْ « يزيد » ، فكانت وصيته الأخيرة لولى عهده :

« إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ...

« وإنى لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير » .(1)

ويمضى « معاوية » فينظر فى أولئك الثلاثة ، ويقيس مدى خطرهم على وارثه وولى عهده فلا يرى فيهم من هو أخطر على « يزيد » من « الحسين » فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ، وقرابة من محمد ﷺ وآله ، ومن ثم فهو يوصى ولى عهده بأن يدع « ابنَ عمر لعبادته فإنه رجل قد وقذه الدين ، فليس ملتمساً شيئاً قِبَلَ يزيد » وأن يأخذ « ابن الزبير » بالشدة . . . وأما « الحسين » فإن « معاوية » يلوذ بالأمل . ويدعو ليزيد : « أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ... ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه » .

* * *

(1) وصية معاوية لابنه يزيد ــ وكان غائبا ــ كتبت قبل وفاة معاوية ، مستهل سنة ستين ، وأمير الكوفة النعمان بن بشير الأنصارى ، وأمير البصرة عبيد الله بن زياد ، وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص (تاريخ الطبرى : سنة ٦٠ هـ) .

استقبلت » زينب » مع بنى هاشم ، خلافة « يزيد بن معاوية » فى شهر رجب سنة ٦٠ هـ .

وما كان ليزيد حلم أبيه ، أو رزانته ، أو دهاؤه السياسى .

لم يكفه أنه ورث الخلافة عن أبيه ، فكان أول وارث لها عرفه الإسلام ، ولم يشأ أن يدع « الإمام الحسين » معتكفاً فى « المدينة » كما فعل « معاوية » من قبل ، بل أصرَّ على أن يأخذ بيعة الحسين والذين امتنعوا بالحجاز وأبوا أن يجيبوا معاوية إلى بيعة ابنه يزيد .

كان همه الأول أن يفرغ من هؤلاء ، فكتب إلى أمير « المدينة » ـــ الوليد ابن عتبة بن أبى سفيان ـــ غداة موت معاوية : « أن خُذْ حسيناً ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، أخذاً شديداً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ... والسلام . »[1]

وكبر الأمر على « الوليد » فاستشار « مروان بن الحكم » ـــ وكان قدم المدينة ـــ فكانت مشورته : « أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة والدخول فى الطاعة ، فإن فعلوا قبلت منهم وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية ، وثب كل امرىء منهم فى جانب وأظهر الخلاف والمنابذة ودعا إلى نفسه[2] ...»

وجاء « الإمام الحسين » فى رهط من شيعته ومواليه ، فأبقاهم بباب « الوليد » على أهبة ، ودخل إلى الأمير وعنده « مروان بن الحكم » . فدعاه الوليد إلى البيعة ، فقال رضى الله عنه :

(١ ـــ ٢) الاستيعاب ، ونحوه فى تاريخ الطبرى : سنة ٦٠ هـ .

ـــ إن مثلى لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية !..

قال الوليد : أجل .

قال الحسين : فإذا خرجتَ إلى الناس فدعوتَهم إلى البيعة ، دعوتَنا مع الناس فكان أمراً واحداً . » فقال له ، وكان يحب العافية : فانصرفْ على اسم الله حتى تأتينا مع الجماعة .

وهمَّ « الحسين » بالانصراف ، لكن « مروان بن الحكم » انبعث يقول للوليد محذراً :

ـــ والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع ، لا قدرتَ منه على مثلها أبداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه . احبس الرجل ولا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه .

فوثب عند ذلك « الإمام الحسين » وهو يسأل فى إنكار :

ـــ أأنت تقتلنى أم هو ؟ كذبت والله وأثمت ...

ثم خرج ... و « مروان » يقول للوليد مؤنباً :

ـــ عصيتَنى ؟ لا والله ، لا يمكنك من مثلها من نفسه أبداً ...

فرد عليه الوليد :

ـــ وبِّخْ غيرى يا مروان ، إنك اخترتَ لى التى فيها هلاكُ دينى ، واللّهِ ما أحب أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه ، من مال الدنيا ومُلكها ، وأنى قتلتُ « حسيناً » . سبحان الله ! أقتل « حسيناً » أن قال : لا أبايع ؟ والله إنى لأظن أن امرأ يحاسَب بدم حسين ، خفيف الميزان عند الله يوم القيامة . »[1]

* * *

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩٠ (سنة ٦٠ هـ) والنقل منه ، والكامل لابن الأثير : ٤ / ٥ .

خرج « الإمام الحسين » حتى أتى منزله فألقى إلى أهله النبأ ، وأسرَّ إليهم بعزمه على الرحيل . . .

ورنت « مدينة الرسول » فى الليلة التالية ، إلى ابن الزهراء يتسلل بأهله منها ، حذراً يترقب تحت جنح الظلام ، قبل أن يبزغ القمر فينم عنهم ... لم يكد يترك منهم بالمدينة غير أخيه « محمد بن الحنفية » فإنه قال للحسين :

ــ يا أخى ، أنت أحب الناس إلىّ وأعزهم علىّ ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك . تنح بمن معك عن « يزيد بن معاوية » وعن الأمصار ما استطعت . ثم ابعث رسلك إلى الناس فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص بذلك دينك ولا عقلك ، ولم تذهب به مروءتك وفضلك ، فإنى أخاف أن تدخل مصراً من هذه الأمصار وتأتى جماعة من الناس فيختلفوا فيما بينهم فمنهم طائفة معك وطائفة عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة هدفاً ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً ، أضيعُها دماً وأذلها أهلاً .

قال الحسين : فإنى ذاهب يا أخى ...[1]

قال محمد : فانزل « مكة » فإن اطمأنت بك الدار فسبيل ذلك ، وإن نَبَتْ ، لحقت بالرمال وشعف الجبال وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى ما يصير اليه أمر الناس ويفرق لك الرأى ، فإنك أصوب ما تكون رأيا حين تستقبل الأمور استقبالاً ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكلَ منها حين تستدبرها استدبارا .

فودعه « الحسين » وهو يقول متأثراً : يا أخى قد نصحت وأشفقت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً وموفقاً إن شاء الله .

* * *

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦٠ / ١٩١ ، وفى رواية ابن الأثير (٤ / ٧) : « فأين أذهب يا أخى ؟ » .

وفى الطريق إلى « مكة » جاز أهل البيت بالمواقع التى شهدت جدهم ﷺ حين خرج من « مكة » مهاجراً منذ ستين عاماً !

ولَفَّهم الليل ، وأسدل عليهم ستراً ، وساد الصمت فلم يعد يسمع سوى وقع أخفاف الإبل تسير حثيثاً على الرمال .

و لم يكن ثمة حداء ولا غناء ، وإنما هو « الحسين » يتلو هامساً قوله تعالى :

﴿ **ربِّ نَجِّنِى منَ القوم الظالمين** ﴾ .

فيؤمن رهطه وهم يُلقون على مدينة جدهم ومغانى صباهم وشبابهم نظرةَ وداع ، فيرتد إليهم البصر خاشعاً دون أن يميز من معالم « المدينة » فى هذا الظلام الدامس ، سوى هامات النخيل ...

ولو قدر للنساء أن ينظرن إلى ما وراء ستار الغد ، لملأن سمع الليل عويلاً ونواحاً ، فإن الإمام الحسين ، وآله وصحبه ، يخرجون الليلة من المدينة إلى غير مآب ...

* * *

ومضت ساعات والركب يُجِدُّ المسير ويشق الظلام ، حتى إذا أوغلوا فى الصحراء وأوغل الليل ، بزغ القمر وأطل عليهم فإذا فيهم مع « الحسين » بنوه وإخوته ، وبنو أخيه ، وجُلّ أهل بيته ...

وفى جانب ، كانت « عقيلة بنى هاشم » تسير مع جماعة النساء ، تنتظر بزوغ نور القمر ، كيما يبدد الوحشة التى رانت عليها وعلى الدنيا من حولها ...!

وأجهدهم السير أياماً وليالىَ ذات عدد ، حتى شارفوا « مكة » فتلا « الإمام الحسين » قول الله عز وجل :

﴿ **ولما توجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قال عَسَىٰ رَبِّى أن يَهدِيَنِ سَواءَ السبيلِ** ﴾ .

و لم يقيموا إلا ريثما تلقوا رسل أهل « الكوفة » مبايعين إمامهم

« الحسين » ، وجاءته كتب القوم تترى : « أن قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الجمعة مع الوالى ، فاقدم علينا » .

والنعمان بن بشير الأنصارى ، وقتئذ ، أمير الكوفة .

وبدأ أهل البيت يتهيأون للسفر من جديد ...

* * *

دَليــل الركب

تهيئوا للسفر ، لكنهم لم يشدوا الرحال قبل أن يبعثوا إلى « الكوفة » دليلاً منهم ، يستوثق من الأمر هناك .

وقد اختار « الإمام الحسين » ابن عمه « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » لهذه المهمة ، فخرج « مسلم » حتى أتى « المدينة » فأخذ منها دليلين ، فمرا به فى البرية فأصابهم عطش فمات أحد الدليلين — وقيل مات الاثنان — وانقبضت لذلك نفس « مسلم » فكتب إلى « الحسين » :

« ... إنى أقبلت إلى المدينة واستأجرت دليلين فضلّا الطريق واشتد بهما العطش فماتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وذلك الماء بمكانٍ يدعى المضيق من بطن الخبيث ، وقد تطيرت ، فإن رأيت أعفيتنى وبعثت غيرى » .

وكان جواب الإمام : أن امضِ إلى « الكوفة » قدماً .

وامتثل مسلم فسار حتى بلغ « الكوفة » ونزل على رجل من شيعتهم هناك . فأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب « الحسين » ، فيبكون ويعدونه من أنفسهم القتال والنصرة ، حتى بايعه من القوم اثنا عشر ألفاً ، وقيل أكثر من ذلك[٤] ، فعجل بإيفاد رسول يحمل البشرى إلى « الإمام الحسين » المنتظر « بمكة » .

* * *

كان أمير « الكوفة » حين دخلها « مسلم » « النعمان بن بشير الأنصارى » رضى الله عنه . وقد نقم عليه « يزيد بن معاوية » أنه ترك أمر الشيعة يفلت من

يده ، وأنه نام عن « مسلم » حتى ضم بضعة عشر ألفاً إلى لواء « الحسين » .

وبادر « يزيد » فعزل « النعمان » واستبدل به « عبيد الله بن زياد » واليه على « البصرة » ، وكتب إليه أن يطلب « مسلم بن عقيل » ويقتله . فبدأ « ابن زياد » « بهانىء بن عزوة المرادى » — وكان « مسلم » قد انتقل إلى داره — فحبسه ريثما يقتله ، وشاع الأمر فصاحت نسوة مراد :

« يا عِترتاه ! يا ثكلاه ! »

فثار « مسلم » مغضباً ، ونادى بشعاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل « الكوفة » سار بهم يريد إنقاذ « هانىء » عنوة .

ثم كان موقف أهل « الكوفة » بعد ذلك عجباً : روى « الطبرى » فى (تاريخه) و « أبو الفرج الأصبهانى » فى (مقاتل الطالبيين) أن المرأة منهم كانت تأتى ابنها فتقول : « انصرف ، الناس يكفونك » ويجىء الرجل إلى ابنه وأخيه فيقول : « غداً يأتيك أهل الشام فما تصنع بالحرب ؟ انصرف » .

فما زالوا يتفرقون عن « مسلم » وينصرفون حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون رجلاً ، صلّى بهم وخرج نحو أبواب « كندة » فما بلغها إلا ومعه عشرة ، ثم جاوزها وإذ هو ليس معه منهم إنسان ! »

فمضى متلززاً فى أزقة « الكوفة » لا يدرى أين يذهب ، حتى أتى دار امرأةٍ عجوز ، كانت قائمة بالباب تنتظر ولدها الذى خرج مع الناس . فسلّم عليها « ابن عقيل » فردت السلام ثم سألها أن تسقيه فأخرجت إليه ماء فشرب ثم لم يبرح مكانه ، فاسترابت فى أمره وسألته أن ينصرف إلى أهله بعد أن شرب ، وكررت عليه مثل هذا ثلاث مرات حتى قال لها : يا أمة الله ، والله ما لى فى هذا المصر من أهل ، فهل لك فى معروفٍ وأجرٍ لعلى أكافئك به بعد اليوم ؟

فسألتْ : يا عبد الله ، وما ذاك ؟

أجاب : أنا مسلم بن عقيل ، كذبنى هؤلاء القوم وخذلونى .

فأدخلته بيتا فى دارها وعرضت عليه العشاء فلم يتعش ، وأخفت أمره

إلا عن ولدها ، فما أصبح الصبح إلا وقد وشى به (الطبرى : سنة ٦٠ هـ) .

وحوصر « مسلم » فقاتل وحده مستبسلاً ، ضد ستين رجلاً مسلحاً من شرطة « ابن زياد » أو سبعين ، فلما أعياهم أمره ، أخذوا يلهبون النار فى القصب ويلقونها عليه ، وإذ ذاك خرج إليهم يقتحم صفوفهم مقاتلاً بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث :

« لك الأمان فلا تقتل نفسك » .

فأبى إلا أن يمضى فى قتالهم وهو يرتجز :

أقسمتُ لا أُقْتَلُ إلا حُرَّا
وإن رأيتُ الموت شيئاً نكرا
كل امرىء يوماً يلاقى شَرَّا
أخاف أن أُكذَبَ أو أُغَرّا

فقال له محمد بن الأشعث : إنك لا تكذب ولا تخدع . القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاربيك .

وكان « مسلم » قد أُثخِنَ بالجراح ، فأسند ظهره إلى الحائط والقومُ من حوله يؤكدون له الأمان .

وأُتى له ببغلة فحُمِلَ عليها ، وانتزعوا سلاحَه ، فداخلتْه ريبةٌ من أمانِ القوم ![1]

* * *

وجىء به إلى « ابن زياد » فأمر به فأُصْعِدَ إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه وألقيت جثته من علٍ إلى الناس ، وصُلِبَ صاحبه « هانئ بن عروة المرادى » فى السوق .

---

(١) مستخلص بتضمين من تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٠ ، مقابلا على (ابن الأثير : ٤ / ١١ ، ومقاتل الطالبيين : ١٠٤) .

ونقل « الطبرى » أيضاً عمن شهد مصرع « هانئ بن عروة » بعد قتل « مسلم » أنهم أخرجوه حتى انتهوا به إلى مكان من السوق ، كان يباع فيه الغنم ، وهو مكتوف اليدين ، فجعل يقول : « وامذحجاه ولا مذحج لى اليوم ! وامذحجاه وأين منى مذحج ؟ ! »

فلما رأى أن أحداً لا ينصره ، جذب يده فنزعها من الكتاف ، ثم قال : « أما من عصًا أو سكينٍ أو حجر ، أو عظم ، يجاحش به رجل عن نفسه ؟ » . قال الراوى :

« ووثبوا إليه فشدوه وثاقاً ؛ ثم قيل له : « امدد عنقك » . فأبى أن يجود بها راضياً ، فضربه مولى لعبيد الله بن زياد بالسيف فلم يصنع سيفه شيئاً ... ثم ضربه أخرى فقتله » والناس يتفرجون !

قال عبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهما :

فإن كنتِ لا تدرين ما الموتُ فانظرى ... إلى «هانئٍ» فى السوق ، و«ابنِ عقيل»
إلى بطلٍ قد هشم السيفُ وجهَه ... وآخر يهوى من طمار قتيلِ
ترىْ جسداً قد غيَّر الموتُ لونَه ... ونضحَ دمٍ قد سالَ كلَّ مسيلِ !
فإن أنتمُ لم تثأروا بأخيكُمُ ... فكونوا بَغايَا أُرضِيَتْ بقليلِ[1]

* * *

حدث كل هذا ، وآل البيت فى « مكة » يقرأون كتاب دليلهم « مسلم » بأخذ البيعة « للحسين » واجتماع الناس عليه ، وانتظارهم إياه ...

وتحرك « الحسين » يريد الخروج بأهله متعجلاً ، قبل أن تبلغه رسالة أخرى ــ شفوية ــ من الدليل الراحل :

ذلك أن « مسلم بن عقيل » لما يئس من نفسه دمعت عيناه ، فقال له قائل :

---

(١) الطبرى : ١٩٦/٦ والبيتان الأول والثالث فى ترجمة عقيل عند ابن سعد ، ولم يسم قائلهما . (٤٢/٤) وانظر (مقاتل الطالبيين) : ١٠٨ .

ـــ إن من يطلب مثل الذى تطلب ، إذا نزل به مثلُ الذى بك ، لمْ يبك !

قال : إنى والله ما لنفسى أبكى ولا لها من القتل أرثى ... ولكن أبكى لأهلى المقبلين إلىّ ... أبكى لحسين وآل حسين .

ثم أقبل على « محمد بن الأشعث » ـــ وهو الذى أعطاه الأمان من ابن زياد ـــ فقال :

ـــ يا عبد الله ، إنى أراك والله ستعجز عن أمانى ، فهل تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً يبلغ « حسيناً » خبراً على لسانى ؟ فإنى لا أراه إلا وقد خرج إليكم مقبلاً ، أو هو خارج غداً هو وأهل بيته ، وإن ما ترى من جزعى لذلك .

وأما نص الرسالة ـــ فيما نقل المؤرخون ـــ فهو أن يمضى الرسول فيقول « للحسين » : إن ابن عقيل بعثنى إليك وهو فى أيدى القوم أسير لا يرى أن تمشى حتى تقتل . وهو يقول : « ارجع بأهل بيتك ولا يغرك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذى كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل . إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبونى وليس لمكذوب رأى » (١)

وقد أقسم « ابن الأشعث » لمسلم أنه باعث إلى « الحسين » بالرسالة ...

لكن « الحسين » لم ينتظر ...

بل اكتفى بالكتاب الأول ، ومضى ... فما كان أصدق ما تمثل به يوم هاجر من « المدينة » من قول « ابن مفرغ » :

* والمنايا يرصدننى أن أحيدا *

* * *

(١) الطبرى : ٦ / ٢١١ والمقاتل : ١٠٥ .

محاولة وإصْــرار

أصبحت « مكة » ذات يوم وقد شاع فيها أن « الحسين » يوشك أن يخرج بآله منها ، يريدون العراق . فأشفق بنو هاشم على « آل البيت » من تلك الرحلة التى لا يدرون عقباها ، وانطلق منهم من انطلق ، يتوسل إلى « الإمام الحسين » ألا يخرج ، فإن كان فاعلاً فليترك أهله بمكة ، فإنه لا يدرى علام يقدم !

جاءه « عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » فقال له : إنى أتيتك لحاجة أريد ذكرها نصيحة لك ، فإن كنت ترى أنك مستنصحى قلتها ... وإلا كففت عما أريد » . فقال له : « قل فوالله ما أستغشك وما أظنك بشيء من الهوى » . قال له : « بلغنى انك تريد العراق ، وإنى مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال ، وإنما الناس عبيد الدينار والدرهم ، فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصرَه ، ومن أنت أحبُّ إليه ممن يقاتلك معه » .[1]

وأتاه « عبد الله بن عباس » فقال له : يا ابن عم ، قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق فبيِّن لى ما أنت صانع .

قال « الحسين » :

ـــ إنى قد أجمعت العزم على المسير فى أحد يوميَّ هذين إن شاء الله تعالى .

فتساءل «ابن عباس» منكراً :

---

(١) مقاتل الطالبيين : ١٠٩ .

— فإنى أعيذك بالله من ذلك . أخبرنى رحمك الله ، هل تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ إن كانوا قد فعلوا ذلك فسرْ إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنهم دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يُستنفَروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك .

ردَّ « الحسين » فى إيجاز :

— إنى أستخير الله وأنظر ما يكون ...

* * *

وخرج « ابن عباس » فلقيه « ابن الزبير » وكان لا يزال ممتنعاً « بمكة » لا يبايع « يزيد » ، فكأن « ابن العباس » أحس أن خروج الحسين يُخلى موضعه بالحجاز لابن الزبير .

فلما كان المساء عاد « ابن عباس » إلى « الحسين » فقال له فى إلحاح وتوسل :

— يا ابن عم إنى أتصبر ولا أصبر ! إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ! أقم بهذا البلد الحرام فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم ثم اقدم عليهم .

لكن « الحسين » لم يرجع عن عزمه ، وإذ ذاك توسل إليه « ابن عباس » :

— فإن كنت سائراً فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كما قتل « عثمان » ، ونساؤه وولده ينظرون إليه .

وأبى « الحسين » إلا إصراراً ...

فلم يبق « لابن عباس » إلا أن يقول محتداً :

— لقد أقررت عين « ابن الزبير » بخروجك من الحجاز وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشعرك

وناصيتتك حتى يجتمع عليَّ وعليك الناس ، أطعتنى ، لفعلت ذلك .

ثم خرج مغيظًا وهو ينشد :

يـا لك مـن قـنبرة بمعمـرِ
خلا لك الجو ، فبيضى واصفرى
ونقرى مـا شئت أن تنقــرى
هذا الحسين خارجاً فاستبشرى[1]

* * *

دنا موعد خروج « الحسين » والقوم ينظرون إليه فى جزع وإشفاق ، ثم كانت المحاولة الأخيرة لرده عن السفر .

وكان صاحب هذه المحاولة « عبد الله بن جعفر » زوج السيدة « زينب » التى أجمعت أمرها على أن ترحل هى وأولادها ، مع أخيها الإمام ، مهما تكن العواقب ...

وهنا نلحظ ــ للمرة الأولى ــ أن « عبد الله » يقيم بعيداً عن « الحسين » ، ويلفتنا أنه لما أراد صرف ابن عمه عن الهجرة لم يذهب إليه بنفسه كما فعل « ابن عباس » وإنما آثر أن يبدأ فيبعث إليه كتاباً مع ولديه محمد وعون .

هل كان « عبد الله بن جعفر » مريضاً لا يقوى على الذهاب إلى « الحسين » ؟

كلا ، فإن نص كتابه كما حفظته لنا كتب التاريخ ، ينفى أن يكون به مرض ، وهذا هو الكتاب ، نقلاً عن « الطبرى وابن الأثير » ــ وقد أرسله مع ابنيه عون ، ومحمد :

« أما بعد ، فإنى أسألك بالله إلا انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فإنى مشفق عليك من الوجه الذى توجه له أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل

(١) تاريخ الطبرى : ٢١٧/٦ ، وابن الأثير : ١٧/٤ مع مقاتل الطالبيين : ١١٠ .

بيتك ، إن هلكت اليوم طفىء نور الأرض ، فإنك علَم المهتدين ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالسير فإنى فى أثر الكتاب والسلام »[1]

فهل كان « عبد الله » يجد فى نفسه شيئاً من « الحسين » ؟

كلا ، فإنه كما نقرأ فى كتابه ، يرى الحسين « نور الأرض وعلم المهتدين ورجاء المؤمنين » .

ففيم احتجابه إذن وايثاره أن يكتب إلى « الحسين » بدلاً من المبادرة بالذهاب إليه ؟

لعل الأمر أيسر من أن نقف عنده ، فغير بعيد أن يكون « عبد الله » مشغولًا ببعض شأنه فكتب معجلًا على أن يمضى إليه على أثر كتابه ، وغير بعيد أن يكون قد آثر أن يبدأ محاولته مع الأمير قبل أن يذهب إلى « الحسين » .

ذلك أنه قام فعلا على أثر الكتاب ، لكنه لم يمض إلى « الحسين » من فوره بل مضى إلى « عمرو بن سعيد بن العاص » أمير مكة ليزيد بن معاوية فكلمه .

وجلسا يتدبران الأمر ، فكان رأى « ابن جعفر » أن يكتب الأمير إلى « الحسين » كتاباً يؤمنه ، ويمنيه فيه البرّ والصلة « وتوثق له وتسأله الرجوعَ عما اعتزمه من الرحيل . » . . فقال « عمرو » ملبياً : اكتب ما شئت وأْتنى به حتى أختمه .

فكتب « عبد الله بن جعفر » ما شاء على لسان الأمير ، وسأله أن يبعث به ـــ بعد أن يختمه ـــ مع أخيه « يحيى بن سعيد » (فإنه أحرى أن تطمئن نفسه إليه ويعلم أنه الجد منك) .[2]

---

(١) اسنده الطبرى عن الامام على بن الحسين ، رضى الله عنهما ، والنقل منه ، مقابلا على المقاتل : ٩١ .

(٢) الطبرى : ٦ / ٢١٩ ، وفيه نص الكتاب الذى حمله عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد بن العاص ، إلى الإمام الحسين .

ففعل الأمير ، ومضى « يحيى » فى صحبة « عبد الله بن جعفر » إلى « الإمام الحسين » بالكتاب المختوم .

ورد « الحسين » رداً جميلاً ، لكنه مضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، فزار البيت الحرام مودعاً وهو يقول : « وقد غسلتُ يدى من الحياة ، وعزمتُ على تنفيذ أمر الله » .

* * *

ولا نستطيع أن نمضى معه ، دون وقفة هنا لمعرفة ماذا كان بين « عبد الله بن جعفر » وزوجته « السيدة زينب » ؟

ذلك أننا لن نراهما معاً منذ اليوم ...

وقد شغلتنا تلك الأحداث الصاخبة عن العقيلة الهاشمية ، فاندفعنا نرقب تلك الغيوم التى خيمت على بيتها والفواجع التى ألمت به ، بحيث يعذر من يظن أننا نسينا « زينب » .

وما نسيناها ، وإنما شُغِلْنا بالذى كان يشغلها .

والآن نقترب منها ، فنراها فى صحبة أخيها دون زوجها .

وسنظل حتى آخر يوم من حياة « زينب » نراها هكذا ، كأنها استبدلت بمكانها فى بيت « عبد الله بن جعفر » مكاناً لها آخر ، فى بيت أخيها الإمام « الحسين » .

سنراها تمضى فى صحبة أخيها ، ويبقى الزوج بالحجاز .

وحتى بعد مقتل « الحسين » لا تعود « زينب » إلى موضعها فى دار الزوج ، بل تقيم بالمدينة فترة قصيرة ترحل بعدها إلى « مصر » فتدفن فى ثرى الكنانة — على أرجع الأقوال — فى شهر رجب سنة ٦٢ هـ . وبقى « عبد الله بن جعفر » بالحجاز ، ما نعلم أنه غادره حتى مات بمكة عام ٨٠ هـ ، وهو

المعروف بعام الجحاف ، إذ دهم « مكة » سيل جحف الحاج وذهب بالإبل ..

* * *

هل كان شيء بين الزوجين ؟ قلما تعرضت لذلك كتب التاريخ والتراجم .

وكان يمكن أن نكتفى بصحبة « السيدة زينب » فى رحلتها ، لو أنا لم نلتفت إلى أنها تظل من وقتئذ إلى آخر يوم من حياتها ، فى صحبة آلها ، لا تفارقهم أبداً ، ولا تشغل عنهم بزوج أو ولد .

ويلح علىّ السؤال : أى شيء كان بين الزوجين ؟

فى كتاب (السيدة زينب وأخبار الزينبات ، للعبيدلى النسابة) كلمة عابرة سيقت عرضاً ، أثناء الحديث عن « زينب ــ الوسطى ــ بنت الإمام على بن أبى طالب » وتُكْنَى بأم كلثوم ، التى تزوجها « عمر بن الخطاب » صبية صغيرة :

« ولما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، تزوجت بعده محمد بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ، فتزوجها عبد الله بن جعفر ، وكان زواجه بها بعد طلاقه لأختها زينب الكبرى ، فماتت عنده » .

وراجعت ترجمة « عبد الله بن جعفر » فشَحَّت الأخبار عن طلاقه « لزينب العقيلة » وزواجه من أختها « أم كلثوم » . سوى أن أبا محمد ابن حزم ، قال فى ولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .« . . .وتزوجت زينب بنت على من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، عبدَ الله بن جعفر بن أبى طالب ... وتزوج أمَّ كلثوم بنتَ على بن أبى طالب ، بنتَ بنتِ رسول الله ﷺ ، عمرُ ابن الخطاب فولدت له زيداً لم يعقب ، ورقية . ثم خلف عليها بعد عمر رضى الله عنه ، عونُ بن جعفر بن أبى طالب ثم خلف عليها محمد بن جعفر بن

أبى طالب ، ثم خلف عليها بعده عبدُ الله بن جعفر ، بعد طلاقه لأختها زينب »[1] .

وجاء فى ترجمة « أم كلثوم » بنت على بالإصابة : خطبها عمر ، فذكر له أبوها علىٌّ صِغرها فقيل لعمر : إنه ردَّك . فعاوده فزوجه إياها فولدت له ابنه زيدا ورقية وماتت وولدُها زيد بن عمر ، فى يوم واحد . وفى ترجمتها بالاستيعاب ، من طريق (الذرية الطاهرة للدولابى ، والإخوة للدارقطنى) أن عون بن جعفر تزوجها بعد عمر فمات عنها ، فتزوجها أخوه محمد ، فمات عنها فتزوجها أخوه عبد الله بن جعفر . وذكر ابن سعد أنها كانت تقول : إنى لأستحيى من أم بنى جعفر » . وروى أن عمر لما خطبها إلى أبيها على ، قال له : زوجنيها فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من كرامتها ما أرصد ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل نسب وسبب سينقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى »[2] .

فمتى طُلِّقت زينب العقيلة !

لا نملك أن نقطع فى هذا بيقين ، وإنما نرجح أن الطلاق كان بعد وفاة « الإمام على » وقبل خروج الإمام الحسين من الحجاز .

ذلك لأن « أم كلثوم » ظلت عند « محمد بن جعفر » حتى آخر حياته ، وفى الخبر أن محمداً شهد « صفين » يقاتل بالجموح ، تحت راية أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ، و « أم كلثوم » قد توفيت عند « عبد الله بن جعفر » فيما يقول الخبر « بغوطة دمشق ، عقب محنة أخيها الحسين » .

وإذن تكون « زينب العقيلة » قد طلقت قبل هذا ، وسافرت مع أخيها بعد أن حُلَّ عقد الزواج ، والله أعلم .

---

(١) جمهرة الأنساب لابن حزم : ٣٣ ط أولى ذخائر ، مع ترجمتها ، عليها السلام ، فى الإصابة .
(٢) الطبقات الكبرى : ٨ / ٤٦٣ (أم كلثوم بنت على بن أبى طالب) .

ذاك ما استطعت الآن أن أصل إليه فى محاولتى جلاء هذه النقطة الدقيقة الغامضة من حياة « السيدة زينب » الزوجية .

و لم أقف على خبر عن أسباب الطلاق ، وإنما أنصرف إلى « زينب » فأراها متفانية فى حبِّ أخيها وبنى أخيها رضى الله عنهم .

وأرى « عبد الله بن جعفر » ــ فى الوقت نفسه ــ يؤيد « الحسين » ويؤازره ، وإن تخلف عن الرحيل معه إلى الكوفة .

ولقد ظل يوقره أبدا ، ويجاهد ليمنعه مما يخاف عليه منه ، فلما صمم « الإمام الحسين » على رحلة الموت بعث عبد الله ببنيه مع الإمام ، وإنه ليعلم أن الرحلة قد تودى بهم جميعاً ...

وكان قلبه مع « الحسين » ، وسوف نراه بعد مصرعه يجلس ليتلقى العزاء فيه ، وكل سلواه أن ولديه « محمداً وعوناً » قد استشهدا معه كما روى « الطبرى » فى (تاريخه) . وفى رواية ، أن الذين استشهدوا من أبناء « عبد الله » مع « الحسين » ثلاثة : محمد ، وعون ، وعبيد الله ...

* * *

نحو وَادِى المَوت

فصل الركب من « مكة » فى طريقه إلى « الكوفة » فى أمسية شاحبة راكدة الهواء ، ووجمت الجبال المشرفة على البلد الحرام حين رأت « آل محمد » يخرجون منها إلى غير ملاذٍ آمن . . .

وقد اعترضهم فى أول الطريق رسل « عمرو بن سعيد بن العاص : أمير الحجاز » وحاولوا أن يردوهم إلى مكة ، وتضارب الفريقان بالسياط ، ثم تخلى الرسل ، واستأنف الركب المسير .

وكان سراهم حثيثًا فى بادئ الأمر ، وقد هون عليهم مشقة المسرى أن هناك بالعراق بضعة عشر ألفًا ينتظرون مقدم ابن بنت النبى ، كما انتظر الأنصار منذ ستين عامًا مقدم جدهم المهاجر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وتلفّتت « زينب » — وكانت فى مقدمة النساء — وراءها مرة ومرتين ، ترنو إلى الربوع الغالية ، وفى قلبها شجن !

لقد هاجرت إلى « العراق » من قبل ، يوم كان لها أب ، ملء الدنيا ، واليوم هذه هى تسير إلى العراق مرة أخرى ، مثقلة بمتاعب أعوام زادت على العشرين ، ثكلت فيها أباها ، وأخاها الحسن ، وأدبر صباها ، والشباب !..

اغرورقت بالدموع مقلتاها ، وهى تلقى نظرة ملؤها الرحمة والحب والحزن على الركب الذى يغذ السير : هؤلاء هم كل آلها : أخوها وبنوها ، وبنو أخويها ، وبنو عمها .... هؤلاء هم آل النبى ، وزهرة بنى هاشم ، وزينة قريش ، ينزحون عن ديارهم إلى مصير مجهول ، لكنه محتوم !

ترى ما ذاك المصير ؟ ..

لم تنتظر « زينب » طويلاً لتعلم ...

ذلك أن الركب لم يكد يقطع مرحلتين من الطريق أو ثلاثاً ، حتى لقيه أعرابيان من بنى أسد ، فبدا « للحسين » أن يسألهما عما تركاه وراءهما بالكوفة ، وفى حسابه أن يصفا له حشداً مهيئاً لاستقباله ، معيداً ذكرى مشهد استقبال جده المصطفى ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فى دار هجرته . . .

ولكن ما أسرع ما تبدد الحلم وتلاشى الصدى !

قال الأعرابيان :

ــ يرحمك الله ، إن عندنا خبراً ، فإن شئت حدثنا علانية ، وإن شئت سراً .

فنظر « الحسين » إلى أصحابه وقال : ما دون هؤلاء سر !

قالا : يا ابن رسول الله ، إن قلوب الناس معك ، وسيوفهم عليك ، فارجع ...

ثم أخبراه بقتل ابن عمه « مسلم بن عقيل » وصاحبه « هانئ بن عروة » ، فغشى القوم وجوم حزين لم يطل ... ثم أعولت النساء وضجّ الجمع بالبكاء .

وكانت مناحة فى العراء ...

وحين خفتت ضجة النواح ، أراد « الإمام الحسين » أن يرجع بآله فوثب عند ذلك « بنو عقيل » وهم يصيحون :

ــ لا نرجع والله أبداً حتى ندرك ثأرنا ، أو نذوق ما ذاق أخونا ونقتل بأجمعنا ! فنظر « الحسين » إلى الأعرابيين اللذين نصحا له بالرجوع ، وقال فى جد وأسى :

ــ لا خير فى العيش بعد هؤلاء .[1]

وأمَّن القدر على ما قاله « بنو عقيل » !

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ . ومقاتل الطالبين : ١١٠ .

لم يرجعوا ، بل قتلوا أجمعين ...

* * *

ولم يعجل الركب بالسفر هذه المرة :

انتظروا نهارهم كله ، وأكثر ليلهم ، حتى إذا كان السحر أمر « الحسين » فتيانه وغلمانه أن يكثروا من الماء ، فاستقوا وأكثروا .

ثم هموا باستئناف المسير ...

وكان الشطر الباقي من الرحلة قصيراً :

لم يعد ثمت شكّ في المصير الرهيب الذى ينتظر الركب وشيكاً ، وأبى « الإمام الحسين » إلا أن يكشف لمن لحق به من الأعراب عن جلية الأمر ، فلعلهم ما تبعوه إلا لظنهم أنه يأتى بلدًا قد استقامت له طاعة أهله .

قال :

« ... أما بعد : أتانا خبر فظيع : قتل مسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة ... وقد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف ليس عليه منا ذمام » .

أو قال : « فهو حل من بيعتنا » (1) .

فتفرق عنه الأعراب يميناً وشمالاً ، حتى بقى فى أهله وأصحابه الذين جاءوا معه من الحجاز .

وتحركت القافلة من جديد : واجمة مسيَّرة ، كأنما تدفعها نحو حتفها قوة لا تقاوم ولا تدفع .

وتوالت النذر ...

فما انتصف عليهم النهار وهم يسيرون فى الفلاة ، حتى أتاهم من ينعى

(1) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ . ومقاتل الطالبين : ١١٠ .

إليهم « عبد الله بن بقطر : أخا الحسين من الرضاعة » ويأتيهم بخبره ، وكان الإمام قد سيره إلى ابن عمه « مسلم بن عقيل » قبل أن يعلم بمقتله ، فسيق « ابن بقطر » إلى « عبيد الله بن زياد » فأمره أن يصعد فوق القصر ويلعن « الحسين » ثم ينزل حتى يرى فيه رأيه .

وصعد « عبد الله بن بقطر فأعلم الناس بقدوم الحسين ، ولعن ابنَ زياد وأباه ، فألقاه ابن زياد من أعلى القصر فتكسرت عظامه وبقى به رمق ، حتى جاء من ذبحه ليريحه . »

لم يبك الراحلون هذه المرة ، كما بكوا عندما نعى إليهم « مسلم » ، بل أصغوا إلى النبأ حيارى مطرقين ، ثم مضوا فى طريقهم لا يثنون .

ولاح لهم على البعد ما ظنه أحدهم نخلاً ، فكبروا ، يمنون أنفسهم براحة قصيرة ، قبل المعركة المرتقبة .

سأل « الحسين » أصحابه : ما هذا التكبير ؟

أجابوا : رأينا النخيل ...

فارتفع صوتُ آخرين ، ممن لهم بالطريق معرفة سابقة :

ــ ما بهذا الموضع والله نخل ، ولا نحسبكم ترون إلا هوادى الخيل وأطراف الرماح .

ففكر « الحسين » لحظة ثم قال : وأنا والله أرى ذلك ...

وعاد الصمت الثقيل يلف الراحلين ، فما عادت الصحراء تسمع سوى تنهد النساء ورغاء الإبل ...

وبدا كأن شبح الموت يجثم على هذه الجماعة البشرية الحزينة ، السائرة فى بطء ولكن فى عزم وتصميم ، نحو نهايتها المفجعة ، كأنما ترصدها المنايا أن تحيدا ...

وكان حر الظهيرة مرهقًا ، فمال « الإمام الحسين » بأصحابه إلى جبل (ذى جشم) فأناخوا رواحلهم . . .

وأطبق على الجو غيم كثيف ، تكشف عن « الحر بن يزيد » فى ألف فارس من عسكر « عبيد الله بن زياد : أمير الكوفة » جاء يبلغ الحسين رسالة الطاغية : إنى أمرت أن انطلق بك إلى ابن زياد ، أو أجعجع بك فلا أتركك تزول من مكانك .

قال الحسين : إذن أقاتلك ، فاحذر أن تشقى بقتلى ، ثكلتك أمك !

فكظم « الحر » غضبه وقال :

« أما والله لو غيرك من العرب يقولها ، ما تركت ذكر أمه بالثكل أن أقوله كائناً من كان ، ولكن والله ما لى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بخير الذكر ... »

وتحرك « الحسين » يريد السير ، فتصدى له « الحر » يسايره ويمنعه من التحرك ، فسأله « الحسين » عما يريد به ، قال :

« إنى لم أؤمر بقتالك ، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة ، فإذا أبيت فخذ طريقًا لا تدخلك الكوفة ، ولا تردك إلى المدينة ، حتى أكتب إلى ابن زياد ، وتكتب أنت إلى « يزيد » إن أردت ، فلعل الله يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك . »

فتياسر « الحسين » عن طريق « القادسية » ونثر ما معه من كتب أهل « الكوفة » ، ثم نظر إلى هؤلاء الذين جاءوا فى جيش « ابن زياد » وقال :

« ... وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم ، فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى ، فلعمرى لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم بن عقيل ، والمغرور من اغترّ بكم ... ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم والسلام . »

فقال له « الحر بن يزيد » : إنى أذكرك الله فى نفسك ، فإنى أشهد لئن قاتلت لتقتلن ![1]

(١) الحر بن يزيد ، بن ناجية اليربوعى التميمى ، انظر نسبه فى بنى يربوع بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، ومشهده مع الإمام الحسين ، فى (جمهرة الأنساب لابن حزم) .

فقال له « الحسين » : أبالموت تخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ؟ وأنشد ، رضى الله عنه :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى   إذا ما نوى خيراً وجاهد مسلماً
فإن عشت لم أندم وإن مت لم أُلَمْ   كفى بك ذلا أن تعيش وترغما !

فلما سمع « الحر » قوله أطرق خاشعاً متأثراً يدعو الله أن يعفيه من قتال « الحسين » .

وكان قد بعث إلى « ابن زياد » يسأله : هل يأذن « للحسين » وآله فى الرجوع من حيث جاءوا ؟ وإنه ليرجو أن يجيب بنعم !

* * *

وشاع نبأ قدوم « الحسين » بين أهل الكوفة » فأقبل من أهلها أربعة نفر ـــ أربعة فحسب ! ـــ يريدون أن يكونوا معه ، فتصدى لهم « الحر » يمنعهم ، ثم كف عنهم لما قال له « الحسين » :

ـــ لأمنعنَّهم مما أمنع منه نفسى !

وأقبل « الحسين » عليهم يسألهم أن يخبروه خبر الناس خلفهم ، فقال قائلهم :

ـــ أما أشراف الناس فقد أُعْظِمَتْ رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك ! وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهورة عليك .

ثم حدثوه عما لقى رسوله إلى الكوفة ، فلم يملك دمعته ، وقرأ :

﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا** ﴾ اللهم اجعل لنا ولهم الجنة ، واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك وغائب مذخور ثوابك » .

ثم أطرق صامتاً ...

وباتوا جميعاً ينتظرون .

* * *

فلما كان الصبح وصلى « الحسين » الغداة ، تحرك ثم أخذ يتياسر بأصحابه و« والحر بن يزيد » يردهم إلى « الكوفة » رداً شديداً ، فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا إلى « نينوى » فإذا راكب مقبل من « الكوفة » يحمل إلى « الحر » أمر « ابن زياد » :

« أما بعد فجعجعْ بالحسين حين يبلغك كتابى ، فلا تنزله إلا بالعراء ، فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك ولا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى . والسلام » .

وحيل بينهم وبين الماء ، فباتوا على ظمأ ...

وفى الصبح لاحت لهم طلائع جيش « الكوفة » : أربعة آلاف مقاتل ، يقودهم « عمر بن سعد بن أبى وقاص » فلما شارفوا مكان « الحسين » بعث « عمر » إليه رسولاً يسأله : ما الذى جاء به ؟

ردَّ « الحسين » : كتب إلَىَّ أهلُ مصركم هذا أن أقدم عليهم ، فأما إذ كرهونى فإنى أنصرف عنهم .

فكتب « عمر » إلى « ابن زياد » يعرفه ذلك ، فلما قرأ « ابن زياد »الكتاب أنشد :

آلآن إذ عَلِقَتْ مخالبُنا بــه يرجو النجاة ، ولات حين مناص !

ثم كتب إلى « عمر » يأمره أن يعرض على « الحسين » : بيعة يزيد « فإذا فعل ذلك رأينا رأينَا » وأن يمنعه الماء ومن معه . فأرسل « عمر » خمسمائة فارس نزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وصحبه وبين الماء .

فلما اشتد عليهم العطش ، أمر « الحسين » أخاه « العباس بن على » فسار

فى عشرين راجلاً وثلاثين فارساً ــ هم ثلثا صحبه تقريباً ــ فدنوا من الماء وقاتلوا عليه حتى ملأوا القرب وعادوا ...

* * *

وبدا أن الموقف يزداد دقة وحرجاً ، فبعث « الإمام الحسين » رسوله إلى القوم ، يسألهم أن يختاروا له واحدة من ثلاث :

أن يرجع إلى الحجاز من حيث جاء ، أو يمضوا به إلى « يزيد بن معاويه » ، أو يسيروا به إلى أى ثغرٍ من ثغور المسلمين ، فيكون رجلاً من أهله ، له ما لهم وعليه ما عليهم .

فبعث « عمربن سعد » بالرسالة إلى « ابن زياد » ومضى الوقت ثقيلاً مرهقاً فى انتظار جواب الأمير .

ثم وصل إلى « عمر » الجواب المنتظر مع « شمر بن ذى الجوشن » :

« أما بعد فإنى لم أبعثك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقعد له عندى شافعاً .

« انظر ، فإن نزل حسين وأصحابه على حكمى واستسلموا فابعث بهم إلىَّ سلما ، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فإنه عاق شاق ، قاطع ظلوم ... فإن أنت قضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وإن أنت أبيت فاعتزلْ جندنا وخلِّ بين شمر وبين العسكر والسلام » .

بطـــلة كربَـــلاء

ونادى « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » فى جيشه ، ثم زحف نحو « الحسين » قبل الغروب ، و« الحسين » جالس حينذاك أمام خيمته ، محتبياً بسيفه ، وقد أخذته إغفاءة قصيرة من أثر الإجهاد ، وأخته « زينب » إلى جانبه ترعاه يقظى لا تنام .

وسمعت « زينب » ضجة الجيش الزاحف عن كثب ، فدنت فى رفق من أخيها فقالت : يا أخى ، أما سمعت الأصوات قد اقتربت ؟ .

فرفع « الحسين » رأسه فقال : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقال لى : إنك تروح إلينا . . .

فلطمت الأخت وجهها وصاحت : يا ويلتاه ...

فقال لها الحسين :

ــ ليس لك الويل يا أُخَيَّة ! اسكنى يرحمك الله .

واتجه إلى أخيه « العباس » فطلب إليه أن يمضى فيستطلع خبر الزاحفين ، فلما عرف أنه القتال ، بعث ثانية يسألهم أن ينصرفوا هذه العشية « لعلنا نصلّى لربنا الليلة وندعوه ونستغفره ، فإذا أصبحنا التقينا إذا شاء الله ، فإما التسليم وإما القتال » .

واستشار « عمر » أصحابه فى أمر التأجيل ، فقال منهم قائل :

ــ سبحان الله ، والله لو كانوا من الديلم ثم سألوك هذه المنزلة لكان ينبغى لك أن تجيبهم إليها .

وأُجِّلوا إلى غد ...

وانثنى « الحسين » إلى أصحابه ، فقال بعد أن أحسن الثناء على ربه :

« أما بعد فإنى لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابى ، ولا أهلَ بيتٍ أبرّ ولا أوصلَ من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعاً عنى خيراً ...

« ألا وإنى قد أذنت لكم جميعاً فانطلقوا فى حَلٍّ ليس عليكم منى ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ـــ أى مركباً ـــ وليأخذ كل رجل منكم برجل من أهل بيتى ، ثم تفرّقوا فى البلاد حتى يفرج الله ، فإن القوم يطلبوننى ، ولو أصابونى لهوا عن طلب غيرى » .

قالوا جميعاً : معاذ الله والشهر الحرام ! فماذا نقول للناس إذا رجعنا اليهم ؟ أنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضاً للنبل وذريعة للرماح وجزراً للسباع ، وفررنا عنه رغبة فى الحياة ؟ معاذ الله ، بل نحيا بحياتك ونموت معك » .

ثم سأله سائلهم :

« أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك ؟ أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ، والله لو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » .

فبكى الإمام تأثراً ، وبكوا عليه !

وجاوبتهم دموع أخرى من الخيام ، حيث « السيدة زينب » ومن معها من نساء البيت الكريم ، يصغين فى هم وقلق .

ثم أوى الجمع إلى المضاجع ...

وأطبق على « كربلاء » صمت ثقيل مرهق ، مزقته صيحة تنبعث من فسطاط « الحسين » وإذا امرأة تصرخ من أعماق قلب متصدع :

« واثكلاه ! واحزناه ! ليت الموت أعدمنى الحياة ! اليوم مات رسول الله ، وأمى فاطمة الزهراء ، وأبى على ، وأخى الحسن ! يا بقية الماضين وثمال الباقين ... » .

أنها « السيدة زينب » عقيلة بنى هاشم !

يصف « على بن الحسين » ــ الذى أنقذته عمته « زينب » من المذبحة ــ ذلك المشهد فيقول :

« إنى والله لجالس فى تلك العشية التى قُتِلَ أبى صبيحتَها ، وعمتى « زينب » تمرضنى ، إذ اعتزل أبى أصحابه فى خباء له وعنده « مولى أبى ذر الغفارى » يعالج سيفه ويصلحه ، وأبى يقول :

يا دهرُ أفٍّ لك من خليلِ !
كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيلِ
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حى ، سالكُ السبيلِ

وأعادها مرتين أو ثلاثاً حتى فهمتها فعرفت ما أراد ، فخنقتنى عبرتى فرددت دمعى ... فأما عمتى « زينب » فإنها سمعْت ما سمعتُ ... فلم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس حتى انتهت إليه فصاحت : « واثكلاه ... ليت الموت أعدمنى الحياة » .

فنظر إليها « الحسين » عليه السلام ملياً ثم قال لها :

ــ يا أخية ، لا يذهبن بحلمك الشيطان .

قالت : بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ، نفسى فداك !

فرد غصته وترقرقت عيناه وقال : لو تُرك القَطا ليلا لنام ...

قالت : يا ويلتا ، أفتغصبك نفسك اغتصاباً ؟ فذلك أقرح لقلبى وأشدُّ على نفسى !

وخرجتْ مغشيًا عليها ، فقام إليها « الحسين » فصب على وجهها الماء وقال لها :

ـــ يا أخية ، اتقى الله وتعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأن أهل السماء لا يبقون ، وأن كل شىء هالك إلا وجهه . أبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله أسوة .

فلما أفاقت من غشيتها ، قال لها :

ـــ يا أخية ، إنى أقسم عليك فأبرى قسمى : لا تشقى علىَّ جيبًا ، ولا تخمشى علىَّ وجهًا ، ولا تدعى علىَّ بالويل والثبور إذا أنا هلكت .

قال « على بن الحسين » : ثم جاء بها حتى أجلسها عندى ، وخرج إلى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب بعضها فى بعض ، وأن يكونوا بين البيوت إلا الوجه الذى يأتيهم منه عدوهم »[1] .

ولو علمت « زينب » ماذا كان ينتظرها وقومها غداة تلك العشية ، لادخرت دموعها إلى غد !

* * *

وكانت ليلة ليلاء . . . أمضاها أكثرهم مسهدين يحدقون فى شبح الموت الذى كان جاثمًا بالوصيد ، يتربّص بهم مطلعَ النهار .

وراحت « زينب » ترسل عينيها فى جمود شارد إلى الظلام المخيم على ساحة كربلاء ، فإذا ارتد إليها وعيها قامت فطافت بمضاجع بنيها وإخوتها ، تتزود لفراق طويل .

* * *

وتنفس الصبح ، وتلاقى الجيشان !

ولكن أى جيشين ؟ !

---

(١) تاريخ الطبرى (٦ / ٢٣٩ ـــ ٢٤٠) والنقل منه ، مقابلا على ابن الأثير ٤ / ٢٤ ، والمقاتل : ١١٣ .

« عمر بن سعد » فى أربعة آلاف من جيش أمير الكوفة ، كامل العدة شاكى السلاح . . .

ومن ورائهم الدولة والسلطان .

و « الحسين » يرقب هاتيك الآلاف وهى تزحف نحو أصحابه السبعين ، فلما دنوا منه دعا براحلته فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته : أن اسمعوا قولى ولا تعجلونى ثم اقضوا إلىَّ ولا تنظرون . ﴿ **إنَّ وليِّىَ الله الذى نَزَّلَ الكتابَ وهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ .

وتناهى صوته إلى أزواجه وأخواته وبناته ، فصحن وبكين ، وارتفعت أصواتهن حتى بلغته ، فأرسل إليهن ابنيه عليًا والعباس وقال لهما : « أسكتاهن ، فلعمرى ليكثرن بكاؤهن » فلما ذهبا لِيُسكتاهن ، قال : « لا يبعد الله ابن عباس[1] »

لقد تذكر وقتئذ ابن عمه « عبد الله بن عباس » وخيل إليه أنه يسمع صدى صوته آتيا من بعيد ، يلح عليه ألا يخرج إلى الكوفة : « فإن كنت سائرًا فلا تَسِرْ بنسائك وصبيتك ، فإنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » .

ولم ينقطع الصدى حتى سكتَت الصائحات الباكيات .

فلما سكتن ، عاد فالتفت إلى جيش الكوفة ، وقال بعد أن حمد الله :

« أما بعد ، فانسبونى فانظروا من أنا ثم راجعوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا : هل يصلح ويحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم ، وابنَ وصيِّه وابنِ عمه وأوْلى المؤمنين بالله ؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة عمى ؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض أن رسول الله ﷺ قال لى ولأخى ــ أنتما سيدا شباب أهل الجنة وقرة عين

---

(١) الطبرى : ٦ / ٢٤٢ .

أهل السنّة ؟ أما فى هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمى ؟ » .

فما سُمِعَ أبلغ منه ، قال ، فيما روى الطبرى :

« فإن كنتم فى شك مما أقول ، أو تشكون فى أنى ابن بنت نبيكم ، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابنُ بنتِ نبيٍّ غيرى » .

فلم يجبه منهم مجيب .

واستطرد يسأل :

« أتطلبون بقتيلٍ منكم قتلته ، أو بمال استهلكته ، أو بقصاص من جراحة » ؟

فسكتوا لا يحيرون جوابًا . . .

هنالك أخذ « الإمام الحسين » يتفرس فى رؤوس جيش الكوفة وينادى : يا فلان . . . ويا فلان . . . ويا فلان . . . ألم تكتبوا إلى : أنْ قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام ، وإنما تقدم على جندٍ لك مجند فأقبل ؟ . . .

فتمزقت كلماته بددًا ، لم يكن يصغى إليها من القوم سوى « الحر بن يزيد » فإنه قام إلى قائده « عمر بن سعد » يسأله :

ـــ أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟

أجابه « عمر » : أى والله ، قتالًا أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدى .

قال « الحر ، بن يزيد بن ناجية اليربوعى » : أفما لكم فى واحدة من الخصال الثلاث التى عرض عليكم رضى ؟

قال « عمر » : والله لو كان الأمر إلىّ لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

فلم يزد « الحر » .

وانثنى يدنو نحو « الحسين » قليلا قليلا وقد أخذته رعدة ، ولمحه رجل من قومه فقال :

ــ والله إن أمرك لمريب ! والله ما رأيت منك فى موقف قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل لى : من أشجع أهل الكوفة ؟ لما عدوتك !

فقال له الحر : إنى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت وحُرقت !

ثم ضرب فرسه فلحق « بالحسين » وقال له :

« جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله . أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق وجعجعت بك فى هذا المكان ، والله ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضتَ عليهم أبدًا . . . ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلون منك الذى سألتهم ، ما ركبتها منك ، وإنى قد جئتك تائبًا ربى مما كان منى ، مواسيًا لك بنفسى حتى أموت بين يديك » .

ثم التفت إلى معسكر أصحابه فقال :

« يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر ! أدعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه ؟ وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، وأحطتم به ومنعتموه من التوجه فى بلاد الله العريضة ، فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا ولا يدفع عنها ضرًا ! ومنعتموه ومن معه من ماء « الفرات » الجارى الذى يشربه اليهودى والنصرانى والمجوسى ، وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وهو وأهله قد صرعهم العطش ؟ ! بئس ما خلفتم محمدًا فى ذريته ، لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا . . . » .

فكان جوابهم أن رموه بالنبل ، ورجع هو حتى وقف أمام « الحسين » فناضل عنه حتى استشهد . . .

ودارت المعركة بين الآلاف والعشرات ! وجعل أصحاب « الحسين »

يتقدمون رجلاً بعد رجل ، « فقاتلوهم حتى انتصف النهار ، أشد قتال خلقه الله » .

وقام — رضى الله عنه — فصلى بمن بقى معه صلاة الخوف ظهراً ، وعادوا إلى القتال ، ثم لما علموا أنهم لا يقدرون أن يمنعوا إمامهم ، تنافسوا أن يقتلوا بين يديه ، حتى فنوا جميعاً ولم يبق غير أهل بيته ، فتقدموا مستبسلين .

وكان أول قتيل منهم ، « على الأكبر بن الحسين » : أخذ يشد على الناس وهو يرتجز :

أنا على بن الحسين بن على
نحن ، وبيتِ الله ، أولى بالنبى
أضربكم بالسيف حتى يلتوى
ضرب غلام هاشمىٍّ علوى
ولا أزال اليوم أحمى عن أبى
تالله لا يحكم فينا « ابنُ الدعِى »(١)

وكان يكر على الكوفيين ، ثم يرجع إلى أبيه يقول : يا أباه العطش !

فيقول له « الحسين » :

— اصبر بنى ، فإنك لا تمسى حتى يسقيك رسول الله ﷺ وآله بكأسه !

فعاد الشاب يشد على العسكر الكرّة بعد الكرّة حتى رُمِىَ بسهم فوقع فى حلقه فخرقه ، وأقبل يتقلب فى دمه ، فتلقاه أبوه وهو يقول بصوت ثاكل :

— قتل الله قوماً قتلوك يا بنى ! ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسول الله ! على الدنيا بعدك العفاء ...

---

(١) الطبرى : ٦ / ٢٥٦ ، ابن الأثير : ٤ / ٣٣ ، مع نسب قريش : ٥٧ ، ومقاتل الطالبيين ١١٤ . و « ابن الدعىّ » هو عبيد الله بن زياد . أبوه « زياد بن سُمية » من دهاة العرب ، استلحقه أبو سفيان بن حرب بنسبه ، فهو « زياد بن أبيه » .

قال حميد بن مسلم : من شهود اليوم المشئوم : وكأنى أنظر إلى امرأة خرجتْ من خيام النساء كأنها الشمس طالعة ، تنادى فى جزع :

يا حبيباه ! يا ابن أخاه ...

فسألتُ عنها فقالوا : هذه زينب بنت على بن أبى طالب .

جاءت « زينب » حتى انكبت على الفتى الشهيد ، فجاءها « أخوها الحسين » فأخذ بيدها فردها إلى الفسطاط ، ثم عاد إلى ولده وقد أقبل فتيانه إليه فقال : احملوا أخاكم .

فحملوه من مصرعه ذلك ، ثم جاء به حتى وضعه بين يدى فسطاطه (١)

* * *

وأحاط القوم « بالحسين » فأقبل « القاسم بن الحسن بن على » ــ وهو يومئذ غلام ــ يجرى نحو عمه ، فجرت « زينب » إليه تريد أن تمنعه ، لكن الغلام أفلت منها حين رأى مجرماً يهوى بالسيف إلى عمِّه . ومد « القاسم » يده ليتقى ضربة السيف وهو يصيح بالمجرم :

« يا ابن الخبيثة أتقتل عمى » ؟

فقطع السيف يده ، وبقيت معلقة بخيط من الجلد .

صرخ الغلام الشهيد وهو يفحص برجليه :

ــ يا أماه !

فأجابته « زينب » من بعيد : لَبَّيْكَ .

وهرعت إليه ، فإذا « الحسين » واقف عند رأسه يقول :

« عزَّ واللّهِ على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك صوته » .

ثم احتمله حتى ألقاه مع ابنه على ، بين عينى « زينب » .

وأخذت « زينب » تتلقى هذا المحتضر من آلها أو ذاك ، فلا يكاد يلفظ النفس الأخير حتى تحتضن أشلاء آخر . . .

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى : ٧٠ ، مع مقاتل الطالبيين : ١١٥ .

وكان فيمن حُمِلَ إليها ، ولدها عون بن عبد الله بن جعفر وأخواه محمد وعبيد الله ، وإخوتها : العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد الأصغر ، وأبو بكر ، وابنا أخيها الحسين : على ، وعبد الله ، وابنا أخيها الحسن : أبو بكر والقاسم ، وبنو عمها عقيل : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله و... و... !

والرحَى دائرة فى جنون ، لا تريد أن تكف وعلى أرض كربلاء من الطالبيين حى يتنفس !

وحين قاربت المعركة نهايتها ، اندفع عشرة رجال من جيش « ابن زياد » إلى فسطاط « الحسين » الذى فيه عياله ومتاعه لينهبوه ، فردتهم صيحة الإمام الذى كان يقاتل وحده :

« ويلكم إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً فى الدنيا ، فرحلى لكم عن ساعة مباح » .

* * *

وأبيح الرحل بعد ساعة ...

ويا لها من ساعة رهيبة ، جعل « الحسين » يقاتل فيها وحده بعد أن قتل عنه ولده وأهل بيته وأصحابه ، فلم يبق منهم أحد ...

قال من رآه يقاتل الجمع رابط الجأش : « فو الله إنه لكذلك إذ خرجت زينب ابنة فاطمة ، وكأنى أنظر إلى قرطها يجول بين أذنيها وعاتقها وهى تقول :

« ليت السماء انطبقت على الأرض »

فلما دنا « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » من « حسين » قالت : « يا عمر ابن سعد ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر » ؟ فكأنى أنظر إلى دموع « عمر » وهى تسيل على خديه ولحيته ، ثم أشاح بوجهه عنها ...

أجل « زينب » حتى اللحظة الأخيرة ، وفى كل لحظة ...

« زينب » دون سواها من الزوجات والأمهات والأخوات اللواتى شهدن « كربلاء » !

وبقى « الحسين » وحده ، « فما رُئَى مكسور قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه ، أربط جأشاً منه ولا أمضى جناناً ولا أجرأ مقدماً » .

ووقفت أخته « زينب » غير بعيد تملأ عينيها منه قبل أن يمضى ، حتى إذا أثخنته الجراح وأوشك أن يهوى ، خانها جلدها فلم تعد تقوى على النظر إليه ، فأغمضت عينيها وأصغت بملء جوارحها إلى صيحته الأخيرة فى الألوف المجتمعة عليه :

« أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبداً من عباد الله ، اللَّهُ أسخط عليكم لقتله منى . وايمُ اللهِ إنى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون . أما والله لو قتلتمونى لألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم » .

فكأنما زلزل الأرض تحت أقدام المنتصرين .

ومكث ، رضى الله عنه ، طويلاً من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لقتلوه ، لكنهم مضوا عنه واحداً فى أثر واحد ، لا يكاد يهم به الرجل منهم حتى يضعف ويرعد .

* * *

ثم قضى الله أمره ، وكانت النهاية المحتومة !

قتل الحسين ، « وكان بجثته حين قتل ، ثلاث وثلاثون طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة .

ضربت كتفه اليسرى بالسيف فقطعت ...

وأجهزتْ ضربة أخرى على الشهيد ...

وتقدم ثالث فاحتز رأسه !

وكفت الرحى المجنونة بعد أن لم يبق من آل البيت من تطحنه !

ورُدَّت السيوف إلى أغمادها حين لم يعد هناكٍ منهم ، من تذبحه .
وتركت جثث الشهداء بالعراء ...

« ومال الناس على الخيل والإبلِ فانتهبوها ، ومالوا على نساء « الحسين » وثقله ومتاعه ، فإن كانت المرأة لتنازع ثوبَها عن ظهرها حتى تُغلَبَ عليه فيُذهَب به منها » بلفظ الطبرى ...

وجعلت الخيل تطأ جثث الشهداء !

* * *

وغربت شمس العاشر من المحرم سنة إحدى وستين ، وأرض « كربلاء » غارقة فى الدماء ، قد تبعثرت فيها أكرم الأشلاء ، ولاح القمر من وراء الغيوم خابى الضوء شاحبه .

وعلى ذلك الضوء الشاحب بدت « زينب » فى نفر من الصبية وجمع من الأرامل والثواكل ، عاكفات على تلك الأشلاء ، يلتمسن فيها ذراع ولدٍ حبيب ، أو كتف زوج عزيز أو قدم أخ غال .

وغير بعيد منهن ، كان عسكر « ابن زياد » يسمرون ويشربون ويحصون على ضوء المشاعل ما قطعوا من رؤوس وما انتهبوا من أسلاب .

وسُمِعتْ أصوات من هناك ، تقول لـ « شمر بن الجوشن » الذى احتز رأس الإمام الشهيد :

« قتلت الحسين بن على . . . ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ وآله . قتلتَ أعظم العرب خطراً ... أراد أن يزيل ملك هؤلاء فأْتِ أمراءك واطلب جزاءك منهم ، فإنهم لو أعطوك بيوت أموالهم فى قتله كان قليلاً » .

فكان جوابه أن وقف بباب فسطاط « عمر بن سعد بن أبى وقاص » ثم نادى بأعلى صوته :

أوْقِرْ ركابى فضةً وذهَبا
إنى قتلتُ السيد المحجبا

قتلتُ خيرَ الناس أُمًّا وأبًا

وخيرَهم ، إذ يُنسبون ، نَسَبا

فقال عمر بن سعد : أشهد أنك لمَجنونٌ ما صحوتَ قط ! أدخلوه علَيَّ ، فلما أُدخِلَ حذفه بالقضيب ثم قال : يا مجنون ، أتتكلم بمثل هذا الكلام ؟ لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك ...[1]

* * *

وقيل انتهت القصة ...

قصة ثلاثة وسبعين شهيدًا ثبتوا يومئذ ساعاتٍ ذات عدد أمام أربعة آلاف .

حتى قُتِلوا عن آخرهم !

وسيمر حينٌ قبل أن تكون لهم قبور تجمع ما تناثر من أشلائهم ، ويقف بها الرائى منشداً :

وقفتُ على أجداثِهم ومجالهم فكاد الحشَى ينفضُّ والعينُ ساجِمَه

لعمرى لقد كانوا مصاليتَ فى الوغى سراعاً إلى الهيجا ، حماة خضارمه

تأسَّوا على نصرِ ابنِ بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه

وما أن رأى الراءون أفضلَ منهم لدى الموتِ سادات وزهراً قماقمه

ولم يبق من أشخاص القصة الذين ظهروا على المسرح الدامى سوى « السيدة زينب » التى لم تكد تغيب عنا لحظة طول المشهد الفاجع ، والتى ذهبت وحدها فى التاريخ بدور : « بطلة كربلاء » منذ سمعت الصيحة الأولى ، إلى موقفها إلى جانب أخيها وقد أغفى ، وهى يقظى لا تنام !

وكانت إلى جانب المريض تمرضه ، والمحتضر تواسيه ، والشهيد تبكيه .

وهى التى شوهدت إلى جانب « الحسين » — رضى الله عنهما — منذ بدأ القتال حتى انتهى ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦١ ، ومقاتل الطالبيين : ١١٩

الفصل الرابع

بَعْـد المـأسَـــاة

ــ موكب الأسرىٰ

ــ أوبَة الركب

ــ الرحلة الأخيرَة

ــ طالبَة الثأر

ــ الصَّدَى الباق ...

مَوْكبُ الأسْـــرَى

كر نفر من الجيش راجعاً إلى الكوفة ، موقراً بحمله الرهيب من رؤوس الشهداء .

وكان الليل قد أوغل ، وقصرُ « ابن زياد » قد أغلق .

قالوا : فذهب « حوْلى بن يزيد » حامل رأس الإمام الشهيد ، إلى منزله فوضع الرأس فى مكان منه ودخل فراشه فقال لامرأته : جئتك بغنى الدهر ، هذا رأس « الحسين » معك فى الدار !

فصاحت مرتاعة :

ـــ ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟ والله لا يجمعنى وإياك بيت أبدًا !

وانطلقت من الدار خارجة تعدو فى ذعر ...[1]

* * *

وسيق موكب الأسرى والسبايا ...

كان فيهم صَبِيَّانِ للحسن بن على ، رضى الله عنه ، استصغرا فتركا بلا ذبح ، وأخ لهما ثالث ، ارتث جريحاً فحمل مع الركب .

وفتى مريض من أبناء الحسين ، هو « على الأصغر ، زين العابدين » أنقذته عمته « السيدة زينب » بشق النفس ، فكان كل من بقى من سلالة شهيدها الغالى .

ومع « زينب العقيلة » سيقت « فاطمة و سكينة بنتا الحسين » وبقية نساء بنى هاشم : سبايا أسيرات .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦١/٦ ، والمقاتل : ١١٩ .

وجاز الركب بساحة المعركة حيث الأشلاء مبعثرة فى الدماء ، فيروى الطبرى بإسناده عن قرة بن قيس التميمى ، قال : فما نسيتُ من الأشياء لا أنسى قول « زينب ابنة فاطمة » حين مرت بأخيهاالحسين صريعا : « يا محمداه يا محمداه ، صلى عليك ملائكة السماء ! هذا الحسين بالعراء ، مزمل بالدماء ، مقطع الأعضاء ، يا محمداه ! هذه بناتك سبايا ، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا » . قال قرة : فأبكتْ كل عدو وصديق[1] .

* * *

ودخل الموكب « الكوفة » .

ووقفت الجموع محتشدة تشهد نساء البيت النبوى ، فى طريقهن إلى « عبيد الله بن زياد » وقد لبست العقيلة أرذل ثيابها، وتنكرت[2] .

وسُمِعَتْ آهةٌ من هنا ، وشهقةٌ من هناك ، وكلمةٌ من هنالك : رثاءٌ وعزاء ...

ورُئِيَتْ نساء « الكوفة » قياماً يندبن متهتكات الجيوب .

وبكى الباكون على الكريمات من بيت النبوة .

فلم تطق « السيدة زينب » على ذلك صبراً .

لم تطق أن ترى أهل « الكوفة » يبكون وهم الذين خذلوا أباها وأخاها « الحسين » ، وأسلموا ابن عمها « مسلم بن عقيل » ونادَوا أخاها « الحسين » فلما جاءهم ملبيًا باعوا سيوفهم ليزيد .

وذكرت قول أبيها « على » كرم الله وجهه فى أهل « الكوفة » وشكواه منهم ، ثم أرسلتْ بصرها بعيدًا ، حيث جثث الشهداء من أهلها ممزقة منبوذة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٤/٣٣ .

بالعراء ، حتى استقرت عيناها أخيراً على أولئك الباكين ، فأشارت إليهم أن اسكتوا .

فطأطأوا رؤوسهم خزياً وندماً ، على حين مضت هى تقول :

« أما بعد يا أهل الكوفة ، أتبكون ؟ فلا سكنت العبرة ولا هدأت الرنة ! إنما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دَخَلاً بينكم ، ألا ساء ما تزرون .

« أى والله فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها وشَنَارها ، فلن تَرْحَضوها بغسل أبداً . وكيف تَرْحَضون قتل سبط خاتم النبوة ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ومنار محجتكم ، وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء ! ..

أتعجبون لو أمطرت دماً ؟ ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، أنْ سَخِطَ الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون ...

« أتدرون أى كبد فريتم ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ؟ ﴿ **لقد جئتم شَيئاً إدًّا * تكادُ السمٰواتُ يتفطَّرْنَ مِنهُ وتَنشَقُّ الأرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا** ﴾ .

قال من سمعها : « ... فلم أر والله خَفِرةً أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فلا والله ما أتمت حديثها حتى ضج الناس بالبكاء ، وذهلوا ، وسقط ما فى أيديهم من هول تلك المحنة الدهماء » .

ثم لوت رأسها عنهم ، ومضت قدماً ، إلى حيث أريد لها أن تمضى ، هى والسبايا من آل البيت الكريم .

مضت حتى بلغت دار الإمارة ، فأحست شجا فى حلقها !

إنها تعرف كل قطعة فى هذى الدار ، فلقد كانت دارها ، أيام كان أبوها « على » أمير المؤمنين . ملء الدنيا والحياة ...

وترنحت الدموع فى مقلتيها ، لكنها أبت عليها أن تذل ، وجمعت شجاعتها وهى تجتاز الساحة الكبرى حيث رأت ـــ منذ أكثر من عشرين عاماً ـــ ولدها عوناً يحبو لاهياً ، ورأت شقيقيها الحسن والحسين ملء القلوب والأبصار .

ووضعت يمناها على ما بقى من قلبها خشية أن يتصدع ، حين أشرفت على القاعة الكبرى ورأت « عبيد الله بن زياد » جالساً حيث تعود أبوها أن يجلس : يستقبل الوفود ، ويجتمع بالرسل والأمراء والولاة ...

إنها تدخلها اليوم أسيرة يتيمة ثكلى ، قد فقدت أباها ، وولدها وشقيقيها ، وبقية آلها .

ودَّت إذ ذاك لو أنها نفست عن أشجانها بدمعة . . . لكنها كرهت أن تلقى الطاغية ذليلة باكية .

لم تكن قط كما هى اليوم ، بحاجة إلى أن تلوذ بكل كبريائها وقوتها ، وعزة بيتها ، وشرف آلها ، وعراقة نسبها ، لكى تقف الموقف الجدير بالسيدة عقيلة بنى هاشم .

وهى أشد حاجة إلى ذاك ، لتؤدى دورها الذى ينتظرها ، بعد أن اجتاح الإعصار كل من كان لها من الرجال ...

وتقدمت العقيلة فى مهابة تحف بها نساؤها ، فأخذت مجلسها دون أن تلقى بالاً إلى الأمير الطاغية .

وأخذتها عيناه وهى تجلس بادية الترفع ، قبل أن يؤذن لها فى الجلوس ، فسألها : « من هذه الجالسة ؟ »

فلم تكلمه . قال ذلك ثلاثا ، كل ذلك لا تكلمه .

وأجابت إحدى إمائها :
ـــ هذه زينب ابنة فاطمة .

قال لها « ابن زياد » وقد غاظه ما كان منها : « الحمد لله الذى فضحكم ، وقتلكم ، وأكذب أحدوثتكم » .

فردت عليه ونظراتها تقطر احتقاراً : « الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه ﷺ وآله ، وطهرنا من الرجس تطهيراً ، إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله » .

قال : كيف رأيتِ صنع الله بأهلِ بيتك ؟

أجابت وما يزايلها ترفعها :

« كُتِبَ عليهم القتلُ فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده . »

صغر الطاغية وتضاءل ، وإن قال فى اشتفاء وغضب :

ــ قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك . . .

فردتْ عبرتها وهى تقول : لعمرى لقد قتلت كهلى ، وأبرت أهلى ، وقطعت فرعى ، واجتثثت أصلى ، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت .

فقال فى غيظ : هذه سجاعة ، لقد كان أبوها سجاعاً شاعراً(١) .

فقالت فى رزانة صارمة : ما للمرأة والسجاعة ؟ إن لى عن السجاعة لشغلاً .

فرد عنها بصره ، وعاد يتأمل فى وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على « على الأصغر بن الحسين » فأنكر بقاء فتًى منهم حياً وسأله : ما اسمك ؟

قال : أنا على بن الحسين .

فعجب « ابن زياد » وتساءل : أَوَ لم يقتل اللهُ عليّ بنَ الحسين ؟

فسكت علىّ .

وعاد « ابن زياد » يستحثه : ما لك لا تتكلم ؟

قال : قدكان لى أخ يقال له أيضاً « على » فقتله الناس .

---

(١) وقع فى طبعة الحسينية ، الأولى من تاريخ الطبرى : [هذه شجاعة ... شجاعاً] ٢٦٣/٦ .

قال « ابن زياد » إن الله قد قتله ! ..

فأمسك عليّ لا يرد ، ثم تَلاَ ، حين استحثه « ابن زياد » :

﴿ اللهُ يتوفَّى الأنفسَ حينَ مَوْتِها ﴾ . . ﴿ وما كانَ لِنَفْسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذْنِ اللّهِ ﴾ .

فصاح الطاغية : أنت والله منهم ، ويحك !

ثم التفت إلى رجاله فقال :

ـــ انظروا هل أدرك ؟ والله إنى لأحسبه رجلاً !

« ثم أمر به أن يقتل ، فاعتنقته عمته « زينب » وهى تقول :

ـــ يا ابن زياد ، حسبك منا ! أما رويت من دمائنا ؟ وهل أبقيت منا أحداً ؟

ثم آلت عليه : لَيدعَنَّ الغلام ، أو فليقتلْها معه ...

فنظر إليها « ابن زياد » ساعة ، ثم نظر إلى القوم فقال :

« عجباً للرحم ! والله إنى لأظنها ودت لو أنى قتلتها معه : دعوا الغلام ينطلق مع نسائه .. »

وأمر « ابن زياد » برأس « الحسين » فطيف به فى الكوفة محمولاً على خشبة ثم أمر أن يوطأ صدرُه وظهره وجنبه ، فأُجْرِيت الخيل عليه ثم جعل الغل فى يدى « على زين العابدين » ورقبته ...[1]

* * *

وسيق الموكب مرة أخرى إلى دمشق ...

رأس الحسين ، ورؤوس السبعين من آله وصحبه ، والأسرى من الصبية

---

(١) ينظر (نسب قريش : ٥٨) مع الطبرى : ٦/٢٦١ ، ومقاتل الطالبيين : ١١٩ .

فى الأغلال ، والسبايا من نساء البيت النبوى محمولات على الأقتاب فى حراسة بعض رجال « ابن زياد » الأشداء .

لم يتكلم « على بن الحسين » طوال الطريق .

ولم تتكلم عمته « زينب » .

كانت المحنة الخانقة قد ألجمت لسانيهما فانطوى « ابن الحسين » على نفسه صامتاً يحدق فى الأغلال .

وراحت « زينب » ترمق رؤوس الشهداء من آلها واجمة صامتة !

حتى إذا بلغوا « دمشق » سير بهم تواً إلى حضرة « يزيد بن معاوية » وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء .

وكان « يزيد » قد دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله .

ووضِعت رأس « الحسين » بين يديه ، ومعه قضيب ينكت به ثغره ، فالتفت إلى أصحابه يقول :

« هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام المُرِّى :

أبى قومُنا أن ينصفونا فأنصفتْ قواضبُ فى أيماننا تقطر الدمَا
يفلقن هَاماً من رجالٍ أعزة علينا ، وهم كانوا أعَقَّ وأظلما !

فأنشد « يحيى بن الحكم » ، أخو مروان بن الحكم الأموى :

لَهَامٌ بجَنْبِ الطفِّ أدنى قرابةً من ابنِ زيادِ العبدِ ذى الحسَبِ الوغْلِ
سُمَيَّةُ أمسى نسلها عددَ الحصى وليس لآل المصطفى اليومَ من نسلِ

فضرب « يزيد » فى صدر يحيى وقال : اسكتْ[1] .

ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى رأس الشهيد :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٦٥/٦ ــ ٢٦٧ ، والكامل لابن الأثير : ٣٥/٤ ــ ٣٧ ، والمقاتل : ١١٩ ــ ١٢٠ .

« أتدرون من أين أُتِيَ هذا ؟ قال : أبى علىٌّ خير من أبيه ، وفاطمة أمى خير من أمة ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما قوله : أبوه خير من أبى فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له . وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى . وأما قوله : جدى رسول الله خير من جده ، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلًا أو ندًا . ولكنه — أى الحسين — أتى من قبل فقهه ، ولم يقرأ : ﴿ **قُلِ اللهمَّ مالكَ المُلْكِ تُؤْتِى الملكَ مَن تشاءُ وتَنْزِعُ الملكَ مِمَّن تشاءُ ، وتِعِزُّ من تشاءُ وتُذِلُّ من تشاءُ ، بِيَدِكَ الخيرُ ، إنكَ عَلَى كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ** ﴾[١] .

فقال له « أبو برزة الأسلمى » رضى الله عنه : « أتنكتُ بقضيبك فى ثغر الحسين ؟ لقد أخذ قضيبُك فى ثغره مأخذاً ربما رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشفه .. أما إنك يا يزيد تجىء يوم القيامة وابنُ زيادٍ شفيعُك ، ويجىء هذا ومحمدٌ شفيعه ! ثم قام ، فولَّى . فقال يزيد : واللّهِ يا حسَيْنُ لو كنتُ أنا صاحبَكَ ما قتلتك »[٢] .

« ثم أمر فأُدخِلَ نساء الحسين عليه ، والرأسُ بين يديه ، فجعلت فاطمة وسكينة ، ابنتا الحسين تتطاولان لتنظرا رأس أبيهما ، وجعل يزيد يتطاول ليسترها عنهما . فلما رأت النساء الرأسَ صِحْنَ ، فصاح نساء يزيد فى قصره وولولتْ بناتُ معاوية . فقالت فاطمة بنت الحسين : بنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ .

فقال : يا ابنةَ أخى ، أنا لهذا كنتُ أكره[٣] .

وجعل أهل المجلس ينظرون إلى بنات البيت الهاشمى ، وقد كن — حتى أمس القريب — عزيزات منيعات مصونات !

وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن ، فغضوا من أبصارهم تهيبا إلا رجلاً من أهل الشام ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق فى فاطمة بنت الحسين — وكانت شابة

---

(١) الطبرى ، وابن الأثير . والآية من سورة آل عمران : ٢٦ .

(٢ــ٣) الطبرى ، وابن الأثير . ومقاتل الطالبيين .

وضيئة ــ بنظرات جشعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل إلى « يزيد » فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، هب لى هذه !

فأخذت فاطمة بثياب عمتها « زينب » مذعورة ترتجف .

قالت السيدة وهى تحتضن بنت أخيها الشهيد :

ــ كذبتَ والله ولؤمت ! ما ذلك لكَ ولا له :

فغضب يزيد وقال : إن ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت !

قالت :

ــ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا .

فاستثاره قولها غضباً وتساءل منكراً :

ــ إياى تستقبلين بهذا ؟

ردَّت ، فى عناد :

ــ بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت يا يزيد ، أنت وأبوك وجدك !

قال محنقاً : كذبتِ ...

فهزت رأسها استخفافاً وهى تقول : أنت أمير مسلط ، تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك ....

فلم يجب ...

وساد القاعة وجوم ثقيل ، ثم عاد الشامى يملأ عينيه من « فاطمة » ويقول :

ــ يا أمير المؤمنين ، هب لى هذه الجارية !

فصاح به أميره :

ــ اغربْ ، وهبكَ الله حتفاً قاضيا ! (الطبرى : ٦/٢٦٥)

* * *

ثم كان المشهد الرهيب :

كشف « يزيد » عن رؤوس الشهداء ، وعاد يعبث بقضيب في يده ، بثنايا الحسين الإمام وهو يتمثل بأبيات « عبد الله بن الزبعرى ، شاعر قريش » يوم أحد :

ليت أشياخي « ببدر » شهدوا جزع « الخزرج » من وقع الأسلْ
لأهلّوا ، واستهلوا فرحاً ثم قالوا : يا « يزيد » لا تشل !

فبكت نساء هاشم إلا العقيلة فإنها انتفضت تصيح في يزيد :

صدق الله يا يزيد : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم ١٠)

« أظننت يا يزيد أنه حين أُخِذَ علينا بأطرافِ الأرض وأكنافِ السماء فأصبحنا نُسَاق كما تساق الأسارَى ، أَنَّ بنا هواناً على الله ، وأن بك عليه كرامةً ؟ وتوهمتَ أنَّ هذا لعظيمِ خطرِك ، فشمخت بأنفك ، ونظرت في عِطْفَيْكَ جذلانَ فَرِحاً ، حين رأيت الدنيا مستوثقة لك والأمور متسقة عليك ؟ إن الله إنْ أمهلك فهو قوله : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ، إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾
(آل عمران ١٧٨)

« أمِن العدل يا ابن الطلقاء ، تخديرُك بناتك وإماءَك ، وَسَوْقُك بنات رسولِ الله ﷺ وآله كالأسارى قد هُتِكَتْ ستورُهن ، وأصْحَلَتْ أصواتُهن ، مكتئباتٍ تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لا يُراقَبْنَ ولا يؤوَين ، يتشوفهن القريبُ والبعيد ليس معهن قريبٌ من رجالهن ؟ ...

« أتقول : * ليت أشياخي ببدر شهدوا * غيرَ متأثم ولا مستعظم وأنت تنكث ثنايا « أبي عبد الله » بمخصرتك ؟ ولم لا وقد نكأت القرحة واستأصلتَ الشأفة بإهراقكَ هذه الدماءَ الطاهرة ، دماء نجوم الأرض من آل عبد المطلب ؟

« ولَترِدَنَّ على الله وشيكاً موردَهم ، وعند ذلك تود لو كنتَ أبكمَ أعمى .

« أيزيدُ واللّهِ ما فريتَ إلا فى جِلْدِك ، ولا حَززْتَ إلا فى لحمك ! وستَرِدُ على رسولِ الله ﷺ وآله برغمك ، ولتجدنَّ عِترتَه ولحمته من حوله فى حظيرةِ القُدس ، يومَ يجمع الله شملَهم من الشعث : ﴿ **ولا تحسبنَّ ٱلذينَ قُتِلُوا فى سبيلِ اللّهِ أمواتًا ، بَلْ أحيَاءٌ عندَ ربِّهم يُرْزَقُون** ﴾ .

« وستعلم أنت وَمن بوأك ومكَّنك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكَم ربنا والخصم جدنا ، وجوارحك شاهدة عليك : أينا شرٌّ مكاناً وأضعفُ جنداً .

« فلئن اتخذتنا فى هذه الحياة مغنماً ، لتجدنَّنا عليكَ مغرماً ، حين لا تجد إلاما قدمت يداك . تستصرخ بابن مرجانة — عبيد الله بن زياد — ويستصرخ بك ، وتتعاوى واتباعُك عند الميزان وقد وجدتَ أفضلَ زادٍ تزودت به : قتلَ ذرية محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

« فواللّهِ ما اتّقيتُ غيرَ الله ، وما شكوتُ إلا للهِ ، فِكدْ كيدَك ، واسْعَ سعيَكَ ، وناصبْ جهدك ، فواللّهِ لا يُرحَضْ عنك عارُ ما أتيت إلينا أبداً »

وسكتت ، فأطرق « يزيد » وأطرق كل من كان معه ، كأن على رؤوسهم الطير ...

* * *

وفى خبرٍ أن « هند بنت عبد الله بن عامر : زوجة يزيد » سمعت بما يدور فى مجلس زوجها ، فتقنعت بثوبها وخرجت فقالت : « يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين ابن فاطمة بنت رسول الله ؟

قال : نعم ، فأعْوِلى عليه وحُدِّى ...

* * *

وضاق « يزيد » بمرأى « زينب » وروّعه ما سمع منها ، فأشاح عنها بوجهه وهو يشير إليها وإلى النساء معها أن يخرجن إلى داره .

وأمر بـ « على بن الحسين » فأدخل مغلولاً فقال :

ـــ لو رآنا رسول الله ﷺ وآله مغلولين لفك عنا .

قال « يزيد » وما يزال صوت « زينب » يدوى فى أذنيه : صدقتَ .

وأمر بفك الغل عنه ، ثم قرّبه إليه وهو يقول كالمعتذر :

ـــ إيه يا على بن الحسين ! أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى فصنع الله به ما رأيت .

فكان جواب « على » أن تلا قوله تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِى الأَرضِ ولَا فِى أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرأَهآ ، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلَا تَأْسَوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، واللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ .

فهم « يزيد » بأن يتلو الآية :

﴿ **ومَا أَصَابَكُمْ مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** . . . ﴾ لكنه ما لبث أن سكت ، فقد كان صراخ النسوة يسمع من بعيد ، فاجعاً مؤثراً ، عالى الصدى .

ولم تكن بنات هاشم وحدهن الباكيات ، بل واستهنْ نساء بنى أمية بدموعهن .

فلم تبق من آل معاوية امرأة إلااستقبلتهن تبكى وتنوح على « الحسين » .

وأقيمت المناحَة ثلاثةَ أيام وِصالاً ، ثم أمر « يزيد » فَجُهِّزْنَ للسفرِ إلى « المدينة » فى صحبة حارس أمين ، معه خيل وأعوان ...

وقيل إن « يزيد » دعا « علياً » فقال له مودعاً :

« لعن اللّهُ ابنَ مرجانة ـــ يعنى ابن زياد ـــ أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبداً إلا أعطيتُه إياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله ما رأيت » .

وسأله أن يكتب إليه كلما عنت له حاجة ، ثم انسل إلى مخدعه وصدى صوت العقيلة يطارده فى قسوة وإلحاح !

* * *

وخرج الحارس بنساء « الحسين » وصبيته ، يسايرهم بالليل متلطفاً فيكونون أمامه حيث لا يفوتون طرفه ، فإذا نزلوا تنحى عنهم وتفرق هو وأصحابه حولهم كهيئة الحرس لهم ، بحيث إذا أراد إنسان منهم وضوءاً أو قضاء حاجة لم يحتشم ، فلم يزل ينازلهم فى الطريق هكذا ، وهو يسألهم من حين إلى حين : « هل من حاجة ؟ »

قالت « زينب » : لو عرجتَ بنا على « كربلاء » ؟!

فأجاب محزوناً : أفعل !

ومضى بهم حتى أشرفوا على الساحة المشئومة ..

* * *

كان قد مضى على المذبحة يومئذ أربعون يومًا ، وما تزال الأرض مخضبة ببقع من دماء الشهداء ، وبقية من أشلاء عف عنها وحش الفلاة .

وناحت النوائح ، وأقمن هناك ثلاثة أيام لم تهدأ لهن لوعة ولم ترقأ لهن دمعة ، ثم أخذ الركب المنهك طريقه إلى « مدينة الرسول » .

فلما كانوا بظاهر المدينة قالت « فاطمة بنت الحسين » لعمتِها « السيدة زينب » :

ـــ لقد أحسن هذا الرجل إلينا فى صحبتنا ، فهل لك فى أن نصله ؟

أجابت « العقيلة » : والله ما معنا شىء نصله به إلا حلينا ...

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به إلى الرجل ، معتذرتين إليه عن ضآلة الهدية ، بضيق الحيلة واليد .

لكن الرجل رد إليهما الحلى قائلاً :

ـــ لو كان الذى صنعتُ إنما هو للدنيا ، كان فى حليكن ما يرضينى ، ولكن والله ما فعلتُه إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

* * *

أوبة الركب

كانت « المدينة » فى تلك الفترة ، واجمة تترقب أنباء سبط النبى — صلى الله عليه وعلى آله وسلم — الذى خرج إلى « الكوفة » ملبياً نداء شيعته هناك ، فما راعها إلا منادٍ ينادى :

« إن على بن الحسين قد قدم إليكم مع عماته وأخواته » .

على بن الحسين ؟ والعمات والأخوات ؟

فأين « الإمام الحسين » إذن ؟ وأين الأعمام والإخوة وبنو الأعمام ؟

أين نجوم الأرض من « بنى الزهراء » وآل عبد المطلب ؟

أين ... وأين !

وانتشر صدى النعى حتى بلغ سفح « أُحد » ثم ارتد إلى البقيع ، فقباء ، خافتاً ممزقاً ، وما لبث أن تلاشى فى صراخ الباكين وعويل النادبات .

لم تبق مخدرة فى « المدينة » إلا برزت من خدرها نائحة معولة ، واندفعت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » — أخت مسلم — ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وتصرخ :[1]

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم ، وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى ، ومنهم ضرجوا بدم ؟
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وسمع من بعيد صوت ينوح :

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦/٢٦٨ (سنة ٦١ هـ)

أيها القاتلون جهلاً « حسيناً » أبشروا بالعـــذاب والتنكيـــل
كل أهل السماء يدعو عليكـم من نبـى ، ومـالك ، وقبيـل
قـــد لعـــنتم على لسان داو دَ ، وموسى ، وحاملِ الإنجيـل !

وأشرف الركب الحزين على الجموع التى خرجت لاستقباله ، فما رأت « مدينة الرسول » أفجع مشهداً ، ولا رأت بعد رحيل المصطفى ﷺ ، مثل ذاك اليوم أكثر باكياً وباكية !

* * *

وذكرت « المدينة » ليلة خرجوا منها إلى « مكة » — فى إحدى أمسيات شهر رجب الفرد — جمعاً كريماً يتقدمه « زين شباب الجنة » فى هالة من النجوم الزهر .. خرجوا يطاولون « يزيد بن معاوية » ليزيلوه عن مُلْكٍ لم يروه له أهلاً ...

لقد آب الركب من سفره بعد تلك الغيبة التى لم تتجاوز أشهراً معدودات ، فيا لله ماذا فعلت بهم الليالى والأيام ؟

حثتهم إلى مناياهم سراعاً ، حتى إذا بلغوا وادى الردى — ذاك الذى خالوه وادى الأمل — حصدهم منجل الموت حصداً ، فلم يترك سوى هذه البقية التعسة من الصبية اليتامى والنسوة الثواكل !

وأمّا الرجال والشباب فلم يؤب منهم مسافر ...

* * *

وأقامت « مدينة الرسول » أياماً بلياليها تشهد المأتم الرهيب ، وتصغى إلى النواح الفاجع ، وتتلقى فى ثراها الطاهر دموع البواكى ..

وقتئذ نرى « عبد الله بن جعفر » — زوج زينب — يجلس ليتقبل العزاء فى ولديه : عون الأكبر ، ومحمد . وفى ابن عمه « الحسين » وبقية الشهداء من آل جعفر وبنى عبد المطلب .

ونسمع مولى من مواليه يقول فى حمق : « هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين » .

فقذفه « عبد الله » بنعله ساخطاً مغضباً وهو يقول :

« يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدتُه لأحببتُ ألاّ أفارقَه حتى أقتلَ معه . والله انه لمما يسخى بنفسى عن ولدىَّ ويهون علىَّ المصابَ فيهما ، أنهما أصيبا مع أخى وابنِ عمى ، مواسيَيْنِ له صابرينِ معه » .

ثم ينثنى إلى جلسائه فيقول : « أعززْ على بمصرع الحسين ، إلا تكن يدى آست حسيناً فقد آساه ولداى »(1)

ثم ينفض المأتم . وتبقى الأرامل والثواكل ، يسعين كل يوم إلى القبور فيندبن الأعزاء الذين غودروا بكربلاء ، وترجِّع « المدينة » أصداء أصواتهن فيبكى لهن الأعداء والأصدقاء .

حدثوا أن « أم البنين بنت خزام : زوج الإمام على » كانت تخرج إلى البقيع فتبكى بنيها الأربعة « عبد الله ، وجعفراً ، وعثمان ، والعباس » — وقد قتلوا جميعاً فى كربلاء . وتندبهم أشجى ندبة وأحرقها ، فيجتمع الناس إليها يسمعون منها ، فكان مروان بن الحكم — عدو الطالبيين — يجىء فيمن يجىء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتها ويبكى !

وقيل إن « الرباب بنت امرىء القيس : زوج الحسين وأم ابنته سكينة » عادت بعد مصرعه إلى المدينة « فامتنعت على الخطاب من أشراف قريش ، وبقيت بعده سنة لم يظلها سقفُ بيتٍ حتى بليت وماتت ! »

* * *

ونفتقد « السيدة زينب » فى المأتم الذى أقامه « عبد الله بن جعفر » بالمدينة لولديه منها ، فيخيل إلينا أنها أغفت مجهدة بعد أن ألح عليها السهاد .

غير أنا لا نلبث أن نراها وقد أمسكت دموعها ، وهبت تطلب أمراً ...

إن لها اليوم لشأناً آخر ، غير البكاء !

فهذا الدم المسفوح ، لا ينبغى أن يضيع هدراً ...

وأولئك الشهداء الكرام ، لا يجوز والله أن يذهبوا باطلاً . . .

---

(1) تاريخ الطبرى : ٢٦٨/٦ (سنة ٦١ هـ)

الرحلة الأخِيرَة

أرادت « السيدة زينب » أن تقضى ما أبقت لها الأيام من عمر ، فى جوار جدها ﷺ ، لكن « بنى أمية » كرهوا ذلك المقام :

فلقد عادت هى ومن معها يقصون على المؤمنين ما لقى سبط النبى من جيش ابن زياد ، ويصفون لهم المجزرة الحاصدة التى ذبح فيها الإمام الحسين وشيعته .

وكان وجود « السيدة زينب » فى المدينة كافياً لأن يلهب الحزن على الشهداء ، ويؤلب الناس على الطغاة ، حتى كاد الأمر يفسد على بنى أمية ، فكتب واليهم « بالمدينة » إلى « يزيد » : « إن وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وإنها فصيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » .

فأمره « يزيد » أن يفرق البقية من « آل البيت » فى الأقطار والأمصار .

وطلب الوالى إلى « السيدة زينب » أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء .

قالت غاضبة مستثارة :

« قد علم والله ما صار إلينا : قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحُمِلْنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا وإن أريقت دماؤنا » .

لكن النساء الهاشميات أشفقن عليها من غضب الطاغية ، فأحطن بها يتلطفن معها فى الكلام ويواسينها ويغرينها بالخروج . وقالت لها « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » :

« يا ابنة عمى ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء وسيجزى الله الظالمين ... ارحلى إلى بلد آمن » .

فخرجت « زينب » من مدينة جدها ﷺ ، ثم لم ترها المدينة بعد ذلك أبدًا !

* * *

رحلت تريد « مصر » ...

وما أكثر ما رحلت !

أفتقضى العمر هكذا متنقلة من بلد إلى بلد لا يطمئن بها على الأرض مكان ؟

وشعرت رفيقات السفر من الهاشميات ، أن عقيلتهن تبدو مجهدة كما لم تبد قط من قبل ، فهى تقطع الطريق تائهة النظرات جامدة العينين ، كأن شيئًا فيها قد انكسر أو مات .

ويردن ليؤنسن وحشتها فلا تزداد إلا وجومًا وشرودًا .

ويعمدن آخر الأمر إلى شيء زعمن أنه قد يخفف عنها ، فمضين يتذاكرن ما كان فى « كربلاء » كى ينكأن جرحها فتبكى ...

لكن الدمع كان قد تحجر فى مقلتيها ...

وأوغل الجرح فى قلبها : عميقًا غائرًا مميتًا !

* * *

وكانت الليالى الأخيرة من السفر أشد المراحل كآبة وانقباضًا ...

جاوز الركب السارى أرض الحجاز ، مرتع الصبا وموطن الأجداد والآباء ...

وأشرف على أرض الكنانة . . .

الأفق مظلل بالغيوم وليس فى السماء قمر . . .

وعلى الصحراء الشرقية جثم الهواء راكدًا فاترًا ثقيلاً ، كأنما جَمُدَ لمرأى الركب الحزين السارى .

* * *

وملأت الوحشة ، ذلك الفضاء العريض ...

ثم تغير المشهد :

بزغ هلال شعبان (عام ٦١ هـ) فى اللحظة التى وطئت فيها « السيدة » أرض الكنانة ، فإذا جموع من الناس قد احتشدت لاستقبالها .

وساروا هكذا حتى بلغوا قرية قرب « بلبيس » فقابلتهم هناك جموع أخرى آتية من عاصمة الوادى الأمين .

إنه أمير مصر « مسلمة بن مخلد الأنصارى الخزرجى ، رضى الله عنه » فى وفد من أعيان البلاد وعلمائها ، قد خرجوا للقاء ابنة « الزهراء » أخت « الإمام الشهيد » .

فلما أطلت عليهم بطلعتها المشرقة بنور الاستشهاد ، أجهشوا بالبكاء .

وحفوا بركبها ، حتى إذا بلغت العاصمة مضى بها « مسلمة » إلى داره فأقامت بها قرابة عام ، لم تُرَ خلالها إلا عابدة متبتلة .

* * *

ثم كانت نهاية المطاف .

ماتت « السيدة زينب » عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من شهر رجب عام ٦٢ هـ على أرجح الأقوال .

وأُغمِضت العينان اللتان شهدتا مذبحة « كربلاء » .

وآن للجسد المتعب المضنى أن يستريح .

فمهدت لها الأرض الطيبة مرقدًا لينًا فى مخدعها من دار « مسلمة » حيث نزلت « السيدة » منذ جاءت ، وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة[1] .

وبقى قبرها مزارًا مباركًا يفد إليه المسلمون ، حتى يومنا هذا ، من كلِّ فجٍّ عميق ...

وبقيت قصةُ آلامها المثيرة ، حديثَ الزمان ...

* * *

(١) فى أوائل القرن الهجرى الماضى ، كتب « على باشا مبارك » عن الجامع الزينبى ، يصف « ضريح سيدة الطاهرات السيدة زينب بنت الإمام على كرم الله وجهه : عليه مقصورة من النحاس الأصفر وستر من الحرير المزركش ، وتعلوه قُبَّة شامخة ، وهذا الضريح داخل الجامع الشهير بالزينبى . جدَّده الأمير على باشا الوزير المتولى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة . ثم فى سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف ، جدده ووسعه الأمير عبد الرحمن كتخدا . وهو عامر إلى الآن وشعائره مُقامة إلى الغاية . ويعمل به حضرة للسيدة رضى الله عنها كل ليلة أحد ، ومَقرأة كل ليلة أربعا ، ومولد كل عام يجتمع فيه من النذور والهدايا شىء كثير جدا . وقد صار الآن تجديده وتنظيمه من جهة ديوان الأوقاف . » الخطط التوفيقية ط ثانية ٣ / ١٠٧ عن الطبعة الأولى ١٣٠٤ هـ . ومن شاء فليرجع إلى (أخبار الزينبات ــ صفحات ٧ و ١٩ و ٥٩) وما استدرك على « السخاوى » فى (تحفة الأخبار ــ هامش ص ١١١) وانظر أيضًا (طبقات الشعرانى ص ٢٩) والخطط لعلى مبارك باشا .

طالبَة الثأر

لم تعش « السيدة زينب » بعد أخيها الشهيد سوى عام ونصف عام .

لكنها استطاعت فى هذه الفترة القصيرة أن تؤثر فى مجرى التاريخ :

ظن « بنو أمية » أن مقتل « الحسين » وآله جميعًا ، رضى الله عنهم ، هو الفصل الأخير من قصة الشيعة .

ولم يكونوا فى ذلك الظن سذجًا أو غافلين ، فما كان يُرجَى أن تقوم للطالبيين قائمة بعد أن فنى الرجال ولم يبق سوى الصبية اليتامى والنسوة الثكالى ...

من قبلُ قتل « الإمام على » كرم الله وجهه ، ومضت الحياة سيرتها لا تتوقف . . .

واستوثق الأمر « لمعاوية » بعد أن تخلى له عنه « الإمام الحسن بن على » عميد البيت العلوى .

ثم قتل « الإمام الحسين » على مرأى من شيعته بالكوفة ومسمع ، وكانت الحياة بحيث تمضى بهم سيرتها الأولى ، لولا أن « السيدة زينب » ظهرت على مسرح المأساة — قبيل إسدال الستار — لتقذف بلعنتها الطغاة من بنى أمية وعمالهم ، ومن خذلوا آل البيت من أهل الكوفة .

ومن ثم لم يسدل الستار قط ، ولعله لن يسدل أبدًا . . .

* * *

لم تمض العقيلة إلا بعد أن أفسدت على « ابن زياد ، ويزيد ، وبنى أمية »

متعة النصر ، وسكبت قطرات من السم الزعاف فى كؤوس الظافرين !

فكانت فرحة لم تطل ...

وكان نصرًا مؤقتًا ، لم يلبث أن أفضى إلى هزيمة كانت من عوامل القضاء على دولة بنى أمية .

فلم تكد « السيدة زينب » تخرج من عند « يزيد » حتى أحس أن سروره بمقتل « الحسين » قد شابه كدر خفى ، ظل يزداد حتى استحال إلى ندم ، كدّر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته .

ولحق منه « بابن زياد » شر كثير ...

روى « الطبرى » و « ابن الأثير » أنه (لما قَتَلَ عبيدُ الله بن زياد ، الحسينَ ابن على — عليهما السلام — وبنى أبيه ، بعث برؤوسهم إلى « يزيد » فسر بقتلهم أولا ، وحسنت بذلك منزلة « عبيد الله » عنده ، ثم لم يلبث قليلاً حتى ندم على قتل « الحسين » . فكان يقول : « وما كان علىَّ لو احتملت الأذى وحكّمته فيمْا يريد ؟ .. لعن الله « ابن مرجانة » فإنه أخرجه واضطره ... ثم قتله فبغضنى بقتله إلى المسلمين ، وزرع لى فى قلوبهم العداوة بما استعظموه من قتلى حسينًا ! .. ما لى ولابن مرجانة ... لعنه الله !) .

وغضب عليه .. وفى الأفق صدى من قول « يحيى بن الحكم الأموى » :

« سميةُ » أمسى نسلُها عددَ الحصى   وليس لآلِ المصطفى اليوم من نسلِ !

* * *

وشغل الناس بعد وفاة « السيدة زينب » بالحديث عن استجابة السماء لدعاء الإمام الشهيد وأخته العقيلة ، وراحوا يملأون لياليهم بسمر عجيب عن غضب الله للدم الطاهر المسفوح ، والبيت الكريم المستباح .

وجاء المؤرخون فلم يستطيعوا أن يمروا بتلك الأقاصيص والأسمار دون أن يقفوا عندها وينقلوها إلينا :

فما تركوا أحداً ممن شارك فى مأساة « كربلاء » إلا جاءونا بقصة عما سُلِّط عليه من غضب السماء وانتقام الله الواحد القهار .

وقد نتردد فيما جاءت به كتب غلاة الشيعة عن مصاير هؤلاء الآثمين ، لكننا نصغى إلى مؤرخين عرفوا بالأمانة والاعتدال ــ كالطبرى وابن الأثير ــ فنسمع العجب العجاب :

ذاك رجل من بنى دارم حال بين « الحسين » وبين الماء ، فدعا عليه الشهيد بالظمأ . قال من رآه بعد ذلك : « فو الله إنْ مكث إلا يسيراً حتى صُبَّ عليه الظمأ فجعل لا يروى ... ولقد رأيته وبين يديه قلال الماء وعِساس اللبن وإنه ليقول : ويلكم ! اسقونى ، قتلنى الظمأ ! فيعطى القلة أو العس فيشربه ، ثم يقول بعد هنيهة : ويلكم ! اسقونى قتلنى الظمأ ، حتى انقدَّ بطنُه ! ... »

وآخر منهم ، دعا عليه « الحسين » : « اللهم اقتله عطشاً » . فحدّث من عاده فى مرضه قال : « فوالله الذى لا إله إلا هو ، لقد رأيته يشرب ثم يقىء ، ثم يشرب ... فما يروى ... حتى مات » .

وثالث من كندة ، أخذ (برنس) الإمام الشهيد ، وأقبل على داره يغسله من الدم ، فقالت له امرأته : أسلب ابن بنت رسول الله تُدخِلُ بيتى ؟ .. أخرجه عنى ! » . قيل : فذكر أصحابُه أنه لم يزل فقيراً حتى مات !

ورابع ، سلب سراويل « الحسين » فتركه مجرداً ، قالوا : « إن يديه كانتا فى الشتاء تنضحان الدم ، وفى الصيف تيبسان كأنهما عود ! »

وقد يكون أكثر هذا من صنع السمار والمنقبيين ، فلا يفقد قيمة تفسيره الوجدانى للأحداث . مع ما لا شك فيه عند المؤرخين ، أن دم « الحسين » الذى طلبته أُخته « زينب » لم يذهب هدرًا !

فما هى إلا أعوام ثلاثة فحسب ، حتى كانت جذوة الغضب الكامنة قد نضجت فى بطء ، واحتدمت مستعرة ترمى بشرر كالقصر ...

وهبت الكوفة بأسرها تصيح : « يا لَثاراتِ الحسين » !

وشهد عام ٦٦ هـ ، مذبحة أخرى بالعراق ، ثأراً لمذبحة كربلاء !

قتل من الذين شاركوا فى قتل « الحسين » مائتان وثمانية وأربعون فى موقف واحد !

وطورد الهاربون فى إصرار وإلحاح ، فإذا جىء بهم سئلوا : « أين الحسين ابن على ؟ قتلتم من أُمرتم بالصلاة عليه ؟! »

ثم اختيرت لكل منهم قتلة تناسب دوره فى مصرع الشهيد :

فهذا يحرق بالنار .

وذاك تقطع أطرافه ويترك حتى يموت .

وثالث يذبح ذبح النعاج .

ورابع كان يقول : « لقد رميتُ فتى من آل الحسين بسهم ، فوضع كفه على جبهته يتقى النبل فاخترق النبل كفه » .

قالوا : فأُثبِتَتْ كفُّه فى جبهته وضُرِبتْ بالنبال .

وكان « عبيد الله بن زياد » فيمن قتل وقتئذ ، بعد طول تشردٍ وإلحاحِ مطاردة .

وكذلك « عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى » وابنه حفص .

وهرب « الأشعث بن قيس » فهدمت داره وبنيت بأنقاضها دار « حُجرِ ابن عدى الكندى » وكان « زياد بن سمية » قد هدمها !

حتى أفنوهم جميعاً .

وبُعثت الرؤوس ، فى هذه المرة ، إلى « المدينة » لا إلى « دمشق »[1]

لكن القصة لم تنته بأخذ الثأر . . .

---

(١) ذكر الأستاذ « عمر أبو النصر » فى كتابه (آل محمد فى كربلاء ـــ ص ١٠٤) ان الرؤوس بعثت إلى « على بن الحسين » . والذى فى الخبر ، انها بعثت إلى « محمد بن الحنفية » (تاريخ الطبرى ١٢٧/٧) ـــ والمسألة غاية فى الدقة والخطر .

كانت هناك بقية لم تزل .

بقية من فصول ذات عدد ...

كان منها ثورة « عبد الله بن الزبير » بالحجاز ، وخروج أخيه ، « مصعب » — زوج السيدة سكينة بنت الحسين — بالعراق ...

ثم سقوط الدولة الأموية فيما بعد ، وقيام الدولة العباسية على دعوة ظنّت الشيعة أنها للعلويين ، ثم ظهور الدولة الفاطمية بإفريقية ، وما صاحب هذا كله وما أعقبه ، من معارك وأحداث ، كتبت تاريخنا كله منذ مقتل « الحسين » .

بل حدث أيضا ما هو أهم من هذا : تأصل مذهب الشيعة ، وكان له أثر بعيد فى الحياة السياسية والمذهبية للشرق والإسلام .

والسيدة « زينب » هى باعثة ذلك ومثيرته !

لا أقول هذا من عندى تزيداً ، وإنما هو قول التاريخ !

* * *

الصَّدَى الباقى ...

ـدت العقيلة لأهل « الكوفة » غداة مصرع أخيها « الإمام » ــ رضى الله
ـا ــ صورة مثيرة لما اقترفوا فى حق الشهداء من آل البيت .

ـتكلمت ، فهاجت فيهم شعوراً لاذعاً ممضاً بالحسرة والخزى والندم .

غادرتهم . . . ورحلت . .

ـبقى صدى صوتها يدوى فى آذانهم ويملأ الفضاء من حولهم ، مذكراً إياهم
بمحنتهم . . .

ـوظل هذا الصدى باقياً لم يتبدد مع الأحداث التى أعقبت المذبحة وثأرت
ـها .

* * *

لقد كان نصيب أهل الكوفة ــ شيعة الحسين وحزبه وأنصاره ــ من إثم
ـلاء ، أبشع وأشنع من نصيب الآلاف الأربعة ، الذين تكاثروا على الشهداء
بعين !

وهل يقاس ما فعله حزب يزيد بالحسين ، بما فعله أنصار الحسين وشيعته ؟

هؤلاء دَعوا إمامهم ، وأخرجوه من حِماه ، ثم أسلموه للأسنة والحراب
م يتفرجون !

وأولئك خرجوا فى جيش الدولة ، يقاتلون براية أمير المؤمنين .

ولقد قتل أعداء الحسين ، وقتلته .

وبقى الأصدقاء الغادرون .

وكانوا بحيث يستأنفون العيش بعد فعلتهم سادرين لاهين ، غير شاعرين بفداحة خطيئتهم وبشاعة إثمهم .

كادت فعلتهم بالحسين تمضى دون أن يبقى منها سوى بضعة أسطر فى كتب التاريخ ، وبضع قصص فى أحاديث السمار ...

لكن « السيدة زينب » وقفت على جثث الشهداء ، تصيح بأهل الكوفة الذين بكوا لما رأوا موكب الأسرى من بنات النبى ، صلى الله عليه وعلى آله :

« أتبكون ؟ فلا سكنتْ العبرة » !

واستجابت السماء ، فلم تسكن للقوم عبرة !

* * *

وقد بدأوا يحسون وخزَ الندم منذ اللحظة الأولى التى وقفت فيها « بطلة كربلاء » موقفها الأليم المثير .

قال « الطبرى وابن الأثير » : ... « ومكثوا بعدها شهرين أو ثلاثة ، كأنما تلطخ الحوائطُ بالدماء ساعةَ تطلع الشمس حتى ترتفع ... » .

وقالا : « لما قتل الحسين بن على ، ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ، ودخل الكوفة ــ ليستقبل موكب رؤوس القتلى ، والسبايا من بيت النبوة ــ تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أنها قد أخطأت خطأً كبيراً بدعائها الحسين إلى النصرة ، وتركه يقتل إلى جانبهم لم ينصروه » .

ورددت حوائط الكوفة صدى صوت « السيدة زينب » :

« ... أى والله ! .. فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً ، فقد ذهبتم بعارها

وشَنَارها ، فلن ترحضوها بغسل أبداً . وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ... وهو سيد شباب أهل الجنة ؟ »

فأمنوا جميعاً !

وتكلموا ، فكأنما كانوا ينزعون عن لسان « السيدة زينب » !

قال قائلهم :

« دعَوْنا ابن بنت نبينا ﷺ وآله ، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عليه بألسنتنا ، ولا قويناه بمالنا ...

« فما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا ﷺ وآله ، وقد قتل فينا ولده وحبيبه ، وذريته ونسله ؟ .. لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه ، أو تُقتلوا فى طلب ذلك ، فعسى ربنا أن يرضى عنا ، وما أنا بعد لقائه ، لعقوبته بآمن » .

وعقب آخر :

« ... إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنيهم النصر ونحثهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وتربصنا وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ، ولدُ نبينا وسلالته وعصارته وبضعة من لحمه ودمه . . .

« ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله ، ووالله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا من قتله أو تبيدوا !

﴿ فَاقْتُلوا أنفُسَكم ، ذٰلكم خَيْرٌ لكم عِندَ بارِئِكم . . . ﴾ .

إى وربى !

لكأنما كانوا ينزعون عن « السيدة زينب » .

* * *

وما زال أهل الكوفة منذ سنة ٦١ هـ — وهى السنة التى قتل فيها

الحسين ـــ يتلاومون ويتداعون ويجمعون آلة الحرب ، حتى تجمع جيش عُرِف فى التاريخ بجيش « التوابين » الذين تنادوا : يا لثارات الحسين .

ولم يكتموا أمرهم هذه المرة ، ولا عمدوا إلى الخفاء . . . قال المؤرخون : « خرج التوابون يشترون السلاح ظاهرين ويتجهزون ويتنادون من كل جانب : إنا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجنا ، إنما خرجنا نطلب التوبة والطلب بدم ابن بنتِ رسول الله ، نبينا ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وما دخلت سنة ٦٥ هـ ، حتى كانت صيحتهم « يا لثارات الحسين » تزلزل الأرض تحت بنى أمية ، وحتى كانت الكوفة تشهدهم فى سلاحهم ينطلقون ساعين نحو قبر « الحسين » وهم يتلون الآية : ﴿ **فتوبوا إلى بارِئكم فاقْتلوا أنفسَكم ذٰلكم خيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُم** ﴾ .

فلما بلغوا القبر ، صاحوا صيحة واحدة ، فما رئى أكثر باكين من ذلك اليوم ، وأقاموا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون قائلين :

« اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد ...

« اللهم إنا نُشهِدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم ، وأولياء محبيهم .

« اللهم إنا خذلنا ابن بنت نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وغادروا القبر وقد ازدادوا ندماً وحماسة ، فاندفعوا كالموج مستبسلين ، يلقون الألوف المؤلفة من جند بنى أمية ، وأقصى أمانيهم أن يُقتلوا فى ثأر « الحسين » لعل ذلك يخفف عنهم وقر الإثم وقسوة النكال . ولقد كانوا يومئذ يُعطون الأمان فيأبون صائحين :

« قد كنا آمنين فى الدنيا ، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة » . . .

حتى أبيدوا جميعاً ، فذلك قول أعشى همدان يرثى كل تائب منهم :

تخلى عن الدنيا وقال طرحتها ... فلست إليها ما حييتُ بآيبِ
وما أنا فيما يكره الناس فقده ... ويسعى له الساعون فيها براغب

....

فساروا وهم ما بين ملتمسِ التقى ... وآخر مما جرَّ بالأمس تائبِ
فجاءهمُ جمع من الشام بعده ... جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم ... فلم ينج منهم ثَمَّ غير عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا ... تعاورهم ريح الصبا والجنائب
أبوا غير ضربٍ يفلق الهامَ وقعُه ... وطعنٍ بأطرافِ الأسِنَّة صائبِ
فيا خيرَ جيشٍ بالعراق وأهله ... سُقيتم روايا كلِّ أسحمَ ساكبِ

* * *

مضى التوابون ، وأبقوا الندم والتوب ميراثاً رهيباً لأبنائهم من بعدهم والأحفاد .

وكانت « زينب » هى التى جعلت من مصرع « الحسين » مأساة تاريخية باقية ، لا نعرف ما هو أبعد منها أثراً فى تطور العقيدة عند الشيعة .

وكانت هى التى صيرت من ليلة العاشر من المحرم ، مأتمًا سنويًا للأحزان والآلام ، يحج فيه أحفاد « التوابين » إلى المشهد المقدس فى « كربلاء » ، حيث يعيدون تمثيل المأساة ، ويفرضون على أنفسهم أقسى أنواع العذاب الجسدى ، تكفيرًا عن خطيئة الأجداد !

وكانت هى التى سلطت عليهم — من أنفسهم — نكالاً أليماً لا ينتهى بالموت ، وإنما هى نار « الندم » يصلاها منهم الجيل بعد الجيل .

وان السنين لتمضى والقرون ، وهم مصرون على أن تبقى تلك الجذوة متقدة أبداً ، لا تخبو ولا تخمد ، كأنما يجدون فى هذا العذاب كفارة وتوبة .

أجل ، تمضى السنون والقرون ، وأهل العراق مقيمون على الحزن يستمرئون طعمه ، ويستعذبون مذاقه ، ويرهقون أنفسهم بالإصرار على إحياء ذكرى خطيئة الذين ذهبوا بإثم الإمام الشهيد .

وما أحسب أن التاريخ قد عرف حزناً كهذا ، طال مداه حتى استغرق بضعة عشر قرناً دون أن يفتر ، فمراثى شهداء كربلاء هى أناشيد الشيعة العراقيين فى عيد حزنهم يوم عاشوراء من كل عام ، وشاعرهم المفضل هو الذى يهيج لواعج شجنهم ويغذى النار المتقدة فى أعماقهم بوقود جديد :

أناعيَ قتلى « الطف » لا زلت ناعيًا ... تهيج على طول الليالى البواكيا
أعِدْ ذكرهم فى « كربلا » إن ذكرهم ... طوى جزعاً ، طيَّ السجل ، فؤاديا
ودَعْ مقلتى تحمر بعد ابيضاضها ... بِعَدِّ رزايا تترك الدمع داميا

شاعرهم المختار ، هو الذى يعيد على أسماعهم — فى إثارة عنيفة — قصة تلك الفئة القليلة المؤمنة التى آثرت الموت على التخلى عما تراه حقاً :

فثوتْ بأفئدةٍ صوادٍ لم تجد ... ريا يبل سوى الردى أحشاءها

وأغنيتهم الأثيرة هى مناجاة الشهداء ، والبكاء على يتاماهم الصغار :

كم لكم من صبية ما أبدلت ... ثَمَّ من حاضنة إلا رمالا !
سل بحجر الحرب ماذا رضعت ؟ ... فثُدِىُّ الحرب قد كن نصالا

* * *

أجل هى العقيلة التى جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة ، وصيرت من يوم مقتله مأتماً سنوياً للأحزان والآلام .

وكذلك كانت « السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم » فى تاريخ الإسلام ...

استطاعت أن تثأر لأخيها الشهيد العظيم ، وأن تؤثر فى مجرى التاريخ ! . . .

* * *

الكِتابُ الخامسُ

السَّيِّدَة سُكَيْنَة بِنت الحُسَيْن

رَضِيَ الله عنهُمَا

السَّـيِّدَة سُـكَيْنَة بِنْتُ الإمام الحُسَـيْن

رَضِىَ الله عنهُمَا

تقـديم

الفصل الأول : فى بيت النبوة

الفصل الثانى : فى بيت الزوجية

الفصل الثالث : فى المجتمع

ــ المشـــهد الأخـــير

تقـــديم

بقلم الأستاذ أمين الخولى

ينظر القارئ فيما كتب مؤرخو التاريخ الإسلامى ، كالطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير ، وغيرهم ، فتلفته ظاهرتان تسترعيان الانتباه :

أولا : أن ما كتبه أولئك المؤرخون كانت توجهه الاعتبارات السياسية ، فهم إنما يؤرخون الحياة الإسلامية للخلفاء والولاة والحكام والقادة ، والفتوح والمعارك ، وما إلى ذلك من أخبار الساسة المدبرين للشئون العامة ، متجاهلين فى نفس الوقت حياة الشعوب الاجتماعية .

فكان التاريخ عندهم هو تاريخ حكام الشعوب ، لا تاريخ الشعوب نفسها ، ومن ثم لم نظفر إلابالنزر اليسير من تاريخ النشاط الحيوى لهذه المجتمعات فى غير المجال السياسى والحكومى ، بل لم يقع ذلك إلا عَرَضا فى أخبار الحكام والمسيطرين ، أو حواشيهم ومن يتصل بهم من الطبقة التى حولهم .

فإذا أردنا أن نلتمس شيئا من أخبار النشاط الحيوى ، فيما عدا المجال السياسى الذى أشرنا إليه ، فليس أمامنا إلا أن نلتمسها منثورة مبددة هنا وهناك ، فى مثل كتب الطبقات التى وضعها أولئك الأقدمون للفئات المختلفة ، من محدثين ، ومفسرين ، وفقهاء ، ونحاة ، وأطباء ... وغيرهم ، مما نستطيع

بعد الجهد الجهيد أن نستخرج منها ما يؤرخ للنشاط الإسلامى فى صورته الاجتماعية والحضارية والاقتصادية ... ولن نظفر مع ذلك بالبين الوافى ، لأسباب أخرى لا محل هنا للتعرض لها ...

ثانيا : يلاحظ على هذه الكتب التاريخية القديمة أنها ، بصفة عامة ، تحوى من تاريخ الحياة الإسلامية أخبارا مجردة ، وحوادث مسرودة ، كان أولئك المؤرخون ، أوَّلَ العهد ــ يصدرونها بسلسلة من أسماء الرواة ، هى أسانيد لما يليها من متون تلك الأخبار والأحداث .

على أن هؤلاء المؤرخين لم يلبثوا أن جردوا مروياتهم من الأسانيد وسردوها مُرسَلَة ...

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل هذا السرد القديم هو التاريخ ؟ .. وهل يُعطَى لَقَب المؤرخ ــ اليومَ ــ مَنْ يجمع مثل هذه الأخبار فيقصها أو يسردها بسند أو بغير سند ؟ ..

لعل هذين السؤالين يبدوان غريبين على من لم يلفته ما صار إليه الأمر اليوم من مستوى عالٍ للثقافة الإنسانية . وأن هذا المستوى قد جاوز الدور الذى كان فيه التاريخ قَصَّا وسردا ...

إن التاريخ اليوم ، هو وصف لسيرالحياة بالناس ، يبين السنن الاجتماعية فى حياتهم ، والنواميس التى تحكم وجود مجتمعاتهم وأفرادهم فى هذه الجماعات ، ومجال نشاطهم فيها .

والتاريخ اليومَ ، درس دقيق ينفذ إلى ما وراء الأحداث المسرودة ، وما خلف الأخبار المروية ، ليستشف العواملَ التى تُسَيِّرها والمؤثراتِ التى تتحكم فيها .

والتاريخ لذلك لا يتلقى الأخبار فى استسلام ، ولا يتقبل المرويات فى تساهل ، بل يفحص ذلك كله ، ويختبره ، وينقده .

ثم هو بعد ذلك يربط بين السابق منها واللاحق ، ليرد المسبَّبَ إلى سببه ،

ويتبين المقدمة التى أدت إلى النتيجة ، ويهتدى فى ذلك بما عَرَفَ البحثُ الأصيل من حال الاجتماع البشرى ، والسنن المقررة لحياة المجتمعات الانسانية .

وإذا كان هذا هو شأن التاريخ اليوم ، فإن القارىء يدرك إذن فى وضوح ، أن الأخبار التى حفظتْها تلك المؤلفات أو الموسوعات الأولى ، ليست هى التاريخ ، وإنما هى مادة التاريخ وخامات دراساته التى أشرنا إلى وصفها إجمالا .

وتاريخ الحياة الإسلامية يحتاج منا إلى هذا العمل الجليل والنشاط الفسيح ، ولعل أجيالا منا تتمه على وجهه الصحيح .

* * *

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة تكتبها سيدة ، عن شخصيات نسوية فى البيت النبوى[1] . ولهذه السلسلة صلة وأثر فى تاريخ الحياة الإسلامية من نواح متعددة على ما أرجو وآمل .

لها هذا الأثر بموضوعها المختار ، وبالمؤلفة صاحبة الاختيار ، وبمنهجها الذى تسلكه فى إخراجها ، ولها هذا الأثر على حياة التاريخ بأسلوب أدائها[1] .

* * *

وإلى القارىء كلمات قصار ، فى بيان هذه الآثار على تاريخ الحياة الإسلامية :

فأما موضوع السلسلة التى منها هذا الكتاب فهو حياة سيدات فى تاريخنا ، يجلن فى غير المجال السياسى الذى عنى الأولون بأخبار حركاته الظاهرة دون المؤثرات المستترة ، مهما تكن قوية .

والمرأة كما نعرف من أقوى تلك المؤثرات أو أقواها ، فهى كما قيل : تهز

---

(١) صدر عن هذه السلسلة ، كتب : أم النبى ، ونساء النبى ، وبنات النبى ، ﷺ ، وعقيلة بنى هاشم ، نشرتها دار الهلال ، ودار المعارف بالقاهرة ، ودار الكتاب العربى بيروت ، وترجم أكثرها إلى ← اللغات الفارسية ، والأردية ، والاندونيسية .

المهد بيمينها وتهز العالم بيسارها ، وهى التى قيل عنها : « فتش عن المرأة » وما هذا التعرض للشخصيات النسوية إلا التفتيش عنها باعتبارها عاملا فعالا فى سير الحياة ، وفهم الأحداث وتصور شخصيات الرجال .

واذا اختارت إحداهن هذا الموضوع النسوى فالمرجو أن تستشف من أسرار أرواحهن ما لا يستشف غيرها ... فالأنثى أفهم للأنثى .

هذه ناحية التأثير بالموضوع المختار ، ومَن اختارته ... وهو تأثير كبير على فهم مجرى الحوادث ، وشخصيات أبطالها .

وأما أثرها بالمنهج الذى تتبعه ، ففيما يجب من نقد المرويات المتفرقة عن هذه الشخصيات نقدا يكشف عن صحتها والاستنتاج منها ، أو يبين أنها منقبيات لها دلالتها الاجتماعية على أنفس مخترعيها . وهو النقد الذى يتقدم الدرس التاريخى ...

وأما أثرها بأسلوب الأداء فى إخراجها ، فلأنها تختار أسلوب العرض الأدبى ، المتحرر من جفاف الأداء المنطقى ، المسامت لآفاق العرض فى القضية التاريخية . وفى هذا اللون من العرض يُكمل الكاتبُ الحادثَ التاريخى بما يستلهم من نفسية صاحب الحادث ، وجو الحادثة ، وروح البيئة ، ومألوف النفس الإنسانية ، وسنة الاجتماع البشرى . ولا يكون ذلك إلا بعد تمثل تام للبيئة ، والمعيشة مع أشخاص الحادث ، والتمرس بتجارب نفسية مما عانى أصحابها ، والبصر بنظام المجتمع الإنسانى الذى ينتظمهم .

وفى كل أولئك فُرَص للتحليل ، الذى يسعف على تعليل الحوادث والانطلاق إلى نتائجها وأهدافها .

وهو ما نرجو أن يكون فى هذا الكتاب ، وسائر حلقات السلسلة ، شيء منه ، فتكون خطوة أو خطوات فى ميدان الدرس التاريخى المحدث الذى يحتاج إليه تاريخ الحياة الإسلامية ، ولما يتم منه شيء كثير .

* * *

وبعد ...

فإن صاحبة هذا الكتاب ، ربيبة مدرسةٍ أنا أنتمى إليها . . . ثم هى ربة بيتٍ أنا آوى إليه ... وفى بعض هذا ما يؤثر على التقدير ، ويهز سلامة الحكم ... ومن أجل ذلك أستغفر الحقَّ والإنصاف ، بين يدى القارىء الكريم ، من شيءٍ يكون قد غُلِبَ فيه القلمُ على أمرِه .. وقد بلَّغتُ إذ نبهتهُ إلى مَنشئِه .

أمين الخولى

* * *

الفصل الأول

فى بيت النبـــوّة

- وافِد غريب
- اللقاء الأول
- فى بَدْءِ الطريق
- طفولة مرحَة
- فى دوَّامَة الأحدَاث
- مذبَحَة كربَلاء
- بَعدَ العاصِفَة

وافـدٌ غريب

أخذ أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه مكانه فى المجلس ، وإلى جانبه صهرُ النبى ﷺ « علىٌّ بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وولداه الحسن والحسين ، ابنا الزهراء وسبطا المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومن حولهم جلس نفر من أئمة الصحابة وأعلام المسلمين ، يتحدثون فيما أفاء الله على الإسلام من نصر ، وما أدال لهم من سلطان . وبينما هم فى ذلك المجلس ، استأذن وافد غريب فأذنَ له أمير المؤمنين ، وما فى المجلس يومئذ مَن كان قد رآه من قبلُ رأىَ العين . على أنه ما كاد يظهر بالباب ، حتى تعلقت به الأبصار وهو يتخطى رقابَ الناس إلى الخليفة ، ليقدم إليه التحية .

وأمسك القوم عن الحديث ، وبودهم لو يعرفون مَنْ يكون هذا الرجل الذى تبدو عليه سِماتُ الشرف والسؤدد ، وقد تولى عنهم الخليفة هذا الأمر ، فسأل زائره : من يكون ؟ ...

أجاب الوافد فى تؤدة ورزانة :

« امرؤ القيس بن عدى بن أوس الكلبى[1] »

حينئذٍ، عرف القوم فيه سيدَ بنى كلب ، وكان لا يزال على نصرانيته .

فقال قائل :

ـــ يا أمير المؤمنين ، هذا صاحبُ بكرِ بن وائل الذى أغار عليهم فى الجاهلية يومَ فلج .

---

(١) نسب قريش للمصعب الزبيرى : ٥٩ ، والمحبر لابن حبيب : ٣٩٦

وتحدث « عمر » إلى ضيفه مليا ، وملءُ خاطره سؤالٌ واحد : أيكرمه الله بأن يدخل « امرؤ القيس بن عدى » الإسلامَ على يديه ؟ ..

وأسلم سيدُ بنى كلب .

وإذ ذاك لم يتردد أمير المؤمنين فى أن يعقد له اللواء على من أسلم من قضاعة بالشام[1] .

ودعا « عمر » رضى الله عنه برمح ، وقلده إياه ...

هكذا فى أول لقاء ، وليس للرجل سابقةٌ فى الإسلام !

أو كما قال « عوف بن خارجة المرى » وكان يومئذ بالمجلس : « فوالله ما رأيت رجلا لم يُصلِّ للّهِ ركعةً قط ، أُمِّر على جماعة من المسلمين ، قبلَ امرئ القيس ! »[2] .

أجل ، ولكنه عمر الفاروق ، ذو البصَر بالرجال ...

* * *

ونهض الرجل لينصرف ، فحيا الخليفة بتحية الإسلام ، وأخذ طريقه واللواءُ يهتز فوق رأسه ، والأنظارُ تتبعه حتى جاوز مجلس أمير المؤمنين منصرفاً ...

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ٤٢٧ ط الذخائر .

(٢) الأغانى : ١٥٧/١٤ ساسى .

اللقـاءُ الأوّل

ولم يمض « امرؤ القيس » بعيدا ، حتى استأذن « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه ، وانصرف من المجلس مسرعاً وولداه معه ، فى أثر الوافد الذى خرج وشيكا يحمل لواء بنى قضاعة بالشام .

وحث « على » خطاه حتى أدرك امرأ القيس . فاستوقفه محييا ، ثم تقدم إليه يقول :

ـــ أنا على بن أبى طالب ، ابن عم الرسول ﷺ وصهره ، وهذانِ ـــ وأشار إلى الحسن والحسين ـــ ابناى من بنته الزهراء .

فأقبل امرؤ القيس عليهم بكل وجهه ، وراح يملأ عينيه من آل النبى الذى لم يُكتَب له شرفُ صحبته ونعمةُ رؤيته ، والذى آمن برسالته منذ لحظات .

واستطرد « على » رضى الله عنه قائلا :

ـــ وقد رغبنا فى صهرك فأنكِحنا !

فما تلبث امرؤ القيس أن قال :

ـــ مرحباً بكم آل بيتِ النبى : قد أنكحتُك يا على ، ابنتى « المحياة »[1] .

ثم أقبل على سبطى النبى ﷺ وهو يضيف :

ـــ وأنكحتُك يا حسن « سَلمى بنتَ امرىء القيس » ، وأنكحتك يا حسين « الربابَ بنت امرىء القيس » .

وانصرف بعد حين إلى الشام ، وترك من ورائه دويا !

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٥ / ٩٠ ط . مصر .

فلا حديث للناس وقتئذ إلا عن هذا الرجل الذى لقى أمير المؤمنين عمر لأول مرة ، فخرج من حضرته بلواء مَن أسلم من بنى قضاعة بالشام ، هو الذى لم يكن قد صلى لله ركعة قط ، كما قال « عوف بن خارجة المرى » !

ولَقِيَه صهرُ الرسول وابنُ عمه ، فخرج من اللقاء الأول ، وقد أخطبه إحدى بناته الثلاث ، وظفر بالحسن والحسين ــ سبطى الرسول وزين شباب الجنة ــ خطيبين لبنتيه الأخريين : سلمى والرباب(١) .

* * *

كان « الحسين » يوم خطبت له « الرباب » فى ريق شبابه ، يستقبل ربيعه الثامن عشر ، ملء العيون والقلوب فتوة ومهابة وجلالا ، يرى فيه المسلمون صورة نبيهم الكريم عليه الصلاة والسلام ، ويجدون فيه نفحة عطرة من شذاه ، وقبسًا بهيًا من سناه ، حتى لقد بلغ من إعجابهم به أن ذاعت فيهم ذائعة تقول : إنه معوذ بتعويذتين ، حشوهما زغبُ جناحِ جبريل !

وأما « الرباب » فكانت ما تزال صبية غضة الصبا طرية العود ، مليحة وضيئة ، ذكية الملامح ، مرهفة الحسّ ، بادية الاعتزاز بشخصيتها وأبيها . وقد أرضاها بلا ريب ، أن يتصل سببها بالنبى العربى ، وأن تدخل أشرفَ بيت فى قريش ، زوجة للحسين غذىّ النبوة .

لكن صغر سنها حال دون التعجيل بالزواج ، فبقيت فى بيت أبيها تتهيأ لدخول دنياها الجديدة ، وتستعد لتملأ ذلك المكان الرفيع الذى أوثِرتْ به من حيث لا تحتسب ولا تتوقع ...

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ــ ص ٤٢٧ ذخائر ، وانظر مقاتل الطالبيين : ٩٨ .

فى بَدءِ الطريق

جدَّت أحداث عقب ذلك أجلت زواج علىٍّ وابنيه من بنات امرىء القيس ، بضعَ سنين .

أحداث جسام ، شُغِل بها البيتُ النبوى ، كما شُغل بها العالم الإسلامى الذى اتسع بالفتوح التاريخية الكبرى ، فبسط لواء الإسلام على ممالك الفرس والروم ، وورث عروش الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والفراعين .

فمنذ طُعِنَ أميرُ المؤمنين عُمَرُ بخنجر أبى لؤلؤة المجوسى ، لأربع ليالٍ بقين من ذى الحجة عام ٢٣ هـ ، وتيارات المأساة ــ التى سوف تتمخض عنها الأحداث ــ تتدافع من هنا ومن هناك ، ماضية فى بطءٍ ولكن فى عنفٍ وشراسة ، إلى مركز التجمع ومسرح المأساة .

منذ قُتل عمر ، وصُرِفت الخلافة ــ لثالث مرة ــ عن علىٍّ بن أبى طالب ، وسُحُبُ الفتنةِ الحالقة تلوح على الأفق ، منذرة بالعاصفة .

فما رضى بنو هاشم قط ، أن تغدو الخلافة مطمعا لذوى الجاه من بنى أمية بن عبد شمس ، وأن يلمحوا أيديهم ــ فى عهد عثمان رضى الله عنه ــ وهى تتصيد أزِمّة الأمر العظيم ، فى مهارة وتصميم ، وتلوى بها إلى قبضة زعيمهم معاوية بن أبى سفيان .

ولا رضى الصحابة قط ، أن يتحكم فيهم وُلاة لا يراعون للولاية حرمة ، وليسوا أهلا لها ، همُّ أكثرهم أن يستكثروا من الأموال ويعيشوا عيشة البذخ والترف ، وقد ضرِيَتْ أطماعهم وهم بمأمن من غضب الخليفة عثمان ، فى طمأنينة إلى لينه وتسامحه رضى الله عنه .

أو كما قال « الأشتر النخعى ، مالك بن الحارث » لسعيد بن العاص الأموى ، والى الكوفة لعثمان رضى الله عنه :

« أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا ، بستانا لك ولقومك ؟ ... والله ما يَزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدِنا »[1] .

وكان « عثمان رضى الله عنه » قد ولَّى سعيدَ بن العاص الكوفةَ ، بعد أن عزل « الوليدَ بن عقبة » فحزن الناس ... وتفجع عليه الأحرار والمماليك ، وسُمعت الولائد يقلن ، وعليهن الحداد :

يا ويليتا قد عُزِلَ الوليدُ وجاءنا مُجَوِّعًا سعيدُ[2]

* * *

وطالت المغالبة ...

وخرج «الحسين » — وأخوه الحسن — فى كتائب الفتح إلى إفريقية ، بقيادة « عبد الله بن سعد بن أبى سرح » عام ٢٧ هـ ، فى عشرة آلاف من جند الإسلام .

وأقام هنالك فى غزوته ، عاما وبعض عام ، ثم عاد إلى المدينة منصورا ، فاحتفلَ البيت الهاشمى بزواجه من « الرباب بنت امرىء القيس » احتفالا يسيرًا متواضعا ، وما تزال السحبُ متراكمةً على الأفق ، وما يزال بنو أمية هناك فى الشام ، وفى غيرها من الأمصار ، يُعِدون للأمر عُدَّته ...

وأثمر الزواج ثمرته المباركة ، فوضعت « الرباب » ولَدَها عبد الله بن الحسين[3] .

وشغلت الأم بحضانة وليدها ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥/٥٠ ، ٨٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٥/٦٢ . مع ترجمة الأشتر النخعى فى تهذيب التهذيب ، وترجمة « سعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة » رضى الله عنهما ، فى الإصابة .

(٣) المصعب الزبيرى : نسب قريش . ط الذخائر (٥٩) .

على حين عاد تيار الأحداث فجذب أبا عبدِ الله إلى صميم المعترك ...

وكانت المدينة حينذاك قد ازدحمت بوفود الأمصار من شتى الأقاليم ، جاءوا يشكون انحرافَ الولاة وأثرتهم ، وبغيَهم ، والمغانبةُ بين الأحزاب تأخذ وضعًا رهيبًا قويًا شرسًا ، والمرجلُ يهدر ويغلى ويلتمس الانفجار .

* * *

وقُتِلَ أمير المؤمنين ، ذو النورين عثمان ، رضى الله عنه بسيوف الثائرين عصرَ يوم جمعة ، فى الثامن عشر من ذى الحجة عام ٣٥ هـ[١] .

وشبت الفتنة عاصفة هوجاء ...

بويع أمير المؤمنين « على بن أبى طالب » ليمضى خمس سنين ، فى معارك متصلة ، آخذٍ بعضُها برقاب بعض ، فما يكاد رضى الله عنه يفرغ من إحداها ، إلا ليخوض غمار فتنة أخرى على كره منه .

إلى أن غُصَّ بمرارة النصر كما لم يُغَص سواه بمرارة الهزيمة . وكان « الحسن والحسين » إلى جانبه ، يجرعان غُصصَ النصر فى حرب الفتنة الحالقة التى راحت تمزق المسلمين بدَدا ، وتشطرهم طرائق قددا .

والأمويون ، بنو عبد شمس ، جادون فى سبيل تحقيق مطمحهم الذى ظلوا يتوارثونه أبا عن جد ، منذ انعقدت زعامة قريش فى الجاهلية لبنى هاشم دون بنى عبد شمس ، وتأيدت باصطفاء نبى الإسلام منهم ، فأنَّى لبنى عبد شمس أن يبلغوها ، كما قال قائلُهم ؟

كان « أبو سفيان » حربا على النبى الهاشمى ، فلم يُسلم حتى يوم فتح مكة ، بعد معارك طاحنة امتدت ثمانى سنين وصالا ...

وبقى ما عاش يرنو إلى الأمر من بعيد ، بعد أن رأى انصراف الخلافة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥ / ١٤٥ ، والإصابة .

عن بيت النبى وبنى هاشم ، ورأى الولاةَ من بنى أمية يغلبون على الأمصار ، حتى لقد وقف يوما على قبر الشهيد « حمزة » صريع « وحْشِيّ » فقال :

ـــ رحمك الله أبا عمارة ، لقد قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا !

ومات « أبو سفيان » ، وترك لابنه ذلك العهد ...

وهذا هو « معاوية » يمضى فى سبيل إنفاذه ، وما يرتاب فى أنه صائر إليه مهما يطل الطريق وتتعقد السُبُل !

وكان الطريق يبدو طويلا ، وكأن لا نهاية له ...

فما كان لمعاوية أن يطمع فى هزيمة خصمه الفارس البطل الذى لا يُغلب « على بن أبى طالب » .

ولا كانت أمانيه لتجرؤ على أن يحلم بانتزاع الأمر من الخليفة الإمام ما دام حيا !

فهل تمهله المنية ، إلى ما بعد وفاة أمير المؤمنين على ؟

أو يسبقه هو إلى الرحيل ، ويدع الأمر بينه وبين بنى هاشم ميراثا لولده « يزيد » ، كما تلقاه هو ميراثا عن أبيه « أبى سفيان » وأمه « هند بنت عتبة » ؟

وأجابت الأيام عن سؤاله !

لقد تولى « الخوارج » عن غير عمدٍ ، تمهيدَ الأمر لمعاوية !

أرادوا أمرا ، وأراد الله غيره فكان ما أراد الله !

كانوا قد بدأوا يخرجون على أمير المؤمنين ، منذ قَبِلَ خدعة التحكيم وهو ولى الأمر ، الظافر المنتصر يوم الجمل .

وأنكر منهم هذا التمرد ، والتقى بهم فى معركة النهر التى كلفتهم غاليا ، وجرَّعته مزيداً من مرارة النصر .

وتآمروا فيما بينهم على أن يريحوا المسلمين من أبطال التحكيم الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وعلى .

قال ابن ملجم : أنا أكفيكم علىَّ بن أبى طالب .

وقال ثانٍ منهم : أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان .

وقال ثالث : وأنا أكفيكم عمرو بن العاص .

وتعاهدوا وتواثقوا بالله : لا ينكص رجلٌ منهم عن صاحبه إذا تَوجَّه إليه ، حتى يقتله أو يموت دونه .

وضربوا لهم موعداً ، لسبع عشرة ليلةً تخلو من رمضان ، سنة ٤٠ هـ .

وقُتِل الإمام على بسيفِ ابن ملجم ..

ونجا معاوية وعمرو .

* * *

وأصبح معاوية ، غداةَ اليوم العشرين من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ ، والأمرُ منه قابَ قوسين أو أدنى !

لقد بويع « الحسنُ بن على » إثر مصرع أبيه الإمام على كرم الله وجهه ، لكن « معاوية » اعتصم بمعقله فى الشام وأخذ البيعةَ لنفسه .

ولم يطل بهما الخلاف ، فإن « الحسن بن على » لم يلبث — فى أول سنة ٤١ هـ — أن تنازل عن الأمر لمعاوية بشروط خاصة[1] حقناً لدماء المسلمين ، وارتياباً فى ولاء العراق ، ولكى يضع حدا لتلك الفتنة التى خضبت ساحة العالم الإسلامى الكبير ، بدماء القتلى والشهداء .

وبايع شقيقُه « الحسين » معاوية ، حتى لا تكون فتنة .

وأدى فريضة الجهاد ، فاشترك فى غزو القسطنطينية عام ٤٩ هـ وأبلى فيها خير بلاء .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٣ وانظر نص وثيقة الصلح وتحليلها وأبعادها فى كتاب (صلح الحسن ، للسيد الشيخ راضى آل ياسين) : ٢٥٢ ط بغداد ١٩٥٣ .

ومن قبل اشترك فى فتح إفريقية وغزو طبرستان ..

وعاد فلزم « المدينة » يجلس فى مسجد جده الرسول عليه الصلاة والسلام ، يروى الحديث ، ويشتغل بأمور الدين ، فيتحلق حوله المسلمون وتهوى إليه أفئدتهم ، ويجدون فيه نفحات من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام .

رآه « عبد الله بن عمر » رضى الله عنهما ذات يوم مقبلا ، فهتف :

« هذا أَحَبُّ أهلِ الأرض إلى السماء اليومَ » .

ومعاوية فى دمشق ، يمد بصره إلى هذا المجلس على بُعْدِ ما بينهما ، ويحوم بفكره حوله ، حتى ليقول لرجلٍ من حزبه استأذنه فى السفر إلى الحجاز :

« إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة ، فيها قومٌ كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين ... » .

....

طفولة مرحة

فى تلك الأيام ، كانت « آمنة بنت الحسين »(١) تحبو فى رحاب البيت النبوى ، طفلة حلوة الملامح ذكية النظرة ، مرحة الطبع آسرة السمّات .

ولم أقف على سنة مولدها . وكنا بحيث نمر بهذا الصمت غير مبالين ، لو أن الأمر ليس بذى أهمية ، لكنا سنرى هذه الطفلة عندما شبت ، تشغل فى المجتمع القرشى مكان السيدة الأولى فى عصرها ، وسوف تشغل هذا المجتمع — ورواة الأخبار على مر العصور — بما اشتهرت به من حسن وملاحة ، وبحياتها الزوجية الحافلة ومجالسها الأدبية العامرة . ولن نستطيع أن نتمثل هذه الحياة الخصبة الحافلة للحسناء الهاشمية ، إذا لم نعرف تاريخ مولدها ، إن لم يكن على وجه التحديد ، فعلى وجه التقريب المستطاع . وجه حاجتنا إلى هذا ، أن تاريخ المولد هو الذى يحدد لنا عُمْرَ « بنت الحسين » فى مختلف مراحل حياتها التى لم يعرف زمنها حياةً أحفلَ منها . وإذا أمكن أن نتجاهل مسألة السن فى حياة رجل ، فليس من الهين أن نفعل ذلك مع أنثى ، وبخاصة إذا كانت هذه الأنثى ، هى « آمنة ، سكينة بنت الحسين » رضى الله عنهما . . .

وحين نحاول أن نلتمس من أخبارها ، ما يعين على تقدير تاريخ مولدها ، نجد أول ما نجد ، ذلك الخبرَ الذى يشير إلى وفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها .

ولا خلاف نعلمه بين كُتاب السِيَر والمؤرخين ، فى وفاتها عام ١١٧ هـ ، ذكر ذلك « الطبرى » فى تاريخه (سنة ١١٧هـ) وابن الأثير (وفيات ١١٧ هـ) وابن خلكان فى (الوفيات : ١ / ٢٩٨) والذهبى فى العبر ، وعنه

---

(١) سميت باسم جدة أمها الزهراء : آمنة بنت وهب ، أم النبى ﷺ . وسكينة لقب لها ، وبه اشتهرت . انظر الاغانى ١٤ / ١٥٧ ساسى ، والعبر للذهبى : (سنة ١١٧ هـ) .

ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ، وابن العماد الحنبلى فى الشذرات : (وفيات : سنة ١١٧) وذكرته المصادر الشيعية فى (مقتل الحسين : ٣٦٨) للسيد عبد الرزاق الموسوى ، ودائرة المعارف الإسلامية (مادة : سكينة) ولا نعلم أنهم اختلفوا فى هذا التاريخ .

فالقول بوفاتها وهى فى نحو السبعين من عمرها ، يجعل مولدها حوالى عام ٤٧ هـ ، بعد سبع سنين من مقتل جدها الإمام « علىّ » كرم الله وجه ، واستقرار الخلافة لخصمه « معاوية » كبير البيت الأموى .

ويؤنس إلى هذا ما جاء فى خبر للطبرى بإسناده عن مولى الرباب زوج الإمام الحسين ، أنه خرج من المدينة ممتنعاً عن بيعة يزيد ، وسكينة إذ ذاك صغيرة (٦ / ١٩٦) .

فإذا أضفنا إلى هذا ، ما ذكره رواةُ سيرتها ، من أن ابن عمها الحسن ، تقدم إلى عمه « الإمام الحسين » يطلب أن يزوجه إحدى ابنتيه : فاطمة أو سكينة ، فزوجه الإمام أولاهما (١) ، كان مقتضى هذا أن « سكينة » أدركتْ سِنَّ الزواج فى حياة أبيها رضى الله عنه ، وهو ما يؤيد الاستنتاج الأول الذى يبلغ بسنها أربعة عشر ربيعاً ، عندما استشهد أبوها الإمام كرم الله وجهه ، فى كربلاء ، فى شهر المحرم سنة ٦١ هـ .

لنا أن نطمئن إذْن إلى أن ولادتها كانت حوالى سنة ٤٧ هـ . وقد سُميت باسم جدتها أم النبى ، ثم لقبتها أمُّها الرباب : بسكينة ، ولعلها لحظت أن نفوس آلها الأكرمين كانت تسكُن إليها لفرطِ مرحها وإشراقها .

وقد استقبل البيت الهاشمى قبلها مولد أخيها الشقيق « عبد الله بن الحسين » الذى استشهد مع أبيه رضى الله عنهما .

وكانت « سكينة » فى طفولتها الحلوة اللاهية ، خلية البال من تلك الهموم الكبار التى كانت تشغل آلها وتلقى على الأفق من حولها ظلالا من الأسى ،

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش — ٥٧ . والاغانى : ١٤ / ١٥٨ ط السياسى .

منذ رزئوا ورزئ الإسلام بمصرع أمير المؤمنين الإمام على ، قبل مولد « سكينة » بنحوٍ من سبعة أعوام ، ثم بموت عمها « الإمام الحسن » سنة ٥٠ هـ (١) ، و « وسكينةُ » فى نحو الثالثة من عمرها ، فنأى بها صِغر السن عن عمق الإحساس بالفاجعة المزدوجة التى ألمت بالبيت الكريم .

والأخباريون يروون من أخبار « سكينة » فى طفولتها المرحة ، ما يؤكد أنها كانت مبعثَ أنسٍ لآلها الكرام ولأبيها « الإمام الحسين » بوجه خاص ، يسكن إلى مرحها وظرفها فى تلك الظروف العصيبة التى كانت تئوده . ويبدو أنه عوتب فى اهتمامه المفرط « بسكينة » ، وإسرافه فى الأنس إليها وإلى أمها « الرباب » فلم يُصغ فيهما إلى عتاب ، بل قال :

لعمرى إننى لأُحِبُّ داراً ... تضيفها سكينةُ والربابُ
أحبهما وأبذل بعدُ مالى ... وليس للائمى فيها عتاب
ولست لهم وإن عَتَبوا مطيعاً ... حياتى ، أو يُغيبنى الترابُ (٢)

والبيتان الأولان ، رواهما الأصبهانى فى (مقاتل الطالبيين) وفى (الأغانى) :

لعمرى اننى لأحب دارا ... تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالى ... وليس لعاتب عندى عتاب

وفى خبر رواه صاحب الأغانى (٣) عن « مالك بن أعين » ، أنه سمع « سكينة بنت الحسين » ، رضى الله عنهما ، تقول : عاتَبَ عمى « الحسنُ » أبى فى أمى ، فقال هذه الأبيات .

فإن صح هذا الخبر ، كان فيه ما يفيد أن « الإمام الحسين » بالغ فى الاهتمام بزوجه وطفلته ، إلى حد لفت أخاه الكبير ودفعه إلى التدخل فى أخص شئون أخيه ، بالملامة والعتاب . ونحن قد اطمأننا إلى أن « سكينة » ولدت حوالى

(١) تاريخ الطبرى : حوادث سنة ٥٠ هـ . ونسب قريش : ص ٤٠ ، وصلح الحسن : ٣٦١ .
(٢) فى نسب قريش : ص ٥٩ ، والبيت الأول فى (المحبر لابن حبيب : ٣٩٧) وروايته للشطر الثانى « تحل بها سكينة والرباب » وانظر معها المعارف لابن قتيبة ، والمقاتل : ٩٠ .
(٣) جـ ١٤ / ١٥٧ ساسى .

سنة ٤٧ هـ . وقد توفى عمها « الحسن » ، فى سنة ٥٠ هـ . و« سكينة » فى السنة الثالثة من عمرها . وإذن فقد كانت منذ طفولتها ، مبعثَ أنيس خاص لأبيها الإمام الذى رأى أخاه ينزل عن الأمر « لمعاوية » ويبايعه أميراً للمؤمنين بعد كل الذى كان !

ترى هل كان « الحسين » فى إقباله المسرف على « الرباب » و « سكينة » يريد أن يتشاغل عن نذر عاصفة أخرى بدأت تلوح له على الأفق البعيد ، وإن ظن أخوه وظن كثير غيره ، أن تنازل « الحسن » قد وضع حدا للفتنة وعَصَمَ المسلمين من حربٍ قاسية لا ترحم .! ؟ ...

هل كان يسكن إلى طفلته ، هذه الذكية المرحة تشاغلًا عن خاطر كان يشغله حين يخلو إلى نفسه ، مؤكداً له أن تضحية « الإمام الحسن » لن تذهب هَدَراً فحسب ، ولكنها زادت بنى أمية تشبثاً بالأمر الذى استقر بين يدى « معاوية » وهيهات أن يتركوه يخرج من أيديهم مرة ثانية ، وهم الذين كافحوا فى سبيله نصف قرن أو يزيد ؟ .

لقد بايع الإمام « الحسين » « معاوية » بعد صلحه مع الحسن . وماله ، رضى الله عنه ، فى الخلافة مطمع ، ولكنه لم يلبث أن أدرك أن الفتنة لم تهدأ إلا إلى حين ، فما كان معاوية بالذى يرضيه أن يتولى الأمر زمناً يطول أو يقصر ، ثم يتركه ليخرج إلى البيت الهاشمى . . .

* * *

ولكن كيف يجرؤ ، والعهدُ بينه وبين « الحسن » قائم ، أن يلى الأمر بعده ؟[1] .

ظل الطالبيون فى ريب من هذا ، وأما « الحسين » عليه السلام ، فما غاب عنه أن لذاك الأمر ما بعده . وكلما أمعن النظر ، بدا له الليلُ طويلاً ... لا نهايةَ له ولا آخر ... [2]

---

(١) انظر الرسائل بين الحسن ومعاوية فى (مقاتل الطالبيين : ص ٥٥ وما بعدها) وانظر نص العهد فى « صلح الحسن » ص ٢٥٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٩٢ . وانظر مروج الذهب للمسعودى : ٢ / ٢٣٠ .

وحاول مع ذلك ألا يسبق الأحداث ، وأعانه على هذا ، أن استغرقته العبادةُ وأمور الدين فإذا آب من المسجد إلى بيته ، فثمة « سكينة » تملأ الأفق من حولها إشراقًا وسنى ، وتكاد تُنسيه ــ لِلَحظاتٍ ــ ما يشغله من خواطر تسرى به إلى ليل الهموم .

حتى مات « الحسن » رضى الله عنه ...

وذاعت شائعة أنه مات مسموماً بيد زوجته « ابنة الأشعث » على طمع فى الزواج من يزيد بن معاوية . . . .

وتأهب « الحسين » لمعركته ...

* * *

ثم لم تلثْ إلا سنوات معدودات ، حتى أمسك التاريخ أنفاسه ووقف يرقب « معاوية » وهو يجلس فى قصر الخلافة بدمشق ، ليأخذ البيعة عَلنًا لابنه « يزيد » سنة ٥٦ هـ ، بعد أن مهد لها طويلا[1] ، فلم يفتر يوما عن السعى لها منذ تم له النصرُ الحاسم بصلح الحسن ، ثم بموت الحسن بعد تسع سنين من استقرار الأمر « لمعاوية » .

وتسع سنين ليست قليلة إذا حسبناها بالدقائق ، وما نام « معاوية » دقيقة عن هدفه .

ولكن وجود « الحسين » جعله يحتاج إلى ست سنوات أخرى من كفاح دائب عنيد .

وكانت بين يديه خزائن المال يشترى بها من شاء .

فمن عَصِىَ على المال اشتراه بالدهاء والملاينة .

ووكل الباقين إلى الخوف من هيبة السلطان وجبروت الحاكم .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٦٩ .

نقل « المبرد » فى الكامل : « أن معاوية لما نصب يزيد لولاية العهد ، أقعده فى قبة حمراء ، فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد . حتى جاء رجل ففعل ذلك ، ثم رجع إلى معاوية فقال :

ــ يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تُوَلِّ هذا ــ وأشار إلى يزيد ــ أمورَ الناس ، لأضعتَها .

« وكان الأحنف بن قيس جالساً ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بحر ؟ ... فقال الأحنف : أخاف الله إن كذبتُ ، وأخافكم إن صدقت . فقال معاوية : جزاك الله عن الطاعة خيراً . وأمر له بألوف .

« فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بحر ، إنى لأعلمُ أن شرَّ مَن خلق الله ، هذا وابنُه !... ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال ، فلسنا نطمع فى استخراجها إلا بما سمعت ! » (1).

إذن فقد فعلها .

فعلها فى جرأة وعلانية ، فجعل الخلافة فى بيته الأموى ملكًا موروثًا .

وأخذ البيعة ليزيد ، أميراً للمؤمنين من بعده ، وإنه لينزع بالوراثة إلى جدته « هند بنت عتبة » ، ويزدهيه هذا الملكُ العريض لآل أبى سفيان ، ويذهب فى حياته مذهبَ الفتيان المترفين ، مجاهراً بالفسق معالنا بالمعصية !...

ورنت القلوب ، كل القلوب ، إلى « الحسين بن على » : سبط المصطفى ، وغذىّ النبوة ، والمثل الكامل للرجولة والعظمة والتقوى والإيمان .

وامتدت الأيدى ، إلى « معاوية » تبايعه على ولاية العهد ليزيد ، وهم أحد ثلاثة : رجل يعلم أن « يزيدَ » شر من خلق الله ، ولكن بيديه مفاتيح الخزائن وأقفال بيت المال .

---

(1) بغية الآمل من الكامل : 1 / 165 ــ ط 1927 . انظر ترجمة الأحنف بن قيس ، التميمى السعدى ، رضى الله عنه فى (الإصابة ، وتهذيب التهذيب) .

وثان يخاف الله إن كذب ، ويخاف معاوية إن صدق .

وثالث حَذِر فطن ، قد يئس من خروج الأمر من الأمويين بعد أن صار إليهم ، فسايَر وداوَر .

ولم يتخلف عن البيعة ليزيد ، إلا خمسة من وجوه أهل المدينة :

الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهم .

وتكتلت حول البيت النبوى معارضة قوية ، أنكرت أن تغدو الخلافة هرقلية ، وأن يئول أمر المؤمنين إلى مثل « يزيد » .

قال « عبدُ الله بن النهدى الكوفى » من أصحاب الإمام على :

فإن تأتوا برملةَ أو بهند[1] نبايعْها أميرَةَ مؤمنينا
خُشينا الغيظَ حتى لو شَرِبْنا دماءَ بنى أمية ما رَوِينا
لقد ضاعتْ رعيتُكم وأنتم تصيدون الأرانبَ غافلينا

* * *

أغضى « معاوية » عن ذلك النفر الخمسة ، الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد ، بقدر ما أسرف فى التنكيل بمن شايعهم علنا . وبلغ به الأمر أن قتل « حُجْرَ بن عَدِىّ » وستةً من أصحابه ، لأنهم أنكروا أن يُسَبَّ « الإمام على » على منبر الكوفة ![2] . وحين غضب عابد قريش « محمد بن أبى بكر » لهذا المنكر ، وكتب إلى معاوية » يُذَكره بفضل الإمام على وقديم سوابقه ، ردَّ عليه يقول :

« قد كنا وأبوك فينا ، نعرف فضلَ ابن أبى طالب ، وحقه لازما لنا مبرورا علينا . ثم كان أبوك وعُمَرُ ، أولَ مَن ابتزه حقه وخالفه على أمره ... فإن يك ما نحن عليه صواباً فأبوك استبد به ونحن شركاؤه ، ولولا ما فعل أبوك

(١) رملة : بنت معاوية . وهند ، أمه ، بنت عتبة .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٤١ — وفيه ان السيدة عائشة قالت لمعاوية بعد مقتل حجر : يامعاوية ، أين كان حلمك عن حجر ؟ فأجاب : يا أم المؤمنين ، لم يحضرنى رشيد .

من قبل ما خالَفْنا ابنَ أبي طالب ولَسَلّمنا إليه ، ولكنا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا فأخذنا بمثله ... فَعِبْ أباك بما بدا لك أو دَعْ ذلك ، والسلامُ على من أناب »[1] .

* * *

أين كانت « سُكينة » من هذا كله ؟ ..

كانت هناك دائماً إلى جانب أبيها ، تُتبعه خواطرَها وقلبَها إذا غاب عنها ، فإذا آب إلى بيته كانت أسرعَ أهله إليه وأقدرَهم على إيناسه ، فما يكاد يلمح ابتسامتها الوضيئة حتى يسكن إليها ويندمج لحظاتٍ فى جوها المرح وعالمها الظريف .

وكانت فى ذلك الوقت ، قد جاوزت مرحلة الطفولة وشارفت مطلع صباها ، فما عادت بحيث يغيب عنها الذى يعانيه أبوها من هموم كبار ، لكنها كانت قادرة على أن تطوى همومها ساعةَ تلقاه ، لعلها بذلك تنسيه بعضَ همومه .

ولم تفتها صغيرة ولا كبيرة من أنباء ذلك الصراع المرير بين حق أبيها وباطل خصومه ، بل لقد شاركت فى هذه المعركة بكل وجدانها اليقظ وحسها المرهف ووعيها الذكى ، وإن بدت خليةَ البال ، لا هم لها إلا أن تملأ البيت بدعابتها المرحة ، وإلا أن تمنح أباها المناضل — الذى ما بات منذ وعى وأدرك ، إلا على حقٍّ يذود عنه ، أو باطلٍ يدفعه باليد واللسان والقلب — بعضَ أنسٍ وراحةً .

وربما شهدتها الليالى ساهرة مسهدة تحاول عبثاً أن تذود عن مضجعها أشباح الهم التى تؤرق منام أبيها ومنامَها معه ، لكنها ما سُمِعتْ شاكيةً ولا رُئيَتْ باكية ، بل تغدو مع مشرق الشمس ملءَ الإشراق والمرح ، حتى

(١) المسعودى : مروج الذهب : ٢ / ١٩٤ .

لقد بدا لبعض أهلها أن يسألها ذات مرة : « إنك لتمزحين كثيراً ، وأختك فاطمة لا تمزح ؟ » فأجابت من فورها : « لأنكم سميتموها باسم جدتنا المؤمنة ، وسميتمونى باسم جدتنا الأخرى » .

تعنى « فاطمة الزهراء » رضى الله عنها ، « وآمنة بنت وهب » [1] .

وفى جوابها ما يدل على وعيها لما ألم بجدَّتِها الزهراء من أحزان ، وتمثلها إياها فى الأشهر الأخيرة من عمرها ، لا يرقأ لها دمع على أبيها العظيم ، ﷺ ، حتى لحقت به ...[1]

وإذن فلم تكن بغافلة عن هموم آلها وأحزانهم ، ولكنها ما كانت تطيق أن تكتئب ، وهى تعلم أن أباها رضى الله عنه يلتمس لديها ما يعينه على احتمال عناءٍ طال ، ولا تبدو له نهاية !

يلتمسه لديها وحدها ، فى حضن أمها « الرباب » مع أن بيت « الحسين » كان يضم وقتذاك زوجات أخريات وأبناء أُخر ...

* * *

وهنا ، نقف لحظة لنلقى نظرة على أفراد البيت الكريم الذى كانت « سكينة » مبعث الأنس فيه :

فهناك ، كان « عبد الله بن الحسين » شقيق « سكينة » من أمها « الرباب بنت امرىء القيس بن عدى» [2] .

وأخوها لأبيها : « على » الأكبر ، ابن الحسين ، وأمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، وأمها « ميمونة بنت أبى سفيان بن حرب » ، وفيه قال معاوية : « أولى الناس بهذا الأمر ، على بن الحسين بن على : جده

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ساسى .

(١) انظر حديث الزهراء بعد وفاة أبيها ﷺ، فى (بنات النبى) عليه الصلاة والسلام .

(٢) نسب قريش : ٥٩

رسول الله ﷺ ، وفيه شجاعة بنى هاشم ، وسخاء بنى أمية ، وزهو ثقيف » ![1] .

وكان هناك كذلك ، « على » الأصغر « زين العابدين » مع أمه « سلافة بنت يزدجرد » آخر ملوك فارس ، وقد سُبيت مع أختين لها فى فتوح بلاد الفرس ، وجىء بهن إلى « عمر » مع السبايا الأخريات . فأمر رضى الله عنه ببيعهن جميعاً ، لكن الإمام على تدخل لإعفائهن من هذا الموقف الأليم وأشار على أمير المؤمنين بأن يُقَوَّمْنَ ، ومهما يبلغ ثمنهن يدفعه من يختارهن .

وقّومت بنات يزدجرد ، فأخذهن على بن أبى طالب ، واختار لهن خير ثلاثة من شباب قريش ، فكانت الأولى لابنه الحسين وقد ولدت له « عليا » الأصغر .

والثانية لمحمد بن أبى بكر الصديق ، فولدت له « القاسم » .

والثالثة لعبد الله بن عمر ، فولدت له سالما !

فيقال إن أهل المدينة كانوا يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد ، حتى نشأ فيهم « على بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله » ففاقوا أهل المدينة فقها وورعا ، فرغب الناس فى اتخاذ السرارى .

وقد كان « على الأصغر ، زين العابدين » أكبر من أخته « سكينة » بنحو من عشر سنوات ، إذ ولد رضى الله عنه سنة ٣٨ هـ [2] فأدرك مقتل جده الإمام على ، وعُرِف عنه ــ منذ صغره ــ العكوفُ على العبادة ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، مما أعده ليكون ــ بعد استشهاد أبيه وبقية أهل بيته فى كربلاء ــ من أشهر البكائين فى تاريخ الإسلام [3] .

---

(١) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين ــ ٨٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ / ٤٥٥ بولاق مع (طبقات ابن سعد ٥ / ٢٢١) وانظر (عيون الأخبار لابن قتيبة) ٤ / ٨ دار الكتب .

(٣) ارجع إلى كتاب « مقتل الحسين » ص ٤٥٠ : ٤٥٤ .

وإنما سمى عليا الأصغر ، تمييزا له عن أخيه « على » الأكبر ، أمه « ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفى » ، الصحابى الجليل [١] .

وأخ رابع « لسكينة » ، هو « جعفر بن الحسين » وأمه من قبيلة بَلِى [٢] .

ثم كانت هناك أختها لأبيها : « فاطمة بنت الحسين » . قيل إنها كانت منقطعة النظير فى الجمال ، لكنها لم تكن مرحة كأختها « سكينة » ولعل ذلك راجع إلى ظروفٍ خاصة بها وبأمها « أم إسحق بنت طلحة بن عبيد الله التيمى » أحد العشرة رضى الله عنهم [٣]

فلقد كانت « أم اسحق » إحدى بنات تيم اللواتى اشتهرن بالجفوة والخشونة فى معاملة الأزواج ، وفى « نسب قريش » أنها تزوجت « الحسن بن على بن أبى طالب ، فولدت له ابنه طلحة ، ثم تزوجت « أبا عبد الله الحسين » فولدت له فاطمة [٤] ، وليس فى مصادر سيرة بنى على ، ما يشير إلى انفصال أم إسحق عن الحسن ، هل كان بطلاق أو ترمل . لكنا نميل إلى الظن بأنها طُلقت منه ، لأن زواج بنتها فاطمة كان فى حياة أبيها الحسين ، وقد قتل رضى الله عنه فى المحرم من سنة ٦١ هـ . ومن المستبعد أن يكون قد تزوج من « أم إسحاق » بعد موت أخيه الحسن سنة ٤٩ أو ٥٠ هـ ، وولدت له فاطمة التى أدركتْ سن الزواج قبل ٦١ هـ . . .

وأيا ما كان الأمر ، فتجربة الطلاق أو الترمل ، غيرُ هينة على مثل أم إسحاق .

ولعلها زادتها جفوة وصرامة ، حتى ليقول الحسين رضى الله عنه فيها : « واللّهِ لربما حَمَلتْ منى ووضعتْ ، وهى مصارمة لى ما تكلمنى ! »

---

(١) نسب قريش : ٥٧ — والإصابة : ٧ / ١٧٤ مصر .

(٢ — ٣) نسب قريش : ٥٩ ، ٥٠ .

(٤) نسب قريش : ٥١ . ومثله فى جمهرة أنساب العرب : ٢٤ ، ١٢٩ .

وفى ظرف كهذا ولدت له ابنته فاطمة ، وفيها ميراثُ بناتِ تيم ، وأثر تلك الظروف القاسية ، فأعوزها ما كان لأختها سكينة ، من مرح ولطف وإيناس .

* * *

هؤلاء هم إخوة سكينة : « عبد الله » شقيقها ، و « على » الأكبر ، و « على » الأصغر ، و« جعفر » ، و« فاطمة » .

ولم يفت القوم أن أباهم الإمام مُقِلٌّ ، إذ يُروى أن رجلا قال لأحد بنى الحسين : ما أقل ولد أبيك ؟ .. فكان جوابه : « العجبَ أن يكون له ولد ، وهو الذى مارُئىَ إلا عاكفا على العبادة والجهاد » .

وقد كانت حياة الحسين كلها مجاهدةً وجهاداً : مع النفس ، ومع الباطِل أينما كان ...

وعاش له بنوه الأربعة ، وبنتاه فاطمة وسكينة ، حتى بلغت معركته ذروتها الرهيبة ، ولكن « سكينة » هى التى استأثرت من دونهم بأنها كانت مبعثَ أنسه وراحته . . .

لعمرك إنننى لَأُحِبُّ دارًا تكون بها سكينةُ و الربابُ

* * *

فى دوّامَـة الأحـدَاث

من قريب ، وقفت « سكينة » وقد جاوزت مرحلة الطفولة ، ترقب الأحداث وهى تندفع نحو ذورتها المشئومة فى عنف شرس ، وترنو إلى أبيها الحبيب ، فى صميم الدوَّامة ، يمضى إلى المصرع الدامى ، دون أن يملك منه مَحِيدا !

فمنذ أخذ « معاوية » العهد لابنه « يزيد » وغَذِىُّ النبوة هو قطب الصراع ومحور الأحداث وهدف المعركة ... المعركة الطويلة العنيدة ، التى بدأت مرحلتها الأولى بين أبى سفيان بن حرب ومحمد ﷺ ، ثم انتقلت إلى الصراع بين معاوية بن أبى سفيان ، والإمام علىّ صهر النبى وابن عمه ، وها هى ذى تنتقل ـــ كأنها ميراث محتكم ـــ إلى دورها العنيف ، بين « يزيد بن معاوية » : حفيد أبى سفيان وهند ، و « الحسين بن على » : سبط النبى ﷺ وولد الزهراء عليها السلام فيقول شاعر من شيعة الطالبيين :

عبدُ شمسٍ أضرمتْ لبنى هـا ... شم حرباً يشيب منها الوليـدُ
فابنُ حربٍ للمصطفى ، وابنُ هِند ... لِعَلِـىٍّ ، وللحُسيـنِ يَزيـدُ

والتاريخ المروى لا يذكر أن « يزيدَ » أخذ مكانه فى الصراع ، أيامَ أبيه ، وإن لبث منذ بويع وليا للعهد سنة ٥٦ هـ ، إلى وفاة معاوية سنة ٦٠ هـ ، يتدبر موقفه من « ابن الزهراء » ويستعد على مهل لمعركة عاتية تحسم هذا الموقفَ المعلق الذى ظل أكثر من نصف قرنٍ ، حائراً متردداً ...

ما من شك ، أنه قَدَّرَ أن الخلافة لن تصفو له ، وفى الناس هذا الحسينُ الإمام ، يفرض سلطانه على كل القلوب وكل الضمائر فى المجتمع الإسلامى ، بجاذبيته الآسرة وشخصيته التى يحف بها سنا من نور النبوة وجلال الإيمان ،

ومهابة الحق ، ووقار السمت ، ونُبل الطباع ، واكتمال الرجولة وكرم السجايا .

حتى مات معاوية بعد أن وطّأ الأمرَ لولده ، ولم يَعُدْ يخاف عليه إلا من بضعة نفر من قريش ، أولهم كما قال فى وصيته ليزيد (١) « الحسين بن على » .

وورثه « يزيد » وهو ابنُ اثنتين وثلاثين سنة ، فى هلال شهر رجب ، سنة ٦٠ هـ .

من ثَمَّ ، بدأ يقود المعركة فى قسوة ضارية وشراسة محمومة ، فكتب إلى عامله بالمدينة « الوليد بن عتبة » أن يأخذ له البيعة قسرًا ممن تخلف عنها من وجوه المسلمين هناك (٢) .

فبايعه « عبد الله بن عباس » .

وبايعه « عبد الله بن عمر »(٣) .

وخرج « عبد الله بن الزبير » إلى مكة ، مستعيذاً بالبيت العتيق (٣) ، فى طمأنينة الواثق أن دوره لم يَحُنْ بعد !

وأبى « الحسين » أن يبايع ، بل كان جوابه للوليد :

« يا أمير ... إنّا أهلُ النبوة ومعدن الرسالة ، بنا فتح اللّهُ وبنا ختم ، ويزيدُ فاسق فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، مُعلِنٌ بالفسق ، مجاهر بالفجور . ومثلى لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون ، أينا أحق بالبيعة والخلافة » (٤) .

ومضى ...

---

(١) انظر نص الوصية فى تاريخ الطبرى ٦ / ١٧٩ .
(٢) انظر نص كتاب يزيد الى عامله الوليد ، فى تاريخ الطبرى ٦ / ١٨٨ .
(٣) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٦٠ .
(٤) تاريخ الطبرى ٦ / ١٦٠ ونسب قريش : ٢٣٩ .

قال « مروان بن الحكم » وقد كان حاضراً ، للوليد بن عتبة :

ـــ عصيتني حين قلت لك ألا تدعه يمضى أو تضرِبَ عنقه ! .. لا والله ، لا يمكنْكَ مثلها من نفسِه أبداً .

ـــ فردَّ الوليد : ويحك !.. إنك أشرتَ عليَّ بذهاب ديني ودنياى ، والله ما أُحب أن أملك الدنيا بأسرها وأنى قتلت حُسَينا ! .. سبحان الله ، أأقتل حسينا لَمّا أن قال لا أبايع ؟ .. والله ما أظن أحداً يَلقى الله بدمِ الحسين إلا وهو خفيفُ الميزان عند الله (١) .

....

يبايع أو يقتل ؟ !

على هذا صمّم بنو عبد شمس ! وانصرف الحسين إلى بيته فجمع آله للرحيل : فيروى الطبرى بسنده عن « أبى سعيد المَقْبُرى » قال :

« نظرت إلى الحسين داخلا مسجد المدينة وإنه ليمشى وهو معتمد على رجلين ، يعتمد على هذا مرةً وعلى هذا مرة ، وهو يتمثل بقول (يزيد) بن مفرغ الحميرى :

لا ذَعَرْتُ السَّوَام فى فلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ مغيراً ولا دُعيتُ يزيـدَا

يوم أُعطَى من المهانة ضيمـا ... والمنايا يَرصُدْننى أن أحيـدا

قال أبو سعيد : فقلتُ فى نفسى : والله ما تمثل بهذين البيتين إلا لشىء يريد ، فما مكثت إلا يومين حتى بلغنى أنه سار إلى مكة »(٢) .

وما كان « الحسين » طامعاً فى أمر من أمور الدنيا ، ولا كانت له فى الخلافة مأرب ، ولكن إذا انتهى الأمر إلى أن يصير « يزيد » أميراً للمؤمنين ، فلن يبالى « الحسين » ، على أى جنب يكون فى الله مصرعه ، ليدفع هذا الباطل . . .

(١) بلفظ الطبرى ٦ / ١٩٠ ومعه : (نسب قريش ١٣٣ ، ومقتل الحسين ١٢٨) .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩١ مع ترجمة أبى سعيد المقبرى ، كيسان ، من حفاظ التابعين ، فى تهذيب التهذيب (ع) .

وإذ رأى من « يزيد » إصراراً على حسم الموقف ، هاجر بأهله إلى مكة .

روى الطبرى عن « عقبة بن سمعان ، مولى الرباب بنت امرىء القيس زوج الحسين » وكانت مع ابنتهما سكينة وهى آنذاك ، صغيرة قال : فخرجنا فلزمنا الطريق الأعظم فقال للحسين أهلُ بيته : لو تنكبت الطريق الأعظم كما فعل ابنُ الزبير ، لا يلحقك الطلب . قال : لا والله لا أفارقه حتى يقضى الله ما هو أحب إليه . فاستقبلنا عبدُ الله بن مطيع فقال للحسين : جُعلت فداك ، أين تريد ؟ قال : أما الآن فإنى أريد مكة ، وأما بعدها فإنى أستخير الله . قال ابن مطيع : خار الله لك وجعلنا فداك فإذا أنت أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة ... الزمْ الحرمَ فإنك سيد العرب لا تعدِل بك والله أهلُ الحجاز أحدا ويتداعى إليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم ، لَنُسْتَرَقَّنَّ بعدك »[1] .

ومضى الحسين بأهله ، رضى الله عنهم ، وبلغ الركب الحسينى مكة . وعكف الناس على الحسين ، يفدون إليه ويقدمون عليه ويجلسون حواليه ويستمعون إلى كلامه وينتفعون بما يسمع منه ويضبطون ما يروون عنه »[2] .

* * *

وهناك فى دار المبعث ، طافت « سكينة » بأنحاء البلد العتيق ، ووقفت بالمشاهد التاريخية التى صنعت حياة آلِها وحياة العالم الإسلامى أجمع . وربما أتيح لها وقتئذ أن ترقب النشاط الأدبى الذى كانت مكة بوجه خاص ، والحجاز بصفة عامة ، مركزاً من أهم مراكزه . . . وحيث كان عدد من شباب الأنصار وفتية قريش ، قد عمرت بهم أندية الشعر ومجالس الطرب والغناء ،

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ١٩٦ . وترجمة « عبد الله بن مطيع بن الأسود ، القرشى العدوى التابعى » فى تهذيب التهذيب (بخ م) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية . ترجمة الحسين رضى الله عنه . وانظر معه (تاريخ الطبرى) ٦ / ٢٢٤ .

وازدهرت فى تلك البيئة الأرستقراطية ، مدرسةٌ خاصة فى الغزل ، كما ازدهرت صنعةُ الألحان وفن الغناء .

وقُرب موسم الحج من عام ٦٠ هجرية ، و « سكينة » مع آلها فى مكة ، فأتيح لها أن تشهد بعينها وتسمع بأذنيها ، كلَّ ما كان يدور هناك فى ذلك الموسم بخاصة ، من ضجيج أدبى حافل صاخب . وإن كانت فى الوقت نفسه تصغى بكل قلبها وفكرها ، إلى نشاطٍ من نوع آخر ، كان أبوها الإمام مصدره ومركزه معاً ، فمنذ وفد « الحسين » إلى مهد الإسلام وأوى إلى منزل الوحى الذى اصطُفِى له جدُّه العظيم عليه الصلاة والسلام ، وجموعُ المسلمين تلتقى عنده ، تلتمس لديه ما يعصمها من غلبة الضلال ، وتلوذ به فى حيرتها بين يقظة الضمير وعجز الوسيلة ، وتستمد منه زاداً من القوة المعنوية تقوى به على مواجهة الطغيان !

وحين كانت مكة تستقبل عدداً من شباب الحجاز وشعراء الغزل ، الوافدين عليها فى موسم الحج ، كانت هناك جموع أخرى جاءت لغير ما جاء له شعراء الغزل . أولئك هم رسل العراق ، وفدوا على مكة يبايعون « الحسينَ » ابن بنت النبى ، على الجهاد فى سبيل الحق المغتصَب من أوْلَى الناس به ، واستردادِ الخلافة من بين يدى الفتى الأموى الذى تلقاها عن أبيه ميراثاً هرقليا ، وليس لها بكفء . ونشطت الرسائل ما بين الكوفة والمدينة ، وأعينُ الأمويين يقظى لا تنام ...

* * *

فى هذا العالم المضطرب بشتى الأحداث ، المائج بتيارات متناقضة ، المزدحم بحشودٍ من طلاب الغناء وعشاق الأدب ، وآخرين من طالبى الجهاد المتهيئين لبذل الحياة رخيصةً فى سبيل ما يؤمنون بأنه الحق ... فى هذا العالم المضطرب المتناقض ، استقبلت « سكينة » ربيعها الثالث عشر وتفتح صباها النضير عن آية من آيات الحسن والبهاء والجلال . وقد فرضت عليها الظروفُ أن تحيا بين

التيارين المتجاذبين ، فى مستهل هذا الصبا الغض . وبقدر ما رأى فيها أبوها مبعثَ راحته وأنسه ، رأتْ فيها أم القرى نموذجاً فريداً رائعاً لا عهد لها بمثلِه أناقة وظرفا وبهاء ! وأقبلت عليها صَبايا مكة ، يرمقنها فى إعجاب مشوب بشىء من الحسد ، ورحن يرصدن إيماءتها الآسرة ، وحركاتها الرشيقة الفاتنة ، وذلك النمط الخلاب الذى استحدثته فى تنسيق شعرها . .

فى هذا الموسم بالذات ، بدأت شخصيتُها تظهر فى المجتمع ، وتلفت إليها القلوب والأبصار . كانت مكة فى موسم الحج ، سوق أدبية واجتماعية حافلة . فحين أقبل الموسم من عام ٦٠ هـ ؛ وسكينة هناك ، شهد الموسمُ فى دنيا النساء عجباً من العجب : ما من شابة حسناء إلا حاولت أن تقلد « سكينة » فيما ظنّته سرَّ فتنتها ، وإن كانت الآراء قد اختلفت فى تحديد هذا السر ، وذهبت فيه كل مذهب ؛ فمن قائل إنه أُنس المحضر وظرف الحديث وسرعة البديهة والذكاء اللماح ، وآخر يرجع به إلى حسنها الفريد وأناقتها الساحرة ، وثالث يرده إلى ما حفَّ بها من عظمة الأبوة وجلال النسب وسَنَا النبوة ، ورابع يراه فى هذا كله مجتمعا متكاملا ، وخامس يحسبُه جاذبيةً خاصة ، ليست مما يُحَدَّد أو يُفَسَّر أو يضبط !

وإذا كانت حسانُ قريش ، قد فاتهنَّ أن يأخذن عنها نُبلَ الملامح وجلالَ الطلعة ونور النبى ، فقد بقيتْ لهن بعد ذلك أناقتُها يقلدنها حيثما استطعن ، وشاعت « الطُّرَّةُ السكينية » فلم تبق واحدة منهن لم تُنسق شعرها على النَّسق المستحدث الذى ابتدعته الهاشمية الحسناء ، وراح المجتمع المكى يعرف فى بناته أثرَ النموذج الفريد ، ويصغى إلى ما يتناقله السُّمَّارُ من أنباء ظرفها ونوادر دعابتها الذكية . . .

وخفقت قلوب الشباب الهاشمى والقرشى ، تسائل فى لهفة : أيهم يسعده زمانه بأن تكون هذه الدرة الفريدة من نصيبه ؟ وبأيهم ترضى « سكينةُ » زوجاً ؟

وإذا كانت أمانيهم جميعاً قد تعلقت ببنت الحسين ، فإن واحداً منهم هو الذى خطا خطوة جادة فى سبيل الظفر بها ، ذلك هو ابن عمها « الحسنُ المثنى »[1] الذى يرشحه شرفُه وبنوته للإمام « الحسن بن على » لمصاهرة عمه الإمام الحسين .

وكان الحسن المثنى وصىَّ أبيه .

لكنه لم يشأ — أو لعله لم يستطع — أن يسمى « سكينةَ » حين تقدم إلى عمه الحسين يطلب مصاهرته ، فرحب به العم وقال مجيباً :[2]

— اخترتُ لك ابنتى فاطمة ، فهى أكثر ابنتَّى شبَهاً بأمى فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وإنها لَذَاتُ دِينٍ وجمال .

ثم أردف بعد لحظة ، فيما تقول الرواية :

« وأما سكينة ، فِغالبٌ عليها الاستغراق مع الله ، فلا تصلح لرجل » .

وإذا صحت الرواية ، فإن عبارة الإمام فى ابنته تلفت النظر : فهذا الاستغراقُ مع الله يبدو مناقضا لما أشرنا إليه آنفاً من مرح سكينة وأُنْس مَحضرها ، وما ذاع من أناقتها وميلها إلى الدعابة ، لولا أننا نعود فنذكر أنها اعتادت — منذ وعتْ — أن تلوذ بهذا المرح لتبدد بعض الغيوم التى كانت تخيم على البيت العلوى الكريم ، منذ مصرع جدِّها الإمام على ، وما تلاه من أحداث أليمة حمل أبوها الإمامُ الحسينُ عبئَها الباهظ . وقد بلغ من حرص « سكينة » على اصطناع المرح ، ما استطاعت معه أن تطوى همومها فى أعماقها ، وأن تحتفظ بهذه الابتسامة الوضاءة يتألق بها وجهها الصبوح ، دون أن يلهيها هذا المرح ، الذى فرضه عليها دورُها فى المعركة ، عما تنزع إليه بحكم ميراثها النبوى ونشأتها فى رحاب البيت المحمدى ، من تعبُّد يصل أحياناً

---

(١) نسب قريش : ٥١ — وأم الحسن هى خولة بنت منظور الهلالية الغطفانية .

(٢) الاغانى : ١٤ / ٥٩ ساسى ، وفيه رواية أخرى ، كالتى فى « نسب قريش : ٥١ » ان الإمام خيره بين فاطمة وسكينة ، فكان هو الذى اختار فاطمة . وانظر « مقتل الحسين : ٣٦٨ » .

إلى درجة الاستغراق مع الله ، والاندماج فى ذلك الجو الروحى المسعد الذى كانت تجد فيه ملاذها عندما يثقل عليها دورُها الصعب . فما كانت ظروف الحياة فى بيئتها تلك بالتى تُعين على الابتهاج والمسرة ، فلا عجب إذا رأيناها تنتقل من حالٍ إلى حال فتلقى الدنيا بوجهها الضحوك وظرفها المرح ، ثم لا تكاد تخلو إلى نفسها حتى تُقبل على العبادة فى خشوع واستغراق ، استجابةً لما فى طبيعتها المتدينة ، وميراثها من الآباء والأجداد ، ومتخففةً من ثِقَلِ الدور الذى يفرض عليها ما لا تحتمله ظروفُ حياتها من تهلل وإشراق .

ونطيل الوقوف عمدًا عند هذه النقطة بخاصة ، لأنها تعيننا على فهم شخصية « سكينة » ولعلنا ما اهتممنا بمسايرة أحداث العصر ، فى تتبعنا لمراحل حياة بنت الحسين ، إلا لكى نُلقى من هذه المسايرة ضوءًا على ما قد يبدو تناقضاً فى تلك الشخصية التى حيّرت كُتّاب السير : فالأخبار عنها تصورها لهم أحيانا خليةَ البال ، معنية بأناقتها ، مزهوة بملاحتها ، مندمجة فى الحياة الاجتماعية . ثم يقرءون مع ذلك وصفَ أبيها لها بأنها « يَغلب عليها الاستغراق مع الله » [1] ويروون أخباراً أخرى تؤكد أنها كانت مضرب المثل فى التقوى والتصوُّف .

وكان من السهل أن نفترض أن « سكينة » عاشت عهدين مختلفين ، كانت فى أولهما مستغرقة فى الله مندمجة فى حياة التعبد ، ثم تغيرت من بعد ذلك ، فانصرفت إلى حياة المجتمع واندمجت فيه .

وكان من اليسير كذلك ، أن نحدد المرحلة الأولى ، بالفترة التى عاشتها فى كنف أبيها الإمام ، وأن نجعل مقتله رضى الله عنه ، هو الحد الفاصل بين العهدين .

أجل كان من اليسير أن نفترض هذا ، فيسهل علينا به أن نفسر تناقض الأخبار عنها بين الزهد المسرف والدعابة المرحة ، بين قول أبيها رضى الله عنه :

---

(١) السيد عبد الرازق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨ .

إنها يغلب عليها الاستغراق فى الله ، وهذه « الطرة السكينية » التى فتنت عصرها ... بين المشهور من تقواها وتصوُّنها ، والذى ذاع من ظهورها فى المجتمع الأدبى ، واحتفائها بالمغنين والشعراء ...

لكنما يحول بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، ما أجمع عليه الذين كتبوا عنها من كون أبيها رضى الله عنه كان يأنس إليها ويحب مجلسها ويستطيب محضرها ، منذ كانت طفلة صغيرة . وفى الخبر أنها سئلت : لِمَ تمزح ، وأختها فاطمة قلما تفعل ؟ فكان جوابها ما سمعناه من أن أختها سُميت باسم جدتها الزهراء ...

ثم إن هذه المقارنة بين الأختين ـ إذا صح خبرها ـ قد كانت وهُما بعدُ فى بيت واحد ، قبل أن تمضى الحياة بكل منهما فى سبيل . وفاطمة قد تزوجت فى حياة أبيها الحسين ، وإذن فقد كان ميل سكينة إلى المرح مبكراً ، وقبل أن تُفجَع ـ ويفجَع العالم الإسلامى ـ بمقتل أبيها فى كربلاء ، ولم يمنع هذا المرحُ أباها رضى الله عنه ، من وصفِها بالاستغراق مع الله !

من الممكن أن يقال ، إن سكينة كانت أكثر استغراقاً فى العبادة وأقل ظهوراً فى المجتمع ، أيام كانت تعيش فى كنف أبيها الإمام . كما يمكن أن يقال كذلك ، إن الأحداث الفادحة التى ألمت بها بعد مقتل أبيها قد وجَّهتْها نحو الحياة الاجتماعية بضجيجها اللاغب ، على ما سوف نرى فى الدور الثانى من حياتها .

يقال هذا وذاك ، فيقبل فى طمأنينة ، فمما لا ريب فيه أن (مذبحة كربلاء) قد كانت ذات أثر بعيد حاسم ، فى حياة الشريفة الهاشمية الحسناء . بل لا نغلو إذا قلنا إنها الحد الفاصل بين طورين متميزين فى حياتها الحافلة . لكن الذى لا نرتاب فيه كذلك ، هو أن بوادر هذه السجايا فى شخصيتها ، قد لاحت منذ صباها الباكر . أعنى الجمع بين المرح والدعابة والمزاح ، والتقوى والتعبد والزهد أو ما يشبه الزهد !

هذا هو الطابع المميز لشخصية سكينة . ظهرتْ بوادرهُ فى العهد الأول ،

عندما كانت تلازم أباها الإمام وتعيش فى كنفه ، ثم ازداد على الأيام وضوحاً ، وإن اتخذ صورة أخرى ، نراها بعد حين .

ولقد زُفت أختُها « فاطمة » إلى الحسن المثنى فى حياة أبيها الحسين ، وقيل فيما قيل يومئذ : إن امرأة مردودتُها سكينةُ ، لَمُنقَطِعةُ القَرينِ فى الحُسْنِ [1] .

وبقيت سكينة فى بيت الحسين ، وقد أرضاها أن يستبقيها أبوها رضى الله عنه إلى جانبه ، فما كانت لِتؤثر على مكانها هناك أىَّ مكانٍ سواه ...

وتناقلت بيوتات مكة كلمة أبيها : « فلا تصلح لرجل » فتقاصرت عنها أطماع الشباب ورأوها فوقَ منالهم ، وطُوِيت قلوبُ كثيرٍ منهم على يأس ...

وأغلبُ الظن أن « مصعب بن الزبير » كان من بين الذين صَكّت الكلمةُ مسمعهم ، فلقد حدثته أمانيه [2] أن يتزوج من سيدة نساء عصرها جمالا وظرفا وحسنَ خُلقٍ وعزةَ نسبٍ وشرفَ منبت ، وكان يرى نفسه أهلاً لها : أبوه الزبير بن العوام بن خويلد ، صاحب رسول الله وصهر أبى بكر الصديق . وأمُّه الربابُ بنت أنيف بن عبيد الكلبى . وجدَّتُه لأبيه ، صفيةُ بنتُ عبد المطلب ، عمة الرسول عليه الصلاة والسلام . وعَمَّتُه أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد ، جدة سكينة لأمها .

وكان لمصعب من شرفه الخاص ، ما يُظاهر هذا النسبَ العريق ويكافئه ، فهو الذى يتناقل المجتمع القرشى أنباءَ جُودِهِ وشجاعته ومروءته ، حتى لقد شاعت فيه القولة المشهورة : « لو أن مصعبَ بنَ الزبير وجد أن الماء ينقُص مروءَته لَمَا شَرِبه » وهو الذى قال فيه خصمه عبد المللك بن مروان : « متى تغذو نساءُ قريشٍ مثلَك ؟ » .

وكان إلى جانب ذلك كله جميلا فى الرجال ، حتى ليقول « جميل بن

(١) نسب قريش : ٥١ ، ومقاتل الطالبيين : ١٨٠ ، والأغانى : ١٨ / ٢٠٤ .
(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ١ / ٢٥٨ ط دار الكتب المصرية .

معمر » : ما رأيت مصعباً يختال بالبلاط إلا غِرْتُ على بثينةَ وبينهما ثلاثة أيام ![1] .

وقد حدَّث « مصعب » برغبته تلك فى الزواج من سكينة ، ثلاثةً من أصحابه ، هم : أخوه عروة بن الزبير ، وعبدُ الله بن عمر ، وعبدُ الملك بن مروان[2] ـ ولم تكن المعركة بين بنى أمية وآل الزبير قد انتقلت إليه .

على أن مصعبا لم يبادر إلى خطبة سكينة ، ربما لأنه لم ير الظرف مناسبا وأبوها الحسين مشغول بهمومه الكبار ، وربما لأنها كانت لا تزال بعدُ صغيرة فلا بأس على مصعب فى أن يتمهل انتظاراً لفرصة موّاتية ، ولعله كان لايرى فى غيره من شباب قريش كفئا لبنت الحسين !...

حتى ذاع نبأ خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتى الحسين ، ثم زواجه من فاطمة دون سكينة التى رأى أبوها أنها باستغراقها مع الله لا تصلح لرجل ، فكفَّ مصعب عن التعلق بأمنيته فى الزواج منها ، وراح يغالب رغبته فيها ويأخذ قلبه بالانصراف عنها مخافة أن يرده الحسين خائباً فلا يستطيع أن يلقى الناس وقد كَذَّب كلمتَهم فيه : لو أنه وجد الماءَ ينقص مروءته لَمَا شَرِبه !

فلتكن سكينة مَن تكون ! لتكن الماء الذى لا تقوم حياتُه بدونه ، فهو مَن يؤثر أن يهلك ظمأ على أن يطلب هذا الماءَ مع احتمالِ ردٍّ عنه ! ..

وإلا لما كان « مصعبَ بن الزبير » ، الذى ضربت به قريش المثلَ فى المروءة وعزة النفس !

ترى هل شعرت الشابة الشريفة الهاشمية بذلك الصراع فى نفس الفارس النبيل بين عاطفته ومروءته ، بين وجدانه وعقله ؟ !

مِثْلُ « مصعب » مَنْ لا يدع هواه المكبوتَ يغلبه أو تفلت منه بوادر تشى

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ٤ / ٢١ .
والبلاط موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين المسجد النبوى وسوق المدينة .

(٢) عيون الاخبار : ١ / ٢٥٨ .

به وتنم عليه . ولعل سكينة لو دَرَتْ بما يطوى ، لَمَا ملكتْ له أكثر من الرثاء والعطف ، فقد كانت فى شغل بدورها المزدوج عن شجون العواطف وشئون الخطبة والزواج ، فهل يرضى مصعب أن يكون موضعَ رثاءٍ من فتاة حسناء ؟

الموت أهون من هذا !

* * *

وثمة سؤال آخر وارد : هل لفتت سكينة فى ذلك الموسم من مواسم الحج ، أعنى سنة ٦٠ هـ ، عمرَ بن أبى ربيعة شاعر الجمال ؟ من المحقق أن عمر كان هناك ، يملأ مكة بغزلياته وحكايات مغامراته الموسمية ، حيث اعتاد — فيما قالوا — أن يتعقب من يفد على مكة من ربات الجمال ، ليتغزل بهن فى قصائد يتناقلها الرواة ويسرى بها الركبان عبر البيد والقفار ، ويتغنى بها قيانُ المدينة ومغنوها الكبار : عَزَّةُ الميلاء ، والغريضُ ، وابنُ سريج ، ومالكٌ ، ومَعْبَد .

على أن الموسم انفض ، دون أن يتعرض « عمر » لاسم سكينة ، وهو الذى لم يدع ذات جمالٍ إلا حياها فى غزليةٍ أو أكثر من غزلياته . فلماذا أُلجِمَ لسانُه فلم يقل بيتا واحدا فيه اسمُ « سكينة » زينة الموسم وأروع جميلاته ، ملاحة ونضرة وأناقة وسحرا ؟

وماذا يجديه أن يكون تغنى بأسماء : زينب وهند ورملة والثريا وفاطمة و ... و ... وترك اسمَ « سكينة » الذى صار بصاحبته أعذبَ الأسماء ؟

ما كان صمته عن تجاهل . . إنما أُلجِمَ لسانه فرطُ تهيبه لمكانها ، وهو يعلم ما كان يشغل أهلَها وأهل مكة جميعاً من تهيؤ « الإمام الحسين » للسفر إلى العراق ، بعد أن جاءته رسلُ الكوفة ببيعة عَشَراتِ ألوفٍ من أهلها (١) .

كلا ، لا سبيل لعُمَرَ إلى التغزل بأعذبِ اسمٍ لأجملِ مسمّاة .

(١) تاريخ الطبرى : جوادث سنة ٦٠ هـ « مقتل الحسين : ١٤٧ » .

وأقول اسم « سكينة » لأنى مطمئنة إلى أن عمر فى غزلياته ، لم يكن يتحدث عن واقع بينه وبين الشريفات الهاشميات والقرشيات ، وإنما كان يختار أسماءَ الجميلات منهن لما ينظم من غزليات ، على ما سوف نوضحه بمزيد تفصيل وبيان ، فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

* * *

مذبحة كربلاء

خرجت مكة كلها تشيع سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وقد خرج منها بأهل بيته غداةَ يومٍ من أخريات ذى الحجة سنة ٦٠ هـ يريد الكوفة ، بعد أن ألحت عليه شيعته هناك ، بأن يقدم إليهم ليجاهدَ بهم ضد الطغيان .

وقيل إن الذين أتتْه بيعتُهم من العراق ، أربعون ألف رجل !

ولو استطاعت « مكة » لحالت دون خروج أهل البيت النبوى منها ، ولكن الإمام قد وعَد ، وعزم وقرَّر ، فما تستطيع قوة فى الأرض أن تصدَّه عن النضال فى سبيل ما يوقن أنه الحق ، وما يستطيع إنسان أن يغريه بإيثار السلامة والعافية ! [1]

لقد حاول نفر من خاصة قرابته أن يحولوا دون استصحابه لأهل بيته فى رحلته تلك . حاول ذلك : أخوه محمد بن الحنفية ، وابنُ عم أبيه عبدُ الله ابن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، صهره وابن عمه ، وآخرون من صفوة أصحاب أبيه الإمام على ، وغيرُهم ...[2] ولكنْ ماذا تجدى المحاولة مع مَنْ هانت عليه الدنيا .

وقيل له فيما قيل : « إن أهل العراق هم الذين قتلوا أباه وأخرجوا أخاه » وذكروه برأى الإمام الشهيد كرَّم الله وجهه فيهم ، ولكنه أبى إلا أن يمضى وهو يقول لناصحيه :

« إن من هوان الدنيا على الله ، أن رأسَ يحيى بن زكريا أُهدِىَ إلى بَغىٍّ من بغايا بنى اسرائيل » !

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٦ /٢١٧ . وانظر المحاولة فى كتاب (السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم) .

أو يقول :

« إنى لم أخرج أشَراً ولا بطَراً ولا مفسداً ولا ظالما ، وإنما خرجت لطلب الإصلاح فى أمّة جَدِّى : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، فمَن قبلنى بقبول الحق فالله أوْلَى بالحق ، ومَن رد علَّى هذا ، أصبر حتى يقضى اللَّهُ بينى وبين القوم وهو خير الحاكمين » .

وكان وداع ...

ومضى الإمام الحسين فطاف بالبيت العتيق ، وسعى بين الصفا والمروة ، وقضى عمرته [1] .

كان وداع ضجت ربوع مكة من قسوته ؛ فما هان على أهلها أن يُحرموا من طَلعة الحسين ، وفيها نورُ النبوة ، ولا هان على مكة أن تمسى وقد ارتحل عنها خيرُ بيتٍ وأعزُّ رهط :

بيت النبى ورهط الإمام ...

ومضى الركب الحسينى فى طريقه إلى ما كُتب له فى الغَيْبِ المضمر .

وآب المودَّعون إلى البلد الحرام ، وما فيهم مَن لا يجد فى قلبه مَسَّ الحزنِ ولذعَ الفراق ، وقلقاً مبهمًا لم يلبث أن خالطه شيء من الخوف ، منذ جاوز الركبُ الحمى الآمنَ ووَدَّعوا جيرةَ الحرم .

وكانوا جميعاً يدركون أن لهذا الرحيل ما بعده ، وإن اختلفت بهم الظنون فيما سوف يكون .

وتعلل أكثرهم بالأمل فى أن « يزيد » لن يجرؤ على أن يبوء بدم الحسين ، إن لم يكن تأثمًا وتحرجًا ، فخوفًا من أن يفسد عليه الأمرُ كله بمقتل الحسين ، ويبوء بلعنة المسلمين حيثما كانوا ...

ولكن قلة ــ منها عبد الله بن الزبير [1] ــ كانت على شبه يقين من أن

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢١٧ و« مقتل الحسين » : ١٧٤ .

دور يزيد فى الصراع العنيد بين بنى عبد شمس وبنى هاشم قد حان ، وأنه فى طيش شبابه ورعونة فتوته وجبروت سلطته ، لن يدع الحسين يفلت سالمًا ، وليس ليزيد حلمُ أبيه معاوية ، ودهاءُ رأيه ونضجُ خبرته .

* * *

ترى هل لمحت « سكينة » من هودجها ، وهى تتلفت نحو أم القرى لتتزود منها بنظرة طويلة قبل الفراق ، هل لمحت بين الجموع التى احتشدت لوداع الركب « مصعَب بن الزبير » يرسل عينيه إثرَ الراحلين ، فى تجمُّلٍ واجم ؟

وهل استطاعت بأنوثتها الذكية اللماحة ، أن تدرك وراء تَجمُّلِه ما يطوى عليه جوانحه من سرٍّ لا يذاع ؟

وهل تراها لمحت بينهم كذلك « عمرَ بن أبى ربيعة » يُشيع راحلتها وقد بان عليه أثرُ الخيبة والغيظ ، وعزَّ عليه أن تمضى ربةُ الجمال والبهاء والأناقة ، ولم يُحَيِّ اسمَها تحيةَ إعجابٍ واكبار ؟

أغلب الظن أنها كانت فى شغل عن هذا كله بما يتوزع قلبَها وبالَها من شَجن الفراق لأم القرى ، ومن تلك الهموم الكبار التى استغرقت الركبَ كلّه إذ يَغُذُّ السيرَ عبر البيد والقفار ، إلى مصيره المحتوم ، المقدرِ عليه عند عالم الغيب . . .

* * *

ونطوى الأيام على عجل ، لنرى الركب وقد دنا من مشارف العراق ، وآن للراحلين المجهَدين أن يحطوا الرحال بعد تلك المرحلة الشاقة المجهدة .

لكن أحداً منهم لم يهش لقُرْبِ المناخ ...

وتثاقلت رواحلُهم وهى تقطع المرحلةَ الأخيرة الباقية ، وقد خرس الحادى منذ بلغ القومَ فى الطريق ـــ عند زَرُود ، على أميالٍ من القادسية ـــ نبأ مصرع

الشهيد « مسلم بن عقيل بن أبى طالب » ابنِ عم الإمام الحسين ، ورسوله إلى أهل الكوفة [1] .

وغشيتْهم غاشيةٌ من حُزن ثقيل مُمض ، حين لاحت لهم مشارفُ العراق من بعيد ، فذكرتهم بشهيدِ الأمس الذى لم يجف دمُه بعدُ ، وبشهيدٍ قبله ، ثوى هنالك منذ عشرين عاما ...

ورددوا مرثية الحسين فى عمه عقيل ، حين أتاه نبأ مصرعه الفاجع :

فإن تكن الدنيا تُعَدُّ نفيسةً — فإن ثوابَ الله أعلى وأنبلُ
وإن تكن الأبدانُ للموتِ أُنشئت — فقتلُ امرىءٍ بالسيفِ فى الله أفضلُ
وإن تكن الأرزاقُ قسماً مُقَدَّراً — فَقِلَّةُ حرصِ المرءِ فى السعْيِ أجمَلُ
وإن تكن الأموالُ للتّركِ جمعُها — فما بالُ متروكٍ ، به المرءُ يَبخلُ ؟[1]

وإذ هم فى طريقهم ، على ثلاثة أميال من القادسية ، لاح لهم غبار مُثَار ، ما لبث أن تكشف عن جيش جَرَّارٍ ، عرفُوا فيه جيش عبَيد الله بن زياد — وإلى الكوفة ليزيد — وعلى رأسه الحُرُّ بنُ يزيدَ التميمى [2]..

وعَدَلَ « الحسين » بصحبه عن طريق الجيش ، فاعترضه الحرُّ بن يزيد ، وما زال الحسين يسير بأهله وأصحابه يمينا ويساراً ، والحُرُّ يعترضهم مرة ويُخلى بينهم وبين الطريق أخرى ، حتى بلغ بهم كربلاء ، فتركهم ينيخون هناك ، فى اليوم الثانى من مستهل السنة الجديدة .

ورجع الحسينُ بصرَه فى الجيشِ الرابض تجاهَه ، فإذا الجندُ جميعاً من أهل العراق !

---

(١) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٥ .
وزرود : فى طريق الحاج من الكوفة ، انظرها فى (معجم البلدان لياقوت) .
(١) مقتل الحسين : ١٩٢ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٠ .

وكانت عدتهم ــ أولَ الأمر ــ ألف مقاتل ، والركبُ الحسينيُّ لا يتجاوز عدده بضعة وسبعين ، من آل البيت وأصحاب الحسين !...

* * *

وعرف « الحسين » مصيرَه ، قبل أن يقول له الحُرُّ بن يزيد وهو يسايره :

ــ إني لأشهدُ لئن قاتلتَ لتُقتلَنَّ ، ولئن قوتلتَ لَتهلِكَنَّ .

ردَّ الإمام الحسين :

ــ أفبالموتِ تُخوفني ؟ وهل يعدو بكم الخطبُ أن تقتلوني ؟ ما أدرى ما أقولُ لك ، ولكن أقول كما قال أخو الأوس لابن عمه وقد لقيه وهو يريد نصرة رسول الله ﷺ ، فسأله : أين تذهب فإنك مقتول ؟ فقال :

سأمضى وما بالموتِ عارٌ على الفتى إذا ما نوى حَقًّا وجاهد مُسلما[1]

وطاف بهم فى ليلتهم الأولى هناك ، طائفٌ منذرٌ بما يطوى الغدُ القريبُ .

وفى مُخيَّمِ النساء ، كانت هناك : السيدة زينب أخت الحسين ، وزوجُه الربابُ بنتُ امرىء القيس ، وبنتاه سكينة وفاطمة ، وبقيةُ العقائل الكريمات من آل هاشم !

وطال عليهن الليل وهن يتذاكرن ما كان ، ويتوقعن ما سيكون ..

وتركتهن السيدة زينب إلى خيمة أخيها ، حيث رأته هناك مُكِبّاً على سيفه يصلحه ، وهو يرتجز :

يا دهرُ أفٍّ لكَ من خليلِ كم لك بالإشراقِ والأصيلِ
من طالب وصاحب قتيلِ والدهرُ لا يقنع بالبديلِ
وكلُّ حَيٍّ سالكُ السبيلِ ما أقربَ الوعدَ من الرحيلِ
وإنما الأمرُ إلى الجليلِ[2]

(1) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٢٩ ومقتل الحسين : ١٧٨ .
(2) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٣٩ ومقاتل الطالبيين : ١١٣ ومقتل الحسين : ٢٣٩ .

صاحت العقيلة :

ـــ واثكلاه ... ينعى الحسين نفسه ! ليت الموتَ أعدمنى الحياةَ . ماتت أمى فاطمة ، وأبى على ، وأخى الحَسن ، ولم يبقَ غيرك يا خليفة الماضين وثمالَ الباقين ...

وفى روايةٍ أنها سمعتْه رضى الله عنه يقول لها : إنى رأيت رسول الله ﷺ فى المنام ، فقال لى : إنك تروح إلينا .

فصاحت : يا ويلتا ...

قال : ليس لك الويلُ يا أُخَيّة . اسكنى رَحِمَكِ الرحمنُ .

وبلغت صيحتُها ، فى سكون ذلك الليل الموحش ، مسامعَ النساء فى مخيمهن ، فهرعن إلى « الحسين » والكربُ يعصف بهن عصفاً ...

ونظر الحسين إليهن مليا ، ثم قال :

ـــ يا أختاه ، يا أمَّ كلثوم ، وأنتِ يا زينب ، وأنت ياسكينة وأنت يا فاطمة ، وأنت يا ربابُ ، إذا أنا قُتِلتُ فلا تشق إحداكن علىّ جَيْباً ، ولاتخمشْ وجها ، ولا تقل هجرا ...

وأطرقن جميعاً واجماتٍ ، وخيم على المكان سكونٌ ثقيل راكد ، ما لبث أن مزّقه نشيج مؤلم :

تلك كانت « سكينةُ » تبكى !

هذه التى أخذت نفسَها منذ كانت ، أن تؤنس أباها كلما ثُقل عليه الهمُّ ، وأن تبدد بسنا ابتسامتها المشرقة ، بعضَ ما يغشى الأفقَ حوله من ظلال ربداء ...

وأقبل عليها أبوها فى حنو ، وفى عينيه نظرةُ حزن وعتاب : كيف هان عليها أن توجع قَلبَه ببكائها ، وهى التى كان يجدها موضعَ أنسِه كلما ألَمَّ حادث أو اشتدَّ كَرْبٌ ؟

وسألها ملاطفا : أفلا يُهوِّنُ عليها الأمرَ أن أباها يبذل حياته دفاعا عن حق ودفعا لباطل ، وأنه ملاق غداً جدّه النبى ﷺ وأمه الزهراء ، وأباه الإمام ، وأخاه الحسن ، وعمَّه حمزة ، وابن عمه مسلمَ بن عقيل . . وأنها لا بد لاحقةٌ بهم فى غدٍ قريب أو بعيد ؟

لكنها لم تكف عن البكاء ، وكأنما كانت تبكى هموماً طالما طَوَتْها ، وتذرف دمعاً طال عليه الاحتباسُ .

ورنا إليها أبوها الحبيب طويلاً ، ثم قال فى شجاعة المستسلم لقضاء الله وقدرِه :

ـــ سيطول بُعدى عنك يا سكينة[1] ، فهلا ادخرتِ البكاء ، لِغَدٍ ، وما غدٌ ببعيد ؟ .

ثم أوصى أمها « الربابَ » أن ترعاها ، وقام يصلى ...

ولفَّ الكون كله صمتٌ خاشع ، لم يعد يُسمَعُ فيه سوى صوتِ « الحسين » فى تهجُّدِهِ ، يتلو قرآن الفجر الذى بدأ نوره الشاحبُ ينبثق من خلال الظلمة ، معلناً عن مولد يوم جديد ، هو الثالث من المحرم سنة ٦١ هـ .

وأصبحوا فإذا الأجناد قد تدفقت من الكوفة ، حتى بلغت عدتهم أربعة آلاف مُقاتل ، عليهم « عمرُ بن سعد بن أبى وقاص » ، لم يلبثوا أن زادوا حتى غدوا ـــ فى بعض الروايات ـــ عشرين ألفا ![2] .

ولم يبدأ قتال ، وإنما أحاطت الآلاف بالحسين وصحبِه ، معترضة سبيلهم إلى الماء !

وتتابعت الأحداث سراعا فى عنف شرس ، فما استكمل الأسبوع دورتَه ، إلا والساحةُ المشئومة قد امتلأت بجثث الشهداء من آل البيت ، غارقة فى بحار من دماء ...

---

(١) السيد توفيف الفكيكى : السيدة سكينة : ص ١٢٣ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٣٤ .

وأُمسِك هنا عن وصف المذبحة المروعة ، فما من كتاب عن تاريخ تلك الفترة لم يصفها ، وأنا بعدُ لا أجد لى طاقة على إعادة الحديث عنها ، بعد أن أطلتُ الوقوف عندها فى كتابى عن « عقيلة بنى هاشم : بطلة كربلاء » .

وإنما أمضى مسرعة لأقف إلى جانب سكينة وقد اقتحم العسكرُ فسطاطها وأُخرِجت لِترى هنالك أشلاءً مختلطة مبعثرة ، لأبيها الحسين الإمام ، وأعمامها عبد الله وجعفر وعثمان والعباس ومحمد وأبى بكر ، بنى على بن أبى طالب .

وأخيها الشقيق عبد الله بن الحسين .

وأخويها لأبيها ، على الأكبر وجعفر .

وأولاد عمها : أبى بكر وعبد الله والقاسم ، بنى الحسن بن على .

وابن عمتها زينب : « عون الأكبر بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب »[1] .

وأخيه لأبيه : محمد بن عبد الله بن جعفر .

وبنى العم عقيل بن أبى طالب : جعفر ، وعبد الرحمن ، وعبد الله .

هكذا ، مرة واحدة ، وفى يوم واحد ، هو التاسع من الشهر المحرم سنة ٦١ هـ [2] .

* * *

فى ذهولٍ وقفت « سكينة » تُطل على البقايا والأشلاء ...

حتى فرغ القوم من جَزّ الرؤس وجاءوا يسوقونها مع النساء إلى الكوفة .

هناك ألقت بنفسها على ما بقى من جسَد أبيها ـــ وفيه ثلاث وثلاثون

---

(١) فى الطبرى (٦ / ٢٧٠) أن عون بن عبد الله ، وأمه جمانه بنت المسيب ، كان من بين قتلى كربلاء ، وذلك هو عون الأصغر المقتول يوم الحرة ، انتظر مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ١٢٤ .

(٢) انظر اسماء من قتلوا من بنى هاشم مع الحسين عليه السلام ، وعدد من قتل فى كل قبيلة فى تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٩ .

وفى (مقاتل الطالبيين ٩١) .

طعنة ، وأربع وثلاثون ضربة ــ واعتنقتْه متشبثة به ، فخُيل إليها أنها تسمع صوتا يخرج من مَنْحَره الدامى : (١)

شيعتى ما إن شَرِبتُم عذبَ ماءٍ فاذكرونى
أو سمعتم بغريبٍ أو شهيدٍ فاندبونى

ولكنهم انتزعوها من جسد أبيها فى قسوة ، وألحقوها بركب السبايا ! وإنْ كانت إحداهن لَتُنازَعُ ثوبها عن ظهرها حتى تُغلَب عليه ، فيُذهَبَ به منها ! (٢)

وسيق الركب التعس ، نحو الكوفة .

وعند أطراف الساحة ، تمهل الركب برهة ريثما ألقت السبايا نظرةً أخيرة على البقايا .

وطِيف برأس الحسين فى أحياء الكوفة على مرأى من السبايا الثواكل ...

أين الأشياع والأنصار ؟

أين الألوف الأربعون الذين ألحوا فى دعوته ليجاهدوا معه فى سبيل الحق ، فجاءهم ملبياً ، وترك مأمنه إلى جوار البيت العتيق ؟

ألا فليملأوا أعينهم من رأس سيد الشهداء ، وليروا نساءه وبناته سبايا !

وليملأوا أسماعهم بصوت ابنته سكينة إذ تقف فى الركب التعس حاسرةَ الوجه ، مَهيضةَ الجناح تقول (٣) :

إن الحسين غداةَ الطفِّ يرشقُه رَيْبُ المَنونِ فما إن يخطىء الحدَقَهْ
بِكَفِّ شرِّ عبادِ الله كلِّهم نسلِ البغايا وجيشِ المُرَّقِ الفَسَقَهْ

وصوتِ أمِّها الأرملة الثكلى إذ تقول : (٤)

---

(١) السيد الفكيكى : ١٢٤ ، ومقتل الحسين : ٣٦٨ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٠ .

(٣) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة بنت الحسين : ١٢٥ .

(٤) السيد عبد الرازق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٩٤ .

إن الذى كان نورا يُستضاء به بكربلاءَ قتيلٌ غيرُ مدفونِ
سِبْطَ النبىِّ ، جزاك الله صالحةً عنا وجُنِّبْتَ خُسْرانَ الموازينِ
قد كنتَ لى جَبَلاً صعبا ألوذ به وكنتَ تصحبُنا بالرحْمِ والدِّينِ
مَن لليتامى ومَنْ للسائلين ومَن يُغنى ويؤْوِى إليه كلَّ مسكينِ

* * *

وسيقت العقائلُ الهاشميات إلى قصر الإمارة ، فى موكبٍ تعس لم تشهد الدنيا له مثيلاً من قبلُ ولا من بعد !

بنات النبى سبايا ، قد حُمِلْنَ على أقتابِ الجمال بغير وِطاء ، ممزقات الجيوبِ حواسرَ الوجوهِ حافياتِ الأقدام ، يتقدمُهن حملةُ الرءوس عَلى أسِنة الرماح !

رؤوس الحسين وثمانية وسبعين من إخوته وبنيه وبنى أخيه وأبناء عمومته وأصحابه !

« فى (تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٦٢) أن ابن زياد جلس للناس والوفد ، قد قدموا عليه فأدخلهم وأذن للناس ، فإذا رأس الحسين بين يديه . وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعةً . فلما رآه زيد بن أرقم ــ الأنصارى الخزرجى رضى الله عنه ــ قال له : أعْلُ بهذا القضيب عن هاتين الشفتين ، فوالذى لا إله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما » ثم أخذ الصحابى الشيخ يبكى . . فقال له ابن زياد : أبْكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقَك . فنهض زيد رضى الله عنه ، فخرج . » .

* * *

وتركت الجثثُ حيث هى على الساحة المشئومة ، مُلقاةً بالعراء ، تسفى

(١) تاريخ الطبرى :٦ / ٢٦١ ومقاتل الطالبيين : ٧٨ وما بعدها .

عليها الريحُ ، وتحوم عليها جوارحُ الطير وسباع الجوّ ، ويرعى فيها وحشُ الفلاة :

إبكِ حسيناً ليومِ مصرعِه بالطّفّ بين الكتائبِ الخُرْسِ
أضْحَت بناتُ النبيِّ إذ قُتِلوا فى مأتم ، والسباعُ فى عُرْس [1]

وسمعت سكينةُ أمّها الرباب تقول :[2]

وا حسينا ، فلا نَسِيتُ حسينا أقصَدتْه أسِنَّةُ الأعداء
غادروه بكربلاءَ صريعا لا سقى الله جانبى كربلاءِ !

ثم أمر « ابنُ زياد » بالموكبِ المثير ، فسِيقَ إلى دمشق ، كى تقر عينا « يزيد » بمشهده ومرآه .

وعُرِضَ الموكب على أهل دمشق ، قبل أن يساق إلى حضرة يزيد ، ليضع الرأس بين يديه ، ثم ينكث ثنايا الحسين بقضيبٍ كان فى يمينه وهو ينشد متمثلا :[3]

نُفَلِّقُ هَامًا من رجالٍ أعِزَّةٍ علينا وهم كانوا أعَقَّ وأظلَما

ثم يقول لمن حوله :

« إن هذا وإيانا لكما قال الحُصَينُ بنُ الحمام المُرِّى :[3]

أَبى قومُنا أن يُنصِفونا فأنصفَتْ قواضبُ فى أيمانِنا تقطرُ الدِّما

فى تاريخ الطبرى أن مروان بن الحكم سأل وفد أهل الكوفة عما صنعوا ، فقالوا : ورد علينا منهم كذا رجلا ، فأتينا والله على آخرهم وهذه الرؤوس والسبايا . فوثب مروان وانصرف . وأتاهم أخوه يحيى بن الحكم فسألهم عما

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة : ٢ / ٢١٢ .

(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ساسى ــ ومقتل الحسين : ٣٩٣ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٧٦ ــ ومقاتل الطالبيين : ١٢١ ــ وفى (نسب قريش : ١٢٨) أن الذى تمثل بهذا البيت ، عبيد الله بن زياد .

صنعوا فأعادوا عليه الكلام فقال : حُجِبتم عن محمد يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبدًا .[٤]

وكان ما مضى خبرُه ، فى كتاب « السيدة زينب : عقيلة بنى هاشم » .

ثم كانت نهاية المطاف فى مدينة جَدِّ الحسين ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم :

وكانت قد تلقت خبرا بقدوم « على بن الحسين ، زين العابدين » مع عماته وأخواته . حمله إليها رسولٌ من زين العابدين الذى نجا من المذبحة ، وما كان ابنجو لولا أن حَمَتْه عمتُه زينب العقيلة ، وكان فى حِضنها مريضا ...

وضجّت المدينة بالبكاء ، وهى تستقبل بقايا الركب الحسينى الذى ودَّعته ربوع الحجازُ منذ أقل من شهر ! !

وبرزت النساء ، كل النساء ، صارخاتٍ باكيات ، وخرجت عقيلات بنى هاشم من خدورهن حاسرات الوجوه ، يندبن فى لوعة : واحسيناه ، واحسيناه ...

وخرجت « زينب بنت عقيل بن أبى طالب » — أخت مسلم — على الناس ناشرةً شعرها وهى تبكى قائلة :[١]

ماذا تقولون إن قال النبىُّ لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخرُ الأُمـمِ
بِعِتْرتى وبـأهْلى بعـدَ مُفْتَقَـدى ... منهم أسَارَى ومنهم خُضِّبوا بدمِ
ما كان هذا جزائى إذ نصحتُ لكم ... أن تخلفونى بسوءٍ فى ذوى رَحِمى

فما سمعها أحدٌ إلا وبكى ...

ولم تبق دارٌ فى المدينة إلا وبها مأتم ...

ولبثت مناحةُ الشهداء هنالك قائمةً أياما وليالى ، حتى جفّت المآقى من طولِ ما سَكَبَتْ من دمعٍ ، وصَحلت الحُلُوقُ من طولِ ما أجهدها النواح ...

---

(٤) تاريخ الطبرى : ٦ / ٢٧٦ ، ومعه الكامل لابن الاثير : ٤ / ٣٧ .

(١) هذه رواية الطبرى للأبيات . وذكر أنها لامرأة من بنى عبد المطلب (٦ / ٢٢١) ورواها الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) وابن قتيبة فى (عيون الانباء : ٢ / ٢١٢) مع خلاف يسير فى الشطر الأول من البيت الثانى ، ومع ذكر اسم القائلة : زينب بنت عقيل .
وانظر « مقتل الحسين : ٤٠٧ » .

بعد العاصِفَة

وتضطرب الأخبارُ عن « سكينة » فترةً ، فيقال فى رواية إنها صحبت عمتها « السيدة زينبَ » فى خروجها إلى مصر ، حين أدرك « يزيدُ » خطرَ مقامها المدينة ، فأمر واليه بها أن يُفرِّق بينها وبين الناس حتى لا تكون فتنة[1] .

وإذا صحت هذه الرواية ، فلعل سكينة قد عادت إلى الحجاز بعد وفاة عمتها السيدة زينب ، فى شهر رجب من سنة ٦٢ هـ .

وفى المدينة ، أقامت أمها الرباب ، التى خُطِبت بعد فترة الحداد ، فأبت أن تستبدل بالحسين زوجاً وبرسولِ الله صِهراً ، وقالت : ما كنت لأتخذ حما بعد رسول الله ﷺ وأنشدت :

والله لا أبتغى صهرا بصهركم حتى أُغَيَّبَ بين الرملِ والطِّينِ[2]

ثم ما لبثت أن ماتت بعد عام واحد ، حزنًا عليه ، وعلى ولدها عبد الله [3] .

فذكرها أبو جعفر ابن حبيب النسابة ، فى (الوافيات لأزواجهن اللواتى لم يتزوجن بعدهم) قال : « والرباب بنت امرئ القيس بن عدى بن جابر بن كعب بن عليم . ولها يقول الحسين بن علي رضى الله عنهما .

لعمرك إننى لأحبُّ داراً تحل بها سكينةُ والرباب

---

(١) العبيدلى النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات : ١٨ ـــ وانظر معه الفصل الخاص بهذه الرحلة إلى مصر ، فى كتاب (السيدة زينب ، عقيلة بنى هاشم) .

(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ساسى .

(٣) تاريخ ابن الأثير : ٤ / ٧٣ .

قال : وكانت تحت الحسين رضى الله عنه ، فلما قتل خُطِبت فقالت : والله لا اتخذتُ حموا بعد رسول الله ﷺ » [1]

* * *

وأقامت « سكينة » بعدها فى كَنَفِ أخيها السّجّاد ، زينِ العابدين ، على بن الحسين ...

وهنالك فى المدينة ، عادت أنظارُ بنى هاشم فالتفتت إلى الشريفة الحسناء من جديد ، وقد ثقُل الحزن عليها ولما تزلْ فى مستهل الشباب وعِزِّ الصبا .

وأحاط بها قومُها يُلحون عليها فى الزواج ، إبقاء على سلالة الحسين النقية الطاهرة التى لم يبق منها — بعد مذبحة كربلاء — غيرها ، وغير أخيها على زين العابدين .

وكانت الأحداث العنيفة التى مرت بها ، قد غيرت من حولها ، فلم تعد تتشبث بالبقاء فى بيت أبيها بعد أن غاب عنه مَنْ كانت ترى حياتها لا تدور إلا فى فلكه .

ولعلها استجابت وقتئذ لرغبة آلها ، ورضيتْ بالزواج ، ولما يزل الجرح فى قلبها حَيًّا ينزف دما ...

وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياتها ، تكاد الحقيقةُ تغيب فيها وسط حشدٍ من متناقض الأخبار وشتى الروايات ...

وأما أختها « فاطمة » فاستقرت بها الحياة فى بيت زوجها الحسن المثنى ، ابن عمها الحسن رضى الله عنه . فلما حضرت زوجَها الوفاةُ قال لها :

« إنك يا فاطمة امرأة مرغوب فيكِ ، فكأنى بعبد الله بن عمرو بن عثمان إذا خرج بجنازتى قد جاء على فَرسٍ مرَجِّلًا جُمّتَه لابسًا حُلته ، يخطبك ، فانكحى من شئتِ سواه ، فإنى لا أدع من الدنيا ورائى هَمًّا غيرك » .

وصدق حَدْسه ... تزوجها عبدُ الله بن عمرو بعد تمنُّعٍ منها وإباء ، فوَلَدَت

---

(١) المحبَّر ، لأبى جعفر ابن حبيب : ٣٩٦ .

له محمدًا ، الديباجَ ، والقاسمَ ، ورقيةَ : بنى عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكانت ولدت للحسن ابنَه عبد الله الذى كان يقول : « ما أبغضت أحداً بغضى عبدَ الله بن عمرو بن عثمان ، وما أحببتُ حبَّ ابنِه محمدٍ الديباجِ » [1] .

....

* * *

(١) نسب قريش : ٥١ .

الفصل الثانى

فى بيت الزوجية

— مثلٌ من مَروياتِهم

— مع عبَد الله بن الحسن

— مع مُصعَب بن الزبير

— مع ابراهيم بن عبد الرحمن

— مع الأصبَغ المروانى

— مع عَبد الله بن عثمان الحِزامىّ

— مع زَيْد بن عَمرو العثمانى

مثـلٌ من مَرويَّـاتِهم

حين نعرض لِسَيْرِ الحياة بسكينة فى هذه المرحلة ، نضع أمامنا ذلك الحشدَ من أخبارِ زيجاتها التى بلغت فى بعض الروايات ستَّ مراتٍ ، وتضاءلت في روايات أخرى فلم تتجاوز الواحدة أو الاثنتين ! مع اختلاف فى الأسماء والأزواج وترتيب زواجها بهم ، وخَلْطٍ بين من تم زواجها بهم ، ومن خطبها ولم تتزوجه .

من القرن الثالث للهجرة ، جاءتنا ثلاث قوائم لعلماء الأنساب :(1)

الأولى ــ فى (نسب قريش ، للمصعب الزبيرى) ــ ٢٣٣ هـ :

« كانت سكينة عند (مصعب بن الزبير) ثم خلف عليها عبدُ الله بن عثمان ابن عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد ، فولدت له حكيما وعثمان ــ المعروف بقرين ــ وربيحةَ التى تزوجها العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . ثم خلف على سكينة زيدُ بن عمرو بن عثمان بن عفان . ثم خلف عليها ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فلم يتم نكاحه ... ثم خلف عليها الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان بن الحكم فحُمِلَتْ إليه بمصر فوجدتْه قد مات » .

العدد عنده خمسة أشخاص ، منهم ثلاثة تم زواجها بهم .

وقريب منها قائمة ابن سعد ــ ٢٣٠ هـ ــ فى (الطبقات) .

---

(١) نسب قريش : ٥٩ وطبقات ابن سعد ٨ / ٤٧٥ وجاء فى « جمهرة أنساب العرب : ان زوجها زيدا العثمانى ، هو بن عمر ابن عثمان ، لا عمرو (٧٩) وجاء مرة بهذا الاسم : زيد بن عمر فى نسب قريش ١٢٠ ولعل سبب الاختلاف ان لعثمان بن عفان ولدين هما عمر وعمرو .. انظر نسب قريش (١٠٤) والجمهرة (٧٥) .

القائمة الثالثة ـــ للنسابة أبى جعفر محمد بن حبيب البغدادى ـــ ٢٤٥ هـ :

ذكرها فى (من تزوج ثلاثة أزواج فصاعداً من النساء) قال : « . . . وتزوجت سكينة بنت الحسين بن على بن أبى طالب : (عبد الله بن الحسن بن على) وكان أبا عذرها . فخلف عليها (مصعب بن الزبير) فولدت له فاطمة . ماتت وهى صغيرة . فقُتِيل مصعب عنها ، فخطبها (عبد الملك ابن مروان) فأبَتْه ، فتزوجها (عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد) ثم (الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان) فلم يصل إليها ، فارقها قبل ذلك . ثم (زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان) ثم (ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف) فلم يدخل بها ، ولم ترضه . وخُيِّرت فاختارت نفسها »(١) .

قائمة ابن حبيب هذه ، فيها أربعة أزواج للسيدة سكينة : وثلاثة خطبوها ولم يتم الزواج أو لم ترضهم .

الأربعة هم : عبد الله ابن عمها الحسن بن على الطالبى .
ومصعب بن الزبير الأسدى ، وعبد الله بن عثمان بن عبد الله المخزومى ، وزيد ابن عمرو بن عثمان بن عفان الأموى .

* * *

بعدها ، من القرن الرابع ، جاءتنا خمس قوائم ، أو ستّ لأبى الفرج الأصبهانى ـــ ٣٥٦هـ :(٢) .

١ ـــ مصعب بن الزبير ، ثم الأصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم بن عبد الرحمن .

٢ ـــ الأصبغ ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب بن الزبير ثم ابراهيم بن عبد الرحمن .

---

(١) ابن حبيب (المحبر : ٤٣٨) .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٨ ـــ ١٦٢ ساسى .

٣ ـــ عمر بن الحسن ، ثم زيد العثمانى ، ثم مصعب ، ثم الأصبغ المروانى ، ثم عبد الله بن عثمان .

٤ ـــ عمر بن حكيم بن حزام ، ثم زيد بن عمرو بن عثمان ، ثم مصعب ، ثم ابراهيم .

٥ ـــ عبد الله بن الحسن ، ثم مصعب ، ثم الأصبغ المروانى ، ثم زيد العثمانى ، ثم ابراهيم .

وفى هذه القوائم أضيف اسمان جديدان إلى الأسماء التى وردت فى الروايات السابقة ، وهما : عمر بن الحسن ، وعمر بن حكيم بن حزام !

وتضيف رواية سادسة ، أن عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب فرفضته أمها وقالت : لا والله لا تتزوجْه أبدا وقد قَتَلَ مصعبا ، ابنَ أخى[1] .

* * *

من القرن السابع ، جاءتنا قائمة المؤرخ « ابن خلكان ـــ ٦٨١ هـ » :

« تزوجها مصعب بن الزبير فهلك عنها . ثم تزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم الأصبغ المروانى ، وفارقها قبل الدخول بها . ثم زيد بن عمر بن عثمان بن عفان وأمره سليمان بن عبد الملك بطلاقها . وقيل فى ترتيب أزواجها غير ذلك » .[2]

فهؤلاء أربعة ، تزوجت ثلاثة منهم .

واقتصر الذهبى ـــ ٧٤٨ هـ ـــ على مصعب بن الزبير » .[3]

ومن القرن الحادى عشر ، جاءتنا قائمة « ابن العماد الحنبلى ـــ ١٠٨٩هـ :

« مصعب بن الزبير ، ثم عبد الله بن عثمان الحزامى ، ثم زيد بن عمرو ابن عثمان بن عفان ، فأمره سليمان بطلاقها .» [4]

فهؤلاء ثلاثة

* * *

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

(٢) وفيات الأعيان : ١ / ٢٩٨ .

(٣) العبر ، وفيات سنة ١١٧ هـ .

(٤) شذرات الذهب ١ / ١٥٤ وفيات سنة ١١٧ هـ .

فى العصر الحديث ، قائمة لمؤرخى الشيعة :

نقل السيد توفيق الفكيكى عن السيد عبد الرزاق الموسوى ، فى كتاب له عن السيدة سكينة ، ما نصه : « وهناك من المؤرخين من يحكى تزويج السيدة سكينة من ابن عمها عبد الله الأكبر ــ ابن الإمام الحسن ــ المقتول فى الطف مبارزة . وأما غيره من الأزواج ففى ذمة التاريخ » .

عقب عليه السيد الفكيكى بتوله :

« وهناك من الأدلة التاريخية المجمع على صحتها ، ما يؤيد أن السيدة سكينة تزوجت بعد ابن عمها عبد الله بن الحسن بن علىّ بمصعب بن الزبير . زوجه إياها أخوها الإمام علىّ بن الحسين ، السجاد »[1] .

فهؤلاء اثنان فقط ، لا ثالث لهما .

* * *

وجاءت (دائرة المعارف الإسلاميه) بقائمتها وهذا نصها :

« فأول أزواجها مصعب بن الزبير ، وقد أنجبا من هذا الزواج ابنة تزوجت من أخى مصعب !

ثم تزوجت عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب بن الزبير ، ثم الزبير (؟) ابن عمرو بن عثمان بن عفان .

ثم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، ولم يدخل بها . ثم ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف . وعمرو بن الحاكم (!) بن حزام » .

وفى هذه القائمة عجائب وغرائب من الأغلاط والأوهام :

فابنتها من مصعب ، تزوجت من أخى مصعب ، وهو عمها ! !

وعبد الله بن عثمان ، هو ابن أخى مصعب بن الزبير كما تقول الدائرة ، وليس لمصعب أخ يدعى « عثمان » فى أى مرجع من مراجعنا ، وقد أورد

(١) الفكيكى : السيدة سكينة بنت الحسين : ١١٢ وانظر معه : (مقتل الحسين : ٣٦٨) .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية : مادة (سكينة بنت الحسين) .

الزبيرى ـــ حفيد الزبير ـــ أسماءَ ولَدِ الزبير بن العوام ، ولا عثمانَ فيهم ![1]

وزوجُها الثالث فى الدائرة : الزبير بن عمرو بن عثمان . وليس لعمَرو ولَدٌ يدعَى الزبير ، فى (جمهرة أنساب العرب) ولا فى (نسب قريش) .

وآخر أزواجها فى الدائرة : عمرو بن الحاكم بن حزام ، وليس لِحِزامٍ وَلَدٌ يُدعَى الحاكمَ . وإنما هو حكيم ، وليس لحكيمٍ وَلَدٌ يدعى عمرا فى أنساب العرب أو نسب قريش[2] .

وأما عبد الله بن الحسن ، فصرحت الدائرة بأنها تستبعد زواجه من سكينة ، دون أن تبين لنا سبب هذا الاستبعاد ...

* * *

وتقارن بين هذه المرويات فترى :

أن زوجها الأول : هو ابن عمها عبد الله بن الحسن ، فى المحبر ، وفى إحدى روايات الأغانى[3] . واقتصرت عليه بعضُ المصادر الشيعية الحديثة[4] .

ولم يذكره المصعب الزبيرى ، وابن خلكان ، وابن العماد ، وعدد من قوائم الاصبهانى . وانكرته دائرة المعارف دون تعليل لهذا الإنكار .

أو هو عمر بن الحسن ، فى رواية بالأغانى أيضا .

أو هو مصعب ، فى رواية المصعب الزبيرى وابن سعد وابن خلكان والذهبى ـــ وعليه اقتصر ـــ وابن العماد ، وإحدى روايات الأغانى ، ودائرة المعارف .

أو هو الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان فى رواية بالأغانى !

(١ـــ٢) نسب قريش : ٢٣١ ، ٢٣٦ ، والجمهرة ١١٢ .

(٣) حـ « ١٤ ص ١٦٠ ساسى » .

(٤) توفيق الفكيكى : السيدة سكينة ٧٥ ، ١١٢ ـــ والسيد عبد الرزاق الموسوى : مقتل الحسين : ٣٦٨ .

ويختلف موضع الزوج بين الأزواج ، فيكون الأصبغ أولهم فى رواية ، وثانيهم أو ثالثهم أو رابعهم فى روايات أخرى ..

وتختلط الأسماء اختلاطا عجيباً ، بل شاذا ، حتى لَيُشطَر الاسمُ الواحد شطرين ، يؤتى بكلّ شطرٍ منهما على حدة ، فيكون منهما زوجان للسيدة سكينة !

فعبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، شُطِرَ شطرين ، فكان منه زوجان :

عبد الله بن عثمان ، وعمرو بن حكيم بن حزام ، أو كما تُرجِمَ فى (دائرة المعارف) : عمرو بن الحاكم !

* * *

ولا سبيل هنا — أمام ما نرى من تناقض وشذوذ — إلى تتبع حياتها الزوجية تتبعا دقيقا يعتمد على اليقين التاريخى ، هذا اليقين الذى يعز علينا فى نقول الأخباريين بوجه عام ، وهو هنا فى زوجية السيدة سكينة ، أبعد من أن يُدرك أو ينال . لا نكاد نحاول ما نبغى من تتبع حتى يلقانا عنَتٌ من اضطراب الروايات وتناقض الأخبار وتعدد الأقوال واشتباك السبُل ، إلى حدٍّ يتعذر علينا معه أن نستبين وجه الحق فى هذا الحشدِ المختلط المشتبك ، فلا سبيل إلى أن نطمع فى أكثر من الترجيح الذى يعتمد على الطمأنينة النفسية ، أكثر مما يعتمد على مرجحات منهجية وقرائن غالبة .

لقد كان أمر هذا التناقض فى الروايات والأخبار يهون ويسهل ، لو أنه توزع بين مراجع شتى مختلفة ، ينفرد كل منها بإحدى الروايات فيكون سبيلنا إلى الترجيح أن نختار أدعاها إلى الثقة ، على القواعد المقررة فى قواعد المنهج النقلى للترجيح والنقد والمقابلة ، والتعديل والتجريح .

ولكنا هنا أمام روايات متناقضة تجتمع فى المرجع الواحد ، دون محاولة من ناقلها للفصل بينها أو الوقوف عندها ..

ففى صفحة واحدة من الأغانى مثلا ، تقرأ أربع روايات متناقضة متضاربة ، سردها أبو الفرج متتابعة ، ثم لا شيء أكثر من هذا السرد .

وإذا بلغ الخلاف فى الموضع الواحد أن يكون الأصبغ المروانى أول أزواجها فى رواية ، ورابعهم فى أخرى ، ثم لا يُشار إلى هذا الخلاف بكلمة واحدة ،

وإذا بلغ الشذوذ فيما يُروَى عن حياتها الزوجية ، أن تلد لمصعب بنتا تتزوج من عمها أخى مصعب ! (كما فى الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية) وأن يقال إن الرباب بنت امرىء القيس ، التى أهلكها الحزن على زوجها الحسين فماتت بعده بعام واحد ، قد بُعِثت من قبرها لتشهد مصرع مصعب بعد سنة ٧٠ هـ وترفض زواجَ بنتها سكينة من قاتله ! (كما فى الأغانى) ،

وأن تزوجها (دائرة المعارف) عبد الله بن عثمان ، ابن أخى مصعب ، وعمرو بن الحاكم بن حزام ، ولا خبر فى نسب قريش وأنساب العرب عن وجودِ أخٍ لمصعبٍ اسمه عثمان ، أو حفيد لحزام اسمه عمرو بن الحاكم ،

أقول : إذا بلغ الأمرُ هذا المبلغَ من التناقض والاضطراب والشذوذ ، فمن العبث أن نطمع فى قرائن منهجية مرجحة ، وبخاصة إذا قدرنا أن هذه الكتب ــ وحالُها كما رأيت ــ هى مصدرُ مادتنا عن السيدة سكينة ، ومرجعُنا فيما نورد من أخبارها .

حين تعوزنا مرجحات منهجية ، لا يبقى لدينا إلا أن نلوذ فى قبول ما نقبل من هذه المرويات ، ورفض ما نرفض منها ، بما نطمئن إليه على هدى ما نعرف من سنن الفطرة ، وما نفحص من شتى الأخبار ونقابل بينها ، وما نفهم من إيحاء البيئة وطبيعة الشخصية ومقتضيات الموقف !

* * *

مع عبد الله بن الحَسن

ونبدأ بعبد الله بن الحسن بن على .

ذاك الذى اقتصرت عليه بعض المصادر الشيعية الحديثة ، ولم يذكره ابن خلكان ، وذكره أبو الفرج مرةً باسم عبدِ الله ومرةً باسم عمر ، وقالت دائرة المعارف الإسلامية : « أما ما ذكره صاحب الأغانى من زواج سكينة بابن عمها عبد الله بن الحسن بن على ، فقول يصح لنا إنكاره » .

لماذا صمتت الدائرة فلم تذكر كلمة عما دعاها إلى الإنكار ؟ .. وليس الإنكار أمرا سهلا ، ولا هو مما يجوز أن يُرسل بغير دليل .

إنه فى حساب المنهج كالإثبات ، يقتضى كلاهما أن تأتى بدليل أو قرينة ...

وذلك بخلاف التوقف ، فهو وحده الذى لا يلزمك بالدليل ، وإنما يكفى فيه ألا تطمئن فى الخبر إلى إثبات أو إنكار .

ولسنا نملك هنا أى دليل ، يؤيد مسلك (الدائرة) فى استبعاد القول بزواج سكينة من ابن عمها « عبد الله بن الحسن » فصَمْتُ بعضِها لمراجع التاريخية عن ذكره ، لا يمكن أن يرقى إلى مرتبة القرائن — فضلًا عن الأدلة — بعد الذى أشرنا إليه من تناقضها واضطرابها .

فليس ثمت ما يمنع من أن يكون « عبد الله بن الحسن » خطبها أو تزوجها كما ذكرت المصادر الشيعية .

ولكنا نعلم أن عبد الله قد قُتل بالطف مع أخيه القاسم ، ذكر ذلك

الأصفهانى فى (مقاتل الطالبيين) والطبرى الذى أورد اسم عبد الله والقاسم ابنى الحسن ، بين من استشهدوا مع الإمام الحسين فى كربلاء ، وذكره كذلك الزبيرى فى نسب قريش ، وابن حزم فى الجمهرة ، والسيد عبد الرزاق الموسوى فى (مقتل الحسين : ٣٢٨) .

ونطمئن إلى أن السيدة سكينة قد قتل أبوها ولما تتزوج . . .

ولو قد تزوجت فى حياته ، لما فات ذلك ـــ فيما نرجح ، والله أعلم ـــ من أرخوا للإمام الحسين ، كما لم يفتهم خبر خطبة الحسن المثنى لإحدى ابنتى عمه ، واختيار الحسين ابنته فاطمة زوجة له .

ولما فات الذين تتبعوا أنساب قريش .

فلعله إذن خطبها إلى أبيها ، ولم يتم الزواج . كما ذكر « الطبرسى » فى (إعلام الورى) .

ويرجح عندنا عدم إتمام الزواج ، ما ذكره السيد عبد الرزاق الموسوى فى (مقتل الحسين) من أن عبد الله بن الحسن كان غلاما ، يوم مقتله بالطف .

ولا نملك مانضيفه إلى هذا ، وليس فى أى مرجع مما بين أيدينا ، ما يشير إلى هذا الزواج بأكثر من الخبر المقتضب الذى أوردناه ، ليس فيه أكثر من أنه تزوجها وقُتل عنها بالطف ولم تلد له(١) .

وأغلب الظن أن السيدة سكينة نفسها لم تشغل بهذه الخطبة الأولى ـــ لو صح الخبر عنها ـــ بل كان بالها مشغولا بهذا الأب الحبيب فى معركته العنيفة ، وأن الأحداث قد جذبتها إلى دوامة الإعصار ، وشغلتها عن خاطب وبيت ، كما فعلت بعمتها السيدة زينب العقيلة ، والتى عاشت فى صميم المعركة ، حتى كدنا ننسى أنها زوجة وأم .

وقد ألهت الفجيعة الكبرى فى الإمام الحسين ، أخته السيدة « زينب » عن

---

(١) عن « الأغانى » والسيد عبد الرزاق الموسوى . والطبرسى .
راجع قوائم الازواج التى أوردناها فى مستهل الفصل .

ولد لها استُشهِد مع عمه فلم تذكره فيما تعلم ، وكذلك ألهت الربابَ ــ أم سكينة ــ عن ولدها عبد الله ، فلم يصل إلينا أى خبر عن حزنها عليه ، وإنما الذى وصل إلينا أنها رثت زوجها الإمام ، وعاشت تبكيه حتى ماتت حزنا عليه ، بعد سنة واحدة من كربلاء[1] .

فلا غرابة إذن فى أن تكون خطبة عبد الله لسكينة ، قد مرت بها عابرة كأن لم تكن ، لا فى حسابها هى ، ولا فى حساب الذين كتبوا تاريخ تلك الفترة ، وهزتهم أحداثها الكبار ، فما عادوا يذكرون إلا المأساة المروعة التى خضبت صفحة من التاريخ الإسلامى ، بمصارع الشهداء من آل البيت .

وما كان من السهل أن تفرغ بنت الحسين لمشاغل الزواج ، فى تلك الفترة التى تلاحقت فيها الأحداث الجسام ، متدافعة فى سرعة عنيفة تبهر الأنفاس ، نحو ذروتها الفاجعة .

ولا كان من المقبول أن تسكن إلى زوج ، وتدع أباها فى همه الأكبر ، وهو الذى ما كان يأنس إلا بها ، ولا يستريح إلا إليها ...

* * *

(١) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٧٣ .

مَع مُصعَب بن الزبَير

وإنما تبدأ حياتها الزوجية الحقة ، بمصعب بن الزبير .

والأرجح عندنا أنه كان أول من تزوجته بعد مقتل أبيها الامام .

وهو أول أزواجها عند ابن سعد (٨ / ٤٧٥) وعند المصعب بن عبد الله الزبيرى فى نسب قريش (٥٩) وابن خلكان فى وفيات الأعيان (١ / ٢٩٨) .

وكذلك هو أولهم فى إحدى روايات الأغانى (١٤/ ١٦٢) وفى شذرات الذهب (١ / ١٥٤) .

وسواء أكان أول من تزوجها على ما ذكر هؤلاء ، أم كان قد تزوجها بعد أن قُتل خاطبها الأول عبد الله ، ابن عمها الحسن — على ما تقول الرواية الأخرى — فالذى لا يكاد يُختلف فيه ، هو ان مصعبا يأخذ المكان الأول فى حياتها الزوجية الطويلة ، بحيث لم يعتد الحافظ الذهبى بغيره زوجا للسيدة سكينة .

ومعه بدأت تحس نوعا من الاستقرار ، وتحاول أن تتناسى ما مر بها من مِحَنٍ وكروب ، ولما تزل فتاة فى عنفوان الصبا وعز الربيع .

أمنيـــة قديمـــة :

وقد أشرتُ من قبل ، إلى أن الزواج من سكينة كان أمنية قديمة لمصعب ، تعلقت بها رغبتُه أيامَ ظهرت فى المجتمع المكى لأول مرة ، عندما صحبت أباها رضى الله عنه فى رحلته إلى أم القرى ، إثر ولاية يزيد بن معاويه ، وإلحاحه على واليه بالمدينة أن يأخذ له البيعة من الحسين قسرا .

ويبدو أن مصعبا صارح برغبته هذه بعض أصفيائه ، بعد أن خرجت سكينة من مكة مع من خرج من آل الحسين ، فى رحلة الموت ، تلك التى انتهت بمذبحة كربلاء ...

ففى كتاب (عيون الأخبار) أن أربعة من رجالات قريش ، هم : « عبد الله بن عمر ، وعروة بن الزبير ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الملك بن مروان ، اجتمعوا بفناء الكعبة ، فقال لهم مصعب : « تَمَنّوا » . فقالوا : « ابدأ أنت » . فقال : « ولاية العراق ، وتزوج سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله » وتمنى عروة بن الزبير الفقه ، وأن يُحمَلَ عنه الحديثُ ، وتمنى عبدُ الملك الخلافة ، وتمنى عبدُ الله بن عمر الجنةَ »[1] .

فلما حالت الظروف أولَ الأمر دون زواجه من « سكينة » تزوج من تلك الأخرى التى تمناها : عائشة بنت طلحة ، غادة قريش الجميلة التى خلد اسمَها شعراءُ الحجاز : عمر بن أبى ربيعة ، والحارث بن خالد المخزومى ، وابن قيس الرقيات[2] ؛ فى قصائد رجّعتها معازف المغنين وأصوات المغنيات . كما تعلقت بها آمالُ عدد من أعزِّ الفتيان القرشيين ، فما يمضى عنها زوجٌ إلا سارع الخُطّابُ متلهفين إلى تلك التى شاعت فيها كلمة « أبى هريرة » رضى الله عنه حين رآها لأول مرة : سبحان الله !.. كأنها من الحور العِينِ[3] .

و« عائشة » كانت تجمع إلى جمالها عزةَ النسب : فأبوها طلحة بن عبيد الله التيمى ، الصاحب الجليل أحد العشرة رضى الله عنهم ، وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق ، وخالتها عائشة أم المؤمنين .

تزوجها قبل « مصعب » ابنُ خالها « عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق »[4] وكانت خالتها السيدة عائشة هى التى سعت فى هذا الزواج ، فلقى عبدُ الله الأمرين من دلالها ومصارمتها وشراستها ــ وكان يقال فى نساء

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٢ / ٢٥٨ دار الكتب المصرية .
(٢) اقرأ أشعارهم فى (الاغانى جـ ١١ دار الكتب) .
(٣) الاغانى : ١١ / ١٨٩ دار الكتب ، وانظر فيه كلمة أخرى لأبى هريرة ، ص ١٩٢ ، ١٨٠ .
(٤) انظر أصهار « طلحة بن عبيد الله » فى (المحبر : ٦٦)

بنى تيم : هن أشرس خلق الله وأحظاهن عند أزواجهن ــ وكانت أختها « أم إسحق بنت طلحة » عند الحسين بن على ، فسُمِعَ مرةً يقول : « والله لربما حَمَلَتْ ووضعتْ وهى مصارمة لى لا تكلمنى ... » .

وزاد « عائشَةَ بنتَ طلحة » زهوُ الجمال شراسةً على شراسة ، حتى مكثتْ مصارمة زوجها الأول ــ عبد الله بن عبد الرحمن ــ غضبى عند خالتها السيدة عائشة ، فقيل له : طلقْها . فردَّ منشدا :(1)

يقولون : طَلِّقْها لأصبحَ ثاوياً   مقيما على الهَمِّ ، أحلام نائم !
وإن فراقى أهلَ بيتِ أُحِبُّهم   لهم زلفةٌ عندى لإحدَى العظائم

ولبث يكابد منها ما يكابد ، فى صبر واحتمال ، حتى مات عنها فما فتحت فاها عليه !..

مات ، وترك لها أربعة بنين : عمران ــ وبه كانت تكنى ــ وعبد الرحمن ، وأبا بكر ، وطلحة ، وبنتا واحدة هى نفيسة تزوجها الوليد بن عبد الملك (2) .

ومع ذلك العبء الثقيل من الأبناء ، وما ذاع فى المجتمع القرشى من أخبار ما لقى زوجها الراحل من شدتها ومصارمتها ، هفت قلوبٌ إلى الزواج منها .

وكان « مصعب » أحد هؤلاء ...

ويقال إنه أحب أول الأمر أن يستطلع حالها بعد أن أثقلتها الأيامُ بأعباء الحَمْلِ والولادة خمسَ مرات ، فبعث « عزةَ الميلاء » ــ المغنية المشهورة ــ لتأتيه بوصفها ، وكانت « عزة » خبيرة بشئون النساء . فمضت حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة :

---

(1) كذا فى الاغانى (11 / 181 دار الكتب) والذى فى (نسب قريش ص 277) أن هذه الابيات لعبد الله ، فى زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل .

(2) كذا فى(جمهرة أنساب العرب : 128) ومثله فى (الأغانى 11 ، 180 دار الكتب) وقال فى نسب قريش) بعد ذكر ولد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر : وأمه عائشة بنت طلحة .(ص 278) ولعله خطأ مطبعى صوابه : وأمهم عائشة بنت طلحة ، كما فى الجمهرة والأغانى .

ـــ فديتُكِ ، كنا فى مأدبة لقريش ، فتذكروا جمالَ النساء وَخَلْقَهن ، فذكروكِ فلم أدر كيف أصِفُك . فديتُكِ ، فَأَلْقِى ثيابَك .

ففعلت عائشة ...

وتأملتها عَزَّةُ مَلِيّاً ثم قالت : خُذى ثوبك فَدَيتُكِ !

وهمت بالانصراف ، لكن « عائشة » أمسكتها وقالت : قد قضيتُ حاجتَك ، وبقيتْ حاجتى .

سألتها عزة : وما هى ، بنفسى أنتِ ؟

أجابت : تغنينى صوتا .

فانطلقتْ « عزةُ الميلاء » تغنى لحنَها فى شعر جميل بثينة :

خَليلىَّ عُوجَا بالمحلةِ من جُمْلِ وأترابِها ، بينَ الأُصَيْفَرِ والخَبْلِ
نَقِفْ بمغانٍ قد مَحَا رسمَها البِلَى تعاقبت الأيامُ بالريحِ والوَبْلِ
فلو دَرَج النَّمْلُ الصغارُ بِجلدِها لأندَبَ أعلى جِلْدِها مَدْرَجُ النمْلِ

فقامت « عائشةُ » فقبّلتْ ما بين عينيها ، ودعتْ لها بعشرةِ أثوابٍ وبطرائفَ من الفضة ...

وعادت عزة تقول لمصعب :

« لا واللّهِ ما رأيتُ مثلَها مقبلةً ومدبرةً ... نقية الثغرِ وصفحةِ الوجه ، فرعاء الشعرِ لَفاء الجسم ممتلئة الصدر خميصة البطن ... وفيها عيبان : أما أحدُهما فيواريه الخمار وأما الآخر فُيواريه الخُفُّ : عظمُ الأذُنِ والقَدَمِ »(١)

وتزوجها مصعب ...

وأمهرها خمسمائة ألف درهم ، وأهدى لها مثلَ ذلك (٢) .

---

(١) الاغانى : ١١ / ١٧٧ دار الكتب .

(٢) الاغانى : ومثله فى (عيون الاخبار : ٢ / ٢٥٨) .

وكان ابنُ قيس الرقيات قد قال فى « عائشة » :

إن الخليطَ قد أزمعوا تركى فوقفتُ فى عَرَصَاتِكم أبكى
عجَباً لمِثلِكِ لا يكون له خَرْجُ العراقِ ، ومنبرُ المُلْكِ

وغنّاه « مَعْبَد »[1] .

فكان لعائشة خرْجُ العراقِ بالزواج من أميرِه مصعب بن الزبير .

وأما منبر الملك فادخره القدَرُ لا بنتِها من زوجها الأول : نفيسة بنت عبد الله حفيد الصديق ، تزوجها — لما شَبّتْ — الوليدُ بنُ عبد الملك أمير المؤمنين[2] .

* * *

وكذلك تحققت لمصعب أمنيتان من أمانيه الثلاث : ولاية العراق ، وتزوج عائشة بنت طلحة .

وبقيت الأمنية الثالثة : أن يتزوج من سكينة بنت الحسين ، فيجمع بين أجمل غادتين فى زمانه ! ..

وقد شغلته الشواغل الجسام التى أُلقيت على كواهل آلِ الزبير بعد استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء ، إذ اعتصم كبيرُهم « عبد الله » بالبيت الحرام ودعا إلى نفسه بالحجاز . وتأهب « يزيد » لقتاله بعد فترة من مصرع الإمام الحسين وأهله ، وسير إليه فعلاً جندَ الشام بقيادة « مسلم بن عُقْبة » فبدأ بالمدينة وقتل أهلَها مقتلة عظيمة فسُمّى ذلك اليومُ يومَ الحرة ،[3] وأنهبها جندَه ثلاثةَ أيام . ثم شخص بمن معه متوجها نحو مكة فأدركتْه منيتُه فى ثنية هرشى ، وسار الجيش من بعده فحاصر ابن الزبير .

لكن الموت لم يُمهل « يزيدَ » حتى يفرغ من ابن الزبير ، فقد جاء نعيُه

(١) الاغانى : ١١ / ١٧٥ دار الكتب .
(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٢٨ .
(٣) تاريخ الطبرى : ومقاتل الطالبيين : وما بعدها ، ونسب قريش : ١٢٧ .

من دمشق مستهلَّ شهر ربيع الآخر من تلك السنة ، واستخلف من بعده ابنه « معاوية الثانى » وعمره يومئذ أقل من ثلاثة عشر عاما . وأُمُّه بنتُ هاشم ابن عتبة بن ربيعة ، أخى هند أم معاوية .

وأحس الغلام أنه أضعف من أن يحتمل العبء الجليل ، فما كاد يلى الخلافة حتى أمر فنودى بالشام : الصلاة جامعة . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ، فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه . فابتغيتُ لكم رجلاً مثلَ عمر بن الخطاب — رحمة الله عليه — حين فزع إليه أبو بكر ، فلم أجده . فابتغيتُ لكم سِتةً فى الشورى مثلَ ستة « عُمَر » فلم أجدْها ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له مَنْ أحببتم ...

« ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتغيّب حتى مات بعد أربعين يوما ، فقال بعضُ الناس : دُسَّ إليه فسُقِىَ سُمًّا ، وقال بعضُهم : طُعِنَ »[1] .

وتولاها مروانُ بن الحكم . فلم يلبث أن مات فى مستهل شهر رمضان من العام نفسه[2] .

وخلفه ابنُه « عبد الملك » بعد أن استفحل أمرُ عبد الله بن الزبير بمكة ، وأفلت زمامُ العراقِ من بنى أمية .

وكاد يُفلت كذلك من أيدى الزبيريين بوثوب « المختار » بالكوفة واستفحال خطره ، ومحاولته انتزاعَ العراق لنفسه ، بدعوى الثأر للحسين !

وهكذا أَلْقى « مصعب » نفسَه فى صميم المعركة ...

لكنه ظل مع ذلك يتلفت نحو الحجاز حينا ، ويُشغل بمشاغبات زوجته الحسناء « عائشة بنت طلحة » حينا آخر ، لعله ينسى أمنيته الثالثة التى لم تتحقق . . .

* * *

(١ ، ٢) تاريخ الطبرى : ٧ / ٣٤ .

ولا أدرى كيف رضى « مصعب » أن تُذاع فى الناس أخبارُ حياته الخاصة مع عائشة — إن صحت هذه الأخبار — وأن يَدع الشعراء والسمُّار يجعلون من جمالها ودلالها ومتعةِ مصعب بها ، مادةَ السمر والحديث !

ومن هذه الأخبار التى ذاعت عنه مع عائشة ، ما يبدو مناقضا للذائع المشهور من مروءته ، اللهم إلا أن يفسره عاملٌ نفسى جعل « مصعبا » يتلهى عن أمنيته التى لم تتحقق بالزواج من بنت الحسين ، ويحاول إقناع نفسه والناس معه ، بأنه بعائشة فى شغل ! ..

أو لعل جمال عائشة ، كان مادة خصبة لمخترعات السمار وتهاويل القصاص وإضافات الرواة جيلا بعد جيل ...

من تلك الأخبار مثلا ، أن عائشة غضبت عليه يوما ، فشكا ذلك إلى أشعب — وكان مقربا إليها — فسأله أشعب : مالى إن رضيتْ عائشة ؟

أجاب مصعب : حكمك .

فقال أشعب : عشرة آلاف درهم ! ..

قال مصعب : هى لك ...

ومضى أشعب حتى أتى عائشة فقال لها : جُعِلتُ فداءك ، قد علمتِ حبى لك وولائى قديما وحديثا من غير منالة ولا فائدة ، وهذه حاجة قد عرضتْ تقضين بها حقى وترتهنين بها شكرى .

سألته : وما عناك ؟ ..

فأجاب : قد جعل لى الأميرُ عشرة آلاف درهم إن رضيتِ عنه ! ..

قالت : ويحك ، لا يمكننى ذلك ...

فصاح بها : بأبى أنت ، فارضى عنه حتى يعطينى ثم عودى إلى ما عَوَّدكِ الله من سوء الخلق ! ..

قالوا : فضحكت منه عائشة ، ورضيت عن مصعب [1] .

ومنها : أن مصعبا دخل عليها يوما وهى نائمة متصبحة ، ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتُها عشرون ألف دينار ، فنبهها ونثر اللؤلؤ فى حِجرها . فقالت : وهى تشيح بوجهها : نومتى كانت أحبَّ إلىَّ من هذا اللؤلؤ ! ..[2] .

ومنها : أنه شكا مرةً إلى كاتبه أبى فروة ما يجد من شراستها ومعاسرتها إياه . فذهب إليها أبو فروة مع عبدين أسودين ، وادعى أن سيده أمره بحفر بئر تدفن فيها عائشة حية ! .. فقد ظن أنها تبغضه فجُنَّ غضبة ! .. فصدقته (! ؟) وما زالت تلح على أبى فروة أن يعاود مصعبا ، وأقسمتْ ألا تغاضبه ![3]

ومنها : أنها كانت يوما فى مجلسها مع جمع من نساء قريش ، فغنتها « عزة الميلاء » من شعر امرئ القيس :

وثغرٍ أغرَّ شتيتِ النبا لذيذِ المُقَبَّلِ والمُبتَسَمْ
وما ذقتُه غيرَ ظنٌّ بـه وبالظنِّ يَقضى عليك الحَكَمْ

وكان مصعبٌ قريبا منهن ، ومعه بعض إخوانه ، فقام منفعلا حتى دنا من الستور المسدَلَة وصاح : يا هذه ، إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفتِ !

ثم قال لعائشة : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك ، وأما عَزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود إليك .

وانتقلت عزة إلى مجلس الرجال ، فغنت هذا الصوت مرارا ...

وكاد مصعب أن يذهب عقله فرحا ![2] .

ومنها تلك القصة التى ذكرها الشعبى ، قال : « دخلت المسجد فإذا أنا بمصعب بن الزبير والناس حوله ، فسلمت ثم أردت الانصراف فقال لى :

---

(١) الأغانى : ١١ / ١٧٧ دار الكتب .
(٢) الأغانى : ١١/ دار الكتب ١١/ ١٨٢ .
(٣) الأغانى : ١١ / ١٨١ دار الكتب .
(٢) الاغانى : ١١ / ١٨٣ دار الكتب .

ادْنُ . فدنوت حتى وضعتُ يدى على مرفقته ، ثم قال : إذا قمتُ فاتبعنى . فجلس قليلا ثم نهض فتوجَّه نحو دار موسى بن طلحة ، فتبعته حتى دخل حجرتَه ، فرفع السجفَ فإذا أنا بعائشة بنت طلحة فلم أر زوجا قط أجمل منهما : مصعب وعائشة . قال مصعب : يا شعبى ، هل تعرف هذه ؟ .. فقلت : نعم : أصلح اللّهُ الأمير ، هى سيدة نساء العالمين عائشة بنت طلحة قال : لا ، ولكن هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زِلت مِنْ ليلى لَدُنْ طرَّ شاربى إلى اليوم أُخفِى حبَّها وأُداجِنُ
وأَحمِلُ فى ليلى لقومٍ ضغينة وتُحمَلُ فى ليلى علىَّ الضغائنُ

ثم أذن لى فقُمتُ . فلما كان العَشِيُّ رحتُ إلى المسجد . وإذا هو فى مجلسه هناك ، فسلمت فاستدنانى وقال : هل رأيتَ مثلَ ذلك لإنسانٍ قط ؟ قلت : لا والله . قال : أفتدرى لم أدخلناك ؟ قلت : لا . قال : لِتحدِّث بما رأيت ! ثم التفت إلى كاتبه فقال : أعطِ الشعبىَّ عشرةَ آلافِ درهم وثلاثين ثوبا . فما اصنرف يومئذ أحدٌ بمثل ما انصرفتُ به : بعشرة آلاف درهم ، وبالثياب ، وبنظرةٍ إلى عائشة بنت طلحة »[1] .

ومنها ... ومنها

وإنه لموقف صعبُ التصديق من مثل مصعب ، أن يبتذل أخبار حياته الخاصة هكذا ، وهو مضرب المثل فى المروءة والنخوة . . .

ويزيده صعوبةً ، أن الرجل كما رأينا ، قد كان فى صميم المعركة التى احتدمت بين بنى أمية وآل الزبير ، بعد أن تولى « عبدُ الملك » الخلافةَ فى دمشق .

أهى إذن من إضافات السُّمَّاد ومبتدعات القصاص ؟

غير بعيد ...

* * *

---

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٤ / ٢١ ، الاغانى : ٢ / ٣١٠ دار الكتب .

ومهما يكن الرأى فى تلك المرويات والأقاصيص ، فلا شك فى أن احتدام المعركة لم يلبث أن استأثر بأكثر هَمِّ « مصعب » فلم يدع له وقتا يفرغ فيه لمشاغله الخاصة ، اللهم إلا فترات خاطفة كانت عائشة كفيلةً بأن تملأها عليه .

ثم استطاع كَرُّ الغداة ومَرُّ العشى لمدى سنين ، أن يطويا الأمنية القديمة تحت ركام من التشاغل والتناسى ...

* * *

المهر الغالى

ولكن الركام انهار ...

ومن تحته بدت الرغبة المكبوتة متوهجة ، وكأن لم تزدها الأيام والليالى إلا احتداما واحتكاما ...

ذاك يوم عرف أن « سكينة » كَفّتْ عن تمسكها بالعزوفِ عن الزواج ...

ولن يدعها « مصعب » تفلت من يديه . وشد رحاله إلى « المدينة » وتقدم إلى أخيها السجاد « زين العابدين ، على بن الحسين » يطلب مصاهرته ، يرشحه لهذا الشرف : كرمُ أصله ، واكتمالُ مروءته ، وعزةُ فروسيته ...

وقبل ابنُ الحسين . . . وقبلت سكينة . . .

وطار النبأ فى أنحاء الحجاز ، أن مصعبا قدم ألف ألف درهم صداقا لبنت الحسين ...

وزاد فأعطى أخاها عليا ، حين حملها إليه ، أربعين ألف دينار ...(١)

ولم يدهش أحد لهذا ، بعد أن أصدق مصعب « عائشة بنت طلحة » ألف ألف ...

غير أن رجلًا من آل الزبير ضاق بهذا الإسراف . . .

---

(١) عيون الأخبار : ٢ / ٢٥٨ .

ذلك هو « عبد الله بن الزبير » الذى جزع لهذه الألوف المؤلفة ، تدفع مهوراً لربات الجمال ، وبنو أمية هنالك فى دمشق ، يشترون بالمال سيوف الرجال ، كيما يحاربوا بها عبد الله بن الزبير ، وأخاه مصعبا ، كدأبهم مع الإمام الحسين وأبيه الإمام على ، رضى الله عنهما .

وسكت عبد الله بن الزبير على مضض ، حتى حُمِلت إليه رسالةٌ من الشاعر عبد الله بن همام السلولى يقول فيها :

أَبْلِغ أميرَ المؤمنين رسالةً ... من ناصح لكَ لا يريد خداعا
مهر الفتاةِ بألف ألفٍ كامل ... وتَبيتُ ساداتُ الجنود جياعا
ولو لأبى حَفْصٍ أقولُ مقالتى ... وأبثُّ ما أنبأتُكُمْ لارتاعا !

قال عبد الله بن الزبير : صدق والله ، لو قيلت هذه المقالة لأبى حفص ــ عمر بن الخطاب ــ لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف .. [1]

وكان مصعب يومئذ أميراً على البصرة ، فبعث إليه أخوه ، يعزله ويستدعيه ...

* * *

متى تم زواج سكينة بمصعب ؟

ذكرت إحدى الروايات ، أنه تزوجها وهو عاملٌ لأخيه على البصرة ، ونرجح أنه قد كان بعد سنة ٦٦ هـ .

ذلك لأن مصعبا كان فى سنة ٦٥ هـ ، عاملاً لأخيه على المدينة [2] . والمطمأن إليه أنه تزوج من سكينة وهو بالعراق ، وإذا صحت رواية الأغانى

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٣ ساسى .
(٢) تارخ الطبرى : ٧ / ١٤٦ .

عن عزل عبد الله لأخيه مصعب عن ولاية البصرة ، لَمّا أن جاءه خبرُ الصداق الغالى الذى دفعه لبنت الحسين ، فإن الزواج يكون قد تم فى عام ٦٧ هـ ، حيث كان مصعبٌ هناك واليا ...[1] .

على أن عبد الله بن الزبير لم يلبث أن رد أخاه إلى البصرة والعراق ، لِماَ ظهر من تخليط ابنه « حمزة بن عبد الله » هناك . ثم ندب مصعبا لحرب المختار بالكوفة ، بعد أن ظهر بغيه وجوره وفتكه بأهلها ، تحت قناع الثأر لسيد الشهداء .

* * *

منافِسَة خطرة

انتقلت العروس الهاشمية ، ذات العشرين ربيعا ، إلى بيت زوجها مصعب بالعراق ، فى موكب حافل وجهاز فخم .

ولعلها تلبثت فترة عندما وطئت راحلتها أرض العراق ، تحدق فى ساحة الذكريات ، وتكر بها راجعةً إلى الماضى ...

على أنها حين دخلت بيتَ مصعب ، طوتْ أحزانها عند الباب ، كما اعتادت أن تفعل من قديم ، واستقبلت دنياها بوجه يتألق بِشْراً . وهنالك لقيتها « عائشةُ بنت طلحة التيمية » فى أتم زينة ، وكأنها المجلوة لعرس ! . .

وكان ثمة زوجة ثالثة قد سبقتها إلى بيت مصعب ، وهى « فاطمة بنت عبد الله بن السائب الأسدية » تزوجها مصعب لا عن رغبةٍ وحب ، ولكن بدافعٍ من مروءته وشهامته . كانت قد تزوجت من قبله ، عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فلما دخل عليها طلقها وهى على منصة العرس . فأتى أبوها عبدُ الله بن السائب بن أبى حبيش ـــ وكان شريفا وسيطا من سيادة بنى أسد بن عبد العزى بن قصى ـــ إلى حلقة فى المسجد من قريش ، فيها نفر

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٦٢ .

من بنى الزبير بن العوام الأسدى فقال :

« إنى زوجتُ عبد الله بن عمرو من بنتى فاطمة ، فطلقها على منصتها ، وأنا أخاف أن يَظنَّ الناس أنه رأى سوءا ، وأنتم عمومتها . فقوموا حتى تنظروا إليها »(1)

فقال له عبد الله بن الزبير : اجلس .

ثم التفت إلى أخيه المصعب وكان جالسا فى الحلقة ، وخطب فاطمة له ، فزوجه إياها أبوها . وقال عبد الله بن الزبير لأخيه :

— انطلق فادخل على أهلك (2) .

وإنما رجحنا أن تكون فاطمةُ قد سبقت سكينةَ إلى بيت مصعب ، لأنها وَلدتْ له ولدين هما : عيسى وعكاشة ابنا مصعب ، وقد شهد عيسى موقعة مَسْكَن التى قُتِلَ فيها مُصعب عامَ ٧٠ هـ وكان القوم عَرَضوا على عيسى الأمانَ ، فأبى إلا أن يُقتَل مع أبيه . وافتخرت ربيعة بقتله فقال شاعرهم :

نحن قتلنا مصعباً وعيسى وكم قتلنا قبله رئيسا
عَمْداً أذقنا مُضَرَ التأييسا(3)

وبعيدٌ أن يكون قد شهد الموقعة طفلا ، بل الغالب أن أباه مصعبا قد تزوج من فاطمة أم عيسى ، قبل مقتل الإمام الحسين بزمن لا نحدد مداه ..

على أن سكينة ما كانت لتهتم بفاطمة ، وإنها لتعلم الظروف التى ألجأت مصعبا إلى الزواج منها .

وإنما حسبها أن تهتم بالضرة الأخرى : عائشة بنت طلحة ، وترى فيها وحدها المنافسة الخطرة ، والغريمة التى تستحق أن يُحسب لها حساب !

* * *

(١) يلتقى نسب فاطمة مع آل الزبير ، عند أسد بن عبد العزى بن قصى . راجع الجمهرة (١٠٩) ونسب قريش : ٢٢٨ وما بعدها .

(٢) جمهرة أنساب العرب : ١٠٩ ، ونسب قريش : ٢٢١ . (٣) نسب قريش : ٢٤٩ .

وفى بيت مصعب ، بدأت سكينة عهدا جديدا من حياتها ، بدت فيه كما لو كانت نسيت كل ما ذاقت من نكبات ، وما روَّع صباها من فوادح الخطوب وصعب المحن .

والحق أنها ما نسيت ، لكنها اعتادت أن تحتفظ بالشقاء لنفسها ، وألا تُرِى الناسَ إلا تجملا .

وإذا كان هذا دأبها فيما مضى من حياتها ، فإنها اليوم أحوجُ إلى مزيد من التجمل ، وهى ترى ضرتها عائشة بنت طلحة ، لا تدع وسيلةً إلا سلكتها فى مجال التنافس والتحدى .

وما كان أقوى شعورِ عائشة بجمالها ، واعتزازِها بفتنتها ، وتفننها فى إبراز مواضع الحسن فيها ، ولو كلفها ذلك أن تخرج على العُرْفِ أو تتخلى عن حياء الأنثى !

وقد مر بنا الخبر عن استجابتها « لعزة الميلاء » حين أحبت أن تراها عارية ، لَمّا أراد مصعب خطبتها . وفى الأغانى (١) أخبار من هذا الصنف وأشد . وفيه كذلك أن مصعبا عاتبها فى سفورها وحاول أن يردها إلى الحجاب ، فكان جوابها :

« إن الله تبارك وتعالى وسَمنى بميسم جمالٍ أحببتُ أن يراه الناسُ ويعرفوا فضلَه عليهم ، فما كنت لأستره ! .. وواللّهِ ما فىَّ وصمةٌ يقدرُ أن يذكرنى بها أحد ...» .

وطالت مراودة مصعب إياها فى ذلك على غير طائل ..

* * *

وعائشة قد سبقت سكينةَ إلى دنيا زوجها مصعب ، وغلبت عليه زمانا بفتنتها ودلالها ، وكسبت بهذا السبق مزيةً ربما لم تتح لسكينة التى قضت

(١) أخبار عائشة بنت طلحة ، فى الجزء ١١ ط دار الكتب .

مرحلة الصبا الغض فى البيت النبوى ، وما كانت لتستطيع ــ بحكم بيئتها ووراثتها ــ أن تتقن فنون الإغراء أو تتخلى لأى سببٍ عن عزة حيائها . ومن ثم لم تحاول أن تُجارِىَ عائشةَ فى أساليبها أو تصطنع أسلحتها ، وإنما لاذت بعزة ملاحتها ولطف محضرها وجلال ترفعها ، وبما أضفى عليها نسبُها النبوى من سنا وضَّاء ، وبهاء ما بعده بهاء .

* * *

سكت رواة الأخبار فلم يذكروا لنا شيئاً عن حياة سكينة مع مصعب ، مع أنهم الذين ملأوا الأسماع بدقائق حياته الزوجية مع عائشة ...

لماذا ؟ ..

لست أميل إلى الظن بأنه قد كانت هناك أخبار عن سكينة مع مصعب ، طويت عمدا أو عن إهمال وضياع . فالأخباريون فى تلك الفترة كانوا أجنح إلى التزيد من صنع الأخبار . ولو كانت شئون الحياة الزوجية الخاصة بين سكينة ومصعب قد خرجت إلى الناس وعُرضت على أعينهم ، لما سكت الرواة عن ذكرها ، بل لما تحرجوا من الخوض فيها والإضافة إليها . وقد رأيناهم يعرضون « عائشة » وهى زوجة وأم ، مجردةً من ثيابها أمام هذه أو تلك من النساء ، ورأيناهم يقتحمون بأخبارهم مخدعَها وهى مع زوجها ، دون تحرّج أو تأثم . ونحن لم نورد من هذه الأخبار إلا القليل ، وأمسكنا عن نقل الباق لأنه ليس مما يجوز أن يجرى على قلم مثلى . ومن شاء فليرجع إلى أخبار عائشة فى (كتاب الأغانى) ليرى إلى أى حد كانت أخص شئونها الزوجية ، مادة للأخباريين .

فلا سبيل إلى القول إذن ، بأنهم تناولوا جانبا من حياة مصعب الزوجية وأعرضوا عن جانب ... لا سبيل إلى الظن بأنهم ــ وقد دخلوا بيتَ الرجل ــ شُغلوا بإحدى الزوجتين يرصدون حركاتها ويسجلون كلماتها ، بل يحصون عليها أنفاسها ، وتركوا الزوجة الأخرى لا يكادون يحسون وجودها ...

وكان من الممكن أن نحسن الظن برواة الأخبار ، فنحسبهم تعففوا عن ذكر أخبار سكينة مع مصعب ، لأنها بنت الحسين !.. ولكن يحول بيننا وبين هذا ، أنهم نقلوا عنها بعد ذلك أنباء مثيرة ، بعضُها مما لا يُقبل من مثلها ولا يهون تصوُّرُ صدوره عنها ، ولم تَحُل بنوتُها للحسين ، ومكانها فى بيت النبوة ، دون ملء الصفحات بهاتيك الأخبار ، بل لم يعصمها هذا النسبُ العالى ، من ألسنة المتقولين وأقاويل الرواة وأراجيف المبطلين ..[1] .

وإنما سكتوا ، لأن « سكينة » فيما نرجح ، لم تصطنع أساليب عائشة بنت طلحة ، ولم تُغَذِّ الرواةَ بمادة خصبه من أفانين دلالها وأسرار علاقتها الزوجية على نحو ما فعلت ضرتها .

ولدينا على هذا شاهدٌ من نصٍّ أورده « أبو الفرج » فى ترجمة « مصعب » قال : انه لما دخل عليها يودعها وقد تهيأ للخروج لقتال عبد الملك ، صاحت من خلفه :

ـــ وا حزناه عليك يا مصعب !

فالتفت إليها وسألها : أوَ كلُّ هذا لى عندك ؟ ..

قالت : إى والله ، وما كنت أخفى أكثر[2] .

وهو نص يفسر لنا بوضوح ، لِمَ لَمْ تكن حياتها الخاصة مع مصعب مادة الأخباريين والرواة ، فضلا عن دلالته على اتزانها العاطفى ، وضبطها لأمرها ، تجاهَ ما كانت « عائشة » تكشف عنه من أسرار زوجيتها .

كان لكل منهما سلاحها الخاص فى تنافسهما على قلب الرجل الذى أحبته كلتاهما أصدق الحب : فأولاهما تثيره بفتنة دلالها وأنوثتها ، وترهقه صدّاً وقربا ، جفوة وإقبالا ، وتبتذل له حينا بكل ما تملك من تفنن وإغراء ، أو على حدِّ تعبيرها ، بكلِّ ما قدرت عليه[3] ، ثم تصارمه حينا حتى تجهده .

---

(١) نعرض لهذا ، فى الحديث عن « سكينة فى المجتمع » فى الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) الاغانى : ١٨ / ١١٦ ساسى .

(٣) الاغانى : ١٠ / ٥٥ ساسى .

والأخرى تفتنه بجاذبية شخصيتها الفريدة ، وبكل ما اجتمع لها من ظرف آسر ، وملاحة حلوة ، وجلال ساحر أخاذ .

وكانت كل منهما تعرف مكان الأخرى ، وتقدر خطر سلاحها . وربما تلاقتا وجها لوجه فباهت عائشة بما تتقن من أفانين الإغراء ، وأسكتتها سكينة باللقب الذى كانت تطلقه عليها : ذات الأذنين (١) .

وربما اختصمتا إلى حكم بينهما ، فيخلص من حرج الموقف بقوله :
ــ أما أنت يا سكينة فأمْلَحُ منها ، وأما أنت ياعائشة فأجمل ! (٢) .

* * *

السِّرُّ المـذَاع

على أن حياة أمير العراق لم تكن فارغة لهذه الشواغل النسوية إلا قليلا ، فإن الصراع بين الزبيريين والأمويين ما لبث أن احتدم عنيفا ضاريا ، وقد كان وجود مصعب فى العراق عقبة كأداء لا سبيل إلى حسم الصراع ما بقيتْ هناك .

وقد صكت مسامعَ الأمويين مدائحُ الشعراء فى مصعب ، ومنهم عبيد الله ابن قيس الرقيات ، إذ يقول :(٣)

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ... تجلَّت عن وجهه الظلماء
مُلْكه مُلْكُ قوةٍ ليس فيه ... جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفلح ... من كان هَمّه الاتقاء

وفى الخبر أن مصعبا أخذ رجلا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه . فقال : « أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يُستضاء به ، فأتعلق بأطرافك وأقول : أى ربِّ ، سَلْ مصعبا فيم قتلنى ؟ ! » .

(١ ، ٢) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ .
(٣) عيون الأخبار : ٢ / ١٠٣ .

فأمر مصعب بإطلاقه ، فقال : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لى من حياتى فى خفض .

فأمر بإعطائه مائة ألف ، فقال الرجل :

ــ بأبى أنت وأمى ، أشهد الله أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً .

قال مصعب : و لم ؟

فأجاب : لأنه قال فيك :

إنما مصعب شهاب من الله تجلّتْ عن وجهه الظلماء

وأنشد بقيةَ الأبيات(1) .

....

من ثم صمم الأمويون على أن يفرغوا لمصعب أول الأمر ، قبل أن يفكروا فى القضاء على رأس الزبيريين العائذ بالحرم .

وقد طالت المعركة بين عبد المللك بن مروان ومصعب بين الزبير ، أعواما ذات عدد ، قبل أن تصل إلى نهاية حاسمة . وتكررت محاولات عبد الملك ، فى الخروج إلى العراق ثم الإياب إلى الشام من غير أن يصل إلى غريمه . ففى تاريخ الطبرى (حوادث سنة ٧١ هـ) أن عبد الله كان يخرج من دمشق صيفا بعد صيف ، حتى « بطنان حبيب » ويخرج مصعبٌ من العراق للقائه فيعسكر فى « باجميرا » ويلبثان هكذا حتى يهجم الشتاء فيرجع كل منهما إلى موضعه ، ثم يعودان فى الصيف وهكذا ... (2)

وهمَّ عبد الملك ، فى سنة ٧٠ هـ بقتال مصعب ، ثم اكتفى بأن وجه إليه جيشا عليه خالدُ بن عبد الله ، التقى بجيشٍ لمصعب فى البصرة ، ثم انثنى إلى عبد الملك مهزوما ...

---

(1) عيون الأنباء : ٢ / ١٠٣ وانظر سمط اللآلى للبكرى ٦ / ٢٩٤ .

(2) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨١ .

عندئذٍ صمَّم عبد الملك على أن يضع حدا لهذه المعركة التى طالت حتى أضجرت . وخطب الناس فى الشام ، ليسيروا معه إلى مصعب .

قال له ناصحوه وقد أشفقوا عليه من لقاء مصعب : هلا أقمتَ هنا وبعثت على هذه الجيوش رجلا من أهل بيتك ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا بعثت إليهم بالمدد ؟

ردَّ عبد الملك : إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشى له رأى ، ولعلّى أبعث مَنْ له شجاعةٌ ولا رأىَ له . وإنى أجد فى نفسى بصَراً بالحرب وشجاعة بالسيف إن أُلجئتُ إلى ذلك . ومصعبٌ فى بيتِ شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع لكنه يحب الخَفض ، ومعه من يخالفه ومعى مَن ينصح لى (١) .

وانفض المجلس وقد عرف القوم أنه صمم على المسير إلى مصعب .

ودعا بسلاحه فلبسه ، فلما ودع أهله وهم بالركوب ، قامت إليه زوجته « عاتكة بنت يزيد بن معاوية » فأعادت الرجاء والتوسل :

ــ يا أمير المؤمنين ، لو أقمتَ وبعثت إليه لكان الرأى .

فردَّ معتذرا ، مصمما : « ما إلى ذلك من سبيل » .

فلم تزل تمشى معه وتكلمه حتى قرب من الباب ، فَعَلا نشيجُها . وعند ذاك رجع إليها فقال وهو يتجمل :

ــ وأنت ممن يبكى ! قاتل الله « كُثَيِّراً » ! كأنه كان يرى يومَنا هذا حيث يقول :

إذا ما أراد الغَزْوَ لم تَثْنِ همَّه حَصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يَزِينُها
نهتْه فَلمّا لم تَر النهْىَ عاقَه بكتْ فبكَى مما شَجَاها قَطِينُها

ثم عزم عليها بالسكوت (٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٥ .
(٢) أمالى القالى ــ انظر سمط اللآلى : ١ / ١٤ ، والاغانى : ٩ / ٢١ساسى .

وانطلق إلى العراق حتى عسكر فى « مسكن » .

وسار له مصعب حتى عسكر فى « باجميرا » .

وكانت رسل عبد الملك قد سبقته إلى الكوفة وغيرها ، ونفذت إلى نفوس القوم هناك بالأموال والأمانى .

وشرط عليه رؤساءُ المروانية بالعراق ولايةَ أصبهان ، فوعدهم جميعا بها ![1] .

فما دنا اللقاء ، إلا وعبدُ الملك قد ملأ يديه من أهل العراق ، وأيقن مصعب أنهم خاذلوه ...

ولم يفكر مع ذلك فى النكوص ...

وتهيأ للحرب ، ثم دخل على نسائه يودعهن ، فلما جاء دور سكينة ، وجمت لحظة ، وقد طاف بخاطرها طائفٌ من الأمس البعيد .

وحملتها الذكرى إلى كربلاء ، فساوَرَها دُوَار مُنهِك ، فبادر إليها مصعب واعتنقها ، وثقلت عليه وطأة الموقف ، لولا أن لاح له فى تلك اللحظة ، طيفُ أبيها الإمام الحسين ، فهتف بها مشجعا :

ـــ ما ترك أبوكِ يا سكينة لابنِ حُرَّةٍ عُذْرًا ...

ثم أفلتها من ذراعيه ، وأخذ طريقه إلى الباب .

فصاحت من خلفه : « واحزناه عليك يا مصعب ! » .

وفاجأته صيحتها ، فرجع إليها وسألها فى لهفة وعجب :

ـــ أكان كل هذا لى ، فى قلبك ؟

أجابت : « أجل يا مصعب ، وما كنتُ أخفى أكثر ... »

فرنا إليها مَلِيّاً ، ثم قال فى رِقّة وشجو :

ـــ لو كنت أعلم ، لكان لى ولك يا سكينة شأن آخر ...

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨١ .

ومضى إلى الميدان وهو يقول :

وإن الأُلى بالطّفّ من آلِ هاشم تآسَوْا فسَنُّوا للكرام التآسِيَا !

* * *

مصـرع بطـل

وظل يردد البيت حتى أشرف على ساحة القتال ، فإذا جنده من أهل الكوفة قد نكصوا عنه خاذلين ، وإذا عبدُ الملك هناك فى جيش لجب .

وتصفح مصعب مَنْ بقى حوله ، يمينًا وشمالًا ، فوقعتْ عيناه على عروة بن المغيرة بن شعبة ، فناداه : « يا عروة ! » .

فلما دنا منه سأله :

ــ أخبرنى عن الحسين بن على ، كيف صنع بإبائه النزولَ على حُكم ابن زياد وعزمِه على الحرب ! ؟[1] .

هنالك علم الناس أن مصعبا لن يريم حتى يُقْتَل ..

وتقدم يواجه مصيره مستبسلا .

فبعث إليه عبد الملك مع أخيه محمد بن مروان يقول : إن ابن عمك يعطيك الأمان ..

أجاب من فوره ، وطيفُ الحسين يملأ عينيه :

ــ إن مثلى لا ينصرف عن مثلِ هذا الموقف إلا غالبا أو مغلوبا .

ونادى محمد بن مروان « عيسى بنَ مصعب » وكان ملازما أباه :

ــ يا ابن أخى ، لا تقتل نفسك ... لك الأمانُ ...

وعقب مصعب ، دون أن ينظر إلى ولده :

ــ قد أَمَّنك عمُّك ، فامض إليه .

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٤ .

قال عيسى : « لا تتحدثْ نساءُ قريش أنى أسلمتُكَ للقتلِ» .

فنظر إليه أبوه مَلِيّاً ثم قال :

« فتقدمْ بين يدىَّ ، أحتسبك » .

فقاتل عيسى بين يدى أبيه حتى قُتِل[1] .

وأُثْخِن مصعبٌ بالرمى ، ثم شدَّ عليه زائدةُ بنُ قدامةَ فطعنه وهو يصيح : يا لَثَاراتِ المختار !

ونزل إليه عبيدُ الله بن زياد بن ظبيان ، فاحتزّ رأسه وحملها إلى عبد الملك . قال عبدُ الملك وهو يطيل النظر إلى وجه مصعب مضرجاً بالدم :

« متى تغذو قريش مثلك ؟ »[2] .

ثم التفت إلى مَن حوله فسألهم : « مَن أشجعُ الناسِ ؟ » .

فذكروا اسمَه ، وأسماءَ عددٍ من الأبطال الشجعان . لكنه أسكتهم بقوله :

« أشجع الناس مصعب بن الزبير : جمع بين عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ... وَوَلِىَ العِراقين ، ثم زحف إلى الحرب فبذلتُ له الأمان والحِبَاء والولايةَ والعفو عما خلص فى يده ، فأبى قبولَ ذلك ، واطرح كل ما كان مشغوفا به من ماله وأهله وراءَ ظهره ، وأقبل بسيفه قرما يُقاتل ، ما بقى معه إلا سبعة نفر ، حتى قُتِلَ كريما ... » .

وتجاوبت الآفاق ، ما بين العراق والحجاز ، بصدى من قول عبيد الله بن قيس الرقيات يرثى مصعبا ويذكر خذلان مَن فى العراق من بكر وتميم:[1]

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٦ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٨٧ .

وانظر كلمة عبد الله بن الزبير فى أخيه مصعب حين بلغه نبأ مقتله ، فى : الطبرى ٧ / ١٩٠ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة٢ / ٢٤٠ .

لقد أَوْرَثَ المِصريْنِ خِزْياً وذِلّةً قتيلٌ بديْرِ الجاثليق مقيمُ
فما نَصَحَتْ لله بكرُ بنُ وائل ولا صبرتْ عند اللقاءِ تميمُ
ولو كان بَكرِيّاً تعطّفَ حولَه كتائِبُ يَغْلِى حمْيُها ويدومُ
ولكنه ضاع الذمامُ ولم يكن بها مُضَرِىٌّ يومَذاك كريمُ

* * *

الأرملة المقهورة

وفى قصر الإمارة بالكوفة ، وقفت أرملتُه سكينة بنت سيد الشهداء ، يكاد يتلفها القهرُ والغيظ .

ولم يكن الحزن جديدا عليها ، فمن قبل مصعب بلت الحزنَ الأكبر يومَ كربلاء ، ومصعبٌ قد لقى مصرعه النبيل مختارا ، ومات الميتةَ التى تليق بفارس شهم كريم مثله ...

إنما كان غيظُها من غدر الذين خانوه ، هو الذى يفرى كبدها !

ويحهم ! ما أفدح الذى لقيت سكينة منهم ! غدروا بجدِّها الإمام ، ثم أيتموها صغيرةً ، ثم أرملوها شابةً !

وإنها مع ذلك لَتتَمَاسك حين وفد عليها المعزون من أهل الكوفة ، يسألونها الصبرَ الجميل على قدر مصابها الجليل ، حتى إذا فرغوا مما أرادوا أن يقولوه ، أدارت فيهم عينيها ، وقد جَفَّ دمعها ، ثم قالت فى تؤدة :

« الله يعلم أنى أبغضكم ! قتلتم جدى عليا وقتلتم أبى الحسين ، وزوجى مصعبا ، فبأىِّ وجهٍ تلقوننى ؟ أيتمتمونى صغيرة وأرملتمونى كبيرة » ![1]

وانصرفت ...

خرجت من الكوفة ، ومن العراق ، وما تحمل الأرض أشقى منها بالذى كان ، وما تُظِلُّ السماء أدنى منها إلى اليأس ...

* * *

---

(١) عيون الأخبار : ٢ / ٦١٢ .

هل ترك لها « مصعب » ذكرى حية من شخصيه الراحل ؟

فى (طبقات ابن سعد) أنها ولدت لمصعب فاطمة . وفى خبر بالأغانى ، أنها ولدتْ من مصعب ابنةً آيةً فى الحسن ، أراد مصعب أن يسميها ربرب ، لكن سكينة سمّتْها « الرباب » باسم أمها[1] . فلما قُتل مصعب ، وَلَىَ أخوه عُروةُ أمرَها ، فزوجها ابنَه عثمان بنَ عروة ، فماتت وهى صغيرة .

ونقل صاحب الأغانى روايةً عن سعيد بن صخر ، عن أمه سعيدة بنت عبد الله بن سالم : أن السيدة سكينة لقيتْها بين مكة ومنى ، فاستوقفتها لِتُريها بنتها من مصعب ، وإذا هى قد أثقلتْها بالحلىِّ واللؤلؤ ، وقالت :

ـــ ما ألبستُها الدرَّ إلا لتفضحه !

ثم أتبعها أبو الفرج ، برواية أخرى عن شعيب بن صخر عن أمه سعدة بنت عبيد الله . أن سكينة أرتها بنتَها من الحِزامى ، وقد أثقلتْها بالحلى وقالت : والله ما ألبستها إياه إلا لتفضحه [2] .

وهكذا ، ما بين فقرة وأخرى ، صار :

سعيدُ بن صخر ، شعيبَ بن صخر .

وصارت أمه سعيدةُ بنت عبد الله بن سالم ، سعدةَ بنت عبيد الله . كما صارت بنتُ مصعب ، بنتَ الحِزامى !

ولا مجال للاطمئنان إلى خبرٍ عبث به الرواةُ ، أو النساخ والنقلة ، على هذا النحو ، وليس فى مراجعنا الأخيرة ما يعين على ترجيح .

« المصعب الزبيرى » لم يشر إلى هذه البنت فى (نسب قريش) ، وكذلك

---

(١) نضيف أن أم مصعب كان اسمها كذلك الرباب : بنت أنيف بن بن عبيد ، من بنى جناب الكلبى (نسب قريش : ٢٣٦) .

(٢) مثلها فى عيون الأخبار : ٤ / ٢٥ ولم يذكر فيه اسم بنت سكينة .

لم يشر إليها « الطبرى » ولا « ابن حزم » فى جمهرة الأنساب ولا « ابن خلكان » فى وفيات الأعيان .

فالعجب أن (دائرة المعارف) ذكرت فى الترجمة العربية أن سكينة لما تزوجها مصعب « أنجبا من هذا الزواج اسنة سمتها سكينة باسم أمها ، وتزوجت هذه الفتاة من أخى مصعب ، وتوفيت فى سن مبكرة » .

ولم تذكر الدائرة مرجعها فى هذا ، وأرجح أنها نقلته عن (الأغانى) مع تحريف فى النقل ، جعل بنتَ مصعب تتزوج من عَمهِّا أخى مصعب !..

* * *

مَع إبراهِيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى

عزلة لم تَطُلْ

ظنت ، وظن الناس من حولها ، أن ذلك آخرُ عهدِها بدنياهم ، وأنها سوف تنطوى على يأسها فى عزلة تجتر ما طفحت به كأسُها من أحزانٍ وأشجان ، حتى تلحق بالأعزاء الراحلين ...

وانصرف عنها متتبعو الأخبار ، وفى حسابهم أنها فرغت من الدنيا ، فما عاد لديها ما يُلتمس من الأخبار . وشُغِلوا بتلك الأخرى « عائشة بنت طلحة » بعد انقضاء الحدادِ على مصعب ، فتقدم إليها خُطاب منهم بشرُ بن مروان الذى بعث إليها « عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى »[1] يخطبها له ، وهو يشفق أن تكون ناقمة عليه أخوته لعبد الملك قاتل مصعب ، فلما حدثها عمرُ برغبة بشر ، قالت :

ـــ أما وجَدَ بشرٌ رسولاً إلى ابنةِ عمك غيرَك ؟ فأين بكَ عن نفسِك ؟

سألها فى لهفة : أو تفعلين ؟

أجابت ضاحكة : نعم .

فتزوجها من ليلته ، وعاد المجتمع يتلقى جديدا من أخبار علاقتها الزوجية بعمر ، وأسرار حياتها الخاصة معه [1] .

أجل شغل رواة الأخبار وصائدو الأسرار بتتبع عائشة بنت طلحة مع زوجها الثالث عمر ، ويئسوا من التماس جديدٍ عند « سكينة » .

---

(١) أمير فارس ، انظر (جمهرة أنساب العرب : ١٣٠) .

(٢) (الاغانى : ١١ / ١٨٣ وما بعدها . ط دار الكتب .

حتى فوجئوا بالأرملة الهاشمية الحسناء ، تخرج عن عزلتها وتُقبل على الدنيا مرة ثانية ، بوجهٍ ضحوك ومزاجٍ مرح !

وقيل فيما قيل : إن حيويتها الفياضة وشبابها الذى اكتمل وقتئذ ونضج ، قد غلبا عواملَ اليأس ودواعِى القنوط ، فلم تستطع ، وهى أنثى فى أوج نضجها ووفرة ثرائها وعزةِ جمالها وشرفِ موضعها ، أن تنزوى طويلا فى عزلة عن الدنيا والناس .

لكنى أكاد أطمئن إلى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها ، كانت منطوية على يأسٍ فادح ، بلغ فى أعماقها أقسى مداه ، فصار إلى سخرية مريرة ، هى التى احتكمت فى الطور الثانى من حياتها احتكاما بلغ من قوته وعنفه ، أن اشتبه بضدِّه ، والتبس عند الأكثرين بالرغبة فى مسراتِ الحياة ، بعد الذى ذاقته من مُرِّ أحزانها .

* * *

وهنا ، لا بد لنا من وقفة متأنية نسبر فيها أعماق هذه السيدة الشريفة ، اليتيمة والأرملة ، قبل أن تلقانا فى حياتها الجديدة على ما تُصورها لنا الأخبار والروايات ، مسرفةً فى الإقبال على الدنيا بنفسٍ متفتحة لم ينل منها حزنٌ ولا ساورتْها ذكرى المشاهد الأليمة التى مرت بها .

أجل ، لا بد من وقفة هنا متمهلة ، قبل أن تلقانا « سكينة » فى أخبارها تلك ، تملأ الأفق من حولها ضجيجا مرحا . وتشارك فى الدنيا أعنف مشاركة ، وتظهر فى المجتمع طليقة متحررة .

وقد تعجلتُ الرأىَ آنفا ، فقلت إننى أكاد أطمئن إلى أنها فى هذا الدور الجديد من حياتها كانت فى إقبالها على الدنيا منطوية على يأس . وليس ذلك لأنى أجردها من أهواء البشرية ، لكنا حين نحتكم إلى سنن الفطرة وطبيعة الإنسان ، ننكر أن تلاقى سيدةٌ مثلَ الذى لاقت بنتُ الحسين من فوادح المحن وأرزاء الأيام والليالى ، ثم تستطيع ــ بحال ما ــ أن تنسى كلَّ الذى لقيت ، ويصفو لها العيش هنيئا غير كدر !

بل إنه لمما يشبه المحال عندى ، أن تقوى أنثى ، بالغة ما بلغت إرادةُ الحياة عندها ، أن تنسلخ من ماضيها كله ، وما العهد به ببعيد ، وأن تنحّى عنها أطياف مَن ملأوه فرحا وترحا ، لتبدأ صفحة جديدة لا ظل فيها من ذلك الماضى ، ولا صلة لها بهمومه ومآسيه .

وعلماء النفس اطمأنوا إلى أن للنفس البشرية حافظة واعية تختزن كل ما يمر بها من أحداث ، وتحتفظ بها على تطاول العهد بها وبُعد المدى ، وتظل تؤثر فى سلوك المرء مهما تقوَ إرادتهُ على التخلص منها ، بل مهما يغلب على يقينه أن الزمان قد عفى على آثارها فتاهت فى غيابة النسيان ...

وما كان الذى لاقته بنت الحسين بالذى يُنسى ، ولا كان الزمن قد تراخى به منذ شهدت المذبحة المروعة فى كربلاء فى مستهل عام ٦١ هـ . ثم مصرع زوجها الحبيب الفارس النبيل ، « مصعب بن الزبير » بعد عشر سنين ، وهو يتأسى بالحسين ويقول لابنته : ما ترك أبوكِ لابنِ حُرَّةٍ عُذرا ...

فهل شذت سكينة على الطبيعة البشرية وخرجت على المألوف من الفطرة السوية ، بنسيانها كلَّ ما كان ، وإقبالها على الدنيا بنفس متفتحة لا يُلم بها طيفُ عزيزٍ رحل ، ولا تعبرها ذكرى معاودة للذى فات ؟

كلا ، لم تشذ سكينة ، وإنما الأقرب إلى الاحتمال أنها ملّت كبريات المشاغل إلى حد الزهد ، ويئست من دنياها إلى حد الإغراق فى الاستهانة بها وعدم المبالاة !

وإنها لمعذورة ، فمِثْل هذه الدنيا ، كما بَلتْها سكينة ، غيرُ جديرة بأن يؤسَى عليها ، بل إنها لأهْوَنُ على بنتِ الحسين من دمعةٍ تُسكَبُ أو آهةٍ تلفظ !

* * *

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

وليس أدلَّ على هوانِ الدنيا لديها بعد مصعب ، من الخبر اللافت الذى نقله صاحب الأغانى معلِّلاً به قبولَها للزواج بعد تمنع ، قال : « تنفست يوما بُنَانَة ـــ جارية سكينة ـــ وتنهدتْ حتى كادت أضلاعُها تنشق . فقالت لها سكينة : مالك ؟ ويلك ! قالت : أُحِبُّ أن أرى فى الدار جَلَبَةً ـــ تعنى العُرْس ...

« فدعت سكينة مولى لها تثق به ، وقالت له : اذهب إلى ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، فقل له : إن الذى دفعناك عنه ، قد بدا لنا فيه . ائتِ أخوالَ رسول الله ﷺ فاخطبْ سكينة »[1] . وفى رواية « ابن سعد » أنها ولّته أمرها !

وابراهيمُ بن عبد الرحمن بن عوف ، من بنى الحارث بن زهرة بن كلاب [2] .

وكان قد خطبها بعد مقتل مصعب ، فأنكرته وردَّته فى غيرِ رفق ، وبعثتْ إليه قائلة :

ـــ أبلغ من حُمقك أن تبعث إلى سكينة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، تخطبها ؟

فأمسك ابراهيمُ عن ذلك ، حتى إذا جاءه رسولُها أنها قد غيّرتْ رأيها فيه وولَّته أمرها ، أقبل والدنيا لا تسعه من فرحته ، فجمع نحو سبعين رجلا أو ثمانين من رجال بنى زهرة وأعيان قريش ، واتجه بهم فى جمعٍ حافل مشهود ، ساعيا إلى « على بن الحسين » ليخطب إليه أخته سكينة . أو ليُشهده عليها !

وذاعت القصة فى المدينة والوفدُ لما يزل فى طريقه إلى البيت الهاشمى ، فما كان خروجُ ابراهيم فى موكبٍ كهذا عِدَّتهُ سبعون أو ثمانون رجلا ـــ فيما أحصت الرواية ـــ بالذى يمضى دون أن يلفت إليه الأنظار ويستثير الفضول .

(١) الأغانى : ١٦٢/١٤ ساسى . يقابل على (طبقات ابن سعد ٤٧٥/٨) .
(٢) نسب قريش : ٢٦٦ .

وعرف الناسُ أن إبراهيم ما جمع هذا الحشدَ إلا لكى يعلن خطبته للسيدة سكينة وليًّا عنها . وبلغت الشائعة دور بنى هاشم فاسترابوا فيها أول الأمر ، وشق عليهم أن يصدقوا أن تكون السيدة « سكينة بنت الإمام الحسين » قد ولَّت ابراهيم أمرها ! . . .

وتنادَوا ، حتى إذا اجتمعوا قال قائلهم :

ـــ لا يخرجَنَّ منكم إنسانٌ إلا ومعه عصا ![1]

وهناك عند بيت سكينة ، التقى الجمعان مغضَبين ثائرين :

بنو هاشم وقد أنكروا على ابراهيم ، التطلع إلى بنت الإمام الحسين .

وبنو زهرة ، وقد أنكروا أن يهون ابراهيمُ عند بنى هاشم إلى ذلك الحد ، وإنه لمن صميم الزهريين ، آل آمنة بنت وهب ، أم النبى ﷺ !

وإن أباه عبد الرحمن ، لصاحِبُ الشورى عند الرسول ، وأحد العشرة الذين شهد لهم عليه الصلاةُ والسلام بالجنة [1] .

وإن أمه « أم كلثوم بنت عقبة الأموية القرشية » لمن المهاجرات المبايعات ، خرجت إلى النبى ﷺ فى هدنة الحديبية ، فطلبها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة ، وكانا لا يزالان على الكفر . وقدما المدينة يستردانها كشرطِ الحديبية[2] ، فقالت فى ضراعة :

ـــ يا رسول الله ، صلى الله عليك ، أتردنى إلى الكفار ، فيستحلوا حرامى ويفتنونى عن دينى ؟

وفيها ، وفى المهاجرات فى هدنة الحديبية نزلت آية (الممتحنة) :

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

(٢) ابن حجر : الاصابه ـــ رقم ١٥٧١ ونسب قريش ٢٦٥ .

(٣) كان مقتضى هذا الشرط لقريش : ان من جاء المسلمين من قريش ، بغير إذن وليه ، ردّوه إليهم . وارجع إلى صلح الحديبية فى الصحيحين ، وفى السيرة النبوية مع ترجمة أم كلثوم رضى الله عنها فى الاصابة ، ونسب قريش : ١٤٥ ، ٢٦٦ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ ... فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ... ﴾ الآية ١٠ .

ولم يردها ﷺ إلى الكفار ...

* * *

خاطب مردود

وتشاح أفراد الفريقين ، وتضاربوا ، فأصيب منهم يومئذ أكثرُ من مائة إنسان ، قبل أن ينفض العراك ...

وصاح الهاشميون : أين سكينة ؟

فأنبئوا بموضعها ، وانطلقوا إلى حيث كانت تتلقى أنباء المعركة التى شبتها ، فى فضول المتفرج وسخرية العابث !

صاحوا بها : أبلغ بك الأمر أن تصنعى هذا ؟

فالتفتت سكينة إلى مولاتها بنانة ، وسألتها ، وما تفارق الابتسامة ثغرها : « أى بنانة ، أرأيتِ فى الدار جلبة ؟ » .

أجابت وهى لا تكاد تجد صوتها من خوف وذعر :

ــ إى والله يا سيدتى ، إلا أنها شديدة ![1] .

وأبت « سكينة » بعد ذلك أن تتزوج من ابراهيم ، حين تُرِك لها الخيارُ فيه .

فى (طبقات ابن سعد) أن ابراهيم تزوجها لما ولَّته نفسها « فأقامت معه ثلاثة أشهر فكتب هشام بن عبد الملك إلى واليه بالمدينة : أنْ فرّقْ بينهما . ففرَّق بينهما . »

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .

نقلته الدائرة وعقبت عليه بقولها : « وهذا شيء بعيدُ الاحتمال » دون أن تحدد الشيء المشار إليه ، أو تذكر سببا يبعده عن الاحتمال .

وأغلبُ الظن أن هذا هو طلاقها من ابراهيم بأمر هشام بن عبد الملك ! وإنه فعلا لشيء بعيد الاحتمال إن لم يكن من المحال ! ذلك لأن هشاما ولى الخلافة سنة ١٠٥ هـ وتوفى سنة ١٢٥هـ عن ٥٤ سنة ، وقيل كان ابنَ ٥٥ سنة أو ٥٢ سنة وهما روايتان فى الطَّبرى(١) .

أى أنه لم يكن قد وُلِدَ بعدُ حين قتل مُصعب سنةِ إحدى وسبعين وترملت سكينة ، أو لعله كان وليدا فى المهد إذا أخذنا بقول من قال بموته سنة ١٢٥ عن ٥٢ سنة !

فأنّى ، وكيف ، تدخل فى مسألة زواج سكينة من ابراهيم ، بعد أن قُتِل عنها مصعب ! ؟

وأما حكاية خطبة ابراهيم للسيدة سكينة بإيعاز منها ، ثم رفضها الزواج منه بعد الذى كان من عراك بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فليست بعيدة الاحتمال .

وإن لم أستبعد كذلك أن تكون من إضافات السمار ، أغراهم بها ما عرفوا من ميل سكينة إلى الدعابة ، وإنها لدعابة قد يرى ناسٌ فيها لونًا من المرح ، على حين نراها دعابة مُرَّة قاسية : فهذه الشريفة الحسناء ، يخطبها من لا تراه كفئا لها ، فترده بعبارة تنطق بإبائها واعتزازها بنسبها العالى ، ثم لا تكاد تسمع تنهد « بنانة » واشتياقها إلى جلَبة الفرح ، وضيقها بوجوم البيت وسكونه ، حتى تثور فى أعماقها ذكرياتُ ما لقى آلها الأكرمون من اضطهاد . . . وحتى تستحضر مصارع الشهداء من رجالها . ومرأى أشلائهم مبعثرة على ساحة كربلاء ، لا يُصَدُّ عنها سَبْعٌ ولا وحش ! ؟

(١) تاريخ الطبرى : ٨ / ٢٨٣ ، ٢٨٨ وانظر معه شذرات الذهب : ١ /١٦٣ .

قتلوا جميعا فى يوم واحد ، بسيوف قوم يدينون بدين محمد ، ويشهدون أنه رسول الله .

وماذا صنعت المروءة لزوجها مصعب ، وقد خذله جنده وباعه أنصاره بثمن بخس ، دراهم معدودات ، ومواعيد عرقوبية كاذبة ؟

فهل من عجب أن تهزأ السيدة سكينة ، بنت الشهيد ، وأرملة مصعب ، بهذا المجتمع المنافق ، وتسخر بما تعارف عليه من قِيَمٍ يقدسها باللفظ ويخونها بالفعل ؟..

وأى شيء هو أبلغ فى الهزء بالنفاق الاجتماعى ، من أن تغرى بخطبتها من ردَّته بالأمس خائبا ؟... أى شيء هو أبلغ فى السخرية بالعرف السائد فى مجتمع الأشراف من قريش ، من أن ترجع سكينة عن قرارها الأول ، لمجرد إرضاء رغبة عارضة من جاريتها « بنانة » فى أن ترى فى البيت جلبة عرس ؟ ! ... ثم تكون ، بنت الحسين وحفيدة الزهراء ، هى هى التى تبعث مولى لها إلى ابراهيم بن عبد الرحمن ، لتعلنه بأنها ولَّته نفسها ورضيته زوجًا ؟ ! . . .

* * *

وجلست تتفرج على المشهد الذى ألَّفته ورسمت خطتَه وعيَّنتْ مسرحه واختارت أشخاصه !...

وطاب لها أن تصغى إلى ضجيج المعركة الصغيرة بين الفريقين من آلها وآل ابراهيم الزهرى ، تمخضت عن مائة مشجوج ، فيما أحصت الرواية ، وعن ضحية أخرى فوق المائة : الخاطب المسكين الذى باء بالحسرة والهوان ؟ !...

وما تكون تلك الضحايا ، أمام عشرات الألوف من المسلمين الذين قتلوا فى مجازر الفتنة الحالقة ، فى مواقع الجمل ، وصفين ، وكربلاء ، ومعارك التوابين والخوارج ، والصراع بين الأمويين والهاشميين ثم بينهم وبين الزبيريين من بعدهم ؟ . . .

بل ما تكون هذه الضحايا بالقياس إلى مصرع الحسين وحده ، رضى الله عنه ؟ !

وأى شيء هذه الضجة ، بالقياس إلى ضجة كربلاء ، أو الحرة ، أو موقعة « مسكن » التى قُتِل فيها مصعب بن الزبير ، فتى قريش ؟ ..

الله ... الله ! ... لقد طابت الحياة لقريش بعد كل هذا الذى كان ، فلا ضير عليهم فى أن يحتملوا مائةَ مشجوج ، نظير التفرج على مشهد ساخر فَكِهٍ طريف ، من إخراج بنت الإمام الشهيد ، أرملة مصعب بن الزبير ! ...

أو فلتضف هذه الخدوش الهينة ، إلى رصيدها الضخم من صَرعى الفتنة ، وضحايا البغى والعقوق ، والغدر ، والنفاق ...

* * *

مع الأصبغ المروَانى

ونتبع السيدة سكينة إذ تمضى بها الحياة فى الخضم الكبير ، بعد أن سكنت الضجة التى ثارت بين بنى هاشم وبنى زهرة ، فإذا معالم الطريق تغمض أمامنا وتتوه ، حتى ما ندرى أى طريق سلكت بنتُ الحسين ، بعد الذى كان ...

موتى يُبعَثون !

ثمة خبر يقول : إن « عبد الله بن مروان خطبها بعد مصعب ، فقالت أمها : لا والله لا تتزوجه أبدا وقد قَتَل ابن أخى — تعنى مصعبا »[1]

ولا حاجة بنا إلى توهين الخبر بأن عبدَ الله لم يَقتل مصعبا ، وبأن الأخوة المدعاة بين الرباب والزبير أبى مصعب — فى قول الرباب : وقد قتل ابن أخى — لا تعدو التقاءً فى الجد الخامس لمصعب من ناحية أمه : الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن حصن بن كعب بن عليم بن جناب الكلبى[2] .

والجد الرابع للرباب أم سكينة من ناحية الأب : امرئ القيس بن عدى بن أوس بن جابر بن كعب بن عليم[3] .

أجل ، لا حاجة بنا إلى توهين الخبر بمثل هذا أو نحوه ، بل يكفى أن نقول إن الرباب ، أم سكينة ، ماتت فى سنة ٦٢ هـ حزنا على زوجها الحسين ، بعد عام من مصرعه فى كربلاء[4] ، وغير معقول أن تُبعَث من قبرها لتظهر

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ ساسى .
(٢) نسب قريش : ٢٣٦ — وجمهرة أنساب العرب : ٤٢٧ .
(٣) نسب قريش : ٥٩ — وجمهرة أنساب العرب ٤٢٧ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٧٣ .

على مسرح الأحداث بعد وفاتها بنحو عشر سنين ، فترفض أن تتزوج بنتها سكينة ، بعد مصعب ، من عبد الله بن مروان ! ...

* * *

زواج لم يتم :

ونفرغ كذلك على عجل من زواج آخر لم يتم !...

ذلك هو زواجها بالأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، أخى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه .

قيل إنه خطبها ، وأغلى لها المهر ، فقبلتْ بعد تردد وتمنع .

كان وقتئذ واليا على مصر ، لعمه عبد الملك . فلما استدعاها ، أبدت خوفها من جو مصر ، فبنى لها مدينة سماها « الإصبغ » وأرسل إليها بالمدينة أنه قد هيأ لها أطيب مقام .

وانتظر الرد ، فجاءه رد ، لكن ليس من سكينة ، وإنما من عمه عبد الملك الذى كتب إليه يخيره بين إحدى اثنتين : ولاية مصر ، أو الزواج من بنت الإمام الحسين [٢] .

فاستجاب الأصبغ لرغبة عمه عبد الملك ، وأرسل إليه بطلاقها ، قبل أن يدخل بها .

وأما لماذا كره عبد الملك زواج ابن أخيه من بنت الحسين ، فتقول رواية : إنه نَفِس عليه بها .

وتقول أخرى : إنه غضب لكثرة ما أنفق الأصبغ عليها من مال ، فقال : ما نزوجها أخانا حتى نزوجها مالنا .

والروايتان ، كلتاهما ، فى (الأغانى) وإذا كان لنا أن نختار ، فالأولى عندنا أوْلى .

وبقى الأصبغ فى مصر محزونا ...

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٢ .

وبقيت سكينة حيث هى فى المدينة ، وقد متعها الأصبغ حين طلقها ، بعشرين ألف دينار .

....

متى تمت هذه الخطبة ، القصة تشير إلى أنها حدثت والأصبغ والٍ على مصر لعبد الملك بن مروان ، أى فى سنة ٧٥ هـ ...

ومن هنا ، أتينا بها ، فى سياق الحديث عن حياة سكينة الزوجية ، بعد ترملها من مصعب .

و لم نلتفت إلى ما نقلته (دائرة المعارف) من زواج الأصبغ بها ، بعد مَنْ سمتْه : الزبير — وصححتُه : زيد — بن عمرو بن عثمان بن عفان ، الذى أجمع ابن خلكان فى (الوفيات) وابن العماد فى (الشذرات) وإحدى روايات (الاغانى) على أنه طلقها فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، وقد كانت خلافة سليمان من سنة ٩٦ إلى سنة٩٩ هـ ، على حين كانت الخطبة سنة ٧٥ ، فى عهد عبد الملك ، والأصبغ والٍ على مصر [١] .

كذلك لم نلتفت إلى روايتين فى الأغانى ، وضعتا خطبة الأصبغ إياها قبل زواجها من مصعب الذى قتل عام ٧١ هـ !

وأما غياب الإشارة إلى هذه الخطبة فى (نسب قريش) وفى (الجمهرة) فمن السهل ان نفسره بعدم إتمام الزواج .

* * *

---

(١) تاريخ الطبرى : ٧ / ١٠٢ ، ١٢٦ .

مَع عبدِ الله بن عثمان الحِزاميّ

هدنة مع الأيام :

فمَنْ بعد الأصبغ ؟ ...

لعل عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، هو أول من خطبها ، وتم زواجها ، بعد أن ترملت من مصعب .

على هذا اتفقت رواية (نسب قريش) التى نصت على أنه الذى خلف عليها بعد مصعب [1] .

وكذلك ابنُ خلكان فى (الوفيات) .

وهى أيضا رواية ابن سعد فى (الطبقات) وقد نقلتها عنه (دائرة المعارف) وإن كانت أضافت إلى اسم عبد الله بن عثمان ، أنه ابنُ أخى مصعب !

والصحيح أنه ابنُ أخته ، لأمه وأبيه ، رملة بنت الزبير بن العوام[2] .

وأما أبوه عثمان ، فكان من سادات قريش وأشرافها ، وكان مع عبد الله ابن الزبير بمكة ، فقتل فى الحصار الأول ، الذى قام به جيش يزيد قبل موته سنة ٦٥ هـ ولـه يقول أبو دهبل الجمحى :

ونِعم ابنُ أختِ القوم عثمانُ فى الوَغَى ... إذا الحرب أبدت نابَها وَهى تَكلَحُ

هو التارك المالِ والنفسِ حميةً ... وَلَلموتُ من بعدِ المعيشةِ أرْوَحُ

(١، ٢) نسب قريش : ٢٣٣ وانظر جمهرة أنساب العرب : ١١٢

وجاد بنفسٍ لا يُجاد بمثلِها	لها ، لو أقرت غَزْيَةً ، مُتَزَحْزَحُ[1]

ورحّب بنو هاشم بالزواج هذه المرة ، ورددت مجامع قريش ، قصيدة أخرى لأبى دهبل الجمحى ، بارك فيها هذه الصلة بين سليلة النبى ﷺ ، وبين حفيد الزبير بن العوام ، سليل حكيم بن خويلد الأسدى ، ابن أخى السيدة خديجة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، وفى هذه القصيدة يقول الجمحى :

قضتْ وطَرا من أهلِ مكةَ ناقتى	سوى أملى فى الماجدِ ابن حِزامِ
تمطت به بيضاءُ ، فرعٌ ، نجيبة	هجانٌ ، وبعضُ الوالدات غرام
جميل المحَيّا من قريش كأنه	هلالٌ بدا من سدفَةٍ وظلام
فأكرِمْ بنسلٍ منكَ بين محمد	وبين عَلِيٍّ ، فاسمعنَّ كلامـى
وبين حكيمٍ والزبيرِ فلن ترى	لهم شبَهـا فى مُنْجِـدٍ وتهامِ[2]

* * *

زواج مثمـــر :

ويبدو أن الحياة قد اطمأنت ببنت الحسين فى كنفِ هذا الزوج الماجد الكريم . وأمهلها الزمن بضعَ سنواتٍ ، ذاقت خلالها طعمَ الاستقرار والدعة ، وعكفت على تربية صغارها الذين كانوا ثمرة هذا الزواج المبارك بين فرعين من أعز فروع قريش . [3]

عثمانُ بن عبد الله ، وقد لقبه أبوه : قُرينا . وفى ولده كانت البقيةُ من نسب بنت الحسين .

وحكيم بن عبد الله

وربيحة بنت عبد الله ، التى تزوجها العباس أكبر أبناء الوليد بن عبد الملك ، وصاحب الغزوات الظافرة المشهورة فى بلاد الروم[4] .

---

(١) نسب قريش : ٢٣٣ — وانظر مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة ١٩١٠ .
(٢) نسب قريش : ٢٣٣ .
والابيات فى (ديوان أبى دهبل الجمحى) مع بعض اختلاف فى الترتيب .
(٣) نسب قريش : ٢٣٣ .
(٤) تاريخ الطبرى : حوادث السنوات ٩٣ : ٩٥ هـ .

ولعل ربيحة هذه ، هى الفتاة التى كانت أمها سكينة تُلبسها الدر لتفضحه ، والتى خلطت الرواية فنسبتها إلى مصعب بن الزبير .

* * *

وربما حاولت سكينة فى تلك الفترة من حياتها ، أن تسدل على أحزان صباها ستارا من التشاغل والتناسى . وعاد الأخباريون فانصرفوا عنها ، إذ هى مطمئنة فى حياتها الزوجية ، بعيدة عن أضواء المجتمع .

ثم مات زوجها عبد الله بن عثمان الحِزامى ، وترمّلت مرة أخرى ...

ويبدو أن وقع المصاب كان شديدا عليها ، نكأ فى أعماقها الجرح القديم الذى ما التأم مَرةً إلا ليعود فيدمى من جديد ...

ولعلها فى تلك الفترة ، سعت إلى البيت العتيق فى حجتها المشهورة التى التقت فيها بضرتها السابقة : عائشة بنت طلحة ...

وأبى متصيدو الأخبار أن يُفلتوا هذه الفرصة ، بل أسرعوا فجاءوا بغادتى قريش الحسناوين ، فى مشهد من مشاهد التنافس والتحدى ...

وإن لم يكن « مصعب بن الزبير » هو موضوع تنافسهما فى هذا المشهد الذى وصفه الراوى فقال :

« دخلت عائشة بنت طلحة على الوليد بن عبد الملك وهو بمكة فقالت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ لى بأعوان .

فضمَّ إليها قوما يكونون معها ، فحجّت ومعها ستون بغلا عليها الهوادج والرحائل .

وحجّت فى ذلك العام أيضا سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فقال حادى عائشة :

عائشَ يا ذاتَ البغالِ الستينْ لا زلتِ ما عشتِ ، كذا تحجين

فشق ذلك على السيدة سكينة ، ورد حاديها :

عـائشَ هـذى ضُرَةٌ تشكـــوكِ لـولا أبوهـا ما اهتـدى أبـــوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فَكَفَّ»[1]

ونرجح أن ذلك قد كان فى سنة ٩١ هـ ، لأنها السنة التى حج بالناس فيها ، الوليدُ بن عبد الملك [2]

* * *

(١) الأغانى : ١١ / ١٨٨ دار الكتب . وانظر الخبر وتعليق التاج السبكى عليه فى (طبقات الشافعية الكبرى ١ / ١٦٦ ط مصر) .

(٢) تاريخ الطبرى : ٨ / ٨١ .

مع زَيْد بن عَمْرو العُثمانى

شــروط عجيبــة :

رجعت « السيدة سكينة » إلى المدينة فى أخريات ذى الحجة من ذلك العام (٩١ هـ) أرملة كهلة ، ينزف الجرح فى أعماقها دما ، وقد طفح كأسها بالشجن المر والأسى الفادح ...

وجاء خاطب جديد ، ليكشف عن ضجرها الذى جاوز المدى ! ...

جاء « زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان »(١) يسألها أن تقبله زوجا على أى شرط تشاء ...

ولم تشأ أن يتم هذا الزواج على مألوف عادة القوم ، بل اشتطت فى شروط لها ، ما نراها ــ لوصح الخبر ــ إلا مظهرَ يأسٍ عميق ، وإن بدت فى شكل دُعابة ساخرة :

كانت فى مقدمة شروطها ثلاثة :

أولهـــا : ألا يَمس امراة سواها ...

والثانـى : ألا يحول بينها وبين شيء من ماله ...

والثالث : ألا يمنعها مَخْرجا تريده (١) .

فإن أَخَلَّ بأحدِ هذه الشروط ، فهى منه خلية !...

---

(١) فى اسم والد زيد وهم ، لعل سببه أن عثمان بن عفان له ولدان : عمر ، وعمرو . وقد ورد اسم زيد بن عمرو ، فى طبقات ابن سعد وفى أكثر المصادر ، وكذلك ورد مرة فى نسب قريش (٩٥) على أنه عاد فذكر زيدا بين ولد عمر . وقد رجحنا أنه ابن عمرو بعد طول مقابلة للمرويات ، وتتبع لسياق النسب لولد عثمان .

(٢) فى الأغانى (١٤ / ١٦٣) شروط أخرى مع هذه التى ذكرناها .

وقد يبدو الشرط الأول غريبا من السيدة سكينة والإسلام قد أحَلَّ تعدد الزوجات . وكان تعدد الزوجات فى بيئتها هو العرف المتبع والشائع . وقد تزوجت سكينة — وهى فى ربيعها العشرين — من مصعب ، وعنده عائشة بنت طلحة ، وفاطمة بنت عبد الله الأسدى ، وأمهاتُ أولادٍ شتى [1] .

ثم تأتى ، وقد جاوزت — الأربعين من عمرها — فتشترط على زيد العثمانى ألا يمس امرأة سواها ؟

لكن الشرط ، على ما يبدو من غرابته ، جائز شرعا . فللمرأة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها .

والشرط الثانى أعجب : فزيدٌ هذا « أبخل قرشى » فيما قالوا ، وقد رووا فى بخله أعاجيبَ يكاد المرء لغرابتها أن يتهمها بالوضع ، ولكنها على افتراض وضعها ، ذاتُ دلالة على رأى القوم فى زيد ، وفى بخله [2]

وتأتى سكينة ، فتشترط على زيد هذا الذى كان يأبى أن يشركه ضيف فى طعام ، ألا يحول بينها وبين شيء من ماله ، وإلا فهى منه خلية ..

وليس شرطها الثالث بأقل من هذين غرابة ، فما ألف المجتمع القرشى ، فى جاهلية أو إسلام ، أن تشترط زوجة على زوجها ألا يمنعها مَخْرجا تريده ...

أى مخرج ! هكذا على التنكير والتعميم ، دون تحديد أو قيد ؟ ...

وزيدٌ حفيدُ ذى النورين ثالث الراشدين وأحد العشرة رضى الله عنهم ، ومن بيتٍ فى الصميم من قريش[3] .

وسكينة . أختُ الإمام ، وبنت الإمام ، وسليلة النبوة !...

---

(١) نسب قريش : ٢٤٩ — وجمهرة أنساب العرب : ١١٢ .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٦٤ .
(٣) انظر نسبه فى « نسب قريش : ١٢٠ » و « جمهرة أنساب العرب : ٧٨ » .

فماذا تركت لزوجِها بعد كل هاتيك الشروط ؟ ...

لو أنها اشترطت على زوجها أن تكون العصمة بيدها ، ثم تحللت من عقد النكاح ، لسبب أو لآخر — أو حتى لغير سبب — لما خرجت فى ذلك على عُرْف القوم وتقليدِ الجماعة ، فأما أن تنص صراحة على أنه « إن مَسَّ امرأة سواها ، أو حال بينها وبين شيء — أى شيء — من ماله ، أو منعها مخرجا — أى مخرج ! — تريده ، فهى منه خَلِيَّة » فذلك ، إن صح ، هو الهزء بالمجتمع القرشى الذى أنكرت سكينة من حاله ما أنكرت ، وضاقت بما شاع فيه من غدر ونفاق ، وقتل النفس — وعشرات الألوف منها — التى حرم الله إلا بالحق !...

ألا ما أفدح الأثر الذى تركته محنة آل البيت فى نفس هذه الأنثى الذكية الشاعرة بذاتها !..

ويقال إنها مرحة عابثة ، وقد نسيت كلَّ الذى كان ، وأقبلت تستبدل زوجا بزوج ، وكأنْ لم يعد يشغلها سوى متاع الدنيا ؟ !...

كلا ...

إن الجرح كان من عُمق الغَوْرِ بحيث لا يُرَى من قرب ، ولو كان سطحيا لما خَفِىَ ! . . .

وهذه هى ، بعد أن احتست الأتراحَ والأشجان كأسا فى إثر كأس ، تأبى أن تعترف بأعراف وتقاليد ، لمجتمع يأكل بعضه بعضا ، ويلغ فى دماء آل محمد ، ولما يبلَ قميصهُ عليه الصلاة والسلام .

لقد صارت هذه الأعراف والتقاليد عند الهاشمية الحسناء ، عُمْلَةً زائفة لاتساوى مجردَ الالتفات إليها ! ...

فمن شاء أن يتزوجها ، وليكن زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فليقبل أن تفرض عليه من الشروط ما شاءت . . .

ليقبل أن ينزل لها عن حريته ولو كان سيدا وابن سيد وسليل سادة ...
وعن ماله ، ولو كان أبخل قرشي ...
وعن مهابته ، ولو كان ابنَ عم الخليفة ، وحفيدَ ذى النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه .
ووجم المجتمع القرشي وهو يرى زيدا يقبل ، ويتزوج سكينةَ على شروطها !...

* * *

أبخل قرشي :

ووجد الأخباريون فى زواج « أبخل قرشي » من الهاشمية الكريمة ، المُذِلة للمال ، مادةَ سمر ، ونوادر ، وحكايات ...

فهم يحكون من نوادر إهانتها للمال ، أنها رئيت مرة ترمى الجمارَ ، فسقطت من يدها الحصاةُ السابعة ، فنزعتْ خاتما ثمينا من إصبعها ورمتْ به ، بدلَ الحصاة [1] .

ويحكون من نوادر بخل زيد ، أنه خرج حاجًّا وخرجت معه سكينة ومعها خمسة أجمال محملة بأصناف الطعام . فكلما بلغ الركب منزلا ، أمرت السيدة الهاشمية بالطعام وأعدت الأطباق ، فجاء بعض القوم يسلمون على « زيد » فوضع يده على خاصرته فجأة وصاح متوجعا : « أوه خاصرتى !.. باسم الله ارفعوا الطعام وهاتوا الترياق والماء الحار ... » فإذا انصرفوا ، طلب الطعام ...

وحدث مرة ، وهم فى السيالة ، أن جاء أغيلمةُ الأنصارِ للتحية ، والطعامُ مُعَدٌّ . فأمر زيد برفعه متعللاً بالألم الطارئ !

يقول « أشعب » وكان يومئذ فى الركب :

« ولبثنا حتى انصرفوا ، ودخلنا ، وقد هلكتُ جوعا فلم آكل إلا مما

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ .

اشتريته من السوق من مائة دينارٍ أعطتنى إياها السيدة سكينة . فلما كان الغد أصبحت وبى من الجوع ما الله به عليم . ودعا زيد بالطعام ، فأمر بإسخانه ، وجاءته مشيخةٌ من قريش يسلِّمون عليه ، فلمّا رآهم اعتلّ بخاصرته ودعا بالترياق والماء الحار ، ورفع الطعام ، فلما ذهبوا ، أمر بإعادته فجىء به وقد برد فقال لى : ياأشعب ، هل إلى إسخان هذا الدجاج سبيل ؟ ... فقلت له : أخبرنى عن دجاجك هذا ، أهو من آل فرعون فهو يُعْرَض على النار غُدواً وعشيا ؟ » [1] .

* * *

تجربـة فاشـلة

ولم يكن من المنتظر ولا المرجو ، أن تسعد سكينة بعد أن أثقلتها أعباء الأيام والليالى وأثخنتها الجراح ، بزواج كهذا ، بل لعلها لم تكن راغبة فيه حريصة عليه ، وإنما هى تجربة جديدة ، لم تر بأسا فى معاناتها ، وليكن بعد ذلك ما يكون . .

والأخبار عن حياتها الزوجية مع زيد العثمانى ، تصورها قلقة منغصة ، وقد كثرت بينهما المغاضبة وطالت فى إحدى المرات حتى بلغت سبعة أشهر . والظاهر أن زيدا تململ من القيود التى ألجمته بها زوجته ، فحاول مرة أن يتحلل من أحدها . . . حدَّث أشعب :

« حج سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فاستأذن زيد بن عمرو سكينةَ فى الخروج معه ، وأعلمها أنها أول سنة يحج فيها الخليفة وأنه لا يمكن التخلف عن الحج معه . وكانت لزيد ضيعة قربَ المدينة يقال لها العَرجُ ، وله فيها جَوارٍ حِسانٌ . فأعلمته سكينة أنها لا تأذن له إلا أن يخرج أشعبُ معه فيكون عيناً لها عليه ، ومانعاً من العدول إلى العرج والاتصال بجواريه فى روحته أو رجعته » [2] .

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ ساسى .

(٢) الأغانى :١٤ / ١٦٤ ساسى .

فقبل زيد ... وحج سليمان وانصرف من حجه ولم يسلك طريق المدينة ، وانصرف زيد يريد المدينة ، فنزل على ماء لبنى عامر بن صعصعة ، ودعا أشعب ، وقدَّم إليه صُرَّةً فيها ٤٠٠ دينار — وكان سليمان قد أجزل لزيد العطاء — وأعلمه أنه ليس بينه وبين العرج إلا أميال ، وأن الدنانير له إذا هو أذِن له فى المسير إلى العرج ولقاء جواريه هناك ، ثم يوافيه بِغَلَسٍ وقتَ ارتحال الناس ...

« فأذِن له أشعب ، وأقسم له أنه سوف يحلف لسيدته بالأيمان المحرجة ، أن زيداً ما صار إلى العرج ولا اتخذ جارية لنفسه منذ فارق سكينة إلى أن رجع إليها . . وآب الحجيج إلى المدينة ، فابتدرت سكينة زوجها تسأله عن خبره . فقال وهو ينظر إلى أشعب :

— يا بنت رسول الله ، وما سؤالك إياى ولم يزل ثقتُكِ معى ، وهو أمينٌ علىَّ ، فسَلِيه عن خبرى يصدقك ...

فسألت أشعب ، فأخبرها أنه لم ينكر عليه شيئا ولم يمكِّنْه من اتخاذ جارية ، ولم يطلق له الاجتياز إلى العرج ...

فلما استحلفته على ذلك ، مضى يحلف لها بالأيمان المحرجة حتى جزع « زيدٌ » نفسه ، فوثب دونه ووقف بين يدى سكينة يقول فى ضراعة التائب وتوسل المُقِرِّ بذنبه :

— والله يا بنتَ رسول الله لقد كذَبكِ العلج ! ... جُزْتُ بالعرج فأقمتُ هناك يوما وليلة ، واتصلت بعدةٍ من جوارىَّ ، وهأنا ذا تائب إلى الله مما كان منى ، وقد جعلت توبتى منهن ، أن أحملهن إليك عشيةَ هذا اليوم ، فبيعُهن وإطلاقُهن إليكِ ، وأنتِ أعلمُ بما ترين فى العبدِ السوء — يعنى أشعب » .

أية زوجية هذه التى يصور لنا الرواة فيها « زيد بن عمرو بن عثمان » لا يتحرك — ولو للحج ، ومع أمير المؤمنين — إلا أن تأذن له زوجته ، وبشرط أن يرافقه تابع من قبلها يكون عينا لها عليه ؟ ! ...

ثم تصوره وهو يحتال للعدول إلى ضيعته وجواريه ، فلا يجد بدا إلا أن يُذل نفسه بالاستئذان من « أشعب ، مولى السيدة سكينة » وأن يُذل غالَى ماله بدفع أربعمائة دينار لأشعب ثمنا لسكوته ، وتستره عليه بأيمان كاذبة ؟

ثم هذا الموقف الذى وقفه بين يدى زوجته ـــ كنص عبارة الراوى ـــ ضارعاً مقراً بذنبه ، تائبا إلى الله ، وجاعلا كفارةَ الذنب . جواريه جميعا يُحضرهن إلى سكينة ، ويدع لها حرية التصرف فيهن بيعا وعتقا ! ...

وتضيف الحكاية أن « سكينة » لم تقبل توبة زوجها « زيد » ولا توبة عبد السوء « أشعب » ...

أما أشعب فجعلتْه مُثْلَة : أمرتْه بأن يحضر الدنانير الأربعمائة التى تقاضاها ثمناً لخيانةِ ثقتِها فيه ، وبعثتْ مَن ابتاع لها خشباً بثلاثمائة دينار ، واستدعتْ نجارين صنعوا من هذا الخشب صندوقَ تفريخٍ للبيض ، ودفعتْ لهم أجرَهم من الدنانير المائة الباقية ، بعد أن اشترت بَيْضاً وتِبْناً ! ...

وأقسمتْ بحق جَدِّها ، ﷺ ، أن يحضن أشعبُ هذا البيض حتى يفقس ...

وفعل المسكين : رقد على البيض حاضِناً ، حتى خرجت الفراريج فى ساحة دارِ « سكينة » فكانت تنسبها إليه وتقول : بنات أشعب ! ؟ . . .[1]

وأما زيد بن عمرو بن عثمان ، فذهبت تستعدى عليه « عمر بن عبد العزيز » والى المدينة لسليمان بن عبد الملك ...

تقول الرواية : فبعث عمر إلى زيد فأحضره ، وأمر « ابن أبى الجهم الفقيه » [1] أن ينظر بينهما . وندب رجلين ليشهدا قضاءه .

وجاء زيدٌ وحدَه إلى مجلس الحكم .

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٠ ، ١٦١ ساسى .

(٢) ابو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم العدوى التابعى . انظره فى « جمهرة انساب العرب ، وتهذيب التهذيب .

وأما سكينة فجاءت فى موكب من جواريها يحملن الوسائد والفرش . فلما أذنَ لها ابنُ أبى الجهم بالدخول وحدها ، أبت أن تدخل إلا ومعها ولائدُها . ثم أمرتهن ففرشن لها وسادة ، وهيأن مُتكئاً ، وزيدٌ منكمش قد لصق بمقعد القاضى « حتى كاد يدخل فى جوفِهِ خوفاًمنها » .

قال ابنُ أبى الجهم :

« يا ابنةَ الحسين ، إن الله يحب القصدَ فى كل شىء »

فردت عليه :

« وما أنكرت منى ؟ .. وإنى والله وإياك كالذى يرى الشعرةَ فى عين واحد ، ولا يرى الخشبةَ فى عين صاحبه » .

قال وقد أثاره ردها :

« أما والله لو لم تكونى سكينةَ بنت الحسين ، لَسطوتُ بكِ ! »

وطال بينهما الأخذ والرد ، حتى قال أحد شاهِدَى المجلس :

ــ يا أبا بكر ، ما لهذا جئنا ، ولا بهذا أُمِرْنا ، فانظر القضيةَ ولا تشاتم ...

وإذ ذاك التفتتْ سكينة إلى مولاةٍ لها وسألتها :

ــ من هذا الرجل ؟ . .

قيل : هو أبو بكر بن عبد الله بن أبى الجهم ...

فصاحت به : لا أراكَ ههنا وأنا أُشْتَم بحضرتك ! ..

ثم صاحت : يا لَرجالِ هاشم وقريش ! ...

فاعتذر لها مَنْ بالمجلس ! ...

وتكلم زيدٌ ، فأبدى خضوعه لها ...

قالت : ما أعرفنى بكَ يا زيد ! .. والله لا ترانى أبدا !... أتراك تمكث مع جواريك ثم أعود اليك !..

ونطق القاضى بحكمه : « إن جاءت سكينة ببينة على دعواها ، وإلا فاليمينُ على زيد ... » .

فكان جوابها أن التفتت إلى زيد وقالت :

ــ يا أبا عثمان ، تزودْ منى بنظرة ، فلن ترانى واللّهِ بعد الليلة أبدا ...

....

وانفض المجلس ، وقد أدبر النهار وجاء الليل ...

وكانت ليلة شاتية ، غائبة النجم ...

قال الفقيه أبو بكر بن عبد الله ، يُتم القصة :

« وخرجْنا فجئنا عمرَ بن عبد العزيز . فألفيناه ينتظرنا فى وسط الدار ، فى تلك الليلة الشاتية ، فسألنا عن الخبر ، فأخبرناه ، فجعل يضحك حتى أمسك بطَنه ! ...

ثم دعا زيداً من غدٍ ، فأحلفه وردَّ سكينة عليه » (١).

* * *

ولكنها رجعة لم تطل ...

عادت « سكينة » تشق على زيد ، وتُرهقه من أمره عسرا ، حتى « كانت ــ فيما تُحدِّث الأخبار ــ تقول له : يا عثمانى ، اخرج بنا إلى مكة . فإذا خرج بها فسارت يوما أو يومين ، قالت : ارجع بنا إلى المدينة . فإذا رجع يومَه ذلك قالت : اخرجْ بنا إلى مكة !» (٢) .

ثم استعدت عليه « سليمانَ بن عبد الملك » فقال لزيد :

« اعلم أنك قد شرطتَ لها شروطاً لم تفِ بها ، فطلقْها ... » .

وطلقها زيدٌ بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك (٣) .

---

(١) الاغانى : ١٤ / ١٦٤ ساسى .

(٢) الاغانى : ١٤ / ١٦٣ ساسى .

(٣) وفيات الاعيان : ١ / ٢٩٨ وشذرات الذهب : ١/ ١٥٤ .

وآب إلى دنياه ، يحصى خسائره فى تلك الصفقة ...

وضحكت المدينةُ كلها ، وهى تحصى معه كم أنفق من مال ، وكم احتمل من نَصَبٍ وإذلال ، ليرجع آخرَ الأمر صفرَ اليدين من سكينة ...

وضحكتْ سكينة على هذا المجتمع الذى يضحك ، وحق له البكاء ...

وكذلك ذكر ابنُ خلكان ، وابن العماد الحنبلى ، طلاقها منه بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك . والذى فى (نسب قريش ، وطبقات ابن سعد) : أن زيدا العثمانى هلك عنها[1] .

والأمرُ ـــ بعدُ ـــ غيرُ مستغرب من تناقض الروايات وتضارب الأخبار .

* * *

هكذا قالوا

وإنما الذى لا يهون تعليله وفهمه ، هو القول بأنها تزوجت بعد زيد ، بعمر بن حكيم بن حزام ...

ذكرت ذلك إحدى روايات الأغانى ، وإن اختُلِف فى دوره : أكان بعد زيدٍ أم قبله ...

وذكرته (دائرة المعارف) فى ترجمة سكينة ـــ نقلاعن زيادةٍ لابن قتيبة فى (المعارف) ـــ وإن يكن اسمه اسم أبيه تصحف فى الترجمة العربية بـ « عمرو بن حاكم بن حزام » . !

ولعل الاسم فى الترجمة العربية للدائرة ، نُقل خطأً عن الأصل الانجليزى فتشابه رسم حكيم فيها بحاكم .

---

(١) نسب قريش : ١٢٠ ط الذخائر ، والطبقات الكبرى : ٨ / ٤٧٥ .

وعمرو هذا ، أو عمر ، هو أخٌ لجدِّ عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ، زوجها بعد مصعب !

ولا ندرى كيف أدرك سكينةَ ، إلا أن يَصِحَّ فى حساب هؤلاء ، أن تتزوج من رجلين بينهما ثلاثة أجيال ! (١) .

وأما المصادر الأخرى — وأذكر منها : (نسب قريش ، وجمهرة أنساب العرب والمحبَّر ، ووفيات الأعيان ، وشذرات الذهب ، وكل المصادر الشيعية الحديثة التى قرأتها) — فلم تشر إلى هذا الزواج بكلمة .

وقد تتبعتُ أخبار زوجات بنى حكيم بن حزام فى نسب قريش ، فلم أر لسكينة ذكرا إلا فى زواجها من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، الذى ولدت له عثمان — قرينا — وحاكماً وربيحة ... (٢) .

وصاحب نسب قريش هو أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيرى ، الذى يلتقى نسبُه مع نسب بنى حكيم بن حزام ، عند خويلد الأسدى ، جد الزبير بن العوام ومصعب ، وجد حكيم بن حزام ...

وقد أحصى نسبَ قريش ، دون أن يشير إلى هذا الزواج بين حفيدة عمته خديجة ، زوجة عمه مصعب ، والجد عمرو بن حكيم بن حزام بن خويلد !

وكذلك لم يشر إلى الفتاة التى زعمتْ رواية الأغانى ، أنها كانت ثمرةَ هذا الزواج !

* * *

فهل نَدَعُ إذنْ حياة السيدة سكينة الزوجية لنمضى إلى جديد من أمرها ؟

---

(١) انظر مساق نسب ولد حزام بن خويلد فى نسب قريش : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، وفى الجمهرة : ١١٣ / ذخائر .

(٢) مثله فى « جمهرة أنساب العرب : ١١٢ ذخائر » .

كلا ، فما زال هناك ما يقال ...

إن الشيعة ، كما ذكرنا فى مطلع هذا الفصل ، يرفضون الاعتراف بهذه الزيجات المتعاقبة ، ولا يقبلون منها غير ما ذكروه من زواجها بابن عمها « عبد الله بن الحسن ، ثم بمصعب بن الزبير . واقتصر مؤرخ الإسلام الحافظ أبو عبد الله الذهبى ، على زواجها من مصعب .

وعذرهم واضح ، فما كانت هذه الأخبار فى تناقضها وتدافعها واختلاطها ، بالتى تدعو إلى شيء من ثقة وطمأنينة .

وقد رأيناها زوَّجت سكينةَ من عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام ، ثم من عم أبيه : عمرو بن حكيم !

وبعثت الموتى من قبورهم بعد سنين ذوات عدد ، فجعلت الربابَ أم سكينة ، ترفض زواجها من عبد الله بن مروان ، بعد قتل مصعب !

وسبقت الزمَنَ ، فجاءت على مسرح الأحداث بالأجنة فى بطون أمهاتهم ، حين جعلت هشام بن عبد الملك ، الذى وُلِد بعد مقتل مصعب — أو كان رضيعا فى عامه الأول — يتدخل فى حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن ، مع سكينة ، لما أراد زواجها بعد ترملها من مصعب بن الزبير !

فليس بالغريب ، فيما أرى ، أن يرفض الشيعة هذه المرويات جميعا ، وقد تعارضت فتساقطت ، وكذَّب بعضُها بعضا ، وجاوزت نطاق المعقول !

* * *

وأما تعدد زيجات سكينة ، فليس فى ذاته بموضوع غرابة أو إنكار ، وإن كانت (دائرة المعارف) نظرت إلى هذه المسألة بعين الهوى ، وقالت فى غَمْزٍ : « واشتهرت سكينة بصفة خاصة بزيجاتها المتعاقبة » .

وهكذا خَصَّتْ بنتَ الحسين وسليلةَ النبوة ، بتعاقب الزيجات .

وتجاهلتْ ما كان يقضى به العرف المتبع فى بيئة السيدة سكينة ، من إسراع الخُطّاب إليها كلما خلَتْ من زوج ، حرصا على شرف المصاهرة .

وما أحسب المستشرق « ماسيه » كاتب مادة سكينة فى الدائرة ، قد جهل هذا العرف ، أو غاب عنه ــ وهو يغمز ــ أن عقائل قريش الكريمات قد شاركن سكينةَ فى هذا الذى زعم أنها اشتهرتْ به « بصفة خاصة » . .

وقد صح لدينا من أخبار زوجيتها ، أنها تزوجت فعلا من ثلاثة : مصعب ، وعبد الله بن عثمان الحزامى ، وزيد بن عمرو العثمانى . وأما الآخرون فلم يتم زواجها بأحد منهم ، فهل يقال إن « سكينه » اشتهرت بزيجاتها المتعاقبة ، لأنها تزوجتْ ثلاث مرات ؟

من قبلها تزوجت جدتُها السيدة خديجة أم المؤمنين ، باثنين من أشراف قريش ، ثم تزوجت للمرة الثالثة من محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .

وتزوجت « أسماءُ بنت عميس الخثعمية » جعفر بن أبى طالب وولدت له عبدَ الله ، صهرَ الإمام علىٍّ وابن عمه . فلما استشهد جعفر فى « مُؤْتة » تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمدا . ثم خلَف عليها من بعده الإمامُ علىٌّ بن أبى طالب ، فولدت له ابنَه يحيى الذى استشهد مع أخيه الحسين فى كربلاء .

وعمة سكينة « أم كلثوم بنت على بن أبى طالب » تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فولدت له زيداً . ثم خلف عليها عونُ بن جعفر بن أبى طالب . ثم تزوجها من بعده أخوه محمد بن جعفر فلما مات عنها ، تزوجها أخوه عبد الله بن جعفر بعد طلاقه لأختها العقيلة [1].

وأم الحكم ، بنت عبد العزيز بن مروان ــ أخت الأصبغ ــ تزوجها الوليد ، ثم سليمان ، ثم هشام ، بنو عبد الملك بن مروان !

وعائشة بنت طلحة ، ضرة سكينة ، توفى عنها زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر . فتزوجها مصعب بن الزبير . فلما قتل تزوجها عمر بن عبيد الله . فلما تأيمت بعده خطبها خاطبون ، لكنها ردتهم .

---

(١) جمهرة أنساب العرب : ٣٣ ط الذخائر .

وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، قُتِل عنها عبدُ الله بن أبى بكر الصديق . ثم تزوجت عمرَ بن الخطاب فقتل عنها ، فتزوجها الزبيرُ بن العوام [1].

ومثلهن كثيرات ، من عقائل هاشميات وقرشيات ، لا أحصيهن عددا ...

* * *

---

(١) نسب قريش : ٣٦٥ .

الفصل الثالث

فى المجتمع

— شخصيتها الاجتماعيَّة

— المجتمع فى عَصرها

— صورتها فى هذا العصر

— عَوْد على بَدْء

— كلمة يجبُ أن تُقَال

— الأديبة النَاقِدَة

شخصيّتها الاجتماعيَّة

أحسب أن قد آن الأوان بعد ذلك كله ، لندع هذا الجانب من حياة الشريفة الهاشمية الحسناء ، إلى جانب آخر لم يكن أقل حظا من اهتمام الرواة ، والأخباريين ، ونساجى القصص والحكايات .

ذلك هو مكانها فى الحياة الاجتماعية والأدبية لعصرها .

والذين كتبوا عن هذه السيدة الكريمة ، لم يختلفوا فى أنها كانت الشخصية النسوية الأولى فى المجتمع الحجازى على أيامها ، ولو استعرنا أسلوب عصرنا ، لقلنا إنها كانت — فيما تصور المرويات والاخبار — نجم المجتمع . ولكنا نؤثر ألا نستعمل هذا المصطلح العصرى الذى ابتُذل فى وصف نجوم الملاهى وكواكب المحافل الساهرة ، فى حديثنا عن سليلة بيت النبوة وبنت الإمام الحسين . وإنما حسبنا أن نقول إنها منذ استقر بها المقام فى مدينة جدِّها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، استطاعت أن تنفرد بمكانة فى المجتمع لم ترقَ إليها سيدة سواها .

* * *

والأنباء والمرويات عن حياتها الاجتماعية مثيرة ، وبعضها مما لا يسهل التسليم به ولا يهون تصوره عن حفيدة الزهراء رضى الله عنهما . لكنا إذا استبعدنا هذا كله — على ما سيرى القارىء بعد حين — بقى بعده ما يؤكد أنها كانت فعلا الشخصية الاجتماعية الأولى فى عصرها ، وذلك لما اجتمع لها من مواهب وسجايا ، جعلت لها جاذبية خاصة ، لم تشركها فيها سيدات العصر ، وفيهن حِسانٌ خلبن الألباب بجمالهن ، وشريفات قرشيات وهاشميات ، بعضُهن من سيدات البيت النبوى الكريم .

والحق أن السيدة سكينة ، كانت باديةَ الاعتزاز بنسبها العالى وشرفها الرفيع . وكان خصومها وخصوم آلها ، يقرون لها بهذا الاعتزاز ويرونها أهلاً لأن تباهى به مَن تباهى فتُسكته . وقد مرَّ بنا كيف ردَّ حاديها على حادى ضُرَّتِها عائشة بنت طلحة ـــ حين افتخر بِجمالِها الستين ـــ بقوله :

عـائشَ هـذه ضُرَّةٌ تشكـوكِ   لولا أبوها ما اهتـدى أبـوكِ !

فأمرت عائشة حاديها أن يكف ، فكَفَّ !

وقد علق « التاج السبكى » على هذا الموقف فقال بعد أن نقل الخبر :

« فلله درها ـــ يعنى عائشة ـــ حيث كَفّتْ فى موضع الانكفاف أدباً مع رسول الله ﷺ . فقد كان الأمر ـــ والمفاخرةُ فى الدنيا ـــ هزلا ، فقابلتْه سكينة بذكرِ رسول الله ﷺ جَدًّا ، فأفحمتْ خصمها وأقامتْ عليها الحجة . فللهِ درُّها من مناظرة عرفت مواقعَ الجدل ، ودرُّ عائشةَ من مُذعنة للحق منقادة إلى الصدق »(١) .

وفى الأخبار ، أن سكينة شهدتْ يومًا مأتمًا فسُمعت إحدى السيدات تقول : أنا بنت الشهيد . فأنكر المجلس أن تفخر بأبيها على مسمعٍ من بنت غذىِّ النبوة سيد الشهداء . على حين أمسكت « سكينة » صامتة لا تعلق ، إلى أن أذَّن المؤذن من المسجد النبوى للصلاة ، فلما بلغ قوله : « أشهد أن محمدًا رسول الله » التفتت إليها السيدة سكينة وسألتها :

ـــ هذا أبى أم أبوك ؟

فأجابت فى تواضع :

ـــ لا أفخر عليكم أبدا (٢) .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ١٦٦ ، ١٦٧ ط الحسينية .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ ساسى .

وقالوا كذلك ، إن « الأحوص بن محمد الأنصارى » بدا له أن يفاخر السيدة « سكينة » ويقال إنه كان يضمر لها حُبًا لا يجرؤ على البوح به . قال :

فخَرتْ وانْتَمَتْ فقُلتُ ذَرِينى   ليس جَهْلٌ أُتيتِه بِبَديعِ
فأنا ابنُ الذى حَمَتْ لحمَه الدَّبْرُ   قتيلِ اللحيان يومَ الرجيعِ
غَسلَتْ خالىَ الملائكةُ الأبرارُ   مَيْتاً ، طوبَى له من صَريعِ [1]

جده « عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح الأنصارى » قُتِلَ ، رضى الله عنه ، غدرًا يوم الرجيع فى سرية إلى المشركين فقتلوه ، ولما أرادوا التمثيل به حَمَتْه الدبرُ أى النحل ، فلُقِّب بِحَمِيِّ الدبر . وخال الأحوص ، هو حنظلة بن أبى عامر بن صيفى الأنصارى الأوسى ، غسيل الملائكة ، استُشهِد رضى الله عنه يوم أحد .

فلما فاخر الأحوص سكينة ، غضب لها الناسُ وفيهم « سليمان بن عبد الملك » الذى أنكر على الأحوص ، فيما أنكر ، ردَّه على بنت الحسين ، ونفاه عن المدينة عقابا له .

وقال قائل من القوم : « وقد لعمرى فَخَر الأحوصُ بِفَخْرٍ لو على غير سكينَة فَخَر به ، وبأبِى سكينةَ حَمَتْ أباه الدبرُ ، وغسَّلت خالَه الملائكة ! » [2]

وكذلك عُرِفَ عنها أنها كانت تعتز بجَمَالها وتَعدُّه من نِعَمِ الله عليها ، وما أناقتها المشهورة ، وطُرَّتُها السكينية المبتدعة ، إلا مظهَرَ اعتزازٍ بذلك الجمال وعناية به .

(١) الأغانى : ٤ / ٢٣٤ دار الكتب .

(٢) الأغانى : ٤ / ٢٣٤ دار الكتب وانظر فى (الإصابة) ترجمة عاصم بنت ثابت ، جد الأحوص ، (رقم ٤٣٤٠) وحنظلة بن أبى عامر الغسيل (رقم ١٨٥٩) . ويوم الرجيع فى السيرة ٣ / ١٧٨ هشامية .

ولم تكن تسمح لضُرتها « عائشة بنت طلحة » أن تتطاول أمامها بما لها من حُسن ، بل كانت تُلقِّبها بذاتِ الأذنين ، كي تردَّها إلى شيءٍ من التواضع تجاهَها .

وقد مرَّ بنا الخبرُ عن مباهاتها بجمالِ بنتها ، ومبالغتِها فى تزيينها ، ثم قولها : إنها ما ألبستْها الدرَّ إلا لتفضحَه !

وكانت شجاعة اللسان والجنان :

سمعت أن عامل المدينة ـــ خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم الأموى[1] ـــ يشتم جدَّها الإمام عليًّا كرم الله وجهَه ، من فوق منبر جدِّها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، « فكانت تجىء يومَ الجمعة لتشهد صلاة الجماعة ، فتقوم بإزاء العامل إذ يصعد المنبر ، فإذا شتم عَليًّا ـــ كرم الله وجهَه ـــ تصدتْ له سكينة فتشتمه ، ثم أمرت جواريها أن يشتمنه ، فلا يملك أن يردَّ عليها ، بل يكتفى بأن يأمر الشرطَةَ بضربِ الجوارى »[1] .

ويذكرون فى وصف شجاعتها حادثة عجيبة ، إن يبدُ فيها عنصرُ الغلو ، فذلك لا يضيع دلالَتها على رأى الناس فى هذه السيدة الباسلة .

قالوا إن سلعة ظهرت بأسفل عينيها فما زالت تكبُر حتى أخذت جانبَ وجهها وعينها ، وكان بين مواليها مولى رومى يُدعى « درافيس » ، ذو خبرة بالطب والجراحة . فشكتْ إليه هذه السلعة التى تؤلمها ، وتوشك أن تشوِّه جمالها . ولما سألها درافيس :

ـــ أتصبرين على ما يَمَسُّك من الألم حتى أعالجَك ؟

أجابت دون تردد : أجل .

---

(١) كان خالد بن عبد الملك واليا على المدينة لهشام بن عبد الملك ، وقد عزله عنها سنة ١١٨ هـ بعد وفاة السيدة سكينة بعام . انظر تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٨ وقابل على الأغانى ١٥٩/١٤ ساسى .

قال الراوى : « فأضجعها درافيس ، وشقَّ جلدَ وجهِها أجمع ، وسلَخ اللحم من تحت السلعة حتى ظهرتْ عروقُها . وكان من السلعة شيء تحت الحدَقة ، فرفع الحدقة عنها حتى جعلها ناحيةً ، ثم سلَّ عروقَ السلعة من تحتها فأخرجَها أجمعَ ، وردَّ الحدقة إلى موضعها . وسكينةُ مضجَعةٌ لا تهتز ولا تئن ، حتى فرغ مما أراد ...

« وزال ذلك عنها وبرئتْ منه ، وبقى أثرٌ من تلك الجراحة فى مؤخّرِ عينِها ، فكان أحسنَ شىء فى وجهِها من كلِّ حلى وزينة ، ولم يترك فى نظرها ولا فى عينيها أدنى أثر »[1] .

وكانت آية فى ضبط النفس والتحكم فى عواطفها والسيطرة على وجدانها ، وبهذا الضبطِ استطاعت أن تحتفظ بمرحها فى بيت أبيها رضى الله عنه كى تكون مبعث أُنس له فى عوابس الظروف وحوالك الأيام . وبلغ بها هذا الضبط ، أن أمضتْ حياتَها الزوجية مع « مصعب » وهو لا يدرى ما تُضمره له من حُب عميق وعاطفة قوية ، حتى جاء يودعها الوداعَ الأخير فصاحتْ من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ! .. فالتفت إليها وقال فى دهشة : أوَكلُّ هذا لى فى قلبِك ؟ ... قالت : إىْ والله ، وما كنت أخفى أكثرَ !

وكانت كريمة تهين المال ، وإن ضاق القَيِّمُ على أموالها بإسرافها فى الكرم . حَجَّ أشعبُ مرةً ، فأمرتْ له بجمَل قوى يحمل أثقاله ، فأعطاه القَيِّمُ جملا ضعيفا ، فمضى أشعبُ يشكوه إلى سيدته فأرضتْه[2] .

وقد مر بنا آنفا ، ما ذكروه من وقفتها بالمحَصَّبِ من مِنَى ترمى الجمارَ ، فلما سقطتْ من يدِها الحصاة السابعةُ ، رمَتْ خاتَمها الثمين بدلاً من تلك الحصاة !

(١) الأغانى : ١٤ / ١٦٥ ساسى .
(٢) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ .

وأما نوادر ظرفها فكانت حديثَ المجتمع وروحَ مسامرِه ، وكان الناس يتناقلون هذه النوادر ويضحكون لها ، يستوى فى ذلك مَن يستطيبون النكتة وَيَهشُّون للدعابة ، ومَنْ عرفوا بالحزم والرزانة . وما ظنك بعمر بن عبد العزيز فى صرامة جِدِّه ، ووقار هيبته ، يضحك لإحدى نوادر سكينة حتى يُمسك بطنه ، وهو يومئذ والٍ على المدينة[1] .

ثم قصتها مع ابراهيم بن عبد الرحمن ، وحكاية « بنات أشعب » ، وردها على من سألها لماذا تكثر من المزاح وأختها لا تفعل . . . هذه الأخبار وأمثالها معها ، تشهد بما كان للهاشمية الحسناء من ظرف آسر ، وبديهةٍ حاضرة ، واعتداد بالذات !

* * *

هكذا كانت عزة النسب ، وعزة الجمال ، وأناقة المظهر ، وظرف السجايا ، وذكاء الأنوثة ، ولطف الدعابة ، إلى جانب ما عرف لها من ذوق أصيل ، وفقهٍ لأسرار البيان ، عناصرَ تشترك جميعا فى شخصيتها الفريدة ، بكل جاذبيتها وسحرها .

ثم أضيف إلى ذلك كله ، هذا المزاج النادر من التحرر والإباء ، من التسامح والتصون ، من الانطلاق والترفع . فأتيح لها أن تظهر فى المجتمع ملء البهاء والظرف ، وتهيأ لها أن تختار أسلوبها فى الحياة ، متحررةً من النفاق الاجتماعى ، دون أن ينالَ ذلك من مهابتها أو يلقى عليها ظلا من التهاون فيمايجب لمثلها من تصوُّن وعزة .

وقد أشرنا ـــ فى الحديث عن حياتها الزوجية ـــ إلى دوافع ذلك التمرد على نفاق المجتمع والسخرية بأوضاعه وأكاذيبه ، وربما كان من مظاهر هذا التمرد ،

---

(١) الأغانى : ١٤ / ١٥٩ ساسى .

ظهورُها فى المجتمع الأدبى على نحوٍ لم نألفه من أختها وبنات عمها . ولكنها ظلت مع هذا الظهور ، « بنتَ النبى » ! ولم تنس لحظة ، ولا نَسِىَ المجتمع ، أنها سكينة بنت الحسين !

وإنها لَتُجالس الأعيان من رجال قريش ، ويجتمع لديها الشعراء ، وتصغى إلى المغنين ، وتسيطر على المجتمع الأدبى ، دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالى ، أو يزايلها وعيُها لموضعها من بيت النبوة !

....

* * *

المجتمع فى عَصرِهَا

بهذه الشخصية الفريدة الجذابة ، ظهرت السيدة سكينة فى المجتمع فشغَلتْ عصرَها والعصورَ من بعده .

ولن نستطيع المضى فى الحديث عن سكينة فى المجتمع الأدبى ، قبل أن نمهد له بحديثٍ عن حال هذا المجتمع فى عصرها . وهو حديث قد يطول ، لكن عذرنا أن فهمه على حقيقته ضرورة ، لتبين الشخصية الأدبية للهاشمية الحسناء ، والمكانِ الذى شغلتْه فى المجتمع الأدبى .

* * *

قد يُخيل إلى كثير منا ، أن وصفَ حال الأدب والمجتمع فى الحجاز فى عصر السيدة سكينة ، مما لا مجالَ لمزيدٍ من القول فيه ، بعد أن فرغ منه الدارسون وأضافوه إلى ذلك الصنف من الموضوعات « التى نضجت واحترقت » .

ولهم فى تاريخ هذا العصر ما يشبه المسَلّمات التى ليس للنظر فيها مجالٌ .

منها : أن مجتمع الحجاز ـــ وبخاصة فى مكة والمدينة ـــ فى العصر الأموى ، قد فسد وانحل ، أثراً لسياسة بنى أمية التى عزلتْ أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام الملك وشئون السياسة ، وحبستْهم هنالك فى فراغ يُفسِدُه الشباب ، وتُفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون فى سخاء مسرف ، وبذلك قضوا عليهم أن ينفقوا أيامهم فى اللهو ويُبْلوا حياتَهم فى العبث والمجون[1] .

ومنها : أن تشجيع حياة المجون فى العاصمتين الدينيتين للإسلام ، قصد به

(١) الدكتور طه حسين : حديث الأربعاء ١ / ٢٣٥ .

الأمويون إلى القضاء على ما لهما من نفوذ دينى كبير وسيطرةٍ روحية نافذة ، حتى جاز للأستاذ المحقق « الشيخ عبد الله العلايلى » أن يذهب إلى أن الأمويين « قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر بن أبى ربيعة ، لأجل أن يمسحوا عاصمتى الدين ــ مكة والمدينة ــ بمسحةٍ لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية » وساق هنا حادثة الأخطل الشاعر النصرانى ، « الذى استخدموه ــ منذ عهد معاوية ــ فى الحرب الكلامية التى أرادوا بها أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة ، ليخلصوا من سيطرتها »[1] .

ومنها : أن شعر عمر بن أبى ربيعة هو مرآة للمجتمع الحجازى فى ذلك العصر ، والمصدرُ الأول والأهمُّ لفهمه على حقيقته وتأريخه تأريخا صادقا ، حتى ليقول أستاذنا العميد الدكتور طه حسين : « إن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمةَ التى أتيحت لهم ، حين حفِظ الدهرُ لهم شعر عمر بن أبى ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعرا إسلاميا استطاع أن يُمثل العصرَ الذى كان يعيش فيه والبيئة التى يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعا فى درس الجماعة التى كانت تحيط بهما : تريد أن تدرس العراقَ فى صدر الدولة العباسية وأن تدرس مدينة بغداد أيامَ الرشيد والأمين خاصةً فارجع إلى أبى نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز فى صدر الدولة الأموية فارجع إلى ابن أبى ربيعة . وليس من شك فى أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس مسلم بن الوليد والحسين بن الضحاك وأبى العتاهية ، كما أنك ستجد شيئا كثيرا نافعا فى درس العرجى والأحوص وابن ذريح ، ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة

(١) الاستاذ الشيخ عبد الله العلايلى : أشعة من حياة الحسين : ٤٧ .

يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى ، حين يُظهر لهم شاعرا أو كاتبا قد انتهت إليه كلُّ الخلال كما ظهرت فيه كلُّ النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته ، والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره . وإنما يظهر هؤلاء الكتاب والشعراء فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموى فى الحجاز ، وكذلك العصر العباسى فى بغداد »[1] .

ثم أكد هذا مرةً أخرى حين قال :

« إن المؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلةَ بين الرجال والنساء فى هذا العصر ، يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد »[2] .

* * *

هذه هى الصورة الذائعة الشائعة لمجتمع الحجاز فى عصر سكينة ، كما رسمها أعلام مؤرخى الأدب المحدَثين ، وكما استقرت فى أذهاننا .

فهل كان الحجاز حقا ، على ما وصفوه ؟

وهل الذى قالوه وقاله عمر بن أبى ربيعة ، هو كل ما كان هناك ، ولا شىء سواه ذو بال ؟

نرجىء الجواب عن هذا ، ريثما نسمع ما قالوه أيضا ، فى بنت الإمام الحسين ، رضى الله عنهما .

(١ ، ٢) حديث الأربعاء : ٢٨٩ ، ٢٩١ .

صُورتها فى ذلك العَصر

وطبيعى أن يكون وجود السيدة سكينة فى هذا المجتمع ، ومعاصَرتُها لعمر بن أبى ربيعة ، كافيين لأن يلقيا على صورتها ظِلالا من ذلك كله .

فمؤرخو الأدب ، يكادون لا يرتابون فى أن عمر قد تغزل فيها دون تكتم أو حذَر أو احتياط ، وأنه قد كانت له معها مواقف ، سجلها فى ديوانه ، وتغنى بها المغنون والمغنيات فى الحجاز وغير الحجاز ، وأشبعتْها (كتب الأغانى والأمالى) شرحاً وتفصيلاً .

فمن تلك القصائد ، بائيتُه المشهورة :

قالت سكينةُ والدموعُ ذوارفٌ ... منها على الخَدَّينِ والجلبابِ
ليت « المغيرىَّ » الذى لم أَجْزِه ... فيما أطال تَصيُّدى وطِلابى
كانتْ تَرُدُّ لنا المنى أيامنا ... إذ لا نُلامُ على هَوىً وتَصابِ
خُبِّرتُ ما قالتْ فبِتُّ كأنما ... يُرمَى الحشا بنوافذ النشاب
أَسُكينَ ما ماءُ الفراتِ وطِيبُه ... مِنى على ظمأٍ وفَقْدِ شبابِ
بِألَذَّ منكِ وإن نأيْتِ وقلما ... تَرعى النساءُ أمانةَ الغُيّاب
إن تبذُلى لىَ نائلا أشفِى به ... داءَ الفؤادِ فقد أطلتِ عذابى
وعصيتُ فيكِ أقاربى وتقطعتْ ... بينى وبينهُمُ عُرَى الأسباب
فتركتِنى ، لا بالوصال مُمَتّعاً ... منهم ، ولا أسعفتِنى بثوابِ
فقعدتُ كالمهريقِ فضلةَ مائِه ... فى حرِّ هاجرةٍ لِلَمْعِ سَرابِ

رواها القالى فى (أماليه) والزجاج فى (أماليه) كذلك ، عن الأخفش ، أبى الحسن ، عن المبرد .

على أن « الأصفهانى » ـــ وهو معاصِرٌ « للقالى » ، وإن تناءى بهما المكانُ ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب ـــ قد رواها مرة هكذا :[1]

قالت « سعيدة » والدموعُ ذوارف   منها على الخدين والجلباب

....

« أسعيدَ » ما ماءُ الفرات وطيبه   منى على ظمأٍ وفقدِ شبابِ
بألذَّ منكِ وأن نأيتِ وقلما   ترعى النساءُ أمانةَ الغُيّاب

قال أبو الفرج :

« وسعيدة ، هى سعدى بنت عبد الرحمن بن عوف ، وكان عمر قد تعرض لها بعد طوافه ، فقالت له : ويحك يا ابن أبى ربيعة ، ما تزال سادرا فى حرم الله متهتكا ، تتناول بلسانك ربات الجمال من قريش ! آمرُك بتقوى الله وتركِ ما أنت عليه » .

قال أبو الفرج : « وإنما غيّره المغنون فقالوا : سكينة » .

وقال أبو إسحق الحصرى (ت ٤١٣ هـ) بعد أن أورد هذه الأبيات برواية القالى : « كذَب مَنْ روى هذا الشعرَ فى سكينة رضى الله عنها »[2] .

وأخذ « الشيخ الشنقيطى » برأى صاحب الأغانى فى أن القصيدة قيلت فى سعدى هكذا :

* قالت سعيدة والدموع ذوارف *

على أنه عقب عليها بما يشير إلى أنها كانت تروى فى عصر الرشيد ، على أنها فى سكينة بنت الحسين . قيل : « إن اسحاق الموصلى غنى الرشيدَ يوما :

* قالت سكينةُ والدموع ذوارف *

فوضع القدحَ من يده وغضب غضبا شديدا وقال : لعن الله الفاسقَ ولعنكَ

---

(١) حـ ١٦ / ١٠ .
(٢) الحصرى : زهر الآداب ، ١ : ١٠١ .

معه ! .. فسُقِط فى يد إسحاق ، فعرف الرشيدُ ما به فَسَكَن ثم قال : ويحكَ ، أتغنينى بأحاديث الفاسق ابن أبى ربيعة فى بنت عمى وبنت رسول الله ؟ .. ألا تتحفظ فى غنائك ؟ .. أو تدرى ما يخرج من رأسك ؟ »[1] .

وأما الدكتور زكى مبارك ، فقرر أن عمر قالها فى « سكينة » على أثر اجتماعه بها مع نسوة من أهل المدينة ، تلبية لدعوة بعثت بها السيدة سكينة إليه مع رسول لها ، وواعدته « الصورَين » مكانا ، فى ليلة حددتْها له . وقد ذكر الدكتور مبارك مرجعه : « صاحب الأغانى ، فى أخبار عمر ، فى الجزء الأول »[2] .

فعلق « السيد الفكيكى » على هذا بقوله :

« مع العلم بأن صاحب الأغانى لم يذكر هذا الشعر فى ليلة الصورين ، وإنما ذكر شعرا آخر » .

ونقول : بلى ذكرها صاحب الأغانى فى حادثة الصورين فعلا ، فى الجزء الأول من الأغانى[3] .

على أنه ، كذلك ، ذكر حادثة الصورين هذه بنصِّها فى موضعٍ آخر ، ومع شعرٍ آخر ، قال :

« اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبى ربيعة وشعره وظَرْفه وحسن حديثه ، فتشوقن إليه وتمنينه . فقالت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما : أنا لكنَّ به . فأرسلتْ إليه رسولا ، وواعَدته الصورينِ ، وسمّتْ له الليلةَ والوقتَ . وأعدَّتْ صواحباتها . فوافاهن عمرُ على راحلته فحدَّثهن حتى أضاء الفجرُ وحان انصرافهن . فقال لهن : والله إنى لَمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ والصلاة فى مسجده ، ولكن لا أخلط بزيارتكن شيئا . ثم انصرف إلى مكة وقال :

---

(١) الخبر فى « الأغانى » : ١٦ / ١٢ » .

(٢) حب أبى ربيعة وشعره : ١٩٨ .

(٣) ص ١٦١ ، ١٦٢ ط دار الكتب ، ولعل السيد الفكيكى رجع إلى نسخة أخرى .

أَلمِمْ بزينبَ إن البَيْنَ قـد أفِـدَا قَلَّ الثّواءُ لَئِنْ كان الرحيلُ غَدَا
قد حَلَفَتْ «ليلةَ الصُّورَينِ» جاهدةً وما على المرءِ إلاّ الحلفُ مجتهدا
لأُختِها ، ولأخرى من مناصِفِهـا لقد وَجَدْتُ به فوقَ الذى وَجَدَا
لو جُمِّعَ الناسُ ثم اختِير صفوُهمُ شخصاً من الناس لم أعدلْ به أحدا(٢)

والسند فى الروايتين واحد ! ..

وقد غنى بالبائية « الهذلى ، والغريضُ » .

وغنى بالدالية « ابنُ سريج ، ومَعبد » وكذلك « الغريض ومالك » فى بعض الروايات .

ثم إن أبا الفرج نفسه ، عاد فذكر هذه الأبيات الدالية ، مقترنة بليلة الصورين ، مع إضافة جديدة لم ترد فى الموضعين السابقين . تلك هى أن عمر لما انصرف من اجتماع الصورين ، قال داليته :

* ألمم بزينب إن البيت قد أفدا *

« فلما كان بمكة قال : يا غريض ، إنى أريد أن أخبرك بشىء يتعجل لك نفعُه ويبقى لك ذكرُه ، فهل لك فيه ؟ .. قال : افعل من ذلك ما شئتَ وما أنت أهلُه . قال : إنى قلتُ فى هذه الليلة التى كنا فيها ــ يعنى ليلة الصورين ــ شعرا ، فامض به إلى النسوة فأنشِدْهن ذلك وأخبِرْهن أنى وجهت بك فيه قاصدا . قال : نعم .

وحمل الغريضُ الشعرَ ورجع إلى المدينة فقصد سكينَةَ وقال لها : جُعِلتُ فِداك يا سيدتى ومولاتى ! .. إن أبا الخطاب أبقاه الله وجهنى إليك قاصدا .

قالت : أو ليس فى خير وسرور تركته ؟

قال : نعم ...

قالت : وفيم وجّهك أبو الخطاب حفظه الله ؟

(١) الاغانى : ١٠٥/١ دار الكتب .

قال : جُعِلتُ فداكِ ! .. إن ابن أبى ربيعة حمّلنى شعرا وأمرنى أن أنشدك إياه ..

قالت : فهاته ...

فأنشدها :

* ألمم بزينبَ إن البَيْنَ قد أفدا * الأبيات

فقالت سكينة : يا ويحه ! .. فما كان عليه أن لا يرحل فى غدِه ؟ ..

ووجّهت إلى النسوة فجمعتْهن وأنشدتْهن الشعر ، وقالت للغريض :

ــ هل عملتَ فيه شيئا ؟ ..

قال : قد غنيتُه ابنَ أبى ربيعة .

قالت : فهاته ...

فغناه الغريض ، فقالت سكينة :

ــ أحسنت والله وأحسَنَ ابنُ أبى ربيعة ! .. لولا أنك سبقتَ فغنيتَه عمرَ قبلنا لأحْسَنّا جائزتَك .

ثم نادت : يا بنانة ، أعطيه بكلِّ بيت ألفَ درهم ، فأخرجتْ إليه بنانةُ أربعة آلاف درهم فدفعتها إليه . وقالت سكينة :

ــ لو زادنا عمر لزدناك .

ومع أن الجائزة تُحدد عدد الأبيات بأربعة فقط ، كما لاحظ السيد الفكيكى إلا أنها جاءت فى الديوان ــ شرح محمد العنانى ــ بزيادة خمسة أبيات ، لم ترد فى (الأغانى) مع تصريح الشارح بأنها كانت مرجعه ومعتمده . والأبياتُ الخمسة هى :

لَعَمْرُها ما أرانى إنْ نَوىً نزحتْ ... أو دام ذا الحبُّ إلا قاتلى كَمَدَا

بكر دَعَا فأتى عَمْداً لشقوته ... ما جاء مِن ذاكَ إن غَيًّا وإن رشدا

مَنْ يَنْهَ يُعْصَ ، ومن يُحْسَد ، ولا وأبى ... ما ضَرَّها مَنْ وَشَى عندى ومَن حَسَدا

هــذا يُقَرِّبُــه منها وعبــرتها ... يوم الفراق فما راعى ولا اقتصدا

وقد نهيتُ فؤادى عن تطلُّبها ... فأغَشّنى وأتى ما شاء معتمدا

ورفض السيد الفكيكى هذه الأبيات .

ورفض معها القولَ بأن الدالية قد قيلت فى سكينة ، ولم يرد اسمُها قط فى بيتٍ منها . وإنما هى عنده فى ضرتها « عائشة بنت طلحة التيمية ، وهى بنت أخت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وكانت تسكن المدينة . ولا يبعد أنها كانت من جملة النسوة فى ليلة الصورين إن صحّت الرواية ، ذلك لأن عمر ابن أبى ربيعة قال فيما قال فيها :

يا أُمَّ طلحةَ إن البينَ قد أفدا ... قلَّ الثواءُ لئن كان الرحيلُ غدا
أمسى العراقىُّ لا يدرى إذا برزتْ ... مَن ذا تَطَوَّفَ بالأركانِ أو سَجَدا

فأنت ترى أن مطلع تلك الأبيات وهذه واحد ، لولا اختلاف الكناية عن اسمها ، تهيُّبا من غضبِ فتيانِ بنى تيم الذين تَوعَّدوه »[1] .

وقصيدة ثالثة ، رواها « أبو على القالى » فى أماليه :

إن طيفَ الخيالِ حينَ ألَمّا ... هاجَ لى ذكرةً وأَحْدَثَ هَمّا
جَدِّدى الوصلَ يا «سكين» وجُودِى ... لِمُحِبٍّ ، رحيلُه قد أَحَمّا
ليس بين الرحيل والبينِ إلا ... أن يَرُدُّوا جِمالَهم فتزمّا
ولقد قلتُ مخفيًا لغريض : ... هل ترى ذلك الغزالَ الأَجَمّا
هل ترى فوقَه من الناس شخصاً ... أحْسَنَ اليومَ صورةً وأَتَمّا
إن تُنِيلى أَعِشْ بخَيْرٍ وإن لم ... تبذلى الودَّ متُّ بالهمِّ غَمّا

وقال أبو على: إنها من شعر عمر فى سكينة[2] .

وكذلك جاءت فى الديوان ، برواية أبى على .

غير أن « أبا العلاء المعرى » روى البيتين الأولين هكذا :

ودِّعى القلب يا «قريب» وجودى ... لِمُحِبٍّ فراقُه قد أحَمّا

---

(١) السيدة سكينة : ٣٢ — والأبيات فى ديوان عمر ، ص ١٤٠ .
(٢) الامالى « سمط اللآلى : ٢ / ٣٠٥ » .

ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جمالهم فتزمّا[1]

وكذلك رواها أبو الفرج ، بلفظ « قريب » :

إن طيف الخيال حين ألمّا هاج لى ذكرةً وأحدَثَ همّا
جَدِّدى الوصلَ يا قريب وجودى لمحبٍّ فراقُه قد ألمّا
ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جِمالَهم فتزمّا
ولقد قلت مخفيا لغريض : هل ترى ذلك الغزالَ الأجمّا
هل ترى مثلَه من الناس شخصا أكمل الناس صورةً ، وأتمّا[2]

وأعاد رواية بيتين منها فى موضع آخر ، عمن تدعى أم إسحاق قالت : « سمعت ابنَ سريج على أخشب مِنًى غداةَ النَّفْرِ وهو يغنى :

جَدِّدى الوصلَ يا قريب وجُودى لِمحبٍّ فراقُه قد ألَمّا
ليس بين الحياة والموت الا أن يردوا جِمالَهم فتزمّا

فما تشاء أن تسمع من خِباءٍ ولا مضرب حنيناً ولا أنيناً ، إلا سمعته ! »[4]

ثم أعادها بمثل هذه الرواية فى موضعٍ ثالث ، من أخبار « ابن سريج » ثم أضاف هذا الخبر :

« أُنشِدَ جعفرُ بن محمد بن على بن الحسين عليهم السلام قولَ عمر :

ليس بين الحياة والموت إلا أن يردوا جِمالَهم فتزمّا

فطَرِبَ وارتاح وجعل يقول : لقد عَجّلوا البَيْنَ ! .. أفلا يُوكون قِرْبة ؟ أفلا يُودِّعون صديقا ؟ .. أفلا يَشُدُّون رَحْلا ؟ .. حتى جَرَتْ دموعُه »[5] .

وأنكر « السيد الفكيكى » على جامع ديوان عمر أن يأخذ برواية القالى

(١) رسالة الغفران . تحقيق بنت الشاطىء : ٥٣٩ ط خامسة ذخائر .
(٢) الاغانى : ١ / ١٢١ دار الكتب .
(٣) الاغانى : ١ / ٢٩٣ دار الكتب .
(٤) الاغانى : ١ / ٣٠٥ دار الكتب .

ويدع رواية الأغانى التى كررها فى ثلاثة مواضع ، ثم تساءل السيد :

« وهل من المعقول يا ترى أن يُنشَد الإمام الصادق عليه السلام ما تغزل به ابنُ أبى ربيعة فى عمة أبيه فيطرَب ويرتاح ؟ .. وهل من الحق أن نتصوره أقلَّ من هارون الرشيدِ وقد غضب ، فى مجلس طرَبه ، غضبا شديدا ، على إسحاق الموصلى حينما غنى بين يديه بقولِ عمر حسب الرواية المغلوطة :

* قالت سكينة والدموع ذوارف *

* * *

ومقطوعة رابع لعمر ، فى (الأغانى) قيل إنها — هى الأخرى — فى سكينة بنت الحسين :

أُحب لِحبِّكِ من لم يكنْ ... صَفِيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل نفسى لمرضاتكم ... وأعتب مَنْ جاءكم عاتبا
وأرغبُ فى وُدِّ من لم أكن ... إلى ودِّه قبلكم راغبا
ولو سلك الناسُ فى جانب ... من الأرض واعتزلتْ جانبا
لَيَمَّمْتُ طيّتها ، إننى ... أرى قربَها العجَبَ العاجبا
فما ظبية من ظِباءِ الأراكِ ... تقرو دَمِيثَ الرُّبَى عاشبا
بأحسنَ عنها غداةَ الغميم ... وقد أبدتِ الخدَّ والحاجبا
غداةَ تقولُ على رِقْبة ... لخادمها : يا احْبِسى الراكبا
فقالت لها : فيمَ هذا الكلام ؟ ... وأبدَتْ لها عابسا قاطبا
فقالت : كريمٌ أتى زائرا ... يمرُّ بكم هكذا جانبا !
شريفٌ أتى ربعَنا زائرا ... فأكرَهُ رجْعَتَه خائبا

غنى فى أبياتها الأول والرابع والخامس « ابنُ القفاص المكى »[1] .

(١) الاغانى : ١ / ١٦٣

وقد أنكر « السيد الفكيكى » أن تكون قيلت فى سكينة بنت الحسين ، وظنها من مفتريات الدكتور زكى مبارك ، الذى قال فى دعواه إنه اعتمد فى هذه الأخبار على الأغانى وزهر الآداب والأمالى(١) .

قال :

« ونحن أيضا رجعنا إلى هذه الموضوعات الأدبية وغيرها من المصادر المعتبرة ، وأمهات الكتب فى لغة العرب وآدابها ومختلف تواريخها ... فلم نعثر على ما عثر عليه الدكتور مبارك بأن هذه المقطوعة قالها ابن أبى ربيعة فى سكينة ، ولم يذكر الأغانى من هذا الشعر سوى بيتين هما :

أحب لحبكِ من لم يكنْ صَفِيًّا لنفسى ولا صاحبا
وأبذل مالى لمرضاتكم وأعتبُ من جاءكم عاتبا

كما أن مَن عُنِى بجمع شعرِه وشرحه من الأدباء ، لم يذكروا ما ذكره الدكتور ... »(٢) .

وقلت : إن الأبيات وردت كاملة فى (الأغانى) بالنص الذى أثبتناه هنا ، نقلا عن طبعة دار الكتب .

وقد جىء بها عقب البائية :

* قالت سكينة والدموع دوارف *

فى سياق الشعر الذى قاله عمر فى سكينة ، وصُدِّرت بعبارة : « وقال فيها » عَوْداً بالضمير إلى سكينة .

ولكن الحق أيضا أن القصيدة لم ترد فى كل النسخ الخطية للأغانى ، وإنما نُقلت فى طبعة دار الكتب عن المخطوطة التيمورية . ولعل سقوطها من بعض النسخ ، هو الذى جعل السيد الفكيكى يؤكد « أن صاحب الأغانى لم يأتِ منها بغير بيتين اثنين ، ودون أن يشير إلى أنها قيلت فى السيدة سكينة » .

* * *

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٩٣ .
(٢) السيد توفيق الفكيكى : السيدة سكينة : ٤٣ .

هذه الصورة لسكينة ، تلائم صورة عصرٍ يمثله شعرُ عمر بن أبى ربيعة ، كما قال قائلون . فليس شىء من هذا الذى قيل فى بنت الحسين بمستبعد ، عند من ذكروا أن المجتمع الحجازى قد أباح لعمر أن يُطلق لسانَه فى شريفات قريش غيرَ متحرج ولا هَيّاب ، وما ذهبوا إليه من أن تغزل عمر بإحدى هؤلاء ، كان شهادة معترفا بها لصاحبتها بالحسن والجمال ، تحرصُ كلُّ حسناء على الظفر بها وتتكلف فى سبيلها ما يباح وما لا يباح ، حتى ليقال إن « الثريا بنت على » سمعتْ قولَ عمر فى رملة :

وجلا بُرْدُها وقد حَسَرَتْهُ نورَ بَدْرٍ يضىء للناظرينا !

فقالت : « أفٍّ له ما أكذبَه ! .. أوَ ترتفعُ حسناءُ بصفتِه لها بعد رملةَ ... » .

ورملةُ هذه هى بنت عبدالله بن خلف ، تزوجها عمرُ بن عبيد الله بن معمر ، فلما تزوج عليها عائشةَ بنت طلحة بعد مقتل مصعب ، قال الشاعر :

انعَمْ بعائشَ عيشاً غيرَ ذى رنق وانبذ برملةَ نبذَ الجورَبِ الخَلِقِ

وقالت له عائشة يوما فى لحظة صفاء : اعدد لى أيامك واذكر أفضلها . فعدَّ لها يومَ أبى فديك ويومَ سجستان ، ويومَ قطرى بفارس . . . لكن عائشة استدركت عليه قائلة : « قد تركتَ يوما لم تكن فى أيامك هذه أشجعَ منك فيه ! ..»

سألها : « وأى يوم هو ؟ .. » قالت : « يومَ أرختْ رَملةُ السترَ عليها وعليك ! .. »[1] .

وسكينة قد كانت سيدة نساء عصرها ملاحة وظرفا وأناقة ، فربما يؤذى جمالَها ــ عند هؤلاء ــ أن يسكت عُمَرُ فلا يمنحها الشهادةَ الرسمية المعترف

(١) الاغانى : حـ ١١ ص ١٨٠ وما بعدها ــ ط دار الكتب .

بها وحدها فى سوق الجمال ، بعد أن أقر له الشعراء بأنه أوصفُهم لِربّات الحجال .

ثم إن شعره فى سكينة ، ليس فيه من الفُحش ما يُقاس إلى شعره فى أخريات من حِسان ذلك العصر ، حيث جعل مخادعَهن ــ لا البيوت فحسب ــ ميدانا لمغامراته الغرامية ، ولن أنقل هنا رائيته فى النوار :

رَاحَ صَحْبى وَلم أُحَيِّ النوارا   وقليلٌ لو عَرَّجوا أن تُزَارا

وإنما أنقل هنا قصيدَتَه القافِيَّة فى إحدى شريفات المجتمع :

ولَمّا التقيْنا واطمأنتْ بنا النوَى   وغُيِّبَ عنّا مَنْ نخاف ونُشفِقُ
فقُمْنَ لكى يُخليننا فترقرقتْ   مدامِعُ عينيها وظَلّتْ تَدَفّقُ
وقالت : أما تَرْحمننى ! لا تَدَعْنَنى   لذى غزلٍ ، جَمّ الصبابةِ أخرَقُ
فقلن : اسكُتى عَنّا فلستِ مُطاعَةً   وخِلُّكِ عنا ، فاعلمى ، بِكِ أَرْفَقُ !

وداليتَه فى هند بنت الحارث المرية :

ولقد قالتْ لِجاراتٍ لها   ذاتَ يومٍ ، وتَعَرَّتْ تبترِدْ
أَكَمَا يَنعتُنى تُبْصِرننى   عَمْركُنَّ الله ، أم لا يَقتصِدْ
فتهاتفن وقد قلن لها :   حَسَنٌ فى كلِّ عينٍ مَنْ تَوَد
حسدٌ حُمِّلنه من أجلها   وقديما كان فى الناسِ الحسد

أجل ، أى شيءٍ فيما يَروون من تغزله بسكينة ، يقاس إلى هذا الذى نقلتُ أقلّه وأمسكتُ عن أكثره ! ..

وأى ضير عليها ، وهذا المجتمعُ الذى عاشت فيه قد طاب له ــ فيما قالوا ــ أن يصغى إلى معازف المغنين وحناجر المغنيات ، وهى تنطلق فى مهد الإسلام ودار الهجرة ، شاديةً بغزل عمر فى بنت الحسين ، وأختِ عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله ، ولبابة بنت عبد الله بن عباس . . . ومَنْ لا أحصى هنا من أسماء العقائل الكريمات ! ؟

بلى ، إن صورة سكينة فى هذه الأخبار والأشعار ، تأتلف مع صورة المجتمع الحجازى فى عصرها كما تَمَثَّلَهُ أساتذة الأدب ومؤرخوه .

....

على أن صورتها عندهم لا تكتمل ، إلا إذا أضفنا إليها هنا ، مجالسَ الطرب والغناء التى قيل أنّ « سكينة » كانت تعقدها فى مجلسها بدار الهجرة ، على بُعد خطوات من مثوى جَدِّها الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام . فى مسجده الشريف :

من تلك المجالس ، ما رواه صاحب الأغانى عن المغنين الأربعة المقدمين فى عصر سكينة : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد : الحجازيينَ ، وحُنين الحِيريِّ العِراقى . قيل إنّ الحجازيين اجتمعوا يوما فتذاكروا أمر حنين الحيرى وكتبوا إليه يقولون : نحن ثلاثةٌ بالحجاز وأنت وحدك بالعراق ، فأنتَ أوْلى بزيارتنا . فشخص إليهم ، فلما كان على مرحلة من المدينة بلغهم خبرُه فخرجوا يتلقونه فلم يُرَ يومٌ أكثرَ حَشْراً ولا جمعا من يومئذ . ودخلوا المدينة فلما صاروا فى بعض الطريق ، قال لهم معبد : صِيروا إلَىَّ . فقال ابنُ سريج : إن كان لك من الشرفِ والمروءة مثلُ ما لمولاتى سكينة بنت الحسين عطَفنا إليكَ . فقال : ما لى من ذلك شىءٌ .

وعدلوا إلى دار « السيدة سكينة » فلما دخلوا إليها أَذِنَتْ للناس إذنًا عاما ، فغصت الدارُ بهم وصعدوا فوقَ السطح ، وأمرتْ لهم بالأطعمة فأكلوا ، ثم إنهم سألوا حُنيناً أن يغنيهم صوتَه الذى أولُه :

هَلاَّ بكيت على الشباب الذاهب   وكففت عن ذمِّ المشيب الآيب

وكان حنين قد قال لهم : ابدءوا أنتم . فقالوا : ما كُنا لِنتقدَمَك ، ولا نغنى قبلَك ، حتى نسمعَ هذا الصوت .

فلما غناهم إياه ، وكان من أحسن الناس صوتا ، ازدحم الناسُ على السطح وكثُروا ليسمعوه ، فسقط الرواقُ على مَن تحته ، فسَلِموا جميعا وأُخرِجوا أصحاء ، غيرَ « حنين » فإنه مات تحت الهدم .

وقالت السيدة سكينة فيما حكوا :

ـــ لقد كَدَّرَ علينا حنينٌ سرورنا ! .. انتظرناه مدةً طويلة ، فلما جاء مات ، كأنا والله كنا نسوقُه إلى مَنِيته[1] .

ومجلس آخر رواه صاحب الأغانى قال :

« كان ابن سريج قد أصابته الريحُ الخبيثة وآلى يمينا ألا يغنى . ونسك ولزم المسجد الحرام حتى عوفى . ثم خرج وفيه بقيةٌ من العلة ، فأتى قبرَ النبى ﷺ وموضعَ مُصَلَّاه . وإذ قدم المدينةَ نزل على بعض إخوانه من أهلِ النسك والقراءة ، فكان أهلُ الغناء يأتونه مسلمين عليه فلا يأذن لهم فى الجلوس والمحادثة . فأقام بالمدينة حَوْلاً حتى لم يعد يُحِسُّ من علته بشىء . وأراد الشخوصَ إلى مكة . وبلغ ذلك السيدةَ سكينةَ بنت الحسين رضى الله عنه ، فاغتمتْ اغتماما شديدا وضاق به ذرعُها . وكان « أشعبُ » يخدمها ، وكانت تأنس بمضاحَكتِه ونوادره . فقالت لأشعب : ويلكَ ! .. إن ابن سريج شاخص وقد دخل المدينة منذ حول ، ولم أسمع من غنائه قليلا ولا كثيرا ، ويعزٌّ ذلك علىَّ ، فكيف الحيلةُ فى الاستماع منه ولو صوتا واحدا !

فقال لها أشعب : جُعِلتُ فداكَ ، وأنَّى لكِ بذلك والرجلُ اليوم زاهدٌ ولا حيلةَ فيه ؟ فارفعى طمعَك وامسَحِى بُوزَك تنفعْك حلاوةُ فمك !

فأمرتْ بعضَ جواريها فوطِئْنَ بطنَه حتى كادت أمعاؤُه أن تخرج ، وخنقنْه حتى كادتْ نفسُه أن تتلف . ثم أمَرتْ به فسُحِبَ على وجهه حتى أُخرِجَ من الدار إخراجاً عنيفا على أسوأ الحالات ، واغتمَّ غما شديدا ، وندم على ممازحتها فى وقت لا يصلح لذاك .

ومضى حتى أتى منزل « ابن سريج » ليلاً فطرقه ، فقيل من هذا ؟ .. فقال : أشعب . ففتحوا له ، فرأى ابنُ سريج على وجهه ولحيته التراب ، والدمَ

---

(١) الاغانى حـ ١٥ ساسى ـــ وانظر معه ما فى (عيون الاخبار : ٤/٩٠)

ينزف من أنفه وجبهته ، وثيابه ممزقة . فهال ابنَ سريج ما رأى ، وسأله : « ما هذا ... ويحك ؟ .. »

فلما قصّ أشعب عليه القصةَ ، قال له : إنا لله وإنا إليه راجعون ، الحمد لله الذى سلّمك ! .. لا تعودَنّ إلى هذه السيدة أبدا .

قال أشعب : فَديْتُكَ ... هى مولاتى ولا غنى لى عنها . ولكن هلْ لك حيلةٌ فى أن تصير إليها وتغنيها فيكون ذلك سببا لرضاها عنى ؟ ..

قال ابن سريج : كلا والله ، لا يكون ذلك أبداً بعد أن تركتُه !

قال أشعب متوسلا : قد قطعتْ أملى ورفعت رِزقى وتركتنى حيرانَ بالمدينة لا يقبلنى أحد وهى ساخطة علىّ ، فالله فالله فىَّ ، وأنا أنشدُك الله إلا تحملتَ هذا الإثم فىَّ !

فأبى ابنُ سريج أن يجيب .

ولما رأى أشعب إصرارَه ، صرخ صرخةً آذن لها أهل المدينة ، ونبّه الجيرانَ من رُقادِهم . ثم سكَت فلم يَدْرِ الناس ما القصةُ عند خفوتِ الصوت الذى راعهم .

وسأله ابن سريج : ويلك ! .. ما هذا ؟

فأجاب متوعدا : لئن لم تَصِرْ معى إليهَا لأصرخنّ صرخةً أخرى لا يبقى بالمدينة أحدٌ إلا صار بالباب ، ثم لأفتحنه ولأُرِيَنّهم ما بى ، ولأعْلِمنّهم أنك أردتَ سوءا بغلامك فمنعتُك وخلَّصت الغلامَ من يديك حتى فتح البابَ ومضى ، ففعلتَ بى هذا غيظاً وأسفا ، وأنك إنما أظهرتَ النسكَ والقراءَةَ لتظفر بحاجتك من الغلام ...

فقال ابنُ سريج فى جزع : اعزبْ أخزاكَ الله ...

فأقسَمَ أشعب بكل الأَيمان لئن لم ينهضْ معه ابنُ سريج فى وقته هذا ، لَيفعلَنّ ما به أنذَرَ ...

وإذ رأى ابنُ سريج منه الجدّ ، خرج معه فلما صاروا في بعض الطريق ، عاد يرجوه أن يمضى عنه ويدعه لشأنه ، فقال أشعب مهددا :

ــ والله لئن لم تأتِ معى لأصيحَنّ الساعةَ حتى يجتمع الناس ، ولأقولَنَّ إنك أخذتَ منى سوارا من ذهب لسيدَتى سكينة ، على أن تجيئها فتغنيها سِرّا ، ثم كابرتَنى عليه وجحدتَنى وفَعلتَ بى هذا الفعلَ ...

فمضى معه ابنُ سريج مستسلما ضائعَ الحيلة ، حتى جاءا بيتَ السيِّدة سكينة فأذنتْ لهما فى الدخول ، وقالت لابن سريج :

ــ يا عبيد ، ما هذا الجفاء ؟

قال : قد علمتِ ــ بأبى أنتِ ــ ما كان منى ...

قالت : أجل ...

ثم تحدثا ساعة ، وقصَّ عليها ابنُ سريج ما صنع به أشعب ، فضحكتْ وقالت : « لقد أذْهَبَ ما كان فى قلبى عليه » وأمرتْ لأشعب بدنانيرَ وكسوة .

ثم قال لها ابنُ سريج : أتأذنين لى بأبى أنتِ ؟

قالت : وأين ؟

فقال : إلى المنزل .

قالت : برئتُ من جَدِّى إن برحتَ دارى ثلاثاً ، وبرئتُ من جدى إن أنت لم تغنِّ إن خرجت من دارى شهرا ، وبرئتُ من جدى ان أقمتَ فى دارى شهرا إن لم أضرِبْك فى كلِّ يوم فيه عَشْراً ، وبرئتُ من جَدِّى إن حنثتُ فى يمينى أو شفَّعتُ فيك أحداً .

صاح ابنُ سريج مستسلما : واذهابَ ديناه ! .. وافضيحتاه ! ..

ثم اندفع يغنى :

أستعينُ الذى بِكَفّيه نفسى ورجائى ، على التى قتلتْنى

فنزعتْ سكينة من عَضُدها سواراً من ذهب ، زِنَتُه أربعون مثقالا ،

وأقسمتْ عليه إلا لبسه ، ثم بعثتْ أشعبَ إلى « عزة الميلاء » تخبرها بوجود ابن سريج عندها وترجوها فى أن تزورها .

فما أسرع ما جاءت عزة ، وأقامت ليلَتها ببيتِ السيدة ، فلما كان اليوم الثانى هيِّيء مجلسُ الغناء ، وقالت سكينة :

ــ يا عَزّة ، إن رأيتِ أن تغنينا فافعلى ...

فغنتْ عزةُ لحنَها فى شعر عنترة العبسى :

حُيِّيتَ مِنْ طللٍ تقادَمَ عهدُه ... أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهيثمِ
إن كنتِ أزمعتِ الفراقَ فإنما ... زُمّت رِكابُكم بليلٍ مظلمِ

فهتف بها ابنُ سريج : أحسنتِ والله يا عزة .

وتزعت سكينةُ سوارَها الثانى وطلبت إلى عزة أن تلبسه ، ثم قالت لابن سريج : غَنّنا ...

قال : حسبُكِ ما سمعتِ البارحةَ ...

قالت : لابد أن تغنينا فى كلِّ يومٍ لحناً

فلما رأى أنه لا يقدر على الامتناع ، غَنّى :

قالتْ من آنتَ على ذكرٍ فقلتُ لها: ... أنا الذى ساقه لِلْحَيْنِ مقدارُ
قد حان منك ، فلا تبعدْ بك الدارُ ... بَينٌ ، وفى البَيْنِ للمتْبولِ إضرارُ

وفى اليوم الثالث ، غَنّت عزة لحنها فى شعر الحارث بن خالد :

وَقرّت بها عينى وقد كنتُ قبلَها ... كثيرَ بكاءٍ مشفقا من صدودها

قال ابنُ سريج : والله ما سمعتُ مثلَ هذا قط حُسناً ولا طِيبا .

ثم أمرته سكينة فغنى :

أرِقْتُ فلم أنَمْ طربا ... وبتُّ مُسَهّدا نَصِبَا
لطَيْفِ أحبِّ خلقِ الله ... إنسانا ، وإن غَضبا
فَلم أردُدْ مقالَتها ... ولم أكُ عاتباً عتبا
ولكنْ صرّمت حبلى ... فأمسى الحبل منقضبا

فقالت سكينة : قد علمتُ ما أردتَ بهذا ، وقد شفّعناك و لم نَزِدْكَ ، وإنما كانت يمينى على ثلاثةٍ فاذهبْ فى حفظِ الله وكلاءته .

وأمرت له ولعزةَ بحُلّتين » .

* * *

أما وقد اكتملت صورة الهاشمية الحسناء فى إطار العصر الذى يمثله غزلُ عُمَر فيما قالوا ، والذى أوجب علينا عميدُ مؤرخى الأدب أن نرجع إلى ديوانه إذا شئنا أن نفهم المجتمع الحجازى على حقيقته ، وأن ندرك حقيقة الصلة بين الرجال والنساء فيه .

أما وقد اكتملتْ هذه الصورة ، فإن لنا بعد ذلك وقفةً هنا ، نحاول فيها أن نتبين وجه الحق فى كل هذا الذى قيل ...

* * *

عَوْد عَلى بَدْء

ونحتاج بادىء ذى بدء ، إلى إعادة النظر فى تلك المسَلَّمات التى قررت أن المجتمع الحجازى قد كان حقا على ما يصوره غزَل « عمر » وأمثالِه .

وليست رغبةُ الدفاع عن بنت الإمام الحسين ، هى التى تدفعنا إلى هذا ، بقدر ما يفرضه علينا الحرص على الحق كيف كان .

أصحيح أن المجتمع قد انصرف عن الاشتغال بالأمور العامة التى أبعِد عنها عمدا ، وعكف على حياته الخاصة يبليها فى العبث والمجون ؟

بعض هذا يمكن أن يقال . بل كله أيضا يمكن أن يقال فى طائفة بعينها من الشباب المترفين ، لو أحصيناهم فى كتب التاريخ الأدبى لما جاوزوا العشرات .

وبقيت إلى جانبهم كثرة جادة ، شاركتْ فى الحياة العامة ، فكريا وسياسيا وحربيا مشاركةً مشهودة وعاها التاريخ .

ومن الإسراف أن يقال إن الحجاز كان بمعزل عن الشؤون الكبرى للدولة على النحو الذى وصفه مؤرخو الأدب ، فى تعليلهم لشيوع المجون وازدهار فن الغناء فيه ، وإن الواقع التاريخى لَيشهد بأن الحجاز كان أيضا مركز المعارضة القوية التى دوَّخت الأمويين وكلفتهم أفدح الأثمان ، ولم تمكنهم من الأمر إلا بعد أن رمَوا الكعبة بالمنجنيق . وقد اعترف الأستاذ الدكتور طه بأن « الشباب الحجازى جاهَدَ جهادا عنيفا فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى ﷺ ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرة ، وما كان خروج الحسين بن على إلا مظهرا لهذا الجهاد ... ولكن هذا الشباب الحجازى لم يوفق » .

ومع التسليم بأن هذه الثورات المتتابعة قد أخمِدتْ ، إلا أن من الحق أن نذكر أن ثورة ابن الزبير مثلا ، لم يُقضَ عليها إلا سنة ٧٣ هـ ، أى بعد توبة عمر بن أبى ربيعة ، التى تابها وهو فى الأربعين من عمره على ما قال مؤرخوه ، والمعروف أنه وُلِدَ فى أخريات ذى الحجة من سنة ٢٣ هـ — يوم مقتل الفاروق عمر بن الخطاب — فيكون قد بلغ الأربعين فى سنة ٦٣ هـ ، والحجازُ كله يناصب بنى أمية العداء ويأبى أن يقر لهم بالخلافة ، وحركةُ ابن الزبير فى عنفوانها ، وستظل كذلك إلى عام ٧٣ هـ ، أى بعد توبة عمر بنحو عشر سنين .

فكيف يهون التسليم بأن عمر يمثل المجتمع الحجازى فى تلك الفترة ، وأن الحجاز على عهده كان بمعزل عن الحياة العامة ، منصرفا إلى اللهو والمجون ؟ .. وأى شيء تكون حركة « ابن الزبير » التى استمرت بعد توبة عُمَرَ نحو عشر سنين ، تقضُّ مضاجع الأمويين وتحبسهم فى الشام وتزلزل الأرض من تحتهم ؟ .. أى شيء تكون هذه الحركة التى كانت غولا ، فيما وصف الأستاذ الشيخ العلايلى « وكادت تبتلع الدولة الأموية والعنصر الأموى »[١] .

ووقعة الحرة ، التى أشار اليها أستاذنا الدكتور طه ، قد كانت فى سنة ٦٣ هـ وفيها بلغ « عُمَر » الأربعين من عمره ، واختتم مرحلة المجون والطيش ، أو كما قالوا : « ختم عهدَ الفتكِ وبدأ عهدَ النسك »[٢] .

فإطلاق القول بأن الحجاز لم يشارك فى الحياة السياسية ، زمانَ الأمويين ، يجب أن يؤخذ بكثير من التحفظ والحرص . وإلا فقد كان الحجاز ، إبان عمر وأمثاله ، مركز المعارضة القوية التى تزعمها الإمامُ الحسينُ ، ثم عبد الله بن الزبير من بعده ، وقد وقفت مكة تجاه الأمويين فى دمشق ، موقف الخصم العنيد ، وثبتت فى المعركة سنينَ عددا قبل أن تُهزَم بعد حِصَار مجهدٍ[٣] . كما

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٨ .
(٢) الاغانى : ١ / ٧٧ ط دار الكتب .
(٣) تاريخ الطبرى : الجزء السابع ط مصر .

ظلّ لها بعد ذلك كله ، نفوذُها الروحي يبسط ظِلّه على الدولة الكبرى .

وكان هذا النفوذُ من العوامل التي قضت آخر الأمر على دولة بني أمية ، وأقامت الدولة العباسية على دعوة دينية ، تَرُدّ الأمر إلى أصحابه من آل البيت ..

وازدهار الغزل والغناء في مكة والمدينة في ذلك العصر ، أمرٌ لا نملك أن نشك فيه ، ولكن الذي نشك فيه ، هو أن هؤلاء الشعراء الغزليين ، يصورون بشعرهم الماجن حياةً ماجنة ! ..

أصحيح أن الحجاز كان إذ ذاك « قد أُسلِمَ إلى طوائف من الشعراء والمغنين والمخنثين ، من بينهم عمر ، استأجرهم الأمويون للقضاء على النفوذ الروحي الخطر ، لعاصمتي الدين » على ما ذهب إليه الأستاذ الشيخ العلايلي ؟[1] .

لا سبيل إلى إنكار أن السلطة الدينية للحجاز كانت خطرا يقدره الأمويون ، لكن تقديرهم لخطر النفوذ الديني للحجاز ، لم يكن بحيث ينسيهم أنهم بعد في حاجة إليه لقيام الدولة التي ورثت ملكَ الأباطرة والأكاسرة والفراعين بلواء الإسلام ، فالقضاءُ على الحرمة الدينية لمكة والمدينة ، يؤدي في الوقت نفسه إلى القضاء على الدولة التي يتولى بنو أمية أمرها . والثابت تاريخياً أن الأمويين كانوا يعتمدون على عصبية القبيلة في منازعتهم لبني هاشم ، لكن هذا لم يُغنهم قطّ عن الاعتماد على الصفة الدينية في مواجهة الأعداء المتربصين على الحدود ، وفي استنفار المسلمين للجهاد ، في بلاد الروم وفي الشرق الآسيوي ، والمغرب الافريقي .

وقد ظل الخلفاء منهم حريصين على الخروج إلى مكة في موسم الحجّ عاما بعد عام ، استظهاراً بهذه القوة الروحية التي كانوا في حاجة إليها وهم يحكمون ويحاربون ويفتحون باسم الدين الإسلامي . والأستاذ العلايلي يعرف قبل أن أعرف ، أن القولة الخبيثة « بأن المروانيين فكروا في صرف الناس عن المقدسات

(١) أشعة من حياة الحسين : ٢٩ .

الإسلامية التى تنزل من الإسلام منزلةَ الشعيرة ، بإنشاء المسجد الأموى بأبهته العظيمة فى دمشق ، وان هذه أيضا كانت نية عبد الملك بن مروان بأناقته فى تشييد المسجد الأقصى » هذه القولة الخبيثة لم يقلها إلا عدو الإسلام « الأب لامانس اليسوعى » ولم يؤيدها بشاهد أو قرينة . فخوف الأمويين من نفوذ مكة والمدينة الروحى ، يجب ألا يبعد بنا إلى ذلك الظن المتمادى ، بل يجب ألا ينسينا حاجتهم إلى الاستظهار بما يخافون منه . كما أن التسليم بأنهم مَكّنوا لأبناء المهاجرين والأنصار من حياة الفراغ والترف ، لا يجوز ان يذهب بنا بعيدا إلى القول باستئجار طوائف المخنثين والشعراء الماجنين لإفساد مكة والمدينة ، وإلا فقد كان من هؤلاء الشعراء ، مَن هو من صميم بيوت الأنصار وحزب الإمام على ، كالأحوص ، وعبيد الله بن قيس الرقيات والفرزدق . .

وحكاية يزيد والأخطل ، لا تعين على ما ذهب اليه الأستاذ العلايلى ، فما هى إلا حكاية فردية كان « يزيد » فيها موتورا لا بادئا واترا . هى كما رواها المبرد فى كتاب الكامل : « أراد عبد الرحمن بن حسان بن ثابت أن يكيد له فشبّب بأخته رملَةَ بنتِ معاوية وقال فيما قال :

رملَ هل تذكرينَ يومَ غزالٍ   إذ قطعنا مسيرَنا بالتمَنِّى ؟
إذ تقولين : عمرَكَ الله هلْ شىءٌ   وإن جَلَّ ، سوفَ يُسْليكَ عنى ؟

فغضب يزيد ، وأمر كعبَ بن جعيل التغلبى بهجاء الأنصار ...

فقال كعب : أأهجو الأنصارَ ؟ ... أَرَادِّىَّ أنتَ إلى الكفر بعد الإسلام ؟ .. ولكنْ أدُلُّكَ على غلام من الحىِّ نصرانى ، كأن لسانه لسانُ ثور ـــ يعنى الأخطل ـــ فما كاد الأخطل يقول رائيته المشهورة ، فى هجاء الأنصار :

خَلُّوا المكارمَ لستمُ من أهلها   وخذوا مَساحِيَكم بنى النجارِ
ذهبتْ قريشٌ بالسماحةِ والندى   واللـؤمُ تحت عمـائم الأنصار

حتى ثار الأنصار مُغضَبين ، ودخل النعمانُ بن بشير الأنصارى على معاويةَ فحسر عمامتَه عن رأسِه ثم قال : يا معاوية ، أترى لؤما ؟ فقال : ما أرى إلا كرما . واستطرد النعمانُ رضى الله عنه ، منشدا :

معاوىَ إلا تُعْطِنا الحقَّ تَعتَرِفْ لِحَى الأَزْدِ مسدولاً عليها العمائمُ
أيشتمُنا عبدُ الأراقم ضَلَّةً فماذا الذى تُجْدِى عليكَ الأراقمُ؟
فما لىَ ثأرٌ دونَ قطعِ لسانِه فدونَك مَنْ تُرضِيه عنكَ الدراهمُ

قالوا : فأمر معاوية بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانَه ، لولا أنه استجار بيزيد ، فما زال بالنعمان يسترضيه ويعتذر إليه حتى كفَّ ... »[1] .

فالقصة — كما رواها المبرد — لا يمكن أن تنهض دليلا على دعوى عامة ، تقول بأن الأمويين منذ عهد معاوية كانوا يستأجرون الشعراء للقضاء على الطبقة الدينية فى المدينة . بل لعلها أولى بأن تشهد بأن النفوذ الدينى للأنصار ، كان من القوة بحيث يغلب سلطانَ بنى أمية ، ويجعل شاعراً مثل كعب ، يأبى أن يجيب يزيد ، ويرى فى هجائهم رِدَّةً إلى الكفر بعد الإسلام ، كما تشهد بأن معاوية لم يرضَ قط عن موقف يزيد ، بل أمر بأن يدفع الأخطلُ إلى النعمان ليقطع لسانَه .

ولست أدرى كيف فات الأستاذَ العلايلى مثلُ هذا ، وإنه لَيعلم أن الإباحية الماجنة لم تقتصر على المدينة ومكة ، بل توغلت فى دمشق ذاتها ، ولم يُعصَم منها أمثالُ يزيدَ بن معاوية ، والوليد بن يزيد ، فهل يا ترى استأجر أهلُ مكة والمدينة ، مَن أغرى أمراء من بنى أمية بالمجون والعبث ؟ ..

وهل استأجروا « الأحوصَ الأنصارى » ليقول فى عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، زوجة عبد الملك بن مروان :

يا بَيْتَ عاتكةَ التى أَتعـزَّلُ حذرَ العِدا ، وبه الفؤادُ مُوَكَّلُ

---

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل : ٢ / ٦ وما بعدها .

إنى لأمنحكِ الصدودَ وإننـى قسماً إليك ، مع الصدودِ ، لأمْيَلُ[1]

أو هل استأجروا « وضّاحَ اليمن » ليقول فى « أم البنين » ما قال مما ننقل بعضَه فى فصل يلى ؟

* * *

وماذا عن غزل عمر نفسه ، بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، وأخته ، وغيرهما من سيدات البيت الأموى ؟

لئن يكن المجون استشرى فعلا فى الحجاز ، لقد استشرى كذلك فى الشام ، ورأيناه يستشرى من بعد فى بغداد . والأستاذ الدكتور طه نفسه يقرر « أن شباب الحجاز لم يكن يلهو إلا بمقدار وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود ، أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتى اندفع فيه إلى غيرِ حَدٍّ ، لا يخشى مراقبةً ولا يحفِلُ بسلطان »[2] .

ولو كان الخلفاء هم الذين يُغرون شبابَ الحجاز بالمجون ويُعينونهم عليه ، لما كان ثمة خوفٌ يَعصمُهم من مجاوزة الحدود ! ولَفَرضَ الخلفاء رقابَتَهم الصارمَةَ على شباب بنى أمية ، كى يَعصموهم — لا شباب الحجاز — من مجاوزة الحدود !

وقد نُقلتْ إلينا فعلاً ، أخبارٌ تشهد بأن خلفاء بنى أمية كانوا يتدخلون أحيانا ، ليردعوا شعراءَ الغزلِ الماجن فى الحجاز ، إذا تمادوا فى عبثهم وجاوزوا الحدودَ ، وأن أهل المدينة أنفسهم كانوا يلجأون إلى الخليفة الأموى أحيانا ، ليحمى نساءهم من ألسنة الشعراء .

ففى رواية لمحمد بن سلام ، نقلها أبو الفرج فى أغانيه : « ان الأحوص كان ينسب بنساءٍ ذواتِ أخطار من أهل المدينة ، ويتغنى فى شعره مَعْبَد ومالك ، ويشيع ذلك فى الناس فنُهِىَ فلم ينته ، فَشَكَوْه إلى عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ، وسألوه الكتابَ فيه إلى سليمان ، ففعل . فكتب

---

(١) سمط اللآلى للبكرى : ١ / ١٥٩ . (٢) حديث الاربعاء : ٢٣٧ .

سليمان إلى عامله يأمره أن يضربه مائة سوط ، ويقيمه على البلس[1] للناس ، ثم ينفيه إلى دهلك ـــ وهى بلدة حَرِجة حارة ، تقع فى جزيرة فى بحر اليمن ، بين بلاد اليمن والحبشة ، وكانت منفى لمن يسخط عليه بنو أمية ـــ فنفذ الوالى أمر سليمان فى الأحوص ، ولبث الشاعر فى منفاه طوال عهد سليمان ، فلما مات وخلفه عمر بن عبد العزيز من بعده ، كتب إليه الأحوص ، يستعطفه ويستأذنه فى القدوم ، ويمدحه بقصيدة استشفع فيها بما بينهما من قرابة فقال :

أيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... هُديتَ ، أميرَ المؤمنين رسائلى
وقلْ لأبى حَفْصٍ إذا ما لقيتَه ... لقد كنت نَفّاعا قليلَ الغوائل
وكيف ترى للعيش طيباً ولذةً ... وخالُك أمسى مُوثَقاً فى الحبائل

« وأتى رجالٌ من الأنصار عمرَ بن عبد العزيز ، فكلموه فى الأحوص ، وسألوه أن يدعه يخرج من منفاه ، وقالوا له فيما قالوا : قد عرفت نسبه وموضعَه وقديمه ، وقد أُخرِجَ إلى أرض الشِرْك ، فنطلب إليك أن ترده إلى حرم رسول الله ﷺ ودارِ قومه . فسألهم عُمَر : فمن الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فجاءةً ... فأبهتَ حتى ما أكادُ أُجيبُ !

قالوا : الأحوص ...

قال : فمن الذى يقول :

أدُورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ ... بأبياتِكم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زَوَّارا ولكنَّ ذا الهوى ... إذا لم يزر لا بد أنْ سيزورُ

قالوا :الأحوص ...

قال : فمن الذى يقول :

كأن « لُبْنَى » صبيرُ غادية ... أو دميةٌ زُيِّنَتْ بها البِيَعُ
الله بينى وبين قَيِّمِها ... يفرُّ منى بها ، وأتَّبِعُ

---

(١) البلس جمع البلاس ، وهو البساط من شعر ـــ معربة .

قالوا : الأحوص ...

قال عمر : بلى ، اللّهُ بين قَيِّمها وبينَه ، فمن الذى يقول :

سَتُبْلَى لكم فى مُضْمَرِ القلبِ والحَشا سَريرةُ حُبٍّ يومَ تُبْلَى السرائـرُ

قالوا : الأحوص .

قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، واللّهِ لا أرده ما كان لى سلطان . فبقى هناك إلى ما بعد وفاة عمر »[1] .

وما دام كتاب « الأغانى » هو مرجعنا الأول فى أخبار شعراء المجون بالحجاز فى النصف الأول من العصر الأموى ، فيجب ألا نقبل مروياته عن عَبث عمر وأضرابه ، إلا ومعها المروياتُ الأخرى التى تدل على تحرج المجتمع الحجازى من إسراف المسرفين منهم ، وتدخُّلِ خلفاء بنى أمية ، حين يجاوزُ إسرافُهم الحدودَ .

* * *

وأيّاً ما كان حال ذلك المجتمع ، فليس يهون علينا أن نتصور أن الصلة بين رجاله ونسائه يجب أن تُلتمس عند زعيم الغزليين عمر بن أبى ربيعة . فإن مجتمعا هبط من التحلل إلى ذلك الحضيض الدانى ، وتهاون فى عفة النساء وطهارة الأرحام إلى حد الإهدار ، وأباح لمثل عبد الله بن عثمان بن حكيم بن حزام ، ومصعب بن الزبير ، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، أن يتزوجوا من معشوقات ابن أبى ربيعة وبطلات مغامراته ، مجتمع كهذا لا يمكن أن تسمح له الحياةُ بالبقاء ، أو يأذن له التاريخ بمكان فيه ولو فى الحضيض .

وأيا ما كانت عزلةُ المجتمع الحجازى عن الشئون العامة للدولة ، فإن هذه العزلة المُدَّعاةَ ، لم تُعطلْ صلاتِ المصاهرة ما بين الشام والحجاز . ومن شاء فليرجع إلى (نسب قريش) ليقف على مدى نشاط هذه المصاهرة التى ربطت

(١) الاغانى : ٤/ ٢٤٨ ط الدار .

خلفاء بنى أمية ببنات هاشم رباطاً لا ينفصم ، ووصلتْ ما بين الحجاز والشام بالصلة التى لا تنحل ، وساطت دماءهما حتى ما يتزايلن . وقد بلغت الدولة العربية فى النصف الأول من العصر الأموى أوْجَ قوتها ، فكيف يَصِحُّ فى المنطق أن تقوم لهذه الدولة قائمة ، لا تحميها من أعدائها فحسب ، بل تُمكِّن لها من غزو القسطنطينية وفتح المغرب الإفريقى ، وهى التى أتلفها التحللُ ، وطاب لها أن يشهر « عمر » بخير نسائها ، وأن يرفع المغنون عقائرهم بغزَلياته فيهن ، فى البلد الحرام مهد الإسلام ، وفى المدينة دار الهجرة ، قبل أن يبلى قميصُ رسول الله ﷺ !

لقد صدَّقنا أن الخصومة الحزبية كانت تتخذ من أعراض النساء هدفًا للكيد وسلاحا فى المعركة ، صدقنا أن يقول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ما قال فى رملة بنت معاوية ، وربما أمكن كذلك أن نصدق أن يقول عبيد الله بن قيس الرقيات ، فى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوجة الوليد بن عبد الملك ، من قصيدة له يمدح بها مصعب بن الزبير :

ألا هـزأتْ بنـا قـرشـ ... ـيـةٌ يهتـزُّ موكبُهـا
رأتْ بى شَيْبـةً فى الـرأ ... سِ منـى مـا أُعَيِّبُهـا
ومثـلكِ قـد لهوتُ بها ... تمامُ الحسنِ أعيَبُهـا
لها بَعْـلٌ غيـور قـا ... عِـدٌ بالبـاب يحجُبُهـا
يـرانى هكـذا أمشى ... فيُوعِدُهـا ويَضرِبها
ظللـتُ على نمارقهـا ... أُفـدِّيها وأُخلبُهـا
أحدثهـا فتؤمـن لى ... فأصْدُقُها وأكذبُهـا
فـدعْ هـذا ولكـنْ حـا ... جـة قـد كـنت أطـلبها
إلى أمِّ البـنين متـى ... يقـرِّبها مُقَرِّبُهـا
أتتْنـى فى المنـام فقلـ ... ـت هـذا حين أعـقبها
فلمـا أن فـرحتُ بها ... ومـال علـىَّ أعذَبُهـا

شربتُ بريقِهـــا حتـــى نهلتُ وبِتُّ أشربُهـــا
وبتُ ضجيعَهـــا جـــذلا نَ تعجبنـــى وأعـــجبها
فكـــانت ليلـــةً فى النـــو مِ نسمرهـــا ونلعبُهـــا

أجل ربما أمكن أن نصدق أن عبيد الله قال هذا فى أم البنين ، ثم عاد فأرضاها « وبلغ منها مبلغا حسنا حتى أعجبت به وكسبت له أمانَ عبد الملك ابن مروان » بشفاعة لديها من عبد الله بن جعفر بن أبى طالب !

ولكن الذى لا يهون أن نصدقه ، أن يدع المجتمع الإسلامى عمرَ بن أبى ربيعة يُشهّر بشريفات بنى هاشم وعقائل قريش وبناتِ الأئمة والخلفاء ، عن غير خصومة حزبية ، وأن يبيح له أن يجعل من بيوتهن ، بل من مخادعهن ، مجالاً لمغامراته ، ثم يطرب المجتمع إذ يسمع المغنين والمغنيات يشدون بهذا الغزل الماجن !

كلا كلا ...

إنما الذى يصح عندنا ، هو أن غزلياتِ عمر وأمثاله ، كانت هزلًا لا شىء من الجد فيه ، وأن مغامراته وقصصه الغرامية كانت من نسج الخيال وليست من الواقع فى شىء . وقد عرفه مجتمعه يقول ما لا يفعل ، فتركه يهذى بالشعر كما شاء ، دون أن يخطر لمجتمع على بالٍ أن بنات هاشم ونساء قريش ، قد شُغِفن به حبا ، وأَبَحْنَه ما لا يباح !

وإذا كان « عمر » قد اختار أسماء غاداتِ عصره وحسانِ مجتمعه لقصصه وقصائده ، فما كان هذا الصنيع بالذى يمس سمعتهن أو يؤذى كرامتهن فى مجتمع يعرف « عمر » شاعرا يهيم فى وادى الخيال ، يتصيد منه مشاهد وصوراً ليست من الواقع فى شىء أو بعض شىء ، ومن ثم لم تضق الحسان باختيار عمر أسماءهن فى قصائده التى مجّد فيها الجمالَ وهام بالحسن ، بل ربما وجدن فى ذلك الصنيع مظهرَ اعترافٍ بجمالهن ، وإعلانٍ عن ملاحتهن ، وهن مطمئنات

إلى أن المجتمع لا يأخذ قصص عمر مأخذ الجد ، ولا يسيء الظن بمن اختار عمرُ اسمَها لقصيدةٍ من قصائده .

وأى حسناء لا يغرها الثناء ؟

ذاتُ حُسنٍ إن تَغِبْ شمسُ الضحى فَلَنَا من وجهها عنها خَلَفْ !
أجمع النـاسُ على تفضيلِهـــا وهواهُم فى سوى ذاكَ اختلفْ

أى حسناء ، لا يطربها أن تردد معازف المغنين اسمَها فى مثل قوله :

ليت هندًا أنجزتْنا ما تَعِـدْ وشَفَتْ أنفسَنا مِمّـا تَجِـدْ
واستبـدَّتْ مـرةً واحـدةً إنما العاجزُ مَنْ لا يستبـد !

مجرد أسماء ، حَفَّ بها جمالُ مَنْ يحملنها ، وهن بمنأى عن الريبة وسوء الظن .

أجل مجرد أسماء . وربما هام عمر مع خياله واشتط به الوهم ، فتمثل صاحبة الاسم فى جوه العابث ، وتمادى فى الخضوع لسيطرة شخصيتها الحقيقية على خياله ، فجاءت صورتها فى قصصه ، تَمْشِى بمعالم هذه الشخصية الحقيقية ، وإذ ذاك كان المجتمع ينكر ويغضب ، ويوقفه عند حَدِّه ، فيقف !

فَعَلَ ذلك حين هدده بنو تيم بالشرِّ ، لما رأوا فى تغزله باسمِ عائشة ، ملامحَ من بنتِ طلحة ...

وفعل ذلك حين هدده بنو أمية بالويل ، عندما رأوا فى تغزله باسم فاطمة ، ملامحَ بنتِ عبدِ الملك !

واستحيا عمرُ من قدامة بن موسى ، حين شاقه أن يرى أختَه زينب ، بعد أن تغزل باسمها على السماع .

وأقسمت « الثريا بنتُ على » للوليد بن عبد الملك أن عمرَ كان عفيفا ، وهو الذى ملأ ديوانه باسمِها ، وترك للرواة من بعده أن ينسجوا من قصائده فيها أقاصيص وحكايات !

وكفَّ عن التعرض لزوجة أبى الأسود الدؤلى ، وكانت جميلة ، فأراد أن يكلمها فعاتبه أو الأسود مرةً ، فلما عاد زجره بقوله :

وإنى لَيُثنِينى عن الجهلِ والخَنَا وعن شتمِ أقوامٍ خلائقُ أربع
حياءٌ ، وإسلامٌ ، وبُقْيَا ، وأننى كريمٌ ومِثلى قد يضرُّ وينفع
فشتّانَ ما بينى وبينك أننى على كلِّ حال أستقيم وتظلَع

فلما لم يَرْعَوِ « عُمرَ » واعترض زوجةَ أبى الأسود حين عادت إلى المسجد ، خرج معها أبو الأسود مشتملا على سيفٍ ، فما كاد « عمر » يراهما حتى أعرض عنها متمثلا :

تعدو الذئاب على مَن لا كِلابَ له وتَتّقِى صولةَ المستأسِدِ الحامـى[1]

كلا .. لم يكن المرعى مباحا لعمر يقول فيه ما يقول ويفعل ما يفعل ، دون أن يتصدى له مَن يزجره ويرده إلى التزام الحدود فيرعوى ، ولو لم يرعِو لخرج له بنو تيم وغيرُ بنى تيم بالسلاح ، ولأنْفَذَ الحجّاج وغيرُ الحجاج وعيدَه فيه ، أو لاستعدى أهلُ الحجاز عليه الخليفةَ بدمشق ، كما فعلوا حين شبّب الأحوصُ بنساء المدينة ــ عن غيرِ صلةٍ ــ ونُهِىَ فلم ينتهِ .

كما لم يكن المرعى مباحا لغير عُمَرَ من شعراء الغَزَلِ الماجن ، وقد نقل الأستاذ الدكتور طه قصة « وضّاح اليمن » الذى دُفن حَيّاً ، بعد أن تغزل بأم البنين ...

وأشفق الحارث بن خالد المخزومى[2] من الزواج بعائشةَ بنتِ طلحة بعد أن تغزل فيها ، حتى لا تقول قريش إن غزله فيها كان لريبةٍ[3] .

---

(١) الأغانى : ١٤٨/١ .

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاصى بن هشام بن المغيرة المخزومى .
انظر نسبه وحديثه مع عائشة ، فى (نسب قريش : ٣١٣) .

(٣) الأغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب ــ وانظر معه (نسب قريش : ٣١٤) .

وكاد ابنُ أبى ربيعة نفسُه ، يلحق بالأحوصِ ، لولا أن تداركتْه رحمةٌ : ففى أخبارهم أن سليمان بن عبد الملك حَجَّ بالناس وهو خليفة ، فاستدعى عمر وسأله : ألستَ القائلَ :

فكم من قتيلٍ ما يُباءُ به دَمٌ ... ومِنْ غَلِقٍ رَهْناً إذا لفّه مِنى
ومِنْ مالىءٍ عينيه من شىءِ غيرِهِ ... إذا راح نحو الجمرة ، البيضُ كالدُّمَى
أوانسُ يَسْلُبْنَ الحليمَ فؤادَه ... فيا طولَ ما شوقٍ ويا طولَ مُجْتَلَى !

قال : نعم . قال سليمان : « لا جرم واللّهِ لا تحضر الحجَّ العامَ مع الناس ... » وأخرجه إلى الطائف[4] . . .

لكن المأساة أن أكثرنا قد صدّقوا كلَّ ما قال عمر ، وصدقوا معه أولئك القصاصين الذين راحوا ينسجون الحكايات حول هذه القصيدة أو تلك من غزلياته ، « وهى قصص لا نشك فى أنها اختُرِعت بأخرَة » كما قال الأستاذ الدكتور طه حسين بحق .

وقد عاد بعد الذى قرره وأكده من تمثيل شعر عمر لعصره ، ولصلة النساءِ بالرجال فى مجتمعه ، عاد يؤكد أن « صلةَ عمرَ بأختِ عبدِ الملك وبنتِهِ ، وبسكينةَ بنتِ الحسين ولبابةَ بنتِ عبدِ الله بن عباس ، وعائشة بنتِ طلحة ، كانت طاهرةً كل الطهر ، بريئةً كلَّ البراءة من الإثم ... كانت لفظية لا غير »[1] .

على حين أخذ « الدكتور زكى مبارك » كل هاتيك الأخبار والقصص والمغامرات أخذاً لَمّا ، وصدَّقها غيرَ مرتابٍ فيها ولا مُتَظِّنن ، يقول عن عمر بن أبى ربيعة :

« ... بلى إنه رجل خليع ، وفاتنُ المنظر أخاذ ، فلابد أن يكون شعره

(٤) الأغانى : ٩ / ٦٨ الدار .
(١) حديث الأربعاء : ٢٩٥ .

كذلك فاتنا أخاذا ، وضاحك الثغر بسام ، فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساما ...

« ألا فليَخْلُ شِعرُهُ من التوجع ، وليَسْلَمْ نَسِيبهُ من الجزع ، ولْيترك الهَمَّ لقومٍ سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم .

« علامَ يصف الليلَ ويشكو كواكبَه البطيئة ونجومَه المشكولة وفجرَه المفقود ؟ وما كان الرجل فى التفاف النساء حولَه وإقبالهن عليه . بالذى ... فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة فى جُنْح الليل ، فلا تكاد تصل إلى منزله حتى تجدَ غيرَها قد سبقتْها إليه ، فتعود آسفة حزينة !

« علامَ يشكو البينَ ، وما روَّعه نذِيرٌ بالفراق إلا بشّره بشيرٌ بالتلاق ؟ أم كيف يُبْكيه الوداعُ وهو الذى ما شَيَّعَ حبيبا إلا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمسٌ إلا أشرقت عليه شمس ! »(٢)

* * *

وماذا عن « سكينة بنت الحسين ؟ »

ماذا عنها ، بين « أخبار الملاح » فى حديث الدكتور زكى مبارك عن « حب ابنِ أبى ربيعة وشعره » ؟

بدأ فقال :

« لا يغضب قومٌ إن ذكرنا أنها كانت — فى عفافها — نَزِقةً طائشة ، تؤثر الخِفة على الوقار ، وتهوى أن يخلُد حسنُها فى قصائد الشعراء ...

« ... وما أظن هذه السيدة سَلِمَتْ فى صِلتها بابن أبى ربيعة ، من متورع يرميها على طُهرها بالخلاعة والمجون ... »

ثم قرر — قبل أن يجرد قلمَه لرسم صورتها — أنه يضمر الحبَّ والإجلال لتلك السيدة النبيلة . لماذا ؟ « لأنها قدَّرت نعمةَ الله عليها فدَلَّتْ وتاهتْ بما

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨١ .

وُسِمَتْ به من الملاحةِ والجمال ، وعاشتْ فى رعاية الحُسن والحُبِّ غيرَ حافلة بأوضاع الاجتماع ، وكان فيها بلاِ ريب ما ينهى مثلَها عن التبذل فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء »[1] .

وآية إجلاله لتلك السيدة النبيلة ، وحبِّه إياها ، أنه تحدث عن بيتها بما يؤذن بأنها جعلَت منه ملاذَ متعةٍ للشعراء الماجنين : « فكانت سلسة الذوق فى اختيار الوصائف ، وكان بيتُها لذلك خفيفَ الظلِّ على الأدباء والشعراء[2] » .

ثم تمادى به القولُ فجعلها ـــ جعل بنتَ الحسين ـــ مرفِّهة تجعل « بيتها مألفا للمغنين . وتؤثر ترفيةَ الناس بما تستطيع تقديمَه إليهم من مُتَع الغناء ... » .

« ولو صَحّتْ قصةُ الفرزدق معها ، لكانت دليلا على تسامح تلك السيدة وغَفْرِها تهافتَ الشعراء على ما كانت تملك من المولدات الحسان ، والشاعر لم يخلق إلا لِيَشقى بالحسنِ ويتعذب بالجمال ، وبقدر إحساس السيدة سكينة لمحنة الشعراء المسرفين وعِلمها بما كُتِبَ عليهم من سَفَهِ المنى وطيش الأحلام ، كانت ترق وتلين كلما شهدت إخلاصَهم لِمَا خُلِقُوا له من عبادة الطرف الساحرِ والقَدِّ الرشيق ! »[3] .

ثم ماذا ؟

ماذا بعد المرفِّهة !

بعده ما عفَّ قلمُ الدكتور زكى مبارك نفسُه عن ذكرِهِ !! فذلك حيث يقول :

« ولها مع ابنِ سريج أخبارٌ رأينا أن نضرِبَ عنها صَفْحاً لما فى مقدماتها من مآثمَ تقفُ عندها حدودُ الأدب المكشوف ! »[4]

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٣ .

(٢) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٨ .

(٣) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٨٧ .

(٤) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٩١ .

ثم كانت خاتمة حديث الدكتور عن السيدة التى أجَلَّها أن قال : « وفيما ذكرناه عن السيدة سكينة غنية لمن يريد أن يعرف كيف تمثلها الأدباءُ الأقدمون ، أما صورتُها فى رءوس الصوفية ، فهى صورة القديسة التى تسيطر على الأرض والسماء ، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون » .

وهى خاتمة تتسق مع المقدمة التى بدأ بها الحديث عن بنتِ الحسين قائلا :

« وأشرنا فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) عند الكلام عن الباطنية ، إلى أن أكثر ما يحتل رءوس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس إلا أثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، وأن الدعاة نجحوا فى حشْوِ تلك الرءوس الجوفاء (!) بالخرافات والوساوسِ والأضاليل ، وضرَبْنا المثَلَ بالمعبودات الصغيرة التى تسكنُ سماءَ القاهرة من عِتْرةِ سيدنا الحسين ! »

وصورة السيدة سكينة فى رءوس المسلمين (الجوفاء) هى بعض هاتيك الخرافات والأضاليل ...

وأما صورتها التى جرَّد الدكتور زكى مبارك قلَمه لرسمها ، صورة المرفَّهة ، فهى « صورة طبيعية لا غرابة فيها ولا شذوذ ، ولو كُتب عنها فصلٌ فى مجلة فرنسية أو انجليزية أو ألمانية ، لَتَلَقّاه أهلُ الغرب بالقبول ، وعَدُّوا حياتَها المرحة دليلا على تأصُّلِ الحضارة فى تلك الأسرة التى سادت الشرق زمناً غير قليل ! »

يعنى : الأسرة النبوية !

ووالله إنه ليظلم الغرب بهذا ...

وإلا فلو أن مثل هذه الصورة التى رسمها لسكينة ، نُشرت فى مجتمع (هوليوود ومونمارتر) ، لعُدّت دليلا على مدى هبوطه وانحلاله ، وما قضية المجلة الأمريكية التى نشرت بعض فضائح غوانى هوليوود ، عنا ببعيد ...

لكنها عند « الدكتور زكى مبارك » دليلُ تأصُّل الحضارة فى الأسرةِ الهاشمية النبوية !

وهى ، كذلك ، دليلُ جاهٍ للطبقة العالية من قريش ، وأما العامة والمغمورون فشأنُهم غير ذلك .

نقل الدكتور زكى مبارك فى كتابه ، أن رجلا من بنى جُمَحَ وُلِدَتْ له جاريةٌ حسناء ، فقال : كأنى بها وقد كبرتْ فشبّب بها عمر بن أبى ربيعة وفضحها ونوَّه باسمِها كما فعل بنساء قريش ، والله لا أقمتُ بمكة ! ورحل بابنته إلى البصرة ، ليتقى لسانَ عمر ![1]

ويجوز فى منطق الدكتور ، أنْ لو كان ذلك الأبُ هاشميا شريفا ، لطرب لغزلِ عُمَرَ فى نساء بيته ، كما زعموا أن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين على بن الإمام الحسين عليهم السلام ، أُنشِدَ إحدى غزليات عمر — المقول فى روايةٍ إنها فى سُكَينة — فطرب وارتاح ، حتى إذا بلغ قولَ عمر :

ليس بين الحياةِ والموتِ إلا أن يَرُدُّوا جِمالَهم فتزمّا

جعل الإمام الصادق يقول : عَجّلوا البَيْنَ ! أفلا يُوكون قِرْبة ؟ أفَلا يودِّعون صديقا ؟ أفلا يشدون رحلا ؟ .. حتى جرت دموعه ![2]

وكذلك كانت هذه الصورة التى فتنت الدكتورَ زكى مبارك ، سِمَةَ الحرائر عنده!

وأما الإماءُ المغنيات فلهن صورةٌ أخرى ، يُمثِّلها عنده الخبرُ الذى نقله من كتاب الأغانى عن « جميلة » المغنية « أنها لما قضت حجّها سألها المكيون أن تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناءِ أم للحديث ؟ قالوا : لهما جميعا . فقالت : ما كنت لأخلطَ جِدّاً بهْزِلٍ . وأبتْ أن تجلس للغناء . فقال عمر بن أبى ربيعة : اقسمتُ على من كان فى قلبِه حبٌّ لاستماع غنائها ، إلا خرج معها إلى المدينة فإنى خارج » .

---

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ١٢٨ . (٢) الاغانى : ١٧١/١ دار الكتب .

وتبعوها إلى المدينة ، حين أصرت على ألا تخلط جِدّاً بهزل ، فتجلس للغناء في مكة وقد سَعَتْ إليها حاجّة !

ولو كانت حرة شريفة ، كبنت الحسين ، لكان لها فى ميزانه شأن آخر ...

ولا تعجب إذ يتمثل « الدكتور زكى » السيدةَ سكينة : « نَزِقَةً طائشة ، متبذلةً فى مخالطةَ المغنين وملابَسةِ الشعراء ، حريصة على الترفيه عنهم » . . وهى التى ودعها زوجها« مصعب » حين تهيأ للخروج إلى عبد الملك ، فصاحتْ من خلفه : واحزناه عليك يا مصعب ! فالتفت إليها وقال : أوَكلُّ هذا لى فى قلبك؟ قالت : إى والله ! وما كنت أخفى أكثر ! فقال : لو كنتُ أعلم أن هذا كله لى عندك لكانت لى ولك حال .

أجل لا تعجب ، فقد مُسِخت القِيَمُ عند صاحب « حب ابن أبى ربيعة » وانعكست الأوضاعُ فى تقديره ، فصار هذا الضبطُ العاطفى ــ حتى فى مخدع الزوجية ــ دليل نَزَقٍ وطيش ، مثلُه مثلُ التبذُّل الماجن الذى عدَّه مظهرَ أصالةٍ فى آل السيدة سكينة ، والتحرج الخاشع الذى عدَّه سِمَةَ القيانِ الإماء ، فى جميلة المغنية .

ولا تسأله أين كان بنو هاشم ، وأين كان الإمام زين العابدين ، وعمرُ يرفع عقيرتَه بالغزل فى سكينة ، وبيتُها قد صار « مألَفاً للمغنين ملاذا للشعراء المخلصين لما خُلقوا له من عبادة الطرف الساحر والقد الرشيق » ؟ فمِثْلُ الإمام زين العابدين ، عنده ، مَنْ لا يغضب لأختِه حين غَضِبَ « ابنُ أبى عتيق » ــ فيما نقل الدكتور[1] ــ لابنة عمه زينب بنت موسى الجمحية ، لما تغزل فيها عمرُ على السماع ، فردَّ عليه عمر :

لا تَلُمْنى عتيقُ حسبى الذى بى ... إن بى يا عتيقُ ما قد كفانى

لا تَلُمْنِى وأنتَ زيّنتَها لى ... أنتَ مثلُ الشيطانِ للإنسان

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره : ٥٣

ومثلُ بنى هاشم وآل البيت ، من لا يغضبون لابنتهم كما غضب بنو تيم ابن مرة ، وولدُ طلحة بن عبيد الله ، لأختِهم عائشة ، وتوعّدوا عمرَ إنْ هو تغزل بها أن يؤدِّبوه ، فأقسم لهم بالله ألا يَذكرَها فى شعرٍ أبدا ...

مثلُهم من لا يغار على سكينة ، كما غار أبو الأسود الدؤلى على زوجته ، أو كما غار الحجاج بن يوسف الثقفى على فاطمة بنت عبد الملك — وليستْ من ثقيف — فكتب إلى عمرَ يتوعده بكلِّ مكروه إن ذكرها فى شعره ...

أجل ، لا تسأله عن هذا ، فإنما يُسألُ مَنْ يُحاسبُ قلمَه ، ويتقى الحق والضميرَ فيما يكتب ، ويحترم عقله وعقول الناس .

وإنما الذى كان يجوز أن يُسأل فيه — رحمه الله — هو : كيف فاته أن ينقل الشعرَ الذى قيل إن الأحوص الأنصارى تغزل فيه بسكينة ؟ فمِنْ أخبارهم أن كلَّ غزل الأحوص بعقيلة ، هو فى سكينة بنت الحسين ، وإنما كَنى عنها باسم عقيلة[1] .

وقد عدَّه بعضُ أهلِ عصره أنسبَ الناس بقولِهِ فى عقيلة :

يا لَلرجالِ لِوجْدِكَ المتجددِ ... ولما تؤملُ من عقيلةَ فى غد
ترجو مَواعِدَ ، بَعْثُ آدمَ دونَها ... كانت خبالاً للفؤاد المقصد
هل تذكرين «عقيلَ» أو أنساكِه ... بَعدى تَقلُّبُ ذا الزمان المفسد
يَوْمى ويومَك بالعقيق إذ الهوى ... منا جميعُ الشمْلِ لم يتبدد !..[2]

وأغلب الظن عندى أن الدكتور زكى مبارك لم يطلع على هذه الأبيات ، ولم يقرأ الخبر القائل بأن عقيلة هى سكينة ، وإلا لتعلّق بها وجَزَمَ مؤكداً أن أخبار الأحوص مع عقيلة ، كانت حقا فى سكينة ، وأن ليوم العقيق هذا شأناً أخطرَ من ليلة الصورين !

---

(١) الاغانى : ٤/٢٦١ دار الكتب .

(٢) الاغانى : ٤/٢٥٩ دار الكتب .

كلِمة يَجِبُ أنْ تقال

لا أدع الحديث عن « بنت الحسين » فى أخبار الرواة والقصاصين ، دون أن أسجل هنا كلمةَ الشيعة فى كلِّ هذا الذى قيل عنها ونُسب إليها .

إنهم يذهبون إلى أن أكثر هذه الأخبار والأقاويل من مفتريات الأمويين وأشياعهم . ويستدلون على هذا بأدلة :

منها : ما ذكره السيد الفكيكى من أن « أبا على القالى » قد ارتجل أماليه وهو فى كَنَفِ تلميذه الحكَم الأموى فى الأندلس ، فأملى فيها ما أملى عن « سكينة بنت الحسين » ولم يذكر شيئاً من أشعار ابن أبى ربيعة التى تغزل فيها بفاطمة بنت عبد الملك ابن مروان ، وبأخته أم محمد بنت مروان بن الحكم . كما أهمل أشعارَ ابنِ أبى ربيعة فى رملةَ وفى أختِ الحجاج ، ولم يحفظ إلا رواية المغنين المقلوبة فى « سكينة » عليها السلام[1] .

ومنها : أن خبر ابن سريج وحيلة أشعب معه لحملِهِ على الغناء فى دار سكينة مع عزة المغنية ، قد ورد فى الجزء الخامس عشر من الأغانى ، ولم يُشر إليه أبو الفرج فى ترجمة ابن سريج وأخباره التى أوردها فى الجزء الثانى من أغانيه ، مما يدل على أن هذه القصة قد أُدخلت عليه ، ويجوز أن يكون ذلك قد حدَث بعد شراءِ الحكَم المستنصر الخليفة الأموى (كتابَ الأغانى) بإشارة أستاذه أبى على القالى بعد رحلته إلى الأندلس ، مع العلم بأن كتاب الأغانى قد نشره

(١) يشير هنا إلى قصيدة عمر : « قالت سكينة والدموع ذوارف » وقد رواها ابوالفرج مرة : « قالت سعيدة والدموع دوارف » قلبها المغنون فقالوا « سكينة » وارجع فى أقوال السيد الفكيكى إلى كتابه « السيدة سكينة » .

الحكَمُ الأموى بإشراف القالى فى الأندلس ، قبل نشر نسختِهِ الأصلية فى بغداد .

ومنها : أن أصحاب النهضات الهاشمية ، كانوا يرفعون صيحاتهم الاحتجاجية فى وجوه ملوكِ بنى أمية وولاتهم ، من جرَّاء تصرفاتهم وأحداثهم المنكرات لروحِ الإسلام وتعاليمه . وقد رموا يزيدَ بن معاوية بالفسق ، وكفّروا الوليدَ بن يزيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أن الوليد أو يزيد أو معاوية ، استطاع أن يغمز فى قناة الهاشميين الكرام بمثل ما فى كتاب الأغانى ، ولو كان أحدُ الأمويين يعلم أن السيدة سكينة قد جعلت دارَها ملهى ، لطبّلوا به وزَمّروا . وكلُّ ما قاله معاوية للإمام الحسين رضى الله عنه عند امتناعه عن الموافقة على ولاية العهد ليزيد :

« مهلاً عن شتم ابن عمك ، فإنكَ لو ذُكِرتَ عنده بسوءٍ لم يشتمك » .

وأما عبد الملك بن مروان ، فقد قال فى حقِّ زوج سكينة ، مصعب بن الزبير ، خصمه الألَدّ : « لو علم أن الماء ينقص مروءته ما شَرِبَه » وسأل عبدُ الملك يوما ــ بعد مقتل مصعب ــ أصحابَه عن أشجع الناس ، فعدوا له عدة أسماء من أعظم شجعان العرب ، فأبى عليهم ولم يوافقهم . ثم سألوه رأيه فأجاب :

« هو مصعب بن الزبير ... وعنده عقيلتا قريش ، سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة » .

ثم حكاية ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف حين خطب سكينة . فأنكر أهلوها وغضبوا وكانت معركة ــ رواها صاحب الأغانى نفسه ــ هذه الحكاية قد تكفى لدحض فرية مجالس الطرب التى كانت سكينة رضى الله عنها تحييها فى دارها وتأذن إذنا عاما لأهل المدينة « وقومُها الأطياب المناجيد الغيارى ساكتون ... » .

* * *

وكلُّ هذا الذى فى ردِّ السيد الفكيكى ، مما يجوز أن يقال ، فلا نراه بعيدا ..

كما لا نستبعد كذلك أن يكون كثير مما أضيف إلى أميرات البيت الأموى من صنع هذه الخصومة العنيفة الجامحة ! ... كتلك القصة المنكرة التى زعمت أن أم البنين — بنت عبد العزيز المروانى ، وزوج الوليد بن عبد الملك — أحَبّتْ وضاحَ اليمن وأحبها ، وحدث أن أرسل اليها الوليد هدية من جوهرٍ أعجبه ، مع خادم له : « ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحا ، فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهَرَ من الخادم وقد رأى ما صنعتْ فطمع فيها . وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب إليها أن تمنحه حجرا من هذا الجوهر . فلما أبَتْ عليه ذلك انصرف محنقا إلى الخليفة فأنبأه بما رأى . فنهض من فوره ودخل على زوجته فإذا هى تتمشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث إليها فى ملاطفة حتى سألها أن تهديه هذا الصندوق فلم تستطع رده . فأمر فاحتُفرت بئر وألقى فيها الصندوقُ وهيل عليه الترابُ وسُويت الأرض ، ولم يعرف أحد لِوضاحٍ خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا » .

لوضاح هذا قصيدةٌ ، من أبياتها :

قالت : ألا لا تَلِجَنْ دارَنا ... إن أبانا رجلٌ غائر
قلت : فإنى طالبٌ غِرَّةً ... منه ، وسَيْفِى صارم باتر
قالت : فإن القصرَ من دوننا ... قلت : فإنى فوقه ظاهر
قالت : فإن البحر من دوننا ... قلت : فإنى سابح ماهر
قالت : فَحَوْلى إخْوَةٌ سبعة ... قلت : فإنى غالبٌ قاهر
قالتْ : فليثٌ رابضٌ بيننا ... قلت : فإنى أسدٌ عاقر
قالت : فإن اللّهَ من فوقنا ... قلت : فربِّى رَاحِمٌ غافر
قالت : لقد أعْيَيْتَنا حُجَّةً ... فَأْتِ إذا ما هَجع الساهر
فاسقُطْ علينا كسقوطِ الندى ... ليلةَ لا ناهٍ ، ولا زاجرُ !

والقصة مسرحُها قصر الخلافة بدمشق ، وليس فى مكة والمدينة اللتين استأجر لهما الأمويون الماجنين والمخنثين لإهدار حرمتهما الدينية ، ولإفساد الشباب الحجازى عن قصد وعمد ... فيما يؤكد لنا مؤرخو أدبنا ! ...

* * *

وربما عرض لنا آخر الأمر أن نسأل : متى ظهرت « السيدة سكينة » فى المجتمع طليقة متحررة ، وشاركت فى التاريخ الأدبى لعصرها ؟ ...

الأخبار التى بين أيدينا ، تشير إلى أنها ظهرتْ لأول مرة فى موسم الحج سنة ٦٠ هـ ، حين صحبت أباها رضى الله عنه فى هجرته من المدينة إلى مكة ، وقد كانت إذ ذاك فى ربيعها الثانى عشر أو الثالث عشر . وغيرُ بعيد أن تكون قد لفتتْ إليها الأنظار بنضرة صِباها وحيويةِ مَرَحها وبهاء طلعتها . ولكن مهابَةَ أبيها الحسين الإمام ، كانت كافية وحَدها لأن تلجم الألسنة . . . فما جرؤ أحدٌ على الزعم بأن اسمَها ذُكِرَ على لسان أى شاعر ، فى قصائد الغزل .

فهل ترى حُلّت عُقدةُ لسانهم ، بعد عودتها إلى المدينة إثر فاجعة كربلاء ؟ ...

المؤرخون يقررون أن المدينة كلها كانت فى مأتم عام لسيد الشهداء ، وأن أمها « الرباب » قد أمضت عاما بأكمله حادَّةً حزينة ، حتى لحقت بزوجها الشهيد(١) . وأن « أم البنين بنت حزام بن خالد العامرية ، زوج الإمام على ابن أبى طالب » : « كانت تخرج إلى البقيع كل يوم ، فتبكى أبناءها الأربعة ، أعمام سكينة ، الذين استُشهدوا مع أخيهم الحسين فى كربلاء : عبدَ الله ، وجعفرَ ، وعثمانَ ، والعباسَ ، بنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فتلبث نهارَها هناك تندب بنيها أشجى ندبة وأحرقَها ، فيجتمع الناسُ إليها يسمعون منها ، فكان مروان يجىء لذلك ، فلا يزال يسمع ندبتَها ويبكى »(٢) .

---

(١) تاريخ ابن الأثير (الكامل) : ٧٣/٤ ـــ وانظر معه (مقتل الحسين : ٤٥٣ وما بعدها) .
(٢) مقاتل الطالبيين : ٨٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢٦٩/٦ .

فهل ترى كان يحدث هذا ، وسكينةُ تعقد مجالسَ الغناء فى دارها ، وتواعِدُ « عمرَ » الصورينَ ذاتَ ليلةٍ ، استجابة لرغبة نسوةٍ شاقهن مجلسُ ابن أبى ربيعة ؟ ...

هل كان مروان بن الحكم ، يسمع أم البنين تندب أعمامَ سكينة ، فيبكى لها ، وسكينةُ تبكى بدموع ذوارف على الخدين والجلباب ، لفراقِ عمر بن أبى ربيعة ، وتصغى إلى شدو المغنين بقولها على لسانه :

ليت المغيرىَّ الذى لم أَجزِه   فيما أطال تَصيُّدى وطِلابى !
كانت تَرُدُّ لنا المُنى أيامَنا   إذ لا نُلامُ على هوىً وتصابِ.. !

فلعل عمر إذن ، قد قال فيها ما قال بعد عودتها من سفرها إلى مصر مع عمتها السيدة زينب عقيلة بنى هاشم ؟

الذين أرَّخوا للسيدة زينب ، ذكروا وفاتها فى شهر رجب سنة ٦٢ هـ ، وقد ثوت فى مرقدها الأخير هنالك[١] ، وآبت سكينة من رحلتها مضاعَفَةَ اليُتم ، لتشهدَ بعد ذلك ثورة أهلِ المدينة على بنى أمية ، وخروجَهم على « يزيد بن معاوية ، لِقلة دينه » وهى الثورة التى انتهت بموقعة الحَرَّةِ ــ بظاهر المدينة ــ حيثُ استشهد من أولاد المهاجرين والأنصار ثلاثمائة رجل وستة ، وعددٌ من بقية الصحابة الأولين ، وهُجِرَ المسجدُ النبوى فلم تُقَمْ فيه صلاةُ الجماعة لمدى أيام[٢] .

والمقول إن عمر تاب توبته المشهورة فى ذلك العام ، وشُغِلَ العالم الإسلامى بعد ذلك بقيام (حركة التوَّابين) فى العراق ، ندمًا على عدم نصرة الإمام الحسين الشهيد ، فلم يروا كَفّارةً دون القتل فى الثأر له ولصحبه .

فهل ياترى ، كانت سكينة تصم أذنيها عن هتاف التوابين ، لترغم « ابنَ سريج » على الغناء فى دارِها مع عزةَ الميلاء ، وتَفْتِنَه عن توبتهِ عن الغناء ؟ ...

---

(١) العبيدلى النسابة : السيدة زينب وأخبار الزينبات ــ ص ٢٠ .
(٢) تاريخ الطبرى : ٥/٧ ــ ومقاتل الطالبيين : ١٢٣ وما بعدها .وانظر شذرات الذهب : ٧٠/١ .

وقد رأيناها بعد ذلك تُشغل بحياتها الزوجية مع مصعب بن الزبير ، ثم ترجع بعد مصرعه إلى المدينة مقهورةً محزونة ، فلا تكاد تطوى جرحَها فى الأعماق حتى تتزوج من عبد الله بن عثمان الحِزامى ، وتفرغ لتربية صغارها الأربعة بعيدا عن أضواء المجتمع ، فلما ترملتْ ، بعد أن أرهقها التيارُ جَذْباً ودفعا ، وأنهكها الموجُ شَدّاً وإرخاء ، بدأت تظهر فى المجتمع ، وقد هبطت بها موجةُ الأحداث والأرزاء إلى قرارة اليأس ، فكانت تجربتها الأخيرة ، فى زواجها الفاشل من زيد بن عمرو العثمانى ، هى آخر الشوط فى المقاومة ، ومن ثم استقر رأيها نهائيا على ممارسة الحياة ممارسةَ التى ضجِرتْ ، وجَرَّبت ، وكابَدتْ ، وشربت الكأسَ حتى الثمالة !

وظهرتْ فى المجتمع ، وكانت وقتئذ ، فى منتصف العقد الخامس من عمرها !

وربما جاز عند الدكتور زكى مبارك ، أن يتصورَها فى هذه السِّنِّ العالية « تعيش فى رعايةِ الحسن والجمال ، وتحرص على تخليد مفاتنها على ألسنة الشعراء » .

وغيرُ عجيب أن يجوزَ عنده كذلك ، أن يكون « عمرُ » قد شهد معها ليلة الصورين ، وملأ الأفق الحجازى بقصائد غزلِهِ فيها ، بعد مضى ثلث قرن على توبته !

وأما الذى يجوز عندنا ، فهو أن « سكينة بنت الحسين » قد شغلَتْ من ذلك الوقت ، دوراً آخر فى المجتمع ، هو دور الأديبة الناقدة .

وهذا ما نفرغ له فى المبحث التالى ...

الأديبَة الناقِدَة

لم يع تاريخ الأدب للسيدة سكينة غيرَ أبيات معدودات ، كتلك التى قيل إنها رثتْ بها أباها رضى الله عنه :

لا تعذُليه فَهمٌّ قاطعٌ طَرَقَهْ   فعينُه بدموعٍ ذُرَّفٍ غَدِقَه
إن الحسين غداةَ الطّفِّ يرشقُه   ريبُ المنونِ فما أن يخطىء الحدَقَهْ
بكفِّ شرِّ عبادِ اللّهِ كلهم   نسلِ البغايا ، وجيشِ المُرَّقِ الفَسَقَه
أأمَّةَ السوءِ هاتوا ، ما احتجاجُكمُ   غداً ، وجُلُّكمْ بالسيفِ قد صَفَقَه
الويلُ حَلَّ بكم ، إلا بمن لَحِقَه   صيرتموه لأرماحِ العِدَا دَرَقَه
يا عينُ فاحتفلِى طولَ الحياةِ دَماً   لا تبك ولدا ولا أهلاً ولا رفقه
لكنْ على ابنِ رسولِ اللّهِ فانسكبى   دماً وقيحاً ، وفى أثريهما العلَقه(١)

* * *

وبيتين اثنين ، فى رثاء زوجها مصعب بن الزبير :

فإن تقتلوه تقتلوا الماجدَ الذى   يرى الموتَ إلا بالسيوفِ حَراما
وقبلَك ما خاضَ «الحسينُ» منيةً   إلى القوم حتى أوردوه جِمَاما

وهى أبياتٌ لا تكفى لِعَدِّها شاعرة !
غير أنى لا أكاد أرتاب فى أن الرواة قد أسقطوا لها شعرا آخر فى غير الرثاء !

فتلك شنشنة نعرفها من أخزم !
إنهم قصروا المجالَ الفنى للمرأة العربية على الرثاء ، وقلَّ أن اعترفوا بها شاعرةً غير راثية .

---

(١) أمالى الزجاج : ١٠٩ .

فعلوا ذلك مع الخنساء !

وفعلوه مع ستين شاعرة أخرى من شواعر العرب ، ذيّلوا بمراثيهن ديوانَ الخنساء المطبوع فى بيروت .

وفعلوه مع « الرباب » بنت امرىء القيس أم سكينة . قالوا : هى شاعرة ، ثم لم يحفظوا لنا من شعرها غير بضعة أبيات فى رثاء زوجها ..

وبيتين آخرين رثته بهما أيضا حين سيقت مع ركب السبايا الهاشميات ، إلى قصر ابن زياد . وقد نقلناهما فى الحديث عن كربلاء .

وما بمثل هذه الأبيات ، تُعَدُّ « الربابُ » شاعرةً كما وصفوها ! ..

على أن التاريخ الأدبى ، وإن أسقط شعر « سكينة » فى غير الرثاء ، فقد اعترف لها من ناحية أخرى بمكانة لعله لم يعترف بمثلها لسيدة غيرها فى مختلف عصوره ، حين ألقى إليها مقاليد الحكم بين أمراءِ الفن فى الشعر والغناء .

وأقرّ لها بالسيطرة الأدبية على عصرها فى مجال النقد الأدبى ، حين فرضت عليه شخصيتَها الفريدة ، وبهرته بذوقها الفنى الأصيل الذى هيّأ لها أن تكون ذاتَ بصَرٍ دقيق بفنِّ القول ، وفقهٍ لبيان العربية فى التعبير .

* * *

وكانت الأصالة هى الطابع المميز لها ذوقا وحِسّاً ، بقدرِ ما كانت الطابع المميزَ لها نسَباً وجَمَالاً وأناقة .

وليس صحيحاً أن أمراء الشعر فى زمانها إنما أقروا لها بالسيطرة الأدبية خضوعا لجبروت جمالها وهيبة شرفها ، كما ذهب الدكتور زكى مبارك ، فما لجمالِ الأنثى جبروتٌ فى سِنِّ الكهولة والشيخوخة ، وهى بعدُ لم تنفردْ بالحسن دون بناتِ جيلها ، بل شاركتْها فيه أخريات يكفى أن نذكر منهن أختَها « فاطمة بنت الحسين » التى قيل فيها ، يوم اختارها أبوها رضى الله عنه لابن عَمِّها الحسن : « إن امرأة مردودتُها سكينة ، لمنقطعةُ القرين فى

الحُسن » . كما نذكر ضرتّها عائشة بنت طلحة ، التى خلبتْ ألبابَ الشعراء فى عصرها ، والتى ذكروا أن أبا هريرة رضى الله عنه قال فيها : سبحاَن الله ، لكأنها من حُور الجنة . . .

كذلك لم يكن شرف السيدة سكينة هو الذى ألقى إليها مقاليدَ الحكم الأدبى وأخضع لها الشعراء ، وإلا لشاركتها فى مكانتها هذه ، أختُها فاطمة وبناتُ عمِّها الحسن ، حفيدات الزهراء مثلها الطالبيات الهاشميات .

وإنما كانت سيطرتها الأدبية ترجع فى الحقيقة إلى عُلّو كعبها فى فنِّ القول ، وحساسيتها المرهفة فى ذوق الشعر ، وإدراكِها البصيرِ لمواقع التأثير وأسرارِ البلاغة والبيان .

ولولا أنها كانت نادرةَ عصرِها بَصَرا بالشعر وفقهاً للعربية ، لما اعترف لها التاريخُ الأدبى بمثل تلك المكانة ، وهو الذى أسقط شعرَها من ديوان الأدب ، وجحدَ شاعريتهَا وشاعريةَ الإناث مثلِها ، إلا أن تكُون راثية !

وبين أيدينا خَبَرٌ ، قد يوضح لنا السببَ الذى من أجله أُلقيت إلى السيدة سكينة مقاليدُ النقد الأدبى فى عصرها . نصُّ الخبر :

« أنشِدت سكينةُ بنت الحسين قولَ الحارث بن خالد ، فى وصفِ النساء ، فى الحج :

ففَرغْنَ من سبعٍ وقد جَهِدَتْ   أحشاؤهـــن موائــل الخُمُـــرِ

فسألت سكينة مَن بالمجلس : أحَسَنٌ عندكم ما قال ؟ . . . قالوا : نعم .

فقالت : وما حُسنه ؟ ! ... فواللّهِ لو طافت الإبل سبعاً لجهدِتْ أحشاؤها »[1] .

لقد غاب عنهم ما لم يَغِبْ عن السيدة سكينة ، وفاتهم أن ينتبهوا إلى ما انتبهت إليه بحِسِّها المرهَف !

---

(١) الاغانى : ٣٢٧/٣ دار الكتب .

والقدْرُ الذى وعاه لها التاريخُ الأدبى فى النقد والتحكيم والموازنة ، يكفى للدلالة على منزلتها الرفيعة فى المجتمع الأدبى ، ويقدم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية ، تُفسِّر لنا ، لِمَ آثرها عصرُها بهذه المنزلة التى لا نعرف أنهم اختلفوا فيها .

وهذا (كتاب الأغانى) وفيه ما فيه من أخبار ومروياتٍ كتلك التى سمعناها ، ينقل روايةً عن محمد بن سلام ، تؤازرها روايةٌ مثلُها عن عَمَرَ بن شَبّة : « اجتمع جرير والفرزدق وكُثَيِّر وجميل ونُصَيب ، فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنه ، فمكثوا أياما ثم أذِنَتْ لهم فدخلوا عليها ، فقعدتْ حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامَهم . ثم أخرجتْ وصيفةً لها قد روت الأشعارَ والأحاديثَ ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال لها : هأنذا . قالت : أنت القائل ؟

هما دَلّتانى من ثمانين قامـةً ... كما انحطَّ بازٌ أقتمُ الريشِ كاسِرُه
فلما استوتْ رِجلاىَ بالأرض قالتا : ... أحَىٌّ يُرَجَّى أم قتيـلٌ نُحـاذِرُه
فقلتُ: ارفعوا الأمراسَ لا يَشعروا بنا ... وأقبلتُ فى أعجازِ ليـلٍ أُبـادِرُه
أبـادِرُ بَوَّابَيْـنِ قـد وُكِلا بنـا ... وأحمرَ من ساجٍ تَبُصُّ مسامرُه !

قال : نعم ...

قالت : فما دعاكَ إلى إفشاء سِرِّها وسِرِّك ، هلا سترتَ عليك وعليها ؟ خذ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك ...

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ برسالتها فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا .

قالت : أنت القائل ؟

طرقَتْكَ صائدةُ القلوب وليس ذا ... حين الزيـارةِ فارجعـى بسَلامِ
تجرى السِّواكَ على أغَرَّ كأنـه ... بَرَدٌ تحدَّر مـن متـونِ غَمـامِ
لو كان عهدكِ كالذى حدثِتنـا ... لـوَصلتِ ذاك وكان غيـرَ لمامِ
إنى أواصلُ مَنْ أردتُ وصالَـه ... بحبـالٍ لا صَليـفٍ ولا لـوامِ

قال : نعم ...

قالت : أوَلاً أخذتَ بيدِها وقلتَ لها ما يقال لمثلِها ؟ ... أنت عفيفٌ وفيكَ ضعف . خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك ...

« ثم دخلتْ إلى مولاتها وخرجتْ فقالت : أيكم كُثَيِّر ؟ ... قال : هأنذا . قالت : أنتَ القائل ؟

وأعجبنى يا عَزَّ منكِ خلائـقٌ   كرام اذا عُـدَّ الخلائقُ ، أربـعُ
دُنُوُّكِ حتى يدفع الجاهلَ الصِّبا   ودفعُك أسبابَ المُنى حين يَطمعُ
فواللّهِ ما يدرى كريمٌ مُمَاطـل   أينساكِ إذ باعدتِ أو يتَصدَّعُ !

قال : نعم ...

قالت : ملحت وشكلتَ ، خذ هذه الثلاثةَ الآلافَ والحقْ بأهلك ...

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجت فقالت :أيكم نُصَيب ؟ ... قال : هأنذا . فقالت : أنت القائل ؟

ولولا أن يُقـال : صَبـا نُصَيْبٌ   لقلتُ : بنفسىَ النشَأُ الصغـارُ
بنفسى كـلُّ مهضومٍ حَشَاهـا   إذا ظلَـمتْ فليس لها انـتصارُ

قال : نعم ...

فقالت : ربيتَنا صغاراً ومدحتَنا كبارا . خذْ هذه الألفَ والحقْ بأهلِك .

« ثم دخلتْ على مولاتها وخرجتْ فقالتْ : يا جميلُ ، مولاتى تُقرئك السلام . وتقول لك : واللّهِ ما زِلتُ مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولَك :

ألاليت شِعرى هل أَبيتنَّ ليلـةً   بوادى القرى ، إنى إذَنْ لَسَعِيد
لكـلِّ حـديثٍ بـينهن بشاشةٌ   وكـلُّ قتيـلٍ عندهـن شهيـدُ

جعلت حديثَنا بشاشة ، وقَتلانا شهداء . خذ هذه الألف دينارٍ والحقْ بأهلك[1] .

---

(١) الاغانى : ١٤/١٦٦ وما بعدها ــ ساسى .

وليس يفوتنا ما للنص من دلالات :

منها ، أن أمراء الشعر فى عصرها كانوا يجتمعون فى دارها فتأذن لهم وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت وصيفةً لها تنقل إلى كل منهم مختارَها من شعره ورأيها فيه . فعلتْ ذلك مرةً بعد مرة . فكلما فرغتْ من شاعر دخلتْ على مولاتها وعادت برسالة منها إلى شاعر آخرَ . . وهى السيدة التى وصفها الدكتور زكى مبارك بالتبذلِ فى مخالطة المغنين وملابسة الشعراء . . .

وقد أنكرتْ على « الفرزدق » إفشاء سِرِّه وسرِّ صاحبته ، والأخبار تزعم مع هذا أنها طربت لغناءِ الغريض بشعر « عُمَرَ » فيها ، وقد أفشى به سرَّ ليلةِ الصورَين !

وأثنت على « جرير » لعفة شعره ، وإن أنكرت ضعفَه وأسلوبَه فى مخاطبة زائرته .

وأعجبتْها أبياتُ « كُثَيِّر » فى وصفِ صاحبتِهِ ، لما لمحتْ فيها من دِقة التعبير عن عِزَّةِ الأنثى ، وطبيعة حواء ...

* * *

وخبرٌ آخر ننقله من (الأغانى) على علاته ، وهو صريحٌ فى احتكام الشعراء أو رُواتِهم إليها لما يعرفون من عقلها وبصرها بالشعر . قالوا : « اجتمع بالمدينة راويةُ جرير ، وراويَةُ كُثَيِّر ، وراويةُ جميلٍ ، وراويَةُ نصيب ، وراويَةُ الأحوص ، فافتخر كلُّ رجلٍ منهم بصاحبه وقال : صاحبى أشعر .

« فحكَّمُوا سكينةَ بنت الحسين بن على عليهما السلام ، لِمَا يعرفونه من عَقْلِها وبصرِها بالشعر ، فخرجوا يتهادون حتى استأذنوا عليها فأذِنَتْ لهم ، فذكروا لها الذى كان من أمرهم فقالت لرواية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتْكَ صائدةُ القلوب وليسَ ذا   وقتَ الزيـارة فارجعـى بسلامِ

أى ساعة أحلى من الطروق ؟ ... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبَّح شعره ...

« ثم قالت لراوية كثير : أليس صاحبُك الذى يقول :

يقر بعينى ما يقرُّ بعينِها   وأحسَنُ شيءٍ ما به العينُ قَرَّتِ

أفيُحب صاحبُك أن يكون أنثى ؟... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبّح شعره ...

« ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبُك الذى يقول :

فلو تركتْ عقلى معى ما طلبتُها   ولكنْ طِلابِيهاَ لما فَاتَ مِنْ عَقْلى

فما أرى بصاحبِك من هوى ، إنما يطلب عقلَه ! ... قبّح اللّهُ صاحبَك وقبّح شعرَه ...

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهِيمُ بدَعدٍ ما حَييتُ فإن أَمُتْ   فوا حَزَنا مَنْ ذا يَهيمُ بها بعدى

فما أرى له همةً إلا فيمن يتعشقُها بعده ! .. قبّح الله صاحبَك وقبّح شعرَه ... ألا قال :

أهيمُ بدعدٍ ما حييتُ فإنْ أمتْ   فلا صلحتْ دَعْدٌ لذى خُلّةٍ بعدى ؟

ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبُك الذى يقول :

من عاشقين تراسَلا وتواعدا   ليلاً إذا نجمُ الثريا حَلّقا

بَاتَا بأنْعَمِ ليلةٍ وألَذّها   حتى إذا وضح الصباحُ تَفَرَّقا

قال : نعم ...

قالت : قبَّحه الله وقبّح شعرَه ! . . . ألا قال تعانقا ؟ . . . »(1)

ودلالة النص ، أن سكينة كان إليها الاحتكامُ إذا اشتجر الخلافُ بين رواة الشعراء أى أصحابهم أشعَرُ ، وأنها كانت واعية للشعر حافظة ، تعرف مآخذَ الشعراء وتقسو فى محاسبتِهم على عَثَراتهم . ولفتاتُها النقدية دقيقةٌ بارعة ، وهى جديرة بأن تعينَ على فهمِنا لعصرِ سكينة الأدبى ، على ضوء الاعتبارات الفنية التى كانت الناقدةُ الأولى للعصرِ ، تصدر عنها أحكامها فى ذوقِ الشعر ، ووزنِ الشعراء .

---

(1) الاغانى : ١٤/١٦٦ ساسى .

ولم يكن إعجابها بشاعرٍ ، يَحميه من قسوتها فى مؤاخذته ، فهذا « جرير » الذى أنكرتْ عليه ضعفَه وسوء أدبه فى مخاطبة النساء حيث قال :

طرقَتْك صائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيارةِ فارجعى بسلامِ

كانت ربما قدمتْه على الفرزدق ، وصارحت الفرزدق برأيها فيهما دون مجاملة : حدَّث الشعبى : « أن الفرزدقَ خرج حَاجّا ، فلما قضى حجّه عدل إلى المدينة فدخل إلى سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما فسَلّم ، فقالت له : يا فرزدق ، مَن أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، أشعرُ منك الذى يقول :

بنفسى مَن تَجَنُّبه عزيزٌ علىَّ ومَن زيارتُه لِمَامُ
ومَنْ أُمسِى وأُصبِحُ لا أراه ويطرقُنى إذا هجع النيامُ

فقال لها : واللّهِ لو أذنتِ لى لأسمعتُك أحسنَ منه . ثم أمرتْه فانصرف . فلما كان الغدُ استأذَن عليها فسألتْه : يا فرزدق ، مَن أشعرُ الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ! صاحبُك « جرير » أشعرُ منك حيث يقول :

لولا الحياءُ لهاجنى استعبارُ ولَزُرْتُ قبرَكِ والحبيبُ يُزارُ
كانت إذا هَجَر الضجيعُ فِراشَها كُتِمَ الحديثُ وعَفَّت الأسرارُ
لا يلبث القُرَناءُ أن يتفرقُوا ليلٌ يكرُّ عليهمُ ونَهارُ !

فقال : واللّهِ لئن أذنتِ لى لأسمعتُك أحسنَ منه ، فأمرته فانصرف . ثم عاد إليها فى اليوم الثالث ، فأعادتْ سؤالَه : يا فرزدق ، من أشعر الناس ؟

قال : أنا .

قالت : كذبتَ ، صاحبُك أشعرُ حيث يقول :[1]

إن العُيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ قتلننا ثم لم يُحْيين قَتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَرَاك به وهُنَّ أضعفُ خلقِ اللّهِ أركانا

....

فإذا كان هذا الموقف حدث قبل اجتماع الفرزدق مع جرير فى ضيافتها ، فذلك هو ما قلناها من أن إعجابها بالشاعر وتفضيلها إياه ، لم يكن يجعلها تغض البصرَ عن سقطاته . وأما إن كانت مؤاخذتُها جريرا قد سبقتْ زيارةَ الفرزدق لها ، وسماعَه ما سمع من تفضيلها « جريرا » عليه ، فهذا ما يدل على أن السيدة الناقدة ، لم تكن تحكمُ على الشاعر بشعره جملة ، أو تتشبثُ برأى لها فيه لا تعدل عنه ، أخطأ جرير ، فقالت له : فيكَ ضعف ، ثم لم يمنعها ضعفُه فى بعض شعره من الحكم له على الفرزدق .

* * *

وروى أبو الفرج فى (أغانيه) خبرا له دلالتُه على شدة شغفها بالشعرِ وحرصِها على السمو به إلى فنيةٍ جمالية . حدَّث المدائنى : أن سكينة « كانت ذاتَ ليلةٍ تسير ، فسمعتْ حادياً يحدو فى الليل يقول :

* لولا ثلاثٌ هنَّ عيشُ الدهرِ *

فقالت لقائِدِ رَكبها : الحقْ بنا هذا الرجل حتى نسمَعَ منه ما هذه الثلاثُ . فطال طلبُهُ لذلك حتى أتعبَه . فقالت سكينةُ لغلامٍ لها : « سِرْ أنت حتى تَسمع عنه » . فسار الغلام سريعا ثم عاد إلى مولاته ، فقال لها : سمعته يقول :

* الماءُ ، والنومُ ، وأم عَمْرِو *

فقالت : قبّحه الله ، أتعبنى منذ الليلة ! »[1]

---

(١) الاغانى : ٨ / ٣٨ ط الدار .
والأبيات فى (ديوان جرير) ط الصاوى ، وروايته : * يصرعن ذا اللب حتى لا صراع به * .
(١) وفيات الاعيان ١ / ٢١١ .
والاغانى : ٢١ / ١٠١ ساسى .

وإنما أنكرت أن يخلط بين حاجات الجسم المادية ، وحاجة القلب والوجدان . وأن تستوى عنده أم عمرو ، والماءُ والنومُ ، بل تتأخر عنهما .

وتشهد نادرة لها طريفة ، نقلها « ابن خلكان » على أنها كانت مرهفة الحس الشعرى ، دقيقة اللمح لِسر القول ودلالته على صدق المعاناة . « يُروَى أنها وقفت على عروة بن أُذَيْنَة[1] وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، وله أشعار رائقة ، فقالت له : أنت القائل ؟

إذا وَجَدْتُ أُوَارَ الحبِّ فى كبدى ... ذهبتُ نحوَ سقاءِ الماءِ أبتـرِدُ[2]

هَبنى بردت ببردِ الماء ظاهرَة ... فمَنْ لِنَارٍ على الأحشاءِ تتَّقِدُ

قال : نعم ...

قالت : وأنت القائل ؟

قالت ، وأبثثتُها سِرِّى وبُحْتُ به ... قد كنتَ عندىَ تحتَ السترِ فاستترِ

ألستَ تُبصِرُ مَنْ حولى؟ فقلت لها ... غَطِّى هواكِ وما ألقى على بصرى

قال : نعم ...

فالتفتت إلى جَوارٍ لها كُنَّ حولَها وقالت : هُنَّ حرائرُ ، إن كان هذا الشعرُ خرجَ من قلبٍ سليم قط ![3] .

وإنما أنكرت أن يزعم « عروةُ » ، وهو من كبار الصالحين ، أنه قال هذا الشعرَ على مذهب الشعراء !

وإنها لَتُحِس فيه بذوقِها المرهَف نبضَ قلبٍ جريحٍ أضناه الحبُّ ، وتدرك

(١) أبو عامر المدنى ، توفى حوالى سنة ١٣٠ هـ . وكان من جلة علماء المدينة ومن شعرائها المقدمين .

انظر بعض أخباره وشعره فى (الاغانى : ١ / ١٠٥) ساسى والمؤتلف والمختلف للآمدى : رقم (١٢٦) .

(٢) رواية (سمط اللآلى : ١ / ١٣٦) للشطر الثانى من البيت الأول :

* أقبلت نحو سقاء الماء أبترد *

وجىء فيه بكلمة السيدة سكينة دون ذكر اسمها ، وعلق الأستاذ الميمنى على هامشه : هذه هى السيدة سكينة ، وهى السائلة عن الشعر كما فى (المصارع ٣١٣) و (المرتضى ٢ / ٧٣) .

(٣) وفيات الاعيان : ١ / ٢٩٨ ـــ وشذرات الذهب ١ / ١٥٤ .

بوجدانها الذكى ، أن وراء مثل هذا الشعر معاناةً صادقة ...

وكانت جديرةً عندى بأن تدرك كذلك صدقَ المعاناة وحرارةِ التفجع فى قول « عروة » يرثى أخا له اسمهُ بكر :

سَرَى هَمِّى ، وهَمُّ المرءِ يسرى   وغاب النجمُ إلاَّ قِيدَ فِتْـرِ
أراقبُ فى المَجَرَّةِ كلَّ نَجْمٍ   تعرض فى المَجرَّةِ كيف يجرى
لِهَـمٍّ مـا أزال لـه قرينـا   كأن القلبَ أُسْعِرَ حَرَّ جَمْرِ
على بَكْرٍ أخى ، ولّى حميدا   وأىُّ العيشِ يصلُح بعْدَ بكرِ ؟

لكنها لما سمعت هذا الشعر قالت : « من يكون بكرٌ هذا ؟ » فوُصِفَ لها فقالت : أهو ذلك الأسَيِّد ــ مصغر أسود ــ القصير الذى كان يمر بنا ؟ ... قالوا : نعم ... قالت : « لقد طاب بعدَه كلُّ شىء حتى الخبز والزيت ! »[1] أو كما جاء فى الأغانى : « كلُّ العيشِ واللّهِ يصلُح ويحسنُ بعدَ بَكرٍ ، حتى الخبز والزيت »[2] .

وأَعْوَزها هنا التعاطفُ الوجدانى ، يشجيها بكلمة أخٍ فى رثاء أخيه ، مهما يكن هذا الأخ فى نظر الناس قميئا أو مغمورا .

وعلى كلِّ حالٍ فسكينة تتلقى الشعرَ بذوقها الخاصِّ وتحكم عليه بمقدارِ ما يؤثر فيها ويقع من وجدانها ...

وهكذا تُمَثِّلُها الأخبارُ ، وقد عُقِدَتْ لها إمامةُ النقد فى عصرها ، واشتدتْ فى رقابتها الأدبية على الشعراء ، فمضتْ تكشف فى صراحةٍ قاسية عن مَواضع المؤاخذة ، وتهدى إلى أسرارِ التعبير ، وتُوَجِّهُ إلى ضرورة التزام مقومات الشعر فى رأيها ، من عُمْقِ المعانَاةِ ، وعاطفية التناول ، وصدق الوجدان ، والسمو بالشعر إلى أفقه الجمالى ، بعيداً عن « الماء ، والنوم ، وأم عمرو » !

* * *

(٢) الاغانى : ٧ / ٦٣ دار الكتب .

ولسنا بحيث نؤاخذها على جزئية أحكامها ، واتجاهها بالنقد إلى اعتبار البيت أو الأبيات مناطَ حُكم على الشاعر ، فلم يكن عصرُها ــ فيما عَرَفَه مؤرخو أدبنا ــ ينظر فى القصيدة من حيث هى وحدة متكاملة .

وليس يفوتنا هنا أن نلحظ أن « سكينة » فيما نُقِلَ إلينا من ملاحظها النقدية ــ لم تتعرض قط لشعرِ المدح ، فهل تراها أسقطتْه من حسابها لما تعلم من كثرة الزيف فيه وغلبَة النفاق عليه ؟ ...

ليس هذا عندنا ببعيد ، وقد كان من بين الذين تعرضتْ لنقد شعرهم ، جرير ، والفرزدق ، ونصيب ، وكثير ، ولهم فى المدح قصائد مشهورات ، ولم نرها مع ذلك روتْ لأحدِهم بيتا من مدائحه أو ناقشتْه فيه .

وإنما كان اهتمامُها كله بما قالوا فى الحب ، وكأنها كانت ترى فيه ما لا ترى فى المدح ، من نبض القلبِ وحِسِّ الوجدان ، وتعدُّه المقياسَ الدقيقَ لامتحانِ أصالةِ الشاعرية وصدقِ المعاناة ...

* * *

المشهد الأخير

امتد العُمرُ بالسيدة سكينة حتى شارفت العقدَ الثامنَ من حياتها ..

وليس فيما لدينا من أخبار ومرويات ، ما يشير إلى مرض ألَمَّ بها قبيل الموتِ أو يتحدثُ عن حالها فى أخريات أيامها ، وإنما اقتصر الخبرُ على ما كان من أمرِها فيما بين وفاتها إلى أن دُفِنَ جسدُها فى ثرى « طيبة » مدينة جدِّها النبى عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذى كان ، هو المشهد الأخير من حياتها الحافلة ، وقد أشار إليه أكثر الذين أرّخوا لسيرتها ، منهم ابن سعد فى (الطبقات الكبرى ٨ / ٤٧٥) من طريق ابن السائب الكلبى ، أنها « ماتت وعلى المدينة خالد بن عبد الملك — وقع فى الطبعة : ابن عبد الله — بن الحارث ، فقال : انتظرونى حتى أصلى عليها . وخرج إلى البقيع فلم يدخل حتى الظهر وخشوا عليها أن تغير فاشتروا لها كافورا بثلاثين دينارا . فلما دخل خالد أمر شيبة بن نِصاح — المدنى مولى أم سلمة ، القاضى القارىء — فصلى عليها » .

لكن أبا الفرج الاصبهانى ، وصف المشهد الأخير لرحيل السيدة سكينة ، قال روايةً عن جماعةٍ من شيوخ بنى هاشم :

« إنه لم يُصَلَّ على أحدٍ بعد رسول الله ﷺ بغير إمام ، إلا على سكينة بنت الحسين رضى الله عنه . فإنها ماتت وعلى المدينة خالدُ بن عبد الملك . فأرسلوا إليه فآذنوه بالجنازةِ وذلك فى أولِ النهار فى حرٍّ شديد . فأرسل إليهم : لا تُحدِثوا حدَثاً حتى أجيء فأصلى عليها . فوُضِع النعشُ فى موضِع المصَلّى على الجنائز ، وجلسوا ينتظرونه حتى صار الظهر ، فأرسلوا إليه فقال :

لا تحدثوا فيها شيئا حتى أجيء . فجاءت العصرُ ثم لم يزالوا ينتظرونه حتى صُلِّيت العشاء ، كلّ ذلك وهم يرسلون إليه فلا يأذن لهم ، حتى حَلّت العتمة ولم يجئ .

ومكث الناسُ جلوسًا حتى غلبَهم النوم ، فقاموا فأقبلوا يُصَلون عليها جمعا جمعا وينصرفون . فأمر عليٌّ بن الحسين رضى الله عنه مَن جاءه بطيبٍ ، فأتى بالمجامرِ فوُضِعتْ حول النعش ، ونهض محمدُ بن عبد الله العثمانى ، فأعطَى عَطّارا كان يعرف عنده عُوداً فاشتراه منه بأربعمائة دينار . ثم أوقد حولَ السرير حتى أصبح وقد فُرغ من العُود . فلما صلّيت الصبحُ ، أرسل خالدٌ إليهم أن صَلُّوا عليها وادفنوها »[1] .

وكأنما أراد القدرُ ألا تمضى الهاشميةُ الحسناء عن الدنيا ، دون مشهدٍ ختامى مثيرٍ ، لقصتها الحافلة !

* * *

ولكن متى توفيت السيدة « سكينةُ » على وجه التحديد ؟

هنا نعود فنضرب فى تيه من تناقض الأخبار وتعارض المرويات ...

فالمشهد الذى نقلناه ، فيه نصٌّ على أنها توفيت ، وخالدُ بن عبد الملك بن الحارِث والٍ على المدينة ، وأن أخاها زين العابدين « على بن الحسين » قد شَهِدَ وفاتَها ، وكان هو الذى أشرف على تجهيزها لمثواها الأخير ..

والإمام زين العابدين قد توفى بالمدينة سنة أربع وتسعين على الأرجح : عند ابن سعد ، فى الطبقة الثانية من تابعى المدينة (الطبقات ٥ / ٢٢١) وابن خلكان فى (الوفيات ١ / ٤٩٥) وعلى سنة ٩٤ اقتصر المصعب الزبيرى فى (نسب قريش : ٥٨) والطبرى فى (التاريخ) سنة أربع وتسعين قال : وهى سنة الفقهاء ، مات فيها عامة فقهاء أهل المدينة ، وأولهم على بن الحسين عليهما

(١) الأغانى : ١٧٠/١٤ ساسى .

السلام ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث . وكذلك أرخه فى وفيات سنة أربع وتسعين الذهبى فى العبر ، فى ليلة الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول منها ، بالكوفة . وجمع الحافظ ابن حجر مختلف الأقوال فى وفاته عليه السلام ، ونظر فيها وقابلها ، فرجح عنده وفاته سنة أربع وتسعين أو خمس . . .[1]

فلو صَحَّ أن الإمام شَهِدَ وفاةَ أختِهِ السيدة سكينة ــ على رواية الأغانى ومن تابعه ــ لكان مقتضى هذا ، أنها توفيت قبل سنة ٩٤ هـ ، إذا أخذنا بأقصى الأجلَين ...

لكن خالدَ بن عبد الملك ، قد كان والياً على المدينة سنة ١١٧ هـ ...

وقد عزله عنها هشامٌ سنة ١١٨ هـ ، كما فى (تاريخ الطبرى) ...

وفيه كذلك ، أن سكينة توفيت سنة ١١٧ هـ ، قال فى حوادث سنة ١١٧ هـ : « وحجَّ بالناس فى هذه السنة ، خالدُ بن عبد الملك ، وكان العاملَ فيها على المدينة ... وفيها توفيت سكينةُ ابنة الحسين بن علىٍّ » .

ولا نعلم خلافا فى وفاة السيدة سكينة فى هذا التاريخ : ١١٧ هـ .

فكيف شهد أخوها الإمامُ زين العابدين وفاتها ، ولا خلافَ فى أنه لم يدرك القرنَ الثانى ؟

والفرقُ بين تاريخ وفاته ، وتاريخ وفاة السيدة سكينة ، يبلغ ثلاثة وعشرين عاماً إذا أخذنا بالقول الراجح فى وفاته ، وقد يصل إلى رُبْعِ قرنٍ ، على قول من قال بوفاته سنة ٩٢ هـ !

وهو مدى طويل ، كان يجب أن يوقف عنده ، لكنا لا نعجب لمروره هكذا فى يسر ، بغير محاولةٍ للنظر فيه . فليس هذا ، على أى حال ، بأعجب مما

(١) تهذيب التهذيب ٣٠٤/٧ (٥٢٠) .
(٢) طبقات الأولياء : ٢٧/١ .

فى طبقات الأولياء للشعرانى (١/٧) من وفاة الإمام زين العابدين سنة ٩٩ هـ ، عن ٥٨ عاما أى أنه ولد سنة ٤١ هـ .

وفى الصفحة نفسها ، بل فى الفقرة التالية ، يقول بوفاة « الإمام محمد الباقر ابن زين العابدين ، عام ١١٧ هـ عن ٧٣ عاما » .

أى أنه ولد سنة ٤٤ هـ . وأبوه الإمام زين العابدين فى الثالثة من عمره !

ولم يفسر لنا المؤلف أو الناسخ والطابع ، كيف أنجب الإمامُ زين العابدين ، وهو فى الثالثة من عمره ، ابنَه الإمام محمد الباقر !

ولو قال إنها إحدى كرامات الإمام زين العابدين ، لتركناها له ، واسترحْنا .. لكنه لم يقلها !

* * *

ونعود إلى موضوعنا ، فلا نرى حتماً علينا أن نقف طويلا لنحقق مسألة شهود الإمام زين العابدين موت أخته السيدة سكينة ، فمن الواضح عندنا أن ورود اسمه رضى الله عنه ، فى مشهدها الأخير ، خطأ لا ندرى أهو من الراوى للخبر ، أم من الناقل ، أم من الناسخ !

ثم لا خلاف فى وفاتها رضى الله عنها سنة ١١٧ هـ ، بمدينة جدِّها النبى ﷺ ، وخالدُ بنُ عبد الملك بن الحارث بن الحكم ، عاملٌ على المدينة ، لهشام بنِ عبد الملك بن مروان ..

واستقر بها المطافُ آخرَ الأمرِ فى ثَرى « طيبة » مدينة جدها الرسول عليه الصلاة والسلام ، تاركة من بعدها كلمةَ الحقِّ فى كلِّ ما يقال فيها أو يُرْوَى عنها ، أمانةً صعبة فى حافظة الزمن الواعية ، وضمير التاريخ المنصف الأمين .

﴿ رَحْمَةُ اللّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيكُمْ أهْلَ البَيْتِ ، إنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

صدق الله العظيم

المحتويات

الموضوع	صفحة
هذه الطبعة	٧ ـ ٩
فى هذا المجلد الجامع	١١
الكتاب الأول	
أم النبى	١٣
مناجاة	١٥
المبحث الأول	
سيدة الأمهات	١٧
هذه السيرة ومصادرها	١٩
أنوثة وأمومة	٢٤
أمهات الأنبياء	٣٨
أم اسماعيل	٣٩
أم موسى	٤٥
أم المسيح	٥٣
المبحث الثانى	
بيئة . . ووراثة	٥٧
البيت العتيق	٥٩
بنو زهرة	٧٤

الموضـــوع | صفحة

المبـحث الثالث

زهـرة قريـش ٨١
العروس الزهرية ٨٣
فتى هـاشم ٨٥
العـرس ٩٤
البشـرى ١٠١

المبـحث الرابع

العروس الأرمـلة ١٠٧
فـراق ١٠٩
رسـول إلى يـثرب ١١٣
غائب لا يئـوب ١١٥

المبـحث الخامس

أم اليتـيم ١١٧
الجنـين ١١٩
الوليـد ١٣٣
الرضـيع ١٤١

المبـحث السادس

الرحـيل ١٥١
سفر إلى يـثرب ١٥٣
الـوداع ١٥٨
عـودة اليتـيم ١٦١

الموضـــوع	صفحة

المبـحث السابع

الخـالدة ١٦٣
ذكرى باقيـة ١٦٥
طـيف لا يغيب ١٧٠
عـبر الأجيـال ١٧٥

الكتـاب الثانى

نسـاء النبى ١٧٩
مقدمـــة ١٨١

البـــاب الأول

الزوج . . والبيت ١٨٥
فى بيت الزوجية ، مع الضرائر ١٩٦

البـــاب الثانى

أمهات المؤمنين رضى الله عنهن ٢٠١
(١) خديجة بنت خويلد
أم المؤمنين الأولى ٢٠٣
ذكرى أليمة ٢٠٥
لقـــاء ٢٠٩
زواج سـعيد ٢١١
مع المصطفى صلى الله عليه وسلم فى ليلة القدر .. ٢١٧
عـام الحزن ٢٢٣
ملء الحيـاة ٢٢٦

الموضـــوع	صفحة

(٢) **سـودة بنت زمعة العامـرية**

المهاجرة أرملة المهاجر ٢٣٣
وحشـــة ٢٣٥
هجـرة وتبرمـل ٢٣٩
وهبت ليلـتى لعائشـة ٢٤١

(٣) **عائشـة بنت أبى بكر**

حبيبة المصطفى ، الصديقة بنت الصديق ٢٤٧
الصـــهر الـــكريم ٢٤٩
مـــألوفة ٢٥٤
الهجـــرة ٢٥٧
العـــروس ٢٦٦
الضـــرائر ٢٧٢
محنـة الإفـك ٢٨٠
العُـروةُ الوُثـقى ٢٨٨
الـــوداع ٢٩٢

(٤) **حفصـة بنت عمـر**

حافظة المصحف الشـريف ٢٩٧
الأرمـلة الشـابة ٢٩٩
السِـر المُـذاع ٣١٠

(٥) **زينب بنت خُزيمـة**

أم المســاكين ٣١٣

(٦) **أم ســلمة**

بنت زاد الركب ٣٢١

الموضوع	صفحة

العزة والجمال ٣٢٣

وحى . . . ومشورة ٣٣٣

الله من وراء هذه الأمة ٣٣٨

(٧) زينب بنت جحش

أكرمهن وليًا وسفيرًا ٣٤١

شريفة ومولى ٣٤٣

زواج بأمر الوحى ٣٤٦

وليمة . . وحجاب ٣٥٣

أكرمهن وليًا وسفيرًا ٣٥٦

وأطولهن يدًا ٣٥٨

(٨) جويرية بنت الحارث الخزاعية

سيدة بنى المصطفى ٣٦٣

الأسيرة الحسناء ٣٦٥

بركة العروس ٣٦٩

(٩) صفية بنت حُيى

عقيلة بنى النضير ٣٧٣

خربت خيبر ٣٧٥

رؤيا العروس وذكرياتها ٣٧٨

زوجى محمد ، وأبن هارون ، وعمى موسى ٣٨٣

الموضـــوع	صفحة

(١٠) أم حبيـبة

رملة أبى سفيان ٣٨٩

عودة المهاجرة ٣٩١

محنة فى الغربة ٣٩٣

خطبة من الحجاز ٣٩٦

بين الأب والزوج ٣٩٨

(١١) ميمونة بنت الحارث الهلالية

آخر أمهات المؤمنين ٤٠٧

« الأخوات مؤمنات » ٤٠٩

البقعة المباركة ٤١٥

(١٢) مــارية القبطيـة

أم ابراهيم ٤١٧

هدية من مصر ٤١٩

طيف وأمل ٤٢٣

بشرى ٤٢٥

الهلال الغارب ٤٣٠

وصية النبى صلى الله عليه وسلم بأهل مصر ٤٣٣

الكتاب الثالث

بنات النبى صلى الله عليه وسلم ٤٣٧

تقديم ٤٣٩

المبحث الأول

الأبوة فى المجتمع العربى ٤٤١

الأبوة فى الجاهلية ٤٤٣

الأبوة العربية ٤٥٠

الموضـــوع صفحة

المبـحث الثانى

الأنثى فى المجتمع العربى ٤٥٧
« وليس الذكر كالأنثى » ٤٥٩
« وإذا الموءودة سئلت » ٤٦٢
المثـل والقـدوة ٤٧٣

المبـحث الثالث

الأخوات الأربع ٤٧٩
البيت والأبوان ٤٨١
أبو البنـات ٤٨٧
الشـقيقان ٤٩٣
الشقيقات الأربع فى بيتهن الأول ٥٠٢
(١) زينب الكبرى ٥٠٧
زينب الكبرى ٥٠٩

(٢) رقية ذات الهجرة

عليها السـلام ٥٣٩
الخاطبـان ٥٤١
فى بيت أبى لهب مع حمالة الحطب ٥٤٦
النجـاة ٥٥٣
عودة إلى أم القرى ٥٦٦
الهجرة الثانية ٥٦٨
مأتم يوم النصر ٥٦٩

(٣) أم كلثوم

عليها السـلام ٥٧١

الموضوع	صفحة
(٤) فاطمة الزهراء	
أم أبيها عليها السلام	٥٨٧
الكتاب الرابع	٦٤٩
السيدة زينب عقيلة بنى هاشم	٦٥١
اهداء	٦٥٣
مدخل	٦٥٥
الفصل الأول	
فى بيت النبوة	٦٥٧
أباء وأجداد	٦٥٩
ظلال على المهد	٦٦٦
الصِّبا الحزين	٦٧١
الفصل الثانى	
عقيلة بنى هاشم	٦٧٩
عقيلة بنى هاشم	٦٨١
الفصل الثالث	
بطلة كربلاء	٦٨٩
نذر العاصفة	٦٩١
الهجرة	٧٠٤
دليل الركب	٧١١
محاولة وإصرار	٧١٦
نحو وادى الموت	٧٢٤
بطلة كربلاء	٧٣٢

الموضـــوع	صفحة

الـفصل الرابع

بعد المأســاة ٧٤٥
موكب الأسـرى ٧٤٧
أوبة الركب ٧٦١
الرحلة الأخـيرة ٧٦٤
طـالبة الثـأر ٧٦٨
الصـدى البـاقى ٧٧٣

الكتـاب الخامس ٧٨١

السيدة سُكينة بنت الإمام الحسين رضى الله عنهما ٧٨٣
تقديـم : الأستاذ أمين الخـولى ٧٨٥

الـفصل الأول

فى بيت النبـوة ٧٩١
وافـد غريب ٧٩٣
اللقـاء الأول ٧٩٥
فى بدء الطريق ٧٩٧
طفولة مرحـة ٨٠٣
فى دوامة الأحداث ٨١٥
مذبحة كربـلاء ٨٢٨
بعد العاصـفة ٨٤٠

الـفصل الثانى

فى بيت الزوجية ٨٤٣
مثل من مرويـاتهم ٨٤٥

الموضوع	صفحة
مع عبد الله بن الحسن	٨٥٢
مع مصعب بن الزبير	٨٥٥
مع ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى	٨٨٠
مع الأصبغ المروانى	٨٨٩
مع عبد الله بن عثمان الحزامى	٨٩٢
مع زيد بن عمرو العثمانى	٨٩٦
الفصل الثالث	
فى المجتمع	٩١١
شخصيتها الاجتماعية	٩١٣
المجتمع فى عصرها	٩٢٠
صورتها فى ذلك العصر	٩٢٣
عود على بدء	٩٤٠
كلمة يجب أن تقال	٩٥٩
الأديبة الناقدة	٩٦٥
المشهد الأخير	٩٧٧

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٨ / ٤٢٦٤